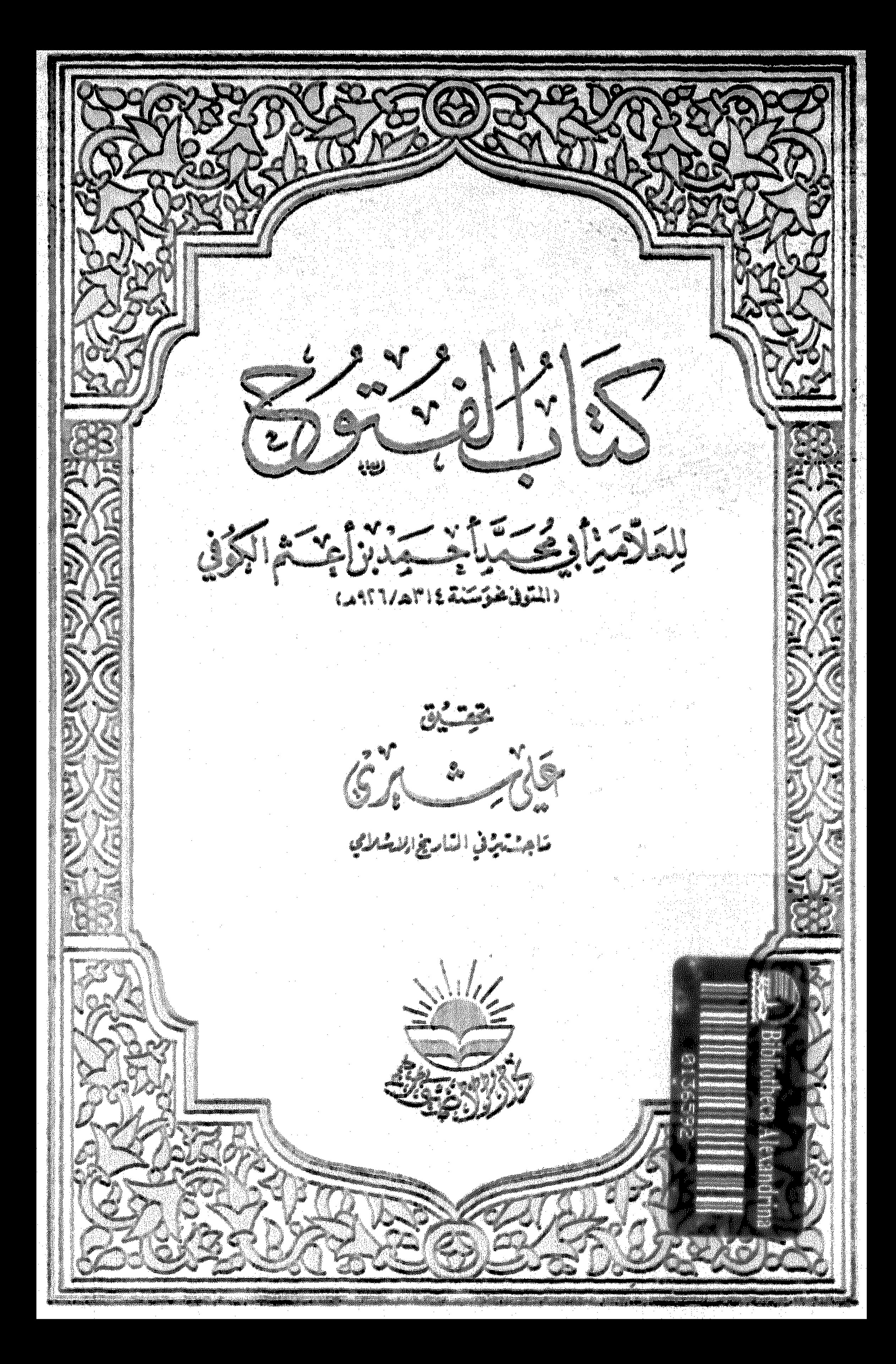


كتاب الفتوح
للعلامة أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي
(المتوفى نحو سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م)
تحقيق
علي شيري
ماجستير في التاريخ الإسلامي
دار الأضواء

كتاب الفتوح

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م



للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٢٥/٤٠ غبيري - أو ١١١٣/٦٦٤١ الحمرا.
تلكس ٢٣٧١٧ بيدر أو ٢٣٤٠٧ صادي - بيروت - لبنان

كتاب الفتوح

للعلامة أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي

(المتوفى نحو سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م)

تحقيق

علي شيري

ماجستير في التاريخ الإسلامي

الجزء السابع




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر كلام عبد الملك بن مروان على المنبر ، وإجابة الحجاج إياه ، وتولية الحجاج العراقين[1] جميعاً

قال : فتكلم عبد الملك بن مروان ، فقال : أيها الناس ! إن العراق قد تكدر ماؤها ، وظهر جدبها ، وملح عذبها ، وبدا وميضها ، واشتد ضرامها ، وكثر لهبها ، وثار قتامها[2] ، وعظم شررها ، وعلا أمرها ، وأبرق رعودها ، وكثر وقودها ، بحطب حيّ ، وجمر ذكي ، ودخان وهي ؛ وهؤلاء الأزارقة ، الطغاة المارقة ؛ قد اشتدت شوكتهم ، وتفرقت جرثومتهم ؛ حتى قد حذرهم[3] الصغار ، وليس يقوم لهم الكبار ؛ فمن ينتدب لهم منكم بسيف قاطع ، وسنان لامع ، وقلب جامع ؛ فيخمد نيرانهم وينتفع بها خطرها ويأمن الكاعب ، ويرجع الغائب ؛ ويصفو البلاد ، ويسلس القياد ؟ قال : فسكت[4] الناس وقام الحجاج فقال : أنا للعراق يا أمير المؤمنين ! فولني إياها ، فأنا الليث القمقام ، والليث الضرغام ، والسيف الحسام ، الهشام للعظام والهام ؛ وأنا فراج الصفوف ، وقاتل الألوف ، ومأوى القرى والضيوف ، وخلس الحمام والحتوف ، والقنا والسيوف . قال فقال له عبد الملك بن مروان : اسكت ! فلست هناك . ثم قال : أيها الناس ! إنه قد أطرقت الليوث ، وكاعت الديوث ، وتربصت البعوث ؛ ولست أرى أسداً يقصد لفريسته ، ولا ذئباً يسمو نحو بغيته ، ولا نمراً يخرج من غيضته ؛ فمن للعراق وحرب الأزارقة ؟ قال : فسكت الناس وتكلم الحجاج فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ! فولني إياها ، فأنا الليث الغشمشم ، والقرن

---

(١) في الأصل : العراق .

(٢) في الأصل : قتام .

(٣) الأصل : حذروهم .

(٤) في الأصل : فسكتوا .

المنتقم ؛ من الظالم الخائن، والغادر الآفن ؛ أنا ذو النفاذ واللسان ، والعدل والإحسان ، والسرعة إلى الأقران ، عند تشاجر المُرّان . قال فقال عبد الملك : إن لكل أمير آلة وقلائد ، فما آلتك وقلائدك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! الشدة واللين ، والعفو والقتل ، والريث والعجل ، والرفق والحزق ، والمكاشفة والمداراة ، والإدناء والإبعاد ، والجفاء والتواضع ، والصلة والحرمان ؛ أنا الليث الهصور ، المتقمص بجلد النمور ، فمن رمقني بسوء حددته ، ومن نازعني بددته ، ومن لوى شدقيه جذعته ، ومن تكبر عليّ قمعته ، ومن نازعني قصمته ، ومن دنا مني أكرمته ، ومن نأى عني طلبته ، و[من] ثبت لي طاعنته ، ومن ولّى عني لحقته ، ومن أدركته قتلته ، ومن ماحكته غلبته ، ومن طلب الأمان أعطيته ، ومن تواضع لي أدنيته ، ومن سارع إلى طاعة أمير المؤمنين بجلته ـ فهذه آلتي وقلائدي ، وأنا صاحب ابن الزبير ؛ ولا عليك يا أمير المؤمنين أن تسبرني وتجربني ! فإن كنت للأعناق قطاعاً ، وللأرواح نزاعاً ، وللخراج جماعاً ، وفي الأمور نفاعاً ؛ وإلا استبدلت بي غيري . وفي رواية أخرى أنه قال : إن آلتي أن أزرع بدرهمك من يواليك ، وأحصد بسيفك من يعاديك ، سوّد لي قرطاساً واعقد لي خرقة في رأس قناة . فقال له : أنت لها ولكل شدة ؛ فكتب عهده بيده . قال فقال له عبد الملك بن مروان : أنت لها يا حجاج ، فسر إليها مشمر الإزار ، شديد الحذار ؛ فارفع الشريف ، وقوّ الضعيف ؛ فقد وليتك العراقين جميعاً والبصرة ، فاضغطها ضغطة يحيق بها أهل البصرة ؛ وإياك وهوينا أهل الحجاز ! فإن القائل يقول ألفاً ولا يقطع حرفاً .

قال : ثم التفت عبد الملك بن مروان إلى كاتبه فقال : اكتب عهده على العراقين ، واطلق يده في الرجال والسلاح والأموال ولا تجعل له علة ، واعلم أهل العراق أنه قادم إليهم أميراً عليهم فليلزموا طاعته وليحذروا صولته . قال : فكتب عهد الحجاج على العراقين يوم الاثنين ، وخرج يوم السبت ، فلم يزل يسير حتى دخل الكوفة[1] .

---

(١) في الطبري ٢٠٢/٦ أن عبد الملك كتب إلى الحجاج على العراق دون خراسان وسجستان وأرسل إليه الكتاب ، وهو بالمدينة والياً عليها ، يأمره بالمسير إلى الكوفة وذلك بعد وفاة أخيه بشر بن مروان ، فخرج الحجاج من المدينة في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة . وفي الإمامة والسياسة ٣٩/٢ أن عبد الملك كتب إلى الحجاج : أن سر إلى العراقين ، واحتل لقتلهم ، فإنه قد بلغني عنهم ما أكره .

ذكر قدوم الحجاج إلى الكوفة
وكلامه على المنبر

قال : فلما دخل الكوفة قدم[١] أشراف الناس ينظرون إليه من كل ناحية ، حتى نزل على باب المسجد الأعظم ، ثم دخل المسجد الأعظم من ساعته وعلى رأسه عمامة له حمراء قد اعتجر بها ، وتنكب قوساً له عربياً وهو متقلد بالسيف حتى صعد المنبر فجلس عليه ، واجتمع[٢] الناس حتى انغص المسجد بأهله والحجاج جالس على المنبر ما يحدر اللثام عن وجهه ولا ينطق بحرف . قال : وأهل الكوفة يومئذ ذوو هيئة وعزة وبزة ومنعة وحالة جميلة ، الرجل منهم يدخل المسجد ومعه جماعة من أهل بيته ومواليه ، وعليهم الخزوز وأشباه ذلك ؛ قال : وفي المسجد يومئذ أشراف مجتمعون . قال : فتكلم رجل منهم فقال : لعن الله بني مروان حين يستعملون مثل هذا أميراً ! فوالله لو كان كله كلاماً لما كان شيئاً ! قال : والحجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً ، فلما أن رأى أن المسجد قد انغص بأهله قال : اجتمعتم ؟ قال رجل منهم : نعم ، قد اجتمعنا أصلح الله الأمير ! فهات ما عندك ، قال : فسكت الحجاج قليلاً لا يأتي بجواب ، فلما نظروا إلى سكوته أهووا بأيديهم إلى حصباء المسجد ليحصبوه . قال : وفطن الحجاج لذلك فقام قائماً على قدميه ، وخفقت الطبول والأعلام على باب المسجد ، وتكلم الحجاج وقال : أفعلتموها يا أهل الفتنة الداجنة ! ثم سفر العمامة عن وجهه وجعل يقول :

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني[٣]
صليبُ العود من سلفي نزارٍ[٤] ... كنصل السيف وضّاح الجبين
وما ذا يبتغي الأقران[٥] مني ... وقد جاوزتُ حدّ الأربعين

---

(١) الأصل : قدموا .
(٢) بالأصل : واجتمعوا .
(٣) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي ، من أبيات تمثل بها الحجاج .
قوله ابن جلا : هو الصبح لأنه يجلو الظلمة ، طلاع الثنايا : العارف بالأمور والشديد المجرب ، والثنايا أيضاً : ما صغر من الجبل ونتأ .
(٤) في العقد الفريد ٤/١١٠ رياح .
(٥) في العقد الفريد : الشعراء .

أخو الخمسين مجتمعٌ أشُدّي وهمّي في مداواة الشؤون
وإني لن يعود إليّ قرني غداة الروع إلا بعد حين[١]

قال[٢] : ثم سكت هنية وقال : إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء ، وإنها لترقرق [بين] [٣] العمائم واللحى .
قال : ثم جعل يرتجز ويقول :

والقوس فيها وَترٌ عُردُّ مثل ذراع الفيل أو أشدُّ[٤]
لا بد مما ليس منه بد قد جدّ عني أمركم فجدّوا

قال : ثم سكت هنية فطفق يقول[٥] :

هذا أوان الشدّ[٦] فاشتدّي زِيَمْ عند النطاح يغلب الكبش الأحم
قد لفّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ مُلملم الخَلْقِ عنوفٌ في الظُّلَم
خدلج الساقين خفاق القدم فلم تنم ليلتها ولم ينم
بات يراعيها غلام ذو همم ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزّار على ظهر وضم[٧] من يلقه يُودِ كما أودت إرم

قال : يا أهل العراق ! إني لست بأعرابي أعود بجراثيم العوسج ، ولا أغمز[٨]

---

(١) في العقد الفريد : غداة العبء إلاّ في قرين .

(٢) وردت خطبة الحجاج في كثير من كتب التاريخ والأدب مروج الذهب ١٥٤/٣ ، الطبري ٢١٠/٧ الكامل لابن الأثير ٨٥/٣ الكامل للمبرد ٤٩٢/٢ البيان والتبيين ٢٢٣/٢ عيون الأخبار ٢٤٣/٢ صبح الأعشى ٢١٨/١ وفيات الأعيان ٣٣/٢ مع بعض الاختلاف بين هذه المصادر من زيادة أو نقصان واختلاف في بعض الكلمات أو الألفاظ وأحياناً العبارات . وما نراه مناسباً سنلاحظه عند الضرورة .

(٣) زيادة عن المصادر .

(٤) الأبيات لحنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي (النقائض ص ٦٤٢) في العقد الفريد والكامل للمبرد « البكر » بدل « الفيل » .

(٥) الأرجاز لرويشد بن رميض العنزي كما في اللسان (حطم) والأغاني ٤٥/١٤ بولاق ، ونسبها المبرد للحطم القيسي ٤٩٩/٢ . وانظر شرح الحماسة للمرزوقي ص ٣٥٤ والتبريزي ١٨٤/١ .

(٦) في مروج الذهب وابن الأثير : الحرب .

(٧) بالأصل : الوضم . والوضم : ما وقي به اللحم عن الأرض .

(٨) يغمز أي يضغط ويلوي .

كغمز التنين ، ولا أقرع كقرع المرقة ، ولا يقعقع لي بالشنان[1] ، ولقد فررت عن ذكاء[2] ، وفتشت عن تجربة ، وجربت إلى الغاية القصوى ، وإني لأحمد الرجل منكم بفعله وأحذوه بنعله ، وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نكث كنانته فعجم[3] عيدانها عوداً عوداً ، فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً وأحزمها أمراً وأصدقها مخبراً ، فوجهني إليكم ورماكم بي أميراً عليكم، لأن الشيطان قد باض في نحوركم ، ودب ودرج في صدوركم ، فأنتم له زين ، وهو لكم قرين ﴿**ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً**﴾[4] ، يا أهل الكوفة ! إنكم طالما أبطأتم عن الحق ، وعدلتم عن الصدق ، وسننتم سنن الغي والجهالة ، وتسكعتم في العمى والضلالة ، وأيم الله لأقرعنكم قرع المروءة ، ولأعصبنكم عصب السلمة[5] ، ولأقطعنكم عن خضاب الكثم ، ولأبرينكم بري القلم ، واعلموا أني لا أعد إلا وفيت ، ولا أقول إلا أمضيت ، ولا أدنو إلا فهمت ، ولا أبعد إلا سمعت ، فإياكم وهذه الهنات والجماعات والبطالات وقال وقيل وماذا يقول[6]، وأمر فلان إلى ماذا يؤول؛ وما أنتم يا أهل العراق ويا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ! وإنما أنتم أهل قرية ﴿**كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾[7] ، ألا ! وإن خير الرأي ما هدى الله به العباد ، إلى سبيل الرشاد ، فليعقل من كان له معقول ، أو لسان به يقول ، أو ذهن به يصول ، أو رأي مدخول ؛ ألا ! وقد أتتكم بائقة من بوائق الزمان ، ذات علم وبيان ، يتلوها سطوة من سطوات الله ذي الجلال ، يحتاج فيها كرائم الأموال ، يراق فيها الدماء ، ويجعل الحرائر فيها إماء ، ثم لا يستطيعون عند ذلك عبراً ، ويرونها لكم غيراً ؛ فهيهات هيهات ! لما قد مضى وفات ، ما الخبر ما الخبر ! الحجاج حية ذكر ، يجتلى بسيفه الهام والقصر ، وله في كل يوم نهر ومزدجر ؛ ألا ! من استوسقت لنا

---

(١) لا يقعقع لي بالشنآن : الشنآن واحدها شن وهو الجلد اليابس فإذا قعقع به نفرت الإبل منه ، فضرب ذلك مثلاً لنفسه .

(٢) ذكاء : تمام السن ، والذكاء على ضربين : أحدهما تمام السن ، والآخر : حدة القلب .

(٣) عجم عيدانها : مضغها لينظر أيها أصلب ، يقال : عجمته عجماً .

(٤) سورة النساء الآية ٣٨ .

(٥) السلمة واحدة السلم . ضرب من الشجر كثير الشوك . قال ابن الأثير : شجر من العضاة .

(٦) في البيان والتبيين : وما يقولون .

(٧) سورة النحل الآية ١١٢ .

طاعته ، فهو منا ونحن منه ، ومن ركب الموماة وأخذ في الشبهات ، فلات حين مناص ، لأهل الهنات والمعاصي ، يا أهل الكوفة ! ما تخافون أن تغير عليكم الخيل الملجمة ، عليها الكُماة المعلمة ، فتترك رجالكم كأمثال الزقاق الناصبة ، السائلة بأرجلها العاصبة ؛ ألا ! إن سيفي سيروى من دمائكم ، ويفرى من جلودكم ، فمن شاء فليحقن دمه ، وإلا أطعمت السباع لحمه ، وأقمت الرخم على شلوه ؛ فمهلاً مهلاً يا أهل العراق ! فإن مثلي يقرن الصعاب ويرتبط الخيل العتاق ، لأني في الحروب ولدت ، وفي الحروب نشأت وحنكت ، ونبتت نواجذي ، وصلع رأسي ؛ ألا ! وإني قد سست وساسني السائسون ، وأدبني المؤدبون ، فاستقيموا وبايعوا ، واسمعوا وأطيعوا ، واعلموا أنه ليس مني الإكثار ولا الإهدار ، ولا الفرار ولا النفار ، وإنما هو انتضاء هذا السيف البتار ، ثم لا يغمد حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ، ويقيم له أولادكم ، ألا ! وإني وجدت اليسر مع الصدق ، والصدق في الجنة ؛ ووجدت الكذب مع الفجور ، والفجور في النار ؛ ألا[1] ! وإن أمير المؤمنين قد أمرني أن أوفر عليكم عطاياكم وأن أشخصكم إلى مجاهدة عدوكم ، وقد أمرت بذلك لكم ، والحجاج بن يوسف يعطي ربه عهداً يأخذه به ويستوفيه منه ، لئن بلغني أن رجلاً منكم تخلف عن قبض عطائه يوماً واحداً لأضربن عنقه ، ولأنهبن ماله ولأهدمن داره[1] . .

ثم قال : يا غلام ! اقرأ عليهم ! [فقرأ عليهم] كتاب أمير المؤمنين إلى من بالعراق : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عند عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ـ فلم يقل أحد شيئاً ، فقال الحجاج : يا أهل الفتن ! يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام ! أما والله لأؤدبنكم بأدب غير هذا إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ! يا غلام ! أعد القراءة ، فلما بلغ إلى قوله : سلام عليكم ، لم يبق أحد في المسجد إلّا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته ، وعلى الأمير معه . قال : ثم قرأ الكتاب عليه بالسمع والطاعة للحجاج حتى إذا أتى على آخره قال[2] الناس : سمعنا وأطعنا أيها الأمير ! فمدّ الله لنا في عمرك .

---

(١) في الطبري : وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم على مصركم عصاة مخالفين ، وإني أقسم لكم بالله لا أجد أحداً بعد ثالثة إلا ضربت عنقه . زيد في ابن الأثير : وأنهبت داره .

(٢) بالأصل : قالوا .

قال : ثم نزل الحجاج عن المنبر ودخلَ إلى قصر الإمارة فأقام ثلاثاً ، فلما كان في اليوم الرابع وقعد للناس وأمر بفتح أبوابه ، ووضع للناس العطاء ، فجعلوا يقبضون ويتجهزون إلى المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة .

قال : وأقبل رجل من بني تميم يقال له عمير بن ضابىء[1] البرجمي ومعه نفر من بني عمه حتى أوقفهم على باب الحجاج ، ثم دخل فسلم فقال : أيها الأمير ! أصلحك الله وأصلح على يديك ، وجعلك صلاحاً لمن لاذ بك ولجأ إليك وأناخ بفنائك ، فإنك كهف للعرب وطودها بعد أمير المؤمنين ، إني قد سمعت النداء وخرج اسمي في هذا البعث إلى حرب الأزارقة وأنا شيخ ولي ابن هو أقوى مني وأجلد في الحرب وأصبر في السفر ، فإن رأى الأمير أيده الله أن يقبله مني بديلاً ويمنّ عليّ بلزوم منزلي فعل موفقاً مانّاً متفضلاً ، فإني سأملأ الأرض ثناء والسماء دعاء ، والشاكر محبوب وقد أحبه الله عزَّ وجلّ وأمر به عباده ، فقال جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿ **واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾[2] وقد قال الشاعر حيث يقول :

فإن كان يستغني عن الشكر ماجد ... لعزة مجد وارتفاع مكانِ
لما أمر الله العباد بشكره ... فقال اشكروا لي أيها الثقلانِ

قال فقال الحجاج : يا شيخ ! فإننا قد أجبناك إلى ما سألت ، انطلق فوجه بابنك بديلاً فلا بأس بشاب يكون مكان شيخ . فلما ولى الشيخ من بين يدي الحجاج التفت كاتب الحجاج عنبسة بن سعيد[3] فقال : أصلح الله الأمير أتعرف هذا الشيخ ؟ فقال الحجاج : لا ، قال : هذا عمير بن ضابىء البرجمي الذي دخل على أمير المؤمنين عثمان بن عفان في يوم الدار وهو مقتول فكسر ضلعاً من أضلاعه ، قال فقال له الحجاج : أيها الشيخ الضال ! ألست القائل يوم قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان هذا البيت :

أردت[4] ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله[5]

---

(1) عن الطبري ٢٠٧/٦ وبالأصل « صافي » .
(2) سورة البقرة الآية ١٥٢ .
(3) عن الطبري ٢٠٧/٦ وبالأصل سعيد بن عيينة .
(4) في الطبري : هممت .
(5) في البداية والنهاية ٩/٩ فعلت ووليت البكاء حلائلا .

أتشهد يوم الدار ببدنك وتبعث اليوم بابنك بديلاً ! هلا بعثت بديلاً يوم الدار ! أما والله إن في قتلك صلاحاً لأهل المصرين ! يا غلام اضرب عنقه ! قال : فتنحى الشيخ من بين يدي الحجاج فضرب عنقه فإذا رأسه يتدهده ، قال : وسمع الحجاج ضجة بالباب فقال : ما هذا الضجيج ؟ فقيل له : أصلح الله الأمير هؤلاء بنو عم هذا المقتول، فقال: ألقوا إليهم رأسه، فألقي إليهم الرأس، فلما نظروا إليه ولوا هاربين على وجوههم حتى دخلوا منازلهم . قال : وجعل يتمثل بقول سويد بن أبي كاهل :

كيف يرجون سقاطي بعد ما ... جلّل الرأس مشيب وصلعْ
ساء ما ظنوا وقد أبليتهم ... عند غايات المنى كيف أقعْ
رب من أنضجت غيظاً صدره ... قد تمنى ليَ موتاً لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه ... عسراً مخرجه ما يُنتزع
ويحييني إذا لاقيته ... وإذا يخلو له لحمي رتع

قال : وأقبل ابن الزُّبير الأسدي عند باب الحجاج فزعاً مذعوراً ، فلقيه ابن عم له يقال له إبراهيم[1] فقال : ما وراءك يابن الزبير؟ فقال : ورائي والله كل بلية ، فقال : وما ذاك ؟ قال : قتل عمير بن ضابىء صبراً فالنجاة النجاة ! ثم أنشأ يقول :

أقول لإبراهيم لما لقيته ... أرى الأمر أمسى واهناً[2] متشعبا
تخيَّر فإما أن تزور ابن ضابىء ... عميراً وإما أن تزور المهلبا[3]
هما خُطتا سوء[4] نجاؤك منهما ... ركوبك حوليّاً من الثلج أشهبا[5]
وإلا فما الحجاج غامد سيفه ... يد الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

---

(١) في الطبري ٢٠٩/٦ إبراهيم بن عامر أحد بني غاضرة من بنى أسد .
(٢) في الطبري وابن الأثير : منصبا .
(٣) قبله في الطبري وابن الأثير :

تجهز واسرع والحق الجيش لا أرى ... سوى الجيش إلا في المهالك مذهبا

(٤) الطبري : خطتا كرهٍ ، وفي ابن الأثير : خطتا خسفٍ .
(٥) بعده في الطبري وابن الأثير :

فحال ولو كانت خراسان دونه ... رآها مكان السوق أو هي أقربا
فكائن ترى من مكره العدو مسمن ... تحمم حنو السرج حتى تحنبا

قال : وأصبح الحجاج من غد فدعا بكاتبه ، فقال : اكتب إلى المهلب بن أبي صفرة : أما بعد فإن بشر بن مروان وجهك إلى الحرب التي[1] للأزارقة وكلن مستكرهاً لنفسه فيك ، وأنا أريدك لحاجتي إليك فابشر وقر عيناً واثبت على حرب القوم ، فوالله لأحشرن إليك حشراً ولأعجلن الرجال على إلجام الخيل ، ولآخذن السمي بالسمي والكني بالكني والولي بالولي حتى يكون من يوافيك أكثر مما يفارقك ، وما لي قول هو أعظم من نعمة الله عزَّ وجلّ عليك ـ والسلام ـ[2] .

قال : ثم أمر الحجاج مناديه ، فنادى بالكوفة : ألا ! إننا قد أجلنا من كان من أصحاب المهلب ثلاثاً ، فمن أصبناه بعد ذلك فعقوبته ضرب عنقه . قال : ثم دعا الحجاج بحاجبه زياد بن عروة وبصاحب شرطته سويد بن ثروان فقال لهما : اركبا في حماعة من الجند ، وأمراهم[3] أن يعلقوا السياط في خناصرهم والسيوف في أيمانهم ، واحشرا[4] الناس إلى المهلب حشراً ، فمن تأخر وأبى فاستعملوا فيه السيف . قال : فحشرا الناس إلى المهلب بن أبي صفرة حتى لم يفقد من أصحابه الذين تفرقوا عنه رجلاً واحداً .

قال : ثم كتب إليه الحجاج يعلمه أنه قد جعل له الشرط الأول وأن له خراج ما غلب عليه من البلاد إلى أن يقضي حرب الأزارقة . قال : فكانت الأموال تنتقل إليه من أرض فارس إلى أرض البصرة في البِدَر مكتوب عليها : « هذا ما أطعم الله المهلب بن أبي صفرة مما غلب عليه من بلاد الله » يحمله إلى قومه من العتيك ، لا يعترض عليه معترض .

قال : وعلم[5] أهل خراسان بقدوم الحجاج إلى العراق فكتبوا إليه يشكون أميرهم أمية بن عبد الله بن خالد القرشي وأنه قعد عن الجهاد ، وفي الكتاب إلى

---

(١) الأصل : الذى .

(٢) كتاب الحجاج إلى المهلب في الكامل للمبرد ٣/١٣٠٤ . وزيد فيه : فكتب إليه المهلب : ليس قبلي إلّا مطيع ، وإن الناس إذا خافوا العقوبة كبروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب ، وإذا يئسوا من العفو أكفرهم ذلك . فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة فإنهم فرسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدو وأكثرهم نادم على ذنبه .

(٣) الأصل : وامروهم .

(٤) الأصل : واحشروهم .

(٥) الأصل : وعلموا .

الحجاج هذه الأبيات :

أحجاج بن يوسف أنت راع ... وراعي القوم يحفظ ما أضاعوا
وإنا معشر من جذم قيس ... لنا في الناس مكرمة وباع
عبرنا حقبة ولنا أمير ... جبان القلب ذو خوف يراع
وإنك قد وليت أمور قوم ... وثغر لا يقوم له الشجاع
وأنت المستغاث إذا ألمّت ... بأهل الثغر داهية شناع
فلا تغفل فداك أبي وأمي ... أناساً ما يعينهم القراع
إذا فلوا كتائب خارجي ... عدت أخرى وهمتها المضاع
وما ينفك نصرتهم ببيض ... تلألأ في الأكف لها شعاع
كذلك دأبنا في كل حرب ... طوال الدهر أو يخزى[1] الكراع

قال : فلما ورد كتاب أهل خراسان على الحجاج وقرأه ونظر في هذا الشعر كأنه همّ أن يعزل أمية بن عبد الله عن خراسان ، غير أنه اشتغل بأمر الأزارقة فكتب إليهم يعدهم ويمنيهم أنه يوجه إليهم بأمير يرضونه ، وأخبرهم في كتابه أنه مشغول بحرب الأزارقة .

قال : فلما اجتمع للمهلب بن أبي صفرة أمره قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الله قد دفع عني وعنكم ما كنا نخاف ونحذر من أمر[2] الأزارقة وقد كنا بدار مضيعة ، وإن الله تبارك وتعالى أسأله أن يتم نعمته عليّ وعليكم ، فاحمدوا الله على ما أعطاكم ، وسيروا إلى عدوكم . قال : ثم نادى في أصحابه فسار وساروا معه حتى صار إلى أرّجان[3] فأقام بها ثلاثاً ، ثم سار منها إلى سابور[4] ، والأزارقة يومئذ بها وقد جعلوها دار هجرتهم . قال : فأقام المهلب على سابور يحارب الأزارقة الليل مع النهار حتى حاربهم ثلاث سنين كملاء مثل يوم واحد . قال : وأرسل الحجاج إلى المهلب أن ناجز القوم[5] ، ما تنتظر بهم إلى هذه

(١) الأصل « نحوى » وما أثبت يناسب السياق .
(٢) الأصل : أمراء .
(٣) أرّجان : مدينة كبيرة . انظر معجم البلدان الجزء الأول .
(٤) سابور : انظر معجم البلدان الجزء الثالث .
(٥) في الكامل للمبرد ١٣١٢/٣ أن الحجاج وجه البراء بن قبيصة إلى المهلب . يستحثه في مناجزة القوم .

الغاية ! فكتب إليه المهلب : أيها الأمير ! إني أنتظر بهم ثلاث خصال[1] : موت صاحبهم قطري بن الفجاءة ، أو فرقة وتشتيتاً ، أو جوعاً قاتلاً ، وأنا أرجو أن أدرك ذلك فيهم إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العظيم .

قال : وكان الحجاج قد ظن في نفسه أن المهلب ليس بناصح في حرب الأزارقة ، فدعا برجل من أصحابه يقال له عبد الله بن الجراح وكان عنده من الثقات ، فضم إليه قوماً من أصحابه وقال : أريد منكم أن تسيروا إلى المهلب فتقيموا عنده أياماً وتنظروا إلى حرب الأزارقة وتأتوني بالخبر[2] ! قال : فسار القوم حتى صاروا إلى المهلب فنزلوا عنده شهرين كاملين ، فجعلوا ينظرون إلى المهلب ، وأنه يعبىء في كل يوم رجلاً من أولاده في أول النهار ، ثم يقاتلهم بنفسه في آخر النهار ، ثم أقبل على الرسل بعد ذلك فقال : انظروا هل بعد هذا من جهد ؟ فقالوا : لا والله يا أبا سعيد ! ولا ظن الأمير أن حرب القوم على هذا الشأن . قال : ثم رجع القوم إلى الحجاج وتقدم عبد الله بن الجراح ، فلما سلم وقضى حق التسليم قال له الحجاج : ما وراءك يابن الجراح ؟ وكيف رأيت المهلب في حرب القوم ؟ فقال : أيها الأمير ! رأيت والله منه ما سرني ، رأيته يحتمل المصيبة ويلقى القوم بنفسه وأولاده فيجاهدهم في الله حق جهاده . قال فقال له الحجاج : ما أحسن ثناءك على المهلب ؟ فقال : أيها الأمير ! إنه كان يفعل ذلك الفعال فحقيق بالثناء .

قال : وجعل المهلب يحارب القوم حتى حاربهم بعد ذلك سنة كاملة . قال : فكتب إليه الحجاج : أما بعد ، فإنك قد طاولت العدوّ وجبيت البلاد ، ولو شئت أن تفرغ من حرب الأزارقة لفرغت ، ولكنك تحب المطاولة لجباية الأموال ، فناجز القوم ولا تطاولهم ـ والسلام ـ . قال : ثم دفع الحجاج كتابه إلى رجل من ثقيف له لسان ذرب ومنطق ذلق[3] فقال له : صر إلى المهلب وانظر أن تحثّه على قتال القوم

---

(1) في الكامل للمبرد ١٣١٢/٣ إني منتظر بهم إحدى ثلاث : موت ذريع ، أو جوع مضر أو اختلاف من أهوائهم .

(2) في الكامل للمبرد ١٣١٦/٣ أن الحجاج كتب إلى المهلب مع ابن الجراح انظر فيه نص الكتاب ـ وجواب المهلب إليه بعد عودة ابن الجراح يطلع الحجاج على أخبار المهلب الكامل ١٣١٧/٣ ـ ١٣١٨ .

(3) في الطبري ٣٠١/٦ والكامل للمبرد ١٣١٢/٣ بعث الحجاج البراء بن قبيصة بكتاب إلى المهلب .

ومناجزتهم فإنه قد طاولهم . فلما ورد كتاب الحجاج على المهلب وقرأه تبسم ضاحكاً ثم قال : والله ما أنا والحجاج إلا كما قال أوس بن حجر[١] :

ومستعجل عما يرى من آباتنا ... ولو أضجرته الحرب لم يترمرم[٢]

قال : فجعل ذلك الثقفي[٣] يتكلم ويخطب ويحرض على القتال ، فقال له المهلب : أيها الرجل ! إن الحرب ليس بالكلام ولا بالخطب ، ولكن اصبر حتى ترى وتنظر إلى حرب القوم ! قال : ثم نادى المهلب في الناس وزحف نحو الأزارقة ، واختلط القوم فجعلوا يقتتلون من صلاة الظهر إلى أن انتصف الليل . قال : وبقي الثقفي حيران لا يدري ما يقول ، ثم أقبل على المهلب فقال : حسبك يا أبا سعيد ! فقال له المهلب : اصبر قليلاً ولا تعجل ، قال : فلم يزل القوم يقتتلون إلى وقت السحر ، وكاد الثقفي يموت لما رأى . قال : وأصبح القوم فرجع عن بعضهم بعض في وقت الضحى ، فأنشأ رجل من أصحاب المهلب في ذلك يقول[٤] :

ما زلتَ يا ثقفي تخطب دانيا[٥] ... وتغمّنا بوصية الحجاج
حتى إذا ما الموت أقبل زاخرا ... وسما لنا صِرفا بغير مزاجِ
ولّيت يا ثقفي غير مناظر ... تبدين[٦] بين أحزّة وفجاج
وبنو المهلب في الغبار كأنهم ... أسد لبسن يلامق الديباج
ليست مقارعة الكماة لدى الوغا ... شرب المدامة في إناء زجاج

---

(١) في الكامل للمبرد ١٣٢٧/٣ أن المهلب قال البيت متمثلاً بعد أن وجه الحجاج برجلين إلى المهلب أحدهما من كلب والآخر من سليم يستحثانه بالقتال .

(٢) روايته في الكامل :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ... ولو زبنته الحرب لم يترمرم

لم يترمرم : أي لم يتحرك .

(٣) يريد بالثقفي عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت الثقفي وكان الحجاج قد أرسله أيضاً إلى المهلب يستحثه بالقتال . (كما في الكامل للمبرد ١٣٤٠/٣) وكانت رسل الحجاج إلى المهلب قد كثرت حتى أن الروايات اختلفت في الوقت الذي أرسل فيه هذا الرسول أو ذاك وهذا ما أحدث هذا الاضطراب في تحديد أسمائهم ومتى أرسلوا .

(٤) في الكامل للمبرد ١٣٤٣/٣ رجل من بني عامر بن صعصعة .

(٥) في الكامل للمبرد : بيننا .

(٦) في الكامل للمبرد : تنساب .

قال : ثم أقبل المهلب على هذا الثقفي فقال : انصرف الآن إلى الحجاج فأخبره أن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ـ والسلام ـ . قال : ثم كتب أبو خالد اليشكري مع هذا الثقفي إلى الحجاج بهذه الأبيات :

ألا قل لمن ظن المهلّب خائناً ... هلمّ فكن فينا مكان المهلبِ
وحدث بتعليم القتال وحاربا ... بأجسامنا[1] والعفو عن كل مذنب
فإن رجالاً غيبوا عن طعاننا ... وعن ضرب هامات الليوث المجرب
قد أعطوك من أمر المهلب عنوة ... وقد ذهبت أبناؤه كل مذهب
فلو ذقت كأساً من عبيدة مرّة ... وعمرو القنا أو عبد رب وشوذب
ومن قطري أو عطية وابنه ... ومن صالح أو من زبير ومصعب
لأيقنت أنا في حلوق عدونا ... شجى ناشب سل يابن يوسف تعجب
فأرسل إلينا من يعاين فعلنا ... يقل حين يخبرنا فداً لكم أبي

قال : فغضب الحجاج من ذلك ، ثم قال لجلسائه : ألا ترون إلى فعل هذا المروي قد أكل الأرض وجبا الأموال ثم يتربص بي وبأمير المؤمنين ويكتب إليّ بمثل هذا وأشباهه . ثم قال : يا غلام ! اكتب إلى المهلب ! وابعث به إليه : أما بعد فإنك مري وابن مري[2] ، وأيم الله لئن لم تجهد في قتال القوم لأبعثن إليك من يحملك على مكروهك ـ والسلام ـ. قال : فكتب إليه المهلب : أما بعد فقد ورد عليّ كتابك تذكر فيه أني مري وابن مري ، وما أنكر ذلك وأنا مروي ـ اسم سمتنا به العجم ، ولكن الأمير ـ أعزه الله ـ من قبيلة قد ادعت في خمس قبائل من العرب وما استقرت بعد قرارها في واحدة منها ، واحدة أنهم بقية من بقايا آل ثمود ، والثانية أنهم انتموا إلى وحاظة[3] ووحاظة لا عقب لها ، والثالثة أنهم انتموا إلى زياد ، والرابعة أنهم انتموا إلى هوازن ، والخامسة أنهم انتموا إلى ثقيف ، فليت شعري في أيّ الأحياء هم اليوم ـ والسلام ـ . قال : فقرأ الحجاج كتاب المهلب [و] استغرب ضحكاً ، ثم قال : أفحشنا على الرجل ففحش علينا ، والبادي أظلم .

قال : ثم كتب بعض أصحاب المهلب إلى الحجاج بهذه الأبيات :

---

(١) الأصل : بأحسابنا .

(٢) كذا .

(٣) وحاظة اسم قبيلة ، وهو أحاظة بن سعد بن عوف . . . بن حمير بن سبأ .

لعمرك ما أخطأ المهلب رأيه — فلا عاش فينا بالخطأ المهلبُ
ولا ضن[1] عنا في اللقاء بنفسه — ولا ببنيه حين قال ألا اركبوا
فآسوا رجالاً قد وفتكم نفوسهم — بأنفسكم حفوا إليها وأعقبوا
فما كان إلا القول حتى كأنهم — أسود بأكناف العرين تلهّب
لكل امرىء من كرة الخيل نوبة — يطاعن بالرمح القويم ويضرب
إذا ما قضاها جاء آخر بعده — فكل لكل في العجاجة معقب
فلا ينثني إلا وثُغْرَةُ نحرهِ[2] — تسيل دماً والرأس فيه مُلحَّب
فلولا بنوه في اللقاء وصبرهم — لقلنا لفرسان الأزارقة اذهبوا
لكم كل ما كان المهلب حازه — من الأرض فاجبوه ولا تتهيبوا

قال : فلما قرأ الحجاج هذه الأبيات جعل يقول : والله ما يختلج بقلبي أن قوماً يثبتون لمثل هذه الحروب ، ولكني أحب أن أوجه بقوم ليأتوني بحقيقة ما يرون من حرب هؤلاء الأزارقة ، فوالله لو كانوا من حجارة أو حديد لما زادوا . قال : ثم دعا الحجاج بعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كريز وبعبد الله بن عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب[3] وبجماعة من قريش فجهزهم ، وقال : أريد منكم أن تسيروا إلى المهلب وتعلموا لي علمه وتأتوني بحقيقة أمره ، فإنه قد عظم عليّ أمر هؤلاء الأزارقة ؛ فقالوا : نفعل ذلك أيها الأمير .

قال : ثم سار القوم حتى قدموا على المهلب ، والمهلب يومئذ نازل على باب سابور في عسكره ، فلما رآهم رحب بهم وقربهم ثم سألهم عن حالهم ، فقال له بعضهم : أبا سعيد ! إن الأمير الحجاج قد كره مطاولتك لهذا العدو وقد أحب منك المناجزة لهم لكي يشغلك بغيرهم . قال : فسكت المهلب ساعة ثم رفع رأسه فقال : إنما أنا والحجاج كما قال الأول :

أبلغ أبا مالك عني مغلغلة — إن الكتائب لا تَهْزَمْنَ باللعب

ثم أقبل عليهم فقال : إن الأمير أكرمه الله أتاه السماع فقبله وأتاه العيان فرده ،

---

(١) الأصل : ظن .
(٢) في الأصل : « نعره نحوه » وما أثبت يناسب السياق .
(٣) بالأصل : « جندب » وما أثبت عن جمهرة ابن حزم ص ٦٧ .

وقد كتبت إليه « أيها الأمير ! إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فلا تكثر عليّ من رسلك فأنا أعلم بحرب القوم منك » ، فزعم أنه هو الشاهد وأني الغائب ، ولكن أقيموا إذ قدمتم الآن حتى تعاينوا حرب الأزارقة ، فوالله لا لقيتهم اليوم إلا بما لقيتهم أمس . قال : ثم نادى المهلب في أصحابه فركبوا ، ونادى قطري بن الفجاءة في الأزارقة فركبوا ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وتقدم عشرة من أبطال الأزارقة ورؤسائهم وساداتهم حتى وقفوا أمام الخيل ، منهم قطري بن الفجاءة المازني وهو صاحبهم وأميرهم ،وعبيدة بن الهلال اليشكري ، وعمرو القنا العنبري ، وصالح بن مخراق العبقسي ، وعطية بن الأسود الحنفي ، وشوذب بن عامر العامري ، وحيطان الأيادي[1] ، وعنترة المرادي[2] ، وعبد ربه الصغير . قال : ونظر المهلب إلى ذلك فدعا ببنيه وهم يومئذ عشرة ، كل واحد يعد بألف : المغيرة ويزيد وحبيب وقبيصة ومدرك والمفضل ومحمد وحماد[3] وعبد الملك ومروان ؛ قال : فأمر المهلب لكل واحد أن يخرج إلى رئيس من رؤساء الأزارقة .

قال : فخرج يزيد وبين يديه رجل من الأزد وهو يرتجز ويقول أبياتاً :

قل للشراة جاءكم يزيدُ ذاك الذي لجمعكم مبيدُ
ذاك الذي دماركم يريد ذاك الذي قتاله شديد
ذاك الذي ساعده حديد من كل أمر شركم بعيد
وعنده من قتلكم مزيد

قال : ثم تقدم حبيب بن المهلب وبين يديه رجل من الأزد وهو يرتجز ويقول

قل للشراة ذهب الزبيبُ إذ جاءكم في ظله حبيبُ
ذاك الحروب السيد المهيب ذاك الذي بسيفه يصيبُ
من كل أمر ساءكم قريب

قال : ثم تقدم المفضل وبين يديه رجل من الأزد وهو يرتجز ويقول :

قل للشراة جاءكم مفضّل مودَّد مسوَّد مبجّلُ
سنانه من طعنه تشلشل

(١) كذا ، ولعله عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي .
(٢) كذا بالأصل ولم نجده .
(٣) كذا ، ولم نعثر في أولاد المهلب من اسمه حماد .

وسيفه من ضربه مفلل كأنه البازل حين يرفل
والخيل تعدو قد علاها قسطل

ثم تقدم المغيرة وبين يديه رجل من الأزد وهو يرتجز ويقول :

يا معشر الأزارق النحيره أتاكم في خيله مغيرهْ
كفاه كف بالندى مطيره وكفه الأخرى لكم مبيره
ولا يرى كبيرة كبيره لا بل يراها عنده صغيره

قال : ثم تقدم مدرك وبين يديه رجل من الأزد وهو يرتجز ويقول :

يا قطري بن الفجاءة الأنوك أين إذا ضاق عليك المسلكْ
تسلك والخيل عليها مدرك لن يبرح الدهر وهذا المعرك
صفكم أو تهلكوا أو نهلك

قال : فاختلط الفريقان[1] واقتتلوا من وقت الضحى إلى أن اختلط الظلام ، ورسل الحجاج ينظرون إلى ذلك . قال : وسقط رمح بعض الأزارقة فأخذه رجل من أصحاب المهلب فحلفت الأزارقة أنهم لا يرجعون ولا يبرحون أو يأخذوا الرمح ! وحلف أصحاب المهلب أنهم لا يردونه عليهم ! واقتتل[2] القوم على الرمح من وقت اختلاط الظلام إلى الصبح حتى قتل من الفريقين جماعة ؛ فأنشأ المغيرة بن حبناء[3] التميمي يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

ليت شعري وللأمور قرار هل بلغنا مدى رضا الحجاجِ
إلى آخرها .

قال : ثم أقبل المهلب على رسل الحجاج فقال : كيف رأيتم حرب الأزارقة ؟ فقالوا : حسبنا ما رأينا فردنا إلى صاحبنا ! فوالله ما رأينا أشد كلباً على الإسلام من هؤلاء الخوارج . قال : فخلع عليهم المهلب ورجعوا إلى الحجاج . فلما دخلوا عليه قال : كيف رأيتم المهلب في حرب عدوه ؟ فقالوا : أيها الأمير ! ما رأينا قط قوماً أضرب بسيف ، ولا أطعن برمح ، ولا أرمى بسهم ، ولا أعود إلى الحرب من بين

---

(١) الأصل : فاختلطوا الفريقين .
(٢) الأصل : واقتتلوا .
(٣) بالأصل : حسناء ، وما أثبت عن معجم الشعراء للمرزباني .

الفرخ من قوم رأيناهم بالأمس من الفريقين . قال : فعذر الحجاج للمهلب على إبطائه ، ثم كتب إليه ان اعمل برأيك وامض[1] لما أحببت ، فقد علمت أن الرأي ما رأيتَ .

قال : وعبّى قطري بن الفجاءة أصحابه تعبية الحرب وخرج من مدينة سابور ، ونظر المهلب رهج الخيل فوثب فعبى أصحابه ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وتقدم عبيدة[2] بن هلال أمام الأزارقة فجعل يدعو للبراز ويطلب النزال ، فصاح المهلب بابنه مدرك فقال : يا مدرك ! اكفني عبيدة ! قال : أفعل ـ أصلح الله الأمير ! ثم خرج إليه المدرك ! ونظره عبيدة فحمل عليه وبادره مدرك بطعنة مدركة ، فولى عبيدة وله عوي كعوي الكلب ، فأنشأ المغيرة بن حبناء[3] التميمي في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

من رأى مدركاً غداة التقينا إذ أتاه عبيدة بن هلالِ

إلى آخرها .

قال : وكان عبيدة بن هلال قبل ذلك إذا لقي للحرب لا يولي ويقول : ما أولي دبري في الحرب ولكني أخاف النار ! فلما كان ذلك اليوم وطعنه مدرك بن المهلب وولى من بين يديه ناداه مدرك : أين الفرار يا عبيدة ؟ فقال : لست أفر ولكني أنحاز إلى فئة تمنعني ؛ فأنشأ كعب بن معدان الأشقريَ[4] في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

قل للمهلب إن سيفك مدرك حامي الحقيقة مدرك الأوطار

إلى آخرها .

قال : واقتتل القوم على باب سابور بيوم ذلك إلى الليل ، ثم انهزمت الأزارقة حتى دخلوا إلى المدينة ورجع المهلب إلى عسكره .

فلما كان الليل وهدأت العيون وسكنت الحركات خرجت الأزارقة من مدينة سابور مع نسائهم وأموالهم وأولادهم هاربين على وجوههم حتى صاروا على مسيرة

---

(١) الأصل : امضي .

(٢) الأصل : عيينة خطأ .

(٣) الأصل : حسناء ، خطأ .

(٤) عن الكامل للمبرد ١٣٤٧/٣ وبالأصل المغيرة بن معدان الأشعري .

عشرين فرسخاً من مدينة سابور . قال : وعلم المهلب أنهم قد تنحوا فأقام في عسكره يومه ذلك ولم يتبعهم ، ثم أمر بعسكره فضرب على باب سابور ، وبعث إلى أهل المدينة فأخذ منهم الخراج وعزم على أن يجعل سابور منزله وداره ويحارب الأزارقة حيث كانوا ؛ فأنشأ رجل من أصحاب المهلب يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

قل للأزارقة الذين تحزبوا ... إن التفرق أول الإخراجِ

إلى آخرها .

قال : وجعلت الأزارقة يتباعدون من بين أيدي المهلب والمهلب لا يتبعهم ، وذلك أن الشتاء هجم عليه ووقعت الثلوج والأمطار واشتد البرد فلم يتبعهم المهلب ، حتى إذا انحسر عنهم الشتاء أقبل على أصحابه فقال : أيها الناس ! إن بيننا وبين عدونا على ما بلغني أقل من ثلاثين فرسخاً وقد انحسر عنهم الشتاء وإنما هو وجيف ليلة الخيل ، فإذا القوم قد وافوا ، فصاح المهلب بغلام له يقال له : مازن ، فقال : يا مازن ! ناد في الناس بالرحيل . قال : فنادى مازن في الناس بالرحيل . ثم سار المهلب وأصحابه فلم يشعر إلا وخيل الأزارقة قد أقبلت كأنها كواسر العقبان . ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ساعة ، ثم وقعت الهزيمة على الأزارقة فانهزموا إلى الموضع الذي جاؤوا منه . فقال المهلب : الحمد لله الذي كفانا شرهم ، فوالله لو فاجأونا ونحن على غير أهبة الحرب لفضحونا . قال : ورجع المهلب وأصحابه إلى سابور ، فأنشأ المغيرة بن حبناء[1] يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

أكدنا ومن أرسى ثبيراً[2] مكانه ... يسأل بنا لولا أتينا المهلب

إلى آخرها .

قال : فبينا المهلب ذات يوم يخطب الناس بسابور وذلك في يوم النحر إذ أقبلت الأزارقة في جيش عرمرم يقدمهم عمرو القنا ، قال : وبلغ ذلك المهلب ، فقطع الخطبة فقال : سبحان الله ! في مثل هذا اليوم وافانا هذا العدو وإنه يوم شريف عند الله تعالى لا يحب أن تسفك فيه الدماء ، غير أن الله عزَّ وجلّ يقول : ﴿ **الشهر لحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما**

(١) الأصل : حسناء .

(٢) بالأصل : نبيرًا .

اعتدى عليكم ﴾[1] . ثم أقبل المهلب إلى ابنه المغيرة ثم قال : يا بني ! دع الناس وعيدهم واخرج إلى أعداء الله ! قال : فعبى المغيرة أصحابه وخرج من باب سابور ، فلما صار على باب الخندق وإذا بعمرو القنا وقد تلقاه بجيشه ، قال : فنظر إليه المغيرة فحمل عليه والتقيا بطعنتين طعنه المغيرة طعنة خرّ منها صريعاً على وجهه ، قال : وذهب المغيرة ليضربه بسيفه فحمله ثلاثة نفر من الأزارقة بكير وحطان الأيادي[2] وعميرة المرادي[3] ، فانفلت عمرو القنا وهو لما به من طعنة المغيرة ، فأنشأ المغيرة بن حبناء[4] التميمي في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

وما لاقى ذليل من عزيز كما لاقى الشراة من المغيرة

إلى آخرها .

قال : فتقدم فتى من الأزارقة من مذحج يقال له معاذ حتى وقف بين الجمعين فجعل يقول[5] :

نحن صبحناكم غداة النحرِ بالخيل أمثال الوشيج تجري[6]
يقدمنا[7] عمرو القنا في الفجر إلى أناس لهجوا بالكفر
اليوم أقضي في الدماء[8] نذري ومدرك ما أرتجي بوتر

قال : فما لبث أن خرج إليه رجل من أصحاب المغيرة بن المهلب يقال له سعد بن أبي نجد الأزدي[9] والتقيا بضربتين ، ضربه الأزدي ضربة جدله قتيلاً ، ثم

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤ .
(٢) كذا بالأصل . ولعله عمران بن حطان .
(٣) كذا بالأصل .
(٤) بالأصل : حسناء . خطأ .
(٥) الأرجاز في شعر الخوارج ونسبت إلى عمرو القنا وبعضها في الأخبار الطوال ص ٢٨٥ ونسبت إليه أيضاً . والبيت الأول في الكامل للمبرد ونسب لغلام من الخوارج .
(٦) في الأخبار الطوال وشعر الخوارج : تسري .
والوشيج : القنا ، وسمي وشيجاً لتداخل بعضه في بعض واشتباكه ، ويقال : وشجت العروق وشيجاً : إذا تداخل بعضها في بعض .
(٧) الأخبار الطوال وشعر الخوارج : يقدمها .
(٨) الأخبار الطوال وشعر الخوارج : العدو .
(٩) في الكامل للمبرد ١٣١٦/٣ سعد بن نجد القردوسي .

حمل على الأزارقة فجعل يضرب فيهم ضرباً منكراً ، فأنشأ رجل من أصحاب المغيرة في ذلك يقول :

ألا لله ما لاقى معاذ غداة النحر من سعد بن نجد
دعاه للبراز فما تلكا وسعد في صدورهم كأحد
وسعد ماجد بطل هزبر وثوب في الوغى كوثوب فهد
فيا سعد السعود فدتك نفسي أعدها في فوارسهم وأبدي

قال : وانكشفت الأزارقة من بين يدي ابن المهلب كشفة فضيحة ، فأرسل المغيرة بهزيمة القوم إلى أبيه المهلب يخبره بذلك ، ثم دخل مدينة سابور فضحى مع الناس[1] .

فلما كان بعد الأضحى بثلاثة أيام إذا بالأزارقة وقد أقبلت بخيلها ورجلها مستعدين للموت . قال : وبلغ ذلك المهلب فعبى أصحابه كما كان يعبئهم ، ثم تقدم بنفسه حتى وقف أمام الخيل واتبعه بنوه ، فاختلط الخيلان بعضها ببعض وكلبت الأزارقة على المسلمين فاشتد القتال ، وحمل المهلب بنفسه على القوم فلم يزل يقاتل حتى جرح سبع عشرة جراحة ، فقال له رجل من أصحابه يقال له عباس الكندي : أيها الأمير ، أصلحك الله ! إن الله تبارك وتعالى قد جعل كفاية من ولدك وفتيانك وقومك وعشيرتك ، فَلِمَ تلقى هؤلاء الأعداء بنفسك ؟ فقال له المهلب : يا عباس ! إن الأسد إنما غلظت رقبته لأنه رسول نفسه ، يا عباس ! إن بني فرسان ولكنهم لا يبلغون في الحرب مبلغي ؛ فأنشأ كعب بن معدان الأشقري[2] في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

وليس إذا رأى ابن الورد بعدُ ومسحا بالمهلّب في الصباحِ

إلى آخرها .

قال : وعزمت الأزارقة على أن يبيت[3] المهلب في عسكره ، فزحفت[4]

---

(١) انظر تفاصيل هذه الوقعة في الكامل للمبرد ٣/١٣١٥ ـ ١٣١٦ .
(٢) الأصل : الأشعري . وما أثبت عن الكامل للمبرد .
(٣) الأصل : يتبت .
(٤) الأصل : فزحفوا .

الأزارقة في جوف الليل حتى أشرفوا على المهلب على باب سابور وعبيدة بن الهلال اليشكري أمام الأزارقة ، فالتفت إلى أصحابه وقال : أيقظوا القوم لكيلا يقولوا إننا أتيناهم وهم نيام ! قال : ثم جعل عبيدة يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

لسنا نريد غِرّة السُّباتِ إنّ اغترار بكم من السوءاتِ[1]

إلى آخرها .

قال : فاستيقظوا الناس وصاح المهلب بأصحابه ، وتصعصعت الرايات ، وأجمحت الفرسان ، وذاك في ليلة باردة ذات ثلج ومطر وريح منكرة . قال : وكان أول من ركب واستوى على فرسه مدرك بن المهلب ، فتقدم أمام الخيل وتبعه الناس وهم يقولون : ألا ! إنها روعة البيات ! فاتقوا الله واصبروا ! قال : ونظر مدرك بن المهلب إلى صالح بن مخراق في سواد الليل وهو يهدر كأنه الجمل الأورق ، وكان من فرسان الأزارقة والمعدودين فيهم ، فحمل عليه مدرك والتقيا[2] بضربتين ، ضربه صالح بن مخراق ضربة على بيضته ثبت لها مدرك ، ثم ضربه ضربة أداره عن فرسه ، فأقعى صالح على رجليه ، وتبددت خيل الأزارقة يمنة ويسرة ، ثم تراجعوا واشتبك الحرب ، فأصبح القوم وقد قتل من الأزارقة جماعة ؛ فأنشأ المغيرة بن حبناء يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

نفسي فداء أخي الحفيظة مدرك عند الثبات لوقعة كانت شجا

إلى آخرها .

قال : فعظم مدرك بن المهلب من تلك الليلة في صدور إخوته وأحبه الناس حباً شديداً . وإذا عين للمهلب أقبل إليه فقال : أيها الأمير ! إن أردت القوم الساعة فإن القوم قد صاروا إلى شعب بَوّان[3] ! قال : فنادى المهلب في أصحابه فركبوا ، وسار يريد القوم ، ونظرت الأزارقة إلى غبار الخيل فعلموا أنها خيل المهلب فتعبّوا للحرب ، وإذا قطري بن الفجاءة أمام الخيل وهو يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

---

(١) الرجز في شعر الخوارج .

(٢) الأصل : التقوا .

(٣) شعب بوان : وادٍ بين فارس وكرمان

إن شجانا في الوغى المهلّبُ ذاك الذي سنانه مخضّبُ[1]
إلى آخرها .

قال : ثم حمل عليه المهلب بنفسه والتقيا بطعنتين فافترقا بجراحتين . قال : وأطبقت الحرب على الفريقين ، وكان الفضل للأزارقة في أول النهار وللمهلب في آخره ، حتى انتصف بعضهم من بعض ، فأنشأ المغيرة بن حبناء[2] التميمي في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

إذا قطري جاءني مرجحنّة فشبهه الراؤون في الليل كوكبا
إلى آخرها .

قال : وارتحلت الأزارقة من موضعهم حتى صاروا إلى إصطخر ، قال : ونظرت الأزارقة وإذا خيل المهلب قد وافتهم فرجعوا إليه وقد صفوا صفوفهم ، ثم دنا بعضهم من بعض ، وخرج حطان الأيادي[3] وكان من فرسان الأزارقة وشجعانهم ذا بطش شديد لا يراه أحد إلا هابه وكره نزاله ، فخرج حتى وقف بين الجمعين ثم جعل يرتجز ويقول :

ادعوا بعباس وادعوا سعدا وابن أبي الزناق ادعوا غمدا
والعتكي اليحمدي جلدا ما إن أرى من النزال بُدّا

قال : فالتفت المهلب إلى عباس الكندي وكان من الأبطال ، فقال : يا عباس ! شأنك والرجل ! فإنه قد بدأ باسمك . قال : فخرج إليه عباس الكندي والتقيا[4] بطعنتين ، طعنه عباس طعنة انكسر رمحه في يده فبقي عباس بلا رمح ، فقال : يا حطان ! إنك رامح وقد انكسر رمحي ، فإن أردت النصفة فألق رمحك وسابقني ! فقال له حطان : قد أنصفت يا عباس ! قال : ثم رمى حطان برمحه وضرب بيده للسيف ، والتقيا للضراب ، بادره عباس بضربة على بيضته فقدّ البيضة ، ثم رمى حطان عن فرسه قتيلاً ؛ فأنشأ المغيرة بن حبناء[2] التميمي في ذلك يقول أبياتاً

(١) الشطران في شعر الخوارج .
(٢) الأصل : حسناء خطأ .
(٣) كذا . والأرجاز في شعر الخوارج ص ١١٧ ونسبت إليه أيضاً .
(٤) الأصل : والتقوا .

مطلعها :

دعاك شقي للشقاء فوارساً فعاجله دون الفوارس عباس

إلى آخرها .

قال : وانهزمت الأزارقة إلى إصطخر وتحصنوا[1] ، وأقبل المهلب في خيله ورجله حتى نزل عليهم فحاصرهم بها شهراً كاملاً . فلما كان بعد شهر خرجوا إليه وعزموا على المناجزة ، ونظر المهلب إليهم وإلى ما قد أعدوا له من آلة الحرب ، فقال لأصحابه : أيها الناس ! إن البادىء بالقتال مغلوب ، والمضطر معذور ، ومن وطىء في داره فقد ذل ، ومن صبر ظفر ، وقد تكون البلايا بالذنوب ، فانظروا كيف يكون صبركم اليوم . قال : ودنا القوم بعضهم من بعض ، وأقبل عبيدة بن هلال وعمرو القنا حتى نزلا ووقفا على تل مشرف على عسكر المهلب ، ثم رفع عمرو القنا صوته وهو يقول :

كفى حزناً إنا ثلاثون ليلة قريب وأعداء القران على خفض[2]
وما هكذا [إنّا] نكون وهذه أضاقت على عمرو القنا سعة الأرض
وأحسبهم أمسوا على حذو نعلنا فذاك بذاك القوم بعض على بعض[3]

قال : ثم انحط عمرو القنا عن التل على أصحاب المهلب كأنه باز خطوف وهو يرتجز ويقول شعراً . قال : ثم انفض عبيدة بن هلال من التل كأنه الفحل القطم وهو يرتجز ويقول شعراً .

قال : فالتفت المهلب إلى ابن أخ له يقال له بشر[4] فقال له : يابن أخ ! أحب أن تكفيني أمر عبيدة بن هلال وعمرو القنا جميعاً ! فقال بشر : أفعل ـ أصلح الله الأمير ـ! قال : ثم خرج بشر ابن أخي المهلب نحوهم وهو يرتجز ويقول شعراً . قال :

---

(١) ذكر المبرد أنهم أقاموا بإصطخر مختلفين فيما بينهم ، انظر في أسباب اختلافهم الكامل ٣/١٣٢٢ ـ ١٣٢٤ .

(٢) البيت في الكامل للمبرد ٣/١٣٢٤ وروايته فيه :

ألم تر أنا مذ ثلاثون ليلة قريب وأعداء الكتاب على خفض

(٣) الأبيات في شعر الخوارج ص ١٠٤ .

(٤) كذا ، ولعله بشر بن المغيرة بن المهلب كما في الكامل للمبرد ٣/١٣٢٥ .

ثم حمل بشر ابن أخي المهلب على عبيدة بن هلال فطعنه طعنة فإذا عبيدة في الأرض ، فحماه أصحابه ، وحمل عمرو القنا على بشر فالتقيا بضربتين ، ضربه بشر في وجهه فرده إلى ورائه ، ثم وقف في ميدان الحرب فأنشأ وجعل يقول أبياتاً مطلعها :

وكأني مُليكٌ إذ سطع النقـ ـع وحولي من الرماح عوالي

إلى آخرها .

قال : وتعاظم الأمر بين الفريقين فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وجعل قطري بن الفجاءة ينادي بأعلى صوته ويرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

سبحان ربي باعث العبادِ سبحان ربي حاكم المعادِ[1]

قال : وثار النقع وسطع الغبار وكلبت القوم بعضهم على بعض ، وضرب يومئذ المهلب على جبهته ضربة منكرة حتى كاد أن يسقط منها عن فرسه ، وتسايلت الدماء على وجهه ولحيته ، فأنشأ كعب بن معدان الأشقري[2] في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

خلص القتال إلى المهلب بعد ما منع الذمار وليس فينا مانعُ

إلى آخرها .

قال : وانكشفت الأزارقة من بين يدي المهلب مفضوحين وقد قتل منهم نيف عن ثلاثين رجلاً .

فلما كان من الغد زحف القوم بعضهم إلى بعض ، وأقبل المهلب على أصحابه فقال : أيها الناس ! إن كل من في عسكري فهو لي ، ألا ! وإني أحبكم ، وأحب ما إليّ أهل النجدة ، فانظروا من كان يحب منكم أحداً منهم فإني أعفيه عن صحبته رجلاً من ولدي حتى أجعله في صحبته . قال : فوثب فتى من أهل الكوفة يقال له مالك بن أبي حبان الأسدي فقال : أيها الأمير ! اسمع عني ما أقول ، فقال المهلب : قل ما بدا لك ! فأنشأ وجعل يقول :

اجعلنّي مع الحَرون كأني فارس الناس في عجاج الحرونِ
فإذا قادني سواه فإني لا أساوي عقال بانٍ زَبونِ

---

(١) الشطران في شعر الخوارج ص ١٢٩ .
(٢) بالأصل : الأشعري .

كلنا نطلب الحرون وما مَن كان يهوى الحرون بالمغبون
قد حمانا الركبان [منّا] جميعاً وحمانا بقرية الزيتون
إذ أتانا عبيدة بن هلال يقدم القوم في دموك طحون
وأتانا عمرو القنا بلواه مزبداً في العجاج كالمجنونِ
فدعاه المهلب بن أبي صفـ ـرة ليس الحرون كالمأفون
فكفاه ما همه وأتاه بعد ضيق الخناق بالتهوين

قال : فالتفت المهلب إلى ابنه حبيب فقال : يا بني ! خذ هذا الفتى إليك واعتقده واحتفظ به فإنه يحبك ، وأخرى أن ينفعك وقت حاجتك إليه .

قال : وتقدم عبيدة بن هلال أمام الأزارقة فجعل يرتجز ويقول :

حتى متى يقتلنا المغيرةْ ومدرك فيكم له عفيرةْ
أصغركم وحدكم كبيرةْ[1]

قال : ثم حمل على خيل المهلب وطاعن ساعة ورجع إلى عسكره ، وتقدم رجل من الأزارقة يقال له مالك بن قرير الطائي حتى وقف بين الجمعين فجعل يرتجز ويقول شعراً . قال : فما لبث أن خرج إليه فتى من أصحاب المهلب يكنى أبا الدرياق وكان شجاعاً ، فحمل عليه فطعنه طعنة فقتله ؛ فأنشأ رجل من أصحاب المهلب يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

سال النزال فتى الأزارق مالك فأجاب دعوته أبو[2] الدرياق

إلى آخرها .

قال : وأقبل رجل من الأزارقة يقال له عطية بن الأسود الحنفي إلى قطري بن الفجاءة فقال : يا أمير المؤمنين ! أريد أن توليني قتال المهلب وبنيه في هذا اليوم ! فقال قطري بن الفجاءة : قد فعلت ذلك . قال : فنادى عطية بن الأسود في فرسان الأزارقة فلم يبق منهم فارس مذكور إلا صار إليه ، فدنا عطية بن الأسود حتى وقف بين الجمعين في قتال الأزارقة وشجعانه . والتفت المهلب إلى ابنه يزيد فقال : يا بني ! هذا عطية بن الأسود قد أقبل في فرسان الأزارقة فاخرج إليه في إخوانك الذين

(١) الأشطار في شعر الخوارج ص ١١٠ .
(٢) بالأصل : أبا .

تثق بهم في الإقدام على المكروه . قال : فنادى يزيد بن المهلب في فرسان الأزد ، فاجتمعوا إليه من كل أَوب ، فقال لهم : اعلموا أنه من تخلف عني في وقت حاجتي إليه محوت اسمه من الديوان . قال فقال أصحابه : أبا خالد ! انظر إن تخلف منا عنك أحد فاضرب عنقه .

قال : فدنا يزيد بن المهلب في أصحابه ، ودنا عطية بن الأسود في أصحابه ، وتقدم فتى من بني ضبة من الأزارقة فجعل يقول شعراً . قال : ثم حمل الضبي على يزيد بن المهلب فضربه فلم يصنع شيئاً ، وضربه يـزيد ضـربة لم يتمكن منـه كما يريد ، فسقط الضبي إلى الأرض فأخذه يزيد أسيراً ، فلما رآه غلاماً شاباً استحيى أن يقتله فقال له : الحق بأهلك ما كنت الذي أقتل مثلك .

قال : ثم تقدم عطية بن الأسود حتى وقف بين الجمعين وطلب البراز ، فذهب يزيد بن المهلب ليخرج إليه ، فتقدم رجل من أصحابه فأخذ بلجام فرسه فقال : أبا خالد ! لا تخرج إليه فإنه من الأبطال المعدودين في الأزارقة ، قال : فغضب يزيد بن المهلب ثم قال : أطلق ويلك لجام الفرس وإلا هممتك بـالسيف ! قال : فتنحى الرجل وحمل يزيد بن المهلب على عطية بن الأسود فالتقيا بضربتين [وضربه يزيد] ضربة على بيضته فصرعه عن فرسه ، وهم أن يضربه أخرى غير أنه اشتغل بغيره ، فوثب عطية بعده حتى اختلط بالقوم ، فاقتتلوا يومهم ذلك إلى الليل . فلما اختلط القوم انهزمت الأزارقة وقد قتل منهم جماعة ؛ فأنشأ رجل من بني أسد في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

أتـانـا عـطيـة فـي خـيـله ... فقـال المهلب نـادوا يـزيـدا

إلى آخرها .

قال : فأقام القوم أياماً متحاجزين قد كف بعضهم عن بعض ، قال : وإذا قوم من الأزارقة[1] قد أقبلوا إلى سرح المهلب فاستاقوا منه نيفاً على ثلاثمائـة رأس . قال : فصاح المهلب بابنه مدرك ، فقال : يا بني ! إن السرح قد ذهب بعضه ، وإنما نحن بالله ثم بالسرح ، فالحق القوم ! قال : فنادى مدرك في فرسان الأزد ، فركبوا وركب مدرك في خيله نحو السرح حتى لحقه ، وإذا رجل من الأزارقة يسوق السرح

(١) في الكامل للمبرد ١٣٢٥/٣ أن صالح بن مخراق أغار على السرح .

وهو يرتجز ويقول شعراً[1] . قال : فلم يشعر الأزارقة إلا ومدرك بن المهلب قد وافاهم في خيله[2] ، فلما نظروا إليه رجعوا إليه ، فجعل رجل منهم يرتجز ويقول[3] :

أكل يوم يبعث المهلّبُ ... خيلاً عليه من بنيه أغلبُ
ليس لنا في الأرض منه مهرب ... لا شيء إلا الموت وإلا فاهربوا

قال : فحمل عليهم مدرك بن المهلب في خيله ، فقتل منهم من قتل واستنقذ السرح ، وانهزمت الأزارقة وتركوا عامة أموالهم ؛ فرجع مدرك بأسلاح وأسلاب القوم إلى العسكر ، فقال له المهلب : ما فعلت يا بني ؟ فقال : استنقذت السرح وجئت بعامة أسلاب القوم ؛ فقال : ولِمَ فاتك أحد منهم لم تقتله ؟ فقال : أصلح الله الأمير ! لقد قاتلت القوم أشد القتال ، ولولا ذلك لما قدرت على السرح . فقال المهلب : هيهات يا بني ! كل امرىء[4] لا أليه بنفسي فهو ضائع ! فقال له رجل من أصحابه[5] : أصلح الله الأمير ! لئن كنت لا تريد من الرجال إلا مثلك فلا والله ما فينا من يساوي شسع نعلك ؛ قال : ثم أنشأ ذلك الرجل يقول أبياتاً مطلعها :

قل للمهلب والسياسة كاسمه ... إن كنت تطلب للسياسة مثلكا

إلى آخرها .

قال : فبينا المهلب نازل على باب إصطخر محاصراً للأزارقة إذ خرجوا في جوف الليل يريدون الهرب منها إلى المدينة البيضاء[6] ، وذلك أنهم قد أكلوا جميع ما كان بمدينة إصطخر فخرجوا عنها هاربين ، واتصل الخبر بالمهلب ، فنادى في

---

(١) وأخذ رجل أسود من الأزارقة يشل السرح أي يطرده وهو يقول :

نحن قمعناكم بشل السرح ... وقد نكأنا القرح بعد القرح

انظر الكامل للمبرد ٣/١٣٢٥ - ١٣٢٦ .

(٢) في الكامل للمبرد ٣/١٣٢٥ فثار بشر بن المغيرة ومدرك والمفضل ابنا المهلب ، فسبق بشر إلى الطريق . وإذا برجل من الأزارقة يشل السرح . . . ولحقه المفضل ومدرك . . .

(٣) الأشطار في شعر الخوارج ص ١٤٩ .

(٤) في الكامل للمبرد ٣/١٣٢٥ : أمرٍ .

(٥) في الكامل للمبرد : فقال له بشر بن المغيرة .

(٦) المدينة البيضاء أكبر مدينة في كورة اصطخر .

أصحابه أن اركبوا ! ثم تبعهم . قال : والتفتت الأزارقة إلى خيل المهلب قد وافتهم ، فرجعوا إليه وعزموا على الموت ، فتقدم عبيدة بن هلال وحسر عن رأسه وهو يرتجز ويقول :

حتى متى يتبعنا المهلب كأنه في أثر صحبي كوكب
في كل يوم معزبات[1] شُزّب فرسانها من حنق تلتهب
ليس لنا في الأرض منهم مهرب ولا السماء أين أين المهرب[2]

قال : فحمل عليه بشر ابن أخي المهلب[3] فطعنه طعنة ، سقط عبيدة عن فرسه مفضوحاً ؛ فأنشأ بشر يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

يا مليك ابنة الملوك سلى بي وبطعني عبيدة بن هلالِ
إلى آخرها .

قال : وصاح صالح بن مخراق : يا معشر المهاجرين ! موتوا على دينكم ، وولوني قتال القوم ! قال : ثم تقدم صالح أمام القوم وجعل ينادي : يا معشر المحلين بشر لبشر ونفر لنفر ، والله لا برحت أموت أو تموتوا . قال : فالتفت المهلب إلى ابنه المفضل ، فقال : أبا غسان ! شأنك والرجل ، فاخرج إليه في أصحابك فإنه قد خرج في أصحابه ، فإن عجل فتأنّ وإن أمسك فتقدم . قال : فخرج المفضل بن المهلب في خيله حتى وقف قبالة صالح بن مخراق ، قال ثم قال : أنا أبو غسان فأثبت يابن مخراق ! قال : ثم عطف عليه المفضل والتقيا بضربتين ، ضربه المفضل انفلت منها صالح بن مخراق وهو يولول ، فناداه المفضل : إلى أين يابن مخراق ؟ إن كنت صادقاً فاثبت ! قال : فلم يجبه صالح إلى شيء واشتغل بما قد نزل به من الضربة . قال : واشتد القتال وجعلت الأزارقة كلما مل منهم قوم من القتال تأخروا وتقدم آخرون ، فقال المهلب : سبحان الله العظيم ! والله ما رأيت ولا سمعت بمثل هؤلاء القوم ساعة قط ، كان كل ما ينقص منهم أن يزيد فيهم . فقال المفضل : نعم والله ـ أصلح الله الأمير ! وأعجب من ذلك أني كلما قلت ملوا من الحرب قد عادوا حتى

---

(١) في شعر الخوارج : مقربات .

(٢) الأشطار الأول والخامس والسادس في الأخبار الطوال ص ٢٧٦ .

(٣) لعله بشر بن المغيرة بن المهلب ، وقد ورد اسمه كثيراً في الكامل للمبرد ، وأنه كان كثير البلاء في قتاله للخوارج .

كأنهم لم يفعلوا شيئاً . فقال المهلب : هكذا الرجال يا بني ، أما والله أن لولا الكتاب المؤجل إذاً لأبادونا أو أبدناهم .

قال : وضجرت الأزارقة وملوا من الطعن والضرب فولوا مدبرين نحو المدينة البيضاء ؛ فقال المهلب لأصحابه : لا تتبعوهم ! فوالله ما انصرفوا حتى انتصفوا منا وانتصفنا منهم . قال : فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمي في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

أتى ابن مخراق ليقضي نذره وكان إذا ما قال افعل تفعلوا

إلى آخرها .

قال : وأقبل المهلب حتى نزل على مدينة البيضاء والأزارقة مجتمعون بها ، فنزل عليهم وحاصرهم وضيّق عليهم غاية الضيق ، فلما رأوا ذلك خرجوا إليه كالسباع الضارية ، وجعل رجل منهم ينادي : يا معشر المحلين ! حتى متى نفر منكم ، هذا يوم نموت فيه جميعاً . قال : وتقدم عمرو القنا حتى وقف بين الجمعين وجعل ينادي : أين أبو غسان ؟ أين المفضل بن المهلب ؟ قال : فما لبث أن خرج إليه المفضل وبين يديه رجل من الأزد يحرضه على حرب القوم ، وهو يقول أبياتاً مطلعها :

اقدم فدتك النفس يا مفضّل فأنت من إخوتك المبجّل

إلى آخرها .

قال : فحمل عليه عمرو القنا[1] وفي يده لواء الأزارقة ، وحمل عليه المفضل فطعنه في صدره طعنة ، فأوهنه حتى سقط اللواء من يده فأخذ أصحاب المفضل اللواء من عمرو ، ومر عمرو مجروحاً لما به ؛ فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمي يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

يا عمرو لا تلقى المفضّل بعدها بلواء قومك إذ سُلِبْتَ لواءكا

إلى آخرها .

قال : وأقبلت الأزارقة على عمرو القنا فقالوا : يا عمرو ! إنه قد أخذ منك اللواء ورجع بغيرك ، ألا تعلم أنه عار عليك وعلى عشيرتك ! قال : فرجع عمرو القنا إلى الحرب ثانية ، واشتبك القتال بين الفريقين ، وحمل عمرو القنا على رجل من

---

(١) بالأصل : عمرو بن القنا .

أصحاب المفضل قد كان اللواء في يده ليأخذه منه ، وحمل عليه المفضل فضربه ضربة ثم قال : خذها يا عمرو ! أنا الغلام الأزدي . قال : فولى عمرو القنا منهزماً هو وأصحابه حتى دخلوا مدينة البيضاء ، وذلك في وقت المساء . فقال المهلب لابنه المفضل : ادن مني يا بني ! هكذا فكن كما كان آباؤك من قبل ؛ فأنشأ الأشرس الحرمي في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

قـل للمفضـل قـد شفيت نفـوسـاً يـوم التقى الجـمعـان بـالـبيـضـاء

إلى آخرها .

خبر سبرة[1] بن الجعد مع الحجاج بن يوسف

قال : ولما بلغ الحجاج ما فيه المهلب من حرب الأزارقة وما لقي منهم فاغتم لذلك غماً شديداً وامتنع من النوم وأرق ذات ليلة ، فلما طال عليه ذلك دعى بصاحب حرسه فقال : أخرج فائتني بمحدث يقطع عني بعض هذه الليلة ! قال : فخرج الحرسي فإذا هو برجل جسيم وسيم قد لقيه ، قال له : أجب الأمير ! قال : ففزع الرجل وطار عقله وأتى به حتى دخل على الحجاج ، فلما سلم قال له الحجاج : إيه ما عندك ! [فقال له الرجل : إيه ما عندك -][2] ، قال فقال الحجاج للحرسي : ويلك ! أمرتك أن تأتيني بمحدث فأتيتني برجل مرعوب قد ذهب عقله ، أخرجه عني ، أخرج الله نفسك ونفسه ! فخرج الحرسي فوجد إنساناً يصلي ، فقال له : كلم الحجاج ! قال : فأوجز الرجل في صلاته [ثم] أتى به حتى أدخل على الحجاج ، فسلم بلسان طلق ذلق[3] وقلب شديد ، فقال الحجاج : ممن الرجل ؟ قال : رجل من ربيعة ، قال : ومن أيها ؟ قال : من بني شيبان ، قال : فما اسمك وابن من ؟ قال : اسمي سبرة[4] بن الجعد ، قال الحجاج : اجلس يا سبرة بن الجعد وأخبرني هل قرأت القرآن ؟ فقال : نعم أيها الأمير لقد قرأته وجمعته في صدري ، فإن عملت به فقد حفظته وإن لم أعمل به فقد ضيعته .

---

(١) في مروج الذهب ٣/١٦٤ سُميرة بن الجعد .

(٢) زيادة عن مروج الذهب .

(٣) الذلق : الطلق الفصيح .

(٤) في مروج الذهب : سُميرة بن الجعد .

قال الحجاج : صدقت ؛ فهل علمت من الفرائض[1] ؟ فقال : نعم وإني لأعرف الاختلاف في الجد ؛ قال : فهل تبصر الفقه ؟

قال : نعم ، إني لأبصر منه ما أقوّم به أهلي وأرشد به ذا العماء من قومي .

قال : فهل نظرت في النجوم ؟ فقال : نعم ، إني لأعرف منازل القمر ، وما أهتدي[2] به في السفر ؛ قال : فهل تروي الشعر ؟ قال : نعم ، إني لأروي منه المثل وأعرف الشاهد من أيام العرب . قال : فاتخذه الحجاج سميراً وأجرى عليه رزقاً ، فلم يكن يسأله عن شيء من العلوم والأخبار والأحاديث والأسمار إلا وجد عنده من ذلك طرفاً[3] .

قال : وبلغ ذلك قطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة ، فاشتد عليه مكان سبرة بن الجعد من الحجاج لأنه كان قد يرى رأيهم ؛ قال : فكتب إليه قطري بن الفجاءة بهذه الأبيات :

لشتان ما بين [ابن] جعد وبيننا ... إذا نحن رحنا في الحديد المظاهرِ[4]
وراح ابن جعد الخير نحو أميره ... أمير بتقوى ربه غير آمر
نجالد[5] فرسان المهلب كلنا ... صبور على وقع السيوف البواتر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى ... وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل ... ولا بعث إلا للألى في المقابر
عراة حفاة والموات لديهم ... إلى ظلمة تغشى عيون النواظر[6]
وتب توبة تهدي إليك سعادة ... فإنك ذو ذنب ولست بكافر
فإن الذي قد نلت يفنى وإنما ... بقاؤك في الدنيا كوقعة طائر

---

(١) في مروج الذهب : فهل تفرض .
(٢) عن مروج الذهب ، وبالأصل : وما يهتدى .
(٣) في مروج الذهب : علماً .
(٤) « ابن » زيادة عن مروج الذهب . والمظاهر الذي لبس بعضه فوق بعض ، كأن يظاهر المحارب بين درعين ، والحديد : الدرع .
(٥) في مروج الذهب ١٦٥/٣ نجاهد .
(٦) البيت في مروج الذهب :

حفاة عراة والثواب لربهم ... فمن بين ذي ربح وآخر خاسر

وسر نحونا تلق[1] الجهاد غنيمة تفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسر[2]
هي الغاية القصوى العظيم ثوابها إذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر

قال : فلما قرأ سبرة[3] بن الجعد كتاب قطري بن الفجاءة توارى عن الحجاج ليلة من الليالي ، ثم ركب فرسه فلحق بالأزارقة فصار معهم . قال : وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه ، وجعل يسأل عنه فلم يعطه أحد خبره ، قال : فلم يرع الحجاج إلا وكتابه قد ورد عليه فيه شعر قطري بن الفجاءة الذي كان كتبه إليه ، وفيه هذه الأبيات إلى الحجاج :

فمن[4] مبلغ الحجاج أن سميره على كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه ملاعين تراكين قصد المناهج
فأي امرىء أي امرىء يابن يوسف ظفرت به لم يأت غير الولائج
إذاً لرأيت الحق منذ مخالفا لدينك إن كنت امرأ غير فالج
يسائلني الحجاج عن أمر دينه وليس هواه للصواب بواشج
فأضلل به من واشج خلجت به عن الدين والإسلام إحدى الخلائج
ونهّاب ثلج والمقيم بنهرها إذا قستها في البعد من ملء عالج
فيا ليتني إذ أمكنتني فرصة فتكت به فتك امرىء غر نافج
فقد كدت لولا الله أن أمزج الهوى هدى الحق من قلبي بمذقة مازج
فعممته مثل العقيقة صارماً يخال على متنيه ماء الصهارج
فأقبلت نحو الله بالله واثقاً وما كربتي غير[5] الإله بفارج
على ظهر محبوك العرى متمطراً إلى فتية بيض الوجوه بناهج
إلى قطريّ في الشراة معالجاً ولست إلى غير الشراة بعالج
إلى عصبة أما النهار فإنّهم صموت من الفحشاء غير ممازج
وأما إذا ما الليل جُنّ فإنهم هم الأسد أسد الحرب عند التهايج[6]

(١) عن مروج الذهب وبالأصل تلقى .
(٢) عن مروج الذهب . وبالأصل : بائر .
(٣) في مروج الذهب وشعر الخوارج ص ١٣٦ سميرة .
(٤) عن مروج الذهب ١٦٦/٣ وبالأصل « من » .
(٥) عن مروج الذهب وبالأصل « عند » .
(٦) البيتان في مروج الذهب :

يــنــادون بــالــتــحــكــيــم لله إنــهــم رأوا حكم عمــرو كــالــريــاح الهــوائــج
وحكم ابن قيس مثـل ذلك فـاعصمـوا بحبـل شـديـد الفتـل[1] ليس بنـاهـج
ولا خيـر في الدنيـا إذا الدين لم يكن صحيحـاً ولـم يصمد لقصـد المخـارج

قال : فلم قرأ الحجاج هذا الكتاب تغيّر لونه ووجهه ، ثم رماه إلى كاتبه[2] وقال : هذا كتاب سميرنا الشيباني وكان من الخوارج ولم نعلم . قـال : ثم جعل الحجاج يعض أنامله ويتأسف على ما فاته من قتله .

ثم رجعنا إلى أخبار الأزارقة

قال : وأصبحت الأزارقة ذات يوم فخرجوا عن مدينة البيضاء إلى حرب المهلب وأصحابه في تعبية لم يُر[3] مثلها قبل ذلك ، وزحفوا حتى جعلوا مدينة البيضاء من ورائهم ، وتقـدم رجل منهم من بني ضبـة يقال لـه زياد فجعـل ينادي : يـا معشـر المحلين ! هل من مبارز ! قال : فصاح المهلب برجل يقال له الرقاد بن عمرو[4] فقال له : يا رقاد ! أكفنا هذا الفارس ! فقال : أفعل أصلح الله الأمير ولو أمرتني بالبراز إلى من هو أعظم خطراً منه . ثم حمل الرقاد بن عمرو على زياد الضبي ، فطعنه طعنة خرّ منها قتيلاً . قال : ونظرت الأزارقة إلى زياد الضبي قد سقط فضجوا بالبكاء ، ثم انهم استماتوا فجعلوا يقاتلون أشد القتال إلى أن اختلط الظلام ثم تحاجز الفريقان وقد انتصف منهم خيل المهلب ؛ فأنشأ كعب بن معدان الأشقري[5] يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

ولــمــا بــدت خــيــل تــنــادي بــأن الــصــيــاح لِــلأعــادي
إلى آخرها .

= إلـى عـصـبـة أمـا الـنـهـار فـإنـهـم هم الأسـد أسـد الغيـل عنـد التهـايـج
وأمـا إذا مـا الـلـيـل جـنّ فـإنـهـم قـيـام كـأنـواح الـنـسـاء الـنـواشـج

(١) في مروج الذهب : المتن .
(٢) في مروج الذهب : إلى عنبسة بن سعيد .
(٣) الأصل : لم يرى .
(٤) في الكامل للمبرد ١٣٢٧/٣ الرقاد ، من فرسان المهلب ، وهو أحد بني مالك بن ربيعة .
(٥) في الأصل « الأشعري » خطأ .

خبر الجاريتين ابنتي تبع الحميري وخبر محمد بن يوسف أخي الحجاج وخبر السيف وهذا داخل في حديث الأزارقة

قال الهيثم بن عدي في بعض أخباره : كان محمد بن يوسف أخو الحجاج بن يوسف يومئذ عاملاً على اليمن من قبل الحجاج ، فدلوه على مطمورة هناك ، فحفرها فإذا هو بحجر منقور طويل ، وفي الحجر جاريتان عند رؤوسهما لوح من حجر مكتوب فيه بالحميري : « يا أخي ! وهذه أختي لميس ، ونحن ابنتا تبع الحميري ، غير أننا متنا ولا نشرك بالله شيئاً . وإذا عند رأس إحداهما[1] هذه الأبيات مكتوبة في الحجر :

كنت العزيزة في قومي فما امتنعت ... نفسي بعزتها لمّا أتى القدرُ
لما أتاني الذي قد كنت أحذره ... سلمت واستعجلتني عبرة درر
وارفض من كان حولي من ذوي ثقة ... كيما أوارى فلا شخص ولا أثر
وأخرجوني من الدنيا وزينتها ... وصار أكبر ما ألحقته المدر

قال : وإذا عند رأس الأخرى مكتوب في الحجر هذه الأبيات :

جار الزمان علينا مثل ما صنعت ... أيامه بابن ذي الصقرين ذي يزنِ
كنا نرى وملاهي الدهر تذهلنا ... إن المنعّم قد تعرى من الحزن
كانت لنا جنة خضراء معشبة ... للطير والوحش فيها صوت مرتهن

قال : وإذا بين هاتين سيف مأثور لا يدرى ما قيمته ، قال : فأخذ محمد بن يوسف ذلك السيف وخرج من المطمورة ورد الحفر إلى ما كان . ثم كتب إلى الحجاج يعلمه أمر المطمورة وبعث إليه بذلك السيف ، قال : فنظر الحجاج إلى سيف قاطع من سيوف الأولين ، فقال لجلسائه : ما يصلح هذا السيف إلا للمهلب يقاتل به هؤلاء الخوارج . قال : فبعث الحجاج بذلك السيف إلى المهلب وأمره أن يدفعه إلى أشد أولاده وأشجعهم . قال : فوهب المهلب هذا السيف لابنه المغيرة . وزحفت الأزارقة نحو المهلب في جيش لجب ، وتقلد المغيرة بذلك السيف وخرج نحو الأزارقة ، ودنت الأزارقة يقدمهم صالح بن مخراق العبدي شاكاً في السلاح ، وعلى رأسه بيضة مجلية ، وقد وضع على قفاه مزردة محشية بالقز وهو يرتجز ويقول :

---

(١) الأصل : إحداهم .

قـل لـلمحلين أتـاكـم صـالـحُ وصـالـح في الحـرب كبش نـاطـحُ
وصـالـح في الغيـل ليث كـالـح وصـالـح ظـفـر ونـاب جـارح
يهـوي بـه طـرف سريـع سـالـح في كـفـه عـضـب حـسـام لائـح

ثم حمل على خيل المهلب ، وحمل عليه المغيرة بذلك السيف فضربه ضربة على بيضته فقدها حتى أسرع السيف إلى رأسه وسقط صالح بن مخراق عن فرسه ، فحماه أصحابه وهو لما به ؛ ثم حمل المغيرة على جميع الأزارقة وكان لا يضرب منهم بسيفه أحداً إلا جندله صريعاً . قال : فلم يزل كذلك حتى انكشفوا من بين يديه ، ثم رجع المغيرة إلى أبيه والسيف بيده خضيباً بالدماء . قال فقال المهلب : أحسنت يا بني ! لقد أخذته بحقه[1] ، وأنا كاتب إلى الحجاج بما صنعت في هذا اليوم ؛ فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمي يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

قـل للمهـلب قـد وقيت نفـوسـنـا ببـنـيـك فـعـلة تـبّـعٍ ذي الـتـاجِ
إلى آخرها .

ذكر اختلاف الخوارج وتشتيت أمرهم

قال : ووقع الخلاف بين الأزارقة فاختلفوا فصاروا على ثلاث فرق : فرقة مع صاحبهم قطري بن الفجاءة ، وفرقة مع عبد ربه الكبير ، وفرقة مع عبد ربه الصغير . قال : وتشتتت أمورهم واختلفت كلمتهم ؛ فأنشأ رجل منهم يقول في ذلـك أبياتـاً مطلعها :

كفى حـزنـاً أن الخـوارج أصبحـوا قـد انشتت نيـاتهـم فتصـدّعـوا[2]
إلى آخرها .

قال : وبلغ المهلب ما هم فيه من التشتيت والاختلاف ، فقال لأصحابـه : أبشـروا ! فهذا الـذي كنت أرجو من هؤلاء الخـوارج ، وقد أذن الله في هـلاكهم وبوارهم .

ثم وثب رجل منهم يقال له الصلت بن مُرّة الأيـادي إلى قطري بن الفجـاءة

(١) انظر رواية أخرى ذكرها المبرد في الكامل ١٣٣٢/٣ .
(٢) البيت في شعر الخوارج ص ١٥٠ .

فقال : يا أمير المؤمنين ! إننا كنا مرة أفاعي فأصبحنا اليوم خنافس ، وقد كنا أسوداً فأصبحنا ضباعاً ، وقد أصبح المهلب يرجو منّا ما كنا نرجو منه ، وقد بلغني أنك تريد الهرب ، فإن [1] كنت إنما تريد الله والدار الآخرة فاثبت ومت حتى نموت معك ، وإلا فدع أصحابك حتى يستأمنوا إلى المهلب فإنه يؤمنهم ؛ قال : ثم أنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

أبقى لنا عبد رب بعد ألفتنا   طعن الصدور فصرنا ضحكة العربِ [2]

إلى آخرها .

قال : فلما سمع قطري بن الفجاءة هذه الأبيات استعبر باكياً ووطّن نفسه على الموت ، ونادى فيمن أجابه من الأزارقة وزحف إلى المهلب وأصحابه ؛ ودنا القوم بعضهم من بعض ، وتقدم قطري أمام الخيل وهو يرتجز ويقول شعراً . قال : فما لبث قطري بن الفجاءة أن خرج إليه المهلب بنفسه وهو يرتجز ويقول :

يا قطري أين أين المهرب   لا أين منك والفتى المهلبُ
يطعن أحياناً وحيناً يضرب   كأنه وسط العجاج يلعب

قال : فعلم قطري أنه المهلب فجعل يرتجز وهو يقول :

إن يلقني بجده المهلب   اصبر وإلا لم يضرني المهربُ
شيخ بشيخ ذا وذا مجرب   رمحاهما كلاهما مخضبُ [3]

قال : فاقتتل القوم يومهم ذلك إلى الليل . وارتحل عبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير نحو بلاد كرمان أحدهم في سبعة آلاف والآخر في أربعة آلاف ، فصار كل

---

(١) في الكامل للمبرد ١٣٣٦/٣ : إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا .

(٢) ورد في شعر الخوارج منسوباً مع أبيات أخرى إلى زيد بن جندب الأزرقي . وفي الكامل للمبرد ١٣٣٦/٣ - ١٣٣٧ ذكر للصلت بن مرة أبياتاً أخرى :

قل للمحلين قد قرّت عيونكم   بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناساً على دين ففرقنا   طول الجدال وخلط الجد باللعب
ما كان أغنى رجالاً ضل سعيهم   عن الجدال وأغناهم عن الخطب
إني لأهونكم في الأرض مضطرباً   ما لي سوى فرسي والرمح من نشب

(٣) الأشطار في شعر الخوارج ص ١٢٩

واحد منهم على حدة . قال : وارتحل قطري بن الفجاءة حتى صار إلى مدينة جِيرفت[1] فنزلها فيمن بقي معه من أصحابه . قال : وجعل كل واحد من هؤلاء القوم يعزم على قتال المهلب بنفسه وأصحابه ليتبين صبره وجهاده من جهاد غيره ، وأنشأ كعب بن معدان يقول أبياتاً مطلعها :

دعـوا التبـايـع والإسـراع وارتقبـوا إنّ الـمحـارب يـشنـئـني ويـنـتـظرُ

إلى آخرها .

قال : واشتد الحصار على قطري بن الفجاءة وأصحابه بمدينة جيرفت ، واتصل الخبر بأصحابه أنه يريد الهرب ، فقام إليه رجل من الأزارقة يقال له عامر بن عمرو السعدي فقال : يا أمير المؤمنين ! إننا قد بلغنا عنك أنك تريد الهرب ، فإن قاتلتَ قاتلتُ معك ، وإن هربت فأنا أبرأ إلى الله منك ! فقال قطري بن الفجاءة : مَن هٰهنا اضربوا عنقه ! قال : فضرب عنق السعدي . فوثب ابن عم له فقال له : يا أمير المؤمنين ! يكلمك ابن عمي بكلمة فيها رضى فتأمر بضرب عنقه ! لا يجب أن يكون جوابك القتل ، وعقابك السيف ، فإن الطاغي يوجع ، والمستعتب يعتب ؛ ألا والله لم يبق معك أحد إلا فارقك ! فإن فعالك هذه من فعال الجبارين ؛ ثم أنشأ يقول[2] :

أيـا قـطريّ بـن الفـجـاءة مـا لـنـا من النصف شيء غير فعل الجبابرِ
أمـا تستـحي يـابـن الفـجـاءة التي لبست بهـا عـاراً وأنت مهـاجـر[3]
أفي كـل يـوم للمـهلب أسلمت[4] لـه شـفـتـاك الـفمُّ والـقـلب طـائـر
فـحتى متـى هـذا الـفـرار حـذاره وأنـت ولـي والـمـهـلب كـافـر
[و] إن قـال يـومـاً عـامـرِ فضربتـه بـأبـيض مصـقـول فـللّه عـامـر
أسـرت ولـم تـأمـر بـه فـدمـاؤه تسيـل على ثـوبيـه والـرأس نـادر

---

(١) جيرفت : مدينة بكرمان .

(٢) الأبيات في شعر الخوارج ونسبها إلى حصين بن حفصة السعدي ص ١١٨ وبعضها في الأخبار الطوال ص ٢٧٧ ونسبها إلى رجل من أصحاب قطري بن الفجاءة .

(٣) البيت في الأخبار الطوال :

أيـا قـطري الـخيـر إن كـنـت هـاربـاً سـتـلبـسـنـا عـاراً وأنـت مـهـاجـر

(٤) الأخبار الطوال :

إذا قيل قد جاء المهلب

أمـا حسبنـا من عبـد رب وصحبـه — شجى نـاشب لم تبتلعـه الحنـاجـر
قتلت الـذي لا تستـطيـع فـراقـه — حيـاتـك لا تنفـع وموتـك صـائـر
فمت قـطري إن في المـوت راحـة — وأنـت لـديـه لا محـالـة سـائـر

قال : فهم به قطري أن يقتله ، ثم إنه خشي أن يلتاث عليه أهل عسكره فسكت عنه ، وجاء الليل فهرب ذلك الرجل في جماعة من الأزارقة حتى صاروا إلى المهلب فاستأمنوه ، فأمّنهم وأحسن جوائزهم ؛ ثم أنشأ ذلك الرجل يقول[1] :

قـد قلت لمـا أرهجت لي عجـاجـة — هـوى قـطري وسـطهـا يتـذبـذبُ
فيـا قـطري بن الفجـاءة مـا لنـا — جـواب لـحـاك الله إلا المشـطب
فـلمـا أبى إلا الـلجـاج بـقـتـلنـا — نـظرت وكـان المستجـار المهـلب
عفـوّ عن الـذنـب العـظيـم كـأنـه — لمن ليس يـرجـو العفـو عن ذنبـه أب
عـقـوبتـه فيـمـا يعـاقـب غيـره — عليـه بمصقـول الـظُّبى حين يغضب
يعـاتبـه المـرء الشفيق نصيحـة — يـزيـدهم عفـواً إذا القـوم أذنبـوا
لحقتُ بـه مـا استبـان ضـلالـه — كـأني إليـه[2] كنت بـالأمس أهـرب
فمـا جئتـه أغشـو إليـه بشبهـة — ولا طـالبـاً مـالاً ولا المـال أطلب
ولـكـنـني أحـدثـت لله تـوبـة — فـفـلت إلـيهـا والـقلوب تـقـلب
ولم تـك لي بعـد البصيـرة عرجـة — ولم يـك لي بعـد المهلب مـذهـب

قال : وبقي قطري بن الفجاءة مغموماً [فيما] هو فيه ، لأنه قد فارقه رجال من أصحابه ، ففرقة مع عبد ربه بوادي كرمان ، والذين هم معه بجيرفت هو منهم على وجل فلم يدر ما يصنع ، وضاق به الأمر ؛ فأنشأ يقول[3] :

أقـول لنفسي حين طـال حصـارهـا — وفـارقـهـا للحـادثـات نصيـرُهـا
لكِ الخيرُ موتي إنّ في الموت راحـةً — فيـأتي عليهـا حَينهـا مـا نصيـرهـا[4]
فلو أنهـا تـرجـو الحيـاة عـذرتنـا — ولكنهـا للمـوت يحـدي بعيـرهـا
وقـد كنت أوفي للمـهلب صـاعـه — ويشجى بنـا والخيـل يثني نحـورُهـا

(١) الأبيات في شعر الخوارج ص ١١٨ ـ ١١٩ .
(٢) في الأصل : إليهما .
(٣) الأبيات في شعر الخوارج ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
(٤) شعر الخوارج : ما يضيرها .

إذا مـا أتت خيـل لـخيـل لـقيتهـا بـأقرانهـا أسـداً يـداني زئيـرهـا
ولا يـبتـغـي الـهـنـدي إلا رؤوسـهـا ولا يـلتقـي الـخـطّي إلا صـدورهـا
فـفـرق أمـري عبـد رب وصـحبـه أدار رحى مـوتٍ عليهـا مـديـرهـا
فقـدمـاً رأى منـا المهلب فـرصـة فهـا تلك أعـداتي طـويـل سـرورهـا
وأعـظم مـن هـذا علـيّ مـصيـبـة إذا ذكـرتهـا النفس طـال زفيـرهـا
فـراق رجـال لـم يـكـونـوا أذلـة وقتـل رجـال جـاش منهـا ضميـرهـا
لقـوني بـالأمـر الـذي في نفـوسهم ولا يـقتـل الـفـجـار إلا فـجـورهـا
عبـرنـا[1] زمـانـاً والشـراة بغبـطة يـسـرّ بهـا مـأمـورهـا وأميـرهـا

قال : ثم أرسل قطري إلى من كان معه في مدينة جيرفت وأوصاهم وعهد إليهم وقال : اعلموا أني قد عزمت غداً على الخروج إلى المهلب وأصحابه فانظروا كيف تكونون ! فأرسلوا إليه أن يا أمير المؤمنين إننا قد عزمنا على الموت، فاعـزم على ذلك . فلما كان من الغد فتح القوم أبواب المدينة وخرجوا منها إلى لقـاء المهلب وأصحابه في زيادة على عشرة آلاف ، وعبّى المهلب أصحابه كما كان يعبيهم من قبل ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، واختلطوا وتلاحموا واقتتلوا قتالاً نسوا ما كان قبل ذلك ، ولم يزالوا على ذلك يومين وليلتين .

فلما كان اليـوم الثالث أقبـل عبد ربـه الصغير على أصحـابه وهـو في أربعة آلاف ، فقال : ويحكم يا معشر المهاجرين ! إن قطريّاً وأصحابه في الحرب منـذ يومين وليلتين ، وهذا عار علينا أن نسلم إخواننا ، ولكن سيروا بنا إليهم . قال : فلم يشعر المهلب إلا وعسكر لجب قد وافاه في أربعة آلاف من الأزارقة ؛ فقـال لابنه يزيد : أبا خالد ! هذا عبد ربه الصغير قد أقبل ، فاضمم إليك من أحببت من العسكر واكفني أمره ، ودعني وقطري بن الفجاءة وأصحابه : قال : فما انتصف النهار حتى قتل عبد ربه الصغير وقتل عامة أصحابه ، فما انفلت منهم إلا شرذمة قليلون . ونظر قطري إلى ما قد نزل بعبد ربه الصغير وأصحابه فولّى منهزماً ، ووضع السيف في أصحابه فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ونجا قطري وأصحابه في الذين بقوا معه ، فمر هارباً على وجهه ؛ فأنشأ كعب بن معدان الأشقري[2] يقول أبياتاً مطلعها :

(١) في شعر الخوارج : غبرنا .
(٢) الأصل : الأشعري .

نجا قطري والرماح تنوشه على سابح نهد التليل مقرّع

إلى آخرها .

قال : ومضى قطري بن الفجاءة هارباً على وجهه حتى صار إلى مدينة الري ومعه عبيدة بن هلال ومن تبعهم من الأزارقة ، فلما صار القوم إلى بلد الري افترقوا ، فصار قطري إلى ناحية طبرستان ، ومضى عبيدة بن هلال في نفر من أصحابه إلى بلد قومس[1] ، فنزلها ثم بعث إلى المهلب بن أبي صفرة بهذه الأبيات :

طال ليلي وغيّر الدهر حالي ورماني بصائبات النبالِ
أفرق الدهر بيننا أي قطري ورمانا بفتنة الدجال
وأرى عبد ربه ترك الحـ ـق فهذان في الردى والضلال
أوقدوها على الشراة وقالوا شنّ هذا عبيدة بن هلال
ولعمري إن هما زعماه لقليل في جمعهم أمثالي
إنني للصبور في حمس[2] الحر ب بصير بما عليّ وما لي
غير أني لم أحببها عَلِم الـلـ ـه ولا حل في اللجاج عقالي
قرة العين بالشراة وأمسى للمحلين غير ما زلزال
وتبارى المهلب بن أبي صفـ ـرة للقوم عند هلك الرجال
مد رجليه للفراغ من الحر ب ومد اليدين للأنفال
وعيالي يطرحون بجيرفـ ـت لك الخير أين مني عيالي
إن تنلهم يد المهلب في الحر ب سبايا فإنني لا أبالي
يمنع الشيخ منهم عظم الخطـ ـب وأن ليس بيعهم بحلال
إن من خالة المهلب في النا س له هيبة وعز جلالي[3]

قال : فذكروا أن المهلب قد وصلت إليه هذه الأبيات ، فلما ظفر بمن بقي من الأزارقة اشترى عيال عبيدة بن هلال وأولاده بخمسين ألف درهم من ماله وألحقهم بقومه .

---

(١) بالأصل : قومص . وفي معجم البلدان : قومس بالسين في ذيل جبال طبرستان .
(٢) الأصل : خمس .
(٣) الأبيات في شعر الخوارج ص ١١٢ .

قال : وانضمت الأزارقة إلى عبد ربه الكبير فبايعوه بالخلافة وقالوا : نحن معك أو نفنى عن آخرنا . قال : فغضب لذلك عطية بن الأسود وخرج من العسكر مخالفاً لعبد ربه ، وتبعه عبد ربه في نفر من أصحابه فقال : يا أبا الأسود ! ارجع رحمك الله ولا تشق العصا ، فإن الناس قد بايعوني ، فلا تخالف ما عليه إخوانك ، فقال له عطية بن الأسود : لا حاجة لي في المقام معك . قال : فحمل عليه عبد ربه فطعنه في خاصرته طعنة فقتله ورجع إلى عسكره ، فلما كان الليل لم يبق أحد من أصحاب عطية إلا خرج من العسكر وهم يقولون : الصلاة خلف عبد ربه حرام بعد هذا ، ثم صاروا إلى المهلب فاستأمنوا إليه ، فأمنهم وأحسن جوائزهم .

قال : وجمع عبد ربه الكبير من بقي معه من أصحابه ثم قام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا معشر المهاجرين ! فإن كنتم فقدتم الرجال فلم تفقدوا الإسلام ، وقد أراحكم الله من خمسة أشياء : من جفاء قطري بن الفجاءة ، وأخلاط عبيدة بن هلال ، ونخوة عمرو القنا ، وغيّ عبد ربه الصغير ، وفتنة عطية بن الأسود ؛ وقد صيركم الله إلى بصائركم الأولى ، فاحمدوا الله على ذلك ! وقد علمتم أن المهلب قد نزل بمدينة جيرفت واحتوى على غنائم إخوانكم وبني أعمامكم ، وأنا سائر إليه فسيروا على بركة الله .

قال : ثم سار وسارت الأزارقة معه نحو مدينة جيرفت ، وبلغ ذلك المهلب فنادى في أصحابه وأمرهم بالرحيل ، ثم خرج من جيرفت كالمنهزم عنها ، وأقبل عبد ربه في الأزارقة وقد بلغه خروج المهلب من جيرفت ، فظن أنه قد انهزم بين يديه ، فأقبل حتى دخل المدينة فنزلها في أصحابه . وعلم المهلب بذلك فرجع حتى نزل بجيرفت وجميع جنده ؛ ثم إنه قام في الناس خطيباً وقال : أيها الناس ! إنكم نلتم ما رجوتم في عدوكم من الفرقة والتشتيت ، وقد[1] كفاكم الله خمسة من قرناء الشيطان : قطري بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وعطية بن الأسود ، وعمرو القنا ، وعبد ربه الصغير ؛ وقد بقي عبد ربه الكبير ، وأنا أرجو أن يقتله الله غداً إن شاء الله ، والقوم لاقوكم فاصبروا . فقال[2] الناس : سمعاً وطاعة ! قال : فعندها عزم المهلب

---

(١) في الكامل للمبرد ١٣٣٩/٣ إن الله عزَّ وجلّ قد أراحكم من أقران أربعة : قطري بن الفجاءة وصالح بن مخراق وعبيدة بن هلال وسعد الطلائع ، وإنما بين أيديكم عبد ربه في خشارة من خشارة الشيطان تقتلونهم إن شاء الله .

(٢) الأصل : فقالوا .

على مناجزة القوم ، وجعل يقول لأصحابه : لا تبدأوهم بالتقال حتى يبدأوكم ، فإن القوم متكلون على ما في المدينة من الأطعمة ، ولقد نفد ما عندهم وجاعوا وإلا خرجوا إليكم . قال : واشتد الحصار على الأزارقة في مدينة جيرفت حتى أكلوا جميع ما قدروا عليه ، ثم إنهم خرجوا إلى حرب المهلب في تعبية وجيش لجب ، قال : وعبى المهلب أصحابه كراديس ، وجعل في كل كردوس رجلاً من أولاده ، ثم أقبل عليهم وقال : يا بني ! إنما أقاتل لله ، وأنتم تقاتلون لله وعن أبيكم ، وتذبون عن دين الإسلام ، وليس يقاتل معكم إلا من رزقه الله النية في الجهاد ، وليس أحد أولى بحربهم منكم ، فقاتلوا واصبروا وكونوا كما قال أخو قيس حيث يقول :

إن على أهل اللواء حقا ... أن يخضبوا الصعدة أو يبرقا

واعلموا يا بني ! أنكم لا تملكون رقاب الناس وإنما تملكون طاعتهم ، فكونوا كما قال الأول :

إذا أعطيتُ راحلة ورحلا ... ولم أوضع فقام عليّ ناعي

قال : فعندها جد بنو المهلب في القتال ، وإذا غلام من الأزارقة وقد وقف على تلّ مرتفع ورفع صوته وجعل يقول[1] :

أفرق الأمرَ بيننا قُطَريّ ... ولهجنا بلفظ قيل وقالِ
ورمانا عمرو القنا بهواه ... وأخوه عبيدة بن هلال
ورضينا بعبد ربه والمر ... ء رهين بجاذب الأهوال
فلقد عاين المهلب ما كا ... ن رجا من تقارب الآجال

قال : ثم حمل ذلك الغلام على أصحاب المهلب فلم يزل يقاتل حتى قتل ، واشتد الحرب على باب جيرفت يومهم ذلك من وقت الضحى إلى أن غابت الشمس . قال : وصاح رجل من أصحاب المهلب يقال له سلقط[2] بن عمرو فقال : أيها الناس ! إنه قد جاء الليل وغابت الشمس والليل لا يقاتل فيه إلا الشجاع المطبوع على الشجاعة ، فأيكم يبايعني على الموت ؟ قال : فانتدبت له جماعة من فتيان الأزد ، وتقدم سلقط هذا فيمن اجتمع إليه نحو الأزارقة ، فلم يزل يقاتلهم هو

(١) الأبيات في شعر الخوارج ص ١٥٠ .
(٢) كذا ، ولم نجده فيما لدينا .

وأصحابه حتى ألجأهم إلى وادي جيرفت ، وصاح المهلب بابنه يزيد فقال : يا بني ! ابسط خيلك على القوم ، قال : فبسط يزيد خيله على الأزارقة ، وثبتت الأزارقة للحرب.، وجعل أصحاب يزيد بن المهلب لا يرون داعياً من الأزارقة إلا ورموه بالحجارة ، فلم يزالوا كذلك إلى الصباح حتى قتل من الأزارقة بشر كثير ، وقتل سلقط بن عمرو الأزدي ؛ فأنشأ سماعة بن يزيد يقول أبياتاً مطلعها :

تـوى سلقطٍ في حومـة الحرب مسنـدا فيـا عين جُـودِي بـالـدمـوع لسلقطِ

إلى آخرها .

قال : وولّت الأزارقة منهزمين حتى دخلوا مدينة جيرفت بشرّ وعر ، فأقاموا يومهم ذلك . فلما كان الليل إذا برجل من الأزارقة قد أشرف على سور المدينة وهو يقول أبياتاً مطلعها :

إلى الله أشكـو كـربـة أن تفـرّجـا وهمّاً دخيلاً لا أرى منه مخرجا[1]

إلى آخرها .

قال : فلما سمع المهلب شعره التفت إلى رجل من أصحابه فقال : اسأله ممن هو ؟ فناداه ذلك الرجل : أيها المتكلم ممن تكون ؟ فقال : أنا رجل من الأزد من أهل الكوفة ، وأنا ابن عم سراقة البارقي ، وأيم الله أني لخائف أن أبتلي الفتنة .

قال : فلما أصبح المهلب عبى أصحابه للحرب ودنا من باب جيرفت ، وبلغ ذلك عبد ربه رئيس الأزارقة فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[2] : يا معشر المهاجرين ! إن قطري بن الفجاءة عبيدة بن هلال وعمرو القنا وشيعتهم إنما هربوا رجاء البقاء . وليس إلى البقاء من سبيل وقد زحف إليكم القوم ، وهؤلاء قوم بحدهم وحديثهم ، فإن غلبوكم على الحياة فلا يغلبوكم على الموت ، فانظروا أن لا يبقى الرماح إلا بالنحور والسيوف إلا بالوجوه ، وتعجلوا إلى قبل أحداث هذه الدنيا ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا يهبها لكم في الآخرة ، ولا تيأسوا من النصر ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

قال : فخرجت الأزارقة مستميتين[3] وقد عزموا على الموت . ودنا القوم

(١) الشطران في شعر الخوارج ص ١٥١ .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٣/١٢٩ حوادث سنة ٧٧ . والكامل للمبرد ٣/١٣٤٠ باختلاف بين النصوص .

(٣) في الأصل : مستميتون .

بعضهم من بعض ، ثم أقبل رجل من الأزارقة حتى وقف بين الجمعين ، قال : وجعل يرتجز ويقول :

إن كان قد فارقتنا عبيده | وقطري ذو المدى البعيده
فعبد رب حمزه عنيده | وشوكه وكيده شديده[1]

قال : ثم حمل على أصحاب المهلب فكبا به فرسه فسقط إلى الأرض ، فأخذ أسيراً وأتي به إلى المهلب حتى وقف بين يديه ؛ فقال المهلب : اضربوا عنقه ! فقال : أيها الأمير ! أنا ابن عم لك ، أنا رجل من الأزد من بارق ، وأنا صاحب الشعر البارحة . قال : فخلى عنه المهلب ولم يقتله . واختلط القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وصاح عبد ربه بأصحابه : يا معشر المهاجرين ! روحوا إلى الله فإن القوم رائحون إلى النار . قال : فعندها كلبت الأزارقة واشتد القتال ، ونزل عبد ربه عن فرسه فكسر جفن سيفه ، ونزلت معه الأزارقة وكسروا جفون سيوفهم ، وعزموا على الموت . ونادى المهلب بأصحابه : يا معشر المسلمين ! إن هذا يوم له ما بعده من الأيام وبصبركم أمس بلغتم اليوم ، وبصبركم اليوم تبلغون غداً . قال : وكثرت القتلى في الأزارقة وعضهم السلاح وكأنهم كاعوا عن الحرب ، ونظر المهلب إلى ذلك ، فجمع أولاده وأبطال أصحابه ، ثم حمل وحملوا معه ، فقتل عبد ربه وقتل معه قريب من أربعة آلاف رجل في ربضة واحدة ، وسالت دماؤهم إلى وادي جيرفت حتى احمر ماء الوادي ، وبقي الباقون بلا نظام فولوا هاربين ؛ فمنهم من دخل إلى مدينة جيرفت ، ومنهم من استأمن إلى المهلب فأمنه ، ومنهم من هرب على وجهه في البلاد . ودخل المهلب إلى مدينة جيرفت فاحتوى على ما كان فيها من أمتعة الأزارقة ودوابهم وسلاحهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم[2] ؛ فأنشأ كعب بن معدان الأشقري[3] يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

ألم يأتها أن الأزارق شردوا | وصارت عليهم في البلاد الفضائحُ

إلى آخرها .

---

(١) الأشطار في شعر الخوارج ص ١٥٢ .

(٢) انظر تفاصيل حول هذه المعركة الكامل للمبرد ١٣٣٩/٣ والكامل لابن الأثير ١٢٩/٣ حوادث سنة ٧٧ .

(٣) الأصل : الأشعري .

قال : ثم جمع المهلب غنائم الأزارقة فجعل يقسمها في أصحابه على أقدارهم ومراتبهم ، ثم أقبل حتى نزل في أصل شجرة في موضع سوق جيرفت وقال : يا غلام ! خذ عني سلاحي ، قال : فنزع الغلام درعه وخفيه ، وعلق سيفه على الشجرة ، ثم مد رجليه وقال : الحمد الله الذي ردنا إلى ما كنّا عليه من الخفض والدّعة ، فإنه ما كان عيشنا بعيش ؛ فأنشأ رجل من أصحابه[1] وهو يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

لقد مس منا عبدَ رب وجنده عقاب فأمسى سبيهم في المقاسمِ
إلى آخرها[2] .

قال : ثم رفع رأسه فإذا بقوم بين يديه لا يعرفهم ، فعلم أنهم من الأزارقة فاتقاهم على نفسه أن يفتكوا به ، فتبسم ثم قال : ما أشد عادة السلاح ، يا غلام ! رد عليّ درعي وهات خفي ، قال : فأُتي بدرعه فأفرغ عليه ، ومدّ خفيه في رجليه . وتقلد بسيفه ، ثم قال : إني أرى وجوهاً ما أعرفها ، ثم قال لأصحابه : خذوهم ! فأخذوهم ، فقال لهم المهلب : ما أنتم ؟ فقالوا : نحن قوم من الأزارقة ، غير أننا عجزنا عن قتالك فاجتمعنا على قتلك في وقتنا هذا . قال : فضحك المهلب ثم قال : أجل ما أردتم ما لم يرده الله ، فاختاروا الآن واحدة من اثنتين : القتل أم التوبة ؛ فقالوا : بل التوبة ! فأوهبهم المهلب لقوم من عشائرهم[3] ؛ فأنشأ رجل منهم يقول أبياتاً مطلعها :

خلونا وقلنا للمهلب غرّة فأعجلنا لما رآنا المهلبُ
إلى آخرها .

قال : ثم دفع المهلب كل جريح من الأزارقة إلى عشيرته فقال داووه فاخلطوه بأنفسكم ، ومن رابكم أمره[4] فاعرضوه على السيف . قال : ثم جمع المهلب الأموال فسرحها مع غلمانه إلى البصرة وأقام بجيرفت حتى أعطى حقوقهم ، ثم قام

---

(١) هو الطفيل بن عامر بن واثلة كما في الطبري ٣٠٨/٦ وابن الأثير ١٢٩/٣ .
(٢) راجع الأبيات في الطبري ٣٠٨/٦ وابن الأثير ١٢٩/٣ .
(٣) ورد خبرهم في الكامل للمبرد ١٣٤٧/٣ وفيه أنه أمر بهم فقتلوا بعد أن قالوا له : جئنا لنطلب غرتك لنفتك بك .
(٤) الأصل : أمر .

في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ! أما ما مضى من جباية الأموال فقد كان لي دونكم من حقوقكم على الولاة ، وأما ما بقي الآن فهو لكم دوني ، وليس أحد منكم ابتلى بلاء حسناً إلا وما ادخر الله له في الآخرة خير له من ثواب هذه الدنيا ، فإياكم والحرص ! فإن الحرص يضر بالرزق ، وإياكم أن تمنوا على ربكم بالذي كان من جهادكم ! فإن المن يحبط الأجر - والسلام - .

ذكر كتاب المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج بعد فراغه من الأزارقة

قال : ثم دعا المهلب برجل يقال له بشر بن مالك الحرسي فأرسله إلى الحجاج بالفتح بشيراً[١] ؛ وكتب معه كتاباً[٢] : إلى الحجاج بن يوسف من المهلب بن أبي صفرة، أما بعد، فالحمد لله الكافي بالإسلام الذي أوصل الشكر بالمزيد ، وقضى أن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده ، ثم إنه قد كان من أمرنا وأمر عدونا ما انتهى إلى الأمير خبره مع كل ذي صباح ومساء ، وقد كانت مني إلى الأزارقة مطاولة ظن الأمير أيده الله أني جبيت بهم البلاد، ولعمري أن الذي جبته الأزارقة بنا لأكبر مما جبيناه بهم! وإن كنا قد نلناه منهم ما لم ينالوه منّا ، وقد كان الناس قد رعبوا منهم رعباً شديداً ، حتى روعت بهم الفتاة الكعاب ، ونوّم بهم الصبي الرضيع ، وأدنيت السواد من السواد حتى تعارفت[٣] الوجوه ، وحتى رغب الناس من النبل إلى الرماح ، وعن الرماح إلى السيوف ؛ وانتهزتُ من الناس الفرص وأخذت منهم الثِياب ، وكنت كالطبيب للمريض الذي يحميه مما يشتهيه ويسقيه مما يكره ، وقد وليتُ قتالهم رجالاً من قبلي ، فأخطأوا الورد وأظمأوا الصدر ، فعارهم قلائد في أعناقهم إلى يوم القيامة ، فلم نزل[٤] وعدونا على حالتين مختلفتين ما يسوءهم منا دون ما يسرهم ، وما يسرهم منا دون ما يسوءنا منهم ، حتى وقع فيهم الاختلاف والجوع ، فلم يزل بهم ذلك وأصابهم البلاء ، وهرب منهم أهل الخنى والسفاهة ،

---

(١) كذا بالأصل والأخبار الطوال ص ٢٧٩ وفي الكامل للمبرد ١٣٤٧/٣ أن المهلب وجه كعب بن معدان الأشقري ومرة بن تليد الأزدي على الحجاج .

(٢) نسخة للكتاب في الكامل للمبرد ١٣٤٩/٣ باختلاف عن الأصل .

(٣) عن الكامل للمبرد وبالأصل تفارقت .

(٤) عن المبرد ، وبالأصل فلم يزل .

وأقام أهل الحياء والدين فاتقوا العار وتواصوا بالصبر ، وأخذنا ما أخذوا به ، وكنا أولى به منهم ، فلم يزل الله تبارك وتعالى يمحصنا ويمحقهم ، وينصرنا ويخذلهم ، حتى بلغ بنا وبهم الكتاب أجله ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العٰلمين** ﴾[1] ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : ثم طوى الكتاب ودفعه إلى بشر بن مالك بن لبيد الحرسي[2] وقال : اعلم بأنك ترد على الحجاج من قد علمتَ ، فإذا وقفت بين يديه فانظر كيف تكون ، فقال : كفيت أصلح الله الأمير .

ذكر الرسول وكلامه بين يدي الحجاج

قال : ثم رحل بشر بن مالك حتى قدم على الحجاج ، فوقف بين يديه وسلم ثم ناوله الكتاب ، فلما قرأه الحجاج بن يوسف رفع رأسه إليه فقال : كيف المهلب ؟ فقال : بخير أصلح الله الأمير ! قد نال ما رجا ، وأمن ما خاف ؛ فقال الحجاج : الحمد لله ، فكيف كان أمركم من عدوكم ؟ قال : كنا إذا لقيناهم بحدنا وحدهم أيسوا منا وطمعنا فيهم ؛ قال الحجاج : أجل ، إن العاقبة للمتقين ، فكيف كان بنو المهلب في الحرب ؟ فقال : كانوا كفاة[3] السرح بالليل ، وليوث الوغى بالنهار ؛ قال الحجاج : فأين المهلب من بنيه ؟ قال : فضله عليهم كفضلهم على غيرهم ، قال : أجل ، لأنهم خلقوا منه ولم يخلق منهم ، قال : فكيف فاتكم قطري بن الفجاءة ؟ قال : كادنا ببعض ما كدناه به . قال الحجاج : صدقت ، فأي بني المهلب أفضل ؟ قال : ذلك إلى المهلب . قال الحجاج : فكيف الجند ؟ قال : أرضاهم الحق وأغناهم النفل ؛ قال الحجاج : فكيف رضاهم بالمهلب ؟ فقال : لهم منه إشفاق[4] الوالد ، وله منهم بر الولد ؛ فقال الحجاج : أخبرني أكنت هيأت هذا الكلام الذي أسمعه منك ؟ فقال : كلا أيها الأمير ! إنه لا يعلم الغيب إلا الله ! قال : فتبسم الحجاج ثم التفت إلى كاتبه عنبسة بن سعيد فقال : هذا والله لكلام الحوّلى لا ما تجيء به أنت وأصحابك[5] . قال : ثم أقبل عليه الحجاج فقال : هل

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٥ .

(٢) انظر ما تقدم بشأن رسول المهلب إلى الحجاج .

(٣) في الكامل للمبرد ١٣٤٨/٣ حماة السرح نهاراً ، فإذا أليلوا ففرسان البيات .

(٤) في الكامل للمبرد : شفقة الوالد .

(٥) انظر مقابلة رسول المهلب للحجاج في الكامل للمبرد ١٣٤٨/٣ والكامل لابن الأثير ١٣٠/٣ .

تقول الشعر ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير وأنا القائل[1] :

قد حسمنا داء الأزارقة الدهـ ـر فأمسوا كعادها وثمودِ[2]
وأصبنا مع المهلب ما كا ن تمنى من رأيه المحمودِ
لم يضر ذاك بالوعيد ولا الكذ ب ولم يضرر العدو وعيدِ
لكن الضرب في العجاجة بالبيـ ـض وطعن يشيب رأس الوليدِ[3]
كل يوم يثور في عالي النقـ ـع أسود مخلوقة لأسود
كلما شئت راعني قطري فوق عبل الشّوى أقبَّ عنود
مزبداً يضرب الكتيبة بالسيـ ـف وعمرو القنا على الصيخود[4]
وأخوه عبيدة بن هلال كالهمام المتوج الصنديد
فإذا ما لقيتهم برد الخلـ ـد على منيتي وأي برود
ثم لا ينثني الخدود ولما بل سيفي من ضربة الأخدود
إن بشراً ومعبداً ومراداً ووكيعاً والصعب كانوا شهودي
ثم لا أنطق الحديد بحرف من فعالي ليس الفعال بمودي
أو يقول الأناس[5] أحسن والد ه لَبشر بن مالك بن لبيد
نلت هذا مع المهلب إني واثق ما شكرته بمزيدِ
كلنا عنده كبعض بنيه في سؤال لنا عن المفقود
ويداوي جريحنا بيديه ثم يكفي وليمة المولود
كل خير يقوله الناس فيه من بلاء ونائل محمود
يجد الناس مثل من فقدوه غير ذا الشيخ ليس بالموجود

قال : فلما فرغ بشر بن مالك هذا من نشيده أمر له الحجاج بعشرة آلاف درهم

---

(١) الأبيات في الأخبار الطوال ص ٢٧٩ ونسبها إلى بشر بن مالك .
(٢) في الأخبار الطوال : فأضحوا طراً ، كآل ثمود .
(٣) البيت في الأخبار الطوال :

بطعان الكماة في ثغر القو م وضرب يشيب رأس الوليد

(٢) البيت في الأخبار الطوال :

معلماً يضرب الكتيبة بالسيـ ـف وعمرو كالنار ذات الوقود

(٥) بالأصل : الناس .

وفرس ودرع وغلام وجارية ، ثم كتب إلى المهلب .

ذكر كتاب الحجاج إلى المهلب

أما بعد[1] ، فإن الله تبارك وتعالى قد صنع لك وصنع بك خيراً . وقد كانت مني إليك ظهيرة ، ودعاني إليها لجاج الحرب وتعجيل الفراغ ، وأنت كنت أعلم بما يليك مني ، وقد تيقنت من رأي البركة بحمد الله ومنه ، وقد فرغ الله بك من عدوك ، وعلت يداك على ما كنت عليه ، فأما قطري بن الفجاءة وعبيدة بن هلال وعمرو القنا وفلهم فنحن نكفيهم إن شاء الله . فانظر إن كان في القوم بقية تخافها على البلاد فأوقف لها خيلاً تكون بإزائها ، واستخلف على القوم[2] أجرأ ولدك وأمضاهم عزيمة ، وأقدم إليّ على بركة الله وعونه ، وليكن معك بنوك وفرسانك ، ولا تأذن لأحد منهم بالانصراف[3] حتى تقدم بهم عليّ إن شاء الله - والسلام - .

قال : فلما ورد كتاب الحجاج على المهلب دعا بابنه يزيد فاستخلفه على بلاد كرمان ، وقال : يا بني ! اعلم قد كان بالأمس لك ، اليوم لغيرك ، وليس بسط يديك فيما تملك كبسطهما فيما لا تملك ، واعلم يا بني أنه إنما لك من بلاد كرمان ما فضل عن الحجاج ، وأنك لن تحتمل إلا ما يحتمل أبوك ، وقد رأيتني يا بني في أيام مصعب بن الزبير وأنا لا أطالب بدرهم واحد فما سواه فكن يا بني كذلك ، واعلم أن بلاد كرمان ليست لك ولا لأبيك بميراث ، وانظر من تخلف معك من قومك فأحسن إليهم بقدر حاجتك إليهم ، وإن[4] رابك أمر من الأمور فرده إليّ - والسلام - .

قال : ثم تجهز المهلب وسار حتى قدم على الحجاج في بنيه وفرسان أصحابه وشجعانهم ، فلما دخل وسلم رد الحجاج عليه السلام ثم قربه وأدناه وأجلسه معه على فراشه ، فقال المهلب : أيها الأمير ! أحمد الله على هلاك هذا العدوّ حمد من يعلم أن النعمة منه وأن الحمد له[5] ، وأشكره شكر الموجب لك به المزيد ، ويهيئك

---

(١) نسخة كتاب الحجاج إلى المهلب في الكامل للمبرد ٣/١٣٤٩ - ١٣٥٠ باختلاف بسيط .

(٢) في الكامل للمبرد واستعمل على كرمان من رأيت ، وولّ الخيل شهماً من ولدك . (وانظر الكامل لابن الأثير ٣/١٣٠) .

(٣) في الكامل للمبرد : ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم عليّ .

(٤) في الكامل للمبرد ٣/١٣٥٠ وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إليّ .

(٥) في الأصل : عليه .

به النعم ، فلسنا نمن على الله عزَّ وجلّ ولا على الناس خيراً كان منا ، بل لله المن علينا ـ والسلام ـ. قال الحجاج : أحسنت أبا سعيد! أتيت بكلام قليل في إيجاز، وقد قضيت ما عليك وبقي ما علينا ، ولكني أحب أن تعرض عليّ فرسانك الذين كانوا يبلون بين يديك . قال : فجعل المهلب يعرض على الحجاج فارساً بعد فارس ويسميه له باسمه ويخبر بنجدته وشجاعته ، حتى عرض عليه ستمائة وعشرون رجلاً كل رجل منهم يعدّ بألف رجل . قال : فأمر الحجاج لكل واحد من هؤلاء الأبطال بجائزة سنية وأمر لسائر الجند بألف ألف درهم . ثم عقد للمهلب عقداً وولّاه بلاد خراسان وعزل عنها أمية بن عبد الله[1] .

ذكر ولاية خراسان للمهلب بعد فراغه من حرب الأزارقة

قال : فسار المهلب حتى دخل أرض خراسان في عسكر لجب ونزل مدينة مرو ، ثم جعل يغزو الكفار غزواً متداركاً لا يفتر من الجهاد ، فخيل له بسمرقند ، وأخرى ببخارا ، وأخرى ببلخ ، وأخرى بطخارستان[2] ، وأخرى ببست[3] ؛ وكلما فتح فتحاً أخرج من ذلك الخمس فوجه به إلى الحجاج وقسم باقي الفيء في أصحابه . قال : وفرح أهل خراسان بولاية المهلب بن أبي صفرة عليهم فرحاً شديداً .

ذكر مسير سفيان بن الأبرد الكلبي لما بعث به الحجاج إلى حرب من انفلت من الأزارقة

قال : ودعا الحجاج برجل يقال له سفيان بن الأبرد الكلبي فضم إليه جيشاً عظيماً من أهل الشام وأهل العراق ، وأمره أن يطلب قطري بن الفجاءة وأصحابه حيث كانوا من بلاد الله ، قال : فسار سفيان بن الأبرد من العراق حتى قدم مدينة

---

(١) انظر في مقابلة المهلب للحجاج وما دار بينهما من حديث الكامل للمبرد ٣/١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ .

(٢) بالأصل بيحارستان ، وما أثبت عن معجم البلدان وطخارستان ولاية كبيرة واسعة تشتمل على عدة بلاد وهي من نواحي خراسان ، وهي طخارستان العليا والسفلى .

(٣) بست : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة .

الريّ فنزلها ، وقطري بن الفجاءة يومئذ بطبرستان قد تغلب عليها فأخذها وجعل يجبي خراجها . قال : فسار إليه سفيان بن الأبرد في جيشه ذلك ، فبلغ ذلك قطري بن الفجاءة فجمع إليه أصحابه من الأزارقة ومن التأم إليه من أهل البلد ، ودنا القوم بعضهم من بعض[1] فاقتتلوا قتالاً شديداً . قال : وكان تحت قطري بن الفجاءة برذون له أشهب ، فكبا به البرذون فسقط قطري وسقط عليه البرذون ، فكسر فخذه وأحاطت به الخيل من كل جانب ، فقال لهم قطري بن الفجاءة : يا فساق ! يا فجار ! هلموا فهذه إربتكم التي كنتم تطلبون ! قال : فبرز إليه رجل يقال له باذام[2] مولى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فضربه ضربة اتقاها قطري بيده ، فنكى السيف في قطري فرمى بها ، ثم ضربه أخرى فسقط قطري على قفاه ، فتقدم إليه باذام[2] فقتله واحتز رأسه .

قال : وعطفت الخيل على أصحابه وفيهم عمرو القنا وصالح بن مخراق وفرسان من الأزارقة ، فلم يزالوا يقتتلون حتى قتلت الأزارقة بأجمعها في معرك واحد[3] ، فما انفلت منهم إلا رجل واحد يقال له قيس بن الأصم الضبي وهو الذي يقول أبياتاً مطلعها :

صلى الإلـه على قوم شهدتهم ... كانوا إذا ذكروا وذكّروا شهقوا[4]

إلى آخرها .

قال : ثم أمر سفيان بن الأبرد برأس قطري بن الفجاءة ، ورأس عمرو القنا وصالح بن مخراق ورؤوس القوم بأجمعهم ، فجمعت وعلقت في أعناقهم وآذانهم الرقاع وبعث بها إلى الحجاج وكتب إليه يخبره مع القوم .

---

(١) وذلك في شعب من شعاب طبرستان كما في الكامل لابن الأثير ٣/١٣١ .

(٢) في الكامل لابن الأثير : فجاء إليه نفر من أهل الكوفة منهم سورة بن الحر التميمي وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف والصباح بن محمد بن الأشعث وباذان (في الطبري : باذام) مولاهم وعمر بن أبي الصلت ، فقتلوه ، وكل هؤلاء ادعى قتله .

(٣) في الكامل لابن الأثير ٣/١٣٢ وقال بعض العلماء : وانقرضت الأزارقة بعد مقتل قطري وعبيدة ، إنما كانوا دفعة متصلة أهل عسكر واحد . . . واتصل أمرهم بضعاً وعشرين سنة .

(٤) بعده في شعر الخوارج ص ١٤١ :

كانوا إذا ذكروا نار الجحيم بكوا ... وإن تلا بعضهم تعريفها صعقوا

قال : ثم سار سفيان بن الأبرد في أصحابه حتى صار إلى قومس ، ونزل على ذلك الحصن الذي فيه عبيدة بن هلال ، فأنشأ عبيدة بن هلال يقول[1] :

ذكرت الصغير وأشياعه ... فيا لك همّاً إلينا سرى
فيا ليتني قبل هذا الحصار ... ثويت بجيرفت فيمن ثوى
ونحن من الخيل ذو منعة ... أجش هزيماً[2] إذا ما جرى

قال : فلما طال الحصار على عبيدة بن هلال وأصحابه بقومس ركب سفيان بن الأبرد الكلبي ذات يوم ودنا من الحصن في نفر من أصحابه ، ثم قال : يا معشر الأزارقة ! حتى متى وإلى متى هذا الحصار ؟ وأنتم قوم عرب تكرهون العار ، اعلموا أنه لا أمان لأحد منكم عندي إلا من جاء برأس عبيدة بن هلال وأخيه وابن عمه ، قال : فكاد القوم يثبوا بعضهم على بعض لما فيهم من الجوع والجهد . قال : وأقبل عبيدة بن هلال حتى أشرف من الحصن على سفيان بن الأبرد وأصحابه ، فقال : يا أهل الشام ! يا عبيد من غلب ! يا بقية الأحزاب ! اجتمعوا إليّ ! فدنا[3] الناس من الحصن ، فقال : أيما أحب إليكم : أقرأ القرآن أم أنشدكم الشعر ؟ فقالوا : أما القرآن فقد حفظناه يا عبيدة بن هلال ولكن أنشدنا شيئاً من شعرك . فقال عبيدة : يا فسقة يا فجرة يا كفرة ! أتختارون الشعر على القرآن ، يا عبيد عبد الملك بن مروان والحجاج دهمان ! قال : ثم أنشأ يقول :

إلى[4] الله أشكو ما أرى[5] بجيادنا ... تساوك هزلى مُخّهن[6] قليلُ
فإن يك أفناها الحصار فربما ... تشحط يوماً[7] بينهن قتيل
قتيل عزيز في العشيرة فقده ... يودون لو يشرونه ببديل

---

(١) الأبيات في شعر الخوارج ص ١١٣ .
(٢) بالأصل : هزيم .
(٣) الأصل : فدنوا .
(٤) قبله في ابن الأثير ٣/١٣١ :

لعمري لقد قام الأصم بخطة ... لها في صدور المسلمين غليلُ

(٥) في ابن الأثير والطبري ٧/١٧٥ ترى .
(٦) عن الطبري وابن الأثير وبالأصل : بزلهن .
(٧) الطبري وابن الأثير : فيما .

تعاورها القذاف من كل جانب　بقومس حتى صعبهن ذليل
وقد كن مما أن برين بغبطة　لهن بأبواب القباب صهيل
فيا نفس صبراً كل ما حمَّ واقع　وليس إلى ما تعلمين سبيل
وقومي إلى دروازق الحصن فانظري　إلى خندق فيه الحصار طويل
لعمري لئن أعطيتُ سفيان بيعتي　وخالفت ربي[1] إنني لجهول

قال : ثم أمر عبيدة بن هلال بباب الحصن ففتح ، ثم خرج في أصحابه إلى سفيان بن الأبرد وأصحابه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً على باب الحصن ساعة ، ثم نزل عبيدة بن هلال عن فرسه فعرقبه وكسر جفن سيفه وترك أصحابه ففعلوا كذلك ، فلم يزل يقاتلون قتال قوم قد أيسوا من الحياة حتى قتل عبيدة بن هلال وأصحابه كلهم في معركة واحدة . فأنشأ بعض الخوارج[2] يقول أبياتاً مطلعها :

ذكرت الشراة الصادقين[3] وقد فنوا　وذكّرني أهل القران السذوَّر[4]

إلى آخرها .

قال : ثم أمر سفيان بن الأبرد برأس عبيدة بن هلال ورؤوس أصحابه ، فجمعت ووجهت إلى الحجاج ، ووجه بها الحجاج إلى عبد الملك بن مروان .

قال : وكان حرب الأزارقة من أول أمرهم وخروجهم إلى أن أبادهم الله تبارك وتعالى ، وفرغ من حربهم ثمان عشرة سنة[5] والله أعلم .

---

(١) في الطبري وابن الأثير : وفارقت ديني .
(٢) الأبيات للأصم الضبي ، قيس بن عبد الله ، كما في شعر الخوارج ص ١٤١ .
(٣) في شعر الخوارج : الصالحين .
(٤) السذور موضع بقومس التجأ إليه الخوارج وأميرهم عبيدة بن هلال بعد مهلك قطري بن الفجاءة بطبرستان .
وبعده في شعر الخوارج ص ١٤١ :

بقومس فارفضت من العين عبرة　يجود بها ريعانها المتحدر
فقلت لأصحابي قفوا حين أشرفوا　قليلاً لكي نبقى وقوفاً وننظر
إلى بلد الشارين أضحت عظامهم　تضمنها من أرض قومس أقصر

(٥) في الكامل لابن الأثير ٣/١٣٢ بضعاً وعشرين سنة .

ذكر خروج شبيب بن يزيد وما كان من أمره وخروجه على الحجاج

قال : فلما كان بعد ذلك بمدة قليلة خرج رجل من بني شيبان[1] يقال له شبيب بن يزيد حتى صار إلى دمشق وكان يرى رأي الشراة ، فنزل على رجل من أشراف دمشق يقال له روح بن زنباع الجذامي ؛ فقال روح : ممن الرجل ؟ قال : رجل من بني شيبان ثم أحد بني مرة ، ولي شرف وقدر وطاعة في قومي ، وقد فزعت إليك ، فإن رأيت أن تكلم لي أمير المؤمنين أن يفرض لي فرضاً وأكون في ناحية فعلت منعماً ! قال روح : أفعل ذلك وكرامة لك . ثم أقبل روح حتى دخل على عبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين ! عندي رجل من بني شيبان وله شرف وقدر في قومه ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يلحقه بقومه وبغيره من أهل الشرف فعل منعماً . فقال عبد الملك بن مروان : يا أبا زرعة ! إني لأكره أن أفرض لأحد من أهل[2] . . . بالشام فرضاً لأن رأيهم رأي الخوارج ، ولكن هل سألت هذا الرجل عن نسبه ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين - يذكر أن نسبه كذا وكذا ؛ فقال عبد الملك بن مروان : ما أعرف هذا النسب . قال : فرجع روح بن زنباع إلى شبيب فقال : إني قد ذكرت لأمير المؤمنين وذكرت له نسبك ، فذكر أنه لا يعرفك ؛ فقال شبيب : أرجو أن يعرفني بعد هذا اليوم إن شاء الله ! قال : ثم خرج شبيب حتى قدم العراق ، وكان له منزل بالكوفة ، فأرسل إلى امرأته وأمه فانتخبهما إليه ، وجعل يبعث إلى قبائل العرب فيدعوهم إليه ويوعدهم الغارة ، فلم يزل كذلك حتى اجتمع إليه جيش لجب .

قال : وبلغ ذلك الحجاج فوجه إليه برجل من أهل الشام يقال له عبيدة بن مخراق القيني في ألف فارس فهزمه شبيب وقتل عامة رجاله ؛ ثم وجّه إليه برجل يقال له يزيد بن هبيرة المحاربي في ألفي فارس فهزمه شبيب وقتل عامة أصحابه ؛ ثم وجه إليه بعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي فهزمه شبيب وأتى على أصحابه[3] ؛ ثم وجه إليه بزحر بن قيس الجعفي[4] فهزمه هزيمة قبيحة وقتل من

---

(١) بالأصل « سفيان » خطأ وسيرد صواباً .

(٢) بياض بالأصل .

(٣) انظر تفاصيل أوردها ابن الأثير حول محاربة شبيب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٣/١١٠ والطبري حوادث سنة ٧٦ .

أصحابه جماعة ؛ وانفلت زحر بن قيس وبه ثمانون طعنة وضربة واحدة وأنه ليحمل في القطن ؛ ثم وجه إليه بعتاب بن ورقاء التميمي[1] فقتله شبيب وهزم أصحابه ؛ ثم وجه إليه بالطهمان مولى آل بني معيط فقتله شبيب ؛ فوجه إليه الحجاج بمولى له يقال له أبو الورد فقتله شبيب ؛ ثم وجه إليه بزياد بن عمرو العتكي[2] فهزمه شبيب وقتل عامة أصحابه ؛ ثم وجه إليه محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله[3] فقتله شبيب ؛ ثم وجه إليه برجل يقال له الطرس[4] مولى بني تميم فقتله شبيب ؛ كذلك أربع سنين كاملة يهزم عساكر الحجاج ويقتل رجاله .

قال : وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ثم كتب إلى الحجاج يأمره أن يخرج إليه بنفسه . قال : فعندها خرج الحجاج من الكوفة في عسكر لجب حتى نزل بموضع يقال له السبخة[5] . وبلغ ذلك شبيباً فسار إليه في جيشه ذلك فلم يشعر الحجاج إلا وخيل شبيب قد وافته وهم يقولون : لا حكم إلا لله ولو كره المشركون ! نحن المطالبون بدماء الأزارقة . قال : ثم وضعوا السيف في أصحاب الحجاج ، فقتل منهم نيف عن مائة رجل وانهزم الباقون مع الحجاج حتى دخل الكوفة ؛ ورجع شبيب بأصحابه حتى نزل مدينة الأنبار .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين الغوث الغوث ! فإن شبيب بن يزيد قد هتك الحريم ، وأيتم الأولاد ، وأرمل الأزواج . قال : فوجه إليه عبد الملك بن مروان بألف رجل من أهل الشام . قال : وبلغ الخبر إلى شبيب بأن الحجاج قد وافته الجيوش من أهل الشام في أربعة آلاف فارس ، فأقبل على أصحابه فقال : ما الرأي عندكم الآن ؟ فقالوا : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين ! قال : فإني رأيت أن أكبس الكوفة الليلة لنا أم علينا ؛ فقال أصحابه : ها نحن معك ، فافعل ما أحببت . قال : فاعلفوا إذاً خيلكم وحشّوها واسقوها ، ففعلوا ذلك . ثم ركب شبيب وركب معه أصحابه ، وأقبل نحو الكوفة ومعه أمه يقال لها الجهيزة في

---

(٤) انظر ابن الأثير ٣/١٠٧ والطبري حوادث سنة ٧٦ .

(١) انظر الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٧٧ وفيهما محارب شبيب عتاب بن ورقاء .

(٢) انظر الطبري ٧/٢٣٥ وابن الأثير ٣/١٠٨ .

(٣) بالأصل عبد الله والصواب من الطبري وابن الأثير .

(٤) كذا بالأصل ولم نجده . ولعله « أبي الضريس مولى بني تميم » كما في ابن الأثير ٣/١٠٩ .

(٥) بالأصل سحه وما أثبت عن الطبري وابن الأثير انظر حوادث سنة ٧٧ .

امرأة من نساء الخوارج ومعه أيضاً امرأته[1] . قال : وكانت غزالة من سبي أصفهان ، فأقبلت غزالة ومعها خمسون امرأة من نساء الخوارج ، قال : فسار شبيب أيضاً في عسكره ومعه مائتان وخمسون امرأة من نساء الخوارج ، قد تقلدن بالسيوف وفي أيديهن الرماح ؛ وقد ذكر ذلك أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي في شعره حيث يقول أبياتاً مطلعها :

أبى القاسطون من أهل العراق ... على الله في الحرب إلّا قسوطا

إلى آخرها .

قال : فكبس شبيب بن يزيد الكوفة ليلاً وقد هدأت العيون فلم يكذب أن دخل المسجد الأعظم[2] ، فدعا بأمه وامرأته فأقعدهما على المنبر ، ثم وضع السيف في أهل المسجد من المصلين والحرس فقتلوا بأجمعهم ، وهو يقول : يا عدو الله ! يا ابن أبي رغال ! يا أخا ثمود ! اخرج إلينا . والحجاج يقول لغلمانه : لا تكلموهم ، فلعل الله أن يكفينا أمرهم . قال : وقد ذكر ذلك رجل من الخوارج[3] حيث يقول :

لعمري لقد نادى شبيب وصحبه ... على الباب لو أن الأمير يجيب
فأبلغ أمير المؤمنين نصيحة[4] ... وذو النصح لو يصغى إليه قريب
أتذكر إذ دارت عليك رماحنا ... يمكّن والكلبي ثم غريب
فلا صلح ما دامت منابر أرضنا ... يقوم عليها من ثقيف خطيب
فإنك إن لم ترضَ بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب
فلا ضير إن كانت قريش عداتنا ... يصيبون منا مرة ونصيب
فإن يك منكم[5] كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب ... ومنا أمير المؤمنين شبيبُ[6]

---

(١) الأصل « امرأة » .

(٢) وكانت غزالة قد نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران (ابن الأثير ١٢١/٣) .

(٣) هو عتبان بن أصيلة ويقال وصيلة كما في معجم المرزباني ص ٢٦٦ .

(٤) عند المرزباني : رسالة .

(٥) عن المرزباني ، وبالأصل : وإن يك منهم .

(٦) يريد سويد بن سليم بن خالد الشيباني ، والبطين من بني عمرو بن محلم ، وقعنب منهم أيضاً ، وشبيب بن يزيد الأنصاري .

ومنـا سنـان المـوت وابن عـويمـر ومـرة فـانـظر أيـن ذاك يـغـيـب

قال : فلم يزل كذلك حتى إذا طلع الفجر قال لبعض أصحابه : أذن وأقم ، فأذن وأقام ، وتقدم شبيب فصلى بأصحابه ، فقرأ بهم في الركعة الأولى بأم القرآن والبقرة والثانية بأم القرآن وآل عمران ، حتى كادت الشمس أن تطلع ، ثم جلس في المحراب يسبح ، وأقبلت الخيول من كل جانب حتى أحدقت بأبواب المسجد وهم يقولون : لا حكم إلا لله ولو كره المشركون .

قال : وأقبل الحجاج ومعه أربعة آلاف رجل من أهل الشام ، فخرج إليهم شبيب وأصحابه ، واضطرب القوم في وسط السوق اضطراباً شديداً حتى قتل من الفريقين جماعة فأنشأ عبد الرحمن بن عمرو الشيباني يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

يـا ليتني في الخيـل وهي تـدوسهم في السـوق يـوم اصـطفن بـالحجـاج

إلى آخرها .

قال : واشتبكت الحرب بين الحجاج وشبيب ، وكثر القتلى بين الفريقين[1] ؛ وحملت غزالة امرأة[2] شبيب فيمن معها من النساء وحمل أصحاب شبيب معهن[3] ، وانهزم الناس من بين أيديهم حتى صار الحجاج إلى باب قصره فأنشأ بعض الخوارج في ذلك يقول[4] :

صـرعـت غـزالـة قلبـه بـكـتـيـبـة تـركت مسامعـه كـأمس الـدابرِ[5]

ليث الخوان[6] وفي الحروب[7] نعامة فتخـاء تنفـر[7] من صفيـر الصـافـر

---

(١) انظر ابن الأثير ٣/١٢٢ .

(٢) بالأصل : امه خطأ .

(٣) بالأصل : معهم .

(٤) الأبيات لعمران بن حطان الشيباني (شعر الخوارج ص١٩٣ ـ ١٩٤) وانظر الكامل للمبرد ٢/٩٢٩ والعقد الفريد ٥/٣٦ .

(٥) البيت في العقد الفريد :

صـدعـت غـزالـة جـمـعـه بـعسـاكـر تـركـت كـتـائـبـه كـأمس الـدابـر

(٦) العقد الفريد : أسد عليّ .

(٧) عن العقد الفريد ، وبالأصل : النحور .

(٨) في مروج الذهب ٣/١٩٥ « فزعاء تفزع » .

هلا خرجت[١] إلى غزالة في الوغى	إذ صار قلبك في جوانح طائر[٢]
ألق السلاح وخذ وشاح معصفر	واعمد بمنزلة الجبان الكافر

قال : فلم يزل شبيب وأصحابه يضارب فيهم ويطاعن من وقت الغداة إلى الليل ، وأجهد أصحابه وقتل منهم جماعة ، فانهزم شبيب وخرج من الكوفة ومضى هارباً على وجهه وقد قُتل أصحابه ، حتى صاروا إلى مدينة الأنبار فنزلها .

قال : ووجه الحجاج في طلبه برجل من الكوفة يقال له حبيب[٣] بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف رجل ، وبلغ ذلك شبيباً فخرج إليه فيمن بقي من أصحابه ، فاقتتل القوم يوماً وليلة قتالاً شديداً ، ثم ولى شبيب منهزماً حتى صار إلى بادرايا[٤] وباكُسايا[٥] ثم صار من هنالك [إلى كرمان] فنزلها .

فوجه إليه الحجاج بسفيان بن الأبرد الكلبي ، فأقبل سفيان حتى نزل على شاطىء الدجيل ، وأقبل شبيب نحوه ، فلما أقبل ليعبر الدجيل إلى ما قبله أمر سفيان بن الأبرد بالغواصين بجسر الدجيل فقطع ، واستدارت السفن فغرق شبيب مع فرسه وسلاحه . قال : فأمر سفيان بن الأبرد بالغواصين فأخرجوه من الماء واحتزوا رأسه ، ووجه به سفيان إلى الحجاج وقتل أمه جهيزة وامرأته غزالة[٦] وقتل عامة أصحابه ، فلم ينفلت منهم إلا القليل .

قال : وأسر سفيان بن الأبرد جماعة من أصحاب شبيب فوجه بهم إلى الحجاج ، فلما وقفوا بين يديه رفع رأسه فنظر إلى شيخ منهم وسيم جسيم فقال له : يا شيخ ! اخترت الدنيا على الآخرة ! قال : كلا يا حجاج ! ولكني اخترت الآخرة على الدنيا بخروجي عليك وعلى صاحبك الفاجر . فقال الحجاج : اضربوا عنقه ، فقال الشيخ : الحمد لله ولا حكم إلا لله ، الحمد لله على ما قضى وقدر ، ولكن لا تعجل يا حجاج فقد قلت بيتين من الشعر أريد أن أختم بهما عملي ، فقال الحجاج :

---

(١) في العقد الفريد : برزت .
(٢) في مروج الذهب والكامل للمبرد : في جناحي طائر .
(٣) عن الطبري وابن الأثير وفي الأصل : علقمة .
(٤) بادرايا : طسوج بالنهروان وهي بليدة قرب باكسايا بين البندنيجين ونواحي واسط .
(٥) بلدة قرب البندنيجين وبادرايا بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي في أقصى النهروان .
(٦) بالأصل : أمه غزالة وامرأته جهيزة ، خطأ .

قل ما بدا لك ، فأنشأ يقول :

أبــرأ إلى الله من عمــرو وشيعتــه[1] ومـن عليّ ومـن أصحــاب صـفيـن
ومـن معــاويــة الـغــاوي وشـيـعتــه لا بــارك الله فـي القــوم الـميــامـين

قال : ثم قدم فضرب عنقه .

ثم قدم إليه آخر ، فقال له الحجاج : ما دينك أيها الرجل ؟ فقال : أنا على دين صاحب الفلك ، قال الحجاج : وأنا على دين صاحب الفلك أيضاً ، فما تقول في علي وعثمان ؟ قال : كافران ، فقدّم ثم ضرب عنقه .

ثم قدم إليه آخر ، فقال له الحجاج : ما دينك ؟ قال : أنا على دين صاحب الأحقاف ، قال الحجـاج : وأنا على دين صـاحب الأحقاف ، فمـا تقول في علي وعثمان ؟ قال : كافران جميعاً ؛ فقدّم فضربت عنقه .

ثم قدم إليه رجل ، فقال له الحجاج : ما دينك ؟ فقال : أنا على دين صاحب الحجر ، قال : فما تقول في علي وعثمان ؟ قال : كافران ؛ قال : فقدم فضربت عنقه .

وقدم إليه ثـلاثة نفـر في حبل وقـد شدت أيـدهم على أعناقهم ، قـال لهم الحجاج : ما دينكم ؟ فقال أحدهم : أنا على دين الذي وفى ، وقال الآخر : وأنا على دين صاحب الأيكة ، وقـال الثالث : وأنـا على دين صاحب الألـواح ؛ فقال الحجاج : وأنا على دين من ذكرتم ، فقال : ما تقولـون في الختنين علي وعثمان والحـواريين طلحة والـزبير والحكمين عمـرو بن العاص وأبي مـوسى الأشعـري ؟ فقالوا : نقول إنهم كفار وليس الحكم إلا لله رب العالمين؛ فقدموا فضربت أعناقهم صبراً .

ثم قدم إليه رجلان يحجلان في قيودهما حتى وقفا[2] بين يديه . فقال الحجاج لأحـدهما : مـا دينـك ؟ فقـال : أنـا على دين الإسـلام الـذي بعث الله بـه نبيـه محمداً ﷺ ، فهدى به من الضلالة ؛ وأنقذ به من العمى والضلالة والجهالة ، وعلى دين صاحبه أبي بكر الصديق الذي ولي أمور الناس من هذه الأمة فكان محموداً ،

(١) يريد عمرو بن العاص .

(٢) بالأصل : رجلين يحجلون في قيودهم حتى وقفوا .

وخرج من هذه الأمة مفقوداً ، وعلى دين صاحبه عمر بن الخطاب الذي عاش في الدنيا حبيباً ، ثم قبضه الله إليه سعيداً وشهيداً . قال الحجاج : فما تقول في أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؟ قال : ذاك رجل لا يلتقي باسمه الشفتان ؛ قال : فما تقول في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؟ قال : ذاك رجل آمن صغيراً وكفر كبيراً . قال : فما تقول في معاوية بن أبي سفيان ؟ قال : وما أقول في رجل بين أطباق النيران ينادي : يا حنان يا منان ! والرب عليه غضبان ! قال : فما تقول في عبد الملك بن مروان ؟ قال : وما الذي أقول في ابن طريد رسول الله ﷺ ولعينه ، لقد أخطأ خطيئة أطبق بها السماء على الأرض بتوليته إياك على رقاب المسلمين ، فويل له من ديان يوم الدين ! قال : دع عنك هذا ، قال : ما تقول فيَّ أنا ؟ فقال : ما عرفتك إلا عادلاً قاسطاً ؛ فقال الحجاج : قاتلك الله من رجل كأنك أردت قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **الحمد لله الذي خلق السمٰوٰت والأرض وجعل الظلمٰت والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾[1] ؟ فقال : هذا أردت يا حجاج ! قال : وكأنك أردت قوله عزَّ وجلّ : ﴿ **وأما القٰسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾[2] ؟ قال : هذا أردت يا حجاج ! فقال الحجاج : أخروه ، فأخروه فضربت عنقه صبراً .

ثم أقبل على الآخر فقال له : ما تقول فيما سألت عنه صاحبك ؟ فأنشأ يقول[3] :

أحجاج إني والذي أنا عبده ... على خير للعالمين محمدِ
ودين أبي بكر وصاحبه الذي ... مضى عادلاً في حكمه لا يفندِ
ولست لعثمان بن عفان باغضاً ... ولا قائلاً فيه مقالة ملحدِ
وإن يك عثمان بن عفان ظالماً ... فربك للعبد الظلوم بمرصدِ
وأما علي ذو المعالي فإنه ... وصي نبي ذي سناء وسؤددِ
وإن يك مظلوماً [له] الله ناصر ... فينصره من كل باغٍ ومعتدي
وقد كان مولى المؤمنين وإنني ... مقر به في كل نادٍ ومشهدِ
فذلك ديني لا أدين بغيره ... ولست كهذا الكافر المتلددِ[4]

---

(١) سورة الأنعام الآية ١ .

(٢) سورة المدثر الآية ١٥ .

(٣) الأبيات في شعر الخوارج ص ١٥٥ .

(٤) يتضح من إقرار هذا الرجل أنه لم يكن على دين الخوارج وذلك إن كان صادقاً فيما أنشده ، ولعل تبرؤه =

قال : فأمر به الحجاج فأطلق من قيده ، وكساه وأحسن إليه وألحقه بعطائه .

قال : ثم قدمت إليه امرأة من نساء الخوارج وكانت من المتكلمات يقال لها أم علقمة ، فقال لها الحجاج : يا عدوة الله ! الحمد لله الذي قتل أباك وأخاك وزوجك ، فقالت : نعم الحمد لله الذي قدمهم إلى الجنة وأخرني بعدهم ، وقد علمت أنه لم يؤخرني إلا لذنب عظيم قد أتيته . فقال الحجاج : لأفعلن بك ولأفعلن ! فقالت : ويلك يا حجاج ! عليّ تبرق وترعد ! والله لقد خفت الله خوفاً جعلك في عيني أصغر من الذباب . قال : وجعلت أم علقمة تكلم الحجاج وهي منكسة الرأس ، فقال لها الحجاج : ارفعي رأسك وانظري إليّ ، فقالت : إني لأكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه . قال : فأمر الحجاج بقتلها فكانت السيوف تأخذها وهي تقول : لا حكم إلا لله ، حتى بردت .

قال : وكان آخر من قدم إليه رجل من هؤلاء الخوارج له شاهد وسمت وطلل ، فلما همّ الحجاج بقتله سمع ضجة بالباب ، فقال لحاجبه : ما هذه الضجة ؟ فقال : نسوة بالباب يسألن[1] الإذن على الأمير ، فقال الحجاج : ائذن لهن بالدخول ، فدخلن وهن ثلاث وعشرون امرأة ، كلهن أهل بيت هذا الخارجي الذي همّ الحجاج بقتله ، فقال لهن الحجاج : ما حاجتكن ؟ فتقدمت امرأة منهن فقالت : أصلح الله الأمير ! إن رأيت أن تتفضل باستماع ما أقول ! فقال الحجاج : قولي ما أحببت ، فأنشأت وجعلت تقول :

أحجاج لو[2] تشهد مقام بناته	وعماته يندبنه الليل أجمعا
أحجاج إما[3] أن تمنّ بتركه	علينا وإما أن تقتلنا معا
أحجاج لم[4] تضجع له ونسائه	ثمانا وتسعاً واثنتين وأربعا
فمن رجل دان يقوم مقامه[5]	علينا فمهلاً لا تزدنا تضعضعا

من الخوارج كان بسبب خوفه ، وبعد أن رأى بأم عينه الذين قتلوا قبله .

(١) في الأصل : يسألون .

(٢) في تهذيب ابن عساكر : لم تشهد .

(٣) تهذيب ابن عساكر ٤/٦٢ إما أن تجود بنعمة .

(٤) تهذيب ابن عساكر : كم تقتل به إن قتلته ثماناً وعشراً . . .

(٥) ابن عساكر : من هذا يقوم . . . إن تزدنا .

قال : فخلى الحجاج سبيله وزاده في عطائه مائة دينار ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بخبره وخبر النسوة والمرأة وشعرها . قال : فكتب إليه عبد الملك بن مروان : زده في عطائه دنانير أخرى ! فصارت له زيادتان : زيادة الحجاج وزيادة عبد الملك بن مروان ؛ فأنشأت ليلى الأخيلية تمتدح الحجاج وهي تقول :

إذا نزل الحجاج أرضاً منيعة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ... همام إذا هز القناة سقاها
سقاها دماء المارقين وعلّها ... إذا جمحت يوماً وخيف رداها
أحجاج لا تعط العصاة مُناهم ... فلا وإلهي لا تصيب مُناها
ولا كل حلاف تقلّد بيعة ... بأعظم حق الله حين شراها

ذكر عمران بن حطان الخارجي(1)

قال : وجعل الحجاج يطلب عمران بن حطان بالعراق أشد الطلب لأنه كان من رؤساء الخوارج وأعلامهم ، وعلم عمران بن حطان أن الحجاج يطلبه ، فضاقت عليه العراق فهرب حتى لحق بالشام خوفاً من الحجاج ، فنزل على قوم من بني غسان فأنكروه ، وتحول عنهم فنزل على قوم من بني لخم فأنكره رب منزله ، فتحول(2) حتى صار إلى روح بن زنباع الجذامي ونزل عليه ، وكان عمران بن حطان هذا من أفصح الناس وأعلمهم بأيام العرب ، وكان روح بن زنباع هذا سيداً في قومه عظيم القدر عند أهل الشام ؛ فلما نزل عليه عمران بن حطان سأله روح بن زنباع عن اسمه ونسبه ، فغير اسمه ونسبه وذكر أنه من أزد شنوءة ، قال : فقربه روح بن زنباع وأكرمه بغاية الكرامة . ثم قال ذات يوم لعبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين ! إن في ضيافتي رجل من أزد شنوءة لم أر مثله ساعة ، ثم جعل يحدثه بما سمع منه من أخبار العرب ، فقال عبد الملك بن مروان : ويحك يا أبا زرعة ! هذا رجل علامة فصفه

---

(1) هو أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل (الكامل للمبرد ١٠٨٤/٣) .

(2) في الكامل للمبرد : أنه كان إذا نزل في حي انتسب نسباً بقرب منه ، ففي ذلك يقول :

نزلنا في بني سعد بن زيد ... وفي عك وعامر عوثبان
وفي لخم وفي أدد بن عمرو ... وفي بكر وحي بني العدان

لي ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! هو رحل آدم ، طويل ، أفوه ، فصيح ، حسن الرواية للشعر ، كثير الصلاة ، ما دُفعت إلى رجل هو أكثر صلاة منه ولا أعبد . قال فقال عبد الملك بن مروان : ويحك يا أبا زرعة ! هذه صفة رجل مسلم زاهد ، وإني لأحسبه حروري أهل العراق ، ولكن إذا رجعت إلى منزلك فسله من الذي يقول :

إني لأحسبه يوماً فأذكره[1] من أرجح الناس عند الله ميزانا
يا ضربة بحسام[2] ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

قال : فقال روح بن زنباع : إني قد سألت عن ذلك يا أمير المؤمنين ، فأخبرني بهذا الشعر ورواه لي عن آخره وذكر أنه لعمران بن حطان في ملجم[3] وضربته علي بن أبي طالب ! قال فقال : يا غلام ! عليّ بكتاب الحجاج ! فجاء به فإذا فيه : وإني لأخبرك يا أمير المؤمنين أنَّ رأساً من رؤوس الخوارج يقال له عمران بن حطان كان قد أفسد قياماً من الناس بالعراق ، وقد كنت أردت أخذه ، فلما ضاقت عليه العراق لطلبي إياه خرج إلى الشام ، فهو ينتقل في مدائنها ، وعلامته يا أمير المؤمنين أنه رجل آدم طويل أفوه ، فإن ظفرك الله به فسرحه إليّ لأطهر منه البلاد ، وأريح منه العباد ـ والسلام ـ .

قال فقال روح : هذه والله صفته يا أمير المؤمنين ! قال عبد الملك بن مروان : فجئني به يحدثني يوماً واحداً وهو آمن بأمان الله ، واكتب له كتاباً منشوراً أن لا سبيل للحجاج عليه أبداً ما بقي . قال : فانصرف روح بن زنباع إلى منزله ، ثم قال : أيها الشيخ ! إن أمير المؤمنين أحب زيارتك فزره إن شئت ، فإنه أمرني بذلك ، فقال : ما أشوقني إلى محادثة أمير المؤمنين ، لكني أخاف على نفسي ، ولكن ائتني منه بكتاب أمان بخط يده . قال : فركب روح بن زنباع[4] فرسه ومر على وجهه ، فقال عبد الملك بن مروان : أما الأمان فأكتبه لك ، ولكني أظنك لا تجده في منزلك إذا رجعت فاعلم ذلك ! فانصرف روح بن زنباع إلى منزله فإذا الأمر على ما قال

(١) البيت في الكامل للمبرد ٣/١٠٨٥ .

إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

(٢) في الكامل : من تقي .
(٣) كذا ، يريد ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب (رض) .
(٤) بالأصل : فركب عمران بن حطان .

عبد الملك بن مروان ، فرجع إليه فأعلمه بذلك ، فقال : قد علمت ذلك أبا زرعة ! والرجل هو عمران بن حطان . فلما كان بعد أيام أتاه غلام برقعة فقال : وجدت هذه الرقعة تحت فراش ضيفنا الذي هرب ! قال : فنظر روح بن زنباع في الرقعة فإذا فيها هذه الأبيات[1] :

يا روح كم من أخي مثوىً نزلت به ... قد ظن ظنك من لخم[2] وغسانِ
حتى إذا خفته زايلت[3] منزله ... من بعد ما قيل عمران بن حطان
قد كنت ضيفك حيناً لا يروّعني[4] ... منه طوارق[5] من إنس ومن جان
حتى أردت بي العظمى فأوحشني ... ما أوحش[6] الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ابن زنباع فإن له ... في الحادثات[7] هنات ذات ألوان
يوماً يمانٍ إذا لاقيت ذا يمن[8] ... وإن[9] معد بن عدنان فعدنان
لو كنت مستشعراً[10] يوماً لطاغية[11] ... كنت المقدّم في سري وإعلان
لكن أبت ليَ آيات مفصّلة[12] ... عند[13] الولاية في طٰه وسبحان

قال : فعلم روح بن زنباع أنه عمران بن حطان ، وندم على ما أخبر به عبد الملك بن مروان .

قال : ومضى عمران حتى نزل على زفر بن الحارث الكلابي وكان زفر أيضاً

---

(١) الأبيات في الكامل للمبرد ١٠٨٦/٣ وشعر الخوارج ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .
(٢) في ابن عساكر (ترجمة عمران) : من علك .
(٣) الكامل للمبرد وشعر الخوارج : فارقت .
(٤) الكامل وشعر الخوارج : قد كنت جارك حولاً ما يروعني .
(٥) في المرجعين : فيه روائع .
(٦) المبرد : فأوحشني وأوحش . . .
(٧) المبرد : النائبات خطوباً .
(٨) ابن عساكر : فإن لقيت يمانياً فمن يمنٍ .
(٩) المبرد : وإن لقيت معدياً فعدنان .
(١٠) المبرد : مستغفراً .
(١١) عن المبرد ،وبالأصل : لطاعته .
(١٢) المبرد : مطهرة .
(١٣) ابن عساكر : « عقد الولاية » والولاية بفتح الواو مصدر الولي ، وبكسرها : الاسم يريد ما توليت من أعمال .

سيداً في قومه ، فقال له : ممن الرجل ؟ فقال له : رجل من حمير من الأوزاع ، وكان لزفر خؤولة من الأوزاع فقرّبه وأدناه ، فأقام عنده مدة . ثم قال له ذات يوم : أيها الرجل ! إني أرى لك حالاً ليست كالأحوال ، فإن كنت خائفاً آمناك وإن كنت فقيراً أغنيناك(١) ! قال : فتبسم عمران ثم قال : الله المؤمن والله المغني : وإنما أنا ابن سبيل . قال : فبينا هو كذلك إذا أقبل رجل من عند روح بن زنباع إلى زفر بن الحارث في أمر من الأمور ، فلما نظر إلى عمران بن حطان عرفه ، فقال لزفر : هذا كان ضيفاً لروح بن زنباع وهو رجل من الأزد ؛ قال فنظر إليه زفر نظرة مغضب وقال : يا شيخ ! أزدي مرة وأوزاعي أخرى ! أو نبأتني عن شأنك وأمرك كان خيراً لك ! وكأنه أسمعه كلاماً . قال : فسكت عمران بن حطان ولم يقل شيئاً ، فلما كان الليل هرب على وجهه في البلاد ، وكتب(٢) إلى زفر بهذه الأبيات :

إن التي أصبحت يعيي بها زفر ... أعيا عياها(٣) على روح بن زنباعِ
أنشأ يسائلني(٤) حولاً لأخبره ... والناس من بين مخدوع وخدّاع
حتى إذا انجذمت مني حبائله ... كف السؤال ولم يولع بإهلاعي
فاكفف كما كف روح إنني رجل ... إما صريح(٥) وإما فقعة القاع
وازجر لسانك عن شتمي ومنقصتي ... ماذا تريدون من شيخ لأوزاع(٦)
إذا الصلاة فإني لست تاركها ... كل امرىء للذي يسعى له ساعي
أكرم بروح بن زنباع وأسرته ... حتى دعا أوّليهم للعُلى داعي
جاورته سنة فيما زعمت له(٧) ... عرضي صحيح ونومي غير تهجاع
فارتع فإنك منعيّ بحادثة ... حسب اللبيب بما يوعيه من واعي(٨)

---

(١) الكامل للمبرد : جبرناك .

(٢) الكامل للمبرد : وخلف في منزله رقعة فيها :

(٣) المبرد : أعيت عياء . وفي الأغاني ١٦/١٤٨ يعنى بها وفي شرح النهج ٥/٩٤ أعيت زمانا .

(٤) المبرد : ما زال يسألني ، الأغاني : أمسى يسائلني .

(٥) الكامل : حميم . وفقعة القاع : الكمأة ، يقال ذلك لمن لا أصل له .

(٦) البيت في الكامل للمبرد :

واكفف لسانك عن لومي ومسألتي ... ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع

(٧) الأغاني : فيما دعوت به .

(٨) في شرح النهج : « من داع » وفي المبرد : من ناعي .

قال : فعلم زفر بن الحارث أنه عمران بن حطان ، فطلبه ليأخذ أشد الطلب ليرده إلى منزله ويأخذ له الأمان ، فلم يقدر عليه .

قال : ومضى عمران بن حطان حتى صار إلى بلاد عمان فنزل على قوم من الأزد وكانوا يرون رأيه ويتناشدون أشعاره ويبكون عليه وعلى أبي بلال الحروري. قال : فتعرف إليهم عمران بن حطان وأقام بينهم آمناً مطمئناً لا يخاف أحداً ثم أنشأ يقول[1] :

نـزلت بحمـد الله في خيـر أسـرة ... أسـرّ بنـا فيهم مـن الإنس والخفـرْ
نـزلت بقـوم يـجمـع الله شـملهـم ... وليس لهم عـود سـوى الحق يُعتصـرْ
مـن الأزد إن الأزد أكـرم أسـرة ... يـمـانيـة حـقـاً إذا نـسـب البـشـرْ
فـأصبحت فيـهم آمـنـاً لا كمـعشـر ... بـدوني وقـالـوا من ربيعـة أو مضـرْ
أو الـحيّ قـحـطانٍ وتلك سـفـاهـة ... كمـا قـال لي روح وصـاحبـه زفـر
ومـا مـنـهـمـا إلا يُسَـرُّ بـتـهـمـة ... تـقـربـنـي مـنـه وإن كـان ذا زمـر
فـنـحـن بـنـو الإسـلام والله واحـد ... وأولى عبـاد الله بـالـحق مـن شكـر

قال : فلم يزل عمران بن حطان مقيماً بأرض عمان مدة من عمره إلى أن مات الحجاج وتغيرت الأمم ، ثم صار إلى البصرة وبهـا يومئـذ رجل يقال له سـويد بن منجوف ، وتحته امرأة من بنات الخوارج يقال لها حمرة ، فلما سمعت بعمران بن حطان وعبادته ونسكه بعثت إليه أن خلصني من سويد بن منجوف فإني قد كرهته ، وقد أحببت أن أكون لك فإن رأيي رأيك وديني دينك . قال : فأقبل عمران ومعه نفر من الخوارج حتى استأذنوا على سويد ، فأذن لهم ، فدخلوا وجلسوا فقال عمران : أيها الرجل ! إننا قد أتيناك في أمر لا أظن أن أحداً قبلنا جاء في مثله ، قال : وما ذاك يـا أبا شهـاب؟ قـال : إن حمـرة امـرأة من بنـات المسلمين وقـد كـرهتـك ونحن نحب أن تخلي سبيلها فإن أعوانها عليك من المسلمين كثير ، فخل سبيلها طائعاً فهو خير لك وأحسن بك . قال : فاتقى سويد على نفسه من الخوارج ، ثم صاح بها وقال : يا حمرة ! ما تقولين فيما تسمعين ؟ فقالت : لا خير لك في مستكره ولست أحل لك لأنك لست على ديني ورأيي ! قال : فخلى سـويد سبيلهـا . فلما انقضت عـدتها

---

(1) الأبيات في الكامل للمبرد ١٠٨٨/٣ وشعر الخوارج ص ١٨٢ الأغاني ١٤٨/١٦ باختلاف في بعض الألفاظ بين المصادر والأصل .

تزوجها عمران بن حطان ثم أنشأ يقول[1] :

سويد بن منجوف كريم نمت به ... جدود وآباء عظام الدسائع[2]
دعتني إليه حاجة فوجدته ... لعمر أبيك الخير سهل التسارع
دعا حمرة لم يقبل الكفر قلبها ... فلم تر رأي الفاضح الدين نافع
فقال لها يا حمر ردي جوابه ... بحق وكفي عن جواب المخادع
فقالت مقال المستزيد لنفسه ... خلاصاً وكانت فورة للمقارع
لم أر مطلوباً إليه حليله ... أرد بمحمود من القول جامع
على مثلنا منه فلله دره ... وإن كان شيخاً للهدى غير تابع

فقيل لسويد بن منجوف : أطلقت حمرة خوفاً من الخوارج ؟ فقال : لا ، ولكني لا أحب أن يكون عندي من يكرهني ؛ قال ثم أنشأ يقول :

تركت لعمران بن حطان أخته ... وأعطيتها من أمرها ما تمنتِ
وقد كان ديني في المنية دينها ... فلما رأتني قد توليت ولت
على غير ذنب كان مني علمته ... على أنها صامت لجاجاً وصلت
فإن تكن الأيام أحدثن فرقة ... فلست أبالي أكثرت أم أقلت
وقد جاهرتني بالتجلد خدعة ... على أنها قد ولولت وتملت
فما أنا بالباكي عليها صبابة ... ولا سائلاً عن دارها حيث حلت

قال : فلما هلك عمران بن حطان أتاها سويد بن منجوف فاستأذن عليها ، فأذنت له ثم قالت : ما حاجتك ؟ قال : جئت خاطباً إليك نفسك ، وأنا من قد عرفت وقد مضى[3] أبو شهاب لسبيله ، فإن أردت شيئاً من ذلك فلا تعدليه عندي . قال فقالت له : مكانك حتى أخرج إليك ! ثم قامت فدخلت إلى مخدع لها فلبست مطرفاً كان لعمران بن حطان ولفت عمامته على رأسها وخرجت ، فقال لها سويد بن منجوف : ما هذا يا حمرة ؟ فقالت : إني سمعت خليلي أبا شهاب وهو يقول في بعض قوله[4] :

---

(١) الأبيات في شعر الخوارج ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٢) عظيم الدسائع : كثير العطية ، وقيل الدسيعة : مجتمع الكتفين .

(٣) الأصل : « أبا شهاب » .

(٤) البيتان في شعر الخوارج ص ١٦٦ .

ويلبس يوماً عرسه من ثيابه إذا قيل هذا يا فلانة خاطب
كأن لم يكن من قبل ذاك ولم يكن نصيب لها في سالف الدهر صاحب

فأحببت أن أصدق قول أبي شهاب بلبسي هذا من ثيابه ، فانصرف عني من حيث جئت فلا حاجة لي في التزويج بعد أبي شهاب .

ثم رجعنا إلى الخبر الأول وأمر خراسان

وهذا ابتداء أمر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ، والحديث طويل وهذا ابتداء ، وسنأتي به من أوله إلى آخره إن شاء الله تعالى .

قال : وصفت العراقان[1] للحجاج بن يوسف فلم يكن أحد يناويه ، وجعل الحجاج يضرب على الناس البعوث ويوجه بهم في الأعمال ، فخرج اسم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث ، فلم يحب أن يخرج فيه ، فجاء إلى أمه أم عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني فقال : يا أماه ! إن الحجاج قد ضرب على الناس بعثاً إلى موضع كذا وكذا وقد خرج اسمي في ذلك البعث ، وقد أحببت أن تكلميه في ذلك فلعله أن يعفيني من الخروج فيه . قال : وكانت أم عمران امرأة عاقلة لبيبة جزلة من النساء ، ولم يكن بالعراق امرأة هي أكرم على الحجاج منها لشرفها في قومها . قال : فركبت إلى الحجاج فكلمته في ابنها عبد الرحمن بن محمد ، فقال الحجاج : يا أم عمران ! إني ما كنت أحب أن أرخص لأحد من الناس في التأخر عن هذا البعث إلا أن يكون مشغولاً بعمل من أعمال أمير المؤمنين ، وما لحاجتك من مدفع وقد أعفيناه من ذلك البعث على أن يكون في أعوان أبي مسلم[2] حتى خليفته . قال فقالت أم عمران : أيها الأمير ! اجعله حيث شئت بعد أن تعفيه من السفر ؛ قال الحجاج : فإنا قد أعفيناه يا أم عمران . قال : وانصرفت أم عمران إلى منزلها ، وصار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى أبي مسلم خليفة[3] الحجاج . قال : وكان أبو مسلم هذا رجلاً فهماً عاقلاً لبيباً عالماً بالسنن والفرائض ، وكان إذا أصبح واجتمع إليه الناس يقول لهم : لا تتكلموا واذكروا الله ، ثم يبدأ هو بالكلام فيتكلم ،

---

(١) الأصل : العراقين .

(٢) كذا ، ولم نعثر فيما لدينا ، على هذا الاسم في خلفاء الحجاج .

(٣) بالأصل : خليفته .

ثم يتكلم رجل منهم حتى يأتي على آخرهم ؛ قال الشعبي[1] : فجلس يوماً كما كان يجلس في أصحابه ، فتكلم وتكلم[2] الناس حتى أفضى الكلام إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فتكلم وأوجز وأحسن ؛ قال : فأعجبني منه وأنا لا أعلم ما في قلبه .

قال : ثم جمع الحجاج الناس ذات يوم فقال : دلوني على رجل يصلح للشرطة ، فقال له كاتبه عنبسة : أصلح الله الأمير ! عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في شرفه وجلده ومكانه من أهل مصره ! فقال الحجاج : هو لها . قال الشعبي : فبادرت إليه وهو في منزل أمه أم عمران ، فقلت له : البشرى يا أبا الأشعث ! فقال : بماذا ؟ فقلت : إن الأمير ذكر رجلاً يصلح للشرطة فذكرك له عنبسة بن سعيد ، قال الشعبي : فرأيته قد غضب فقال : ويحك يا أبا عمرو ! ومثلي يتقلد سيفاً ويمشي بين يدي ابن أبي رغال ! والله ما رأيت أحداً قط على منبر يخطب إلا وظننت في نفسي أنا أحق بذلك منه ! قال فقلت له : دع عنك هذا ، فإن الحجاج ليس ممن يعادى ولا ينابح ، فلا تسأله عن نفسك ! فتبينت الكراهة في وجهه .

ثم ركب وركبت معه إلى عنبسة بن سعيد كاتب الحجاج ، فلما دخلنا عليه قلت : أصلحك الله ! إني قد أخبرت أبا الأشعث بما كان من برك وعنايتك ورأيك فكره ذلك ! فقال عنبسة : ولم ذلك ؟ قال ابن الأشعث : لأنه لا حاجة لي في ولاية الشرطة . قال الشعبي : فسكت عنبسة ، فقلت له : جعلت فداك ! تدارك إصلاح ذلك ، فقال : أفعل ذلك . ثم ركب إلى الحجاج فلما دخل وأخذ مجلسه جعل يتناعس في المجلس ، فقال له الحجاج : ما قصتك ؟ فقال : أصلح الأمير ! إني امتنعت اليوم من القائلة ، قال الحجاج : ولم ذلك ؟ قال : لأني أشرت على الأمير أصلحه الله بعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وهو رجل شريف شديد الحياء من الناس ، فأخاف عليه الشفاعات . قال الحجاج : فلا حاجة لي فيه ، ولكن دلوني على رجل يصلح لهذا الأمر ! فقال له بعض جلسائه : فأي رجل يريده الأمير ـ أصلحه الله ؟ قال : دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، يهون عليه شبال الأشراف في الشفاعات . فقال له أهل المجلس : ما نعرف مثل هذا إلا

---

(١) هو عامر بن شراحيل الشعبي ، من ندماء عبد الملك بن مروان ، مات بالكوفة سنة ١٠٣ هـ .

(٢) الأصل : وتكلموا .

عبد الرحمن بن عبيد السعدي ، فقال له الحجاج : يا عبد الرحمن[1] إني قد استعملتك على الشرطتين جميعاً البصرة والكوفة ، فصيف عندنا بالكوفة وشتّ بالبصرة ، فقال : أصلح الله الأمير ! قد قبلت ما وليتني فاكفني حاشيتك وأهلك وولدك في الشفاعات! فقال: قد كفيناك ذلك، يا غلام! مر المنادي فلينادِ: ألا! ومن طلب شفاعة من حاشية الأمير وأهله وولده فقد برئت منه الذمة ! قال الشعبي : فوالله ما رأيت أحداً قط يشبه عبد الرحمن بن عبيد ! كان إذا أتي برجل قد نقب على قوم منزلهم وضع منقبه في بطنه حتى يخرج من ظهره ، وإذا أتي برجل قد شهر سلاحاً قدمه فقطع يده ، وإذا أتي برجل قد أحرق على قوم شيئاً أمر به فأحرق بالنار حرقاً ، وإذا أتي برجل قد شك فيه آخره فضربه ثلاثمائة سوط وخلى عنه ؛ وكان لا يحبس أحداً إلا في دين ، وكان إذا انحدر إلى البصرة يخلف خليفة بالكوفة ، وإذا رجع إلى الكوفة فخليفته بالبصرة ، وكان خليفتاه جميعاً يعملان في الناس كعمله .

قال : ودعا الحجاج أمية بن عبد الله[2] بن خالد بن أسيد فعقد له عقداً بولاية سجستان[3] وأمره أن يغزو أرض كابل ، فسار أمية بن عبد الله في جمع عظيم حتى دخل أرض كابل وغلغل فيها ، فلما أراد الخروج أرسل مالك البلد واسمه رُتبيل فأخذ عليه الشعاب والعقبات والمضايق ، فلم يقدر أمية على الخروج من البلد ، فصالح رتبيل ملك كابل على مائتي ألف درهم ، فأعطاه ذلك ثم خرج من البلد ، وقد سلم وسلم أصحابه .

قال : وبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى عبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين ! إن أمية بن عبد الله اشترى النار بالجنة وزاد مائتي ألف درهم ! فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن اعزله عن البلاد وولّ مكانه عبيد الله بن أبي بكرة[4] .

قال : فتقدم ابن أبي بكرة إلى سجستان ، ثم إنه جمع الناس وغزا أرض كابل

---

(١) الأصل : يا أبا عبد الرحمن .

(٢) بالأصل عبد الرحمن وما أثبت عن ابن الأثير ١٣٢/٣ .

(٣) في ابن الأثير أنه كان والياً على خراسان وسجستان . وقد عزله عبد الملك عنهما سنة ٧٨ وضمهما إلى أعمال الحجاج ، فبعث الحجاج المهلب على خراسان ، وبعث عبيد الله بن أبي بكرة على سجستان ١٣٥/٣ .

(٤) انظر الحاشية السابقة .

ومعه يومئذ شريح بن هانىء الحارثي في أهل الكوفة ، فلما توسط المسلمون[1] البلاد وأخذ عليهم أيضاً رتبيل العقبات والشعاب كما فعل بأمية بن عبد الله من قبل ، قال : فبقي ابن أبي بكرة لا يقدر على الخروج ، فبعث إلى رتبيل أنك قد فعلت كذا الفعال بغيري ، ولكن ما يغنيك ، وما الذي تريد ؟ قال : أريد منك أن تحط عني خراج عشر سنين وتعطيني ألف ألف درهم ونصف ما معك من السلاح والكراع ، وتعطيني ولدك وأشراف قومك رهائن حتى أخلي لك السبيل[2] ! فأرسل ابن أبي بكرة إلى من كان معه من أهل البصرة وأهل الكوفة فأخبرهم بهذا الخبر . فقال البصريون : أيها الأمير ! الرأي عندنا أن نصالحه ونعطيه ما سأل ، فقال شريح بن هانىء الحارثي وأهل الكوفة : لا والله ما كان ذلك لرتبيل منا أبداً ! قال : فغضب ابن أبي بكرة ، ثم قال شريح بن هانىء : هذا ما أنت والاعتراض عليَّ مما أريد ، تريد أن تنقض عليَّ أمري ويقتل المسلمون ! فقال شريح : يابن [أبي] بكرة ! إنما أنت عبد حبشي ، وشرفك بالبصرة حمامك وبستانك ، فدع عنك هذه الرئاسة فإننا إنما قدمنا إلى هذا البلد لأجل الجهاد، والله لا متنا إلا كراماً إن شاء الله[3] . قال: ثم أقبل شريح على أهل الكوفة فقال: أخبروني عنكم ماذا نقول غداً لشباب مذحج بالكوفة ؟ إننا قد اشترينا اللؤم بالكرم والكفر بالإيمان والنار بالجنة كما فعل ذلك أمية بن عبد الله من قبل ! ثم قال : ألا ! من كان ههنا من مذحج وهمدان فليتقدم معي إلى أعداء الله ! قال : فأجابه الناس من كل ناحية بالتلبية . قال : وكان شريح بن هانىء في وقته ذلك قد نيف على مائة سنة وهو أحد المعمرين ، وقد أدرك النبي ﷺ وأبا[4] بكر وعمر وعثمان ، وقد شهد وقعة الجمل وصفين والنهروان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : فتقدم يومئذ عشرة آلاف رجل من أهل الكوفة وهو يرتجز ويقول[5] :

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرا   قد عشت بين المشركين أعصرا

---

(١) الأصل توسطوا المسلمين .

(٢) في فتوح البلدان ص ٤٩١ خمسمئة ألف درهم ويبعث إليه بثلاثة من ولده : نهار والحجاج وأبي بكرة رهناء ، ويكتب لهم كتاباً أن لا يغزوهم ما كان والياً . وانظر ابن الأثير ١٣٦/٣ والطبري حوادث سنة ٧٩ .

(٣) انظر مقالة ابن أبي بكرة لشريح وردّ شريح عليه في الطبري ٣٢٣/٦ وابن الأثير ١٣٦/٣ .

(٤) الأصل : أبا بكر .

(٥) الأرجاز في الطبري ٣٢٣/٦ وابن الأثير ١٣٧/٣ .

وفرسان أهل العراق حتى صاروا إلى فارس ، وبها يومئذ رجل يقال له هميان[1] بن عدي السدوسي في عسكر لجب ، غير أنه كان عاملاً للحجاج فخالفه وعصى عليه وخلع الطاعة . قال : فحاربه ابن الأشعث حتى هزمه من فارس إلى كرمان وقتل عامة أصحابه ، ثم بعث برؤوسهم إلى الحجاج وكتب إليه يخبره بموافقته إياهم .

قال : ثم سار ابن الأشعث إلى كرمان وكتب الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة فعزله عن سجستان ، فخرج يريد العراق فأدركه الموت فمات في الطريق .

قال : وسار ابن الأشعث إلى رُخّج[2] فنزلها وأقام بها . وجعل الحجاج يكتب إليه ويستحثه ويأمره بالمسير إلى رتبيل والاقتحام عليه في بلده . قال : وعبد الرحمن يكتب إليه : أيها الأمير ! لا تعجل عليَّ ، فإني وجهت عيوني ليأتوني بأخبار البلد وأنا قادم عليه إن شاء الله ولا قوة إلا بالله[3] . ثم كتب عبد الرحمن إلى رتبيل ملك كابل : أما بعد فإنك علج قد تعديت طورك ، ودخلت في غير حدّك ، وكسرت خراج أمير المؤمنين ، وقتلت المسلمين ، وقد أعذر من أنذر ، وأنا سائر إليك في الحد والحديد ، والخيل والجنود ، ثم إني لا أعاملك معاملة من كان قبلي ، لكني أطأ بلدك ، وأقتل ولدك ، وآخذ مالك ، وأسبي حريمك إن شاء الله . قال : فلما ورد كتاب ابن الأشعث على رتبيل كتب إليه : أيها الأمير ! إنه لم يدعني إلى قتال أصحابك إلا ما حملوني عليه وما بدأوني به من الغدر وسوء السيرة ، ولولا ذلك لم أفعل ما فعلت ، وأنا نازل عندما أحببت ، وغير مخالف أيها الأمير فيما أردت ـ والسلام ـ . قال : ثم وجه رتبيل بكتابه إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى صار في جمع عظيم .

قال : وعزم ابن الأشعث على الخلع والعصيان ، وكره الدخول إلى أرض الداور ، ثم إنه جلس فكتب كتاباً عن لسان الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فاقتل فلاناً وفلاناً وابعث برؤوسهم

---

(١) عن الطبري ، وبالأصل « هيمان » .

(٢) عن معجم البلدان ، وبالأصل « روح » ورخج قصبة سجستان وهي مدينة من نواحي كابل .

(٣) انظر المراسلات بين الحجاج وابن الأشعث بشأن تعجيل حرب رتبيل في الطبري ٣٣٤/٦ وابن الأثير ١٤٣/٣ ـ ١٤٤ . وابن كثير ٣٥/٩ .

إليّ ! قال : ثم سمى جماعة من رؤساء العسكر ، وطوى كتابه وختمه . ثم تركه حتى جف ختمه ، ثم جعل يرسل إلى رجل بعد رجل من أجلاء عسكره فيخلو به فيقول : يا هذا ! هل أذنبت إلى الحجاج ذنباً ؟ فيقول الرجل : لا والله أيها الأمير ما أعرف لي ذنباً إلى الحجاج ، فيقول له : ويحك ! فهذا كتابه إليّ فيك يأمرني بقتلك ، ولا والله ما كنت بالذي أقتل مثلك فاكتم علي هذا ، قال : فلم يزل ابن الأشعث كذلك حتى غلظ قلوب الأشراف على الحجاج ، ثم قال : ألا ترون أنه يكتب إليّ ويأمرني بالدخول إلى بلاد الداور وإلى أرض رتبيل والإقدام عليه في بلده ، ورتبيل في وقته هذا نيف على مائة ألف ، والله ما يريد بهذا إلا أن تهلكوا كما هلك جيش ابن أبي بكرة ، وأخرى فإنه قد سار فيكم بما قد علمتم وشردكم في البلاد ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ، وأنا قد عزمت على خلعه وخلع صاحبه عبد الملك بن مروان ، فماذا ترون ؟ قالوا : ذا إليك أيها الأمير ! وأمورنا تبع لأمرك[1] . قال : فإني أريد أن أقوم فأخطب ، فإذا أنتم سمعتموني أذكر بني مروان تقوموا فتكلموا بما بدا لكم ! قال : ثم نادى ابن الأشعث في أصحابه فجمعهم ، ثم قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر بني مروان وسوء سيرتهم وما ارتكبوا من العامة ، ثم ذكر الحجاج وما صنع قبل ذلك بعبد الله بن الزبير والحرم . قال : فوثب أولئك الرؤساء الذين أقرأهم الكتاب الذي صنعه عن الحجاج في قتلهم ، فقالوا : أيها الأمير ! فاخلعه ـ خلعه الله وخلع صاحبه من رحمته ! قال ابن الأشعث : فإننا قد خلعنا ابن مروان وخلعنا الحجاج بن يوسف ، ونحن منصرفون إلى جهادهم ومحاربتهم إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

قال : وقد كان في عسكر ابن الأشعث رجل يقال له مصقلة بن رقبة العبدي

---

(١) أهم الأسباب التي دفعت بابن الأشعث وأصحابه للثورة على الحجاج هي :
- البغض الذي كان يكنه ابن الأشعث للحجاج ، وسوء العلاقة الشخصية بينهما .
- قوانين الحجاج الصارمة وممارساته القمعية ضدهم .
- الحقد على الحجاج لظلمه أهل العراق بني جلدته وإهانتهم ، وسوء معاملته قواده وجنده حتى أنهم سموه فرعون .
- عصبية الحجاج المتطرفة ضد الموالي وشدة تمسكه بانتمائه القيسي .
- القسوة التي استخدمها الحجاج في مراسلاته لابن الأشعث بشأن رتبيل واتهامه له بالضعف والجبن والعجز .
- الطموح الشخصي لابن الأشعث وقد ملك بلاداً واسعة وملأ يديه منها غنائم عظيمة .

فأخذ على فجور فأُتي به ابن الأشعث فأقام عليه الحد . فلما كان ذلك اليوم وقال ابن الأشعث ما قال وخلع الحجاج وعبد الملك بن مروان هرب مصقلة بن رقبة هذا وهرب معه ثلاثة نفر ، منهم : غدافر بن يزيد التيمي ولاوي بن شفيق بن ثور السدوسي وقتادة بن قيس الكندي ، فهربوا حتى لحقوا بالحجاج فأخبروه بذلك . قال : وبلغ المهلب بن أبي صفرة ما قد عزم عليه ، فكتب إليه من مدينة مرو .

ذكر كتاب المهلب بن أبي صفرة إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[1]

أما بعد يابن الأخ ! فإنك قد وضعت رجلك في ركاب[2] طويل الغي لأمة محمد ﷺ ، فأنشدك بالله يابن الأخ ألّا تداركت هذا في نفسك ، أتترك المشركين وتقاتل المسلمين ؟ لا تفعل يابن الأخ ! واذكر بلاء الحجاج عندك ! إنه جمع لك أهل المصرين جميعاً : البصرة والكوفة ، ثم إنك تريد أن تنقص ثغورهم وتضرب بعضهم ببعض ، مهلاً يابن الأخ ! واحذر العار في العاجلة والنار في الآجلة ـ والسلام ـ .

قال : وتواترت الأخبار إلى الحجاج بما قد عزم عليه ابن الأشعث فقال : أما إن إخوته قد نصحوني فلم أقبل ذلك منهم .

قال : وعزم ابن الأشعث على المسير إلى العراق لمحاربة الحجاج ، ثم دعا عبد الله بن عامر التميمي[3] فاستخلفه على سجستان وأمره بمداراة رتبيل ملك الداور[4] ، ثم جعل يجمع الناس ويعطيهم ويعدهم ويمنيهم ؛ فقال له أعشى همدان : أيها الأمير! أما لنا منك نصيب؟ فقال له ابن الأشعث: ثكلتك أمك أبا المصبح ! إن هذه أيام مداراة ، ولكن امهلني إلى أن يثني لي الوسادة ونظفر ببعض ما نريد ، ثم انظر بعد ذلك ﴿ **هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا** ﴾[5] .

(١) انظر نص كتابه في الطبري ٣٢٨/٦ باختلاف وانظر نسخة في البداية والنهاية ٤٥/٩ .
(٢) الطبري : غرز .
(٣) عن الطبري ، وبالأصل : عامر بن عبد الله التيمي .
(٤) في الطبري ٣٣٦/٦ أن ابن الأشعث بعث إلى رتبيل فصالحه على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقي ، وإن هزم فأراده ألجاه عنده .
(٥) سورة مريم الآية ٩٨ .

ذكر وفاة المهلب بن أبي صفرة ووصيته عند موته

قال : وحضرت المهلب بن أبي صفرة في تلك الأيام الوفاة[1] وهو يومئذ بمدينة مرو الروذ ، فدعا ببنيه فأجلسهم بين يديه فقال : يا بني ! إني أوصيكم[2] بتقوى الله وصلة الرحم ، فإن تقوى الله يعقب الجنة ، وصلة الرحم تنسىء في الأجل وتثري المال ، وتجمع الشمل ، وتكثر العدد ، وتعمر الديار وتعز الجانب ؛ وأنهاكم عن معصية الله وقطيعة الرحم ، فإنها تعقب الذلة ، وتورث القلة ، وتقل العدد ، وتفرق الشمل ، وتدع الديار بلاقع ، وتذهب بالمال ، وتبدي العورة ؛ وعليكم يا بني بإكرام قومكم ، فإنه ليس لكم عليهم فضل ، بل الفضل لهم عليكم إذ سودوكم وفضلوكم على أنفسهم ؛ فانظروا إن سألوكم فأعطوهم ، وإن شتموكم فاحتملوهم ؛ واحذروا الجواب ، واتقوا زلة اللسان ، فإن الرجل تزل قدمه فيقوم من زلته ، ويزل لسانه فيكون فيه هلكته ؛ يا بني ! اصطنعوا المعروف وحبوه ، وانهوا عن المنكر واجتنبوه ، وآثروا الحق على الباطل ، والجود على البخل ، والعرب على ما سواهم ، وسودوا كباركم ، وعرفوا فضل ذوي أنسابكم ، يعظم بذلك منازلكم ، وارحموا صغيركم ، ووقروا كبيركم ، وأجيروا يتيمكم وعودوا عليه بما قدرتم ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم ، واصبروا للحقوق ونوائب الدهر ؛ وعليكم في الحرب بالأناة والتؤدة عند اللقاء ؛ وإياكم والطيش والعجلة ! والزموا الطاعة والجماعة ، وإياكم والخلاف والفرقة ! وعليكم بحفظ القرآن والسنن والفرائض ! وتأدبوا بآداب الصالحين من سلفكم ، ولا تجالسوا أهل الدعارة والريبة ، وإياكم والخفة والخوف في مجالسكم ! وإياكم وكثرة الكلام في غير حاجة ! فإنه لا يكاد يسلم صاحبه ، وأدوا ما يجب عليكم من حق الله ، واعلموا يا بني أني قد أبلغت إليكم في وصيتي ، وجعلت لله الحجة عليكم في تركها ، والثواب من الله على المحافظة عليها ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال : ثم توفي بمرو الروذ فقبره[3] بها ؛ فقال فيه نهار بن توسعة هذين البيتين :

---

(١) وكانت وفاته سنة ٨٢ في ذي الحجة منها وكان عمره ٧٦ سنة ، كان له من الولد عشرة ، مات في مرو الروذ وجعل من بعده الأمر لابنه يزيد بن المهلب .

(٢) انظر وصيته في الطبري ٣٥٤/٦ وابن الأثير ١٥٢/٣ .

(٣) وفي سبب موته قيل إنه مرض بالشوكة هو داء كالطاعون ، وقيل الشوكة : حمرة تعلو الوجه والجسد =

ألا[1] ذهب الغزو المقرّب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلبِ
أقاما بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد فقدا من كل شرق ومغرب[2]

قال : ثم أنشأ كعب بن معدان الأشقري [3] أيضاً يرثيه وهو يقول :

ترحلت الأجياد تبغي عميدها ... أخا الحرب وارته السفائف والقبرُ
يقولون هل بعد المهلب نعمة ... من العيش إلا قد أتى دونها الدهر ؟
ولا نائل إلا قليل مصدد ... قليل الغنى في الناس مطلبه وعر
وهدّت لذاك الأرض حتى كأنها ... بكته الجبال الصم وانصدع الفجر
وأظلمت الآفاق حتى كأنما ... يرى دون ضوء الشمس من دونها ستر
فمن ذا الذي يرجى لكل عظيمة ... تحل بنا أو من يسد به الثغرُ
بقينا بحالات أبى الدهر دونها ... عرى الحزم والمعروف والنائل الغمر
أيرجون أن يعرى سمرقند غيرها ... وعليا بخارستان وانقطع النهر

قال : فلما مات المهلب صار أمر خراسان إلى ابنه يزيد ، فقال أصحاب ابن الأشعث : أيها الأمير ! إنك قد عزمت على المسير إلى العراق ، ولو بدأت بخراسان فأخذتها واستوليت عليها فإنها الثغر الأعظم ! فقال ابن الأشعث : إنه لو كان غير يزيد بن المهلب بها لفعلت ذلك ، ولكن يزيد رجل جليل القدر له عشيرة وطاعة في قومه ، ودان الناس له بالسمع والطاعة ، وأنا أكره أن أبدأ بنفسي بالانهزام ، ولكن أسير إلى الحجاج بن يوسف ، فإن ظفرت بالعراق فما أيسر والله أمر خراسان إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله [العلي] العظيم .

ذكر مسير ابن الأشعث إلى العراق لمحاربة الحجاج

قال : ثم سار ابن الأشعث يريد[4] الحجاج فكان معه أخوه القاسم فلم

= (اللسان) ، وقيل إن مرضه كان بالشوصة وهي ريح تأخذ الإنسان في لحمه تحول هنا مرة وهنا مرة ومرة في الجنب ومرة في الأضلاع (اللسان) . وقيل إنه مات من آكلة في رجله (اليعقوبي) . وفي فتوح البلدان أن بدء علته كان بسبب حزنه على ابنه المغيرة بن المهلب .

(1) عن الطبري ٣٥٥/٦ وابن الأثير ١٥٣/٣ وبالأصل إذا .

(2) زيد بعده في الطبري أبيات .

(3) الأصل : الأشعري .

(4) بالأصل « يزيد » خطأ .

يفارقه ، قال : وسار ابن الأشعث حتى صار إلى كرمان فأقام بها أياماً ، ثم استعمل عليها هارون بن دراع الحنفي(1) ، وخرج منها يريد أرض فارس ، وقد ركب نجيباً له برجل مدلّج ولبس حلة صفراء والناس عن يمينه وشماله وهو يتمثل بقول مهلهل الثعلبي حيث يقول :

وأعز من ولد الأراقم ماجد صلت الجبين معاود الإقدامِ
خلع الملوك وصار تحت لوائه غُرّ الورى وأكابر الأقوام(2)

قال : وسار حتى دخل أرض فارس فأقام بها أياماً ، ثم رحل عنها وركب نجيباً له برجل مدلج وعليه حلة حمراء وهو يتمثل بقول الحارث بن وعلة(3) الجرمي حيث يقول :

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم حرباً تزايل بين الجيرة الخُلُطِ
أم هل دلفت(4) بجرار له لجب جم الصواهل بين السارة الفرط(5)
وهل تركت(6) نساء الحي ضاحية يوقدن وسط بيوت الحي بالخمط(7)

قال الهيثم بن عدي : فأنبأني عبد الله بن عياش(8) [عن] الشعبي قال : كانت بفارس عجلة من بنات الفرس يقال لها أمير زاد وكانت من أجمل الناس ، وكانت لا يبيت الرجل عندها إلا بمائة درهم ، وكان مع ابن الأشعث رجل من بني تميم يكنى أبا حراثة وكان صاحب دعابة ومضاحكة ، فبات عندها ولم يكن معه شيء يعطيها ، فدفع إليها سرج برذونه ، فلما هم ابن الأشعث بالرحيل من فارس عرض له أبو حراثة

(1) في الطبري ٣٣٧/٦ « خرشة بن عمرو التميمي » وفي ابن الأثير ١٤٤/٣ حريثة .
(2) عجزه في مروج الذهب ١٥٩/٣ :

شجر العرى وعراعر الأقوام

(3) بالأصل : وعلة بن الحارث وما أثبت عن الطبري ٣٣٨/٦ والأبيات في الأغاني ١٤٠/١٩ .
(4) في الطبري : « وهل سموت » وفي الأغاني : أم هل علوت .
(5) عجزه في الأغاني :

يغشى المحارم بين السهل والفرط

(6) في الأغاني : حتى تركت .
(7) الطبري : في ساحة الدار يستوقدن بالغبط .
(8) عن لسان الميزان وبالأصل : عباس .

هذا ، فلما رآه ابن الأشعث قال : ما وراءك يا أبا حراثة ؟ فجعل يقول :

أمـيـر زاد ذهـبـت بـالـسـرج   في فـتـنـة الـنـاس وهـذا الـفـرج

قـال : فضحـك ابن الأشعث وقـال : استفكـوا لـه سـرجـه ، قـال : وبلغ الحجاج بن يوسف فقال : ويلي عليه عدو نفسه يعاقب مصقلة بن رقبة العبدي على الزنى ويستفك سرج الزناة ، إني لأرجو أن يخزيه الله إن شاء الله .

قال : فجمع الحجاج أصحابه فخطبهم ثم قال : أيها الناس ! إن هذا الفاسق عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد خلع الطاعة وفارق الجماعة وسار إلى ما قبلكم فهاتوا آراءكم ! قال : فوثب عليه سلمة بن عبد الله المنقري قال : أيها الأمير ! رضينا بالله رباً ، وبمحمد ﷺ نبياً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن إماماً ، وبعبد الملك بن مروان خليفة ، وبك أميراً ، أصلح الله الأمير ! إن لم يكن نبي ولا كتاب ولا إمام لما رضينا بالحائك ابن الحائك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . قال فقال الحجاج : هذا كلام حسن لا أرده عليك ولا أدخله صداي حتى أبلو ما عندك . قال : ثم عقد له الحجاج عقداً وضم إليه خيلاً ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ؛ فهرب حتى لحق بابن الأشعث فصار معه .

ثم وثب في ذلك الوقت حنظلة بن الحارث الضبابي فقال : أصلح الله الأمير ! إنك قد وليت بلاد سجستان غلاماً سفيهاً ، ولم يكن لذلك أهلاً ، وأنا أرجو أن يدركه الله بإحدى عثراته ! قال فقال له الحجاج : يا حنظلة ! أما بالأمس فقلت لي إنه سيد الناس وفتى العرب ، واليوم تقول إنه غلام سفيه ـ والله المستعان . ثم نزل الحجاج عن المنبر ودعا بحنظلة بن الحارث هذا ، فعقد له عقداً وضم إليه خيلاً وأمر له بعشرة آلاف درهم ؛ فهرب حتى لحق بابن الأشعث فصار معه .

قال : وجعل الحجاج يتألف الناس والناس دون عيونهم إلى ابن الأشعث ، فلما رأى ذلك كتب إلى عبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين ! الغوث الغوث من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ! وإني قد وجهت إليك لاوي[1] بن شقيق السدوسي فليسأله أمير المؤمنين عما صنع ابن الأشعث ـ والسلام ـ .

---

(١) الأصل : « لاي » وقد مرّ قريباً صواباً .

قال : فلما ورد كتاب الحجاج على عبد الملك بن مروان وقرأه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال : هات ويحك يا لاوي[1] ما عندك من الخبر ! قال : فجعل لاوي بن شقيق يحدثه له بخروج ابن الأشعث ، وما كان منه ، وعبد الملك بن مروان يتغير وجهه ساعة بعد ساعة ، ثم جعل يتمثل بقول الحارث بن وعلة[2] الجرمي وهو يقول[3] :

مـا بـال من أسعى لتجبـر عـظمـه	حفـاظـاً وينـوي من سفـاهتـه كسـري
أعـوذ على ذي اللب والجهـل منهم	بحلمي ولـو عـاقبت غـرّقهم بحـري
أنـاة وحـلمـاً وانتـظاراً بـهـم غـداً	فمـا أنـا بـالفـاني ولا الضـرّع الغمـر
وإني وإيـاهـم بـمـنـزلـة الـقـطا	ولـو لم تنبـه كـانت الـطيـر لا تسـري
أظن صـروف الـدهـر والجهـل منهم	ستحملهـم مني على مـركـب وعـرِ
ألم تعـلمـوا أني صبـور على الأذى	وأن قـنـاتي لا تـلين عـلى الـكسـر

قال : ثم قام عبد الملك بن مروان في أهل الشام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أهل الشام ! إن أهل العراق قد استعجلوني قدري قبل انقضاء أجلي ، اللهم فلا تسلط علينا ظالماً ، ولا تسلطنا على ظلم وليّ من أوليائك ، اللهم أصبيت[4] سيوف أهل الشام على العراق حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا بهم رضاك فلا تجاوز بهم سخطك إنك على كل شيء قدير . قال : ثم نزل عن المنبر ودخل إلى منزله فجعل يعطي الناس ويجهزهم إلى العراق ، وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فدعاه ـ وكان خالد بن يزيد علّامة بأيام الناس عارفاً بكتب الفتن ، فقال له : ويحك يا أبا هاشم ! هل تتخوف اليوم علينا من الرايات السود شيئاً ؟ فإننا نجد في الكتب أن ذهاب ملكنا على أيديهم ؛ قال له خالد : وما اسم[5] [بلد] هذا الرجل الذي خرج عليك يا أمير المؤمنين ؟ قال : سجستان ؛ قال خالد : الله أكبر لا تخف[6] يا أمير

---

(١) الأصل : « وعلة بن الحارث » تحريف .

(٢) بعض الأبيات في مروج الذهب ١٥٩/٣ والاخبار الطوال ص ٣١٧ . باختلاف بعض الألفاظ .

(٣) الطبري ٣٣٩/٦ سلط .

(٤) الأصل : أنتم .

(٥) الأصل : لا تخاف .

المؤمنين ما لم يأتك الأمر من قعر مرو[1] . قال : وجعل عبد الملك بن مروان لا ينام الليل من الفكر والغم ، وربما هجع وأغفى ثم يستيقظ كالفزع المرعوب وهو يقول : لقد تركني ابن الأشعث في هجوع ، اللهم أدركه واكفني أمره كيف شئت وأنّى شئت .

قال : وفصل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من أرض فارس ، ثم كتب إلى عباد بن الحصين الحبطي ، وعباد يومئذ بالبصرة ، فكتب إليه : أما بعد فقد عرفت رأيك وفضلك وقدرك وحالك وطاعتك في قومك وأهل مصرك ، وقد عرفت الحجاج وسوء أثره فيكم ، فاكتب إليَّ برأيك أتبعه فإنك المستمع منه والمقبول قوله ـ والسلام ـ. قال: فورد كتاب ابن الأشعث على عباد بن الحصين الحبطي ، وعباد يومئذ شيخ كبير لا يستمتع منه بشيء إلا برأيه . فلما ورد عليه كتاب ابن الأشعث وقرأه قال : أوه ! لو قال هذا القول لي وبي حراك أو نهوض لأبليت لله وللمسلمين بلاء حسناً ! قال : ثم إنه كتب إليه : أما بعد يابن الأشعث ! فإني لا أرى شيئاً هو لك أمثل ولا خير لك من أن لا تمكن أهل البصرة من أذنيك ، وإذا رأيت رأياً فأمضه ـ والسلام ـ .

قال : فعندها دعا ابن الأشعث برجل من أشداء أصحابه يقال له عطية بن عمرو العنبري ، فضم إليه أربعة آلاف فارس وأمره أن يسير إلى كور فارس ورساتيقها فيجبي أموالها ولا يترك أحداً من شيعة الحجاج إذا قدر عليه إلا قتله . قال : فسار عطية بن عمرو في البلاد فجعل يجمع الأموال ويبعث بها إلى ابن الأشعث ، وابن الأشعث يفرقها في الناس ويقوم بها ويأمرهم بالاستعداد للحرب والقتال ، فأنشأ أعشى همدان يقول في ذلك :

من مبلغ الحجاج أ	نّي قد ندبت إليه حربا
حربا مذكّرة عوا	نا تترك الشبان شيبا
وتجندل البطل الكمـ	ـيّ وتملأ الرعديد رعبا
نبئت أن ابن[2] يو	سف خرّ من زلق فتبا

(١) العبارة في الطبري : فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كان هذا الحدث من قبل سجستان فلا تخفه ، وإن كان من قبل خراسان تخوفته .

(٢) في الطبري ٣٩٢/٦ بُنيّ .

فابعث عطية في الخيو ل يكبّهن عليك كبّا

قال : وسار ابن الأشعث حتى نزل إلى الأهواز ، وبلغ ذلك الحجاج وهو يومئذ بالبصرة ، فدعا بالحكم بن أيوب[1] بن أبي عقيل فاستخلفه على الصلاة ، وجعل عبد الله بن عامر بن مسمع على شرطة البصرة ، ثم جمع الناس وخرج في جيش كبير حتى نزل على سبعة فراسخ من الأهواز[2] . فدعا بعبد الله بن رميثة[3] الطائي من أهل حمص ومطهر بن حر العكي[4] من أهل الأردن ، فضم إليهما ثمانية آلاف فارس وأمرهم بالمسير إلى ابن الأشعث جاداً مجداً .

وهذه أول وقعة كانت لابن الأشعث مع الحجاج

قال : فسارت الخيل حتى نزلوا بساحة ابن الأشعث ، قال : وعبى ابن الأشعث أصحابه وسار حتى وقف على نهر دجيل[5] ، ثم صاح بفرسه وعبر فعبر الناس معه إلى خيل الحجاج ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ساعة من النهار ، وتقدم رجل من همذان من أهل الكوفة من أصحاب ابن الأشعث وفي يده راية له سوداء ، فجعل يحمل على أصحاب الحجاج فمرة يطاعنهم بالراية ومرة يضاربهم بالسيف ، فلم يزل كذلك حتى قتل منهم جماعة . قال : فصاح به رجل منهم من أهل الشام : حسبك يا صاحب الراية من دمائنا في هذا اليوم ! قال : وكثر القتل في أصحاب الحجاج .

قال : وبلغ ذلك الحجاج وذلك في يوم الأضحى والحجاج واقف على الجسر يخطب ، فصعد إليه رجل[6] من أصحابه فأخبره بالخبر . قال : فنزل الحجاج من منبره مسرعاً ، ثم أمر بالأثقال وبالأموال فوضعت في السفن ، ووقف ينتظر ما يكون

---

(١) عن الطبري ٦/٣٤٠ وبالأصل : أبي أيوب .

(٢) في رواية أنه نزل تستر وفي رواية أخرى : نزل رستقباذ وهي من دستوى من كور الأهواز (انظر الطبري ٦/٣٣٩ و٣٤٠) .

(٣) عن الطبري ٦/٣٣٩ وبالأصل « دميت » .

(٤) عن الطبري وبالأصل : حيى العتكي .

(٥) عن الطبري وبالأصل « دستر » .

(٦) هو أبو كعب بن عبيد بن سرجس (الطبري ٦/٣٤٠) .

من أمر أصحابه ؛ قال : وإنه لكذلك إذ أتاه الخبر بأن أصحابه الثمانية آلاف قد قتلوا بأجمعهم فما انفلت منهم أحد ، قال : فجلس الحجاج في سفينة ومر في جوف الليل هارباً منهزماً حتى دخل البصرة بأشد حالة تكون .

قال الهيثم بن عدي قال أنبأني عبد الله بن عياش[1] قال : كان لأهل العراق على أهل الشام النصر والظفر في ثلاثة مواطن ، قتلوا منهم ستة وثمانون ألفاً ، منها وقعة بابلا[2] يوم يزيد بن أنس الأسدي رحمه [الله] حين وجه به المختار ، قتل من أهل الشام ثمانية آلاف ؛ ومنها وقعة خازر[3] مع إبراهيم بن الأشتر ، قتل عبيد الله بن زياد وقتل معه نيف على سبعين ألفاً ؛ ومنها يوم دجيل[4] ، قتل منهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ثمانية آلاف .

قال : وأقبل ابن الأشعث على أصحابه فقال : يا أهل العراق ! أما هذا الذي كان فليس عندي بشيء ، ولكني أريد عبد الملك بن مروان . قال : ثم أقبل من دجيل[4] في طلب الحجاج إلى البصرة ، وبلغ ذلك الحجاج فقطع جسر الأبلة وضم الأسواق ثم نادى في عسكره وقال : يا أهل الشام ! انظروا لا تتركوا بالمُكلأ[5] شيئاً من العلف والطعام إلا أخذتموه ونقلتموه إلى العسكر ، فإنما الناس أحد رجلين : فمن لحق ما أغطيناه من طعامه وعلفه ، ومن لحق بعدونا فدمه حلال لنا .

قال : وأقبل ابن الأشعث ونزل بالبصرة ثم قال : عليّ بعباد بن الحصين الحبطي[6] ! فإنه شيخ بني تميم ، وإني أحب أن آخذ برأيه ، قال : فأُتي بعباد بن الحصين يحمل في محفة له حتى قعد بين يديه ، فلما رآه رحب به وقرّبه ثم قال : يا أبا جهضم ! أشر عليّ برأيك ، فقال له عباد بن الحصين : أيها الأمير ! إنك قد أسأت الرأي حين سرت من سجستان إلى العراق ولم تبدأ بخراسان فتأخذها فتكون قد

---

(١) الأصل : « عباس » وقد مرّ قريباً .

(٢) بابلا : قرية كبيرة بظاهر حلب بينهما نحو ميل .

(٣) عن معجم البلدان وبالأصل « حارد » .

(٤) عن الطبري وبالأصل « دستر » .

(٥) في الطبري : « بالكلاّء » وهو سوق البصرة .

(٦) بالأصل : « الحنظلي » وما أثبت عن جمهرة ابن حزم ص ١٩٧ .

جمعت أمر الثغر جميعاً ، وأسأت أيضاً حين هزمت أصحاب الحجاج بدجيل[1] ولم تنزل الأهواز فتبعث إلى البلاد فتأخذها وتترك الحجاج ههنا يموت جزعاً ، والآن فإن الرأي عندي أن تترك المربد[2] وتضرب فيه عسكرك وتخندق على نفسك خندقاً ، فإن الحجاج قد نزل الزاوية[3] ، فإن جاءتك خيل من قبله أخرجت إليها خيلاً مثلها ، قال : فقال له عبد الحميد بن المنذر بن الجارود : ويحك يا أبا جهضم ! أتخندق خندقاً على المربد وفيه دور بني أمية ودور الأزد ودور عبد القيس ! لا والله ما هذا برأي ! قال : فغضب عباد بن الحصين ثم قال : ويحك يا عبد الحميد ! إن الأمر عندنا أعظم من أن ينظر في الدور ، إن غلبنا الحجاج فما أقدرنا على الدور ! فقال عبد الحميد : لا ولكني أرى من الرأي أن تنزل الخريبة[4] فتعسكر بها ثم تقاتل عن البصرة كلها ، قال : فوقع هذا الرأي بقلب ابن الأشعث فأخذ به . ثم نزل الخريبة فعسكر بها ، ثم خندق على نفسه خندقاً ، وصار إليه أشراف الناس من قريش وسائر العرب ، وعزم الحجاج على حربه .

وهذه الوقعة الثانية بالبصرة بين ابن الأشعث وبين الحجاج بن يوسف

قال : ودنا[5] القوم بعضهم من بعض ، والحجاج يومئذ في ثلاثة وعشرين ألفاً من أهل الشام ومن تبعه من أهل العراق ، وابن الأشعث في زهاء عن ستين ألفاً . قال : وجعل الحجاج يقول لأصحابه : أيها الناس ! إن حدث بي حدث فأميركم من بعدي حكم بن أيوب[6] بن الحكم ، فإن أصيب فسفيان بن الأبرد الكلبي ، فإن أصيب فيزيد بن هبيرة المحاربي . قال : فزحف الناس بعضهم إلى بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل من أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث خمسمائة نفر من أشد أصحابه ، منهم : عطية بن عمرو العنبري ، والحريش بن هلال السعدي ،

---

(١) الأصل : بدستر .
(٢) المربد : إحدى محال البصرة .
(٣) الزاوية : موضع قرب البصرة .
(٤) الخريبة : بلفظ التصغير ، موضع بالبصرة .
(٥) الأصل : ودنوا .
(٦) الأصل : عبد الرحمن ، وقد مرّ قريباً .

وعبد الحميد بن المنذر بن الجارود العبدي[1] ، وزياد بن مقاتل الجهدري وعبد الله بن رزام[2] الحارثي ، هؤلاء الخمسة من فرسان أصحاب ابن الأشعث ؛ وقتل من أصحاب الحجاج أيضاً جماعة ، فانتصف بعضهم من بعض ، وجاء الليل فحجز بين الفريقين . فدعا ابن الأشعث بعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم فاستخلفه على أصحابه وأمره بحرب الحجاج وأصحابه ، ثم خرج ابن الأشعث من عسكره في جوف الليل في ألف فارس من أبطال عسكره فسار في الأجمة على الظهر حتى دخل الكوفة فأخذها ، وأصبح الناس وقد فقدوا ابن الأشعث فلم يعلموا ما حاله وخبره إلا الذين أعلمهم من خاصته ، قال : وتزاحف القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ، وأقام الحرب بين الحجاج ، وبين عبد الرحمن بن العباس خليفة ابن الأشعث من بين يدي الحجاج وانهزم أصحابه حتى صاروا إلى الكوفة[3] ، وابن الأشعث بها وقد احتوى على بيت مال الحجاج فأخذ جميع ما فيه ، وقد أخذ أيضاً عامل الحجاج الذي كان بالكوفة واسمه مطر بن ناجية[4] ؛ قال : فهمّ ابن الأشعث بقتله ، فقال : أيها الأمير ! فإني من شيعتك ! قال : فاستبقاه ابن الأشعث وأمره ، فصعد المنبر فشتم الحجاج وعبد الملك بن مروان جميعاً ولعنهم ، ثم حرض على قتال أهل الشام ؛ فأنشأ رجل من أصحاب الحجاج يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

أبني تميم ما لمنبر ملككم ... ما يستقر بعوده يتمرمرُ

إلى آخرها .

قال : وبلغ الحجاج أن ابن الأشعث قد أخذ الكوفة واحتوى على بيت المال ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يدر ما يصنع ، غير أنه جمع أصحابه فأعطاهم الأرزاق وأمرهم بالاستعداد ، ثم دعا بالحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل وهو ختن الحجاج على أخته زينب[5] فاستخلفه على البصرة ثم سار يريد الكوفة ، حتى

---

(١) في الطبري ٣٤٣/٦ المنذر بن الجارود .

(٢) عن الطبري ٣٤٣/٦ وبالأصل دارم .

(٣) وذلك بعد قتاله الحجاج خمس ليالٍ أشد قتال رآه الناس ، كذا في الطبري ٣٤٣/٦ .

(٤) في الطبري ٣٤٥/٦ عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر الحضرمي .

(٥) الأصل : أيوب .

إذا تقارب منها عدل وضرب عسكره بموضع يقال لـه دير الجمـاجم[1] على سبعة فراسخ من الكوفة ، فنزل هنالك بأصحابه وأوليائه ـ والله أعلم وأحكم .

ذكر وقائع دير الجماجم

قال : وجعل الحجاج يقول لأصحابه : هذا موضع حسن وليس بيني وبين أمير المؤمنين نهر يمنعني من المسير إليه ، ولي رستاقان هما في يدي بابل[2] والفلوجة . قال : وبلغ ابن الأشعث أن الحجاج قـد نزل بـدير الجمـاجم ، فدعـا بابن عمـه عبد الله بن إسحاق بن الأشعث فاستخلفه على الكوفة ، ثم جمع أصحابه وسار نحو الحجاج حتى نزل قريباً من دير الجماجم ، وكان بين عسكره وعسكر الحجاج بثق ماء مسدود ، إذا بثق لم يقدر أحدهم على قتال صاحبه ، فأرسل الحجاج إلى ذلك البثق ففتحه خوفاً على عسكره أن يكبس في جوف الليل .

قال : وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فضم إليهم أشراف أهل الشـام وأهل الجزيرة ، ووجه بهم إلى الحجاج مدداً له في سبعين ألفاً ، ثم كتب إلى ابن الأشعث بالأمان له ولأصحابه على أنه يرجع عما هو عليه ويوليه أي بلد شاء ، وكتب أيضاً إلى أهل العراق أنه قد بلغني ما أنتم عليه من شتمي وخلعي ، فإن كنتم إنما تريدون عزل الحجاج عنكم عزلته ، وأخرجت أهل الشام من بلادكم ، ووليت عليكم من تحبون ، ولا يرى العراق شاماً أبداً ـ والسلام ـ[3] .

قال : وأقبل عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن مروان في سبعين ألفاً حتى نزلوا بدير الجماجم وضربوا عسكرهم ناحية من عسكر الحجاج ، ثم بعث عبد الله بن عبد الملك بن مروان بالأمان إلى ابن الأشعث الذي كتب له عبد الملك بن مروان ، وبعث أيضاً إلى أهل العراق بكتاب عبد الملك بن مروان إليهم ، فعزم أهل العراق

---

(١) في الطبري : نزل الحجاج بدير قرة ، ونزل ابن الأشعث بدير الجماجم .

(٢) بابل : ناحية منها الكوفة والحلّة .

(٣) في الطبري وابن الأثير أن عبد الملك عرض على أهل العراق :
- نزع الحجاج عن العراق .
- أن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام .
- أن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء ويكون والياً عليه ما دام حياً وما دام عبد الملك والياً .

على أن يقبلوا مـا في الكتاب وأن يخـذلوا ابن الأشعث ، ثم بلغهم بعـد ذلك أن عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان في طاعة الحجـاج وأنهم يصلون خلفه ، فغضبوا لذلك وشتموا عبد الملك والحجاج ، وعزموا على الحرب والمناجزة .

قـال : ودنا[1] القـوم بعضهم من بعض ، فقـال عبـد الله بن عبـد الملك بن مروان : يا أهل العراق ! أخرجوا إلينا أشرافكم حتى نكلمهم وننظر ماذا أنتم عليه عازمون ! قال : فخرج أهل العراق حتى وقفوا قبالة أهل الشام ، ثم انتسبوا بعضهم إلى بعض ، فلما قال عبد الله بن عبد الملك : أمير المؤمنين ، قال أهل العراق : أما عبد الملك فقد عرفناه ، وأما أمير المؤمنين فلا نعرفه ، وقد خلعنا أبا الديان ـ يعنون بـذلك عبـد الملك بن مروان . قـال : فرجـع[2] القوم بعضهم عن بعض ، فقـال الحجاج : يا أهل الشام ! أنّى ! قد آن لكم بأن القوم ما يريدون خلعي ، إنما يريدون خلع أمير المؤمنين وخلعكم .

قال : ثم نادى الحجاج في أصحابه ، ونادى ابن الأشعث في أصحابه ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وقد كان الحجاج في ثلاثة وعشرين ألفاً فجاء المدد في سبعين ألفاً فصار في ثلاثة وتسعين ألفاً ، وابن الأشعث يومئـذ في زهاء عن ستين ألفاً . فاقتتل القوم هنالك قتالاً شديداً لم يسمع بمثله . قـال الهيثم بن عدي قـال عوانة : فمن الناس من يقول إنهم اقتتلوا أربعة أشهر وأقل من ذلك ، وأما عبد الله بن عياش[3] فيذكر عن أصحابه أنهم اقتتلوا مائة يوم ، ليس من يوم إلا وينتصف ابن الأشعث من الحجاج ، ويزيد يومئذ في عسكر ابن الأشعث زهاء عن ثمانية آلاف رجل من القراء والزهاد والعباد ممن يرى قتل الحجاج جهـاداً ، منهم : محمد بن سعد[4] بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الله بن شداد بن الهـاد الليثي ، وعامر بن شراحيل الشعبي ، وزاذان أبو عمر مـولى كندة ، وأبـو البختري الطائي ، ومسلم[5] بن يسار ، وسعيد بن جبير[6] ـ وأشباههم من الناس على ذلك ،

(١) الأصل : ودنوا .
(٢) الأصل : فرجعوا .
(٣) الأصل : عباس ، وقد مرّ .
(٤) بالأصل : سعيد خطأ .
(٥) عن طبقات ابن سعد وبالأصل سليم .
(٦) بالأصل : جبيرة خطأ انظر الإمامة والسياسة .

مائة يوم مثل يوم واحد ما يفترون ولا يكيع بعضهم من بعض ، فلما كان في آخر الأيام اقتتلوا من صلاة المغرب إلى أن أصبحوا ، ثم رجع عن بعضهم بعضٌ وقد قتل من الفريقين سبعة عشر ألف إنسان ، ثم وضعوا السلاح .

وصعد ابن الأشعث إلى منبر له في عسكره ـ قد كان حمله قبل ذلك معه ـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الحرب سجال تهلك فيها أنفس الرجال ، فإن رسول الله ﷺ ما ظفر يوماً قط حتى يُنال منه ومن أصحابه ، فإن كان هذا الأمر في قريش فقد فقأتم[1] بيضة قريش، وإن يكن في غيركم من العرب فأنا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس[2] بن معدي كرب ، أيها الناس ! إنكم لتعيرون آل مروان بأمهم الزرقاء ، ولا والله ما كان لهم نسب قط أشرف من الزرقاء ! وإنكم تعلمون أن مروان هو الطريد ابن طريد رسول الله ﷺ .

قال : وإنه على منبره يقول ما يقول إذ نادى منادي الحجاج بالقتال ، فزحف القوم بعضهم إلى بعض ، فجعلوا يقتتلون ويتناجزون وابن الأشعث واقف على المنبر ، وإن السهام لتأتيه من بين يديه حتى تجوزه فما يستتر منها بشيء ولا يتقيها ، لكنه ينظر إلى أصحابه كيف يقتلون . فلم يزل كذلك حتى وقعت الهزيمة على أصحابه من خيل خرجت لهم في الكمين ، فمروا منهزمين لا يقف أحد على أحد حتى دخلوا الكوفة ، فلما نظر ابن الأشعث إلى ذلك نزل عن المنبر فاستوى على فرسه ، ثم وقف على حامية الناس في قريب من ألف رجل ، فجعل مرة يحمل عليهم فيكشفهم ، ومرة يدنو من الكوفة ، فنظر إلى أبياتها فكبر ودخلها فجعل يحمل نساءه وحريمه وأولاده وأمواله حتى صار إلى السوس فنزلها ومعه زهاء عن عشرة آلاف من أصحابه ، وسائرهم قد تفرقوا في البلاد .

قال : والحجاج في موضعه ذلك بدير الجماجم لا يبرح حتى علم أن ابن الأشعث قد خرج ، فأقبل حتى دخل الكوفة وتلاحقت به الناس من دير الجماجم ، ثم دخل الحجاج إلى قصر الإمارة ودعا الناس إلى البيعة ، فبايعوه من كل ناحية . قال : وتقدمت إليه قبائل النخع لتبايعه وتطابقه وتشايعه ـ والله أعلم وأحكم ـ .

---

(١) في الطبري ٣٤٩/٦ فعنيّ فقئت .

(٢) عن الطبري وبالأصل : يزيد .

ذكر مقتل كميل بن زياد رضي [الله] عنه
صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال فقال الحجاج : يا معشر النخع ! أخبروني عن كميل بن زياد من أي قبيلة هو منكم ؟ فقالوا : من بني الصُهبان ، فقال الحجاج : لا والله ! لا خرجتم من الدار أو تأتوني به وإلاّ ضربت أعناقكم . قال: فقال الهيثم بن الأسود وكان ممن يتمسك بطاعة بني مروان : أصلح الله الأمير ! مهلاً عن كميل بن زياد ، فإن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ومعاوية بن يزيد ومروان بن الحكم وأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كل هؤلاء قد عرفوا قدر كميل بن زياد ، وقد عرفوا رأيه ومذهبه فعفوا عنه ، فاعف عنه أيها الأمير ! قال : فغضب الحجاج ثم قال : أما والله يابن الأسود لتحسن أو لتكربني ! فقال الهيثم بن الأسود : قد والله حميته عنك يا حجاج ! قال : ثم خرج من عنده وأتى بكميل بن زياد رحمه الله ـ والحجاج في وقته ذلك مشغول برجل قدم إليه يقال له عتيبة بن النهاس[1] العجلي ، فقال له الحجاج : أنت عتيبة بن النهاس ؟ فقال : نعم أصلح الله الأمير أنا عتيبة بن النهاس ، فقال له الحجاج : بايعت عدونا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؟ قال : نعم أيها الأمير بايعته خوفاً على نفسي وأهلي وولدي ولم أقاتل معه أحداً ، فليسعني عفوك واصطنعني ـ فقال الحجاج : يا عبد النخع أمقعد في الجماعة وصحيح في الفتنة ! فعلت بعثمان بن عفان ما فعلت ثم عفا عنك يزيد وابنه معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم وأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، ثم قدمت العراق فعفوت عنك وبررتك ورفعت قدرك ، فلما نظرت إلى مطر بن ناجية ـ وهو أعرابي من أعراب بني تميم ـ يشتمني على المنبر ويشتم عبد الملك بن مروان نهضت معه في ذلك وصوّبت رأيه ! قال : ثم التفت الحجاج إلى يزيد بن هبيرة المحاربي فقال له : يا يزيد ! خذه إليك فاضرب عنقه صبراً ، قال : فقدم كميل بن زياد رحمه الله فضربت عنقه صبراً[2] .

قال : وجعل الحجاج يؤتى برجل بعد رجل فمنهم من يراقب فيه عشيرته فيعفو

---

(١) عن الإصابة ، وبالأصل : « عتبة بن النهاش » وقد صححت أينما وردت في الخبر .

(٢) في البداية والنهاية ٥٧/٩ أرسل إليه ابن أدهم من أهل حمص ، ويقال أبا الجهم بن كنانة فضرب عنقه .

عنه ، ومنهم من يأمر بضرب عنقه . قال : وبلغ ذلك ابن الأشعث وهو يومئذ مقيم بالسوس فجعل يقول[1] :

فما كنا أناساً أهل دين ... فنصبر للبلاء[2] إذا ابتلينا
وما كنا أناساً أهل دنيا ... فنتصرنا وإن لم نرج دينا[3]

قال : فقال بكير بن هارون البجلي : أيها الأمير ! إنما الدنيا بالرأس ، فإن لم تثبت الرأس فأحرى أن لا يثبت الذنب ، ولو وقفت لوقفنا معك وكنا نموت كراماً ولا نترك أرضاً لبقية آل ثمود ؛ قال : ثم أنشأ بكير بن هارون في ذلك يقول :

نفينا عتاة الشام عن عقر أرضنا ... فلا خسرنا مضر ولا البيع رابحُ
تركنا لهم صحر العراق وناقلت ... بنا الأعوجيات الطوال السوائحُ
فقل للغواني أن تبكّين غيرنا ... ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح
لعمري لأهل الشام أطعن بالقنا ... وأحمى لما يخشى عليه الصفائح

قال : ثم دعا الحجاج بعمرو بن هانىء العنبسي فاستخلفه على الكوفة وخرج في طلب ابن الأشعث في زهاءٍ عن ثلاثين ألفاً ، وترك باقي جيشه بالكوفة . ثم سار يريد المدائن وقد كان بالمدائن يومئذ محمد بن [سعد بن] أبي وقاص في قريب من عشرة آلاف من أصحاب ابن الأشعث ، فلما أحس بالحجاج أنه قد وافاه ترك البلاد وخرج بمن معه هارباً حتى لحق بابن الأشعث وهو يومئذ بالسوس ، قال : فونبه ابن الأشعث وقال : أنت في عشرة آلاف فارس من نخبة أهل العراق وتهرب من بين يدي الحجاج ، هلا وقفت له وقفة ! فإن كانت لك فذاك ، وإن لم تكن لك لم يضعف أمرك ! قال : فسكت محمد بن سعد بن أبي وقاص ولم يقل شيئاً . قال : وجعل أعشى يضعف رأي أهل الكوفة ويخيّبهم ويذكر صبر أصحاب الحجاج ، فأنشأ في

---

(١) الأبيات لأبي جلدة اليشكري من قصيدة طويلة الأغاني ٣١٠/١١ الطبري ٣٦٨/٦ ابن الأثير ٤٨٤/٤ البداية والنهاية ٥٩/٩ .

(٢) في الطبري : في البلاء .

(٣) عجزه في الأغاني : فنمنعها ولو لم نرج دينا .

ذلك أبياتاً مطلعها[1] :

أبى الله إلا أن يتمم نوره ويخمد نار الفاسقين فتخمدا[2]

إلى آخرها .

قال : وبلغ هذا الشعر الحجاج بن يوسف فتبسم له ثم قال : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » ، والله لئن ظفرت به لأضربن عنقه . قال : وبلغ هذا الشعر ابن الأشعث فقال : مدق والله أعشى همدان ! لقد ونينا وعجزنا ، يا غلام ! احمل إليه مائة دينار .

ثم جمع ابن الأشعث عساكره وسار بهم يريد البصرة ، وبلغ ذلك الحجاج والحجاج يومئذ مقيم بالمدائن ؛ فسار نحو ابن الأشعث أيضاً يريد البصرة ، فأخذ على شاطىء الدجلة حتى انتهى إلى موضع يقال له المفتح[3] ، وبلغ ذلك ابن الأشعث فصار إليه حتى وافاه بالمفتح .

ذكر وقعة القوم بالمفتح

قال : ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً . قال الهيثم : فذكر عوانة أنهم اقتتلوا بالمفتح عشرين[4] يوماً ، كل ذلك على الحجاج حتى قتل من أصحابه مقتلة عظيمة وهمّ أن ينهزم ، فلما رأى ذلك بعث إلى الكوفة فجاءته الجيوش في أربعين ألفاً ، فلما رأى أصحاب ابن الأشعث ذلك كأنهم جزعوا من تلك العساكر ثم اقتتلوا ، فصارت الدائرة على أصحاب ابن الأشعث ، فقتل منهم في يوم واحد في معركة واحدة نيف على ثلاثة آلاف ، وأسر منهم خلق كثير . فقال الحجاج : هذا فتح الفتوح .

---

(١) من قصيدة طويلة في الطبري ٦/٣٧٦ الأغاني ٦/٥٩ مروج الذهب ٣/١٦٢ .

(٢) عجزه في الطبري :

ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا

(٣) المفتح : قرية بين البصرة وواسط وهي من أعمال البصرة .
وما ورد في الطبري أن الحجاج خرج بالناس إلى مسكن على دُجيل .

(٤) الطبري : خمس عشرة ليلة .

قال : ثم اجتمعت القراء الذين في عسكر ابن الأشعث إلى الحسن بن يسار[1] البصري ، والحسن يومئذ مقيم بالمفتح فقالوا له : يا [أبا] سعيد : هات ما عندك وتكلم بما ترى ! فقال الحسن : إني أرى أنها فتنة صماء ، وذلك أنكم لم تختلفوا في ربّ ولا نبي ولا كتاب ولا قبلة ، فرحم الله عبداً اتقى ربه ونظر ليوم معاده ! قال : فقال له الناس : أبا سعيد ! فما أغنى عنا كلامك . فكف عنا يرحمك الله ! أيقتل منا مثل أبي البختري الطائي وعبد الله بن شداد بن الهاد وعبد الرحمن بن أبي ليلى وتقول هذه المقالة ! إليك عني فما أنت إلّا رجل مرائي مداهن .

ذكر الأسارى ومن قتل منهم صبراً يوم المفتح

قال : ثم أمر الحجاج أن تقدم إليه الأسارى ! فأول من قدم إليه منهم الفضل بن مروان مولى بني البكّاء وكان شريفاً في الموالي ، فقال له الحجاج : أفضل ؟ قال : نعم ، قال الحجاج : خبرني عنك ، ألم أستعملك ؟ قال الفضل : بلى استعبدتني ، قال الحجاج : ألم أكرمك ؟ قال الفضل : بل أهنتني ! قال الحجاج : والله لأقتلنك ! قال الفضل : والله لأخاصمنك في دمي إلى ربي ، قال الحجاج : إذاً أخصمك ، قال الفضل : الحكم إلى غيرك ! فقال الحجاج : اضربوا عنقه .

قال : ثم أُتي بالطفيل بن حكيم الطائي فقال له الحجاج : أطفيل ؟ قال : نعم يا حجاج ! طفيل ، قال : ألم تقدم العراق أعرابياً لا يفرض لمثلك ففرضت لك ؟ قال طفيل : بلى ، قال الحجاج : فما أخرجك عليَّ ؟ فقال : أبا محمد ! إن رأيت أن تأذن لي حتى ألحق بأهلي ! فقال الحجاج : وأنت مشتاق إليهم ؟ فقال : نعم يا حجاج ! فقال : ذهب والله عقل الرجل ! سواء عليَّ قتلت هذا أو قتلت مجنوناً ، خلوا عنه ، قال : فكان ابن عياش[2] يقول : والله لقد كان طفيل بن حكيم من أعقل الناس وأدهاهم ، ولكنه أوهم الحجاج أنه قد ذهب عقله ، فأفلت من يده .

قال : ثم قدم إليه أعشى همدان ، فلما نظر إليه الحجاج قال : يا عدو نفسه ! ألم أقدم العراق فأكرمتك ، وقبلت شعرك ، وجعلتك إمام قومك ، وقدمتك عليهم في

---

(١) الأصل : الحسن .

(٢) الأصل : عباس .

الإذن ؟ قال : بلى ؛ قال الحجاج : فما أخرجك عليَّ ؟ ولست القائل في عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث :

فإذا سئلت المجد أين محله … فالمجد بين محمد وسعيدِ
بين الأشج وبين قيس باذخ … بخ بخ لوالده وللمولودِ

قال : أصلح الله الأمير أنا القائل :

أهان إلٰهي ما أهان فأبعدا … أخبثاً ولؤماً وارتداداً وذلة[1]

فقال : إنك لشديد التحريض على أهل العراق ، ألست القائل :

يوماً إلى الليل أسلّى ما كان … أمكن ربي من ثقيف همدان

يا عدو نفسه ! لقد أمكن الله ثقيفاً منك ولم يمكنك من ثقيف ، والله[2] ما مدحت بعدها أبداً ، ثم أمر به فضربت عنقه .

قال : وقدم إليه عامر بن المعتمر التميمي ، فلما رآه الحجاج قال : هذا شيخ لم يقر على نفسه بالنفاق ! فقال : بلى والله يا حجاج وأقول : ما فارقك إلا كافر . فقال الحجاج : خلوا عنه .

قال : ثم قدم إليه أيضاً رجل من بني تميم يقال له عمرو بن مالك فقال : يا حجاج ! كافني ببلاء عندك ولا تقتلني ، فقال له الحجاج ! ما بلاؤك عندي ؟ فقال : قام فينا ابن الأشعث بسجستان فما ترك سوءاً إلا قاله فيك ، ثم إنه ذكر أبويك ، فقمت إليه فقلت : أيها الرجل ! أما الحجاج فأنت أعلم ، وأما أبواه فكف عنهما فما والله فيهما من وصم ولا قادح . فقال الحجاج : ومن يعلم هذا منك ؟ فالتفت التميمي إلى فتى من الأسارى من بجيلة . فقال : هذا يشهد بذلك وقد كان معي حاضراً في ذلك اليوم ، قال فقال الحجاج للبجلي : هكذا كان أيها الرجل ؟ قال : نعم أيها الأمير ! لقد سمعت ذلك ؛ قال الحجاج : خلوا عنهما جميعاً . قال : فقال

---

(١) البيت في الطبري ٣٧٧/٦ .

أهان الإلٰه من أهان وأبعدا … أنكثاً وعصياناً وغدراً وذلة

(٢) في الطبري ، وبعد إنشاده بخ بخ . . . قال الحجاج : لا والله لا تبخبخ بعدها لأحد أبداً ، فقدمه فضرب عنقه .

للشاهد بعد ذلك : هل كان من هذا شيء ؟ قال : لا والله ! ولكني رأيت موضعاً رجوت فيه الفرج .

قال : ثم قدم إليه قيس بن مسعود بن عطارد التميمي ومعه ابنه وابن أخيه ، فلما رآه الحجاج قال : أمسعود ؟ قال : نعم أيها الأمير ! قال : ما ظننتك إلا عند صهرك أبي حفص عمر بن محمد بن الحكم بأرض البلقاء ، ثم قال الحجاج : اعزلوهم ناحية . فقال يزيد بن أبي كبشة السكسكي - كان جالساً عن يمين الحجاج - فقال : سبحان الله ! ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾[1]؟ [فقال] الحجاج] : أظننت أني إنما عزلتهم لمصاهرتهم إيانا ، ردوهم ، فضربت أعناقهم .

قال : ثم قدم إليه عمران بن عصام العنبري فقال له الحجاج : أعمران ؟ قال : نعم أيها الأمير ! قال : ألم أقدم العراق وأنت صعلوك فشرفتك ، وزوجتك سيدة نساء قومها ماوية بنت مقاتل بن مسمع ولست لها بكفوء ؟ قال : قد كان ذلك ، قال : فما أخرجك عليّ ؟ قال : الشقاء ، قال : صدقت ، ثم قدم فضربت عنقه .

فكان آخر من قدم إليه في ذلك اليوم رجل زعمت كندة أنه منهم ، فلما وقف بين يدي الحجاج رفع صوته فقال : ما لك يا حجاج لا جزاك الله عن الإسلام والقرآن وآية خيراً ، قال الحجاج : ولم ذلك ؟ ويلك ! قال : لأنك لم تأخذ فينا بقول الله تعالى إذ يقول : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾[2] فنحن الذين كفروا بزعمك ، فلا والله ما مننت ولا فديت ! قال فقال الحجاج : ما له لعنه الله فلقد خصمني ! قال : ثم التفت الحجاج إلى جلسائه فقال : ويحكم ! أما كان فيكم أحد يتلو هذه الآية حتى تلاها هذا المنافق ؟ خلوا سبيله وسبيل من بقي من الأسارى بقول ذلك الرجل .

قال : ومر ابن الأشعث منهزماً حتى صار إلى السوس ثانية فنزلها في جميع أصحابه الذين بقوا معه . وأقبل الحجاج منصرفاً على شاطىء الدجلة حتى صار إلى موضع مدينة واسط ، فنزل هنالك ثم قال : هذا منزل وسط بين البصرة والكوفة والأهواز والمدائن ، ثم أمر فبني له بها قصراً ومسجداً فسمي واسطاً إلى يومنا

---

(١) سورة القمر ، الآية ٤٣ .

(٢) سورة محمد الآية ٤ .

هذا[1] .

قال : ثم دعا الحجاج برجل من وجوه أصحابه يقال له عمارة[2] بن تميم اللخمي فضم إليه جيشاً كثيفاً من أهل الشام والجزيرة والعراق ووجه به في طلب ابن الأشعث ، فخرج ابن الأشعث للقاء عمارة ، فالتقى القوم على شاطىء نهر السوس فاقتتلوا ، وانهزم ابن الأشعث من بين يدي عمارة بن تميم هزيمة قبيحة ، وتبعه عمارة فلم يزل يهزمه حتى بلغ إلى سابور فارس ، والتقى القوم أيضاً بسابور فاقتتلوا ، وانهزم ابن الأشعث نحو بلاد كرمان وتفرق عنه أصحابه ، ولم يتبعه عمارة بن تميم ، وكتب إلى الحجاج يخبره بهزيمته من بين يديه ، فأمر الحجاج بالرجوع عنه .

ذكر هرب ابن الأشعث إلى بلاد كرمان

قال : وجعل ابن الأشعث يسير إلى بلاد كرمان وبين يديه رجل يمشي وقد تخرقت ثيابه وخفاه ، فنظر إليه ابن الأشعث على تلك الحالة فجعل يقول :

منخرق الخفين يشكو الوجا ... سكنه[3] أطراف مروٍ حدادِ
شرذمة الخوف بلا مرة[4] ... كذاك من يكره حرّ الجلاد
قد كان في الموت له راحة ... والموت رهن في رقاب العباد

قال : فالتفت إليه رجل فقال[5] : هلا ثبت حتى نموت معك .

قال : ومضى ابن الأشعث حتى انتهى إلى مدينة بست وبها يومئذ عامل يقال له عياض بن هميان[6] السدوسي فسكت عن ابن الأشعث حتى دخل المدينة ، ثم وثب عليه فأخذه وشده في الحديد ، وعزم أن يوجه به إلى الحجاج . قال : فقامت إلى عياض هذا أم ولد يقال لها سهلة ، فكلمته فيه فقالت : ويحك ! تقتل مثل ابن

(١) انظر خبر بناء مدينة واسط في معجم البلدان والطبري ٣٨٣/٦ ـ ٣٨٤ .
(٢) عن الطبري ٣٦٧/٦ وبالأصل عمار .
(٣) في الطبري ٣٩٢/٦ تنكبه .
(٤) صدره في الطبري :

يطرده الخوف فهو تائه

(٥) في الطبري : هلّا ثبتّ في موطن من المواطن فنموت بين يديك فكان خيراً لك مما صرت إليه .
(٦) عن الطبري ٣٦٩/٦ وبالأصل عمرو .

الأشعث وقد ولاك هذا البلد ! اذكر بلاءه عندك مع أني لست آمنة عليك . قال : وإذا الجيوش[1] قد أقبلت حتى دخلت مدينة بُست ، فلما بلغهم أن ابن الأشعث في الحديد هجموا على عياض بن هميان فقالوا له : يا عدو نفسه ! تعمد إلى من قد أنعم عليك وجعلك عاملاً على هذا البلد فتكبله في الحديد ؟ فقال عياض : إني إنما فعلت بالأمير ما فعلت وأوثقته عندي مخافة أن يدخل أرض الترك ويتركنا هٰهنا بلا أمير . فقال ابن الأشعث لأصحابه : خذوه إليكم وأطلقوني من هذا الحديد . قال : فأطلقوه ، فعمد إلى عياض بن هميان هذا فضرب عنقه ، وصلبه[2] ، وأخذ أمواله وخرب منزله .

قال : واجتمع الناس أيضاً إلى ابن الأشعث من جميع البلاد وجاءته الفلول الذين فارقوه ، فصار في سبعين ألفاً أو يزيدون ، فعندها أعجبته نفسه وأشار عليه أصحابه ، بمحاربة يزيد بن المهلب ، فأبى عليهم وقال : مهلاً عن يزيد ! فإنه رجل لم يتحرك عليّ فيمن تحرك وأنا أنهاكم عنه ، قال : فأبوا عليه وضعفوا رأيه ، وقالوا : لا بد لنا من محاربته ، فقال لهم ابن الأشعث : أما إذا أبيتم عليّ فإني أجيبكم إلى ما تريدون من ذلك .

ذكر الوقعة مع يزيد بن المهلب

قال : فعقد ابن الأشعث بعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي عقداً وضم إليه أصحابه[3] وأمره بمحاربة يزيد بن المهلب ، قال : وخرج القوم نحو يزيد بن المهلب في زهاء ستين ألفاً ، ويزيد يومئذ بمدينة هراة[4] من خراسان ، فلما بلغه مسير القوم إلى ما قبله جمع أصحابه وسار إليهم من هراة في جمع عظيم حتى وافاهم بموضع يقال له المنعرج ودنا القوم بعضهم من بعض ، فقال يزيد بن

---

(١) كذا ؛ وفي الطبري ٣٦٩/٦ فجاء رتبيل حتى أحاط ببست ثم نزل وبعث إلى البكري «والله لئن آذيته بما يقذي عينه أو ضررته ببعض المضرة أو رزأته حبلاً من شعر لا أبرح العرصة حتى استنزلك فأقتلك وجميع من معك . . . » .

(٢) يفهم من الطبري ٣٦٩/٦ أن رتبيل أفن عياض ولم يقبل أن يقتله عبد الرحمن .

(٣) في رواية عن الطبري ٣٧١/٦ أن عبد الرحمن خطب أصحابه ، بعد أن تفرق عنه بعض قادته ، وأبلغهم أنه سيرجع إلى صاحبه رتبيل ، بعد تخوفه من مقاتلة يزيد بن المهلب . وانصرف إليه ، فبايع أصحابه عبد الرحمن بن العباس .

(٤) هراة : مدينة مشهورة من أمهات مدن خراسان .

المهلب : ويلكم يا أهل العراق ! أفسدتم علينا العراق ثم أتيتمونا ونحن في نحر العدو ليتفرقوا جماعتنا ، تباً لكم من قوم ما أضل حلومكم ! فناداه أصحاب ابن الأشعث وقالوا : أدر عنك يا مروزي ! فإنا ندعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ، ثم قال يزيد : ويلكم من هذا الذي يرغب عن كتاب الله عزَّ وجلّ وسنة نبيه محمد ﷺ ! ثم قال : يا هؤلاء مهلاً ! فإني قد أجلتكم ثلاثاً لتنظروا في أمركم ، فقالوا : لا ولا ساعة من نهار ؛ ثم عطعطوا وضجوا ، فقال يزيد : اللهم ! إني استنصرك عليهم ، ثم حمل والتقى الجمعان فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل من أصحاب ابن الأشعث بشر كثير ، وأسر منهم جماعة .

وفيمن أسر منهم : محمد بن سعد بن أبي وقاص ، وعياش[1] بن الأسود بن عوف الزهري ، و[عمر بن][2] موسى بن عبيد الله[3] بن معمر التميمي ، وعتبة بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة ، وجماعة من قبائل مضر واليمن ؛ فأما اليمانية فأطلقهم يزيد بن المهلب ، وأما المضرية فشدهم في الحديد ووجههم إلى الحجاج[4] .

قال : فقدم بالأسارى على الحجاج ، والحجاج يومئذ بواسط العراق ، فأول من قدم إليه محمد بن سعد بن أبي وقاص وقد كان يلقب بظل الشيطان من طوله ، فلما رآه الحجاج قال : يا ظل الشيطان ! كيف رأيت صنيع الله بك ؟ ثم التفت الحجاج إلى جلسائه فقال : إن هذا رغب عن يزيد بن معاوية وزعم أنه أحق بالأمر منه ، يتشبه بالحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ثم ما زال يركض في الفتن إلى أن تبع حوالي كندة وصار مؤدباً[5] للظالمين . قال فقال محمد بن سعد : أيها الأمير ! إنك قد ظفرت ، فإن تعف فقد أمر الله عزَّ وجلّ بالعفو ، وإن تقتل فقد قدرت ؛ فقال الحجاج : أبعدوه من بين يدي وهاتوا غيره ، قال : فأتي بعتبة بن عبيد الله[6] بن عبد الرحمن بن سمرة ، فقال له

(١) عن الطبري ٣٧٣/٦ .
(٢) زيادة عن الطبري .
(٣) عن الطبري وبالأصل عبد الله .
(٤) أرسلهم إلى الحجاج مع سبرة بن نخف بن أبي صفرة .
(٥) الطبري ٣٧٩/٦ مؤذناً لابن كنازا عبد بني نصر ، يعني عمر بن أبي الصلت .
(٦) الأصل : عبد الله .

الحجاج : يابن الفاسق الدجال ! كيف رأيت صنيع الله فيك وفي أبيك من قبل ؟ قال : فسكت ولم يقل شيئاً ، فقال : أبعدوه عني ، فأبعدوه . وأتي بعياش[1] بن الأسود بن عوف الزهري ، فلما رآه الحجاج قال : هذا والله المجهول في الجماعة المعروف في الفتنة ، والله لقد وليت العراق سبع سنين فما علمت أن لهذا والداً يعرف . قال : ولم يزل الحجاج يوبخ رجلاً بعد رجل ويقول فيه القبيح ، ثم أمر الحجاج فضربت أعناقهم إلا نفراً منهم ، سأله فيهم قوم فوهبهم لهم .

قال : ثم دعا الحجاج عمارة بن تميم اللخمي فضم إليه جيشاً وأمره بالمسير إلى ابن الأشعث وأن يطلبه حيث كان ، قال فسار إليه عمارة ، وكتب ابن الأشعث إلى رتبيل ملك الداور : أما بعد فإن عساكر الحجاج قد سارت إلى ما قبلي ، وإني قد عزمت على مصالحتك على أني قد ملكتك البلاد ولا جزية عليك ـ والسلام ـ .

قال : فأجابه رتبيل[2] إلى ذلك وكتب إليه : إن أردت هذا ففرق من كان معك في البلاد من أصحابك وهلم إلي ، فكن عندي إلى أن تنظر ما يكون من أمر الحجاج . قال : ففرق ابن الأشعث أصحابه في بلاد الداور ثم أقبل فيمن بقي معه حتى صار إلى رتبيل ، فأكرمه رتبيل وقربه وأحسن إليه .

قال : وإذا كتاب الحجاج قد ورد على رتبيل : أما بعد فإن ابن الأشعث قد صار إلى ما قبلك ، وقد وجهت إليك بعمارة بن تميم اللخمي في ثلاثين ألفاً من أهل الشام لم يخلعوا طاعة ولم يبايعوا إمام الضلالة ، يستعظمون الحرب استعظاماً ، ويقدمون عليها إقداماً ، فإذا قدموا بلدك فسلم إليهم ابن الأشعث وأنت آمن في بلدك أبداً ما بقيت ، لا يؤخذ منك الجزية ، ولا يغزوك أحد من العرب ، وتعطى في كل سنة خمسمائة ألف درهم .

قال : فلما ورد كتاب الحجاج على رتبيل وثب على ابن الأشعث في ستة وعشرين رجلاً من أهل بيته ، فشدهم في الحديد . قال : وبلغ ذلك أصحاب ابن الأشعث المتفرقين في البلاد فهربوا ، فمنهم من قتل ، ومنهم من أفلت . ثم وجه رتبيل[3] بابن الأشعث وبأهله مليكة بنت يزيد العامري ومن معه إلى عمارة بن تميم

---

(١) بالأصل : عباس .

(٢) الأصل : « زنبيل » وقد مرّ .

(٣) في مقتل ابن الأشعث عدة روايات ذكرها الطبري ٣٩٠/٦ ـ ٣٩٤ وابن الأثير ٥٠١/٤ والإمامة =

اللخمي . قال : وابن الأشعث يومئذ عليل وهو مع ذلك مثقل بالحديد فلم يصل إلى عمارة بن تميم حتى مات في بعض الطريق ، فاحتز القوم رأسه وحملوه إلى عمارة ، وأقبلوا بولده وأخيه ومن معه إلى عمارة .

قال : وكتب الحجاج إلى عمارة أن اضرب أعناقهم هنالك وابعث إليّ برؤوسهم . قال : فقدمهم ابن تميم فضرب أعناقهم بأجمعهم هنالك ، وبعث برؤوسهم إلى الحجاج ، فوضعت بين يديه وأدخلت إليه مليكة بنت يزيد امرأة ابن الأشعث ، فلما نظر إليها الحجاج قال : يا مليكة ! أملكنا أمثل أم ملك الترك ؟ فقالت : أبا محمد ! إن لم تكن فحاشاً فاحذر الجواب ! قال الحجاج : قد فعلت ولم أرد بهذا شيئاً مما تظنين ، وليس لك ذنب تعاقبين عليه يا مليكة ! ثم جهزها الحجاج بجهاز حسن وألحقها بأهلها. ثم وجه برأس ابن الأشعث ورأس أخيه القاسم ورؤوس أصحابه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما وضعت بين يديه خرّ ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله على حسن البلاء وتظاهر النعماء ! ثم أمر برؤوسهم فطيف بها في أجناد أهل الشام وأهل مصر ، ثم بعث بها بعد ذلك إلى بئر برهرت ـ برهوت حضرموت فألقيت هنالك ـ انقضى أمر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

ذكر مقتل سعيد بن جبير رحمه الله[1]

ثم دعا الحجاج برجلين من عتاة أصحابه : أحدهما إسماعيل بن الأوسط ، والآخر المتلمس بن الأحوص ، وهما جميعاً من ثقيف ، فضم إليهما نفراً من ثقات أصحابه ، ثم قال : اطلبا لي الآن سعيد بن جبير ، فأتياني به من حيث ما كان ، فإنه لم يكن فيمن خرج عليّ مع ابن الأشعث أشد منه ! فخرج القوم في طلبه فجعلوا يسألون عنه وعن موضعه ، فلا يرشدهم إليه أحد . قال : فبينما هم كذلك إذ مروا براهب في صومعة فوقفوا عليه فسألوه عنه ، فقال الراهب : أما سعيد بن جبير فإني لا أعرفه ، ولكني رأيت رجلاً مر بي من عشية أمس عليه جبة من صوف وكساء ، فتوضأ

= والسياسة ٢ / ٥٥ . وعلى كل حال لم يصل ابن الأشعث إلى الحجاج حياً ، وإنما أرسل إليه رأسه بعدما قتل (في رواية أنه سقط من علالي القصر) . وفي رواية أن رتبيل قتله وفي رواية ثالثة أنه مرض بالسل ومات فحز رتبيل رأسه قبل أن يدفن) وقد ذكرت وفاته في الطبري وابن الأثير سنة ٨٥ بينما ورد في البداية والنهاية أن مقتله كان سنة ٨٣ (٩ / ٦٥ ـ ٦٦) .

(١) انظر ما روي في الطبري ٨ / ٩٥ ابن الأثير ٤ / ٥٨٠ حلية الأولياء ٤ / ٢٩١ وفيات الأعيان ٢ / ٣٧٢ تاريخ أصبهان ١ / ٣٢٤ الإمامة والسياسة ٢ / ٦٠ .

بهذه البئر ثم صلى ركعتين ومضى في هذه البرية ، فلا أدري إلى أين صار ، قال : فسار القوم عند ذلك وجعلوا يقتصون الأثر حتى وقفوا عليه ، فوجدوه ساجداً ، قال : فلم يشعر سعيد بن جبير إلا والقوم على رأسه فسلموا عليه ، فأوجز في صلاته ثم رد عليهم السلام . ثم قال : ما وراءكم عافاكم ؟ فقالوا : نحن رسل الأمير الحجاج بن يوسف فأجب ! فقال سعيد بن جبير : ولا بد لكم من ذلك ؟ قالوا : نعم . فوثب سعيد ومشى معهم حتى انتهى إلى باب الدير وذلك في وقت المساء ، فقال لهم الراهب : أصبتم صاحبكم ؟ قالوا : نعم قد أصبناه ، قال : فادخلوا إذاً الدير ، فهذا موضع مسبع فلم يخل من السباع ، وهذا وقت المساء ! فبادروا ودخلوا ، قال : فدخل القوم وأبى سعيد بن جبير أن يدخل معهم ، فقال له القوم : يابن جبير ! إنا نظنك أنك قد عزمت على الهرب ! فقال : لا ، ولكني لا أحب أن أدخل منزلاً لا يصلي فيه أهله الخمس ، فادخلوا وذروني ههنا على باب الدير ، فإني أعطيكم عهد الله وميثاقه أن لا أبرح مكاني هذا حتى أصبح . قال : فتركوه ودخلوا الدير ، وقام سعيد يصلي والراهب ينظر إليه من فوق صومعته ، فلما مضى من الليل ما مضى إذا بالأسد واللبوة قد أقبلا جميعاً إليه وهما يزئران حتى تقاربا منه ثم شماه وتنحيا عنه نريضا قريباً منه، والراهب ينظر إلى ذلك ، فصاح بالقوم وقال : يا هؤلاء ! قوموا وانظروا إلى صاحبكم ! قال : فأشرف أصحاب الحجاج من فوق حائط الدير ، فنظروا إلى سعيد بن جبير قائماً يصلي والأسد واللبوة رابضان جميعاً قريباً منه ، فعجبوا من ذلك ، ثم قال بعضهم لبعض : بأي وجه نلقى غداً وقد ذهب بمثل هذا الرجل إلى الحجاج ولعله أن يقتله ! وانصرف الأسد واللبوة وأصبح القوم ، فأول من خرج إليه الراهب صاحب الدير فأسلم، ثم خرج إليه أصحاب الحجاج فقالوا: أيها الرجل الصالح ! إن الحجاج قد أخذ علينا الأيمان المغلظة أنا إن عايناك لم نفارقك فنأتيه بك ، فمرنا بما شئت ! فقال سعيد : ولا بد لكم إذا. قد حلفتم أن تحضروني إليه ، ولا راد لقضاء الله وقدره . قال : فحمله القوم على دوابهم وساروا حتى تقاربوا من واسط ، قال لهم سعيد : لا تعجلوا ، هذه واسط قد بلغناها ، ولست أشك أن أجلي قد حضر ، ولكني ذروني الليلة حتى آخذ أهبة الموت ، فإذا أصبحت أدخلوني على صاحبكم ! قال : فسكت القوم وخلوا عنه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : لا نطلب أثراً بعد عين ، نخاف أن يهرب ، فقال بعضهم : لا والله لا يهرب وقد أعطاكم على باب الدير من العهود والمواثيق ثم وفى لكم بما قال ولم يهرب ! وقد رأيتم من الأسد واللبوة ما قد رأيتم ، فذروه ليلته هذه يصنع ما بدا له قال : فتركه القوم ليلته

ونزل القوم ناحية عنه ، وقام سعيد يصلي وهو مع ذلك لا يأكل ولا يشرب ، حتى إذا أصبح القوم وصلوا حملوه حتى دخلوا مدينة واسط والناس ينظرون إليه ، فأتي به إلى باب الحجاج ، ودخل إسماعيل بن الأوسط فقال : أصلح الله الأمير ! قد جئتك بسعيد بن جبير ، وقد والله رأيت منه شيئاً ما ظننت أن يكون لأحد في هذا الدهر ، قال الحجاج : وما ذلك ؟ فحدثه إسماعيل بما رأى من صومه وصلاته وخشوعه ، وما رأى من الأسد واللبوة ، قال : فزبره الحجاج وقال : اخرج فأتني به ، قال : فأدخل سعيد بن جبير على الحجاج ، فلما نظر إليه قال : لا مرحباً بك يا رأس النفاق ! فقال سعيد : المنافق من كان من شيعة المنافقين ، قال الحجاج : صدقت يا شقي ! قال : بل أنا سعيد بن جبير ، [قال الحجاج] : بل أنت شقي بن كسير ، قال سعيد : أمي كانت أعرف بي منك ، قال الحجاج : لقد شقيت أمك حين ولدتك ، قال سعيد : الغيب[1] يعلمه غيرك ، قال الحجاج : يا عدو نفسه ! ألم أقدم العراق وأنت بها فقربت منزلك ورفعت مرتبتك ؟ ثم بلغني عنك علم وفقه فزدتك في عطائك ؟ قال سعيد : قد كان ذلك يا حجاج ! قال : فما الذي أخرجك عليّ ؟ قال : بيعة كانت في عنقي لابن الأشعث فلم أر نقضها ، قال : فغضب الحجاج ثم قال : يا عدو نفسه ! فبيعة أمير المؤمنين كانت أحرى أن تفي بها من بيعة ابن الأشعث حوالي كندة ، والله لأذيقنك[2] حياض الموت ، ولأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ! قال سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً . قال الحجاج : يا عدو نفسه ! ما تقول في خلفاء بني أمية ؟ قال : [لست][3] عليهم بوكيل ، ولا أقول ما لا أعلم . قال : فأي رجل أنا عندك ؟ قال سعيد : يوم القيامة تعلم ذلك ! قال الحجاج : فأحب أن تعلمني ! قال سعيد : أنا أهون على ربي من أن يطلعني على غيبه ، قال الحجاج : فإنه لا بد لك من أن تصدقني من نفسي ، قال سعيد[4] : لا أحب أن أكذب ، وأنت عندي رجل سوء . قال الحجاج : خبرني عنك ما بالك لا تضحك قط ؟ قال : إني لم أر شيئاً يعجبني فأضحك منه ، وكيف يضحك مخلوق ولا يدري أتمسيه المنية أم تصبحه ! ثم لا يدري بعد ذلك إلى الجنة يصير أم إلى النار ! قال الحجاج : أصدقني

---

(١) عن الإمامة والسياسة وبالأصل : العلم .

(٢) الإمامة والسياسة : لأوردنك .

(٣) زيادة عن الإمامة والسياسة ٢/٦١ .

(٤) الإمامة والسياسة : بل لم أرد أن أكذبك .

هل سمعت لهواً قط ؟ قال سعيد : لا ولا رأيته . قال : فدعا الحجاج بالعود والناي ، فضرب بالعودِ ونفخ في الناي ، قال : فبكى سعيد بكاء شديداً ، فقال له الحجاج : ما يبكيك ؟ فقال : إذاً أخبرك يا حجاج ! أما هذه النفاخة فإنها ذكرتني نفخة إسرافيل إذا نفخ في الصور ﴿ **ففزع من في السموت ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل آتوه داخرين** ﴾[1] ؛ وأما هذه الأخشاب والأوتار فإنها قطعت وفتلت من هذه المصارين لمعصية الله والله سائلك عنها يا حجاج ! فقال الحجاج : ما تقول في علي بن أبي طالب ؟ قال سعيد : أقول إنه في الجنة ، قال : فما تقول في بني مروان في الجنة هم أم في النار؟ قال سعيد : لو دخلت الجنة وفيها أهلها لعلمت من فيها . قال الحجاج : كيف شهدت لغير بني مروان بالجنة ؟ فقال سعيد : شهدت لهم بشهادة الرسول لهم أن العشرة في الجنة ، ولكن ما أنت يا حجاج وما هؤلاء وما سؤالك عن المغيب وقد عزب عليك علمه . قال الحجاج : الويل لك مني يا سعيد ! قال سعيد : بل الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار . قال الحجاج : خذوه ! فبادر إليه أعوان الحجاج ، قال سعيد : ﴿ **بسم الله مجريها ومرسها إن ربي لغفور رحيم** ﴾[2] ثم مضوا به ليقتل ، قال الحجاج : ردوه ! وهو يضحك . قال الحجاج : وما يضحكك وقد بلغني أنك لم تضحك قط ؟ قال : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عنك . قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه ! قال سعيد : ﴿ **وجهت وجهي للذي فطر السمٰوت والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين** ﴾[3] .. قال الحجاج : اصرفوا وجهه عن القبلة ! قال سعيد : ﴿ **أينما**[4] **تولوا فثم وجه الله** ﴾ إن الله واسع عليم . قال الحجاج : اضربوا وجهه بالأرض ! قال سعيد : ﴿ **منها خلقنٰكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[5] قال الحجاج : اضربوا عنقه ! فقدم سعيد بن جبير فضرب عنقه ـ رحمه الله ـ .

قال : واختلط على الحجاج عقله ، فلم يزل نادماً على قتله حتى ربما كان

---

(١) في سورة النحل الآية ٨٧ ﴿ **ويوم ينفخ في الصور . . . وكل آتوه داخرين** ﴾ .

(٢) سورة هود الآية ٤١ .

(٣) سورة الأنعام (وليس فيها مسلما) الآية ٧٩ .

(٤) سورة البقرة الآية ١١٥ وفيها فأينما .

(٥) سورة طه الآية ٥٥ .

يستيقظ من نومه فزعاً مرعوباً وهو يقول : ما لي ولسعيد بن جبير ! قال : وبلغ ذلك[1] عبد الملك بن مروان فكتب إلى الحجاج : أما بعد يا حجاج ! فقد بلغني عنك سرف في القتل وتبذير في الأموال ، وهاتان خلتان لا أحتمل عليهما أحد من الناس ، وقد حكمت عليك في الخطأ الدية ، وفي العمد القود ، وفي الأموال أن تردها إلى موضعها ، فإنها أموال الله ونحن أمناؤه عليها ، وسواء عندي يا حجاج عطاء في باطل أو منع من حق ـ والسلام ـ[2] . ثم أثبت في أسفل كتابه هذه الأبيات[3] :

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتأبى رضائي بالذي أنا طالبُهْ
وتخشى الذي يخشاه مثلي فكن إذاً ... كذا الدر يوماً ظن بالدر حالبه[4]
وإن تَرَ مني غفلة قرشية ... فيا رب يوم غص بالماء شاربه
وإن تَرَ مني وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمة ... فإنك مجزيّ بما أنت كاسبه
ولا تمنعن الناس حقاً علمته ... ولا تعط مالاً ليس للناس واجبه[5]
فإنك إن تعط الحقوق فإنما ... تريد به الأمر الذي أنا واهبه
وإني لأغضي جفن عيني على الأذى ... أريد به الأمر الذي أنا راكبه
وأملي لذي الذنب العظيم كأنني ... أخو غفلة عنه وقد خب عاربه
فإن كف لم أعجل عليه وإن أبى ... وثبت عليه وثبة لا أراقبه

---

(١) كذا بالأصل . فإن كان يريد أن قتل سعيد بن جبير بلغ عبد الملك فهو خطأ كبير ، فقد كان قتل ابن جبير سنة ٩٥ وفي قول سنة ٩٤ وذلك بعد موت عبد الملك بوقت ليس بالقصير . ولعله يريد حسب رواية المسعودي أنه لما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير الجماجم وإعطائه الأموال بلغ ذلك عبد الملك (المروج ١٦٢/٣) .

(٢) انظر نسخة للكتاب في مروج الذهب ١٦٢/٣ باختلاف بسيط .

(٣) الأبيات في مروج الذهب ١٦٢/٣ ـ ١٦٣ . باختلاف وزيادة .

(٤) البيت في مروج الذهب :

ونخشى الذي يخشاه مثلك هارباً ... إلى الله منه ضيع الدر حالبه

(٥) البيت في مروج الذهب :

ولا تنقصن للناس حقاً علمته ... ولا تعطين ما ليس لله جانبه

وقبله في المروج :

ولا تعد ما يأتيك مني وإن تعد ... يقوم بها يوماً عليك نوادبه

قال : فكتب الحجاج[1] : أما بعد ، فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في القتل وبذري[2] في الأموال ، ولعمري ما بلغت حقوق أهل الطاعة ولا عقوبة أهل المعصية ! فإن كان قتلي العصاة سرفاً وإعطائي المطيعين تبذيراً فليجعل أمير المؤمنين في ذلك حداً لا أعدوه إلى غيره ، وبعد يا أمير المؤمنين فإني ما قتلت إلا فيك ، ولا أعطيت إلا لك ، وما قتلت عمداً فأقاد به ولا خطأ فآتي فيه الدية ـ والسلام ـ .

ثم أجابه عن أبياته وهو يقول[3] :

إذا أنا لم أطلب رضاك واتقي … أذاك فيومي لا توارى كواكبُه
ولا أنا من يعطي الخليفة حبه … يعد من الأمر الذي هو راهبه[4]
وإن قارف الحجاج فيك خطية … فقامت عليه في الصباحِ نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه … وأقصي الذي تسري إليَّ عقاربه
فمن يبغني يوماً ويرجو مروتي … ويحذرني والدهر جم نوائبه
فأمري إليك اليوم ما قلت قلته … وما لم تقله لي فإني مجانبه
فقف لي على حد الرضا لا أجوزه … مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
وإلا فذرني والأمور فإنني … شفيق رفيق أحكمته تجاربه

قال : فلما ورد الكتاب على عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج أن اعمل برأيك ـ والسلام ـ[5] .

قال : فاستقامت العراق جميعاً للحجاج . فلم يكن أحد يناويه ولا يخرج عن طاعته ، فأنشأ الفرزدق بن غالب يقول في ذلك :

إن ابن يوسف محمود صنائعه … سيان معروفه في الناس والمطرُ

---

(١) نسخة كتابه في مروج الذهب ١٦٣/٣ .

(٢) المروج : وتبذيري .

(٣) الأبيات في مروج الذهب ١٦٣/٣ ببعض اختلاف .

(٤) روايته في مروج الذهب :

وما لامرىء بعد الخليفة جنة … تقيه من الأمر الذي هو كاسبه

(٥) العبارة في مروج الذهب : فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتي ، ولن أعود لشيء يكرهه .

هو الشهاب الذي يرمى العدو به والمشرفي الذي يقضي له مطر
لا يرهب الموت إن النفس باسله والرأي مجتمع والجود منتشر
أحيى العراق وقد مالت دعائمه صرامة منه لا يبقي ولا يذر

ذكر خروج مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم

قال : وتحركت الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم ، فاجتمعوا في خلق عظيم وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم ، وأخذ الشام من أيديهم ؛ وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فنادى في أهل الشام فجمعهم في المسجد الأعظم ، ثم صعد المبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ! إن العدو قد كلب عليكم وطمع فيكم ، وهنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى ، واستخفافكم بحق الله ، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله ، ألا ! وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي ؟ قال : فأجابه الناس بأحسن الجواب ، ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك. قال: فعندها أمر عبد الملك بن مروان فكتب له أربعة كتب ، كتاب منها إلى أبان بن عثمان ـ وهو عامله على الحجاز ـ أن يوجه إليه برؤساء أهل الحجاز وفرسانهم ؛ وكتاب إلى علقمة بن مرداس الخولاني ـ وهو عامله على اليمن ـ أن يوجه إليه بفرسان أهل اليمن ؛ وكتاب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان ـ وهو عامله على بلاد مصر ـ أن يشخص إليه بنفسه في أجناد أهل مصر ؛ وكتاب إلى الحجاج بن يوسف ، أن يوجه إليه بأجناد العراق .

ثم كتب أيضاً إلى أخيه محمد بن مروان وإلى ابنه مسلمة وهما يومئذ في بلاد أرمينية وأذربيجان فأشخصهما إليه في جميع من معهما من أجنادهما .

قال : فلما اجتمع الناس من جميع الأمصار قام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم قد علمتم ما ذكر الله عزَّ وجلّ في كتابه من فضل الجهاد ، وما وعد الله عليه من الثواب ، ألا ! وإني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى أليون[1] صاحب الروم فإنه قد طغى وبغى ، وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعاً كثيرة وعزم على غزوكم ومفاجأتكم في دياركم ، وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومبدد شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه ، وقد جمعتم من كل بلد وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة ، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه

(١) بالأصل : النون .

بنصرته ، وهذا ابني مسلمة وقد أمرتـه عليكم ، فاستمعـوا له وأطيعـوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور ! قال فقال الناس : سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين ! قال : فأمرهم عبد الملك بن مروان فعسكروا خارجـاً من مدينـة دمشق في خلق عظيم ، وخرج إليهم عبد الملك بن مروان فعبأهم هنالك ، فجعل على كل قبيلة من القبائل رجلاً من ساداتهم يقتدون برأيه وينتهون إلى أمره ، ثم قال لابنه : يا بني ! إني قد ندبتك لهذا الأمر وشرفتك بهذا الجيش ، فجعلته لك شرفاً وذكراً إلى آخر الأبد ، فكن يا بني بالمسلمين باراً رحيماً وأميراً حليماً ، ولا تكن عنيداً كفوراً ولا مختالاً فخوراً ؛ واعلم يا بني ! أن الروم سيلقونك بجيش كثير وجمع كبير ، فثق بالله واستعن به وتوكل عليه ، فكفى به ولياً وناصراً ؛ وانظر يا بني ! لا يهولنك ما ترى من جمع الروم وكثرة عددهم ، فإن الله تبارك وتعالى بفضله ومنّه مهلكهم وضارب وجوههم ومرعب قلوبهم ومزلزل أقدامهم ؛ ومعك يا بني بحمد الله خلق كثير ، فإذا عزمت على حرب عدوك فاجعل عمك محمد بن مروان على ميمنتك ، واجعل ابن عمك محمـد بن عبد العـزيز على ميسـرتك ، واجعـل محمـد بن الأحنـف بن قيس على طلائعك ، وعبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان على جناحك ؛ واعتمد في حربك على البطال بن عمر فإنه بطل شجاع مقدام شياع ؛ وانظر يا بني ! لا تكسل ولا تفشل ولا تجزع ولا تهلع ، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعديت ما أوصيتك به ، استوجبت من الله المقت ومن عباده البغض ومن ملائكته اللعن ، فإنه تعالى يقول : ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾[1] .

قـال : ثم أقبـل عبـد الملك بن مـروان إلى النـاس ، فقـال : أيهـا النـاس المسلمون ! أنتم إخواني وأعواني ، وهذا ابني مسلمة وهو سيفي ورمحي وسهمي ، وقد رميت به في نحر هذا العدو ، وبذلت دمه ومهجته لله عزَّ وجلّ ، ورجـوت أن يقضي الله به جيش الروم ، فأعينوه واعضـدوه وقومـوا معه ، وانصـروه إذا كسل ، وشجعوه إذا فشل ، وأيقظوه إذا غفا ، وفهموه إذا هفا ؛ فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان ، فإن أصيب فابن عمه محمد بن عبد العزيز ، فإن أصيب فاختاروا من أحببتم الأفضل فالأفضل ، والخيار في ذلك إليكم ـ والسلام ـ .

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٦ .

ثم دعا مسلمة فعانقه وقبّل بين عينيه وقال : السلام عليك يا ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي ! فإن نفسي تحدثني أني لا أراك ولا تراني بعد هذا أبداً ـ ثم بكى وبكى الناس لبكائه ، وودع الناس بعضهم بعضاً ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة ، وذلك في أول يوم من رجب بعد صلاة الجمعة ، وعبد الملك بن مروان معهم يشيعهم إلى أن نزلوا على فرسخين من مدينة دمشق ، فأقاموا يومهم ذلك هنالك فلما كان من الغد ودّعهم عبد الملك بن مروان ورجع إلى دمشق في نفر من أصحابه .

وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل والزي الحسن والخيل العتاق والبراذين المطهمة حتى نزلوا بموضع يقال له مرج دابق[1] . قال : فلم يزل مسلمة هنالك نازلاً والناس يخرجون إليه ويتلاحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم ، ووافاه الفتية المدنيون التوابون .

ذكر الفتية المدنيين التوابين وهو خبر حسن

قال : ذكر عيسى بن دأب أن هؤلاء الفتية كانوا عشرة نفر منهم سليمان بن عمرو القرشي ، وأخوه يحيى بن عمرو، وهارون بن الحصين التميمي ، وأخوه أحمد بن الحصين ، ومحمد بن زرعة العبدي ، وأحمد بن محمد اليشكري ، وبشر بن مطر الأزدي ، وسعيد بن إسماعيل الطائي الأسدي ، وعبد الله بن عمرو الطائي ، ويعقوب بن عبد الله الأنصاري .

قال عيسى بن دأب : وكان السبب في توبة هؤلاء القوم أنهم كانوا بالمدينة على أمر من الأمور التي يحبها الله عزَّ وجلّ ، ولكل واحد منهم جارية يهواها من بنات العرب ، فسليمان بن عمرو القرشي جاريته الذلقاء بنت أبي بهس العدوية ، وأخوه يحيى بن عمرو جاريته أم أبيها بنت أبي سلمة النهدية ، وهارون بن الحصين جاريته أسماء بنت عمرو بن مبذول الغطفانية ، وأحمد بن الحصين جاريته قبول بنت المعذل الحنظلية ، ومحمد بن زرعة العبدي جاريته سلمى بنت عبد العزيز العذرية ، وأحمد بن محمد اليشكري جاريته ليلى بنت محصن السعدية ، وبشر بن مطر الأزدي جاريته حجل بنت عكاشة الباهلية ، وسعيد بن إسماعيل الأسدي جاريته ظلوم بنت مرة الكلبية ، وعبد الله بن عمرو الطائي جاريته هند بنت المحكم العجلية ، ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري جاريته الهيفاء بنت رماحس الكلبية .

---

(١) دابق قرية قرب حلب بينهما أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب نزه .

قال : وكان هؤلاء الفتية العشرة في كل نعمة سابغة ، لا يأتي عليهم يوم من الأيام إلا وهم أشد سروراً وأطول حبوراً من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بأن عبد الملك بن مروان قد وجه جيشاً إلى بلاد الروم ، قال : وأراد الله عزَّ وجلّ ما أراد من الخير وأحب الله عزَّ وجلّ أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصي إلى نور الطاعة . قال : فأول من ارتدع منهم عما هو فيه ودعته نفسه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى يحيى بن عمرو القرشي ، فعزم على ذلك وجعل يسره في نفسه ولا يذكر لإخوانه شيئاً مما قد عزم عليه ، وهو مع ذلك يجالسهم ويحادثهم . قال : فبينا هم ذات يوم على شرابهم ولهوهم إذ أخذوا شيئاً من تناشد الأشعار التي قد أحدثوها بينهم ، فجعل كل واحد منهم يقول شيئاً ويحيى بن عمرو القرشي ساكت لا ينطق بشيء حتى فرغوا من نشيدهم ، فأحب أن يلقي إليهم شيئاً مما قد عزم عليه من أمر التوبة ونزوع ما هو عليه ، فأنشأ يقول :

قالت : سلوت فقلت : لست بجاحد	أنا والمهيمن ذي الجلال الواحدِ
وسلخت ودك من فؤادي مثل ما	سلخ النهار من الظلام الراكد
قالت : فعد فالعود عندي أحمد[1]	فأجبتها هيهات لست بعائد
إني أخاف عذاب رب سرمد	تبدو فضائحه ولست ببائد

قال : فلما سمع القوم من يحيى بن عمرو القرشي هذه الأبيات أنكروا ذلك منه إنكاراً شديداً بليغاً ، ثم إنهم عضوه بألسنتهم وعذلوه فأكثروا فيه من عذله ولومه ، ثم قالوا : يا هذا ! قد سمعنا منك شيئاً نخاف أن يكون فيه تفريق جماعتنا وتشتيت ألفتنا ، وإننا نناشدك الله في ذلك . قال : فتبسم يحيى بن عمرو القرشي ثم حرك رأسه وأنشأ يقول :

إن في اللهو ما علمت سرورا	لا يرى في[2] حوادث الأقدارِ
غير أني تركت ذلك خوفاً	وحذاراً[3] من شر عار ونارِ
فأنيبوا إلى الإله وتوبوا	كم إلى كم نقيم في الإصرارِ ؟

قال : فلما سمع القوم ذلك أقبل عليه سليمان بن عمرو فقال : والله يا أخي

---

(١) العود أحمد ، مثل ، انظر قصته في مجمع الأمثال للميداني حرف العين .

(٢) الأصل : لم يوفى .

(٣) الأصل : حذرا .

ما عدا جميع ما تكلمت به سويداء قلبي ولقد أخذ بمجامع قلبي وعقلي حتى لقد غلب على سمعي وصدري ، وحال بيني وبين لـذتي ، ولقد علمت أن الأمـر كما ذكرت وأن الرغبة فيما رغبت ؛ قال : ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

يـا مـن يـلوم مـرفّـقـا ... يـدعـو إلـى إسـعـاده
أبـدى الـنـصـيـحـة إذ دعـا ... لـم يـألُ فـي إجـهـاده
لا تـنـكـروا مـا قـالـه ... مـن بـذلـه لـرشـاده
فـلقـد أتـى بـنـصـحـه ... مـوصـولـة بـسـداده

قال : فلما سمع القوم كلام سليمان بن عمرو وميله إلى أخيه جعل بعضهم يقول لبعض : هذا ما كنا نحذر من تفريق الألفة وتكدير صفو العيش ، فعند الله نحتسب ما فجعنا به منكما ! قال : ثم انصرف القوم عن مجلسهم يومهم ذلك وهم مغمومون بأمر يحيى بن عمرو وأخيه سليمان .

فلما كان في الليلة المقبلة اجتمعوا أيضاً فجلسوا ، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال : يا إخوتي ويا أخلائي ومن تقر عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم ! إنه قد ينبغي للراقد أن يستيقظ من رقدته ويستجلي عن غشوته ، ومهما شككتم في شيء فلا تشكوا في الموت ، إنـه نازل بي وبكم ، وأسأل الله العصمة والتوفيق والتسديد لي ولكم ـ والسلام ـ ؛ ثم أنشأ يقول :

دعـوتكم للرشـد والنصـح جـاهـداً ... ومـا زلت للإخـوان مـذ كنت نـاصحـا
فـإن تقبلوا نصحي تـنـالـوا سعـادة ... وتـأتـوا طـريقـاً بين القصـد واضحـا
ومن يتـرك القصـد المنيـر طـريقـه ... يـلاقي غـداً نـاراً ويخـلد كـالحـا

قال : ثم أقبل عليهم سليمان بن عمرو فقـال : يا إخـوتي ومن قد عـظمت حقوقهم عليّ وابيضت أيديهم عنـدي ! إنكم قد علمتم مـا افترقنـا عليه في ليلتنـا الماضية وما دعاكم إليه أخي يحيى بن عمرو الناصح لكم ، الشفيق عليكم ، فإن تجيبوا إلى التوبة والنزوع عما أنتم عليه فحظكم أصبتم وإلى الخير أجبتم ، وإن تقيمـوا على ما أرى من لغطكم واتباعكم أهـواءكم فإني أسـأل الله لكم التوفيق ـ والسلام ـ ؛ ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

سـألـت إلـهـي أن يـؤلـف بـيـنـنـا ... على الخير كالتـأليف في سائـر الدهـرِ
فقـد عشتم عصـراً وعصـراً وإنـنـا ... لفي غمـرة جهـلاء نهـوي ومـا نـدري

نلجج في بحر سكارى بحيرة فحتى متى لسنا نفيق من السكرى
وتوبوا تنالوا جنة الخلد إنما ينال جنان الخلد من كان ذا صبرِ

قال : فلما سمع بشر بن مطر الأزدي مقالة يحيى وسليمان بن عمرو واستحكم قولهما في قلبه أعجبه ذلك ، ثم قال : لقد علم من أعين عقلاً وأحضر همّاً أين موضع الحق ـ والسلام ـ ؛ ثم أنشأ يقول :

لعمري لئن بعت الهداية بالعمى وآثرت غير الحق إني لخاسرُ
أأترك حظي بعد إذ أنا قادر على أخذه والحق فيه بصائرُ
سأجبر نفسي عن هواها وغيها بصبر قوي الحزم والحر صابر

قال : فلما سمع القوم مقالة بشر بن مطر الأزدي فغمهم ذلك غماً شديداً . ثم أقبل هارون بن الحصين على أصحابه فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أعظم الرزية بفرقتكم وأجل المصيبة بتباعدكم ، والله ما أظن هذا الأمر إلا مشتتاً جماعتنا ، مكدراً علينا صفو عيشنا ، لأن الذي دعوتنا إليه من مزايلة ما نحن فيه شديد وهو أثبت وأرسخ من أن يزيله العظات أو أن يقلعه الصفات . قال : ثم افترقوا أيضاً ليلتهم مغمومين .

فلما كان في الليلة الثالثة اجتمعوا ، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم محمد بن زرعة العبدي فقال : يا إخوتاه ! اسمعوا عني كلامي وتدبروا بعقولكم فقد أتيتكم بأعجوبة ! فقالوا : هات ما بدا لك ! فقال : اعلموا أني فارقتكم الليلة وصرت إلى منزلي أرقاً شديداً ، حتى إذا كان قبيل الصبح أغفيت إغفاء ، فإذا أنا بآت قد أتاني في منامي وهو يقول : هذه الأبيات :

يا تارك القصد بعد معرفة وسالكاً غيره من الطرقِ
يحيى وأصحابه على رشد كما جلى الليل ساطع الفلقِ
فلا تكونن كالمقيم على دحض مزلّ[1] أشفى على غرق

قال : فلما سمعت ذلك استيقظت فزعاً مرعوباً حتى كاد الخفقان أن ينزع قلبي حتى سكنني من كان بحضرتي . قال : فأقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم[2]

---

(١) الأصل : منزل .
(٢) مرّ قريباً عبد الله .

الأنصاري فقال : يا أخي ! فكأني والله وإياك إنما كنا على أمر واحد غير أن الألفاظ مختلفة ، وذلك أني قمت عن مجلس حين افترقنا بالأمس وبي من الفرقة والأسف لتشتيت الفرقة ما لا أبلغ وصفه حزناً على إخواني ، وما رأيت من مفارقتهم لنا ونقضهم علينا ما نحن فيه من الألفة والمودة ، فأتيت إلى منزلي وظللت عامة ليلي أدير عيني على الغمض فلا أقدر على ذلك ، فبينا أنا كذلك بين النائم واليقظان إذ أنا بهاتف يهتف بي وهو يقول :

يا خائضاً في غمرة[1] الجهلِ ... وحائداً عن واضح السبلِ
لست على شيء فلا تكذبن ... في راجع التوبة في مهل
من قبل يوم معظم هائل ... يشيب رأس المرضع الطفل

فلما سمعت ذلك استيقظت وما معي شيء من عقلي ، فهذا والله يا إخوتي ما رأيت . فلما سمع القوم ذلك عجبوا وجعل بعضهم يقول لبعض : كيف حتى خص محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم[2] بهؤلاء الهواتف من بيننا هذا سكون لنا بنا . قال : ثم أقبل سعيد بن إسماعيل الأسدي على محمد بن زرعة وهو يقول :

لولا الذي أضمرت من غدره ... ما راعك الهاتف إذ يهتفُ
خصصت بالهاتف من بيننا ... ما لك في قولك لا تنصف
والله رب العرش يا إخوتي ... فإنني مجتهداً أحلف
لا خنت من أهوى ولا شتمته ... جهراً ولا مثلي به يوصف

قال : ثم أنشأ هارون بن الحصين التميمي وهو يقول :

أبالأحلام أسلو عن هواي ... لأقوام أتوا بالترّهاتِ
أتونا يزعمون بأن آت ... أتى بنصيحة عند البيات
يحضهم على هجرٍ وغدرٍ ... وقطع الحبل منّا والشتات
فمن يك راغباً عن وصل ألف ... فلست براغبٍ حتى الممات

قال : وتفرق القوم أيضاً ليلتهم تلك وقد وفق الله عزَّ وجلّ للتوبة خمسة نفر : [ابني] عمرو ، وبشر بن مطر الأزدي ومحمد بن زرعة العبدي ويعقوب بن

(١) الأصل : غرة .
(٢) مرّ قريباً : عبد الله .

عبد الكريم[1] الأنصاري ، وبقي منهم خمسة : هارون بن الحصين [وأحمد بن الحصين][2] وعبد الله بن عمرو الطائي وسعيد بن إسماعيل الأسدي وأحمد بن محمد اليشكري . قال : وجعل هؤلاء الخمسة الذين قد تابوا يدعون الله ويتضرعون في أن يراجع بقلوب إخوانهم إلى ما هم عليه من التوبة ، فلم يزالوا كذلك إلى أن استجاب الله منهم دعاءهم في إخوانهم وأقبل بقلوبهم إلى طاعته ، وكتب هارون بن الحصين إلى يحيى بن عمرو القرشي بهذين[3] البيتين :

نفسي الفداء لمن جلى الإلـه بـه ... عنا العمى ووقاه مورد التلفِ
قد كان ما بيننا في الدين مختلفاً ... فاليوم نحن جميعاً غير مختلف

قال : ثم كتب أخوه محمد بن الحصين إلى سليمان بن عمرو أيضاً بهذين[3] البيتين :

أتتني منك موعظة ... يقوّم نصحها أودي
فجئتك تائباً في اليو ... م خوفاً من عقاب غدِ

قال : ثم كتب أحمد بن محمد اليشكري إلى محمد بن زرعة العبدي[4] بهذين البيتين :

نفسي فداؤك من فتى ... منح النصيحة جاهدا
فأطيع رأيك لا أرى ... للناصحين معاندا

قال : ثم كتب عبد الله بن عمرو الطائي إلى بشر بن مطر الأزدي بهذين البيتين :

لقد قرأت كتاباً منك هيّجني ... يدعو إلى الله إسراراً وإعلانا
أجبته ودعوت الله مجتهداً ... كما نكون على الخيرات أعوانا

قال : ثم كتب سعيد بن إسماعيل الأسدي إلى يعقوب بن عبد الكريم[5]

---

(١) مرّ قريباً عبد الله .
(٢) زيادة لاستقامة المعنى ، انظر أول الخبر .
(٣) الأصل : بهذه .
(٤) ورد خطأ : العنبري .
(٥) ورد قريباً « عبد الله » .

الأنصاري بهذين البيتين :

أتـاني كتـاب منـك فيـه مـواعظ | تخط على خيـر وتـدعـو إلى رشـدِ
فـأبصـرت مـا فيـه من الحق والهـدى | وفـارقت من أهوى على أجهـد الجهدِ

فلمـا وصلت هذه الأبيـات من هؤلاء الخمسة إلى إخـوانهم فرحـوا لـذلـك واستبشروا ، واشتد سرورهم ، ثم إنهم ابتهلوا إلى الله عزَّ وجلّ في أن يقوي عزمهم على ما عزموا عليه من التوبة ، فاستجاب الله لهم ذلك . قال : إنهم تـواعدوا أن يجتمعوا في مشربة لهم فيكلم بعضهم بعضاً ، فاجتمعوا في مشربتهم تلك . قال : وهي مشربة معروفة بالمدينـة يقال لهـا مشربـة التوبـة وهي مشربـة على العطارين بالمدينة . قال : فلما اجتمعوا هنالك اعتنقوا وبكى بعضهم إلى بعض لطول الفرقة وما كانوا عليه من التباعد ، وحمدوا الله على ما ألف بينهم من التقـوى ، وسألـوه التوفيق والعصمة مما هم عليه . ثم أقبل عليهم يحيى بن عمرو القرشي فقال : يا إخوتي ! إنكم قد علمتم ما قد وعد الله عزَّ وجلّ عباده . . . [١] .

قال : ثم حمل على العلج فضربه ضربة على فخذه فقطعها ، فسقط العلج ميتاً . قال : وإذا بعلج آخر يقال بولص قد بدر إلى أحمد بن الحصين ، قال : فنظر إليه أحمد فقصد نحوه وهو يقول :

دونـك حـربـاً لا تـقيـه تـرسـي | صبـراً على الـمكـروه مني نـفسي
كـيمـا أنـال مـنـزلاً في الـقـدس | فـإنـمـا الـدنـيـا كـيـوم أمس

قال : واختلفا بطعنتين طعنه العلج في خاصرتـه جدلـه قتيلاً ـ رحمـه الله ـ. قال : فلما قتل هارون بن الحصين وأخوه أحمـد خرج من بعـدهما سعيـد بن إسماعيـل الأسدي نحو ذلك العلج وهو يقول :

يـا بـولص الـروم إليـك نـفسي | قـد طـال في ظـل الخـطايـا حبسي
الـيـوم أحمـي إخـوتـي بـالـحمس | كـيمـا يـكـون بـطن سبـع رمـسي

قال : والتقيا بضربتين ، ضربه الأسدي ضربة جدله قتيلاً . قال : وخرج من بعده علج آخر يقال له قسطنطين الأصغر ، قال : فقصده الأسدي وهو يقول :

---

(١) بياض بالأصل قدر صفحة ونصف صفحة . ويفهم من السياق أن النقص هو اتفاقهم على المشاركة في غزوة الروم واللحاق بجيش المسلمين ، وقد التحقوا جميعاً وقاتلوا إلى جانب إخوانهم .

يا أيها الداعي إلى الجلاد في حومة الأبطال والأنجادِ
أتاك ليث سلس القياد ذو صولة يكرهها الأعادي

ثم تطاعنا برمحيهما فلم يصنعا شيئاً ، وتضاربا بسيفهما فلم يصنعا شيئاً ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما إلى الأرض ، فشد عليه العلج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله ـ رحمه الله ـ . قال : وخرج من بعده يعقوب بن عبد الكريم[1] الأنصاري نحو القسطنطين هذا العلج وهو يقول :

لتذهبن اليوم نفسي أسفاً إذ كنت بعد خمسة مخلفا
قد نلت من لذة عيشي ما صفا حسبي الذي عاينت حسبي وكفا

ثم حمل الأنصاري على قسطنطين العلج فقتله . ثم وقف ودعا إلى البراز فلم يخرج إليه أحد ، وكاعت الروم بعد قتل قسطنطين .

قال : وجعل مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين يتعجبون من إقدام هؤلاء الفتية على الموت وصبرهم على الحرب ، وكل واحد منهم يتلو صاحبه . قال : والتفت بشر بن مطر الأزدي إلى إخوته الذين بقوا معه يعقوب بن عبد الكريم[1] الأنصاري وأحمد بن محمد اليشكري ، ومحمد بن زرعة العبدي ، فقال : يا إخوتي ! إنه قد قتل منا خمسة ومضوا لسبيلهم ونحن ههنا أربعة ونرجو أن نلحق بهم عن قريب إن شاء الله ، ولكن هل ترون ما أرى ؟ فقالوا : وما ترى يرحمك الله ؟ فقال : ويحكم ! إني رفعت رأسي إلى السماء أنظر إلى هذه الغمامة التي[2] قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجباً عجيباً ، وذلك أني رأيت رجالاً لم أر[3] مثلهم ولا مثل صورتهم ساعة قط ، ومعهم خيام بيض لم أر[3] على حسنها شيئاً ، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين قتلوا ، فهذا ما رأيت . قال : فعند ذلك اقشعرت جلود القوم ووقفت شعورهم ، واشتاقوا إلى ما شوّقهم إليه صاحبهم بشر بن مطر الأزدي ، ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على إخوانهم ، وجعل بعضهم يقول لبعض : إنه يجب علينا الآن أن لا نقصر في جهاد هؤلاء القوم الكفار ، فعسى الله أن يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته .

(١) ورد في أول الخبر « عبد الله » .
(٢) الأصل : الذي .
(٣) الأصل : « لم أرى » خطأ .

قال : فكان أول من تقدم منهم إلى الحرب يومئذ بشر بن مطر الأزدي وهو الذي رأى ما رأى ، فجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

من كان في شك وفي تعامي   فقد رأيت الحور في الغمامِ
صبراً لهذا يا بني الكرام   حتى تحلّوا ساحة السلامِ

قال : ثم تقدم محمد بن زرعة العبدي وهو يقول :

إن كان لا بد مصيري للفنا   فما مقامي بعد خمس ههنا
إنْ نلتُ ما أبغي فقد نلت المُنى   جنات عدن ليس فيها من عنا

قال : ثم تقدم أحمد بن محمد اليشكري وجعل يرتجز ويقول :

لا خير في العيش بعد صحبي   حسبي من العيش حسبِ حسبي
لا أرجع اليوم وأقضِ نحبي   ثم أحلّ في جنان ربي

قال : ثم حمل هؤلاء الفتية فاقتتلوا قتالاً شديداً . وجعل يعقوب بن عبد الكريم[1] الأنصاري يرتجز ويقول :

هيهات مني سفهي وطيشي   أقصد للحصن أمام جيشي
قد ذهب السادة من قريش   لا خير لي من بعدهم في العيش

قال : ثم حمل يعقوب بن عبد الكريم[1] الأنصاري حملة يريد باب الحصن ، قال : ولحقه إخوته الثلاثة حتى صاروا إلى باب حصن طوانة[2] ، فجعلوا يقاتلون أشد القتال . قال : وصاح مسلمة بالمسلمين فحملوا وانكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة .

قال : وجعل قوم يقاتلون وقوم ينقبون السور نقباً واسعاً ، وبادر يعقوب بن عبد الكريم[1] الأنصاري فدخل الحصن من ذلك النقب وجعل يقاتل أهل الحصن وحده ، فلم يزل كذلك حتى قطعت إحدى قدميه ووثب قائماً على تلك الحالة يقاتلهم على فرد قدم وهو يقول :

أضرب بالسيف على فرد قدم   والحر لا يجزع من وقع الألم

---

(١) تقدم أنه عبد الله .

(٢) طوانة : بلد بثغور المصيصة . فتحها المسلمون في جمادى سنةِ ٨٩ وقتلوا من أهلها خمسين ألفاً (انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٠٢) .

والمـوت بعـد الألف أشفى للقـرم   مـع الـذي أرجـوه من بـاري النسم
أرجـو جنـانـاً حققت كـل الـنعـم   مـع فتية كـانـوا لعمـري كـالبهم
في مجمع الحرب إذا الحرب اضطرم   خـوفـاً من الله العـزيـز ذي الـنقـم

قال : فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلـك حتى دخل إليـه إخوته الثلاثة ، فـأعانـوا ودفعوا الـروم عن ذلك النقب ، ثم إنهم كبـروا وصاحـوا بأصحاب مسلمة ، فدخل الناس من ذلك النقب وفتحوا باب الحصن ، والأنصاري ينزف الدم من رجليه حتى مات ـ رحمه الله ! وقتل إخوته الثلاثة الذين كانوا معه ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ !

قال : واشتغل المسلمون بالغنائم وجمعها ، فجمعوا شيئاً كثيراً وخيلاً وبغالاً وحميراً وذهباً وفضة وأثاثاً فاخرة . قال : فجمع مسلمة هذه الغنائم ، فأخرج منها الخمس وقسم باقي ذلك على المسلمين ، ثم وجه بالخمس إلى أبيه عبد الملك بن وكتب إليه يخبره بما فتح الله على يديه من حصن طوانة ، فأنشأ أعشى تغلب يقول أبياتاً مطلعها :

خيـر لـمسلـمـة الـبـنـان فـإنـه   فـضـلـت أنـامـلـه الأكـف وطـالـهـا

إلى آخرها .

ذكر مسير مسلمة بن عبد الملك إلى عمورية[1] بعد فتح طوانة

قال : ثم نادى مسلمة في أصحابه بالسير إلى عمورية ، وبلغ شمعون صاحب عمورية بأن العرب قد سارت إلى ما قبله ، فجمع من كان حوله من القرى والحصون الصغار فأدخلهم عمورية ، ثم دعا بطريقاً من بطارقته يقال له ورسيب ، فضم إليه أربعة صلبان . تحت كل صليب عشرة آلاف ، وأمره أن يكـون على مقدمته . قال : فسار ورسيب في أربعين ألفاً على مقدمة شمعون . وأقبل شمعون من ورائه في ثمانين ألفاً . وبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فعبى أصحابه ، ثم دعا بالبطال بن عمرو ، فأمره أن يتقدم بين يديه ، قال : فسـار البطال في المقـدمة ومعـه عشرة آلاف من المسلمين لا يرى منهم إلا الحدق ، حتى إذا أشرف على عمورية إذا ورسيب قد

(١) عمورية : بلد في بلاد الروم . وكان ذلك بعد فتح طوانة سنة ٨٨ كما في ابن الأثير .

استقبله في أربعين ألفاً من النصرانية .

قال : ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ، فأسرع القتل في المشركين . قال : وحمل ورسيب على البطال وهو لا يعلمه ، وعلم البطال أنه ورسيب فخفق عليه ثم ضربه ضربة على قونس بيضته ، فقدّ البيضة والهامة ، وخر ورسيب قتيلاً . ثم جال البطال في ميدان الحرب وهو يقول :

قد يقتل المرء بلا ذنوب ... وربما كان أخا تكذيبِ
لا سيما مثل الشقي ورسيب ... جدلته بصارم قضيبِ
مهند ذي صنعة وشوب ... ليس بمفلول ولا خشيب

قال : وبلغ ذلك شمعون صاحب عمورية بأن ورسيب قتل ؛ فزحف بخيله ورجله يريد لقاء المسلمين ، وأرسل البطال بن عمرو إلى مسلمة فخبره بذلك ، فأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين ، حتى صافّ الروم وصهلت الخيل وتداعت الفرسان ، وأقوت الخيلان والجيشان ، واستبشر المسلمون بما وعدهم الرحمٰن ، من الخلود في الجنان . قال : وتقدم عبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان العبدي أمام المسلمين وهو يرتجز ويقول :

أنا ابن عبد القيس جدي صعصعه ... ذو البأس والإقدام عند المعمعه
إذا التقى الأبطال وسط المعمعه ... والروم قد سارت إلينا مجمعه
ومن يخاف الله فالله معه

ثم حمل فقاتل ساعة ورجع مجروحاً . وتقدم عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي وهو يقول :

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله ... جرير شيخي وله فضيله
فضيلة عظيمة جليله ... من النبي صاحب الوسيله

ثم حمل على جميع الروم فقاتل ورجع مجروحاً . قال : وتقدم محمد بن مروان أخو عبد الملك بن مروان وهو يقول :

أنا ابن مروان إذا الهيج اضطرم ... أكز في الحرب كليث مقتحم
بصارم عضب حسام ذي صرم ... كذاك شيخي كان قدماً والحكم

قال : ثم حمل فقاتل ، وحمل عليه شمعون بنفسه فطعنه طعنة منكرة ، فرجع

محمد بن مروان إلى صفه وهو لما به . وتقدم محمد بن عبد العزيز وهو يرتجز ويقول :

أنا ابن ذي الفضل الكريم الماجد   عبد العزيز القرم ذي المحامد
وفي يميني مرهف الحدائد   يخترم الروس مع القماحد

ثم حمل فقاتل ساعة ورجع مجروحاً . قال : وترجَّل مسلمة بن عبد الملك فنزل عن فرسه ونزل الناس معه ، واختلط القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبر القوم بعضهم لبعض ، وصاح صائح من المسلمين : أيها الأمير ! البشرى فقد قتل الله شمعون . قال : فكبر مسلمة وكبر المسلمون معه ، وإذا البطال قد أقبل وفي يده راس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة . قال : فعند [ذلك] وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم ثم حمل وحمل الناس معه ، وانهزمت الروم وولوا الأدبار ، وأذعنوا بالذل والصغار ، وتسارع الناس إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة ، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها . قال : وكانت غنائم عمورية يومئذ تزيد على مائتي ألف مثقال من الذهب والفضة سوى الأمتعة والبغال والحمير . قال : فأخرج مسلمة من ذلك الخمس ووجه به إلى أبيه عبد الملك بن مروان[1] ، وكتب إليه يخبره بفتح عمورية ، وقسم باقي الغنائم في أصحابه .

قال : ثم سار مسلمة من عمورية يريد القفورية[2] وبين يديه رجل من المسلمين وهو يقول أبياتاً مطلعها :

أبلغ يديك وخير القول أصدقه   أما أبيت عميد الروم اليونا
إلى آخرها .

قال : وسار المسلمون حتى إذا أشرفوا على القفورية نظروا فإذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف عنان سوى الرجالة . قال : وكان نقفور هذا ختن ملك الروم على ابنة أخ له ؛ فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه أن احملوا ! ثم حمل وحمل معه أصحابه ، وانكشف القوم من بين أيديهم كشفة قبيحة وقد قتل منهم جماعة . قال : ونادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته : يا أهل

---

(١) كذا ، وثمة اتفاق أن فتح عمورية كان سنة ٨٩ ، والمعروف أن عبد الملك مات سنة ٨٦ في منتصف شوال .

(٢) كذا ولم نجدها . ولعلها قمونية أو قمورية .

الشام ! لا شام لكم ، ويا أهل العراق ! لا عراق لكم ، ويا أهل مصر ! لا مصر لكم إن أنتم وليتم الأدبار ، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين . قال : ونادى محمد بن مروان وقال : يا أهل الإسلام ! أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعبدة الصلبان ! أما ترغبون فيما رغبكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم النصر ! والله ينصركم ويثبت أقدامكم .

قال : فعندها صدقت عزيمات المسلمين وتراجعوا إلى الروم ، والتحم القتال ، وحمل نقفور وحده من بين أصحابه على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته نكسه إلى الأرض ، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلهم عن مواقفهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشرعوا الرماح في وجوههم ورشقوهم بالسهام ، ورجعت الروم إلى ورائها ، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته : أيها الناس ! إليّ إليّ ! أنا مسلمة بن عبد الملك ! يوجب الله لكم الرضوان . قال : فاجتمع عليه الناس ثم تواصوا بالصبر ، ووغط بعضهم بعضاً ، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف . قال : وكان نقفور أول قتيل . قال : وعلمت الروم بقتل نقفور فولوا الأدبار والسيف يأخذهم ، حتى صارت القتلى بينهم كالتلول بعضهم على بعض . قال : وسبق البطال بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور[1] ، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه ، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة ، فاجتمعوا عليها وغنموا ما فيها . قال : وبلغت غنائم نقفورية[1] مائة وثمانين[2] ألف مثقال من الذهب والفضة سوى الدواب والأمتعة والرقيق . قال : وعرض مسلمة أصحابه ، فإذا قد قتل منهم في نطوانة وعمورية والنقفورية ثمانمائة إنسان ما بين فارس وراجل . قال : فأخرج مسلمة الخمس من تلك الغنائم فوجه بها إلى أبيه عبد الملك بن مروان[3] ، وقسم باقي ذلك على المسلمين .

ثم نادى بالرحيل وسار يريد السماوة الكبرى[4] ، فأنشأ بعض المسلمين يقول

(١) كذا .

(٢) الأصل : وثمانون .

(٣) كذا ، وانظر ما لاحظناه قريباً .

(٤) السماوة : ماءة بالبادية ، وهي بين الكوفة والشام .
ولم نعثر على اسم السماوة في بلاد الروم .

أبياتاً مطلعها :

أي هـذا الأمـيـر عـمـرك الله ولا زلـت فـي الـورى مـنـصـورا

إلى آخرها .

قال : وسار المسلمون نحو السماوة وبها يومئذ بطريق من البطارقة الرومية يقال له إفريطون في ثمانين ألفاً من الروم ، وقد حصن السماوة قبل ذلك ، ونصب على سورها عشرين منجنيقاً وثلاثين عرادة . قال : فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة ثم أمر بمجانيقه ، فنصبت عليها من كل جانب ، وترامى الفريقان رمياً متداركاً ، ودام الحرب بينهم أربعين يوماً ، لا يفترون من ذلك ليلاً ولا نهاراً .

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له قرطس إلى مسلمة بن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفّر لـه وقال : أيهـا الأمير ! إن السماوة حصن حصين ، وفيها خلق كثير ، وليس يتهيأ لك أن تفتحها إلا أن يفتح لك من داخلها فتدخلها ، وإن إفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ وغصبني على ابنة لي فأخذها مني قهراً وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك ، فإذا أصبحت فعبىء أصحابك واقترب من بـاب المدينـة وألق الحرب بينـك وبين الروم ، وقدم أبطال عسكرك بين يديك فإني فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك ؛ قال فقال له مسلمة : إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي . قال فقال له قرطس : أيها الأمير ! إذا دخلت المدينـة فافعل من ذلك ما أحببت . قال : ثم رجع قرطس إلى المدينة .

فلما كان من غد عبى مسلمة أصحابه كما كان يعبيهم من قبل ذلك ، ثم دنا من باب المدينة وهي السماوة[1] ، وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه . قال : ثم عطعطت الروم وكبر المسلمون ، فاختلط الفريقان واشتبك الحرب على باب المدينة ، وفتح ذلك البطريق الباب ، واقتحم المسلمون معـه فجعلوا يقتلون ويأسرون . قال : وفتح إفريطون باباً آخر من أبواب السماوة وخرج هارباً على وجهه ومعـه خلق كثير من أصحـابـه حتى صـار إلى المـدينـة من مـدن الـروم يقـال لـه المسيحية[2] . قال : فضم المسلمون ما كان فبلغت غنائمها ألف ألف وثلاثمائة ألف

---

(١) كذا .

(٢) كذا بالأصل ولم نجده .

مثقال من الغنائم والذهب والفضة والأمتعة والدواب والرقيق ، فأخرج مسلمة من ذلك الخمس ووجه به إلى أبيه عبد الملك بن مروان[1] ، وقسم باقي ذلك على المسلمين ؛ فأنشأ بعض المسلمين يقول أبياتاً مطلعها :

نحمد الله ذا المعارج والطو ... ل وذا الكبرياء والسلطانِ

إلى آخرها .

قال : واقترب المسلمون من المسيحية ، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة ، فنادى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه ، فخرج بهم من المسيحية وبين يديه بطريق يقال له شماس في ثلاثين ألفاً وإفريطون من ورائه في أربعين ألفاً . قال : فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة وقد قتل منهم جماعة ، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية ، واشتبك الحرب على باب المسيحية . قال : وجعل شماس البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه حتى قتل نفراً من المسلمين . قال : وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين ، وتقدم إفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم ، فجعل يقاتل يكافىء المسلمين . قال : وقصده محمد بن عبد العزيز على فرس له أصدى وهو يرتجز ويقول :

قد علم الروم ومن والاها ... وكل علج أقلف ساواها
إني إذا الحرب خبت لظاها ... ألقيت أخراها على أولاها

قال : واختلفا بطعنتين طعنه إفريطون طعنة قتله . قال : فاغتم المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غماً شديداً ؛ وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول :

لا بد من عرض ومن مقام ... على مليك صمد منعامِ
فجاهدي يا نفس لا تلامي ... بكل عضب ذكر حسام

ثم حمل البطال على إفريطون والتقيا بطعنتين طعنه البطال طعنة جدله قتيلاً ، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على رأس رمحه ثم كبر وكبر المسلمون معه . قال :

---

(١) كذا .

ونظرت الروم إلى رأس إفريطون وقد رفع فانكسروا لذلك انكساراً ، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب فولوا الأدبار وكبستهم خيل المسلمين وأخذتهم السيوف ، فقتل منهم خلق كثير ، وانهزم الباقون على وجوههم وسلموا مدينة المسيحية بجميع ما فيها ، فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا واحتووا على غنائمها ، فبلغت غنيمة المسيحية نيفاً على مائتي ألف مثقال من الذهب والفضة سوى الأمتعة والدواب والرقيق .

قال : وهجم عليهم الشتاء بالثلوج والأمطار والبرد الشديد ، فأقام المسلمون بالمسيحية تلك الشتوة وهي مدينة من مدن الروم حصينة عامرة كثيرة البساتين كثيرة الخير ، حتى إذا انحسر عنهم الشتاء زحفوا منها يريدون مدينة بدروق[1] وبها يومئذ بطريق يقال له لبوس ، وكان لبوس عظيم القدر عند ملك الروم ، فلما بلغه مسير المسلمين إلى ما قبله بعث إلى ملك الروم فخبره بذلك وسأله المدد ؛ فأمده ملك الروم بخمسين ألفاً ، واجتمع إليه أيضاً نيف على ثلاثين ألفاً ، فصار لبوس في نيف على ثمانين ألف فارس . قال : ودنا منهم المسلمون والقوم قد أعدوا على سور المدينة المجانيق والعرادات . قال : فكبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، فامتلأت قلوب الكفار رعباً وخوفاً ، وتقدم لبوس بطريق بدروق حتى وقف بين يديه وبين يدي أصحابه عن يمينه صليب وعن يساره صليب .

قال : ونظر إليه البطال بن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه فأقبل إلى مسلمة بن عبد الملك فاستأذنه في الخروج إليه ، فقال له مسلمة : أذنت لك ، ولكن انظر أين تضع رمحك ! فقال البطال بن عمرو : كفيت أيها الأمير ! ليس مثلي من يحتاج إلى الوصية في مثل هذا الوقت . قال : ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول :

قل للأمير ذي الصيال مسلمه ... وابن الكرام السادة المكرمه
ومقعص الأبطال يوم الملحمه ... إني أنا البطال جدي علقمه
كم ساعد وبيضة وجمجمه ... طرحتها عند هياج الغمغمه
وأسمرٍ روّيته من غلصمه ... وأنت محمود بكل مكرمه

قال : ثم رفع رأسه وخرج من الصف فجال جولة ، ثم حمل على قلب الروم

---

(١) كذا ، ولم نجدها .

وأمكنته الفرصة من لبوس فلم يكذب أن حمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته ، فخر لبوس قتيلاً ينحط[1] في دمه . قال : وولت النصرانية من غير قتال وأخذهم السيف ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ومر الباقون على وجوههم لا يعرجون على شيء حتى لحقوا بحر القسطنطينية . قال : واقتحم المسلمون على مدينة بدروق فاحتووا على غنائمها فكانت أموالاً كثيرة يجل وصفها عن شرحها . فأخرج مسلمة منها الخمس فوجه به إلى عبد الملك بن مروان[2] ، وقسم الباقي في المسلمين ، فأنشأ البطال بن عمرو يقول :

لقد علم الروم الأراجس أننا ... قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها
تركنا لبوساً في القتام مجدلاً ... فقبّح ربي ذو الجلال لبوسها
ونحن أبدنا في العجاج كماتهم ... ونحن هزمنا جيشها وخميسَها
ونحن إذا ما الحرب ثبت وأرهجت ... نخوض لظاها عنوة ووطيسها
ونحن قسمنا فيئها ونساءها ... ببدروق لما أن أثرنا شريسها
وكان لبوساً كهفها وعمادها ... وكان لعمري ليثها وهموسها
وكانت له الأبطال تسطو لأنه ... إذا ناب أمر لم تجده حسيسها
وسوف تكر الخيل فينا شوازباً ... عناجيج تبدي في الغبار جسيسها
نريد بها أليون[3] كيما نثيره ... ونشفى لدى الحرب العوان نفوسها

قال : وسار المسلمون يريدون بحر القسطنطينية ، حتى إذا دنوا من خليج البحر لاحت لهم المدينة فنظروا إليها وإلى سورها ، غير أنها في جزيرة وليس لها طريق إلا من جانب واحد وقد أوقف أليون ملك الروم المقاتلة على ذلك الطريق لكيلا يخلص أحد إلى الجزيرة .

قال : فجمع مسلمة من كان في يديه من الروم وأمرهم باتخاذ السفن وعزم على العبور إلى القوم . قال : فأخذ القوم في اتخاذ السفن ففرغوا منها بعد ثلاثة أشهر ، ثم نادى مسلمة في الناس ، فركبوا في السفن مع دوابهم وأثقالهم ورفعت الشرع ، وسار القوم يريدون الجزيرة . وبلغ ذلك أليون ملك الروم فأمر بمراكبه ، فحمل فيها

---

(١) الأصل : يتنحط .

(٢) كذا .

(٣) الأصل : « النون » خطأ . وقد صححناه في كل مواضع الخبر .

المقاتلة بالآلة والسلاح الشاك والنيران ونصاحات النفط . قال : فلم يشعر المسلمون وهم يسيرون في ذلك الخليج إلا ومراكب الروم قد وافتهم في الآلة والسلاح والأعلام والمطارد . قال : وكبر المسلمون وعطعطت الروم ، ودنت المراكب بعضها من بعض ، وهبت الريح ونصحت الروم ، فأشعلت النيران ورجعت على الروم فاحترقت بعض مراكبهم . قال : وانكشفت المراكب الباقية بين أيدي المسلمين مفلولين حتى صاروا إلى ساحل الخليج . قال : وسار مراكب المسلمين سيراً قاصداً حتى حطت بساحة الجزيرة ، فخرج المسلمون من المراكب وأخرجوا أثقالهم ودوابهم ، فصاروا مع الروم في جزيرتهم . قال : ومدينة القسطنطينية في وسط الجزيرة وسائر الجزيرة لزروعهم ومواشيهم . قال : فجعل مسلمة يدور في الجزيرة مع جماعة من أصحابه يطلب موضعاً يبني فيه بناء له ولأصحابه ، حتى إذا أصاب موضعاً كما يريد أمر الناس ، فبنوا مدينة حذاء مدينة القسطنطينية وحصنوها وغلقوا عليها الأبواب ، وسموها مدينة القهر . قال : والروم في خلال ذلك يحاربون المسلمين ويطمعون أنهم يمنعوهم من البنيان ، والمسلمون يحاربونهم ويبنون ، حتى إذا فرغوا من المدينة نادى مسلمة في أصحابه فركبوا ، ثم زحف بهم في خيله ورجله حتى دنا من باب القسطنطينية . قال : وخرجت الروم في التعبية والآلة والسلاح ، فاقتتل القوم قتالاً شديداً .

قال : وإذا ببطريق من بطارقة الروم يقال له بوقاس قد خرج من صف الروم ، فجعل يحمل على المسلمين فلا يلحق أحداً إلا قتله . قال : فتحاماه الناس وخافوه وكاعوا عنه لما يرون من بأسه وشدته ، قال : ونظر إليه البطال بن عمرو فتهيأ للحملة عليه ثم جعل يقول :

يا لك يوماً ما رأينا قبله	فيما مضى من الحروب مثله
يوماً عبوساً قد أرانا حمله	وقد أتى بوقاس يبدي جهله
هذا لأني قد أردت قتله	إن الجهاد قد عرفنا فضله

قال : ثم حمل عليه البطال فالتقيا بضربتين ضربه البطال ضربة جدله قتيلاً . ثم إنه حمل وحمل الناس معه ، وولت الروم الأدبار ، فأخذهم السيف حتى ألحقوهم بمدينتهم ، ورجع المسلمون مظفرين حتى دخلوا مدينة القهر وقد غنموا دواباً وسلاحاً كثيراً وسلباً .

ثم أمر مسلمة أصحابه بالغرس فغرسوا الأشجار من الكروم وأنواع الفواكه، وعزموا على المقام هنالك إقامة من لا يريد الرجوع إلى بلاد الإسلام أبداً. قال: وليس من يوم إلا والحرب يقع بين المسلمين والكفار، فيقتل من الفريقين وينتصف بعضهم من بعض، وكلما اجتمع عند مسلمة شيء من الغنائم يخرج منها الخمس فيوجه به إلى أبيه عبد الملك بن مروان ويقسم باقي ذلك في المسلمين.

وههنا تقع أخبار يزيد بن المهلب وما كان من أمره ثم نرجع إلى أخبار قسطنطينية وانصراف المسلمين عنها إن شاء الله تعالى

قال: فكان مسلمة بن عبد الملك مقيماً بأرض الروم ويزيد بن المهلب يومئذ بخراسان، وقد أحبه الناس حباً شديداً ومالوا إليه بالسمع والطاعة، حتى أنهم كانوا لا يحلفون إلا بحياته مثلاً، فأقام يزيد بذلك ما شاء الله أن يقيم، ثم إنه تغير على بني عمه وغيرهم من أجناد خراسان، فجعل يبغضهم ولا يقبل فيهم وصية أبيه، حتى أبغضه أهل خراسان وجعلوا ينظرون إليه بغير العين التي كانوا ينظرون بها إليه قبل ذلك، ثم أنشأ رجل منهم في ذلك يقول[1]:

وما كنا نؤمل من أمير ... كما كنا نؤمل من يزيدِ
فأخلف ظننا فيه وقدماً ... زهدنا في معاشرة الزهيدِ
إذا لم يعطنا نَصَفاً أمير ... مشينا نحوه مثل الأسود
ولا يرضى الدناءة غير نكس ... قضيب الباع يرهب للوعيد
نجيء فلا نرى إلا صدوداً ... على أنا نسلّم من بعيد
فنرجع خائبين بلا نوال[2] ... فما بال التجهّم[3] والصدود
فمهلاً يا يزيد ومل إلينا ... وذرنا من صنيعك بالعبيد

(١) هو نهار بن توسعة كما في الطبري ٦/٥٢٨ قال وكان يزيد قد أدنى أهل الشام وقوماً من خراسان. والأبيات أيضاً في الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٩٧.

(٢) عن الطبري وبالأصل: سوال.

(٣) عن الطبري وبالأصل: التهجم.

ولا تظهر عداوتنا فإنّا نسل عليك صارمة الحديد

قال : وأقبل إليه ابن عم له يقال له ثابت بن كعب الأزدي ، وكان من فرسان أهل خراسان وشعرائهم ، فقال : أصلح الله الأمير ! إني أرى قومي من الأزد وغيرهم من أجناد خراسان قد خشنت صدورهم عليك لما يرون من جفائك لهم ، وقد كانوا قبل اليوم متشوقين إلى ولايتك عليهم ، فلا يكونن جزاؤهم منك الجفاء والعقوق، فإن الأيام عوج رواجع وأنا لك ناصح ـ والسلام عليك ـ ؛ ثم أنشأ يقول :

أبا خالد إن الأمور التي ترى عوار فلا يبقى لشيء خلودُها
ألم ترها تمضي بقوم أعزة ذوي أسرة لم تغن عنها جنودها
وأسورة كانوا ملوكاً فأصبحت أحاديث شيء قد أرقت حدودها
وإنك في أمر العشيرة كلها للابس أثواب العقوق جديدها
تهين ذوي الأحساب منهم وتصطفي لئامهم إذ كان ذاك بعيدها
رأيت ذوي الأحساب عاصت حدودهم لذاك وفات للئام حدودها

قال : فقال له يزيد بن المهلب : يا ثابت ! فإني أعتبكم من كل ما كرهتم وأكون لكم من الأمر بحيث ما أحببتم إن شاء الله .

قال : وبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فأحب أن يعزل يزيد بن المهلب عن خراسان فلم يقدر عليه ، وكان الحجاج قد أذل أهل العراق بأجمعهم من البصرة والكوفة إلّا يزيد بن المهلب وأهل بيته ، فإنه لم يقدر عليهم حيلة واحدة لميل عبد الملك إليهم ، وأخرى لامتناعهم بخراسان . قال : فرأى الحجاج أن يتزوج إليهم ، فتزوج لأخت يزيد بن المهلب وكان لها مال وشرف وكمال ، فزفت إليه من البصرة إلى واسط العراق . قال : وبلغ ذلك يزيد بن المهلب فكأنه أحس بالشر من قبل الحجاج . قال : وجعل الحجاج يكتب إليه ويأمره أن ينصرف من خراسان إلى ما قبله ، ويزيد يعتل عليه بحروب خراسان ، حتى إذا كان في آخر خلافة عبد الملك بن مروان[1] دعا الحجاج بالمفضل بن المهلب فولى الري وما والاه من البلاد . ثم كتب إلى أخيه : إني وليت أخاك المفضل الري وقد أمرته أن يتسلم خراسان منك فيكون خليفة لك بها إلى أن تنصرف إليها ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فسلم العمل إلى

---

(١) وكان ذلك في سنة ٨٥ .

أخيك المفضل واقدم إليّ ، فإني احتجت إلى مناظرتك في أمر مهم والحظ فيه لك ـ والسلام ـ .

فلما ورد هذا الكتاب على يزيد دعا برجل من أجلاء عرب خراسان يقال له حضين[1] بن المنذر الربعي ، فقال : يا حضين[2] ! إنه قد كثرت علي كتب الحجاج يأمرني بالمصير إلى ما قبله ، وهذا أخي المفضل قد نزل الري وقد أمرني الحجاج أن أسلم إليه أمور خراسان ، فهات ما عندك من الرأي ، فقال له حضين بن المنذر : لا والله أيها الأمير ! ما أشير عليك بالمصير إلى الحجاج ، لأني أخاف عليك الحبس والغرم ، ولعله أن يقتلك ولا يبالي ، ولعله إنما ولى أخاك المفضل الري ونواحيها مكيدة لك حتى تقع في يده ، فاتق الله في نفسك وأقم بموضعك هذا فإنه خير لك ، واعتلّ على الحجاج بحروب الترك والسغد فإنه يكف عنك ، فإن هو فعل وإلّا فاخرج عليه وحاربه وتمسك بما في يدك من بلاد خراسان ، فإنك إن حاربته أعانك الناس عليه لبغضهم إياه وكراهتهم لولايته . قال فقال له يزيد : ويلك يا حضين ! أما قولك بأنه يحبسني ويغرمني فإني ما لا أشك في هذا ، وأما أن يقدم عليٍّ بالقتل فما أظنه يروم ذلك وأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان حي ، لأنه قد علم بأني وأبي وأهل بيتي من صنائع أمير المؤمنين ، وبعد فإنا أهل بيت قد بورك لنا في الطاعة ، فنحن نكره القطيعة ، وقد كان أبي أوصاني قبل ذلك وأوصى إخوتي أن لا نخرج أيدينا من الطاعة ولا نفارق الجماعة[3] ، ولا بد لي من المصير إلى الحجاج على أيّ الأحوال . قال : ثم تجهز يزيد بن المهلب وخرج من بلاد خراسان في غلمانه ومواليه وبني عمه ، وسار يريد العراق حتى صار إلى الري ونزلها ، فقدم أخوه المفضل إلى خراسان[4] .

قال : وبلغ الحجاج أن يزيد بن المهلب قد صار [فدعا قتيبة بن مسلم][5] فعقد له عقداً وضم إليه جيشاً وولاه خراسان ، وقال له : سر وانزل همدان ولا تعلم

---

(١) عن الطبري ٦/٣٩٥ وبالأصل : حصين .

(٢)، بالأصل : « حصين » وقد صحح في كل مواضع الخبر .

(٣) انظر ـ فيما سبق ـ وصية المهلب لأولاده قبيل موته .

(٤) في الطبري إشارة إلى تأخر يزيد بن المهلب بتلبية نداء الحجاج له ، وإلى أن خلافاً وقع بين يزيد وأخيه المفضل الذي عينه الحجاج ، وكان رأي يزيد أن الحجاج سيعزل المفضل بمجرد خروج يزيد عنها ، وهذا ما حصل . (٦/٣٩٥) .

(٥) زيادة لاستقامة المعنى .

أحداً أنك متوجه إلى خراسان ، ولكن ألق الخبر إلى الناس أنك على عمل الماهين ، فإذا علمت أن يزيد بن المهلب قد توجه إلى ما قبلي فسر أنت إلى خراسان وخذ المفضل بن المهلب ومن قدرت عليه من آل المهلب واحملهم إليّ ، وانزل خراسان فجاهد الكفار الذين بها من الترك والسغد والرقس[1] ، وكن بها إلى أن يأتيك أمري إن شاء الله ولا قوة إلا بالله . قال : فخرج قتيبة بن مسلم حتى نزل همدان ، ورحل يزيد بن المهلب من الري فصار إلى همدان وبها قتيبة بن مسلم ، [فخرج] من همدان حتى وافى الري ، وصار يزيد بن المهلب إلى حلوان ونزل الموت بعبد الملك بن مروان .

ذكر موت عبد الملك بن مروان ووصيته عند موته إلى أولاده

قال : فلما نزل الموت بعبد الملك بن مروان دعا بأولاده وجلسائه فأجلسهم بين يديه ثم قال : يا بني ! أوصيكم بتقوى الله ، فإن التقوى أزين حلية وأحسن حلة[2] ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير منكم حق الكبير ؛ وإياكم والاختلاف والفرقة ! فإن بهما هلك الملوك الماضين وذوي[3] العز المتكبرين ؛ وانظروا ابني مسلمة حفظه الله إذا قدم من أرض الروم ، فاعرفوا له حق الجهاد في سبيل الله ؛ وكذلك فاعرفوا لأخي محمد بن مروان حقه وسنه ؛ وأكرموا الحجاج بن يوسف فإنه وطأ لكم البلاد ، وأذل لكم العباد ، وعقد لكم القناطر ، وداس لكم رقاب العرب ، وكفاكم المؤن وشدة الفتن ؛ وانظروا يا بني أن تكونوا بني أم برة ، لا تدبّ العقارب بينكم ، وكونوا في الحرب أعواناً وعلى المعروف إخواناً ، وضعوا ذخائركم عند ذوي الميراث منكم ، فإنها أصون لأحسابكم ، واشكروا لما يسدى إليكم ؛ وكونوا ذوي حلاوة في مرارة ، ولين في شدة ؛ ألا ! وإني قد استخلفت عليكم ابني الوليد من بعدي ، فاسمعوا وأطيعوا ؛ وإذا هلك فابني

---

(١) كذا ولم نقف عليها .

(٢) في الكامل لابن الأثير ٣/١٨١ « وأحصن كهف » وفي مروج الذهب ٣/١٩٧ فإنها عصمة باقية وجنة واقية فالتقوى خير زاد وأفضل في المعاد وهي أحصن كهف .

(٣) بالأصل : ذو .

سليمان ، فإذا هلك فاختاروا من شئتم وأحببتم من أولادي أو من خيار بني أمية[1] ؛ ثم أنشأ يقول[2] :

انفوا الضغائن والتخاذل بينكم ... في الغائبين وفي الحضور الشهدِ[3]
بصلاح ذات البين طول بقائكم ... إن مدّ في عمري وإن لم يمدد
حتى تلين قلوبكم وجلودكم ... لمسود منكم وغير مسود
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم ... بتواصل وتراحم وتوددِ
وتكون أيديكم معاً في أمركم ... ليس اليدان في التعاون كاليد
لا تقطعوا أرحامكم فتفرقوا ... ليس الجميع كواحد متفرد
إن القداح إذا جمعن فرامها ... بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم توهن وإن هي بددت ... فالوهن والتضييع للمتبدد

قال : فأجابه الوليد وهو يقول :

إني لما أوصيتنيه لحافظ ... أرعاه غير مقصر في المحتدِ
وأكون للأعداء سماً ناقعاً ... ولذي القرابة كالحميد الأيد
ولكل إخواني وجل عشيرتي ... أرعى المغيب في حفظهم في المشهد
وأقوم بعدك في الرعية بالذي ... أوصيتني بهم بحسن تودد

قال : فقال له عبد الملك : أحسنت يا بني ! وأرجو أن تكون عند ظني بك ، فانظر يا بني من مال عنك برأسه هكذا فكن كما قال حسان بن ثابت :

بنو الحرب لا نعيى بشيء نريده ... ولا نحن مما يحدث الدهر نجزعُ
لنا ميت في كل يوم فلا نرى ... لنا مقلة في سالف الدهر تدمع

قال : ثم جعل عبد الملك بن مروان يردد هذا البيت وهو يقول :

فهل من خالد إن نحن متنا ... وهل بالموت للأحياء عار[4]

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٣/١٨١ ومروج الذهب ٣/١٨١ والأخبار الطوال ص ٣٢٥ .
(٢) الأبيات في مروج الذهب ٣/٢٠٣ .
(٣) البيت في مروج الذهب :

اتقوا الضغائن عنكم وعليكم ... عند المغيب وفي حضور المشهد

(٤) روايته في البداية والنهاية ٩/٨٢ :

قال : ثم رفع صوته وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ! وفارق الدنيا ، فكانت خلافته ثلاث عشرة سنة وستة أشهر ـ والله أعلم ـ[1] .

قال : وصار الأمر من بعده إلى ابنه الوليد ، ويلغ ذلك يزيد بن المهلب فاغتم غماً شديداً وعلم أن الحجاج قد خدعه وأخرجه من خراسان وولى قتيبة بن مسلم ، فجعل يقول لمن معه : إن الحجاج بن يوسف لم يكن ليقدم علينا بسوء وأمير المؤمنين حي ، والوليد لا يعرف حقنا ما كان أبوه يعرفه لنا من قبل .

قال : وبلغ المفضل[2] بن المهلب أن قتيبة بن مسلم قد ولي خراسان فكأنه اتقى على نفسه أمراً من الأمور ، فخرج عن خراسان هارباً حتى لحق بالبصرة فنزلها عند أخيه مروان بن المهلب .

قال : وسار يزيد بن المهلب نحو العراق وهو في ذلك مغموم لا يدري كيف يقع من الحجاج ، حتى إذا تقارب من أرض واسط أمر الحجاج باستقباله ، فاستقبله الناس بالكرامة والبر حتى دخل على الحجاج فأكرمه وبره وأنزله وخلع عليه ، فكان يزيد يغدو على الحجاج ويروح والحجاج لا يسأله عن شيء .

ذكر دخول قتيبة إلى خراسان أميراً عليها
ثم نرجع إلى خبر يزيد بن المهلب

قال : ودخل قتيبة بن مسلم بلاد خراسان فنزل مدينة مرو ، فلم يكن بخراسان قيسي إلا استبشر بولايته ولا يماني إلا كره ذلك . قال : وجعل قتيبة يأخذ كل من كان يهوى إلى المهلب يحبسهم ويعذبهم ويطلب منهم الأموال ظلماً وعدواناً ، فأنشأ رجل من أهل خراسان يقول :

أبا خالد ضاعت خراسان بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فلا مطر المروان بعدك قطرة ... ولا اخضر فيها بعد عزلك عود

= فهل من خالد إما هلكنا ... وهل بالموت للباقين غار

(١) انظر في مقدار خلافته وعمره ويوم موته الطبري ٤١٨/٦ البداية والنهاية ٨٣/٩ مروج الذهب ١٠٩/٣ .

(٢) الأصل : الفضل .

ينقّص من دهري عظيم فقصرت لنا في الأمور النائبات حدود
شددت لها أزري وأيقنت أنها جدود علت من فوقهن جدود
لعل الذي ولّى وكان ربيعنا تردده أيامه فيعودُ

قال : وكان الفرزدق بن غالب أيضاً ممن يكره ولاية قتيبة بن مسلم وهو الذي يقول :

بكت جزعاً مروا خراسان إن رأت بها باهلياً بعد آل المهلبِ
تبدلت الحول القصار أنوفها بكل فنيق[1] يحمل السيف أغلب
أغر كأن البدر تحت ثيابه نجيب إلى الأم النجيبة والأب
فوارس ضرابون والخيل تلتقي عليها غبيط من دم متصبب

وقال أيضاً نهار بن توسعة الشاعر في ذلك :

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوحُ
فبدلت بعده قرداً يطيف به كأنما وجهه بالخل منضوح

قال : فلما استقر قتيبة بن مسلم بخراسان أقبل رجل من عبد القيس يقال له تمامة بن القعقاع حتى دخل على قتيبة فقال : أصلح الأمير ! أتأذن لي في الكلام وأنا آمن ؟ قال قتيبة : ومن أنت ؟ قال ، أنا رجل من ربيعة من عبد القيس وأنا أحد بني لكيز ، فقال : قل ما تشاء وأنت آمن ؛ فأنشأ العبقسي يقول :

تعلم أبا حفص بأنا رعية وأنك راع فانظرن كيف تصنعُ
وإنا أناس أهل فخر ونجدة على حدثان الدهر لا نتضعضع
وأنت أمير والأمير مسلط يضر إذا ما شاء يوماً وينفع
فإن لعبد القيس جأواء فحمة ترى الموت في حافاتها الدهر يلمع
وفتيان صدق من لكيز كأنهم أسود فمنها[2] حاسر ومقنع
إذا الملك الجبار لم يعط حقهم مشى نحوه منهم همام سميدع
فحلله عطباً إذا مس أعظماً يرى وحواليه ذئاب وأضبع
إذا الذئب ولّى عامراً عاد شلوه جامع تستهوى إليه وتجمع

---

(١) الأصل : فسق .

(٢) الأصل : منها .

فإن تعطنا نصفاً وتكرم سراتنا | تجدنا إلى ما شئت نسعى ونخضع
ويأتيك منا عصبة عبقسية | لباسهم ما حاك كسرى وتبّع
همُ يردون الموت دونك محسراً | رماحهم دون الأعادي شرع
وقد علمت قيس بن غيلان أننا | كرام يماناً ومع الرب أروع
أبونا الذي لم يعط يوماً دنيّة | ومات وريب الدهر بالناس يجمع

قال : فقال له قتيبة : أفرغت من شعرك ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير ! فقال : أما والله لولا ما أعطيتكم من الأمان لأخرجت لسانك من قفاك ! اخرج من بين يدي عليك لعنة الله وعلى من جرأك على مثل هذا الكلام . ثم قال قتيبة : يا أهل خراسان ! احذروا أن يصيبكم مني فاقرة فإنه ليس بعد السوط إلا السيف . قال : فتقدم إليه رجل من رؤساء أهل خراسان وشعرائها يقال له حنظلة بن عرادة التميمي فأنشأ يقول :

أتيت خراسان ابن عمرو وأهلها | حيارى ونار بينهم تتحرقُ
فأطفأتها والعدل منك سنجية | وأنت لعمري للسداد موفق
فمرنا أبا حفص بما شئت إننا | إلى كل ما تهوى نخبّ ونسبق
فأنت لنا راع ونحن رعية | وكفاك بالإحسان فينا تدفّق
فلا تأخذنّا يا قتيبة بما مضى | من الجهل إن الحر يعفو ويرفق

قال : فسكن غضب قتيبة وأمر لقائل هذه الأبيات بجائزة ، وقر قراره بمدينة مرو مجاهداً للترك والسغد والبرقس[1] .

رجعنا إلى خبر يزيد بن المهلب والحجاج بن يوسف

قال : ثم دعا الحجاج بيزيد بن المهلب فطالبه بأموال خراسان وأخرج عليه أشياء لم يكن يزيد يعرفها حتى طالبه بسبعة آلاف ألف درهم ، فأنكر يزيد ذلك ، فدعا له الحجاج بالدهق فوضع على ساقيه ، فلما مسه ألم الدهق رفع صوته فصاح ، وسمعت أخته هند[2] صوت أخيها فصاحت ورفعت صوتها بالصراخ ، ووثب الحجاج فدخل إليها فقال : تصيحين : يا هند وترفعين صوتك بالصراخ وأخوك قد كسر أموال

(١) كذا ، وقد مرّ قريباً : الرقس ، ولم نعثر عليهما .
(٢) كان الحجاج قد تزوج أخت يزيد بن المهلب هند ، وقد مرّ هذا قريباً .

خراسان على أمير المؤمنين ! أنت طالق إن صحت بعدها ، قال : فرفعت صوتها صائحة ، فقال الحجاج : وأنت طالق إن صحت بعدها ! فرفعت لا والله أو ثلاث ! فطلقها ثلاثاً فبانت منه ، ثم ندم بعد ذلك أشد الندامة وأمر بيزيد إلى السجن وضيق عليه وجعل يستأديه الشيء بعد الشيء حتى استأداه أربعة آلاف ألف درهم وبقيت عليه ثلاثة آلاف ألف[1] ، ولم يقدر يزيد على أن يؤدي لك ، وأيس الحجاج أن يستأديه أكثر من ذلك .

ذكر هرب يزيد من السجن إلى بلاد الشام واتصاله بسليمان بن عبد الملك

قال : وكان يزيد بن المهلب مكرماً للسجان وجميع من في السجن ، وكان له مع ذلك طباخ وموائد منصوبة ، فلم يزل كذلك حتى استمال قلوب أهل السجن ؛ ثم إنه كتب إلى أخيه مروان بن المهلب ومن بالبصرة من إخوته وأهل بيته ومواليه فأمرهم أن يكونوا على أهبة الهرب . قال : ثم إنه كان يدعو بالسجان في كل وقت فيبره ويخلع عليه ويعده من نفسه بالجميل ، والسجان يجيبه إلى ذلك ويمايله حتى بذل له يزيد ألف دينار على أن يعمل في خلاصه ، فأجابه السجان إلى ذلك ، ثم إنه وعده أن يهرب معه في ليلة كذا وكذا[2] . فلما كانت تلك الليلة قعد السجان على باب السجن ، ثم بعث إلى منزله فأتى بشراب فجعل يشرب ويسقي أعوانه ومن يلوذ به حتى أسكرهم ومضى من الليل بعضه ، ثم بعث إلى يزيد بن المهلب أن قم فهذا وقتك ، قال : فوثب يزيد ثم دعا بثياب طباخه فلبسها وغطى رأسه[3] وخرج من باب السجن ولم يمنعه مانع ، فلما مر على السجان وأعوانه نظروا إليه فقالوا للسجان : ما أشبه مشية هذا بمشية يزيد بن المهلب ، فضحك السجان ثم قال : أخطأتم ، هذا طباخ يزيد بن المهلب .

قال : ومضى يزيد بن المهلب حتى صار إلى شاطىء دجلة ، وذلك في جوف الليل ، لم يعرف ذلك الزورق من كثرة الزوارق ، قال : وإذا بالسجان قد انسلّ من بين أصحابه وأقبل إلى شاطىء الدجلة فنظر إلى يزيد هنالك قائماً فأخذ بيده وأقبل به

---

(١) في الطبري ٤٤٨/٦ أغرمه ستة آلاف ألف .

(٢) انظر رواية هربه في الطبري ٤٤٩/٦ وابن الأثير ١٩٩/٣ .

(٣) في الطبري : ووضع على لحيته لحية بيضاء .

حتى قعدا جميعاً في الزورق ، ثم قال السجان للملاح : ادفع ولا تقف ، فدفع الملاح زورقه وذلك في أوان المد وزيادة الماء ، فلم يصبح القوم إلا وهم على البطائح[1] ، فعدا لهم الملاح عن البطائح حتى خرج بهم إلى الشط . ثم دعا يزيد برجلين من تلك الناحية وكتب معهما كتاباً إلى البصرة إلى إخوته وبني عمه ومواليه وأمرهم أن يلحقوا به ، قال : وأقبلت إليه الخيل حتى وافته في موضعه ذلك[2] . قال : فركب يزيد وركب معه إخوته وبنو عمه ومواليه وركب معه السجان أيضاً ، وسار في جميع من معه يؤم الشام وقد أمن الحجاج .

قال : وأصبح الحجاج فاتصل به الخبر ، وطلب السجان فلم يقدر عليه وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وخاف أن يكون قد رجع إلى خراسان ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم أن كن على حذر فإن يزيد بن المهلب قد هرب من سجني ولا أدري أين توجه وأخاف أن يفسد عليك خراسان إن دخلها . قال : ومر يزيد ومن معه يؤم أرض الشام وهو لا يعرف الطريق . قال : فبينا هو كذلك إذ مر برجل من العرب راكب فرس له قد عارضه ، فلما نظر إليه يزيد أمره بالوقوف ، فقال له يزيد : ممن الرجل ؟ قال : رجل من اليمن ، قال : حياك وقربك ! من أين أنت ؟ قال : من أهل هذا البلد ، قال : وأين لك الأهل ؟ قال : في حي كذا وكذا ، قال : وتخبر الطريق إلى أرض الشام ؟ قال : أنا من أخبر الناس بالطريق ، قال : فما اسمك ؟ قال : عبد الرحمن بن عاصم[3] ، قال : يا عبد الرحمن ! هل لك أن تكون دليلاً إلى أرض الشام إلى أرض فلسطين ، ولك عشرة آلاف درهم ، وأحملك وأخلع عليك ؟ فقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل ما شددت إزاري منذ عقلت العقل إلاّ وأنا أمير وأخو أمير ، وربما كنت أسيراً ؛ قال فقال له الرجل : فأنت إذاً يزيد بن المهلب ! قال : أنا يزيد بن المهلب ، وإنما هربت من سجن الحجاج أريد ابن عم لي بأرض فلسطين يقال له زهرة[4] بن عبد الرحمن الأزدي وأحببت بأن أكون في ناحية ويكون هو الذي يأخذ لي الأمان من القوم ، فقال عبد الرحمن بن عاصم هذا : أيها الأمير ! فأنا أوردك إلى أرض فلسطين من موضعك هذا في سبع ليال ، أسير بك ليلاً وأنزل بك نهاراً .

---

(١) وكان بينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخاً .

(٢) في الطبري في موقع يقال له « موقوع » وهو ماء بناحية البصرة .

(٣) في الطبري ٦/٤٤٩ عبد الجبار بن يزيد بن الربعة ، من كلب .

(٤) في الطبري : « وهيب » وكان كريماً على سليمان .

قال يزيد : الله أكبر فسر بنا ، قال : فسار الدليل بين يدي يزيد فكان يسير به ليلاً وينزل به نهاراً ، ولا يصبح به إلا على ماء من مياه العرب ، حتى إذا تقارب من أرض الشام ونظر إلى قصور الشام [و] فلسطين أدركهم الماء ذات ليلة ساروا وهم لا يشكون أنهم يصبحون في الموضع الذي يريدونه ، حتى كان قبيل الصبح صاح يزيد بالدليل : ويحك يا عبد الرحمن ! إني أرى النعاس قد غلبنا فكم بيننا وبين الموضع ؟ قال : ثلاثة أميال ، قال : فانزل بنا حتى نرقد في ليلتنا هذه فقد أضر بي السهر ! قال : فعدل به الدليل إلى قصر هنالك في البرية فأنزله قريباً من باب القصر ، فنزل يزيد ونزل من كان معه ، ونام القوم فلم ينتبهوا إلا والشمس على ظهورهم ، فاستيقظ القوم وعلموا أنه قد فاتهم الصلاة فنظروا إلى ساقية هنالك فتوضأوا منه وصلوا ؛ وأشرفت امرأة من القصر ومعها جارية لها مملوكة فنظرت الجارية إلى يزيد بن المهلب فقالت لمولاتها : ما أشبه هذا الرجل بيزيد بن المهلب ! فقالت لها مولاتها : أوتعرفين يزيد بن المهلب؟ فقالت : وكيف لا أعرفه وقد كنت لبعض مواليه . قال : فرفع يزيد رأسه إليها وهو متلثم ، قال : أيتها الجارية ! ما اسمك ؟ قالت : فلانة ، قال : فلمن هذا القصر ؟ قالت : هذا قصر زينب بنت يوسف أخت الحجاج امرأة أبي عقيل الثقفي ، فقال يزيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ما يفارقنا الحجاج حيث ما ذهبنا ، ثم قال للدليل : ارحل بنا ويحك ! قال : فرحل القوم حتى دخلوا أرض فلسطين .

ثم صار يزيد إلى زهرة[1] بن عبد الرحمن الأزدي ، فنزل عليه وحدثه بقصته مع الحجاج وقال : أسألك أن تسير الآن إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان فتأخذ لي منه الأمان حتى أكون في ناحيته ، فلا يقدم على أمير المؤمنين ، ولا أخاف صولة الحجاج . قال : فركب زهرة بن عبد الرحمن إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان فخبره بقصة يزيد وسأله أن يكون في ناحيته حتى يأخذ له الأمان من الوليد بن عبد الملك . قال : فآمنه سليمان ، فصار إليه يزيد فقربه وأدناه وخلع عليه وأقام عنده مدة مديدة .

وبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى الوليد بن عبد الملك كتاباً : أما بعد يا أمير المؤمنين فإن يزيد بن المهلب قد كان تغلب على بلاد خراسان فجبى أموالها ، وأني بعثت إليه فأشخصته إلى ما قبلي فطالبته بسبعة آلاف ألف درهم ، فأنكر ذلك

---

(١) في الطبري : وهيب .

فحبسته ، وأنه هرب من سجني وصار إلى أرض الشام ، ثم إنه قد اتصل الآن بأخي أمير المؤمنين وولي العهد سليمان بن عبد الملك ، وأمير المؤمنين أعلى عيناً ـ والسلام ـ .

قال : فلما ورد كتاب الحجاج على الوليد بن عبد الملك كتب إلى أخيه سليمان بذلك ، فكتب إليه : أما بعد يا أمير المؤمنين إنما أجرت يزيد بن المهلب لأنه وأباه وإخوته من صنعائنا قديماً وحديثاً ، ولم أجر عدواً لأمير المؤمنين ، وقد كان الحجاج عذبه في حبسه وأرهقه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً وعدواناً ، ثم طالبه بعد ذلك بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد صار هذا الرجل إليّ مستجيراً فأجرته ، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم ، فإن رأى أمير المؤمنين أيده الله أن[1] لا يخزيني في ضيفي فعل منعماً إن شاء الله .

قال : فكتب إليه الوليد أنه لا بد من أن توجه به إليّ ! قال : فعاوده سليمان في ذلك ، فأبى الوليد ذلك وقال : والله لتوجهن به إليّ مكبلاً مغلولاً . فلما ورد الكتاب على سليمان بن عبد الملك دعا بابنه أيوب فقيده ، ثم دعا بيزيد فقيده ، ثم شد يد هذا مع هذا بسلسلة وغلهما جميعاً بغلين وحملهما إلى الوليد بن عبد الملك وكتب إليه : أما بعد يا أمير المؤمنين فإني قد وجهت إليك بيزيد بن المهلب فابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانياً واجعلني إذا شئت ثالثاً ـ والسلام ـ[2] . قال : فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة مع يزيد استحيى لذلك ثم قال : قد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ . قال : وذهب يزيد بن المهلب ليتكلم ويحتج عن نفسه فقال له الوليد : اسكت فقد قبلنا عذرك وعرفنا ظلم الحجاج . ثم قال : يا غلام ! عليّ بالحداد ، فدعا بالحداد وأطلق عنهما جميعاً ووصل أيوب بن سليمان بثلاثين ألف درهم وردهما إلى سليمان . ثم كتب إلى الحجاج : أما بعد فإنه لا سبيل لك على يزيد بن المهلب ، فانظر لا تعاودني بعد هذا اليوم ـ والسلام ـ . قال : فصار يزيد بن المهلب ، عند سليمان بن عبد الملك بن مروان في أفضل المراتب وأعلى المنازل .

---

(١) الطبري ٦/٤٥١. فأنشدك الله أن تفضحني ولا أن تخفرني .

(٢) نص كتاب سليمان إلى الوليد في الطبري ٦/٤٥١ ـ ٤٥٢ .

ثم رجعنا إلى خبر قتيبة بن مسلم وسنرجع إلى خبر يزيد بعد إن شاء الله تعالى

قال : واستولى قتيبة على خراسان ودان له الناس بالسمع والطاعة ، فلم يكن بخراسان أحد يتقى من ناحيته إلا رجلان : أحدهما يقال له نيزك[1] البرقشي ، وكان تركياً غير أنه أسلم على يدي بعض ولاة خراسان وكان مع ذلك شريراً غداراً ؛ والآخر عثمان بن مسعود التميمي ، وكان أيضاً شريراً قتالاً وكان متزوجاً إلى الترك ، وهو الذي قتل موسى بن عبد الله بن خازم السلمي من قبل . قال : فاتقى قتيبة بن مسلم من هذين الرجلين ، غير أن نيزك[1] البرقشي قدم على قتيبة فصالحه[2] عن أرضه وبلاده وصار معه وناصحه ؛ وأما عثمان بن مسعود فكأنه تأبى عليَّ قتيبة أن يصير إليه . قال : وجعل قتيبة يكتب إليه ويلطفه في كتبه ويختدعه بالهدايا ، فلم يزل كذلك حتى صار إليه فقربه قتيبة وأدنى مجلسه وألطفه . قال : ودخل المجشر[3] بن مزاحم السلمي على قتيبة مسلماً ، فنظر إلى عثمان بن مسعود جالساً عن يمينه ، فأحب أن يحرضه عليه فقال : أبا عمرو ! وما فعل موسى بن عبد الله بن خازم السلمي؟ فقال عثمان : أعن ابن عمتك تسألني؟ فقال : نعم ، عنه أسألك ، قال : استودعته نهر بلخ ، وأيم الله لو كنت حاضراً في ذلك الوقت لألحقتك به ! قال : فعلم قتيبة بن مسلم أن الرجل قتال سفاك للدماء ، فقال له : أبا عمرو ! إن الأمير الحجاج بن يوسف قد كتب إليَّ فيك يأمرني بإزعاجك إلى ما قبله ، فسر إليه فإنه قد علم حسن بلائك وما كان من نكايتك في العدو ، فإنه يحب أن يراك ويكافئك على ذلك ويبلغ بك ما أنت أهله في طاعتك وأثرك . فقال له ابن مسعود : نعم أيها الأمير ! ولكني انصرف فأتأهب لذلك ، فقال قتيبة : وذاك لك . قال فقال المجشر[4] بن مزاحم : أيها الأمير ! إن صار إلى منزله لم يرجع إليك أبداً ، ولم تره إلا في الخيل والكتائب ، فإن بني تميم يحمونه ، وله في الناس صنائع ليس لأحد مثلها ؛ فقال له قتيبة بن مسلم : وما هذه الصنائع التي له عند الناس؟ قال : فوثب عثمان بن مسعود وخرج فلم يحب أن يسمع ذلك ، فقال قتيبة : ويحك ! فما هذه الصنائع ؟ فإنه قد

---

(١) عن الطبري ٤٢٨/٦ وبالأصل تيرل . وفي الطبري : نيزك طرخان .

(٢) وكان ذلك في سنة ٨٧ هـ .

(٣) عن الطبري ٤٧٢/٦ وفي نسخة المجسر . وبالأصل المحسن .

(٤) الأصل : المحسن .

وثب ولم يحب أن يسمعها ، فقال من حضر : أيها الأمير ! إنه أهديت إليه جارية حسناء وعنده قوم من بني عمه فأراد أن يدفعها إلى رجل منهم ثم قال : إن هذا لقبيح أن أدفعها لرجل وأترك الباقين ! وكانوا ثمانين إنساناً فأمر لكل واحد منهم بجارية ووصيف ، وله مثل ذلك كثير في الناس أيها الأمير ! قال : فقال قتيبة : ردوه ، فلما ردوه إلى قتيبة أمر به فقيد ، ثم حمله على البريد ووجه به إلى الحجاج وكتب إليه : أيها الأمير ! اكفني عثمان بن مسعود أضبط لك خراسان إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال : وأدخل عثمان بن مسعود على الحجاج فنظر إلى رجل بهي جميل تام من الرجال ، فتأمله الحجاج ساعة ثم أمر به فقيد بقيد ثقيل ، ثم دعا به بعد ذلك بأيام فدخل على الحجاج وهو يحجل في قيده وذلك كأن ليس في رجله شيء ، فقال له الحجاج : ارتفع ! قال : فطفر [ابن] مسعود طفرة بقيده فاستوى مع الحجاج على سريره ، فقال الحجاج : ما كنت أظن أن أحداً يقدر هذا ، فقال عثمان : أيها الأمير ! إن السلاح أثقل من هذا القيد وأنا أثب على الفرس ومعي سلاحي ، فقال الحجاج : إني لم آمرك أن ترتفع معي على سريري ، إنما أمرتك أن ترتفع في المجلس ؛ ثم أمر به الحجاج إلى السجن ثانية وأمر أن يزاد في حديده . قال : ثم جعل يستأديه[1] حتى أخذ منه مالاً عظيماً ، ثم لا يدرى ما فعل به الحجاج بعد ذلك ـ والله أعلم ـ .

ذكر مغازي قتيبة بن مسلم بخراسان

قال : وعزم قتيبة على الغزو ، فقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[2] : أيها الناس ! إن الله عزّ وجلّ وإنما أحلكم هذا المحل ليعزبكم دينه ولتذبوا عن حرمات المسلمين ، وقد أمركم بالصبر ووعدكم النصر ، ووعد المجاهدين منكم في سبيله أفضل الثواب وأعظم الذخر ، فتنجزوا موعد[3] ربكم ووطنوا أنفسكم على مضض الألم ، وإياكم والهوينا والفشل ـ والسلام ـ . قال : فاستخلف على مدينة مرو[4] وخرج يريد بخارستان ، حتى إذا صار بالطالقان[5] أقبل إليه دهاقين بلخ فعبروا

---

(١) بالأصل : يستأدنه .

(٢) الطبري ٦/٤٢٤ .

(٣) الطبري : موعود ربكم .

(٤) الطبري : استخلف بمرو على حربها إياس بن عبد الله بن عمرو وعلى الخراج عثمان بن السعدي .

(٥) عن الطبري ٦/٤٢٨ وبالأصل : بالطقان .

معه النهر ، ثم سار قتيبة بن مسلم في عسكر لجب حتى صار إلى بخارستان فنزل عليها ، وخرج إليه ملكها فصالحه وأعطاه الرضىٰ وأخذ منه قتيبة الرهائن .

ثم سار يريد بيكند[1] مدينة من أداني بخارا وبها يومئذ خلق كثير من الترك والسغد والبرقس[2] . قال : فسار إليهم قتيبة حتى نزل بساحتهم ونظر إلى عساكرهم ، فلما أصبح وثب فعبى أصحابه ميامن ومياسر وقلباً وجناحاً وكميناً ، ثم زحف بهم إلى الكفار .

قال : وقد كان قتيبة وجه إلى الكفار بجاسوس يقال له تنذر[3] ليأتيه بأخبارهم ، قال : وعلمت به الترك فأخذوه وأتوا به إلى ملكهم خاقان ، فقالوا : أيها الملك ! هذا رجل منا وهو عين لقتيبة بن مسلم علينا فمرنا فيه بأمرك ، قال فقال له خاقان : ويحك يا تنذر ! أنت رجل منا فما الذي يحملك على أن تكون عيناً لقتيبة علينا ؟ فقال تنذر : أيها الملك ! إن الرجل لمحسن إليّ جداً ، ولكن لك عليّ أن أرده عنك مع جيشه هذا الذي أتاك به ، قال فقال له خاقان : إن فعلت ذلك يا تنذر فلك عندي عشرة آلاف درهم وغلام وجارية ، وإن أنت مضيت ولم تفعل ذلك ثم وقعت في يدي ضربت عنقك ؟ قال تنذر : كفيت أيها الملك ! ذرني وقتيبة . قال : ثم رجع تنذر إلى قتيبة فتقدم إليه سراً من أصحابه فقال له : أيها الأمير ! إنه قد غرك الحجاج وألقاك إلى التهلكة ، وهذا عامل يقدم عليك من قبل الوليد بن عبد الملك ، فلا تحارب هؤلاء القوم في يومك هذا فإنك لا تدري كيف يكون الأمر بينك وبينهم ! قال : فتبسم قتيبة من ذلك ثم قال : يا عدو الله ! وما الذي أتاك بهذا الخبر دوني ، أهذا شيء دبرته على أن أصرف جيشي هذا عن الترك في يومي هذا ؛ قال : ثم قدمه قتيبة فضرب عنقه صبراً[4] . فرأى المسلمون قد راعهم ما فعل قتيبة بجاسوسه هذا ، فقال قتيبة : أيها الناس! ما لي أراكم قد راعكم قتل تنذر هذا عبد أحانه الله وقد كنت أظنه ناصحاً للمسلمين [بل كان][5] غاشاً لهم ، فذروا عنكم ما كان مني إلى تنذر ، وعليكم بجهاد عدوّكم .

---

(١) بيكند : بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى .

(٢) كذا .

(٣) عن الطبري ٦/ ٤٣٠ وفي نسخة تيذر وبالأصل غير منقوط « سدر » وقد صحح في كل مواضع الخبر .

(٤) انظر الطبري ٦/ ٤٣٠ وابن الأثير ٣/ ١٨٧ .

(٥) زيادة عن الطبري .

قال : فدنا القوم بعضهم من بعض ، وتقدم خاقان ملك الترك وهياطلتهم . قال : فالتفت قتيبة إلى رجل من أصحابه يقال له وكيع بن أبي سود التميمي ، فقال : يا وكيع ! كم تقدر هؤلاء الكفار يكونوا ؟ فقال : أيها الأمير ! أقدر أنهم يزيدون على ثمانين ألفاً ، فقال قتيبة : صدقت ، قد خبرت أنهم سبعة وثمانون ألفاً ولكن ما عندك الآن فيهم ؟ فقال وكيع : أيها الأمير ! عندي كل ما تحبه مني ، فقال قتيبة : أحسنت ، ولكن لا تعجل بالحملة حتى أنظر ما يكون . قال : ثم تناوش القوم ساعة وكانت بينهم مناولة فأخذت السيوف من الكفار مأخذها فقتل منهم جماعة ثم التفت وكيع إلى قومه من بني تميم فقال : يا معشر المسلمين ! انظروا من كان منكم يريد الموت فليتبعني ، وكان كارهاً فليثبت في مكانه . قال : فأجابته بنو تميم بأحسن الجواب ، فتقدم وكيع في زهاء عشرة آلاف من بني تميم ومواليهم ، وساعدتهم بنو بكر بن وائل ، وقصرت عنهم قبائل العرب من اليمن حسداً منهم لهم ، فلم يساعدوهم على القتال . قال : فدنت منهم الترك فاقتتلوا قتالاً شديداً ، واختلط القووم من وقت بزوغ الشمس إلى زوالها ، ثم صاح وكيع بن أبي سود بأصحابه وحمل وحملوا معه حملة منكرة ، وصدقوهم الضرب والطعن ، فولت الترك من بين أيدي المسلمين وأخذهم السيف ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانهزم الباقون أقبح الهزيمة ، فأنشأ نهار بن توسعة التميمي يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

لعمري لقد فازت تميم بذكرها وسائر أحياء العراق وقوفُ

إلى آخرها .

قال : ومضت الترك والسغد هاربين على وجوههم نحو الجبال والغياض قد ألقى الله تبارك وتعالى الخوف والرعب في قلوبهم .

ذكر غنائم بيكند وما وجد في خزائنها

قال : ودنا قتيبة من مدينة بيكند فنزل عليها ، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها بالسيف ، فقتل مقاتلتها وهدم سورها حتى وضعها بالأرض ثم جمع غنائمها ، فأخرج منها الخمس فوجه به إلى الحجاج ، وكتب إليه يخبره بفتح بيكند ، ثم قسم باقي الغنائم في المسلمين . قال : وقوي المسلمون بما أصابوا من غنائم بيكند ، وتنافسوا في شراء السلاح حتى بلغ الرمح سبعين درهماً ، وبلغ الدرع سبعمائة درهم ، وبلغت السيوف أثمانها على أقدارها ؛ قال : وجلبت إليهم الدواب من كل بلد ،

وأصاب قتيبة في خزائن بيكند سلاحاً كثيراً ، فقسمه بين المسلمين ؛ وأصاب أيضاً خزانة مقفلة فأمر بفتحها ففتحت ، فأخرج منها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى ؛ وأصابوا أيضاً في هذه الخزانة صنماً عظيماً من ذهب ، فأمر قتيبة بإذابته فأذيب فخرج منه خمسون ومائتا ألف دينار[1] . قال : وأصابوا في هذه الخزانة لؤلؤتين عظيمتين فعجب قتيبة من كبرهما وضيائهما ؛ ثم دعا بسدنة بيت النار ، فقال : خبروني كيف وقعت هاتان اللؤلؤتان إلى بلدكم هذه ؟ فقالوا : أيها الأمير ! إنا نظرنا ذات يوم إلى طائرين قد وقعا على بيت النار والأصنام فألقيا هاتين اللؤلؤتين من مناقرهما ثم طارا ؛ قال : فعجب قتيبة من ذلك ، ثم بعث بهاتين اللؤلؤتين إلى الحجاج وكتب إليه بخبرهما ، فكتب إليه الحجاج : إني قد فهمت ما ذكرت من أمر هاتين اللؤلؤتين ، وإن أعجب من أمرهما وأمر الطائرين سخاء نفسك لنا بهما أبا حفص - والسلام -[2] .

قال : وكان عامة أهل بيكند يومئذ بالصين في تجارات لهم ، فلما رجعوا نظروا إلى بيكند فطلبوا نساءهم وأولادهم ، فجعلوا يشترونهم من المسلمين بالمال الجزيل . قال : وكانت امرأة رجل منهم قد وقعت مع ابنين لها إلى رجل من المسلمين يقال له عبد الله بن سليمان الغنوي ، فطلبها زوجها وطلب أيضاً ابنيها منه ، واستام عليه الغنوي عشرة آلاف درهم ، فقال له التركي : يا هذا ! أنا أتزوج امرأة غير هذه فتلد لي في سنتين غلامين ، ولا أعطيك عشرة آلاف درهم ؛ فقال له الغنوي : ذاك إليك فاصنع ما بدا لك ، قال : فاشترى التركي امرأته وابنيه بعشرة آلاف درهم ، ثم لقي الغنوي بعد ذلك فقال له : أيها العربي ! إنك لو أبيت علي أن لا تبيعني أهلي وابني إلا بأربعمائة ألف درهم لأخذتهن وطابت نفسي به .

قال : وعمر أهل بيكند مدينتهم ثانية بإذن قتيبة ونزلوا بها على أنهم يؤدون إليه في كل سنة شيئاً معلوماً . فصالحهم على ذلك وكتب عليهم بذلك كتاباً .

قال : ثم سار قتيبة من بيكند إلى نومشكث[3] ، فلما دنا منهم خرجوا إليه فصالحوه على مال يعطونه كل سنة على أنهم يكونون في طاعته ، فقبل قتيبة ذلك

---

(1) في الطبري ٦/٤٣٢ خمسون ومائة ألف مثقال أو خمسون ألف مثقال .

(2) انظر الطبري ٦/٤٣١ - ٤٣٢ وابن الأثير ٣/١٨٨ .

(3) عن الطبري ٦/٤٣٦ وفتوح البلدان ص ٤١٠ تومشكت وفي الأصل بومشكت .

منهم[1] .

ثم قفل يريد مرو فإذا بطرخان[2] ملك السغد وكور مغانون[3] ملك الترك قد أقبلا في مائتي ألف يريدون قتاله . قال : وقد كان قتيبة في الجيش وخلف أخاه عبد الرحمن بن مسلم على الساقة ، فلما نظر إلى جيش الكفار قد وافاه في ذلك الخلق العظيم أرسل إلى قتيبة فأعلمه بذلك ، فرجع قتيبة إلى ورائه ، والتقى القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى الليل ، ثم ناجزهم في اليوم الثاني فقاتلهم ، فكانت الدائرة على الكفار ، فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا ، وتبعهم قتيبة والمسلمون فقتلوهم قتالاً ذريعاً ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، ثم رجع قتيبة إلى مرو ثم كتب إلى الحجاج خبره بوقعته هذه وكيف رزق عليهم الظفر ، فوجه إليه بالخمس ـ والله أعلم ـ :

ذكر مسير قتيبة بن مسلم إلى بخارى

قال : ثم جمع قتيبة بن مسلم المسلمين وسار إلى بخارى ، وبها يومئذ ملك عظيم الشأن يقال له معاينون بن راع[4] في نيف على أربعين ألفاً ، ونزل عليهم قتيبة بجيشه ودام الحرب أياماً كثيرة لا يفترون من الحرب ، حتى إذا عضهم السلاح ووجدوا ألم الجراح أرسلوا إلى قتيبة يسألونه الصلح على أنهم يعطونه مائتي ألف درهم ويعينونه بأنفسهم ، فرضي قتيبة منهم بذلك ، فأخذ منهم ما صالحهم عليه . قال : وقد كان قتيبة أخذ منهم رجلاً أعور أسيراً فكان شيطاناً من شياطينهم ، فقدمه ليضرب عنقه فقال : أيها الأمير ! لا تقتلني وأنا أفدي نفسي بما قيمته ألف ألف درهم ؛ قال قتيبة لأصحابه : ما ترون فيما يقول هذا الكافر ؟ فقالوا : أيها الأمير ! هذا الذي قد بذله رغبة وزيادة في الغنيمة فخذ منه ما قد بذل ولا تقتله ، فقال قتيبة : لا والله لا تروع باسمه مسلمة أبداً ! ثم قدمه فضرب عنقه .

قال : وخرج أهل بخارا إلى قتيبة فصاروا معه في عسكره ، فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمي يمدح قتيبة بن مسلم وهو يقول أبياتاً مطلعها :

---

(١) وكان ذلك في سنة ٨٨ هـ .

(٢) الأصل : طرخون .

(٣) عن الطبري ٦/٤٣٧ وبالأصل: كور معاينون .

(٤) في الطبري ٦/٤٣٩ رد وردان خذاه .

عفت الـديـار بسفـح طـود شمـام إلا بـقـيـة أثـلب وتـمـام[1]
إلى آخرها .

ذكر نيزك البرقشي وهربه من عسكر قتيبة

قال : وهرب نيزك البرقشي من عسكر قتيبة في جوف الليل مع رجل من وجوه الترك[2] يقال له باذان يريد إلى قلعة باذغيس[3] ، قال : فطلبه قتيبة فلم يقدر عليه فعلم أنه قد هرب ، فوجه الخيل في طلبه فلم يقدر عليه ، فأقبل نيزك إلى قلعته فدخلها ، وهي قلعة حصينة لا ترام ولا يقدر عليها أحد ، واسمها براسكين[4] ، وهي التي يقول فيها الشاعر حيث يقول :

بـراسكين من حـل ذروتهـا حـاز الـ ـبـلاد فـإن شـاء جـار أو ظـلـمـا
منـيعـة لـم يـرمـهـا قـبـله أحـد تخـالها كـوكبـاً في الجـو قـد نجمـا
تخـال نيـرانهـا من بُعـد منـظرهـا بعض النجـوم إذا مـا ليلهـا عتـمـا
لمـا أطـاف بهـا ضـاقت بسـاحتهـا حتى أقـروا لـه بـالحكم فـاحتكمـا
قـد ذل نيـزكهـا مـن بعـد عـزتـه وجـاءهـا عـارفـاً بـالـذل مهتضمـا

قال : وسار قتيبة في عسكره وجنده حتى نزل على القلعة ، قال : وسمعت ملوك خراسان بأن قتيبة قد سار إلى نيزك ، ونيزك قد كان يسيء إليهم ويغير عليهم ولم يكن لهم فيه حيلة لحصانة قلعته[5] . فلما سار إليه قتيبة زحفت معه ملوك خراسان ودخلوا في طاعته ورغبوا في معاونته ، قال : وأقبل قتيبة حتى نزل أسفل القلعة ومعه أهل بخارا وأهل مرو والطالقان والفارياب وأهل بلخ وسرخس وما ولاها . قال : ثم

---

(١) البيت من أبيات في الطبري ٦/٤٦٠ وروايته فيه :

لـمـن الـديـار عـفـت بـسـفـح سـنـام إلا بـقـيـة أيـصـر وثـمـام

(٢) وكان سبب هربه خوفه من قتيبة خاصة بعدما رأى من فتوحه ما رأى . كما في الطبري ٦/٤٤٦ وفيه أن نيزك استأذن قتيبة وكانوا بآمل الرجوع إلى تخارستان فأذن له . . . وبعدما ابتعد عنه أعلن خلعه وكاتب ملوكاً أجابوه إلى الطاعة .

(٣) في الطبري : توجه إلى تخارستان .

(٤) كذا ولم نجدها .

(٥) كذا وفي الطبري أن نيزك كتب إلى أصبهبذ بلخ وباذام ملك مرو روذ وإلى سهرب ملك الطالقان وترسل ملك الفارياب وملك الجوزجان فأجابوه .

دعا قتيبة برجل من أصحابه يقال له سليم بن عبد الله وكان يقال له سليم الناصح ، فأرسله إلى نيزك يدعوه إلى الطاعة ويعذله على هربه ويضمن له على قتيبة ما أحب[1] . قال : فأقبل سليم الناصح هذا حتى صعد الجبل وصار إلى باب القلعة ، ثم استأذن على نيزك فأذن له ، فدخل فلما نظر إليه نيزك قربه وأدناه ثم قال : ما وراءك يا سليم الناصح ؟ فقال له سليم : ويحك ما الذي حملك على الهرب من العسكر وأنتَ أنتَ وقدرك عند الأمير هو القدر الذي علمتَ ؟ فقال نيزك : ويحك يا سليم ! إني لم أكن آمن على نفسي من قتيبة مع إكرامه إياي ، لأن العربي بمنزلة الكلب ، إن ضربته نبح ، وإن أطعمته بصبص ، وإن غزوته فقاتلته ثم صالحته فأعطيته شيئاً رضي ، هذا رجل قدم إليه فلان الأعور قيل له ألف ألف درهم على أن لا يقتله فلم يقبل ذلك منه وقتله ، فلما رأيت ذلك منه لم آمن على نفسي وهربت ، فهات الآن ما عندك يا سليم ! فقال سليم : عندي والله أنه جال في جيشه كله وقد زحفت معه ملوك خراسان من جميع البلاد ولا أظنه نازحاً عن موضعه هذا، وأظنه يشتو فيه هذا الشتاء هلك أم سلم ، وأنا أرى لك من الرأي أن تنزل من قلعتك هذه ولا يعلم أحد بنزولك حتى تدخل إلى عسكره فتضع يدك في يده ، فقال نيزك : ويحك يا سليم إن نفسي لتأبى ذلك ، فقال سليم : إني ما جئتك إلا ناصحاً مشيراً عليك ، فأما إذا أبيت فإني منصرف عنك ؛ قال : ثم وثب سليم لينصرف ، فقال له نيزك : فنغديك إذاً يا سليم ! [قال : إني لأظنكم في شغل عن تهيئة الطعام و ـ][2] معنا طعام كثير ، ثم قال سليم لغلامه : يا غلام ! ائتنا بالطعام الذي حملناه معنا من العسكر ؛ قال : فجاء الغلام بطعام كثير لا عهد له بمثله ، فلما نظرت الأتراك إلى ذلك الطعام وحسنه وكثرته بادروا إليه فانتهبوه . قال : فاغتم نيزك لذلك ، فقال له سليم : يا أبا الهياج ! إني لك من الناصحين ، أرى أصحابك هؤلاء إن طال بهم الحصار أن يستأمنوا قتيبة ويسلموك ، فقال نيزك : أَوَ أنزل إلى قتيبة من غير أمان وظني به أنه قاتلي ؟ قال سليم : يا هذا ! فإنه قد آمنك وإنما هو الذي أرسلني إليك أفتتهمني ؟ قال نيزك : لا أتهمك ؛ فقال أصحابه مثل قول سليم وقالوا : اقبل منه قوله فإنه ناصح لك . قال : فدعا نيزك بدابته فركب وركب معه أصحابه ، وخرج من باب القلعة حتى إذا صار إلى الدرجة التي ينتهي[3] منها إلى قرار الأرض ضرب

---

(١) في الطبري أن قتيبة طلب من سليم أن يأتيه بنيزك بغير أمان ، وإن أعياه وأبى فليعطه أمانه . ٦/٤٥٦ .
(٢) زيادة عن الطبري ٦/٤٥٦ .
(٣) الطبري : يُهبط .

قلبه ، فالتفت إلى سليم الناصح فقال : يا سليم ! من كان لا يعلم متى يموت فأنا أعلم متى أموت ، إذا عاينت قتيبة فأنا ميت ! فقال له سليم : كلا يا أبا الهياج ! لا يكون إلا خيراً إن شاء الله . قال : وسار نيزك حتى إذا خرج من فم الشعب وقع التكبير في عسكر المسلمين[1] ، ففزع الأتراك لذلك التكبير ثم تخلفوا عن نيزك ، فقال نيزك : أما هذا أول الشر ، فقال له سليم : لا عليك يا أبا الهياج ! فإن تخلف هؤلاء عنك فهو خير لك من مسيرهم معك فسر .

قال : فسار نيزك حتى إذا دخل العسكر ونظر إليه قتيبة كلمه بلغة الباذغيسية ثم قال : مرحباً برجل غدار ! ثم أمر به فحبس في خيمة لقتيبة وقيد بقيد ثقيل ، وكتب إلى الحجاج يخبره بأمر نيزك هذا ، فكتب إليه الحجاج أن اقتله فإنه رجل سوء غدار عدو لأهل الإسلام . قال : فورد كتاب الحجاج على قتيبة بعد أربعين يوماً ، فلما ورد عليه الكتاب دعا به قتيبة فأقبل يحجل في قيده حتى وقف بين يديه ، فقال له قتيبة : يا نيزك ! ألك عندي أمان ؟ فقال : لا ولكن عند سليم الناصح أمان ، فقال قتيبة : كذبت يا عدو الله لا أمان لمثلك وقد رجعت عن دين الإسلام غير مرة ، ثم قال قتيبة لأصحابه : ما تقولون في نيزك ؟ قال : فصاح الناس من كل جانب[2] فقالوا : نقول إنه كافر فاسق مرتد غدار ! قال : فدعا قتيبة بالسيف ليضرب عنقه ، فقال له نيزك : إني إنما نزلت إليك بكتاب الله ، قال قتيبة : وأنا أقتلك بحكم الله ، قال نيزك : فإني أفدي نفسي منك بمال ، قال قتيبة : وما مبلغ ما تفدي نفسك مني ؟ قال : ألف ألف درهم ، قال قتيبة : زدني ، قال : ألف ألف درهم ، قال : زدني ، قال : ثلاثة آلاف ألف درهم ؛ فلم يزل حتى بذل له عشرة آلاف ألف درهم ، فقال قتيبة : أين هذا المال ؟ قال : في القلعة ، قال : القلعة وما فيها لنا ، والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات لقتلتك[3] . قال : ثم قدمه فضرب عنقه صبراً ، وقتل معه سبعمائة رجل من أصحابه على دم واحد ؛ فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمي[4] في ذلك يقول أبياتاً

---

(١) في الطبري أن الخيل التي تركها على فوهة الشعب ، حالت بين الأتراك والخروج ، وكان سليم قد اتفق مع عبد الرحمن أن يبعث رجالاً على فم الشعب يحولوا دون الخروج منه . ٤٥٧/٦ .

(٢) في الطبري اختلفوا في قتله ، فمنهم من قال يجب قتله لكفره وغدره ومنهم من قال لقتيبة أنك أعطيته عهداً فلا تقتله .

(٣) في الطبري ٤٥٨/٦ لقلت : اقتلوه اقتلوه اقتلوه .

(٤) كذا بالأصل والطبري ٤٥٨/٦ وفي الكامل لابن الأثير ٢٠٢/٣ .

مطلعها :

لعمري لنعمت غرة الجند غزوة قضت نحبها من نيزك فاشمعلت[1]
إلى آخرها .

قال : ثم بعث قتيبة إلى قلعة نيزك فاحتوى على ما فيها من الأموال والأسلحة والأثاث ، واحتوى أيضاً على أهل نيزك وولده وخدمه ، فأخرج من ذلك كله الخمس فوجه به إلى الحجاج ووجه إليه برأس نيزك[2] ورأس ابن أخيه عثمان وبرؤوس القوم الذين قتلهم مع نيزك وقد علق في آذانهم الرقاع بأسمائهم ، فلما وردت الرؤوس على الحجاج ونظر إليها دعا بعثمان بن مسعود التميمي من الحبس ، فأقبل يحجل في قيوده . فقال له الحجاج : أتعرف هذه الرؤوس يا عثمان ؟ قال : نعم أيها الأمير ، هذه رؤوس أصحاب نيزك الذين كانوا معه وكانت نعمة الله عليهم سابغة ، وهذا رأس نيزك البرقشي صاحب قلعة باذغيس ، وهذا رأس ابن أخيه عثمان بن سور ، فقال الحجاج : ويحك يا عثمان ! الترك تسمي أولادها بعثمان ؟ فقال : لا ، ولكن سمي هذا باسمي لأني كنت مصاهراً لهم ، قال الحجاج : فهل رأيت أحداً أعظم غنىً ممن قتل هذا ـ وأومأ الحجاج إلى نيزك ؟ فقال : نعم أيها الأمير ، من قتل صاحب هذا الخاتم ، فقال : هذا خاتم موسى بن عبد الله بن خازم السلمي ـ ثم رمى بالخاتم إليه ، فنظر إليه الحجاج فإذا خاتم من ذهب فصه ياقوت أحمر ، فقال الحجاج : صدقت يا عثمان ! إن من قتل صاحب هذا الخاتم هو أعظم غنىً من قاتل نيزك .

خبر المنطقة

قال : ثم أقبل الحجاج على عثمان بن مسعود فقال له : يا عثمان ! إنه قد كتب إلينا قتيبة بهذه المنطقة يذكر أنه منطقة نيزك فانظر إليها ، قال : فنظر عثمان بن مسعود إلى المنطقة فقال : أيها الأمير ! ليست هذه منطقة نيزك ، هذه منطقة رجل من عظماء الترك يقال له جبغويه[3] ومنطقة نيزك موصولة وهي نصف منطقة فيروز ، وذلك أن منطقة فيروز لما قتل سقط عن فرسه في نهر خزار[4] فانقطعت منطقته فذهب السيل

(١) الطبري وابن الأثير : وتعلّت .
(٢) أرسل مع محفن بن جزء الكلابي وسوار بن زهدم الجرمي .
(٣) عن الطبري ٦/٤٥٩ وبالأصل : جعوه .
(٤) خزار : موضع بقرب وخش من نواحي بلخ .

بنصفها مما يلي الأبرين وصار إلى نيزك موصولة . قال فقال رجل ممن حضر مجلس الحجاج : كُذبت أيها الأمير ! هذه منطقة نيزك ، فقال له عثمان : إذا عرب يا لكيع ! ما أنت وهذا ؟ وما يدخلك فيما ليس من أمرك ؟ ما علمك بالملوك ولباسهم ؟ أنت تأكل الضب واليربوع والجرذ والقنفذ ، أنا أعلم منك بأمور الملوك ودأبهم . قال : فضحك الحجاج ثم قال : ردوه إلى الحبس ! فردوه إلى الحبس ، فلم يزل يعذب في الحبس ويستأدى حتى مات في السجن من شدة العذاب ، فهذا أصح خبر ورد علينا من أمر عثمان بن مسعود التميمي ـ والله أعلم ـ .

ثم رجعنا إلى خبر قتيبة بن مسلم

قال : فلما قتل قتيبة نيزك البرقشي دخل من ذلك على أهل خراسان فرح وسرور شديد ، وقالت الشعراء في قتيبة أشعاراً كثيرة ، ومدحه نهار بن توسعة بهذه الأبيات :

أصبت ووفقت ابن عمرو ولم تزل ... على كل حال [قد] توفق للرشدِ
قتلت عدو الله نيزك بعد ما ... أتى وجنود المسلمين على حقدِ
فكم ثم كم من غمرة قد عقرتها ... وكم عاند في القوم قوّمت للقصد
وكم مقتر أنعشته يابن مسلم ... وأعطيته الآمال في طلب الحمد
وكم من عظيم البال يحتال في الوغى ... نزلت صريعاً للدرين وللّحد
وكم بائس أغنيته بعد عيلة ... فأصبح ذا مال كثير وذو لبد
ومن متلد دغدغت بالسيف ماله ... وقدماً قديماً كان يأوي إلى صفد

ذكر مسير قتيبة إلى مرو الروذ والطالقان والفارياب والجوزجان في وقت واحد

قال : ثم سار قتيبة يريد مرو الروذ ، وبها ملك يقال له باذام ، وقد كان باذام هذا أعان نيزك البرقشي على قتيبة فقتله وقتل ولداً له كبيراً وقتل له أخاً صغيراً ، وعلق رأسه في عنق أمه ثم أمر بقتلها بعد ذلك فقتلت ، فقال له المجشر[1] بن مزاحم السلمي : أيها الأمير ! لو كنت وهبت هذه المرأة لرجل من أصحابك ولم تقتلها كان ذلك عندي أحسن ! قال : فنظر إليه قتيبة نظرة ظن أنه سيقتله ، ثم سكت ونادى في

(١) عن الطبري ، وبالأصل « المحشر » .

أصحابه وسار إلى الطالقان ، وبها يومئذ من صعاليك الترك فحاربهم قتيبة يوماً واحداً فظفر بهم ، فقتل منهم جماعة وصلبهم ، ثم استعمل على من بقي منهم أخاه عمرو بن مسلم ؛ وسار يريد الفارياب ، فلما دنا منها تلقاه ملكها مذعناً مقراً له بالسمع والطاعة ، فلم يهيجه قتيبة ولم يؤذه ورده إلى بلده مكرماً[1] ؛ ثم سار منها إلى الجوزجان ، فتلقاه أهلها سامعين مطيعين ، وهرب ملكها إلى الجبل ، فلم يطلبه قتيبة ولم يؤذ أحداً من أهل الجوزجان ، غير أنه استعمل عليها عامر بن مالك الجماني[2] أحد بني تميم وهمّ أن يسير إلى غيرها فجاء إليه ملك الجوزجان سامعاً مطيعاً فصالحه قتيبة عن أرضه . قال : فمضى ملك الجوزجان إلى بلاده فشد عليه رجل من أصحابه فقتله ، وبلغ ذلك قتيبة فطلب ذلك الرجل حتى وقع في يده ، فأخذه قتيبة فطلاه بالنفط ثم صلبه وأحرقه بالنار . قال : وجعل قتيبة يقتل ويأمر وينهب حتى أذل الترك إذلالاً ما أذلهم أحد قبله مثله قط ، فأنشأ نهار بن توسعة في ذلك يقول :

أراك الله في الأتراك حكماً ... كحكم في قريظة والنضيرِ
قضاء من قتيبة غير جور ... به يشفي الغليل من الصدور[3]

قال : ثم جمع قتيبة من كان في يده من أسارى الترك ، فكانوا نيفاً على ثمانين رجلاً من سادات الترك وملوكهم ، فكبلهم بالحديد واستوثق منهم بالأغلال ، ووجه بهم إلى الحجاج مع أموال كانت عنده من أموال الخمس ، فأنشأ حاجب بن ذبيان المازني يقول أبياتاً مطلعها :

كم من كمي تركت مجندلاً ... شلوا طريحاً للذئب والرخمِ

إلى آخرها .

قال : ثم رجع قتيبة إلى مرو فنزلها وأرسل إلى امرأة نيزك البرقشي فخطبها ليتزوج بها ، فأرسلت إليه : أيها الأمير ! إنك لست بخليفة ولا أنت الحجاج ، إنما أنت أمير من أمراء خراسان مثل يزيد بن المهلب وغيره ، وقد قتلت زوجي وولديّ

---

(١) في الطبري ٦/٤٥٤ استعمل عليها رجلاً من باهلة .

(٢) في الطبري : الحماني .

(٣) زيد في الطبري ٦/٤٦٠ .

فإن ير نيزك خزياً وذلاً ... فكم في الحرب حمق من أمير

واحتويت على أموالي ثم بعثت إليّ تخطبني ، أفما تخاف أن أعمل في قتلك فآخذ بثأري منك ؟ قال : فعلم قتيبة أنها قد صدقت في قولها وأنصفت وحققت فلها عنها وتركها .

ذكر مسير قتيبة إلى بلاد سجستان ثم منها إلى بلخ

قال : ثم جمع قتيبة أصحابه وسار بهم يريد سجستان ، وبها يومئذ ملك يقال له رُتبيل[1] في نيف عن سبعين ألفاً من الكفار ، فأقبل حتى نزل عليها ، ثم أمر أصحابه بالغارة ، فجعلوا يغيرون يمنة ويسرة على بلاد سجستان حتى ملأوا أيديهم من الغنائم . قال : وكره رُتبيل ملك سجستان حرب قتيبة وعلم أنه لا يقوم له ولا لأصحابه ، فأرسل إليه يسأله الصلح ، فأجابه قتيبة إلى ذلك ، ووقع الصلح بينهما على خمسمائة ألف درهم ومائتي رأس من الرقيق جوار وغلمان ، فأخذ قتيبة منهم ذلك ، فأخرج منه الخمس فوجه به إلى الحجاج ، وقسم باقي ذلك في المسلمين .

ذكر مسير قتيبة إلى بلخ وما والاها من الكور

قال : ثم نادى قتيبة في أصحابه بالرحيل وسار حتى نزل على بلخ ، وبها يومئذ ملك يقال له الشاه بن نيزك في جمع عظيم ، فلما بلغه نزول قتيبة بساحته خرج إليه ، ووقع الحرب بين الفريقين فاقتتلوا ، فقتل من المسلمين نيف على سبعمائة رجل ، وقتل من الكفار بشر كثير ، وأسر منهم ألف رجل أو يزيدون ، فقدمهم قتيبة وضرب أعناقهم صبراً ، ثم إنه جلس ودعا بالطعام وجعل يتغدى والقتلى بين يديه وهو لا يكترث لذلك . قال : ونظر أهل بلخ إلى ذلك من قتيبة فاتقوا وخافوا على أنفسهم خوفاً شديداً وطلبوا الصلح ، فأجابهم قتيبة إلى ذلك ، فوقع الصلح بين قتيبة وبين أهل بلخ على ثلاثمائة ألف درهم وثلاثمائة رأس من الرقيق ، فأخذ قتيبة منهم ذلك وكتب لهم كتاباً بالصلح ، ثم أخرج من ذلك المال الخمس فوجه به إلى الحجاج ، وقسم باقي ذلك في المسلمين ، فأنشأ زياد الأعجم يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

إن خير الولاة حر كريم يد ... من كان قبله حين كيدا

إلى آخرها .

---

(١) في الأصل « زنبيل » وقد صححت في كل مواضع الخبر .

ذكر مسير قتيبة إلى خوارزم

ثم سار قتيبة بجيشه حتى نزل على خوارزم ، وبها يومئذ ملك يقال له جنغان[1] في أربعمائة ألف عنان من أصناف الكفار ، وقال : ولجنغان أخ يقال خرزاد[2] قد غلبه على أمره فليس له معه أمر ولا نهي ، وكان يحب أن يقدم قتيبة إلى البلد ، فسكت حتى جاء قتيبة ونزل حذاء خوارزم ، وكتب إليه جنغان يعلمه أنه قد بذل له مائة ألف رأس ومتاعاً سماه له في كتابه على أن يدفع إليه أخاه ويملكه في بلاده ؛ قال : فأرسل بكتابه إلى قتيبة سراً ولا يعلم به أحد من أهل خوارزم . قال : وبعث إليه بثلاثة[3] مفاتيح من الذهب . فقدم رسول جنغان على قتيبة وقد عزم على الحرب ، فلما قرأ الكتاب أجابه إلى ما سأل ، ثم إنه أظهر في عسكره أنه يريد السغد ، ووقع الخبر بذلك بخوارزم ، فقال خرزاد لأهل مملكته : إن قتيبة يريد السغد وقد أمنتم من حربه وأن يغزوكم في هذه السنة[4] .

ثم نادى قتيبة بالرحيل نحو بلاد السغد قبل يومه ذلك ، ثم رجع إلى بلاد خوارزم ، فلم يشعر القوم إلا وقتيبة قد وافاهم ، ففزعوا لذلك فزعاً شديداً ، ثم اجتمعوا إلى جنغان فقالوا : أيها الملك ! ما عندك من الرأي ؟ [قال] : ههنا لأخي خرزاد فصيروا إليه . قال : فاجتمع القوم إلى خرزاد فقالوا : إن هذا الرجل قد نزل بساحتنا يريد هلاكنا فهات ما عندك من الرأي ، قال : فعلم خرزاد بأن أخاه قد كاتب قتيبة فهم بقتل أخيه ، ثم خشي أن يقتله أهل البلد فلم يقتل أخاه ، ثم نادى في الناس وخرج حتى نزل بموضع يقال له فنك[5] ، ونزل قتيبة قريباً منه . قال : وخوارزم يومئذ ثلاث مدائن يحيط لها مياه الفارقين . قال : ووقع الحرب بين الفريقين وسلم جنغان إلى قتيبة مدينتين من مدن خوارزم وصار معه في عسكره ، وبقي خرزاد في المدينة الثالثة وطلب الأمان ، ثم بعث إلى قتيبة : أنا أيها الأمير عبدك فاصطنعني واستبقني ، فنعم العبد أنا لك ! فقال قتيبة لرسوله : ارجع إليه فقل

---

(١) في ابن الأثير ٣/٢١٥ خوارزمشاه .

(٢) في الطبري ٦/٤٦٩ خرّزاذ .

(٣) عن الطبري وبالأصل : « بثلاث » وكانت خوارزم مدائن ثلاث كما في فتوح البلدان ص ٤١٠ .

(٤) زيد في الطبري : فهلّم نتنعم في ربيعنا هذا ، فأقبلوا على الشرب والتنعم ، وأمنوا عند أنفسهم الغزو .

(٥) فنك : قرية بينها وبين سمرقند نصف فرسخ .

عني : إن رضي أخوك جنغان بـذلك آمنتـك واستبقيتك ، فكلمـه واطلب إليه في ذلك . قال : فأرسل إليه خرزاد : أيها الأمير ! إنه ليس في عسكرك أحد يطمع أن يعيش خمسين سنة ، وقد علمت أن مصيـري إلى الموت ، وليس مثلي من ذلـك لأخيه ، وإنما أحببت أن أكون لك لا لغيـرك ، والقتل أحب إليّ من الـطلب إلى أخي ، فإن مت أو قتلت فإنه قد مات من كان أنبل مني وأشد مني تملكاً وتجبراً ـ والسلام ـ .

قال : ووقع الحرب بين أهل خوارزم وبين قتيبة ، فلم يكن إلا ساعة حتى أخذ خرزاد أسيراً ، فأتي به إلى قتيبة حتى وقف بين يديه ، فقال له قتيبة : كيف رأيت ما أنزل الله بك يا خرزاد ؟ فقال : أيها الأمير ! لا تلمني فإني ما ضربت بيدي إلى سيفي إلا لتحكم بيني وبينك فخذلني سيفي ولم يطاوعني ، قال قتيبة : هذا يكون ، ثم قدمه فضربت عنقه صبراً[1] . فقال جنغان : أيها الأمير ! إنك لم تشف صدري بعد ، قال قتيبة : فما تريد يا جنغان ؟ قال : أريد أن تقتل كل من كان معه عليّ ، قال : فجمعهم قتيبة وهم خلق كثير من الأسـارى فسلمهم إلى جنغان ، فقـدمهم جنغان فضرب أعناقهم صبراً ، ثم أخذ أموالهم فدفعها إلى قتيبة ، ثم وفى بما كان ضمن له . قال : فأخرج قتيبة من ذلك الخمس فوجه به إلى الحجاج ، وقسم باقي ذلك في المسلمين ؛ فأنشأ كعب بن معدان الأشقري[2] يقول في ذلك أبياتاً مطلعها[3] :

إنـي رأيـت أبـا حـفص يـزينـه[4] أيـامـه ومسـاعي النـاس تختلفُ

إلى آخرها .

ذكر مسير قتيبة إلى السغد من بعد فتح خوارزم وما والاها

قال : فلما فرغ قتيبة من أمر خوارزم قام إليه المجشر[5] بن مزاحم السلمي

---

(١) في الطبري ٤٧١/٦ أن قتيبة دفع خرزاد إلى أخيه خوارزم شاه ومن كان يخالفه فقتلهم واصطفى أموالهم فبعث بها إلى قتيبة . وانظر فتوح البلدان ص ٤١٠ .

(٢) عن الطبري وبالأصل الأشعري .

(٣) الأبيات في الطبري ٤٧١/٦ .

(٤) الطبري : تفضله .

(٥) عن الطبري وبالأصل « المحسن » .

فقال : أيها الأمير ! ههنا سر بيني وبينك ! قال : فتنحى معه ناحية ثم قال : هات ما عندك ، فقال : إن أردت السغد يوماً من الدهر فاليوم ، فإنه ما بينك وبينه إلا مسيرة عشرة أيام ، قال فقال قتيبة : هل أشار عليك بهذا أحد ؟ قال : لا ، [قال : فأعلمته أحداً ؟ قال : لا ، قال :][1] فوالله لئن تكلم بهذا غيرك من الناس لأضربن عنقك .
قال : ثم دعا قتيبة بأخيه عبد الرحمن بن مسلم فقال له : قدم الأثقال إلى مرو ، فنادى عبد الرحمن بالرحيل إلى مرو ، فارتحل الناس ومضت الأثقال بين يديه وتبعها الناس يريدون إلى مرو ، حتى إذا أمسى عبد الرحمن بن مسلم وهو في المسير أتاه كتاب أخيه قتيبة بن مسلم أن انظر إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو وسر أنت في الخيل والرجال إلى السغد ، واكتم ذلك فإني من ورائك بالأثر إن شاء الله تعالى .
قال : فأمر عبد الرحمن بن مسلم بالأثقال فمضت إلى مرو ، وانصرف هو في الخيل والرجال نحوسمرقند، وقام قتيبة في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وقال[2]: أيها الناس ! إن الله عزَّ وجل قد فتح عليكم من البلاد ما علمتم ، وأنا أرجو أن يكون سبي سمرقند كسبي بني قريظة والنضير ، فأبشروا ثم أبشروا ـ والسلام ـ .

ذكر كتاب الحجاج إلى قتيبة

قال : وإذا كتاب الحجاج قد ورد على قتيبة : أما بعد فإني لست بآئس إذ فتح الله علينا وعليك خوارزم وأغنمنا أموالها وخزائنها وغنائمها أن يفتح الله عليك وعلينا ما بعدها ، وقد بلغني أنك تريد المسير إلى سمرقند وأنا أنشدك أن غزوت بالمسلمين ، وأنا أسأل الله أن يعز نصرك ، وأن يحسن عاقبتك ، وأن يمدك بالملائكة المردفين ، وأن يرعب قلوب أهل سمرقند ، وأن يخالف بين كلمتهم ، وأن يلقي بأسهم بينهم ، وأن يورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأن يجعل دائرة السوء عليهم ، إنه على كل شيء قدير ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ـ .

قال : فلما ورد كتاب الحجاج على قتيبة نادى في النـاس فجمعهم وأقرأهم الكتاب ، ثم ندبهم للمسير إلى سمرقند فخف معه الصغير والكبير من جميع مدائن خراسان ، خرج معه السوقة بالعصي والمقاليع فضلاً عن غيرهم . قال : فسار بهم قتيبة حتى قطع البلاد ثم سار إلى سمرقند فنزل عليها .

---

(١) زيادة عن الطبري ٦/٤٧٢ .

(٢) الطبري ٦/٤٧٢ وفيه زيادة .

ذكر نزول قتيبة على سمرقند ومحاربته أهلها

قال : فنزل قتيبة على سمرقند وبها يومئذ ملكها غوزك بن أخشيد السغدي في ثلاثين ومائة ألف من السغد ، قال : فأحدق قتيبة بأبوابها ، وخرجت إليه السغد في الآلة والسلاح والعدة الكاملة ، واشتبك الحرب بين الفريقين فاقتتلوا مراراً ، كل ذلك ينتصف بعضهم من بعض ؛ فلما كان بعد ذلك بأيام أقبل نفر منهم حتىْ وقفوا على سور المدينة ، ثم تكلم رجل منهم بالسغدية فقال : يا معشر العرب ! على ماذا تقاتلونا وتدخلون على أنفسكم المشقة والعناء في أمر لا تصلون إليه ؟ إنا قد وجدنا في بعض كتبنا أن مدينتنا هذه لا يفتحها إلا رجل اسمه أكاف الجمل ، فانصرفوا عنا ولا تتعبوا خيلكم وتقتلوا أنفسكم ، فقال قتيبة : ما الذي يقول هؤلاء القوم ؟ فقال رجل ممن يفهم كلامهم : إنهم يقولون كذا وكذا ؛ فقال قتيبة : الله أكبر ! فأنا والله أكاف الجمل ، أنا قتيبة والقتب قتب الجمل . قال : ثم جد في حربهم ، فقتل منهم في ذلك اليوم خلق عظيم .

قال : وكتب ملك سمرقند إلى ملك الشاش[1] بأن العرب قد قاتلونا وقاتلناهم ، فإن هم ظفروا بنا ساروا إليكم فانظروا لأنفسكم فإنما[2] نحن الجنة دونكم ، فإن وصل إلينا كنتم أنتم أذل وأهون . فاجتمع أهل الشاش على نصرة أهل سمرقند ، ثم إنهم أرسلوا إلى غوزك بن أخشيد أن اشغلهم أنت بالقتال حتى نبيت نحن عسكرهم . قال : وجعل أهل الشاش ينتخبون أهل النجدة والشجاعة من أهل بلدهم[3] ، ثم إنهم ساروا مجمعين على بيات العسكر عسكر قتيبة ، واتصل الخبر بقتيبة ، فانتخب من عسكره سبعمائة[4] رجل ، كل رجل منهم يحتاج إلى رجال ، ثم قال لهم : اعلموا أن أهل الشاش قد ساروا إلى ما قبلكم يريدون أن يبيتوكم بزعمهم ، فاخرجوا إليهم الآن فاكمنوا لهم في موضع كذا وكذا ، وذبوا عن دينكم وأحسابكم - والسلام - .

قال : فخرج المسلمون وذلك في وقت المغرب ، فنزلوا على فرسخين من

---

(١) الطبري ٦/٤٧٦ كتب إلى ملك الشاش وإخشاذ فرغانة وخاقان .

(٢) الطبري : إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب .

(٣) وولوا عليهم ابناً لخاقان كما في الطبري .

(٤) الطبري : أربعمائة رجل .

عسكر قتيبة على طريق القوم الذي وصف لهم . قال : ورئيس المسلمين يومئذ صالح أخو قتيبة ، ففرق أصحابه ثلاث فرق فجعلهم كمناء : كميناً عن يمينه ، وكميناً عن شماله ، ووقف هو في الفرقة الثالثة على قارعة الطريق ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه إذا أهل الشاش قد أقبلوا في الآلة والعدة التامة الكاملة ، قال : فلما نظروا إلى المسلمين حملوا عليهم واختلط القوم ، وخرج عليهم الكمينان عن يمينه ويساره فانطووا عليهم ، وصبر الفريقان بعضهم لبعض ساعة ، وشد على رجل من أهل الشاش عظيم القدر فيهم فضربه ضربة على قرطه فأطار رأسه ، ووقعت الهزيمة على الكفار ، فانهزموا والسيف يأخذهم ، فما أفلت منهم إلا الشديد . قال : وأسر منهم جماعة ، وانصرف المسلمون إلى قتيبة فخبروه بذلك ، فقال قتيبة : جزاكم الله من قوم خيراً فلقد جاهدتم فأحسنتم الجهاد ، وأبليتم فأحسنتم البلاء . قال : ثم قدم هؤلاء الأسارى فضرب أعناقهم عن آخرهم ؛ ثم أقبل على كعب بن معدان الأشقري[1] فقال له : يا كعب ! ألست القائل في المهلب بن أبي صفرة هذه الأبيات[2] :

ألا ذهب الغزو[3] المقرّب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلبِ
أقاما[4] بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد فقدا من كل شرق ومغربِ

فقال : بلى أيها الأمير ! أنا قائل هذا ، وأنا الذي أقول فيك :

فما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ... ولا كائن كالباهلي ابن مسلمِ
أعم[5] لأهل الأرض بأساً ونائلاً ... وأقسم فينا مغنماً بعد مغنمِ[6]

قال : فأمر له قتيبة بجائزة سنية ، وأقبل حتى نزل على سمرقند ، فوضع عليها المجانيق فجعل يحاربهم أشد الحرب . قال : فأرسل إليه غوزك بن أخشيد ملك

---

(١) الأصل : الأشعري .
(٢) في الطبري ٦/٤٧٩ فدعا قتيبة نهار بن توسعة حين صالح أهل السغد ، فقال : يا نهار أين قولك . . . وذكر البيتين .
(٣) بالأصل : إذا ذهب العرف ... وما أثبت عن الطبري .
(٤) عن الطبري ، وبالأصل أقاموا .
(٥) عن الطبري ٦/٤٧٩ وبالأصل : أهم .
(٦) عجزه في الطبري :
وأكثر فينا مقسماً بعد مقسم

السغد : أيها الأمير ! أنت إنما تقاتلني بإخواني من العجم[١] ، فأخرج إليّ العرب حتى تعلم كيف أحاربهم ! قال : فغضب قتيبة لذلك ثم نادى في المسلمين فانتخب الأبطال من عسكره فقدمهم إلى الحرب ، وأمر أصحاب المجانيق بالرمي ، فكان المسلمون يرمونه بحجارة المجانيق والسغد يرمونهم بالنشاب ، فلم يزل المسلمون كذلك حتى ثلموا السور برمي الحجارة . قال : وصاح القوم بقتيبة أن ارجع عنا اليوم فإنا نصالحك غداً ، فقال قتيبة : إنه قد جزع السغد فانصرفوا عنهم على كفرهم . قال : فانصرف المسلمون[٢] عنهم إلى عسكرهم[٣] .

ذكر صلح قتيبة بن مسلم على سمرقند ودخوله والمسلمين إياها

قال : فلما كان من غد دنا قتيبة من السور ووقع الصلح بين القوم ، فصالحهم قتيبة على ألفي ألف درهم عاجلة ومائتي ألف درهم في كل سنة ، وعلى ثلاثة آلاف رأس من الرقيق ليس فيهم صبي ولا شيخ ، وعلى ما في بيوت النيران من حلية الأصنام ، وعلى أنهم يبنون لقتيبة في المدينة مسجداً ، وعلى أنهم يخلون المدينة فلا يكون فيها مقاتل ، ويدخلها قتيبة وأصحابه ويصلي ويخطب ويتغدى بها ثم يخرج[٤] ؛ فأجابه غوزك بن أخشيد إلى ذلك على أنه يدخل من باب كس ونَسَف ويخرج من باب الصين . قال : وأمر غوزك باتخاذ الطعام لقتيبة ولوجوه أصحابه ثم أمر بباب سمرقند ففتح ، فدخل المسلمون المدينة بالتكبير ، وأقبل قتيبة في إخوته وبني عمه حتى إذا صار إلى باب سمرقند قد استقبله غوزك بن أخشيد فسجد له ، ثم مشى بين يديه حتى صار إلى بيت الأصنام فجلس فيه ، وأقبل غوزك حتى وقف بين يديه بلا سيف ، فجعل قتيبة ينظر إلى غلمان غوزك في مناطق الذهب المرصعة بالجوهر ، فاغتاظ لذلك غيظاً عظيماً حتى احمرت عيناه وأراد أن يغدر بغوزك فتبين ذلك في وجهه ، ثم إنه لم ير ذلك صواباً ، فتم لغوزك ما صالحه عليه ، فأنشأ

---

(١) الطبري : بإخواني وأهل بيتي من العجم .

(٢) بالأصل : « فانصرفوا المسلمين » .

(٣) وفي رواية باهلة : قال قتيبة : لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة ومجانيقنا تخطر على رؤوسهم ومدينتهم .

(٤) انظر فتوح البلدان ص ٤١٠ والطبري ٦/٤٧٥ .

كعب بن معدان الأشقري[1] في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

ألا أيها الباغي قتيبة غيبة أبى الله إلا أن يكون مؤيدا

إلى آخرها[2] .

قال فقال له قتيبة : أحسنت يا غلام ! ادفع إلى الأشقري عشرة آلاف درهم . قال : ثم دعا بالطعام ، فأمر غوزك بن أخشيد بالموائد وقدمت ، وعليها ألوان الأطعمة ، فأكل قتيبة وإخوته وبنو عمه وقوّاده ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وغسلوا أيديهم وثب قتيبة فصلى ركعتين ، ثم دعا بكاتبه فأمر أن يكتب لغوزك بن أخشيد عهده الذي صالحه عليه .

ذكر العهد الذي كتب الغوزك بن أخشيد

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي غوزك بن أخشيد أفشين السغد ، إنه صالحه وشرط له بذلك عهد الله وميثاقه وذمته ، وذمة رسوله محمد (صلّى الله عليه وسلّم وآله) ، وذمة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وذمة الأمير الحجاج بن يوسف بن الحكم ، وذمة المؤمنين ، وذمة قتيبة بن مسلم ، فصالحه عن سمرقند ورساتيقها كس ونسف أرضها ومزارعها وجميع حدودها على ألفي ألف درهم عاجلة ، ومائتي ألف درهم في كل عام ، وثلاثة آلاف رأس من الرقيق ليس فيهم صبي ولا شيخ على أن يسمعوا ويطيعوا لعبد الله الوليد بن عبد الملك بن مروان وللأمير الحجاج بن يوسف وللأمير قتيبة بن مسلم ، وعلى أن يؤدي غوزك بن أخشيد أفشين السغد ما صالحه عليه قتيبة بن مسلم من مال ورقيق ، فما أعطى من ذلك في جزية أرضه من السبي يحسب له كل رأس بمائتي درهم ، وما كان من الثياب الكبار كل ثوب بمائة درهم والصغار بستين درهماً ، وما كان من حرير فكل شقة بثمانية وعشرين درهماً ، والذهب الأحمر كل مثقال بعشرين درهماً ، والفضة البيضاء مثقال بمثقال ، وعلى قتيبة بن مسلم العهد والميثاق أنه لا يعمل على غوزك بن أخشيد أفشين السغد بشيء ولا يغدر به ولا يأخذ منه أكثر مما صالحه عليه ، فإن خرج على غوزك بن أخشيد عدو من الأعداء فعلى قتيبة بن مسلم

---

(١) بالأصل : الأشعري .

(٢) في الطبري ٦/٤٨٠ أبيات على هذا الروي نسبت لكعب الأشقري وهذا البيت ليس فيها . وقيل إن الأبيات للمختار بن كعب الجعفي كما في فتوح البلدان ص ٤١١ .

أن ينصره ويعاونه على عدوه ، ويقول قتيبة بن مسلم بأني قد ملكتك يا غـوزك بن أخشيد سمرقند وأرضها وحدودها وكس ونسف وبلادها وحصونها ، وفـوضت إليك أمرها ، وأخذت خاتمك عليها ، لا يعترض عليك معترض ، وأن الملك من بعدك لولدك أبداً ما دامت لي ولاية بخراسان ؛ شهد على ذلك الحضين بن المنذر البكري وضـرار بن حصين التميمي وعلباء بن حبيب العبقسي ومعـاوية بن عـامـر الكنـدي ووكيع بن أبي سود الحنظلي وإياس بن نبهان والأشجع بن عبد الرحمن والمحرر بن حمران والمجشر[1] بن مزاحم وعبد الله بن الأزور والفضيل بن عبد الله وعثمـان بن رجاء والحسن بن معاوية والفضيل بن بسام ؛ وكتب ثابت بن أبي ثابت كاتب قتيبة بن مسلم في سنة أربع وتسعين . قال : وختم قتيبة بن مسلم الشهود بخواتيمهم على هذا العهد ، ودفع العهد إلى غوزك بن أخشيد ، فأنشأ الفرات بن عبد الله السني[2] يقول في ذلك[3] :

يـرى الموت من عـادى قتيبـة مجهـراً	ولـيـس بـوقـاف ولا بـمـواكـل
ولـكـنـه سـمـح بـنـفس كـريـمـة	يصـول بهـا يـوم الفنـا والقبـائـل
فمـا لأبي حـفص يـزيـد إذا سمـا	بـأرعن مثـل الـطود جم الصـواهـل
حوى السغد حتى شاع في الناس ذكره	ونـال الـتي أعيت عـلى المتـطاول
ونـال التي قـد رامهـا النـاس قبله	فـأعيـوا وأمسى ذكـره غير خـامـل

قال : ثم دعا قتيبة بأخيه عبد الرحمن بن مسلم[4] فجعله مقيماً بمدينة سمرقند لئلا ينكثوا ولا يغدروا ، ثم أقبل إلى مدينة مرو فنزلها ، وكتب إلى الحجاج يخبره بما فتح الله عليه من سمرقند وما كان من صلحه إياهم ، ووجه إليه الخمس من أموال سمرقند .

ذكر كتاب الحجاج إلى قتيبة

أما بعد ، يا قتيبة ! فقد استقبل الله عزَّ وجلّ من أمرك بما لم يستقبل به أحد قبلك من التمكن في البلاد والظهور على الأعداء ، فخذ ما آتاك الله بقوة وكن من

---

(١) بالأصل : المجسر .

(٢) عن معجم الشعراء ، وبالأصل « الثني » .

(٣) الأبيات في معجم الشعراء باختلاف بعض الألفاظ .

(٤) في الطبري ٦/ ٤٨٠ استخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم .

الشاكرين ، وأعلمك يا قتيبة بأنك إلى الشدة في دين الله عزّ وجلّ أحوج منك إلى اللين والوهن والضعف ، فاشدد يديك أبا حفص بما قلدك الله تبارك وتعالى من أمر خراسان ، واتبع السياسة التي رضي الله بها عن عبده الصالح ذي القرنين إذ قيل له لما بلغ مغرب الشمس ﴿ **يٰذا الفرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً** ﴾[1] فأحب الله تبارك وتعالى أن يبلوه فيما آتاه فهداه إلى طاعته ومرضاته من الحرم والقوة . فقال : ﴿ **أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً * وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً** ﴾[2] ، فرضي الله بصنيعه الحسن وقص ذلك في كتابه العزيز على نبيه ﷺ ليقتدي به أئمة الحق ورعاة الدين ، فتدبر أبا حفص ما كتبت به إليك من موعظة العبد الصالح ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ـ .

قال : فوصل الكتاب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان .

ذكر كتاب الحجاج إلى قتيبة عند وفاته

قال : ومرض الحجاج مرضته التي توفي فيها ، فلما أحس من نفسه الضعف وعلم أنه ميت كتب إلى قتيبة أيضاً بهذا الكتاب : أما بعد يا قتيبة ! فإني كتبت إليك كتابي هذا وقد اشتد وجعي ، لعل الله تعالى أن يجعل علتي هذه كفارة لذنوبي ، والله أحب أن أخلد في هذه الدنيا كما خلد إبليس اللعين ـ عليه من الله والملائكة والناس أجمعين اللعنة والخزي والبوار وسوء الدار ـ ولي أسوة برسول الله (صلّى الله عليه وسلّم وآله) والأئمة الصالحين من بعده ، وإني لأعلم رجالاً من المنافقين سيشتد سرورهم بما لي عند الله من عداوتهم إياي على دينه وأخذ حقه منهم ، وإني لأعلم رجالاً يشتد لذلك جزعهم لما يتخوفون من ظهور الأعداء ، وقد علمت أن الذي ينصرهم في حياتي هو الذي ينصرهم بعد مماتي ، فانظر يا قتيبة أن تكون أشد مما كنت في أمر الله وجهاد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ؛ أستودعك الله يا قتيبة أنت ومن معك من المسلمين حتى نلتقي نحن وأنت غداً بين يدي الرب الرحيم .

قال : ثم توفي الحجاج فكانت وفاته بالعراق ليلة الجمعة لسبع مضين من شهر

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٦ .

(٢) سورة الكهف الآيتان ٨٧ ـ ٨٨ .

رمضان لخمس أو ست وتسعين[1] ـ والله أعلم ـ ؛ فأنشأ الفرزدق بن غالب يقول :

ليبك على الإسلام من كان باكياً	على الدين أو مستوحش الليل خائفُ
وأرملة لما أتاها نعيه	أجادت له بالواكفات الذوارف
وقالت لأتراب لها قمن حسراً	فقد مات راعي ذودنا بالتألف
فما ضمنت أرض كمثل ابن يوسف	ولا خط يوماً في بطون الصحائف

قال : واتصل موت الحجاج بالوليد بن عبد الملك فأظهر عليه الحزن والجزع أياماً كثيرة .

ذكر ولاية يزيد بن أبي كبشة على العراق ومسير قتيبة إلى فرغانة

قال : ثم دعا الوليد بن عبد الملك برجل يقال له يزيد بن أبي كبشة السكسكي فاستعمله على العراق في موضع الحجاج ، وأمره أن يقر قتيبة بن مسلم على خراسان . قال : فأقبل يزيد بن أبي كبشة حتى نزل العراق ، ثم كتب إلى قتيبة بن مسلم يخبره بولايته على العراق ويأمره بالمسير إلى فرغانة[2] ويحثه على ذلك .

قال : فلما ورد كتاب يزيد بن أبي كبشة على قتيبةُ نادى في أصحابه فجمعهم وأقرأهم الكتاب ، ثم أمرهم بالتجهز إلى فرغانة لمحاربة أهلها . قال : فأجابه الناس إلى ذلك ، فسار قتيبة في جيش عظيم حتى نزل أرض فرغانة ، فجعل يقتل ويسبي حتى انتهى إلى الشعب الذي ينتهي منه إلى الصين ، وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة . ثم أقبل قتيبة حتى نزل على ملك فرغانة واسمه باشك وكان له حصن وثيق يقال له كذه ، وقد جمع باشك في ذلك الحصن جميع ما يحتاج إليه من آلة الحصار ؛ قال : فأقام عليه قتيبة سبعة أشهر حتى فني ما كان عنده ، ثم خدعه قتيبة فاستنزله من حصنه بغير أمان ، ثم قدمه فضرب عنقه صبراً . ثم احتوى على أمواله وقليله وكثيره ، فأخرج من ذلك كله الخمس ، ثم وجه به إلى يزيد بن أبي كبشة أمير العراقين ، وقسم باقي ذلك في المسلمين ؛ فأنشأ حاجب بن ذبيان المازني في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

---

(١) الطبري ٤٩٣/٦ .

(٢) يفهم من رواية الطبري أن قتيبة غزا فرغانة سنة ٩٤ وذلك قبل موت الحجاج .

كـم مـن عـدو قـتـلـت ذي كـلـب جهم الـمحيـا صبحت بـالـحـرب
إلى آخرها .

قال : وبلغ الوليد بن عبد الملك أن قتيبة بن مسلم قد فتح فرغانة وظفر بأهلها وقتل ملكها ، فكتب إليه[1] : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين قد عرف بلاءك[2] في عدو المسلمين ونكايتك في المشركين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كل الذي تحب ، فأتمم[3] مغازيك وانتظر ثواب ربك ، ولا تغب أمير المؤمنين من كتبك حتى كأنه ينظر إلى جهادك والثغر الذي أنت فيه ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ـ .

ذكر فتح كاشغر من أداني مدائن الصين ووفاة الوليد بن عبد الملك

قال : فلما فتح قتيبة فرغانة وكان من أمرها ما كان نادى في الناس فجمعهم ثم سار بهم إلى كاشغر[4] ، وكاشغر من أداني مدائن الصين . قال : فسار إليهم قتيبة بخيله ورجله ، حتى إذا تقارب من بلادهم نزل بعسكره في أداني أرضهم ، ثم دعا برجل من أصحابه له كثير بن أيم الرياق[5] فضم إليه سبعة آلاف رجل من فارس وراجل ووجه بهم إلى كاشغر ، قال : فأقبل كثير حتى نزل عليهم فقاتلهم قتالاً شديداً ، وسبى منهم مائتي رأس ، فختم رقابهم ووجه بهم إلى قتيبة ؛ فأنشأ نهار بن توسعة يقول في ذلك :

لـقـد ذاقـت بـنـو الأتـراك حـربـاً وذلاً لـيس بـالـذل الـحـقـيـرِ
وكم في الـحـراب حمـق من أمـيـر وكـم في الـحـرب حـزم من أمـيـر

قال : ثم رجع قتيبة بن مسلم من غزوته تلك وتوفي الوليد بن عبد الملك . فكان ملكه تسع سنين وثمانية أشهر ، وتوفي بدمشق في يوم السبت في النصف من

---

(١) انظر الطبري ٦/٤٩٢ ـ ٤٩٣ .
(٢) الطبري : بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين .
(٣) الطبري : فالمم .
(٤) وكان ذلك في سنة ٩٦ هـ .
(٥) في الطبري ٦/٥٠٠ كثير بن فلان .

جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وهو يومئذ ابن سبع وأربعين سنة[1] ، وكانت وفاته بعد وفاة الحجاج بأحد عشر شهراً ـ والله أعلم ـ .

ذكر ولاية سليمان بن عبد الملك وخبر يزيد بن المهلب

قال : فلما توفي الوليد بن عبد الملك صار الأمر إلى أخيه سليمان بن عبد الملك ، فدعا سليمان بيزيد بن المهلب فخلع عليه وحمله وعزم على أن يوليه العراقين : البصرة والكوفة . فقال له يزيد بن المهلب : يا أمير المؤمنين ! إن العراق قد أجبر به الحجاج بن يوسف في ولايته وأنا رجل من أهل العراق ، ومتى وليته وقدمت عليهم أخذتهم بالخراج ، والخراج لا يستخرج إلا بالضرب والشتم والحبس الشديد ، ومتى فعلت هذا بهم أكون عندهم كالحجاج فتغلظ عليّ قلوبهم ، فإن رأى أمير المؤمنين أيده الله أن يعفيني من ذلك ، وأنا أدله على رجل بصير بأمر الخراج وسياسة الأمور فيوليه إياها ، قال سليمان : ومن هذا الرجل ؟ فقال : صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم ، فقال سليمان : فإنا قد قبلنا ذلك منك ووليناك خراسان إن أحببت ، فقال يزيد : يا أمير المؤمنين ! تلك غايتي ومنيتي . قال : فدعا سليمان بن عبد الملك بصالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم فعقد له عقداً وولاه العراق ، وعقد ليزيد بن المهلب بلاد خراسان حربها وخراجها كما كان في أول مرة[2] .

ذكر ابتداء خلاف قتيبة بن مسلم على سليمان بن عبد الملك وعصيانه إياه

قال : [فخرج] يزيد بن المهلب من الشام أميراً على خراسان غير أنه صار إلى البصرة ليجتمع إليه الناس من إخوته وبني عمه ومواليه ، قال : وبلغ ذلك قتيبة بن

---

(١) انظر في مدة خلافته ومقدار عمره ويوم وفاته الطبري ٤٩٥/٦ ابن الأثير ٢٣٢/٣ العقد الثمين ٨٧/١ مروج الذهب ١٩٢/٣ .

(٢) في الطبري ٥٠٦/٦ عزل سليمان يزيد بن أبي مسلم عن العراق وأمر عليه يزيد بن المهلب وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج .
وفي البداية والنهاية ١٨٨/٩ ولى على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب فإعادته إلى إمرتها بعد عشر سنين .

مسلم فاتقى على نفسه لما كان ارتكب من آل المهلب في ولاية الحجاج ، فنادى في الناس فجمعهم إليه ثم قال : أيها الناس ! إن خليفتكم الوليد بن عبد الملك قد مضى لسبيله كما قد علمتم ، وقد صار الأمر إلى أخيه سليمان بن عبد الملك ، وقد علمتم منزلة يزيد بن المهلب منه ، وقد بلغني أنه قد ولي هذا البلد وأنا أكره أن أكون في بلد وفيه مثل يزيد بن المهلب ، وأنا ناظر في أمري بعد هذا ـ والسلام ـ[1] .

ثم دخل قتيبة إلى رحله وكتب إلى سليمان بن عبد الملك يهنئه بالخلافة ويعزيه عن أخيه الوليد ، ووجه بالكتاب مع رجل من الأزد ، فلما ورد كتاب قتيبة على سليمان بن عبد الملك وقرأه أقبل على الرسول فقال : كيف رأيت قتيبة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! رأيته كارهاً لولاية يزيد بن المهلب خراسان ، وأظنه سيخالف على أمير المؤمنين . قال : فكتب سليمان إلى قتيبة : أما بعد ، فإن الناس قد اشتد عليهم البلاء في ولاية الحجاج من الخوف والحبس والتشريد حتى ضاقت صدورهم ، وقد أحب أمير المؤمنين أن يحل عقد الخوف عنهم وأن ينعشهم بالعدل والإنصاف والأمن ، وقد فهم أمير المؤمنين كتابك وتهنئتك وما قد أضمرت في نفسك من الخلاف ، فلا تفسدن صالح عملك بشق العصا فإن أمير المؤمنين[2] وإن عزلك عن خراسان ولاك غيرها ، فأقبل إلى أمير المؤمنين فيمن أحببت من إخوتك وقوادك آمناً مطمئناً ـ والسلام ـ .

قال : فلما ورد كتاب سليمان بن عبد الملك على قتيبة جعل يحرك رأسه ثم أنشأ يقول :

رماني سليمان بأمر أظنه ... سيحمله مني على شر مركبِ
رماني بجبار العراق ومن له ... على كل حي حد ناب ومخلبِ
وللموت خير من حياة ذليلة ... وحبل ضعيف قد وهى متقضبِ
وللترك أدنى في الوداد مودة ... وأقرب مني من بنيّ المهلبِ

قال : فوثب إليه رجل من أصحابه يقال له جهم بن زحر الجعفي فقال : أيها

(١) في الطبري ٥٠٧/٦ وفتوح البلدان ص ٤١١ أن قتيبة بن مسلم خاف سليمان بن عبد الملك واستوحش منه لأنه كان قد سعى في بيعة عبد العزيز بن الوليد ودفع ولاية عهد الوليد عن سليمان أخيه .

(٢) يرد سليمان على إشارة قتيبة وقد وردت في كتابه إليه أنه على طاعته ونصيحته إن لم يعزله عن خراسان . (انظر الطبري ٥٠٧/٦ وابن الأثير ٢٣٤/٣) .

الأمير ! إنك قد أخذت في شيء لا يدرى ما هو فاشرحه لنا واسلك بنا سبيلاً نعرفه ، فقال قتيبة : إياك عني ، واسمعي يا جارة ! قال : فعندها وقع في قلوب الناس وعلموا أن قتيبة مخالف على سليمان بن عبد الملك وأنه قد عزم على العصيان، فأنشأ بعضهم في ذلك يقول :

أقتيب إنك قد أتيت عظيمة ... فانظر قتيبة أين أين المهربُ
أصبحت ناكث بيعة أعطيتها ... طوعاً فجلدك للخلافة أجربُ
مهلاً فإنا لا نجيبك والذي ... تدعو إليه من أمورك أعجبُ
ما ابن المهلب بالذي يزرى به ... نقص ولا في أمره متغلبُ
ولأنت أحقر والذي أنا عبده ... في عينه من بقة تتذبذبُ
فانظر لنفسك يا قتيبة فربما ... نظر السفيه فضاق عنه المهربُ

قال : ثم دعا قتيبة برجل من أصحابه فوجه به إلى نيسابور وقال له : كن هنالك مقيماً واكتب إليّ بالأخبار الصحيحة من أمر يزيد بن المهلب حتى أعمل على حسب ذلك ، وانظر أن لا تخفي عليّ شيئاً من الأخبار . قال : فخرج ذلك الرجل حتى صار إلى نيسابور فنزلها ، ثم جعل يستخبر الأخبار المتواترة بالصحة أن سليمان بن عبد الملك قد ولى يزيد بن المهلب أرض العراق وقد دفع إليه آل أبي عقيل من أهل بيت الحجاج ليستأديهم الأموال - والسلام - .

قال قتيبة : لئن كان ولاه العراق فقد ولاه خراسان ، اللهم ! إني أسألك ميتة كريمة ! قال : ثم عزم قتيبة على أن يأتي خوارزم فيتحصن بها ، ثم بدا له في ذلك الرأي وعزم على أن يأتي فرغانة فيتحصن بها ، ثم إنه قعد فافتعل كتاباً على لسان سليمان بن عبد الملك : أما بعد ، يا قتيبة ! فقد بلغ أمير المؤمنين في الآثار الصادقة أن خليفة من خلفاء بني أمية اسمه اسم نبي يفتح الله على يديه مدينة القسطنطينية ، فيجد فيها قميص آدم وجبة حواء ومائدة عيسى ابن مريم ، ويفتح الله له أرض الصين فيحتوي على أموالها ، وقليلها وكثيرها ، وقد توجه أمير المؤمنين نحو القسطنطينية واثقاً بالله وبالأخبار الصادقة أن الله عزَّ وجلّ يفتحها على يديه ، فانظر يا قتيبة إذا ورد عليك كتابي هذا فاغز بمن معك من المسلمين إلى أرض فرغانة ، ثم سر منها إلى الصين ، وعليك بالجد والجلد في أمر الله ، فإن أمير المؤمنين واثق بطاعتك ، عارف بيمنك وبركتك لما كان من العدو ومنك ، وأنه رافعك وزائدك وصانع إليك ما لم يصنعه إلى

احد ممن كان قبله من الخلفاء ـ والسلام ـ ،قـال : ثم جمع قتيبـة الناس فـأقرأهم الكتاب وأمرهم بالإستعداد والتأهب والمسير إلى فرغانة .

قال : فتجهز النـاس وخرجـوا على كره منهم ، واتصـل الخبر بسليمـان بن عبد الملك ، فكتب إلى يزيد بن المهلب فأشخصه من البصرة إلى ما قبله ، ثم قال : اعلم أن قتيبة بن مسلم قد خاف من ولايتك أرض خراسان خوفاً شديداً لا يكون لنا معه طاقة ، فالرأي أن تكتب إليه كتاباً تزين له المسير إلى فرغانة وتصوب له رأيـه وتأمره أن لا يخرج عنها حتى يفتح الله قلاعها ، وتأمر الرسول الذي يصل إليه بالكتاب أن يقول للناس بأن أمير المؤمنين قد زادكم في العطايا مائة مائة ، وقد أذن لمن أحب منكم القفول أن يقفل إلى منزله ، فإن الناس يحبون القفول إلى منازلهم وقتيبة يمنعهم من ذلك فيخالفونه .

قـال : فكتب يزيـد بن المهلب إلى قتيبة بن مسلم بمـا أمر بـه سليمـان بن عبد الملك ، فلما ورد الكتاب على قتيبة فرح بذلك واستبشر ، ثم خرج إلى الناس فقرأ عليهم ، فلما فرغ من قراءة الكتاب قام الرسول فقال : أيها النـاس ! إن أمير المؤمنين قد زادكم في العطاء مائة مائة وقد أذن لمن أحب منكم القفول إلى منزله فليقفل . قال : فعلم قتيبة أن هذا الرسول قد أغرى به الناس ، فقال : أيها الناس ! إن هذا الرسول يمنيكم الضلال والأبـاطيل ، إنـه يريـد بكم غير مـا تظنـون ، إن سليمان بن عبد الملك إنما يدعوكم إلى أن تبايعوا ابنه أيوب ، وأيوب غلام لا تحل ذبيحته ، والله إن غلامي هذا الذي يخدمني لأفضل من أيوب بن سليمان .

قال : ثم دخل قتيبة إلى رحله فكتب إلى سليمان بن عبد الملك ثلاثة كتب : كتاب منها في طومار يذكر فيه طاعته لعبـد الملك بن مروان ولابنه الوليد ، وأنه له[1] على مثل ما كان [لهما][2] عليه في أول أمره[3] ؛ وكتاب في ثلث طومار فيه فتوحه وأيامه وقدره عند العجم وبعـد صوتـه فيهم ، ويذم آل المهلـب ويحلف بـالله لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخالفنه[4] وليفتقن عليه فتقاً عظيماً ؛ وكتاب

---

(١) عن الطبري ٥٠٧/٦ .

(٢) عن الطبري .

(٣) زيد في الطبري : من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان .

(٤) الطبري : ليخلعنه .

في ربع طومار بخلع سليمان والخلاف عليه . ثم قال : من يبلغ كتبي هذه إلى سليمان بن عبد الملك فله دينه ! فقال له مولى له[١] : أنا أبلغها فهاتها ! قال : فدفع قتيبة كتبه هذه إلى مولاه ثم قال : أوصل هذا الطومار الأكبر إلى سليمان بن عبد الملك أنت بنفسك ، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثاني ، [فإن قرأه وألقاه إلى يزيد فادفع إليه الثالث][٢] فإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحبس الكتابين الآخرين معك ولا تدفعهما إليه .

قال : فقدم رسول قتيبة بن مسلم إلى الشام ووافاه يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك ، فدخل ودفع الطومار الأكبر إلى سليمان ، فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد ، فدفع الثاني إليه فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد ، ثم دفع إليه الثالث فقرأه ووضعه إلى جانبه ثم تبسم وألقاه إلى يزيد[٣] وقال : لقد ظلمنا قتيبة وإنه لعظيم الغناء حسن البلاء ، ثم نهض وأمر برسول قتيبة فحول إلى دار الضيافة وأخذ الكتاب الثالث . فلما أمسى دعا سليمان برسول قتيبة فأعطاه صرة فيها دنانير فقال : هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك قتيبة على خراسان مع رسولي هذا . قال : ثم وجه سليمان بن عبد الملك معه برجل من عبد القيس يقال له صعصعة[٤] ، فخرجا حتى إذا صارا بحلوان تلقاهما الناس بخلع قتيبة وعصيانه ، قال : فمضى رسول قتيبة ورجع رسول سليمان إلى الشام .

قال : ودخل رسول قتيبة إلى خراسان فقال له قتيبة : وما وراءك؟ فقال : ورائي أني قد كنت أتيت بعهدك من أمير المؤمنين ، فلما صرت إلى حلوان وسمع الرسول بخلعك رجع بعهدك إلى صاحبه . قال : فندم قتيبة على ما عزم عليه من الخلع والعصيان ، ثم كتب إلى البحتري بن عبد الله الأسدي ، وكان كبيراً أثيراً عظيم القدر عند أهل خراسان ، فقال له : يا بحتري ! إني قد جربت منك يمناً ورأياً ، وقد كان

---

(١) الطبري : رجل من باهلة .

(٢) زيادة عن الطبري .

(٣) في الطبري ٦/٥٠٨ فقرأه فتمعر لونه ، ثم دعا بطين فختمه ثم أمسكه بيده .
قال معمز بن المثنى : كان في الكتاب الأول وقيعة في يزيد بن المهلب ، وذكر غدره وكفره وقلة شكره ، وكان في الثاني ثناء على يزيد ، وفي الثالث : إن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنك خلع النعل ولأملأنها عليك خيلاً ورجالاً .

(٤) صعصعة أو مصعب كما في الطبري .

مني ما علمت ، ولست آمن سليمان فهات ما عندك ، قال فقال له البحتري : إذاً أخبرك بذلك أن القوم قد عرفوك وعرفوا منك الطاعة ، وقد علموا أن ما كان منك في العدو ليس بصغير ، فهم لا يستنقذونك مع قدرك وموضعك وبعد صوتك . قال فقال له قتيبة : يا أعور ! أتظن أني أخاف القتل ، ما أخاف ولكني لا آمن أن يولي يزيد بن المهلب خراسان فيدعوني والناس حضور عنده فيقصر بي ، والموت عندي أيسر من ذلك ، قال فقال له البحتري : أيها الأمير أصلحك الله ! إن ظني بيزيد بن المهلب وإن ولي خراسان فإنه لا يفعل بك ما تظن ، وإن فعل بك ما تخاف لن ينقصك ذلك . قال فقال قتيبة : ذر عنك هذا ، ما الذي تقوله الناس ؟ فقال : يقولون بأنك خالع عاص ؛ فقال قتيبة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال البحتري : نعم ما قلت ، ولكن انتظر رسولك وما يأتيك به من عند أمير المؤمنين ، فإني أظن أنه سيأتيك بعهدك ، فلا تعجل فتعرض نفسك وأهل بيتك للحرب والقتال ، فإنه لا يدرى على ما ينجلي أمرك ، قال فقال له قتيبة : ويحك يا بحتري ! إنه قد جاء رسولي بعهدي إلى حلوان ، غير أن رسول أمير المؤمنين رجع بالعهد إلى الشام ، وأما الحرب والقتل فوالله ما من غائب هو أحب إليّ من الموت وإني لأدعو بالأعاجم خالياً ومعهم خناجرهم وسيوفهم ، وما منهم إلا من قد وترته بشتم أو بضرب أو بقتل ذي محرم فأتهددهم بالضرب والقتل فما يزيدهم ذلك إلا خضوعاً وذلاً ، وإني لأخرج ليلاً فأمشي وحدي في قميص بين قوم ما منهم رجل إلا وقد نالته مني عقوبة فما يعرض لي أحد منهم ، ولقد دعوت بصاحب دواتي وقد كنت ضربته بالأمس فدعوته وأنا وحدي ، فقام بين يدي طويلاً سيفه معه وخنجره في وسطه وأنا لا أكلمه ، وأقول إنه سيفتك بي ، فما فعل بي شيئاً ثم خرج من بين يدي فزعاً مرعوباً ، فلست أخاف القتل .

قال : ثم أرسل قتيبة إلى الحضين بن المنذر البكري فدعاه ثم قال : يا أبا محمد ! إني أريد أمراً وأخاف أهل خراسان وانتقاصهم على المسلمين ، فقال له الحضين بن المنذر : أيها الأمير ! وما هذا الأمر الذي تريد ؟ قال : أريد أن أوجه إلى كاشغر رجلاً في خيل وإلى طريق فأحصن ذلك الطريق ، قال فقال له الحضين بن المنذر : أيها الأمير ! ههنا طريق واحد إن قدرت على إحكامه فالطريق كلها آمنة ، قال قتيبة : وأي طريق هذا ؟ فقال : طريق الأجل المقدر ، قال : فغضب قتيبة وأخذ قلنسوته فضرب بها الأرض حتى انشقت ، قال : فقال له الحضين : بئسما تفاءلت به

لنفسك أيها الأمير ، فقال قتيبة : لأنك تلقاني بكل ما أكره في كـل وقت . قال : فوثب الحضين فخرج من عنده .

وأرسل قتيبة إلى إخوته فشاورهم في أمره ، فقال عبد الرحمن : قم فصر إلى سمرقند ، وقل للناس من أحب المقام فله المواساة ، ومن أراد الانصراف إلى بلده فغير مستكره ، فإنه لا يقيم معك إلا الناصح لك ، ثم حينئذ اخلع سليمان فإنه لا يـأمنك ؛ فقـال له عبـد الله بن مسلم : اخلعه[1] . قـال : فأخـذ قتيبة بـرأي أخيه عبد الله ، فأنشأ نهار بن توسعة يقول في ذلك :

شمـر ونمّـر يـا قـتيبـة بن مـسلم   فـإن يـزيـداً ظـالـم وابـن ظـالـمِ
ولا تـأمـنـن الـثـائـريـن ولا تـنـم   فمـا ليـل أصحـاب التراب بنـائمِ
ولا تـثقـن بـالأزد فـالـغـدر رأيـهـم   ومكـر فمنهـم مستحـل المحـارمِ
وإنـي لأخشـى يـا قـتيـب عـليكـم   معـرة يـوم مثـل يـوم ابـن خـازم

ذكر كلام قتيبة في خطبته

قال : فعندها نادى قتيبة في الناس فجمعهم ، ثم قام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[2] : أيها الناس ! إنكم قد علمتم أني وليت أموركم فضممت الأخ إلى أخيه والابن إلى أبيه ، وقسمت فيئكم ، ووفرت عليكم عطياتكم ، وقد جربتم الولاة قبلي ، أتاكم أمية بن عبد الله فكان كاسمه في رأيه وعقله ، يخضع في كور خراسان لا يجبي فيئاً ولا ينكىء عدواً ولا مذعناً للطاعة ولا منيباً للمعصية ، كتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بأن خراسان لا يقوم لمطبخه ؛ ثم جاءكم من بعده المهلب بن أبي صفرة فدوّم بكم ثلاث سنين لا تدرون في طاعة أنتم أم في معصية ، حتى بليت ثيابكم وذهبت أموالكم ، لا يجبي فيئاً ولا ينكىء عدوّاً ؛ ثم جاءكم بنوه منهم ابن الرحمة[3] ، [وإنما خليفتكم][4] يزيد بن ثروان هبنقة[5] القيسي بل هو

---

(١) الطبري : اخلعه مكانك ، وادع الناس إلى خلعه ، فليس يختلف عليك رجلان .
(٢) انظر الطبري ٦/٥٠٩ وابن الأثير ٣/٢٣٥ .
(٣) يريد يزيد بن المهلب ، وبالأصل دحمة .
(٤) زيادة عن الطبري .
(٥) عن الطبري وفتوح البلدان ص ٤١٢ وبالأصل : بوران هبنقة . وهو يزيد بن ثروان بن هبنقة ذو الودعات القيسي المضروب به المثل في الحمق .

أحمق منه ، وأقل عقلاً من باقل[1] ، وقد رأيتم عدلي فيكم وإنصافي إياكم ، فهاتوا ما عندكم . قال : فما أجابه أحد بشيء ، قال : فغضب قتيبة لذلك ثم قال : يا أهل السافلة ! ولا أقول : يا أهل العالية ؛ وبني بكر بن باطل ! ولا أقول : بكر بن وائل ؛ ويا بني ذميم ! ولا أقول : بني تميم ؛ ويا أهل الشح والبخل بأي يوميكم تخوفونني أم بأي يوم تمنون عليّ ! أبيوم حربكم أم بيوم سلمكم ؛ وأنتم يا معشر الأزد تبدلتم بقلوس[2] السفن أعنة الحصن[3] ، وبالمرادى[4] الرماح ، وبالمجاذيف السيوف ؛ وأنتم أعراب . وما الأعراب ! ولعنة الله على الأعراب ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾[5] جمعتكم من منابت الشيح والقيصوم كما يجمع قزع[6] الخريف بعد ركوبكم الأتن والبقر في جزيرة بني كاوان[7] ، حتى إذا ملأتم أيديكم من غنائم الأعاجم وخدمتكم أبناء ملوك الترك والسغد قلتم كيت وكيت وذيت وذيت ، أما والله لئن وليكم يزيد بن المهلب ليعصبنكم عصب النسعة[8] وليقرعنكم قرع المروة . قال : فسكت الناس فما أجابه أحد بشيء ، فجعل يتمثل بهذا البيت :

إن امرأ ملك اليمامة كلها   أعطى الملوك مقادة لم يضلل

قال : فنهض الناس وتفرقوا وهم غضاب من شتمه لهم وسوء مقالته فيهم . ودخل قتيبة إلى رحله وأقبل إليه إخوته وأهل بيته فقالوا له : أيها الأمير ! ماذا أتيت إلى الناس في هذا اليوم ! والله ما قصرت عن أهل العالية وهم شعارك ودثارك ، ثم تناولت بني بكر بن وائل وهم أنصارك ، ثم لم ترض حتى تناولت بني تميم وهم إخوتك ، ثم تناولت الأزد وهم يدك وجناحك ، فقال قتيبة : لأني تكلمت فما أجابني أحد منهم بشيء ، وقد مضى القوم فذروهم ، إن أهل العالية كابل الصدقة جمعت من كل أوب ، وبنو بكر أمة لا تمنع يد لامس ، وتميم جمل أجرب ، وعبد القيس ما

---

(١) يضرب المثل بعيه ، وهو رجل من أياد (انظر مجمع الأمثال للميداني ١/٣٢٩) .

(٢) قلوس جمع قلس وهو حبل ضخم من ليف أو خوص .

(٣) الحصن جمع حصان .

(٤) المرادى واحدها المردى خشبة تدفع بها السفينة تكون في يد الملاح .

(٥) سورة التوبة الآية ٩٧ .

(٦) القزع كل شيء يكون قطعاً متفرقة .

(٧) هي جزيرة عظيمة وهي جزيرة لافت وهي من بحر فارس بين عمان والبحرين .

(٨) الطبري : عصب السلمة .

يضرب الحمار ببطنه[1] ، والأزد أعلاج وأشرار خلق الله ، والله أن لو ملكت أمرهم لوسمتهم .

قال : فعندها مشى الناس إلى عبد الرحمن القسري ، وكان قتيبة قد أضر به ، فكلموه وقالوا : أما رأيت ما تكلم به هذا الرجل فينا وفي قومنا وعشائرنا ؟ فقال : قد بلغني ذلك ، فما تريدون ؟ فقالوا : نريد أن تدخل إليه فليأذن لنا في القفول إلى بلادنا ، وهو أعلم بعد ذلك إن شاء فليخلع سليمان بن عبد الملك وإن شاء فليسمع وليطع ، فإن هو لم يأذن لنا فلا يلومن إلا نفسه . قال فقال لهم عبد الرحمن القسري : يا هؤلاء ! أنتم تعلمون الذي بيني وبينه من التباعد ، ولكني ألقى أخاه عبد الرحمن بن مسلم فإنه من أمثلهم ، فقالوا : ذاك إليك .

قال : فأقبل عبد الرحمن القسري حتى دخل على عبد الرحمن بن مسلم فسلم عليه ثم قال : إني لأحسب أن أخاك قتيبة قد خذل ، ولولا ما كان منه إليّ لكلمته في ذلك لأن الناس قد هموا به ، فليأذن لهم بقفولهم إلى بلادهم من قبل أن يتفاقم الأمر . قال فقال له عبد الرحمن : إن قتيبة لا يخاف هذا الكلام ، إني لو بعثت أمتي لفرقتهم في الجبال ؛ قال : فغضب القسري من ذلك ثم قال : إنك لو بعثت أمتك لنكحوها ورجعت إليك مفضوضة . قال : ثم خرج القسري من عنده ، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم حتى دخل على قتيبة فخبره بما كان تكلم به القسري وما يتكلم به القسري .

قال : فبلغ ذلك عباد بن إياس الغنوي فأقبل حتى دخل على قتيبة فقال : أيها الأمير ! إنك قد أفسدت قلوب الناس عليك ، فناد فيهم بالقفول إلى منازلهم حتى تذهب عنك العامة وأهل الأحقاد ثم ترى رأيك بعد ذلك ؛ قال : لا أفعل ولا آذن لهم بالقفول . قال ، فادع إذاً بثقاتك من العجم ، فلا يشعر الناس إلا وأنت مشمر للحرب ، ثم ادع من تخافه على نفسك فاضرب عنقه من قبل إجماع الكلمة عليك ؛ قال قتيبة : لا أفعل ذلك . قال : فاعط الناس حقهم وأرضهم بالأموال ، قال : لا ولا كرامة ! قال : فأنت والله مقتول .

قال : ثم خرج عنه عباد بن إياس الغنوي ، ونادى قتيبة في الناس فجمعهم ثم خرج إليهم فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أهل خراسان ! حتى متى

(١) الطبري : فما يضرب العير بذنبه .

يتبطح أهل الشام في فيئكم ، والله لقد أدنوني وأقصوكم ، وأكرموني وهانوكم ، ورفعوني ووضعوكم ؛ يا أهل خراسان ! أتيتكم وأنتم رجلان : رجل قد نزع سنان رمحه فجعله محراثاً يحرث به ، ورجل منكم على حربه إن هدرت هدر وإن سكنت استقر ، لباسكم العباء ، وطعامكم الخشب ، فأطعمتكم الجرمق ، وألبستكم النرمق ، وبصرتكم ما لم تكونوا تتناولونه قبل ذلك ، فنطقت فيكم الشعراء ، وتفوهت فيكم الأدباء . خرجتم مع ابن الأشعث ثم أتيتموني خائفين من سيف الحجاج فآمنتكم وكففت عنكم ، حتى إذا تم لكم الأمن وأمنتم النقمة أشرتم وبطرتم النعمة ، فأنشأتم تضربوني في الأمثال وتمنون الأماني ، والله أن لو شئت لكنت أعز العرب دعوة وأكثرها ناصراً بما قد أفاءه الله عليّ . ثم قال : أين رماة الحدق ! فقام أبناء ملوك السغد وأبناء ملوك الترك والطراخنة والبرقش وأبناء ملوك بخارستان وغيرهم من أبناء ملوك خراسان ، وهم يومئذ زيادة على عشرة آلاف غلام لا يسقط لأحد منهم سهم . قال قتيبة: هؤلاء أعظم الأعاجم أخطاراً ، وأكرمهم نجاراً ، وأضرب منكم بالسيوف ، وأثبت منكم عند اللقاء . قال : فسكت القوم فما أجابه أحد بشيء من ذلك ، فازداد غضبه ، ثم سكت وتنحى عن موضعه ذلك ودخل إلى رحله ، ونهض الناس مزمعين[1] على حربه وقتله .

ذكر مقتل قتيبة بن مسلم واجتماع أصحابه على ذلك

قال : ثم إنهم مشوا إلى الحضين بن المنذر فقالوا له : يا أبا محمد[2] ! هل لك أن نوليك أمورنا إلى أن يقدم علينا أمير من عند سليمان بن عبد الملك ويكفينا أمر قتيبة ، فقد تعدى طوره وجاوز قدره ؛ فقال الحضين : لا حاجة بي في ذلك ، فقالوا : ولم ؟ قال : لأن مضر خراسان إنما ثلاثة أخماس[3] ، بنو تميم خاصة الجيش وأكثرها فرسان ، فهم لا يرضون أن يكون في غيرهم ، وأخرى فإنكم إن أخرجتموهم من هذا الأمر أعانوا قتيبة عليكم . قال فقالوا له : يا أبا ساسان ! إن قتيبة قد وتر بني تميم بقتل ابن الأهتم[4] فقال : صدقتم ولكنهم يتعصبون للمضرية .

---

(١) الأصل : مزمعون .

(٢) في الطبري : أبا حفص ، وكان يكتني في الحرب بأبي ساسان ، ويقال : كنيته أبو محمد .

(٣) عن الطبري وبالأصل : أجناس .

(٤) عن الطبري وبالأصل : بني الأبهم .

قال : فترك القوم حضيناً ، ثم صاروا إلى عبد الله بن حوذان الجهضمي ، وهو يومئذ سيد من سادات الأزد ، فكلموه في ذلك فلم يجبهم إلى شيء ، فرجعوا إلى الحضين بن المنذر فقالوا : يا أبا محمد ! إن بكر بن وائل لا تخالفك ونحن نوليك أمرنا ، فقال : ما أحببت أن يكون لي في هذا الأمر ناقة ولا جمل ، عليكم بغيري فإن قبائل مضر لا ترضى أن تسلبوها أمرها وتقتلوا ويولى الأمر عليها غيرها .

قال : فتركوه وأقبلوا إلى حيان[1] بن إياس العدوي[2] فقالوا له : نريد منك أن تمشي معنا إلى الحضين بن المنذر فتكلمه في هذا الأمر . فأقبل حيان إلى الحضين فقال : يا أبا محمد ! ما الذي تكره من أن تخلع قتيبة ونوليك هذا الأمر ؟ فقال الحضين : أذكرك الله أبا معمر أن تراجعني في هذا الأمر ، فوالله ما أستطيع أن أستمعه ـ وكان الحضين في وقته ذلك قائماً فجلس ، ثم قال : والله ما يحملني رجلاي مخافة أن يبلغ قتيبة ذلك ، فذرني وعليك بغيري .

فخرج حيان بن إياس من عند الحضين بن المنذر ، ثم بعث إلى قوم من قبائل مضر فجمعهم ، ثم قال : إنه لم يكن لهذا الأمر إلا هذا الأعرابي ـ يعني وكيع بن أبي أسود التميمي[3] ، فإنه رجل مقدام بطل ، لا ينظر في عاقبة ، وله عشيرة تطيعه وتقبل منه[4] ، فصيروا إليه . ثم صار القوم إلى وكيع بن أبي سود فكلموه في ذلك ، فقال وكيع : هات يدك يا حيان ! فمد حيان يده فبايع وكيعاً .

قال : واتصل الخبر بقتيبة بن مسلم بأن حيان بن إياس العدوي[5] قد بايع وكيعاً وأنه قد أفسد عليه الناس ، فقال قتيبة : والله لقد حذرنيه الحجاج قبل هذا اليوم حين وليته أمر السغد ، فقال : احذره فإن لك منه يوماً أروباتا[6] .

قال : وجعل الناس يصيرون إلى وكيع بن أبي سود فيبايعونه سراً حتى بايعه

---

(١) عن الطبري وبالأصل : عباد .

(٢) عن الطبري وبالأصل : الغنوي .

(٣) انظر فتوح البلدان ص ٤١٢ البداية والنهاية ١٦٧/٩ ابن خلكان ٨٧/٤ ابن الأثير ٢٣٦/٣ .

(٤) زيد في الطبري ٥١٢/٦ وهو موتور يطلب قتيبة برياسته التي صرفها عنه وصيرها إلى ضرار بن حصين بن زيد الفوارس .

(٥) عن الطبري وبالأصل الغنوي .

(٦) كذا .

خلق كثير ؛ فجعل يتمثل بقول الأشهب بن رميلة حيث يقول :

سأجني ما جنيت وإن ركني لمعتمد إلى ركن ركين

قال : وبخراسان يومئذ من مقاتلة أهل البصرة أربعون ألفاً ، منهم بنو تميم عشرة الاف ورئيسهم يومئذ ضرار بن حصين بن زيد الفوارس بن حصين بن ضرار ، وعشرة آلاف من الأزد ورئيسهم يومئذ عبد الله بن حوذان الجهضمي ، والحضين بن المنذر البكري[1] ، وعبد القيس خاصة في أربعة آلاف[2] ، فهؤلاء كلهم[3] على قتيبة إلا من كان من قبائل قيس عيلان ، فإنهم كانوا مع قتيبة .

قال : وجعل قوم يأتون قتيبة ويقولون له : أيها الأمير ! عليك بالاستعداد والحذر فإن الناس قد بايعوا وكيعاً وخلعوك ، قال : فكان قتيبة لا يصدق بشيء من ذلك ويقول : هؤلاء قوم يحسدون وكيعاً لأنه يشرب في منزلي ويسكر حتى يخدر ويحمل من منزلي وهو سكران لا يعقل ، وهو يريد الخروج والخلاف عليّ ، هذا لا يكون أبداً . قال : فجعل الناس يبايعون وكيعاً ويقولون له : يا أبا المطرف ! إنما نبايعك لأمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ولمن يوليه علينا ولمن يستخلفه سليمان على أنك تسمع له وتطيع فلا تدعين غير هذا . قال وكيع : ما أدّعي غير هذا وأنا سامع مطيع لكل من يقدم من عند أمير المؤمنين . قال : ودس قتيبة إلى وكيع رجلاً يقال له ضرار بن سنان[4] الضبي على أنه يبايع وكيع ويأتي قتيبة بالخبر ، قال : فذهب الضبي إلى وكيع فبايعه ثم جاء إلى قتيبة فخبره بذلك . قال : فأرسل قتيبة إلى وكيع أن صر إلينا أبا المطرف ! فإنا قد احتجنا إلى مناظرتك ، قال : فجاء رسول قتيبة إلى وكيع ووكيع في وقته ذلك قد طلى رجليه مغرة[5] وعلق على ساقيه خرزاً وعنده رجلان من زهرة[6] يرقيانه من الحمرة ، فقال له الرسول : أجب الأمير أبا المطرف ! فقال وكيع : قد ترى ما بي فكيف آتيه وأنا على هذه الحالة . قال : فرجع رسول قتيبة

---

(١) وهو رئيس بكر وهم في سبعة الاف كما في الطبري .

(٢) ورئيسهم عبد الله بن علوان عوذي .

(٣) فاته : من أهل العالية تسعة الاف . يتم عددهم على أربعين الفاً .

(٤) عن الطبري ٥١٣/٦ وبالأصل « سيار » .

(٥) المغرة طين أحمر يصبغ به .

(٦) الطبري : زهران .

إليه فخبره بذلك ، فقال قتيبة : عُد إليه ! فقال الرسول : أصلحك الله ! فإني قد رأيت برجله شيئاً لا يقدر على الركوب ولا أظن ذلك الوجع إلا قاتله ، فقال قتيبة : لا شفاه الله مما به ! عد إليه فأتني به على سرير محمولاً ، فرجع الرسول إليه فقال له : يقول لك الأمير : إن لم تقدر على الركوب فتحملك الرجال على السرير ، فقال وكيع : إن الرجال يحركونني على السرير فتزداد علتي هذه ؛ قال : فرجع الرسول إلى قتيبة فأعلمه ذلك ، فقال قتيبة : يا غلام ! قل لشريك بن الصامت[1] : فلينطلق إليه وليأتني به سحباً على وجهه ، قال فقال ثمامة بن ناجذ[2] العدوي : أنا آتيك به أصلح الله الأمير ! قال : ثم أقبل ثمامة إلى وكيع فقال له : كن على أهبة فإن الرجل قد عزم على أخذك ، قال : ثم قعد ثمامة عند وكيع فلم يرجع إلى قتيبة، فقال قتيبة : أين شريك بن الصامت ؟ فقال : ها أنا ذا أصلح الله الأمير ! فقال : اذهب إلى وكيع فأتني به سحباً على وجهه ، فإن امتنع عليك فجئني برأسه . قال : فقام هريم بن أبي طحمة التميمي فقال : أنا آتيك به أصلح الله الأمير ! قال : وقام جماعة من بني تميم فقالوا : نحن نأتيك به أو برأسه أيها الأمير ! فلا تقلق . ثم ركبوا إلى وكيع فقالوا له : قم وإلّا هلكت وأهلكتنا معك ، قال : فدعا وكيع بسكين فقطع ما كان على ساقه من الخرز ، ثم جعل يرتجز ويقول :

شدا على من رامني لا انكشف ... يوماً لهمدان ويوماً للصدف[3]

قال : ثم دعا بسلاحه ودرعه فتدرع وتقلد سيفه وتناول رمحه ، ونادى في الناس فكأنهم إنما كانوا على أهبة ، ثم مضى وحده نحو فسطاط قتيبة وهو يقول :

سنجنح حمل مكروهة ... شدلها الشرسوف والقاصعا[4]

---

(١) زيد في الطبري : ورجل من غنيّ .

(٢) عن الطبري وبالأصل « ناحية » .

(٣) البيت في الطبري ٥١٣/٦ .

شدوا عليّ سرتي لا تنقلف ... يوم لهمدان ويوم للصدف

(٤) البيت في الطبري ٥١٤/٦

قرم إذا حمل مكروهة ... شد الشراسيف لها والحزيم

وقال قوم : تمثل وكيع حين خرج :

أنخن بلقمان بن عاد فجسنه ... أريني سلاحي لن يطيروا بأعزل

قال : فلقيه رجل من أصحاب قتيبة يقال له إدريس فقال له : أبا المطرف ! إنك قد خفت من الأمير ما لم يرده بك وقد آمنك ، فالله في نفسك . قال : فالتفت وكيع إلى أصحابه وقد لحقوا به فقال : أيها الناس ! هذا إدريس وهو رسول قتيبة يؤمنني إن أنا أتيته ، وكذب والله ابن الحدباء ! لا والله أو يؤتى برأسي أو أوتي برأسه ! قال : وجعل الناس ينادي بعضهم بعضاً وهم يقولون : افزعوا إلى وكيع شيخ تميم ، قال : وأقبل الناس من كل أوب ، وأقبل وكيع حتى وقف بإزاء فسطاط قتيبة ، فصار بنو تميم والأزد مقابل الفسطاط ، وقبائل ربيعة من وراء السرادق ؛ وقتيبة في أهل بيته ، وأقبلت قبائل قيس لينصروا قتيبة ، فعلموا أنهم لا طاقة لهم بأهل العسكر .

قال : وسمع قتيبة الضجة فقال : ما هذا ؟ قالوا : وكيع قد أقبل في عسكر ، قال : فدعا قتيبة دابته ليركبها فلم تقر الدابة ولم تقف ، فقال : نحوها ، فنحوها ، وقعد قتيبة على سريره وعليه قميص ورداء وهو معتم بعمامة بيضاء قد كانت أمه بعثت بها إليه قبل ذلك وقد احتبى بحمائل سيفه ، وعنده يومئذ إخوته وجماعة من أهل بيته وعشائره ، فقال له رجل من أصحابه يقال له ميسرة بن عبد الله الجدلي وكان شجاعاً بطلًا : أيها الأمير ! إن شئت أتيتك برأس وكيع ، فقال له قتيبة : اسكت ، فسكت . وأقبل رجل من موالي بني أسد يقال له يزيد بن مسلم ، وقد كان قتيبة قبل ذلك ضربه وحلق رأسه ولحيته وأطافه في عسكره ، فجعل يحرض الناس على قتيبة ويذكر من قتله قتيبة منهم قبل ذلك ويسميهم بأسمائهم ، ويقول : أين بنو الأهتم ؟ أين بشر بن صفوان ؟ أين ضرار بن حسه[١] بن القاسم بن زياد ؟ أين فلان ؟ وأين فلان ؟ قال : فجعل يزيد بن مسلم يحض بني تميم ويذكرهم ذحولهم وقتلاهم ويجدد أحقادهم . قال فقال قتيبة لرجل عنده : اخرج فناد : أين بنو عامر ؟ فقال له رجل من بني عامر : حيث تركتهم ، فقال قتيبة : أذكركم الله والرحم ! فناداه محفن بن جزء الكلابي[٢] : أنت قطعتها ، قال قتيبة : فلكم العتبى ، قال محفن[٣] بن جزء : لا أقالنا إذاً إن أقلناك ؛ قال : فجعل قتيبة يتمثل بهذين البيتين وهو يقول :

---

(١) كذا بالأصل ولم نظفر به .

(٢) عن الطبري ٥١٤/٦ وبالأصل : محرم به حرى .

(٣) بالأصل : محفر بن حرى .

يا قوم صبراً على ما كان من مضض إذ لم أجد لعتاة القوم أقرانا[1]
لو كان قومي أحراراً لقد منعوا سلوى يطائر عنه الناس خذلانا

قال : فقال رجل من أصحاب قتيبة يقال له صالح بن حيان مولى مصقلة بن هبيرة لغلام له : يا غلام ! ناولني قوسي ، فقال له صالح بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم : ليس هذا وقت قوس[2] .

قال : ثم ذهب صالح بن مسلم ليكلم الناس فرماه[3] رجل من بني ضبة يقال له سليمان[4] ويلقب بريح أترنج بسهم فصرعه ، فابتدره الناس فحمل إلى أخيه قتيبة ، وكان أكبر ولد مسلم ، فأدخل الفسطاط ورأسه مائل ، فقام إليه قتيبة فجلس عنده ساعة حتى قضى ، ثم رجع إلى سريره . وتقدم عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة ، فرماه مولى لبني حنيفة يكنى أبا فديك بسهم فقتله . ثم أقبل يزيد بن الأهتم الأزدي على قومه من الأزد فقال : أيها الناس ! تعلمون أن قتيبة بن مسلم هذا جعلني رئيساً عليكم ؟ فقالوا : اللهم نعم ، قال : فإني والله سمعته وهو يقول : والله لأستأصلن الأزد حتى لا يبقى لعمايتها سادة ولا قادة ! قال : ثم تقدم في قومه من الأزد نحو فسطاط قتيبة بن مسلم متمثلاً بهذا البيت وهو يقول :

أعلمه الرماية كل يوم فلما قال قافية هجاني

ويروى :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

قال : ثم تقدم سعد بن نجد الأزدي وجهم بن زحر الجعفي وفي يده راية له ، فنظر إليه حيان بن إياس العدوي[5] فحمل عليه ، وحمل عليه جهم فضربه بالسيف ضربة فوقع على معرفة البرذون فقطع تجافيفه وعنق الفرس ، ورمى جهم بنفسه من

---

(١) البيت في الطبري :

يانفس صبراً على ما كان من ألم إذ لم أجد لفضول القوم أقرانا

(٢) انظر الطبري ٦/٥١٥ .

(٣) عن الطبري ، وبالأصل فرآه .

(٤) وقيل بل رماه رجل من بلعم . وقيل إنه بعد رميه طعنه زياد بن عبد الرحمن الأزدي من بني شريك بن مالك .

(٥) بالأصل « الغنوي » وقد صححت في كل مواضع الخبر .

الفرس وحمل على العدوي برمحه راجلاً ، فهرب العدوي من بين يديه إلى قتيبة . قال : وصاح رجل من أصحاب وكيع : ما تنتظرون بالرجل ؟ تغدوا به قبل أن يتعشى بكم ! قال : فدعا وكيع بالنار والحطب فأحرق الناس[1] ، وبها نجوا ثم دنـوا من الفسطاط ، فدخل إلى قتيبة مؤذنه فقال : أيها الأمير ! على ماذا أقبل ؟ قال : على طاعة الله ورسوله محمد (صلّى الله عليه وسلّم وآله) ، فخرج المؤذن فقاتل حتى قتل ؛ وتقدم عبد الله بن وألان وعبد العزيز بن الحارث وميسرة [الجدلي] وعبد الرحمن بن عبد الله القسري ـ هؤلاء الأربعة ، فخرجوا من القارة خوفاً على أنفسهم أن يقتلوا ، وتقدم عبد الله وعبد الكريم والحصين وزياد[2] إخوة قتيبـة ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . وتقدم كثير بن قتيبة فقتل ؛ ثم تقدم مغلس بن عبد الرحمن بن مسلم ابن أخي قتيبة فقاتل فقتل . فقال قتيبة لرجل واقف بين يديه يقال له جنادة الوائلي : انج بنفسك ، فقال : لا والله وأقتل بين يديك ! أنا أسلمك ، قد أطعمتني الجـرمق[3] وألبستني النرمق[4] ! فقاتل فقتل . وخرجت أم ولد لقتيبة يقال لها الصماء فشد عليها رجل من القوم فقتلها . قال : وقتل حاجب قتيبة شريك بن الصامت ، وصبر قتيبة مع أخيه وهاجت بينهم قسطلانية ، ومالت الأزد وبنو بكر فقطعوا أطناب السرادق ، ثم هجموا على قتيبة ، وقصده رجلان أحدهما سعد بن نجد[5] الأزدي والآخر جهم بن زحر الجعفي ، فطعنه جهم بن زحر وضربه سعد بن نجد ، ويقال : أنهما جميعـاً ضرباه فقتلاه ؛ وقد ذكر ذلك الحضين بن المنذر البكري في قصيدة له حيث يقول :

ألم تـر جهمـاً وابن نجـد تعـاورا	بسيفيهمـا رأس الهمـام المتـوج
وما أدركت في قيس عيلان نـارها	بنـو شنفـر إلا بـأسيـاف مـذحـج
وإلا بفتيـــان العتيــك وغيــرهم	من الأزد في داج من الرهج أدعج
أتاها ابن زحر بعد ما هب جمعها	فبـاشـرهـا في حـرهـا المتـوهـج
أصـم غــدانـيّ كـأن جـبـيــنــه	مجـاجة نفس في أديم ممجمـج

---

(١) عبارة الطبري ٦/٥١٥ فأحرق الناس موضعاً كانت فيه إبل لقتيبة ودوابه ، ودنوا منه .

(٢) لم يرد في الطبري ولا في ابن الأثير .

(٣) في الطبري وابن الأثير : الجردق . وهو الرغيف بالفارسية .

(٤) النرمق : اللين بالفارسية .

(٥) في فتوح البلدان : مجد .

قال : ودخل عبد الله بن حوذان الأزدي إلى قتيبة فاحتز رأسه[1] ومضى به إلى الأزد . قال : وطلب وكيع بن أبي سود الرأس ، فقيل له : إن رأس قتيبة وخاتمه قد صار إلى الأزد ، قال : فغضب وكيع ثم قال : لا والله لا أبرح أو أوتى بالرأس ! وإلا ألقحت بها فتنة صماء ، وإلا ذهب رأسي مع رأسه . قال فقال بعض أصحابه[2] : يا أبا المطرف ! فإنك تؤتى بالرأس فلا عليك ! قال : وأقبل رجل من الأزد إلى قومه فقال : أحمقى أنتم ! بايعنا رجلاً وقلدناه أمورنا وعرض نفسه للتلف وتأخذون أنتم الرأس ؟ احملوا إليه الرأس حتى يصنع به ما يشاء ؛ قال : ثم أقبلوا بالرأس إلى وكيع وقالوا: يا أبا المطرف! إن هذا الذي احتز الرأس ـ وأومأوا إلى عبد الله بن حوذان أو عبد الله بن علوان ، قال : فأمر له وكيع بثلاثة آلاف درهم ، ثم بعث بالرأس إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان مع رجل يقال له سليط بن عطية[3] الحنفي وأنيف بن حسان[4] العدوي في رجال من قومها ، وكتب إليه يعلمه بقصة قتيبة بن مسلم وما كان من خلعه وعصيانه ؛ فأنشأ عبد الله بن جمانة الباهلي يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

علام تلوم عاذلتي سفاها وتلحاني وما أنا بالمليم

إلى آخرها .

قال : وجعل الناس يسلبون من قدروا عليه من قبائل باهلة ، فأقبل قوم من قيس عيلان إلى عبد الرحمن بن عبد الله القسري[5] . . . إلى وكيع فقال : أبا المطرف ! إنكم قد قضيتم شأنكم من قتيبة فعلى ماذا يسلب الناس ؟ قال : فأرسل وكيع مناديه ، فنادى في العسكر : ألا ! من أخذ شيئاً من سلب باهلة ولم يرده فقد حل دمه . قال : فرد الناس ما كان في أيديهم من السلب ، قال : وأتي وكيع برجل قد سلب باهلياً فقال له : أسلبته بعد ما سمعت النداء ؟ ثم قدمه وكيع فضرب عنقه . قال : وكان وكيع هذا من أخمر الناس ، غير أنه كان فارساً بطلاً لا يقوم له أحد عند

---

(١) في فتوح البلدان : ابن علوان احتز رأسه . وفي الطبري : أن سعد بن نجد (مجد) احتز رأسه .

(٢) في الطبري : فقال له حضين .

(٣) الطبري : عبد الكريم .

(٤) عن الطبري وبالأصل : حيان .

(٥) في الكلام سقط لا نعلم مقداره اختلّ معه السياق .

اللقاء ، وخطب ذات يوم فلم يدر ما يقول ، فحمد الله وأثنى عليه ثم حضر فجعل يقول :

شربت خميرة فسكرت منها   فمال السرج وانقطع اللجامُ

قال : وصعد المنبر ذات يوم فقال : أيها الناس ! إني لست بخطيب ولكني والغ دم ، وقد قتلت ابن الحدباء قتيبة بن مسلم ، وكذلك سولت لي نفسي ؛ ثم نزل عن المنبر . وقال لهريم بن أبي طحمة التميمي : أنت أخطب مني فاصعد واخطب ، قال : فصعد هريم المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : لعن الله وكيعاً[1] فلقد قتل رجلاً ملعوناً ، قال فقال له وكيع وهو تحت رجله جالس : حسبك ! لعنك الله ولعن من أنت أخطب منه !

قال : وقد أراد سليمان بن عبد الملك أن يولي وكيعاً بلاد خراسان ، فقال له ابن الأهتم : مهلاً يا أمير المؤمنين ! فإن وكيعاً رجل أهوج مقدام ترفعه الفتنة وتضعه الجماعة . قال : فلما كان بعد قتل قتيبة بن مسلم دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك فقال له : يابن غالب ! أسرك مقتل قتيبة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! وأنا الذي أقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

أتاني ورحلي بالمدينة وقعة   لآل تميم أقعدت كل قائمِ

إلى آخرها .

قال : فأجابه رجل من باهلة وهو يقول أبياتاً مطلعها :

أتتك لعمري بالمدينة وقعة   تعاظمها الأقوام إحدى العظائمِ

إلى آخرها .

قال أبو الحسن المدائني : فلما قتل قتيبة ومضى لسبيله احتوى وكيع بن أبي سود على بلاد خراسان ، فأقام بها تسعة أشهر يولي ويجبي ويعزل ، وسليمان بن عبد الملك يحب أن يولي يزيد بن المهلب خراسان غير أنه يقدم ويؤخر . قال : ويزيد يومئذ قد صار إلى البصرة فهو مقيم بها عند أهل بيته وبني عمه يتوقع أن يؤمر بالمسير إلى خراسان . قال : ودعا سليمان بن عبد الملك بعبد الملك بن المهلب فقال له : أبا عبد الله ! ماذا أنت صانع إن وليتك ؟ فقال : يجدني أمير المؤمنين

(١) كذا .

بحيث أحب . قال : وبلغ ذلك يزيد بن المهلب فاشتد ذلك عليه[1] ، وكتب سليمان بن عبد الملك أن يوليه خراسان ، ويعلمه في كتابه أنه لا يقوم بأمرها أحد سواه . قال : وقدم أيضاً رسول وكيع بن أبي سود من خراسان يطلب الولاية لنفسه . قال : فنظر سليمان في كتاب يزيد بن المهلب ، ثم نظر في كتاب وكيع بن أبي سود ، ثم دعا بعبد الله بن الأهتم فقال له[2] : خبرني كيف علمك بخراسان ، فقال : أنا أعلم الناس بها يا أمير المؤمنين ! ولدت بها وبها نشأت . قال سليمان : الله أكبر ! فأشر عليّ برجل أوليه إياها ، فقال : أمير المؤمنين أيده الله أعلم بمن يريد أن يولي ، فإن ذكرهم خبرته بعلمي فيهم أيصلح لها أم لا يصلح ؛ قال : فسمى له سليمان عدة من قريش ، فقال ابن الأهتم : لا يصلحون لها ، قال سليمان : فما تقول في وكيع بن أبي سود ؟ فقال ابن الأهتم : وكيع رجل مقدام شجاع بطل همام حازم ، غير أنه أعرابي وفيه جفوة ، فقال له سليمان بن عبد الملك : صدقت ليس وكيع من رجال خراسان ، قال ابن الأهتم : نعم يا أمير المؤمنين وشجاعة وكيع أكثر من عقله فإن وثق بثلاثمائة رجل من أصحابه لا يرى لأحد عليه طاعة ، قال سليمان : فمن لها ؟ قال ابن الأهتم : لا أبوح باسمه إلا أن يضمن لي أمير المؤمنين كتمانه ، فقال سليمان لمن في مجلسه : اخرجوا ، فخرج الناس ، ثم قال سليمان : من هو الآن يا ابن الأهتم ؟ فقال : يزيد بن المهلب ، فقال سليمان : يزيد بالعراق وأظنه بها أحب إليه ، فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ولكن تكرهه على ذلك وتشخصه إلى خراسان ، فليس لها أحد سواه لأنه قد كان بها حياة أبيه وبعد أبيه ، فهو أعرف الناس بها ، فقال سليمان : صدقت .

ثم كتب سليمان إلى يزيد بن المهلب : أما بعد ، فإن عبد الله بن الأهتم كما[3] نحب وتحب في فضله وعقله ورأيه ودينه ، وقد شاورته في أمر خراسان فوقعت

---

(١) وكان يزيد بن المهلب بالعراق ، وقد ضجر من الإقامة فيه خاصة أن صالح بن عبد الرحمن أخذ يضيق عليه ، ولم يستطع التعاون معه (الطبري) .

(٢) وكان يزيد بن المهلب قد كلّف ابن الأهتم بتدبير أمر توليته خراسان وإقناع سليمان بن عبد الملك بذلك . وقد وعد ابن الأهتم يزيد بإقناع سليمان .
وفي الطبري أن يزيد أرسل كتابين إلى سليمان بن عبد الملك أحدهما يتعلق بأمر العراق ويثني فيه على ابن الأهتم وسعة اطلاعه .

(٣) في الطبري : كما ذكرتَ .

خيرته عليك ، وقد وليتك إياها حربها وخراجها ، فإذا أتاك كتابي هذا فاجمع إليك الناس وسر على بركة الله ، فأمير المؤمنين رافعك ومبلغك أملك ومنيتك إن شاء الله ـ والسلام ـ . قال : ودفع سليمان الكتاب إلى ابن الأهتم وخلع عليه وأجازه .

قال : فسار ابن الأهتم سيراً حثيثاً حتى دخل البصرة ، ثم دخل على يزيد بن المهلب فسلم عليه ، فرد عليه يزيد السلام ثم قال : ما وراءك يابن الأهتم ؟ فقال : ورائي كل خير ، ثم دفع إليه الكتاب ، فلما قرأه قال : الله أكبر ! إلى كم تنتظرني !

ذكر ولاية يزيد بن المهلب أرض خراسان

قال : ثم وثب يزيد من ساعته فتجهز ، وقدم ابنه مخلداً على مقدمته إلى خراسان . قال : فسار مخلد بن يزيد حتى تقارب من مدينة مرو ، وقدم أيضاً خليفة له يقال له عمرو[1] بن عبد الله بن سنان[2] العتكي الصُّنابحي[3] ، فأقبل هذا الصنابحي[3] حتى دخل مدينة مرو وبها يومئذ وكيع بن أبي سود ؛ قال : فأرسل وكيع بن أبي سود [إلى] الصنابحي أن صر إليّ فإني أريد مناظرتك ، فأرسل إليه الصنابحي : أنت أعرابي جلف أحمق ، أتأمرني بالمصير إليك وأنا قادم عليك ؟ فاستقبل أميرك وذر عنك الجهل والحمق .

قال : وخرج وجوه أهل مرو ليستقبلوا مخلد بن يزيد بن المهلب ، قال : وتأنى وكيع ولم يخرج حتى أخرج كرهاً . قال : وترحل الناس لمخلد بن يزيد بن المهلب ومشوا بين يديه إلا هؤلاء الثلاثة : وكيع بن أبي سود ومحمد بن حمران[4] السعدي وعباد[5] بن لقيط أحد بني قيس بن ثعلبة ، فإنهم لم ينزلوا لمخلد بن يزيد فأنزلوا كارهين حتى مشوا بين يديه . فلما دخل مخلد بن يزيد إلى مدينة مرو أخذ عمال وكيع بن أبي سود فحبسهم وعذبهم من قبل قدوم أبيه عليه .

قال : وبلغ وكيع بن أبي سود بأن يزيد بن المهلب قد فصل من العراق فكتب إليه كتاباً وبدأ باسمه قبل اسم يزيد ، وقال في كتابه : أما بعد يا يزيد فإن أعطيتني ما

---

(١) عن الطبري ٥٢٧/٦ وبالأصل عمر .

(٢) عن الطبري وبالأصل بشار .

(٣) عن الطبري وبالأصل « الضحياني » . وقد صححت في كل مواضع الخبر .

(٤) عن الطبري وبالأصل عمران .

(٥) عن الطبري وبالأصل عتاب .

أريد وإلا فعلت وفعلت . فلما وصل الكتاب إلى يزيد وقرأه غضب وشتم وكيعاً أقبح الشتيمة ثم سار حتى دخل الري فأقام بها ثلاثة أيام ، ثم سار منها سيراً حثيثاً . حتى إذا تقارب من مدينة مرو نادى المنادي في المدينة : ألا ! إن الأمير قد أقبل ، فمن أراد استقباله فليخرج ، قال : فخرج الناس لاستقبال يزيد بن المهلب وخرج وكيع بن أبي سود فيمن خرج ، وأقبل يزيد حتى دخل مدينة مرو فنزلها ، وبعث إلى وكيع فدعاه وقال : أتكتب إليّ وتبدأ باسمك قبل اسمي وتقول في كتابك ما تقول ! والله لأقتلنك ! فقال وكيع : لا تفعل ذلك لأنك شجاع وأنا شجاع ، ولو كنت جباناً لقتلتني . قال: فشتمه يزيد وتهدده ، فقال له وكيع : أما والله لقد علمت أنه ما وطأ لك البلاد ولا مهد لك الفرش غيري ! ولو قدمت على قتيبة وإخوته وبني عمه لوجدت حسابهم خشناً ، قال فقال له يزيد : يا عدو الله ! أدّ مال الله الذي أخذت من كور خراسان ، فقال : وهل كنت خائن[1] الله أيها الأمير ؟ قال : فحبسه يزيد وحبس عماله وحاشيتهم وعذبهم بالدهق ؛ فأنشأ عبد الله بن همام[2] السلولي يقول في ذلك :

خذ العفو واصفح يا يزيد فإنني	رأيت ثواب الله خيراً وأفضلا
ولا تسمعن قول الوشاة فإنهم	يودون لو يسقي الرعاف المثملا
خف الله في قوم توو منذ خفتهم	يرجون عدلاً من لدنك مؤملا
وأنت ثمال يا يزيد فلا تكن	عليهم عذاباً بالبلاء موكلا

قال : ثم عزم يزيد على الغزو فضم جنده إلى ابنه مخلد ، فغزا مخلد بالناس أرض الترك حتى صار إلى حصن لهم حصين وفيه من الترك خلق عظيم . قال : فجاورهم مخلد بن يزيد وهم ينظرون إليه كأنهيريد إلى غيرهم مكيدة منه لهم ، حتى إذا بعد عنهم كر عليهم في أصحابه[3] ، فقتل منهم من قتل ، وبادر الباقون إلى مدينتهم فدخلوها ـ وهي مدينة عظيمة ـ وأخذوا أموالها[4] وقليلها وكثيرها وأخذوا جميع ما كان في المدينة وسبوا منها سبياً كثيراً وغنموا غنائم خطيرة . قال : وأتى

---

(١) في فتوح البلدان ص ٤١٤ : أو خازناً لله كنت .

(٢) بالأصل « سلام » خطأ .

(٣) في فتوح البلدان ص ٤١٤ : وغزا مخلد البتم ففتحها ثم نقضوا بعده فتركهم ومال عنهم فطمعوا في انصرافه ، ثم كرّ عليهم حتى دخلها .

(٤) بالأصل : أمواله وقليله وكثيره .

بامرأة ذلك الطرخان الذي قتل حتى وقفت[1] بين يدي مخلد بن يزيد بن المهلب ، فقال لها مخلد بالتركية : اختاري من أحببت من أصحابي هؤلاء ، قال : فنظرت المرأة إلى رجل من عبد القيس ، وكان رجلاً جميلاً بهيّاً من الرجال وكان يخضب بالسواد ، فنظرت إلى بياض في لحيته وصرفت بوجهها عنه ، ثم نظرت إلى محمد بن المهلب ، أخذها قال له مخلد بن يزيد : وكل بخدمها وجواريها . وأقبل بالأموال والغنائم إلى أبيه يزيد بن المهلب . قال : وجعل يزيد بن المهلب يجمع عمال قتيبة بن مسلم فيعذبهم أشد العذاب ويستأديهم الأموال ، ثم أخذ عمرو بن مسلم أخا قتيبة فعذبه ووضع في عنقه جامعة . ثم أمر مدرك بن المهلب بمطالبته ، فلم يزل يستأديه حتى أخذ منه كل شيء قدر عليه . ثم دعا به يزيد فقال له : ويحك يابن مسلم ! إنما تجمع الرجال الأموال لثلاث خصال : يوسع الرجل على نفسه ، والثانية ينوبه في عشيرته ، أو يدفع عن نفسه أمراً من الأمور ، وأنت فلا أراك تسخو نفسك لنفسك عن شيء من مالك ! قال : فأومأ عمرو بن مسلم إلى مدرك بن المهلب ثم قال : أيها الأمير وهل ترك لي شيئاً هذا ؟ قال : فرماه مدرك بن المهلب بالدواة فأصاب أنفه وأدماه ، ثم شتمه . فقال محمد بن المهلب : إن لهذا فعلاً والله ما كففتم عن ماله ولا عن عرضه ولا عن بشره ! كأنه لم يكن بي في حالكم ، وكأنكم قد أمنتم أن تكونوا في مثل حاله . قال : ثم خرج محمد بن المهلب من عند أخيه مغضباً . فقال عبد الله بن الأهتم إلى يزيد فقال : أصلح الله الأمير إن قتيبة بن مسلم قتل أهل بيته وألقاهم إلى الكلاب ، وإن الناس قد قتلوا قتيبة فقتلنا رسله كما قال الأول :

ألا يا كلب غيرك أرجعوني   وقد ألصقت خدك بالترابِ
ألا يا كلب فانتشري وسيري   فقد أودى عمير بن الحباب
ولكن فاقتلوا أولاد قوم   هم أخذوا مواريث الكلاب

قال : وجعل يزيد بن المهلب يغزو أطراف خراسان مما لم يصل إليه قتيبة ولم يبلغه ، ففتح فتحاً بعد فتح حتى فتح حصوناً كثيرة واحتوى على أموال خطيرة . قال : فدخل عليه بعض شعراء خراسان فمدحه وأطنب في مدحه ، فقال له يزيد بن المهلب : من أنت أيها الرجل ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان الفلاني ، فقال يزيد : قد

(١) الأصل : وقف .

عرفتك ، ألست القائل في قتيبة بن مسلم حيث تقول :

قتيبة بن مسلم بن عمر ... يرئس أقواماً وقوماً سري
يعطي على غلاته واليسر ... ما زال مذ كان شديد الأسرِ

قال فقال له الشاعر : نعم أصلح الله الأمير أنا قائل ذلك والقائل فيك هذه الأبيات[1] :

ما زال سيبك يا يزيد ينوبني ... حتى انتعشت وجودكم لا ينكرُ
أنت الربيع إذا تكون خصاصة ... عاش السقيم به وإثرى[2] المقتر
عمت سحائبكم جميع بلادنا[3] ... فسقوا وأغدقهم ملث ممطر[4]
فسقاك ربك حيث كنت مخيلة ... ريّاً سحائبها تجود وتبكر

قال : فوصله يزيد وأحسن جائزته . قال : وجعل يزيد لا يسمع برجل عمل بقتيبة يوماً عملاً إلا بعث إليه وأخذه وقيده وحبسه . فأرسل إليه أبو الحرباء الغنوي من السجن بهذه الأبيات :

يابن المهلب لا تسمنا خطة ... قد كنت تكرهها وأنت أسيرُ
إن الفضيلة كاسمها أكرومة ... ولها خبور بيّن وسرور
واصفح بعفوك عن ذنوب سراتنا ... إن المسامح ذنبه مغفور
وافعل كما فعل المهلب قبلكم ... فيمن ولاه وسيفه مشهور

قال : فعندها قصر يزيد عن عذاب القوم وعزم على المسير إلى جرجان .

ذكر مسير يزيد بن المهلب إلى جرجان وما كان منه إلى أهلها

قال : وكانت جرجان في زمان العجم وسلطانهم قد حوطوا عليها حائطاً من

---

(١) الأبيات في الطبري ٩/٥٢٩ نسبت إلى عبد الملك بن همام السلولي .

(٢) الطبري : وعاش .

(٣) الطبري : بلادكم .

(٤) عجزه في الطبري :

فرووا وأغدقهم سحاب ممطر

الآجر فجعلوها حصناً لا يرام وتحصنوا به من الترك . قال : وهو حائط طويل أحد طرفيه في البحر والطرف الآخر ممدود في البلاد ، لأن الترك إنما كانت تأتيهم من ناحية خوارزم فلا يقدرون عليهم من أجل الحائط . قال : وكان سابور ذي الأكتاف وخسرو وهرمز بن أنو شروان وقباذ بن فيروز وغيرهم من ملوك الأعاجم قد غزوا جرجان وراموها في سالف الدهر فأعياهم ذلك ولم يقدروا عليها لحصانتها ولكثرة أهلها . قال : ثم إن أهل جرجان صالحوا الترك بعد ذلك وخالطوهم ، ونزل الترك بين أظهرهم ، فأقاموا فيهم ما شاء الله أن يقيموا ثم رحلوا عنهم إلى بلادهم ، وبقيت منهم بقية يزيدون على أربعة آلاف فنزلوا دهستان ، فكانوا يغيرون على جرجان ويؤذونهم غاية الأذى ، فلم تزل بلاد جرجان على ذلك من حالها إلى أن جاء الله بالإسلام ، فغزاها سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص[1] بن أمية في خلافة عثمان بن عفان[2] ، فصالحوه على مائتي ألف درهم ، فأخذ منهم سعيد ذلك المال وانصرف عنهم ، ثم لم يغزها أحد بعد سعيد بن العاص . قال : وانقطعت الطرق أيضاً إلى بلاد جرجان ، فلم يكن يسلك طريق خراسان وناحية قومس إلا على وجل وخوف شديد . قال : وإنما كان الطريق إلى خراسان من ناحية فارس إلى كرمان ثم إلى خراسان . قال : وكان أول من سهل الطريق من قومس إلى خراسان قتيبة بن مسلم . قال : وكان قتيبة يكتب إلى الحجاج يستأذنه في غزو جرجان ، فكتب إليه أن إياك والتوريط فيما لا طاقة لك به من جرجان وعليك بغيرها .

قال : وكان سليمان بن عبد الملك إذا سمع بفتوح قتيبة بن مسلم يقول لمن حضر من وزرائه : ألا ترون إلى فتوح قتيبة بأرض خراسان ؟ قال : فكان يقول له يزيد بن المهلب : يا أمير المؤمنين ! ليست هذه بفتوح ابن قتيبة عن فتح جرجان الذي قد أعيت الملوك من قبل وحالت بين الناس وبين خراسان[3] . قال : فلما ولي يزيد بن المهلب خراسان لم تكن له همة إلا جرجان فسار إليها ، حتى إذا تقارب منها وجد رائحة منتنة كريهة ، فقال : ما هذه الرائحة ؟ فقالوا : أيها الأمير ! إن صول

---

(١) عن فتوح البلدان ص ٣٣٠ وبالأصل : أبي العاص .

(٢) وكان عثمان (رض) قد ولى سعيد الكوفة في سنة ٢٩ .

(٣) في ابن الأثير ٢٤٦/٣ كان سليمان كلما فتح قتيبة فتحاً يقول ليزيد : ألا ترى إلى ما يفتح الله على قتيبة ؟ فيقول يزيد : ما فعلت جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور ويقول : هذه الفتوح ليست بشيء ، الشأن هي جرجان .

التركي أغار هذه البلاد ، فقتل من أهلها مقتلة عظيمة ، وهذه رائحة القتلى . قال فقال يزيد : قبح الله قتيبة ! يترك هؤلاء وهم في بيضة الإسلام ويغزو فرغانة والصين ، قال فقال رجل من بني تميم : أيها الأمير ! إن قتيبة قد كان أراد أن يغزو هذه الناحية غير أن الحجاج منعه من ذلك ، فقال يزيد : وأين صول هذا التركي ؟ فقال : صول بجرجان وعساكره بدهستان[1] .

قال : فسار يزيد إلى جرجان ، وخرج صول من جرجان فصار إلى دهستان واجتمعت إليه الترك ، فصار في قريب من مائتي ألف إنسان وسار إليه يزيد في عشرين ومائة ألف[2] من جند الشام وجند خراسان والعراق ، ودنا الفريقان بعضهم من بعض ، فاقتتلوا قتالاً شديداً . قال : ونظر رجل من أهل العراق يقال له محمد بن أبي سبرة إلى رجل من الترك وهو يقاتل ، فحمل عليه ليضربه بسيفه وبادره التركي بضربة على بيضته فقد البيضة ، وذهب التركي ليجذب سيفه عن البيضة فلم يواتثه ، وانخزل عليه محمد بن أبي سبرة فضربه ضربة فقتله ، ثم أقبل نحو المسلمين وسيف التركي في بيضته كأحسن شيء نظر إليه . قال : وإذا بقبيلة عظيمة من الترك قد أقبلت وفيها زهاء أربعة آلاف شاكين في السلاح ، فنظر إليهم يزيد بن المهلب ، فلم يكذب أن حمل عليهم بنفسه وفي إخوته وبني عمه ومواليه[3] ، فهزمهم حتى بلغ بهم إلى أبواب دهستان .

قال : فلما دام الحرب على أهل دهستان ورأوا أنه لا طاقة لهم بالمسلمين كاعوا عن الحرب فلم يحاربوا ، فأرسل صول صاحب الترك إلى يزيد بن المهلب يسأله الصلح ، فأجابه يزيد إلى ذلك . ووقع الصلح على ألف رأس من الرقيق وسبعمائة ألف درهم وعلى أن يطأ صول بساط يزيد بن المهلب . قال : فتم الصلح على ذلك[4] ، وأخذ يزيد من القوم ما أخذ ، فأخرج من ذلك كله الخمس فعزله ، وقسم باقي ذلك في المسلمين ؛ فأنشأ واثلة بن خليفة السدوسي يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

---

(١) في ابن الأثير : قهستان .

(٢) الطبري ٥٣٢/٦ في مائة ألف مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعين .

(٣) كان في نحو أربعمائة كما في الطبري .

(٤) انظر شروط الصلح في الطبري ٥٣٤/٦ وفتوح البلدان ص ٣٣١ .

مـا زال مـذ كـان أبـو خـالـد   يـزيـد خـرقـاً راغبـاً في السمـاحِ
إلى آخرها .

قال : ثم سار يزيد حتى نزل على جرجان ، فلم يحارب أهلها إلا ساعة من نهار حتى صالحوه ، فوقع الصلح بينهم وبينه على ثلاثمائة ألف درهم ومائتي رأس رقيق ، فأخذ منهم ما صالحهم عليه[1] ، وولى عليهم أسد بن عبد الله الأزدي أو عبد الله بن معمر اليشكري[2] في أربعة آلاف رجل وسار يريد طبرستان ، فأنشأ فلان الحماني يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

إذا مـا يـزيـد سار يـومـاً بجيشـه   إلى غـايـة مـنـه أفـادك مـغـنـمـا
إلى آخرها .

ذكر مسير يزيد بن المهلب

قال : وسار يزيد بن المهلب حتى دخل حدود طبرستان وملكها يومئذ الأصبهبذ جيل جيلان في جمع عظيم من الديلم وأصناف الكفار ، فأمر يزيد بقطع الشجر وتسهيل الطرق وإصلاح المسالك ، ثم وجه بأخيه مدرك بن المهلب في أربعة آلاف ، ووقف يزيد في باقي الجيش .

قال : وبلغ الأصبهبذ مسير المسلمين إلى ما قبله ، فأراد أن يهرب إلى الديلم ، فقال ابنه : أيها الملك ! بينا أنت ملك تهابك الناس ويتقونك وينظرون إليك بعين الجلالة إلى أن تصير مطلوباً تهرب من يزيد بن المهلب ، وقد وقف له من ليس مثلك ولا فوقك ؟ ولعل الديلم إن دخلت إليهم لا يوفون لك فتؤخذ أسيراً فتسلم إلى يزيد ؛ قال : فأقام ولم يبرح ، ثم استجاش بأهل جيلان فأجابوه بعشرة آلاف أو يزيدون .

قال : وبلغ ذلك يزيد بن المهلب فدعا بخداش بن المغيرة بن المهلب وأبي الجهم الكلبي فضم إليهما عشرين ألفاً ووجه بهم إلى أصحابه معونة لهم[3] . قال :

---

(١) في فتوح البلدان ص ٣٣١ تلقاه أهلها بالإتاوة التي كان سعيد بن العاص صالحهم عليها فقبلها .
(٢) ورد الاسمان في روايتين مختلفتين عند الطبري انظر فيه ٦/٥٣٤ و٦/٥٣٩ .
(٣) في الطبري ٦/٥٤٠ وجه أبا عيينة أخاه من وجه وخالد بن يزيد ابنه من وجه وأبا الجهم الكلبي من وجه وقال : إذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس .

وسار إليهم سليمان الديلمي من قبل الأصبهبذ في جيش عظيم ، فالتقى القوم واقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل سليمان الديلمي ، قتله ابن أبي سبرة الجعفي ، وانهزم الكفار هزيمة قبيحة حتى اشتدوا في الجبل وأتبعهم المسلمون ، قال : فسار الكفار إلى رؤوس الجبال فجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والنشاب . قال : ثم وقعت الهزيمة على المسلمين فانهزموا حتى صاروا إلى يزيد بن المهلب وقد قتل منهم جماعة . قال : وأخذت عليهم المضايق والشعاب والطرق .

ثم كتب الأصبهبذ صاحب طبرستان إلى المرزبان صاحب جرجان بأنا قد قتلنا يزيد بن المهلب وأصحابه فاقتل أنت الآن ومن يليك من العرب . قال : فعطف المرزبان وأصحابه على المسلمين بجرجان وهم أربعة آلاف فقتلوهم عن اخرهم[1] حتى ما أفلت منهم أحد وفيهم خمسون رجلاً من بني عم يزيد بن المهلب . قال : وبلغ ذلك يزيد بن المهلب. قال: وقد أخذت عليه الطرق والمضايق، فعظم ذلك عليه وأسقط في يده . قال : فدعا بكاتب له يقال له عبد الله بن الحارث العجرمي وقد كان يزيد غضب عليه قبل ذلك بخراسان واستعفاه ووضع الجامعة[2] في عنقه ثم رضي عنه بعد ذلك ، قال : فعزم يزيد على أن يوجه به إلى الأصبهبذ ، فقال له : أتوجهني إلى هذا الرجل وأثر الجامعة في عنقي ! قال : فلم يرسله يزيد وضاق به الأمر ولم يدر ما يصنع ؛ ثم إنه دعا برجل يقال له حيان النبطي مولى مصقلة بن هبيرة الشيباني ، وكان حيان هذا أصله من الديلم ، وإنما قيل له نبطي لأنه كان ألكن لم يكن عنده عبارة ولكن كان له تدبير فدعاه يزيد بن المهلب وقال له : أبا الغمر[3] ! إني قد كنت أسأت إليك بخراسان وأغرمتك وأخذت مالك ، والآن فقد احتجت إليك فلا يمنعك ما كان مني إليك من نصيحة المسلمين ، إنه قد جاء من خبر جرجان ما قد علمت ، وقد أخذ علينا هؤلاء الطرق كما ترى ، فانظر لله وللمسلمين ، قال فقال له حيان النبطي : أيها الأمير ! إنه إن كان منك إليّ ما كان فإني لم أترك النصيحة للمسلمين إن شاء الله .

---

(١) وكان يزيد بن المهلب قد أبقى في جرجان بعدما صالح أهلها أربعة آلاف من المسلمين . عليهم عبد الله بن المعمر اليشكري . انظر فتوح البلدان ص ٣٣٢ .

(٢) بالأصل : « الجماعة » خطأ .

(٣) في فتوح البلدان ص ٣٣٢ : أبا المعمر .

قال : ثم ركب حيان وصار إلى الأصبهبذ ، فأذن له ثم أدناه وأجلسه ، فقال له حيان : أيها الأصبهبذ ! إني وإن كنت على دين الإسلام فالأصل مني ومنك واحد ، وأنا ناصح لك وقد كنت أصلحت بين العرب والترك ومن كان من وراء النهر ، وأنصحهم فيقبلون نصحي فلا تقترن بما نلت من المسلمين من الهزيمة فيّ وفيك هذا فإنك لا تطيق حرب أمير المؤمنين ، وقد أرسل يزيد يستمد بالجيوش ولست آمن أن يأتيه من المدد ما لا تقوم له ومن الأمر ما لا تطيقه ، ويزيد بن المهلب في وقته هذا سريع إلى الصلح فإن قوي أمره لم يرض منك بالصلح ، والرأي عندي أن تصالحه ينصرف عنك إلى جرجان فيكون حربه وسطوته عليهم لغدرهم وقتلهم لأصحابه . قال فقال له الأصبهبذ : ويحك يا حيان ! إنه قد بلغني عن يزيد بن المهلب إنه قد أساء إليك بخراسان واستصفى مالك والآن فإني أراك قد صرت له رسولاً ، فكيف هذا ؟ قال فقال له حيان : صدقت أيها الأصبهبذ قد كان منه إلى ما ذكرت وليس يمنعني ذلك من النصيحة لك وله ، ومع ذلك فإن عجزت عن الصلح لما يريد أن يعطيه أعنتك بما تريد من المال ، فلم يزل حيان كذلك حتى خدع الأصبهبذ ، فاتفق الصلح بينه وبين يزيد بن المهلب على ألفي ألف درهم وأربعمائة وقر زعفران أو قيمة ذلك[1] وأربعمائة غلام على رأس كل غلام جام فضة وعلى كل جام طيلسان وشقة حرير وخاتم فضة أو ذهب ، وعلى أن يدفع إليه خمسمائة رجل من الأتراك كانوا قتلوا جماعة من المسلمين ولجأوا إليه ، وعلى أن يطلق له ثلاثمائة أسير قد كانوا في يده[2] . قال : فوقع الصلح على ذلك ولم يبرح حيان النبطي من عند الأصبهبذ حتى قبض ذلك كله وأتى به إلى يزيد بن المهلب . قال : ووصل الأصبهبذ حيان بثلاثمائة ألف درهم وخلى لهم الطريق .

قال : فانصرف يزيد عن بلاد طبرستان سالماً غانماً بعد الإياس من نفسه وأصحابه ، فقدم أولئك الأتراك الذين وجه بهم الأصبهبذ فضرب أعناقهم عن آخرهم صبراً ، وسار يريد جرجان .

ذكر مسير يزيد إلى جرجان وما فعل بها وبأهلها

قال : فسار يزيد بن المهلب إلى جرجان حنقاً عليهم لما كان من غدرهم

(١) في الطبري : أو قيمته من العين .

(٢) انظر فتوح البلدان ص ٣٣٢ والطبري ٦/٥٤١ .

وقتلهم لأصحابه ، وقد أعطى الله عهداً وميثاقاً لئن ظفر بهم وظهر عليهم أن يبيرهم أو يدير الأرحية بدمائهم فيطحن ويخبز من الطحين ويأكل من ذلك الخبز . قال : وبلغ ذلك المرزبان فخرج عن جرجان هارباً حتى صار إلى قلعة[1] له في الجبل فتحصن بها ، وهي قلعة بين غياض[2] ملتفة ليس لها إلا طريق واحد . قال : وعلم يزيد بن المهلب أن المرزبان قد خرج وصار إلى القلعة ، فأقبل يزيد حتى نزل عليه وحاصره أربعة أشهر[3] لا يقدر منه على شيء وقاتلهم مراراً ونصب عليهم المجانيق[4] فلم يقدر من القلعة على حيلة .

فبينما يزيد بن المهلب على ذلك من شأنه وقد تطاول نزوله على القلعة إذ خرج رجل من أصحابه من أهل طوس يقال له الهياج بن عبد الرحمن الأزدي إلى الصيد ومعه كلب ، فنظر إلى ظبية أو وعل يتوقل في الجبل ، فتبعه الأزدي في طريق على مثل شراك النعل وقد كان معه قوم من أهل العسكر ، فقال لهم : قفوا مكانكم حتى أرجع إليكم فوقفوا له في موضع أشب كثير الشجر والشوك والوغل . قال : والهياج بن عبد الرحمن يتبع الوعل ويتوقل في الجبل ، فلم يزل كذلك حتى اطلع على القلعة من طريق خفي [و] وعر ، فلما عاين ذلك انصرف راجعاً ، وخشي أن يشتبه عليه الطريق ، فجعل يخرق[5] ما عليه من الثياب ويجعله على الشجر علامات ، ولم يزل كذلك حتى انتهى إلى العسكر ؛ ثم أقبل إلى عامر بن أينم[6] الواشجي صاحب شرطة يزيد بن المهلب ، فذهب ليدخل إليه فمنعوه من الدخول ، فصاح وقال : عندي نصيحة ، فدعا به عامر بن أينم[7] ، ثم قال : هات ما عندك من النصيحة ، فقال : تحب أن تدخل هذه القلعة بلا قتال ؟ قال : نعم ، قال : فأدخلني على الأمير ، فجاء به حتى أدخله على يزيد ، فقال : أيها الأمير ! ما لي عندك إن أخذت لك هذه القلعة بلا قتال ؟ قال : لك عندي عشرة آلاف دينار ، قال : فعجل

---

(١) في فتوح البلدان هي قلعة وجاه .

(٢) عن فتوح البلدان والطبري وبالأصل رياض .

(٣) في الطبري وفتوح البلدان : سبعة أشهر .

(٤) بالأصل : المناجنيق .

(٥) الطبري : يخرق قباءه .

(٦) عن الطبري ٥٤٢/٦ وبالأصل : وثيل .

(٧) بالأصل هنا : أتيم .

لي منها بأربعة آلاف درهم ! قال : فأمر له يزيد بأربعة آلاف درهم ، وضم إليه من الرجال ما أحب[1] ، ثم دعا بابنه خالد فجعله معه وقال : انظر لا أراك منهزماً .

قال : فسار القوم والهياج بن عبد الرحمن الأزدي بين أيديهم وذلك في جوف الليل[2] ، وقد أضرمت النيران حول العسكر حتى صارت النيران كأمثال الجبال ، قال : ونظر أهل القلعة إلى تلك النيران فهالهم ذلك ، ثم خرجوا من باب القلعة يريدون حرب المسلمين كعادتهم وهم آمنون من ذلك الوجه الذي قد قصده المسلمون . قال : وأشرف المسلمون عليهم وعلى القلعة ونظروا إلى ما فيها ، فكبروا واقتحموا . قال : فلم يشعر العدو إلا والمسلمون من ورائهم في القلعة فأعطوا بأيديهم ، وفتحوا القلعة عنوة وأخذ المرزبان ، وأخذت القلعة وجميع ما فيها من الرجال والنساء والذرية والأموال ، ولم يبرح خالد بن يزيد من موضعه ذلك حتى أصبح ، ثم أقبل إلى أهله بأهل القلعة مع نسائهم وأموالهم وأولادهم وكثيرهم وقليلهم . فأمر يزيد بن المهلب بالمرزبان فضربت عنقه صبراً وأعناق أصحابه ، واحتوى على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ثم أمر بهدم حيطان القلعة ، وأقبل حتى نزل على جرجان في موضع فوضع عليها المجانيق ورماها بالنيران والنفط ، فلم يزل كذلك حتى فتحها عنوة بالسيف . ثم أمر بقتل القوم[3] ، فلم يزل يقتل ويجتهد إلى أن جرت الأرحية ، فلم يجر الدم فأجرى معه الماء ، فدارت الأرحية بالماء والدم ، فطحن واختبز له من ذلك الطحين خبزاً فأكل وبر قسمه[4] ؛ فأنشأ بعض بني عمه يقول في ذلك :

فتح الله للأمير يزيد	ذي المعالي والفضل والإحسانِ
بلد الترك والأعاجم طرا	من قرى مروها إلى جرجان
كمن القوم بالسلاح عليهم	كل قوم من القروم هجان
ولقد وجه الجنود إليهم	واثقاً بالمهيمن الحنان

(١) الطبري : انتدب ألف وأربعمائة ، ثم اختار منهم ثلثمائة .

(٢) في الطبري ٥٤٣/٦ : فلما قارب انتصاف النهار من غدٍ أمر يزيد الناس أن يشعلوا النار في حطب كان جمعه في حصاره إياهم . . . وانظر فتوح البلدان ص ٣٣٣ .

(٣) زيد في الطبري : وقاد منهم اثنى عشر ألفاً إلى الأندرهز ـ وادي جرجان ـ وقال من طلبهم فليقتل ، فكان الرجل من المسلمين يقتل الأربعة والخمسة في الوادي . . .

(٤) انظر الطبري ٥٤٣/٦ وفتوح البلدان ص ٣٣٣ .

فحباه الإله بالنصر لما أن رماهم بالنفط والنيران

ثم أمر يزيد بقتلى جرجان وقتلى القلعة فنصب لهم الخشب من باب جرجان إلى فرسخين منها فصلبهم عليها ميمنة وميسرة على طريق طبرستان ، ثم جمع الأموال فأخرج منها الخمس وقسم باقي ذلك في المسلمين فأغناهم بغنائم لم يروا مثلها ؛ فأنشأ كعب بن معدان الأشقري[1] يقول أبياتاً مطلعها :

يهب الحصون بأهلها لصديقه وجياد كل مقلص سبّاحِ

إلى آخرها .

ذكر كتاب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان

قال[2] : ثم كتب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك : أما بعد ، يا أمير المؤمنين ! فإن الله عزَّ وجلّ قد فتح الله فتوحاً لم يفتحها على خليفة من خلفاء المسلمين من قبلك من أهل خراسان إلى جرجان ودهستان وطبرستان ، وقد أعيى ذلك الفاروق وعثمان ومن بعدهما من الخلفاء ، حتى فتح الله ذلك كرامة لأمير المؤمنين وزيادة في نعم الله عليه ، وقد صار في يدي مما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة عشرون ألفاً ألف درهم[3] ، وأنا باعث بهذه الأموال التي أفاء الله بها إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ـ والسلام ـ .

قال فقال له كاتبه المغيرة بن أبي قرة[4] مولى بني سدوس : أصلح الله الأمير ! لا يتقدم هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين ، فإنك لا تدري ما يكون من الحدثان من اليوم إلى الغد ولكن احبس هذا الكتاب يكون عندك ، واكتب إلى أمير المؤمنين بالفتح وسله أن يأذن لك بالشخوص إليه ، تلقاه وتشافهه بما يريد ، فذلك الرأي ؛ فأبى يزيد ذلك ووجه بالكتاب . فلما قرأ سليمان بن عبد الملك بن مروان ذلك سره سروراً شديداً[5] .

---

(١) بالأصل الأشعري .

(٢) انظر نسخته في الطبري ٦/٥٤٤ .

(٣) الطبري وابن الأثير : ستمائة ألف ألف ، وفي فتوح البلدان : خمسة وعشرون ألف ألف درهم .

(٤) عن الطبري وابن الأثير ٣/٢٥١ وبالأصل أبي فروة .

(٥) في فتوح البلدان : فوقع الكتاب في يدي عمر بن عبد العزيز فأخذ يزيد به وحبسه .

قال : وجعل يزيد يضم الأموال بعضها إلى بعض ويمد يده إلى أموال خراسان حتى أخذ منهم أموالاً جليلة ظلماً وعدواناً . قال : وكتب قوم من أهل خراسان إلى سليمان بن عبد الملك بأن يزيد بن المهلب يريد أن يتغلب على خراسان وأنه قد عزم على الخلع والعصيان كما فعل قتيبة بن مسلم ؛ فلما قرأ سليمان بن عبد الملك كتاب أهل خراسان اغتم لذلك وضاق صدره وتحير في أمره ولم يدر ما يصنع ، ثم استشار خاصته وأهل بيته ووزراءه ؛ فقال له بعضُ وزرائه : يا أمير المؤمنين ! إن الأموال التي قد صارت إلى يزيد بن المهلب ليست بقليلة ، ومن صارت إليه مثل هذه الأموال أمكنه أن يتغلب على البلاد ، والرأي في ذلك أن يوجه أمير المؤمنين إلى يزيد بن المهلب برجل من أهل بيته أو بعض إخوته حتى يأخذ ما عنده من الأموال ، فإذا فعل به ذلك يكون قد قص جناحه ، فإن رام العصيان لم يقدر على ذلك . قال فقال سليمان بن عبد الملك : هذا هو الرأي بعينه .

ذكر رجوع مسلمة بن عبد الملك إلى دار الإسلام بعد أربع عشرة سنة[1]

قال : ثم كتب سليمان إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك ، ومسلمة يومئذ بأرض الروم على باب القسطنطينية نازل في مدينة القهر التي قد ذكرناها قبل ذلك . قال : فكتب إليه سليمان بن عبد الملك كتاباً لطيفاً يعزيه في أبيه عبد الملك وفي أخيه الوليد ، وخبّره في كتابه بأمر يزيد بن المهلب ، وأمره في كتابه بالانصراف إلى ما قبله ليوجه به إلى خراسان .

فلما ورد الكتاب على مسلمة لم يجد بداً من الانصراف إلى أرض الشام ، ثم نادى في الناس أن اركبوا فإني قد عزمت على مناجزة أهل قسطنطينية ، قال : فركب الناس وزحفوا نحوها . قال : وعلمت الروم بذلك فخرجوا إلى مسلمة في تعبية لم يخرجوا إليه في مثلها قبل ذلك اليوم ، ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ، فقتل من الفريقين جماعة وولت الروم الأدبار والسيف يعمل في أقفيتهم حتى دخلوا مدينتهم ، واحتوى المسلمون على ما قدروا عليه من غنائمهم ورجعوا إلى مدينتهم القهر .

فلما كان من الغد إذا بكتاب إليون ملك الروم وقد ورد على مسلمة : أما بعد أيها الأمير ! فقد طال هذا الأمر بيننا جداً ولم أظن أن أمرنا يكون هذا ، والآن فإني قد

---

(١) الأصل : أربعة عشر خطأ .

عزمت على مصالحتك على أنك ترحل عن هذه الجزيرة وترجع إلى المسيحية[1] وتقيم بها ، ونؤدي إليك في كل سنة ألف ألف درهم وألف أوقية من ذهب وخمسة آلاف رأس من البقر والغنم وألف رمكة بفحولها سوى ما يتبع ذلك من أنواع البزيون[2] والديباج والسقلاطون[3] وأشباه ذلك ، وتسالمني وأسالمك إلى أن ترى رأيك في ذلك - والسلام - .

قال : فكتب إليه مسلم : أما بعد فقد ورد عليّ كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه من الصلح على أنك تعطيني ما سميت وأرحل عنك إلى المسيحية ، غير أني قد آليت يميناً لا كفارة لها أني لا أرحل عن هذه الجزيرة أبداً دون أن أدخل مدينتك هذه ، فإذا دخلتها نظرت بعد ذلك فيما ذكرت ، وإن أنا لم أدخلها صبرت عليك أبداً حتى يفتح الله على يدي ، فإن وصلت إلى ذلك فذاك الذي أريد ، وإن تكن الأخرى وقتلت أو مت شهيداً مجاهداً كان المصير إلى ثواب الله عزَّ وجلّ الذي وعده عباده المجاهدين في سبيله - والسلام - .

قال : فمضى الرسول بالكتاب ، ونادى مسلمة في الناس فركبوا ، فزحف بهم إلى باب قسطنطينية ، وبلغ ذلك إليون ملك الروم ، فأقبل معه أشراف أهل مملكته وبطارقتهم حتى أشرف على المسلمين ، ثم قال : أيها الناس ! أين أميركم مسلمة ؟ فإني أريد كلامه مشافهة ، قال : فدنا مسلمة حتى وقف حذاءه ثم قال : أنا مسلمة ! فما الذي تريد ؟ قال : بلغني ما كان من يمينك التي حلفت بها أنك لا تقلع حتى تدخل مدينتي هذه ، وقد رضيت ورضيت الروم أيضاً بذلك على أنك لا تدخلها إلا وحدك ، لا يكون معك ثان ولك الأمان حتى تخرج ؛ قال مسلمة أيضاً : رضيت بذلك أن أدخل وحدي على شرط أنك لا تغلق الباب وعلى أن يقف البطال بن عمرو على باب المدينة في جميع أصحابي ، فإن كان منكم إليّ غدر اقتحم البطال مدينتكم فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية وأخذ الأموال ؛ قال إليون : قد رضينا بذلك .

قال : ثم أمر إليون بالباب الأعظم ففتح ، ثم أمر بصف الخيل والرجالة من باب المدينة إلى باب الكنيسة العظمى بالرايات والأعلام ، وترتبت البطارقة بأحسن ما

---

(١) كذا ولم نجدها .

(٢) البزيون : السندس ، وبالأصل : البربون .

(٣) السقلاطون ضرب من الثياب ، وبالأصل : السقلطون .

يقدرون عليه من الزينة [و] وقفوا سماطين على طريق مسلمة ، ثم أذن إليون بالدخول إلى المدينة . فأقبل مسلمة على البطال بن عمرو فقال : إني داخل هذه المدينة وقد علمت أنها دار النصرانية[1] وقصبتها وعزها وما أريد بدخولي إليها إلا عز الإسلام وإذلال الكفر ، ولست أدري ما يكون من الحدثان ، فانظر إذا صليتم العصر ولم أخرج فاقتحموا المدينة بخيلكم ورجلكم فاقتلوا وأحرقوا ، والأمير من بعدي عمي محمد بن مروان ، فاسمعوا له وأطيعوا . قال : ثم كبر مسلمة تكبيرة عالية ودخل قسطنطينية وحده وعليه درع وبيضة ومن فوق الدرع عمامة بيضاء ، وقد تقلد سيفين وفي يده رمح وفي رأسه عذبة بيضاء . قال : ورمقته الروم بأبصارها من كل ناحية متعجبين من شجاعته وإقدامه وشدة قلبه . قال : ومسلمة يسير في المدينة فلا ينظر إلى أحد حتى صار إلى باب قصر إليون ملك الروم ، [فلما نظره إليون] وثب قائماً وقد كان قاعداً على باب قصره ، فقام إلى مسلمة فقبل يده ، ثم سار معه راجلاً حتى صار مسلمة إلى باب الكنيسة ثم دخل الكنيسة راكباً ، واشتد ذلك على الروم وجزعوا لذلك جزعاً شديداً ، وهموا بمسلمة ، فمنعهم من ذلك إليون . قال : ونظر مسلمة إلى صليبهم الأعظم ، والصليب من الذهب المرصع بالجوهر ، وقد نصب على كرسي من ذهب . قال : فدنا مسلمة من الصليب فاحتمله عن الكرسي ووضعه بين يديه ، فقال له إليون : أيها الأمير ! إن الروم لا ترضى بهذا وأخاف عليك منهم الشغب ، فرد الصليب إلى موضعه ولك قيمته ! قال : فحلف مسلمة أن لا يخرج إلا والصليب معه ؛ قال : وضجت الروم لذلك ، فقال لهم إليون : كفوا إياكم الرجل ، ذروه يأخذه ولكم عليّ مثله ، فإني أخاف عليكم البطال بن عمرو أن يقتحم عليكم فيقتل رجالكم ويسبي نساءكم وذريتكم وأموالكم ويحرق مدينتكم ، قال : فسكت القوم ، وخرج مسلمة من الكنيسة والصليب معه وإليون ملك الروم يسايره ، حتى إذا توسط مسلمة المدينة رفع الصليب منكساً على رأس رمحه والقوم سكوت ما فيهم أحد ينطق بشيء خوفاً من البطال بن عمرو أن يهجم عليهم فيمن معه من المسلمين . قال : وخرج مسلمة من المدينة في وقت العصر والصليب على رأس رمحه وقد هم البطال بن عمرو وأصحابه أن يقتحموا المدينة في ذلك الوقت ، فلما نظروا إلى مسلمة كبروا بأجمعهم تكبيرة واحدة . قال : وسار مسلمة حتى دخل مدينة القهر .

فلما كان من الغد كتب مسلمة إلى إليون ملك الروم : أما بعد ، فإن الله قد

---

(١) الأصل : النصارنية .

أظفرني بك وأعلاني عليك ، وجعل جدك الأسفل ، فله الحمد على إعزاز أوليائه وإذلال أعدائه ، وقد عزمت على الرحيل عن بلدك إلى بلاد الشام ، فابعث إلي ما صالحتني عليه فإني راحل عن قريب إن شاء الله . قال : فكتب إليه إليون : للأمير مسلمة بن عبد الملك من إليون ملك الروم ، أما بعد ، فقد بعثت إليك عشرين ألف ألف درهم وخمسة آلاف رأس من البقر والغنم وخمسة آلاف أوقية من الذهب وألف رمكة بفحولها ، وبتاج من الذهب مرصع بالجوهر لك خاصة دون أصحابك ، وأنا أسألك أيها الأمير أن تفي بما ضمنت وترحل عن هذه الجزيرة وتقيم حيث شئت من أرض الروم ـ والسلام ـ[1] . قال : فلما أتاه الكتاب وورد عليه تلك الأموال وذلك التاج ، عمد مسلمة إلى ذلك التاج فباعه في العسكر وضمه إلى تلك الأموال ، وأخرجَ من ذلك كله الخمس ، وقسم باقي ذلك في المسلمين .

ثم أمر مناديه ، فنادى في الناس فجمعهم وخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! أعلمكم أني في غمرات وغموم منذ بضع عشرة[2] سنة ، ولم أخبركم بشيء من ذلك مخافة أن تفشلوا عن قتال عدوكم ولعله قد بلغكم بعض ذلك ، أعلمكم أني لما عبرت هذه الجزيرة وأمرتكم ببناء هذه المدينة ورد عليّ الخبر بموتِ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فكتمتكم ذلك مخافة العدو ، ثم ولى الناسَ أخي الوليد بن عبد الملك ، فأقام في ملكه تسع سنين وثمانية أشهر وأياماً ،

---

(١) يرى مؤلف كتاب الدولة البيزنطية د . العريني ص ١٨٨ وهو يبحث في اضطرار المسلمين إلى رفع الحصار عن القسطنطينية أن أسباب ذلك تعود إلى :
- ظهور مواهب ليو الحربية فيما قام به من الدفاع عن المدينة إذ أغلق مدخل البوسفور بسلسلة ضخمة من الحديد . شحن أسوار العاصمة بالعساكر الذين بذلوا كل الجهود لمنع المسلمين من اقتحام الأسوار .
- طيلة الحصار ، وبرد الشتاء وقسوته مما عانى منه المسلمون كثيراً .
- هجوم البلغار على المسلمين .
- ما سببته النيران الإغريقية بالأسطول الإسلامي .
- تواطؤ البحارة المسيحيين في الأسطول الإسلامي مع البيزنطيين .
- نفاذ الأقوات وطول أمد الحصار .
- طول خط الإمدادات .
- تدابير ليو الحربية والبحرية .

(٢) الأصل : عشر .

فكان يكتب إليّ وأكتب إليه ، ولعله قد بلغكم وقد توفي الوليد وقام بالأمر من بعده أخي سليمان بن عبد الملك منذ ثلاثة[1] وعشرين شهراً ، وهذا كتابه يأمرني بالقدوم عليه لأمر قد دهمه من بلاد خراسان من قبل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وأنا راحل إلى ما قبله إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، فأحببت إعلامكم بذلك . قال : فبكى الناس ثم قالوا : هلم أيها الأمير حتى نبايعك ، فأنت أحق بهذا الأمر ؛ فقال مسلمة : مهلاً عافاكم الله ! فإني رجل قد بلغ الناس عني ما قد فعلت بأرض العدو طول هذه المدة ، ولا أحب أن أشق العصا وأخرج على رجل قد بايعه الناس طائعين غير مكرهين ، وأنا قد بايعت أخي سليمان فبايعوه رحمكم الله ! قال : فبايع الناس سليمان بن عبد الملك .

ونادى مسلمة في الناس بالرحيل ، فرحلوا إلى بلاد الشام ، ثم قدمت المراكب لعبور خليج البحر ، ثم كتب إلى إليون ملك الروم : من مسلمة بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى إليون صاحب الروم ، أما بعد فإني قد أحببت أن أحسن إليك لأني رأيتك محباً للعاقبة وأنا راحل عنك ، وقد تركت عندك مسجدي الأعظم وهو وديعتي فانظر لا تقلعن منه حجراً ، ولا تنقصن من سقفه خشبة ، ولا تكسرن منه عوداً واحداً فما سواه ، وإياك أن تعبر هذا الخليج في طلبي أو تطلب أثري إذا أنا عبرت من جزيرتك هذه ، فإنك أن تعديت ما أمرتك به رجعت إليك ثم لا أقلع عنك أبداً أو يهلكك الله على يدي ، فاقبل من ذلك ما شئت أو دع ـ والسلام على عباد الله الصالحين ـ. قال: فكتب إليه إليون: للأمير مسلمة بن عبد الملك من عبده إليون صاحب الروم ، أما بعد ، فقد فهمت كتابك وجميع ما ذكرت ، وأنا لك أيها الأمير على السمع والطاعة ، لا أخرج عن الطاعة ولا أتعدى عن أمرك ، وأما مسجدك أيها الأمير فإني أحلف لك بالنصرانية والإنجيل والمعمودية أني آمر بسد بابه ، فلا يقلع منه حجر ولا يكر منه عود ولا يدخله أحد من الروم أبداً ما دمت حياً ، وقد وجهت لك أيها الأمير بمائة رمكة يتبعها مائة قلو وخمسمائة ثوب بزيون وسقلاطون[2] هدية مني لك خاصة دون أصحابك ـ والسلام ـ . قال : فلما ورد الكتاب على مسلمة بن عبد الملك والهدايا عمد إليها فوزعها في المسلمين ولم يفضل نفسه عليهم بقليل ولا كثير .

---

(١) الأصل : ثلاث .

(٢) الأصل : بريون وسقلطون . وقد مرّت العبارة قريباً ، وتقدم الشرح فارجع إليه .

ثم دعا البطال بن عمرو فقال له : مر الناس بالعبور ، قال : فنادى البطال بن عمرو في الناس بالرحيل ، فرحل الناس وقعدوا في المراكب وساروا في خليج البحر ، وتخلف مسلمة في ثلاثمائة فارس من نجباء عسكره حتى إذا علم أن المراكب في لجج البحر أقبل إلى باب المدينة ، ثم وقف عليه وأرسل إلى إليون ملك الروم فدعاه ، فأقبل إليون مسرعاً إلى مسلمة ، فلما نظر إليه نزل عن دابته ثم دنا فقبل يده فقال : أيها الأمير ! ائذن لي في تشييعك ، فأبى عليه مسلمة وأمره بالرجوع ، فرجع إليون إلى مدينته ، ومضى مسلمة في هؤلاء الثلاثمائة حتى صار إلى الخليج ، فركب في مركب أعد له ، فعبر وعبر من كان معه حتى لحق بأصحابه . قال : وأقام مسلمة على شاطئ الخليج ستة أيام ، ثم رحل ورحل الناس عنها . قال : وأمر إليون بخراب مدينة القهر فخربت عن آخرها إلا مسجدها فإنه لم يمس .

قال : وسار مسلمة في المسلمين حتى صار إلى المسيحية[1] ، فلما نزلها وقع الوباء في المسلمين ، فمات منهم خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان . قال : وهمّ أهل المسيحية بالوثوب على المسلمين لما رأوا من ضعفهم ، قال : وبلغ ذلك مسلمة فنادى في أصحابه أن ضعوا فيهم السيف ، فقتل جماعة من أهل المسيحية ثم أمر بخرابها ، فخربت عن آخرها ووضع سورها بالأرض . قال : ثم سار مسلمة إلى النقفورية[2] فنزلها وأدركه الشتاء ، فأقام بها ستة أشهر .

وتوفي سليمان بن عبد الملك ، وكان ملكه سنتين وثمانية أشهر[3] ، وتوفي بموضع يقال له مرج دابق في يوم الجمعة لثلاث ليال بقين من المحرم سنة تسع وتسعين[4] ، وهو يومئذ ابن خمس وأربعين سنة[5] ، وصار الأمر إلى عمر بن العزيز .

خلافة عمر بن عبد العزيز[6]

قال : وكان يزيد بن المهلب يومئذ مقيماً بجرجان ، فلما بلغه موت سليمان

(١) كذا ، ولم نعثر عليها .

(٢) كذا ، ولم نعثر عليها .

(٣) انظر في مدة ولايته العقد الفريد ٤/٤٣٢ مآثر الإنافة ١/١٤١ مروج الذهب ٣/١٣٥ البدء والتاريخ ٦/٤٥ تاريخ خليفة ص ٣١٦ تاريخ اليعقوبي ٢/٣٠٠ الطبري ٨/١٢٦ .

(٤) عن الطبري وبالأصل سبع وتسعين . وانظر المصادر في الملاحظة السابقة .

(٥) انظر في مقدار عمره ، المراجع المذكورة سابقاً .

(٦) عن هامش الأصل .

كأنه اغتم لذلك وجعل يقول لمن حضره من أصحابه : إن معاوية بن أبي سفيان إنما كان له ولد واحد فملك الخلافة هو وابنه بضعاً وعشرين سنة ، وسليمان بن عبد الملك له سبع سنين ، فمتى يخرج هذا الملك منهم ! لا يخرج إلى يوم القيامة ! ولنبايعن الأطفال من ولد سليمان . قال : وظن يزيد بن المهلب أنه سيملك الخلافة من بعد سليمان ابنه أيوب ، قال : وإنه لكذلك إذ بلغه أن أيوب بن سليمان قد مات ؛ فعجب لذلك ثم نادى في أصحابه بالرحيل إلى نيسابور ، فسار بين يديه راجزاً له وهو يقول :

إن كان أيوب مضى لشأنه ... فإن داود لفي[1] مكانه

يقيم ما قد زال من سلطانه ... كذا يكون الملك في أوانه

قال : ثم أقبل يزيد بن المهلب إلى نيسابور فنزلها ، وكتب إلى عماله فقدموا عليه من أطراف خراسان ، وقدم عليه أخوه مدرك بن المهلب من بلخ ومعه هدايا كثيرة ، وقدم ابنه مخلد بن يزيد من طخارستان ومعه مائة دابة من دواب طخارستان . قال : واتصل به الخبر أن الأمر قد صار إلى عمر بن عبد العزيز ، فجلس بنيسابور متمسكاً بما في يديه .

قال : ومسلمة بن عبد الملك يومئذ مقيم بالنقفورية من بلاد الروم ، فلم يشعر إلا وكتاب عمر بن عبد العزيز قد ورد عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة بن عبد الملك ، أما بعد ! فأعظم الله لك الأجر في أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وبارك له فيما صار إليه ! فإن أهل الشام قد بايعوني طائعين غير مكرهين على أني أعدل في الرعية وأقسم الفيء بالسوية ، وأنا أسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاسمع وأطع توفق وترشد ، وعجل بالقدوم عليّ ، وإياك والخلاف والشقاق فتفسد ما أصلحت وتنقض ما أبرمت ! وادخل في الطاعة وكن مع الجماعة ، واقدم إليّ بجميع ما معك من المسلمين ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ـ[2] .

قال : فلما ورد كتاب عمر بن عبد العزيز على مسلمة بن عبد الملك دعا بوجوه

---

(١) عن الطبري ٥٤٥/٦ وبالأصل : كفى .

(٢) انظر الطبري ٥٥٣/٦ وابن الأثير ٢٥٦/٣ والبداية والنهاية ١٧٤/٩ .

أصحابه ثم استشارهم في المسير إلى عمر بن عبد العزيز ، فقالوا : أيها الأمير ! نشير عليك بأن لا تخالف ، وأن تكون مع الجماعة ، فإنك بحمد الله ممن يحتاج إليه ويرغب فيما عنده لما قد أعطاك الله من العلم والحلم والشدة والشجاعة والنجدة والشرف في أهل بيتك ونكايتك في العدو ، ولا تفسدن هذه الخصال بالخلاف والشقاق ، فيكون آخر أمرك إلى الدمار والشنآن والتبار ؛ فقال مسلمة : لعمري لقد أحسنتم المشورة ، وقد ولي هذا الرجل وهو أهل لما هو به لدينه وورعه وزهده وعبادته ونسكه وشرفه في قومه ، وأنا سائر إليه إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : فعندها نادى مسلمة في الناس وسار حتى صار إلى عمورية ، فأقام بها أياماً حتى عزل عماله عن جميع بلاد الروم . ثم سار من عمورية يقطع البلاد حتى صار إلى طرطوس . ثم رحل عنها إلى دمشق في ثلاثين ألفاً من الناس ، وقد كان دخل إلى بلاد الروم في ثمانين ألفاً . قال : ولم يدخل دمشق إلا بأمر عمر بن العزيز ، فأقبل بجيشه حتى وقف بباب عمر بن عبد العزيز ثم استأذن ، فلم يأذن له فانصرف إلى منزله ؛ فلما كان من الغد ركب إليه في عشرة آلاف فارس ، فلم يأذن له فانصرف إلى منزله ؛ ثم ركب إليه من الغد فلم يأذن له ؛ فركب إليه من الغد وحده وخلفه غلام له فاستأذن [فأذن] له ، فلما دخل عليه وسلم فرد عليه عمر السلام ، وأذن له بالجلوس فجلس ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! أحب أن تخبرني ما ذنبي ، إن كنت أذنبت ذنباً فقد أذنب غيري ، وإن كنت أخطأت فالخطأ يكون من بني آدم ، والكمال لا يكون إلا لله عزّ وجلّ . فقال له عمر بن عبد العزيز : يا مسلمة ! إنك ضربت بالناس براً وبحراً ، وسهلاً وجبلاً ، وقتلت الناس وبلغت موضعاً لم تؤمر به ، وأردت أن يقال : غزا مسلمة وفعل مسلمة وفتح مسلمة وأغار مسلمة ! فطلبت بذلك الاسم والذكر ، فالويل لمن عمل في هذه الدنيا رياء للناس ! وقد قيل إنك فعلت وصنعت ؛ فإن كنت فعلت ما فعلته لله تبارك وتعالى لا تريد به الحمد والذكر من الناس فطوباك ! وإن فعلت ما فعلت رياء للناس فقد صار عملك هباء منثوراً ؛ وبعد فغفر الله لنا ولك أبا سعيد وتجاوز عنا وعنك ! فإنه متجاوز كريم . ثم قال : حدثني عن القسطنطينية وعن بنيانها ، فقال مسلمة : نعم يا أمير المؤمنين ! أما بناؤها فقد كنت أراه بالحجارة والجص خلا كنيستها العظمى وقصر ملكها إليون ، فإنهما جميعاً من الرخام الأبيض ، وأما سورها فلها سبعة أسوار مختلفات الأبواب ، ومع ذلك فإنها

أكثر بلاد الله خيراً ، وليس لها من خليج البحر إلا طريق واحد ـ فهذه صفتها يا أمير المؤمنين ! قال : ثم قام مسلمة وانصرف إلى منزله ، ودعا عمر بن عبد العزيز برجل يقال له سراقة بن عبد الرحمن التميمي فعقد له عقداً وولاه الثغر ، وأمره ألا يجاوز طرطوس إلى غيرها .

قال : وجعل مسلمة يغدو في كل يوم إلى عمر بن عبد العزيز مسلماً عليه وينصرف إلى منزله . قال : وبلغ عمر أن مسلمة كل يوم يمضي ينفق على مائدته ألف درهم ، فأرسل إليه عمر وسأله أن يتغدى عنده ، فأجابه مسلمة إلى ذلك . قال : فأمر عمر طباخه بأطعمة كثيرة وباتخاذ العدس والبصل والزيت ـ وهذا كان أكثر طعامه ، ثم إنه أوصى طباخه فقال : إذا جاء مسلمة وقدمت المائدة فابدأ بالعدس ، ثم قدم ما بدا لك ! قال : وحضر مسلمة بن عبد الملك من غد للطعام ، فلم يزل عمر يحدثه ويسأله أخبار الروم حتى انتصف النهار ، وجاع مسلمة جوعاً شديداً ، فقال عمر لطباخه : قدم المائدة فقد جاع أبو سعيد جوعاً شديداً ! فقدم المائدة ، وابتدأ بالعدس والبصل والزيت كما أمره عمر . قال : فأكل مسلمة من ذلك العدس حتى شبع ؛ ثم قدمت الألوان بعد ذلك فلم يأكل مسلمة منها شيئاً ، فقال له عمر : كل أبا سعيد ! ما بالك قد رفعت يدك ؟ فقال : قد شبعت يا أمير المؤمنين ! فقال عمر : يا سبحان الله ! فأنت تشبع من عدس ، لعله إنما يقوم علينا بدرهم واحد ، وينفق على مائدتك كل يوم ألف درهم ، اتق الله أبا سعيد ولا تكن من المسرفين ، واجعل نفقة مائدتك في بطون جائعة ، فإنه أقرب لك إلى الله عزَّ وجلّ ، فقال مسلمة : أفعل ذلك يا أمير المؤمنين ولا أعصي لك أمراً ؛ وانصرف مسلمة إلى منزله .

ذكر كتاب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن المهلب

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى يزيد بن المهلب[1] ، أما بعد يا يزيد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عباد الله أنعم عليه ثم قبضه إليه ، وقد كان استخلفني واستخلف أخاه يزيد من بعدي ، وإن

(١) نسخة الكتاب في الطبري ٦/٥٦٦ ـ ٥٦٧ .

الذي ولاني الله تبارك وتعالى من ذلك وقلدني[1] ليس بهين عليّ ، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد[2] أموال كان الله تبارك وتعالى قد أعطاني من ذلك وبلغ بي أفضل ما بلغه بأحد من خلقه ، وإني لخائف فيما ابتليت به من أمر هذه الأمة حساباً شديداً وسؤالاً حفياً[3] ، وقد بايعني الناس أجمعون ، فبايع رحمك الله ومر من قبلك بالبيعة ـ والسلام ـ . قال فقرأ يزيد بن المهلب كتاب عمر بن عبد العزيز ثم ألقاه إلى بعض إخوانه فقرأه[4] .

ثم دعا بابنه مخلد فاستخلفه على خراسان وخرج يزيد بن المهلب يريد العراق ومعه وجوه خراسان . وخرج حتى صار إلى الريّ [و] وجه بجميع ما كان معه من الأموال إلى البصرة . ثم خرج من بعد ذلك يريد البصرة وإذا عدي بن أرطأة الفزاري قد أقبل في طلب يزيد بن المهلب ، حتى إذا صار إلى العراق فنزل بواسط دعا برجل يقال له موسى بن الوجيه الحميري ، فوجه به في طلب يزيد إلى البصرة وكتب إليه : أما بعد يا يزيد فإن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قد ولاني العراقين جميعاً البصرة والكوفة . وما والاهما من البلاد ، فإن كنت في السمع والطاعة فأقبل إليّ راجعاً ـ والسلام ـ. قال : فأخذ موسى بن الوجيه الكتاب ثم أقبل وقعد في طيار ، وسار في الدجلة سيراً حثيثاً حتى لحق بيزيد بن المهلب بموضع يقال له نهر معقل قبل أن يدخل البصرة فدفع إليه الكتاب ؛ فلما قرأ يزيد الكتاب كتاب عدي بن أرطأة قال : سمع وطاعة لأمير المؤمنين وعامله . ثم رجع مع موسى بن الوجيه إلى واسط[5] .

فلما دخل يزيد بن المهلب على عدي بن أرطأة سلم عليه وهنأه بولاية العراق ، فرد عليه عدي بن أرطأة السلام وأمره بالجلوس ، فقال له عدي : أبا خالد ! إن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمرني أن أقبض منك الأموال التي جبيتها من بلاد خراسان وجرجان وطبرستان ؛ فقال يزيد : أيها الأمير ! إنه كان ذلك ، غير أني فرقته في أجناد خراسان وقويتهم به في جهاد عدوهم ولم أدخر من تلك الأموال شيئاً ، قال فقال له عدي بن أرطأة : دع هذا يابن المهلب وأخرج من هذه الأموال ، وإلا

---

(١) الطبري : وقدر لي .

(٢) في ابن الأثير : واعتقال .

(٣) الطبري : ومسألة غليظة .

(٤) الطبري : ألقاه إلى أبي عيينة .

(٥) في الطبري ٥٥٦/٦ لحقه في نهر معقل عند الجسر ، جسر البصرة فأوثقه .

حملتك إلى أمير المؤمنين فيرى فيك برأيه؛ قال فقال له يزيد : أيها الأمير ! إذا شئت ذلك فافعل ، فإني ما أكره المسير إلى أمير المؤمنين . قال : فأمر به عدي بن أرطأة فحبس عنده بواسط لكي يحمله إلى عمر بن عبد العزيز . قال : وقدم وجوه أهل خراسان وساداتهم يتظلمون من يزيد بن المهلب حتى صاروا إلى واسط ودخلوا على عدي بن أرطأة .

ذكر القوم المتظلمين من يزيد بن المهلب وما كان من كلامهم بين يدي عدي بن أرطأة وما كان من رده عليهم بجواب لم يسمع بمثله

قال : فأول من تقدم وكيع بن أبي سود التميمي فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ! قدمت أيها الأمير خير مقدم للفضل والمغنم وجزيل القسم وفوائد النعم ، فأنت أيها الأمير من كان إليه هواناً وغايتنا ورغبتنا ومنتهانا ، فالحمد لله الذي أرانا هذا اليوم وأراحنا من إمارة هؤلاء القوم ، فإذا جاء الحق زهق الباطل ، وجاءنا الله بالأمير الفاصل ، أيها الأمير أصلحك الله ! أعذنا من هذا العماني يزيد بن المهلب ، الذي انتهك المحارم واستحل العظائم ، يأخذ هذه الأموال من غير حلها ، ويضعها في غير موضعها وحقها ـ والسلام ـ[1] .

قال : ثم تقدم هريم بن أبي طحمة[2] التميمي فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، أيها الأمير ! أتم الله عليك النعمة ، وهنأك الكرامة ، وختم لك بالسعادة والسلامة والنجاة من أهوال يوم القيامة ، فإن الأمير أسعده الله أبعد العرب همة ، وأوفاها ذمة ، إن حكم عدل ، وإن قال فعل ، ولي حقوق يجب على الأمير حفظها ، وقد كانت من يزيد بن المهلب إلينا سيرة استحل بها حرمنا واستطال بها علينا ، فأنصفنا منه أيها الأمير وأعدنا عليه ، وإلا ركبت فيه إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ والسلام ـ .

ثم تقدم عمر بن يزيد فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ! أسأل الله للأمير أتم النعماء وأحسن البلاء وأفضل العطاء ، فإن الأمير أيده الله تعالى

---

(١) وكان يزيد بن المهلب قد حبس وكيعاً وأصحابه وعذبهم ليستأدي منهم الأموال التي كانت بحوزتهم .
(٢) الأصل « أبي طلحة » خطأ وقد تقدم .

غياث المظلوم وفراج الهموم ، وقد فزعنا إليه في أمور ملمة مقطعة مهمة آتاها إلينا يزيد بن المهلب واجتر بها لدينا ، لم يفعل ذلك بعز عشيرته ولا بشرف إمرته ، ولكن بقسوة قلبه وجرأته على ربه ، وبسلطان أمير المؤمنين الماضي سليمان بن عبد الملك ، فأنصفنا منه أيها الأمير وأعدنا عليه ، وإلا ركبت فيه إلى أمير المؤمنين عمر .

قال : ثم تقدم محمد بن مسلم الباهلي ، فلما سلم همّ أن يتكلم ، فقال له عدي بن أرطأة : يا هذا اربع قليلاً فإنكم قد تكلمتم فأكثرتم ، فإن شئتم جمعت بينكم وبين صاحبكم حتى تسمعوا منه ، فإن أحببتم أن يكون ذلك في خلوة ، وإن أحببتم أن يكون ذلك علانية على رؤوس الأشهاد . قال : فأرسل عدي بن أرطأة إلى يزيد بن المهلب فدعا به من محبسه ، فلما دخل وسلم أمره عدي بن أرطأة بالجلوس فجلس ، ثم أقبل على القوم فقال : هذا صاحبكم الذي ذكرتموه وطلبتموه ، فكلموه الآن بما تريدون .

وهذا كلامهم ليزيد بن المهلب على رؤوس الأشهاد

قال : فتكلم وكيع بن أبي سود فقال : الحمد لله الذي أذلك ، وأوهن أمرك ، وصغر قدرك ، وقصر يدك ، فنطقت فيك غير مقمع ولا مبكت ، فالآن توعّر ما استسهلت وتجازى بما استحللت ، وتكافأ بما فعلت ، فإنما فتحت خراسان فتح الخونة وقد كانت قبل ذلك مكنونة ، ثم تشكو نعماي إليك ، ولأحسن بلائي لديك ، فاردد عليّ يا عدو نفسه ما لم تكسبه أنت ولا آباؤك من قبلك ! وإلا ركبت فيك إلى أمير المؤمنين عمر - والسلام - .

قال : ثم تكلم هريم بن أبي طحمة[1] فقال : يابن المهلب ! الآن حملت على ذنبك وقلة خوفك من ربك إذا زالت عنك إمارتك ، وأوبقك جريرتك ، وودعك سلطانك ، وخذلك أعوانك ، وأخذت بذنوبك ،ورميت بعيوبك يابن الرحمة شرة حرة وأمة ، فاردد الآن ما أخذت من أموالنا بغير حقها ، وإلا ركبت فيك إلى أمير المؤمنين عمر .

ثم تكلم عمر بن يزيد فقال : يابن المهلب ! أخذت أموالنا وانتهكت محارمنا

(١) الأصل : أبي طلحة ، خطأ .

وقد أقام الله عزَّ وجلّ إماماً عادلاً ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، والله يا عدو نفسه أن لولا حق الله تبارك وتعالى وسلطان أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لما كنت أنت وقومك بالذين يغلبوننا ولا ينثروننا ، فإن كنت ابتلعتها حلواً فإنك ستقيؤها بريش علق وعلقم ، ثم تغص بها غصص الشيخ الأدرد مع ركوبي فيك إلى أمير المؤمنين عمر .

قال : ثم تكلم محمد بن مسلم الباهلي قال : يـابـن المهلب أنا الذي لم آل لك عملاً قط ولم تطلبني بنيل كان مني إليك ولا دخل ، فكيف بك إذا حتوتُ راكباً فأحمل السيف على عداوتك فأسقيك بما سقيت وأجزيـك بما أسـديت لا أنام إذا هجعت ، ولا أراعيك إذا خضعت مع ركوبي فيك إلى أمير المؤمنين عمر .

قال : وكان هؤلاء الأربعة يتكلمون والناس يستمعون ويزيد بن المهلب مطرق إلى الأرض لا يتكلم بشيء حتى فرغ القوم من كلامهم ، أقبل عليه عدي بن أرطأة فقال له : إنه قد تكلم خصماؤك فما الذي تقول يا يزيد ؟

ذكر جواب يزيد لهؤلاء القوم

قال : فقال يزيد : الحمد لله على سراء أمره وضرائه ، وما قدم إلينا من كثير نعمائه ، الذي كان من سرور فمنه ، وما كان من غير ذلك فمن آلائه وحسن بلائه ، فأما ما وصفتم من عدل الأمير أيده الله فهو المحمود فهمه ، العظيم حلمه ، ثم إن أمور العباد بيد الله فمسيء ومذنب ومعاقب ومعطب ، فأما أنت يا وكيع بن أبي سود فإنك وكيل باطل ، لست في أمرك بشيء من طائل ، إن دعيت لغي كنت له منقاداً ، وإن دعيت إلى خير ازددت منه بعاداً ، شيخ أروه معتوه أبله ، إن قدموك قدمتهم ، وإن أخروك تبعتهم ، صدك عن المجد أصلك ، وأمال بك عن الحق جهلك ، ثم عليّ ثكلتك أمك بعد العدم ! إن فتحت خراسان فتح الخونة ، وكانت قبل فتحي لها مكنونة ، إنـه لو علم أهـل خراسـان أن رجلاً هـو أشهى وأهفى منك رأيـاً لقلدوه أمورهم ، ولكنك أنت بمنزلة الحاضنة على بيض أخرى ، فالمؤنـة عليها والفـراخ لغيـرها ، وأمـا أنت يا هـريم بن أبي طحمة ، الـذاكر للرحمـة ! للأمـة اللخناء ، الموصوفة بالشنعاء ، المعروفة بالسوءاء ، المصروفة عن سريرات النساء ، جاءت بك مشبهاً في العشيرة ، وكانت بأبيك خبيرة ، مع أن لله علـيّ نذراً واجباً لئن أظفرني الله بك فيما يكون من الجديدين ، لأقطعن منك أعز الوصلتين ، ثم لأبينها إبانة الشعرى من الفرقدين ، إلا أن تراجع ، ولما رأى أن ذلك لك شافع ؛ وأما أنت يا عمر بن

يزيد ! فوالله إنك لفي ضحضاح من اللوم أقيح ، ومركز من الذل أقبح ، وحشاش في موضع من القبائل وما أراك منها قـان الحامـل ، وأيم الله ما أظن أنـك قمت هذا المقام ، مجترئـاً عليّ هذا الكـلام ، حتى مزجت خمـرة ذات سورة فمـلأت منها بطنك ، وأفضت عليّ سبالك ، وطفطفت عليّ شواربك ، ثم دعتك نفسك إلى ما يقصر عنه باعك ، ويقل دونه متاعك ؛ وأما أنت يا باهلة ! فوالله لأنت المسند في محتدك ، والمقهور في بلدك ، المخالف في قولك ، الضعيف في فعلك ، وأيم الله إن لو كنت ثائراً من أحد لاستثأرت من هذا القاعد إلى جنبـك وكيع بن أبي سـود المتقرب إليّ بقتل أخيك قتيبة بن مسلم وأصحابه ، وإنما تهددكم إياي بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أعزه الله وأيده فمن طلب شيئاً فليركب . قال : ثم وثب يزيد بن المهلب فنفض ثوبه في وجوه القوم وخرج ، فالتفت عدي بن أرطأة فقال : كيف رأيتم مصادر الكلام ، والله لقد أفحمكم حتى رأيت وجوهكم قد ارتدت ! وما رأيت أحداً منكم يقدر على إجابته . قال : ثم أقبل عدي بن أرطأة على أهل مجلسه فقال : هذا والله رجل أهل العراق وعميدها ، فلله دره ودر أبيه !

ذكر قدوم يزيد بن المهلب على عمر بن عبد العزيز

قـال : ثم أمر عـدي بن أرطأة بيـزيد بن المهلب فقيـد وحمل إلى عمـر بن عبد العزيز[1] ، فلما دخل عليه وسلم أمره بالجلوس فجلس ، وسأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك[2] ، فقال يزيد : نعم يا أمير المؤمنين إني قد كنت من سليمان بالمكان الذي قد علمتُ ، فكتبتُ إليه بذلك الكتاب ليسمع به الناس ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بما كتبتُ به إليه ، ولا كنت أخاف أن يأتيني من قبله أمر أكرهه . قال فقال له عمر بن عبد العزيز : يابـن المهلـب ! دع عنك هذا ، فإني ما أجد بداً من أخذك بتلك الأموال حتى تؤديها وإلا حبستك بها ، فاتق الله يابـن المهلـب وأدّ ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولن يسعني تركها عليك . قال : فأبى يزيد بن المهلب بأن يقر له بشيء ، فأمر به عمر فزيد في حديده ، وأمر بحبسه .

---

(١) بعثه عدي مع موسى بن الوجيه كما في الطبري ٥٥٧/٦ .

(٢) يريد كتاب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك بعد فتحه جرجان وما أفاء الله عليه من غنائم وأموال ، وما حاز من جواهر والمال الذي أمسكه لديه ،وقد تقدمت الملاحظة أن هذا الكتاب ـ كما في فتوح البلدان ـ وقع بيد عمر بن العزيز .

ذكر قدوم مخلد بن يزيد بن المهلب على عمر بن عبد العزيز من خراسان

قال : وقدم مخلد بن يزيد بن المهلب من خراسان إلى عمر بن عبد العزيز ، فلما دخل سلم عليه بالخلافة ووقف بين يديه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! إن الله تبارك وتعالى قد صنع لهذه الأمة بولايتك عليها[1] ، وليس يجب أن تكون أشقى الناس بها ، فلماذا تحبس والدي ولا ذنب له ؟ قال : أحبسه بالمال الذي احتازه من خراسان ، وكتب به إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، قال فقال مخلد : يا أمير المؤمنين ! فصالحني عنه بما أحببتَ ، فقال عمر : لست أصالحك على شيء أبداً ، ولا يخرج من محبسي أو يؤدي ما عليه ! فقال مخلد : يا أمير المؤمنين ! إن كان هاهنا بينة يشهدون عليه بهذا المال فخذه به ، وإن لم تكن بينة فصدق مقالته واستحلفه[2] ، فقال عمر : لا أحلفه ولا يخرج من محبسي أو يؤدي ما عليه ! قال : فسكت مخلد بن يزيد وخرج من عند عمر بن عبد العزيز ، فالتفت عمر إلى جلسائه فقال : هذا عندي خير من أبيه .

ثم إن مخلد بن يزيد اعتل علة شديدة ، فمكث فيها أياماً عليلاً ، ثم مات بعد ذلك . وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فأرسل إلى يزيد بن المهلب أن اخرج من محبسك وافرغ من أمر ابنك ، فإذا دفنته فارجع إلى محبسك . قال : فأرسل إليه يزيد إن رأيت أن تصلي عليه أنت يا أمير المؤمنين ، فإني لا أخرج من هذا الحبس إلا وأنت راضٍ عني . قال : فصار عمر بن عبد العزيز إلى مخلد بن يزيد وقد فرغ من جهازه وحملَ على أعواد المنايا ، فصلى عليه ، فلما دفن التفت عمر إلى من كان معه فقال : لقد مات اليوم فتى من سادات الأزد .

ذكر ولاة خراسان وأرمينية

قال : وبقيت خراسان بلا أمير ، فدعا عمر بالجراح بن عبد الله الحكمي فعقد له عقداً وولاه بلاد خراسان ، قال : فسار الجراح بن عبد الله حتى صار إلى خراسان ونزل مدينة مرو . ثم دعا عمر أيضاً برجل يقال له عبد العزيز بن حاتم فعقد له عقداً

---

(١) زيد في الطبري ٥٥٧/٦ وقد ابتلينا بك .

(٢) زيد في الطبري : فإن لم يفعل فصالحه .

وولاه بلاد أرمينية ، قال : فسار عبد العزيز بن حاتم يـريد أرمينيـة ، وبلغ عمر بن عبد العزيز عنه أمر من الأمور ، فأرسل إليـه فعزلـه ، وولى مكانـه عدي بن عـدي الكندي ، [فسار عدي] إلى بلاد أرمينية حتى نزل البيلقان ، وكان يصيب أهلهـا العطش ، فحفر لهم عدي نهراً وأجرى فيه الماء ، فذلك النهر إلى يومنا هذا لا يعرف إلا بنهر عدي[1] . قال : فأقام عدي بن عدي على عمله بأرمينية بضعة عشر شهراً ، ثم عـزله عمـر وولى مكانـه الحارث بن عمـرو الطائي . قـال : فأقبـل الحـارث بن عمـر إلى بلاد أرمينية حتى نزل برذعة ، فأقام بها شهراً ؛ ومرض عمر بن عبد العزيز مرضته التي مات فيها ، ويزيد بن المهلب في السجن ، فلما علم أن عمر بن عبد العزيز قد مرض جعل يحتال في الهرب من السجن مخافة من يزيـد بن عبد الملك ، لأن يـزيد بن المهلب علم أنـه إذا مات عمـر بن عبـد العـزيـز فلن يلي الخـلافـة إلا يـزيـد بن عبد الملك . قال : وإنما كان خوف يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك لأمر كان بينه وبينه قديماً ـ والسلام ـ .

خبر يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك

قال : وقد كان يزيد بن المهلب في أيام سليمان بن عبد الملك دخل ذات يوم إلى الحمام ، وخرج وعليه حلة له يمانية ، وفي رجله نعل له يصر صريراً شديداً ، وقـد تضمخ بـالغاليـة ؛ فقال يـزيد بن عبـد الملك وهو جـالس إلى جنب عمر بن عبد العزيز : قبح الله هذه الدنيا وما فيها ! لوددت أن مثقال غالية بألف دينار فلا ينالها إلا كل شريف ! قال : فسمع ذلك يزيد بن المهلب فالتفت إلى يزيد بن عبد الملك فقال : يا مؤنث ! ألي يقال هذا وأنا ابن المهلب بن أبي صفرة ! إنما كان يجب عليك أن تقول : وددت أن الغالية لا توجد إلا في جبهة الأسد فلا ينالها إلا مثلي ، قال : فقال عمر بن عبد العزيز : مهلاً أبا خالد ! ولا كل هذا ، فإنه ولي عهد، ومع اليوم غد . قال : فالتفت يزيد بن عبد الملك فقال : والله يابـن المهلب لئن وليت هذا الأمر يوماً من الأيام لأقطعن خير طابق من يديك ! فقال له يزيد بن المهلب : والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حيّ لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف . وهذا كان السبب بين

(١) كذا ، وفي معجم البلدان : نهر عدي بن أرطأة بالبصرة ، أما نهر عدي بن عدي بـأرمينيا فلم نعثر عليه .

يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلب[1] . فلما مرض عمر بن عبد العزيز اتقى يزيد بن المهلب على نفسه ، فأرسل إلى مواليه الذين كانوا معه بالشام وأمرهم أن يعدوا إبلاً ليهرب عليها ، ثم إنه صانع الحرسي بألف دينار وخرج ذات ليلة من الدار التي هو محبوس فيها ، ثم أقبل إلى الموضع الذي قد أعدت له فيه الإبل ، فركب وركب معه مواليه ، ومضى هارباً على وجهه حتى صار على مراحل من الشام ، وتقارب من العراق .

ثم كتب إلى عمر بن عبد العزيز[2] : أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إن لو علمت أنك تبقى حياً ما برحت من محبسي الذي حبستني فيه أبداً حتى تكون أنت الذي تخرجني ، والتي رأيتك عليلاً فعلمت أنك إن مت لم آمن يزيد بن عبد الملك على نفسي لما قد علمت ما كان بيني وبينه فلا تظن بي غير ذلك ـ والسلام ـ .

قال فقال عمر بن عبد العزيز : اللهم إن كان يزيد بن المهلب يريد بهذه الأمة شراً فاكفهم شره[3] ، إنك على كل شيء قدير ، وذلك عليك يسير .

ذكر وفاة عمر بن عبد العزيز

قال : وحضرت عمر الوفاة فدعا بابنه محمد فأقعده بين يديه فأوصى إليه بوصيته وعهد إليه عهده ، ثم قال : يا بني ! اعلم أن النبي ﷺ كان يقول : إن الإمام إذا كان عادلاً في رعيته ثم مات وألحد في قبره يترك على ما ألحد في قبره ، وإذا كان ظالماً غشوماً قلب على شماله . فانظروا إذا أنا مت فضعوني في لحدي وسرجوا عليّ اللبن وذروني ساعة ، ثم ارفعوا اللبنة التي على رأسي ، فانظروا فإن كنت على حالتي التي وضعت عليها فالحمد لله رب العالمين ، وإن رأيتموني قد انقلبت على شمالي فإنا لله وإنا إليه راجعون ! قال : ثم مات عمر بن عبد العزيز . وكانت خلافته سنتين وستة أشهر ويومين ، وتوفي بموضع يقال له دير سمعان يوم الأحد لست ليال خلون من

---

(١) ذكر ابن كثير سبباً آخر للخلاف بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك وذلك أن يزيد بن المهلب لما ولي العراق عاقب أصهاره آل أبي عقيل ، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفي وكان يزيد بن عبد الملك مزوجاً ببنت محمد بن يوسف ، وله ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المقتول . وكان يزيد يقول : لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة . انظر الطبري ٦/٥٦٤ .

(٢) نسخة كتابه في الطبري ٦/٥٦٤ .

(٣) زيد في الطبري : واردد كيده في نحره .

رجب سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وثلاثين سنة[1] .

---

(١) اختلفوا في مدة ولايته . انظر فيها وفي يوم وفاته ومقدار عمره : الطبري ٦/٥٦٥ مروج الذهب ٣/٢٢٣ الأخبار الطوال ص ٣٣١ مختصر أبي الفداء ١/٢٠١ تتمة المختصر ١/٢٧٤ تاريخ خليفة ص ٣٢١ المحبر ص ٢٨ ابن الأثير ٣/٢٦٦ البداية والنهاية ٩/٢٠٩ .
وفي موته أقوال : قيل إن بني أمية تخوفوا من أن يخرج عمر بن عبد العزيز أموالهم من أيديهم وأن يخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية عهده فوضعوا له من سقاه سماً فلم يلبث إلا ثلاثاً حتى مرض ومات .
وفي العقد الفريد : أن يزيد بن عبد الملك دس إليه السم مع خادم له .
وفي طبقات ابن سعد ٥/٢٥٣ إشارة إلى أن عمر بن عبد العزيز لما أزعجه بنو مروان هددهم بالانسحاب إلى المدينة وجعلها شورى ، فقد يكون هذا ما عجل باتخاذهم قراراً بإبعاده عن مسرح السياسة الأموية فقتلوه .

كتاب الفتوح

للعلامة أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي

(المتوفى نحو سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م)

الجزء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

[خلافة يزيد بن عبد الملك][1]

ذكر فتنة يزيد بن المهلب وخروجه على يزيد ابن عبد الملك

قال : فلما أفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك لم يكن له همة إلا طلب يزيد بن المهلب ، فكتب إلى عدي بن أرطاة[2] الفزاري وهو عامله على العراقين يأمره أن يأخذ كل من قدر عليه بالبصرة من بني عمه وشيعته فيستوثق منهم ويحبسهم . فلما ورد الكتاب على عدي بن أرطاة بعث المفضل وحبيب ومروان وحماد وجميع إخوة يزيد بن المهلب فحبسهم وحبس مواليهم وشيعتهم . قال : وأقبل يزيد بن المهلب من بلاد الشام وهو لا يعلم أن الكتاب قد سبق إلى البصرة وقد حبس إخوته ومواليه وشيعتهم ، فلما نزل بموضع يقال له القطقطانة[3] اتصل به الخبر بموت عمر بن عبد العزيز وولاية يزيد بن عبد الملك وحبس إخوته بالبصرة ، فاغتم لذلك غماً شديداً ، ولم يكن معه في وقته ذلك إلا أقل من مائة رجل ممن اتبعه من أهل الشام ومن مواليه وبني عمه . قال : وبلغ ذلك عبد الحميد بن عبد الرحمن عامل الكوفة فدعا برجل يقال له هشام بن [مساحق بن][4] عبد الله بن مخرمة الكناني وضم إليه ثلاثمائة رجل من أهل الكوفة ، وأمره بالمسير إلى يزيد بن المهلب ،

---

(١) زيادة عن هامش الأصل .

(٢) في الطبري وابن الأثير : كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وإلى عدي بن أرطاة يأمرهما بالتحرز من يزيد ويعرفهما هربه .

(٣) بالأصل القطقطانية ، وما أثبت عن الطبري وابن الأثير .

(٤) زيادة عن الطبري .

وقال : انظر إن قدرت أن تأتيني به أسيراً فافعل ! فقال له هشام بن [مساحق بن] عبد الله : أيها الأمير : لك علي أن آتيك به في حبل ! قال : ثم خرج هشام بن [مساحق بن] عبد الله فيمن معه من أصحابه حتى نزل العُذَيب[1] ، ورحل يزيد بن المهلب من القطقطانة[2] نحو البصرة ، فلم يقدر عليه هشام بن [مساحق بن] عبد الله ؛ فأنشأ بعضهم يقول في ذلك :

وسار ابن المهلب في نفير ... وأحجم عنه شيخ بني كنانه[3]

وعرّس والبنانة كان حزماً ... ولم يعرف قصور القطقطانه[4]

قال : ورجع هشام [بن مساحق] بن عبد الله خائباً إلى الكوفة لم يصنع شيئاً . ومضى يزيد بن المهلب نحو البصرة وعدي بن أرطاة عامل البصرة قد جمع إليه جند أهل البصرة في الآلة والسلاح ، وقد تقارب يزيد من البصرة فنزل على مرحلة منها[5] ، ثم بعث إلى عدي بن أرطاة : أيها الأمير ! إنك حبست إخوتي ومالي وأهل بيتي بلا ذنب كان منهم إليك وذلك أني أنا المطلوب فأخرجهم من حبسك ، وأنا أصالحك على أني لا أدخل البصرة ولا أقربها وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسي الأمان من أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ، فأبى عليه عدي بن أرطاة أن يقبل ذلك منه . قال : وجعل سادات أهل البصرة يخرجون إلى يزيد بن المهلب ، وكلما أتاه واحد منهم أحسن إليه ومناه حتى صار في قريب من ثلاثة آلاف ، قال : وقعد عامة أهل البصرة في منازلهم ممن كان يهوى يزيد بن المهلب ، حتى بقي عدي بن أرطاة في أصحابه الذين قدموا معه من الشام ونفر يسير من قيس غيلان وبني تميم ، وعزم عدي بن أرطاة على محاربة يزيد بن المهلب .

ذكر محاربة عدي بن أرطاة يزيد بن المهلب بالبصرة

قال : ثم جمع عدي بن أرطاة أصحابه فقال لهم : اعلموا أنه ليس يتهيأ لي أن

---

(١) العذيب تصغير عذب ، ماء بين القادسية والمغيثة .

(٢) عن الطبري ، وبالأصل « القطقطانية » .

(٣) البيت في الطبري ٦/٥٧٩ .

وسار ابن المهلب لم يعرج ... وعرس ذو القطيفة من كنانه

(٤) البيت في الطبري :

وياسر والتيسر كان حزماً ... ولم يقرب قصور القطقطانه

(٥) في الطبري ٦/٥٨٠«أن يزيد بن المهلب دخل البصرة،وقد تنحى قواد عدي عن طريقه حتى دخل منزله . وإلى داره اختلف الناس ، فأخذ يبعث إلى عدي . . . » .

أفتح لكم بيت المال في وقتي هذا ولا أن أعطيكم منه شيئاً إلا بإذن أمير المؤمنين[١] ، ولكني قد أمرت لكم بنفقة من مالي فخذوها وتوزعوها بينكم ، فإذا أنا فرغت من يزيد بن المهلب كتبت إلى أمير المؤمنين بذلك ثم إني أضع لكم الأرزاق فأعطي كل رجل منكم على قدر ما أرى منه فيما قد عزمت عليه إن شاء الله ولا قوة إلا بالله . قال : ثم أمر للناس بشيء يسير لا قدر له فاقتسموه بينهم ، فأصاب كل رجل منهم درهمان لا أقل ولا أكثر ، فأنشأ الفرزدق بن غالب يقول :

أظن رجال الدرهمين يقودهم[٢] إلى الموت آجال لهم ومصارعُ
وأكيسهم[٣] من قر في قعر بيته وأيقن أن الموت لا بد واقع[٤]

قال : وأقبل يزيد بن المهلب فيمن معه من الناس حتى نزل قريباً من المربد ، وسار إليه عدي بن أرطاة في أهل الشام ومن جاءه من أهل البصرة ، فلما دنا القوم بعضهم من بعض دعا يزيد بن المهلب بأخيه محمد بن المهلب وابن عم له يقال له المهلب بن العلاء بن أبي صفرة فضم إليهما ألف رجل وأمرهما بالتقدم ، فالتقى القوم للقتال وحمل بعضهم على بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وحمل محمد بن المهلب على رجل من أصحاب عدي بن أرطاة يقال له المسور بن عباد الحنظلي[٥] ، فضربه بسيفه ضربة على أنف البيضة فقطع أنف البيضة وأسرع السيف في أنفه . ثم حمل أيضاً على هريم بن أبي طحمة[٦] ليجتذبه عن فرسه إلى الأرض فلم يقدر على ذلك ، قال : وضحك هريم بن أبي طحمة[٦] وقال : هيهات يابن أخ ! إن عمك أثقل مما تحسب . قال : ثم تقدم غلام لحبيب بن المهلب يقال له دارس وكان فارساً بطلاً ، فجعل يرتجز ويقول :

أنا غلام الأزد اسمي دارس ليث غضوض هرت خنابس
إن تميماً ساء ما يمارس إذا التقينا فارس وفارس

---

(١) هذا في الوقت الذي كان يزيد بن المهلب يعطي من أتاه قطع الذهب والفضة ، فمال الناس إليه ، (الطبري ـ ابن الأثير) .
(٢) في الطبري وديوانه ١/٤٢١ تسوقهم .
(٣) الديوان : وأحزمهم .
(٤) الديوان : وأيقن أن العزم لا بد واقع .
(٥) الطبري ٦/٥٨١ الحبطي .
(٦) الطبري : طلحة .

ثم حمل دارس على جميع أهل البصرة ففرق الناس يمنة ويسرة ، وقتل منهم جماعة وجرح منهم بشر كثير ؛ فأنشأ الفرزدق بن غالب يقول في ذلك :

تفرقت الخيلان[1] إذ صاح دارس ... ولم يصبروا تحت[2] السيوف الصوارمِ
جزى الله قيساً عن يزيد[3] ملامة ... وخص بها الأدنين أهل الملاومِ[4]
فقل لعدي حال ما كنت تبتغي ... إليك ولا تحفل بجند الدراهمِ
أتاك فتى لم تخدم القوم أمه ... طويل السرى ألفيته غير نائم

قال : وأقبل يزيد بن المهلب في نفر من بني عمه ومواليه حتى حمل على عدي ابن أرطاة وأصحابه حملة فكشفوهم حتى بلغ بهم إلى دار الإمارة ، ثم إنه كسر السجن فأخرج من كان فيه من إخوته وبني عمه ومواليهم وشيعتهم فضمهم إليه . ومر عدي بن أرطاة منهزماً[5] حتى دخل دار الإمارة وانهزم الناس ودخلوا منازلهم . وأقبل يزيد بن المهلب حتى نزل في دار أم محمر بنت عبد الله بن عثمان الثقفي[6] وأرسل إلى عدي بن أرطاة فأتى به أسيراً هو وجماعته من بني عمه ، فلما وقف بين يدي يزيد جعل يتبسم ، فقال له يزيد : مما تضحك وتتبسم ؟ والله لقد كان ينبغي لك أن يمنعك من الضحك خلتان : إحداهما الفرار[7] من الكريهة حتى أعطيت بيدك كما تعطي الأمة الوكعاء ، والثانية أني أتيت بك وأنت تتلّ [كما يتلّ][8] العبد الآبق إلى أربابه ، وليس معك مني عقد ولا عهد فما يؤمنك مني إن أضرب عنقك ؟ قال فقال له عدي بن أرطاة : أبا خالد ! إنك قد قدرتَ ومننتَ فتلك شيمتك ، وإن عاقبت فبما كسبت يداي مع أني أعلم أن بقائي متصل ببقائك وإن أهلكتني أنت مطلوب منه أخرى ، فإنك قد رأيت جنود الله بالشام ، وعلمت بلاء الله عند أهله في كل موطن من مواطن أهل الغدر والنكث ، فتدارك أمرك وزلتك بالتوبة واستقالة العثرة من قبل أن

---

(١) في الديوان ٢/٢٢٤ تصدعت الجعراء .
(٢) الديوان : عند .
(٣) الديوان : عديٍّ .
(٤) هذا البيت والذي بعده ليسا في الطبري ، وبدلهما في الديوان :
هم قتلوا مولاهم وأميرهم ... ولم يصبروا للموت عند الملاحم
(٥) الأصل « منهزم » خطأ .
(٦) في الطبري : « دار سلم بن زياد بن أبي سفيان » وفي ابن الأثير : « داراً لسليمان بن زياد بن أبيه » .
(٧) في الطبري ٦/٥٨٢ الفرار من القتلة الكريمة .
(٨) زيادة عن الطبري ، يتلّ أي يقاد .

يرمي بك البحر بأمواجه ، فإن طلبت الإقالة لم تقل[1] ؛ قال فقال له يزيد بن المهلب : أما قولك إن بقائي متصل ببقائك ، فلا أبقاني الله حياة طائر إن كان لا ينفعني إلا بقاؤك ؛ وأما قولك بأني مطلوب بدمك ، فوالله أن لو كان في يدي عشرة آلاف رجل من أهل الشام ليس فيهم رجل إلا وهو أجل منك وأعظم قدراً ثم ضربت أعناقهم في صعيد واحد لكان إمساكي عنهم بعد ذلك أشد عليهم وأهول عندهم في صدورهم من قتلي أولئك العشرة آلاف ؛ وأما قولك أن تدارك أمرك وزلتك واستقل عثرتك ، فوالله ما استشرتك في أمري ، ولا[2] أنت عندي بوادّ ولا ناصح . ثم قال يزيد بن المهلب : انطلقوا به للسجن ، فوالله لو هممت بقتله لكان ذلك عندي أهون من دم قُراد ، ولكني أحبسه كما حبس بني المهلب وضيق عليهم وكانوا يسألونه الترفه والترفق فلم يفعل ذلك ؛ فحبس عدي بن أرطاة وبايع الناس يزيد بن المهلب على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ .

ذكر فتنة يزيد بالبصرة

قال : فبايع الناس[3] يزيد وسلموا إليه بيت المال وفيه يومئذ عشرة آلاف ألف درهم ، فأخذها يزيد وفرقها في الناس ، ثم إنه بعث إلى عماله إلى الأهواز وفارس وكرمان ومكران والسند والهند وسائر البلاد فاحتوى عليها ، ثم نادى في الناس فجمعهم إلى المسجد الجامع ، فلما تكاملوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! أنا رجل منكم أعني بما تعنون به ، وأحامي على ما تحامون عليه ، ولست أقول بأني خليفة ولكني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة محمد ﷺ وإلى جهاد أهل الشام محرقي البيت الحرام ، فإن جهادهم أفضل من جهاد الترك والديلم ، ألا ! فاسمعوا وأطيعوا رحمكم الله .

قال : فالتفت النضر بن أنس بن مالك إلى الناس فقال : يا هؤلاء ! إنكم

---

(١) زيد في الطبريّ : وإن أردت الصلح وقد أشخصت القوم إليك وجدتهم لك مباعدين ، وما لم يشخص القوم إليك فلم يمنعوك شيئاً طلبت فيه الأمان على نفسك وأهلك ومالك .

(٢) عن الطبري ، وبالأصل : « إلا » .

(٣) وجاءت بيعة الناس يزيداً بعد هروب رؤوس أهل البصرة إلى الكوفة يبلغون عبد الحميد عن هزيمة عدي بن أرطأة ، وبعدما بلغ أمر يزيد يزيدَ بن عبد الملك بعث مسلمة بن عبد الملك لقتاله فانهزم ، ثم بعث العباس بن الوليد فانهزم أيضاً فلما رأى الناس ذلك بايعوا يزيد بن المهلب (انظر تفاصيل وردت في الطبري ٦/٥٨٤ ـ ٥٨٥) .

تسمعون الرجل يدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ فأجيبوا الرجل ولا تخذلوه ! قال : فسمعه الحسن البصري وهو يقول ذلك ، فالتفت إلى قوم كانوا إلى جانبه فقال : وهذا النضر بن أنس بن مالك وهو أيضاً ممن يعين على الفتنة ! قال : ثم قام الحسن فخرج من المسجد ، فإذا هو بالناس قد اصطفوا ليزيد بن المهلب سماطين ينتظرون أن يخرج من المسجد وهم يقولون : إنه ليدعونا إلى سنة العمرين ، قال : فتبسم ثم قال : إن هذا الذي يدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وإلى سنة العمرين هو الذي كان يقتل الناس بالأمس في هوى بني أمية ، فالآن لما غضب عليهم [غضبة][1] وخالفهم نصب لكم قصباً وعلق[2] عليها خرقاً ؛ ثم قال : إني أدعوكم إلى سنة العمرين ، إن من سنة العمرين أن يؤخذ فيوضع في رجله قيد ثقيل ثم يرد إلى محبسه الذي كان فيه ، ولا يلقي الفتنة بين الناس . قال : فصاح به الناس من كل جانب : يا أبا سعيد ! كأنك متعصب لفساق أهل الشام ، [فقال : أنا راضٍ عن أهل الشام ، قبحهم الله وبرحهم][3] أو ليس هم الذين أحلوا حرم الله وحرم رسوله محمد ﷺ ، يقتلون أهل المدينة ثلاثة أيام وينهبونهم ، لا يتناهون عن انتهاك حرمة ولا عن إبداء عورة ؟ أو ليس هم الذين رموا بيت الله الحرام بالحجارة والنيران والعذرة ؟ وما لهم قبحهم الله ولا رحمهم وجعل دائرة السوء عليهم وعلى من يتعصب لهم . قال[4] : فسكت الحسن ولم يقل شيئاً وصار إلى منزله[4] .

وخرج يزيد بن المهلب من المسجد وبين يديه الأعلام والمطارد ، وقد أحدق به الناس يمنة ويسرة ومن بين يديه ومن خلفه ؛ والقطامي الشاعر بين يديه وهو يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها :

لعل عيني أن ترى يزيدا ... يقود جيشاً جحفلاً رشيدا[5]

إلى آخرها .

قال : ودخل يزيد إلى منزله وقد استوسق له الأمر ، وأقبل إليه ابن عمه حتى

---

(١) زيادة عن الطبري .

(٢) الطبري : ثم وضع عليها خرقاً .

(٣) زيادة عن الطبري ، فسياق الكلام اقتضاها ، فالكلام في العبارة التالية من كلامه ، كما في الطبري .

(٤) كذا بالأصل ، على اعتبار أن الكلام السابق هو قول عامة الناس ، وما في الطبري كما لاحظنا سابقاً أنه من كلامه ، فحذف العبارة هنا يصبح ضرورياً .

(٥) في الطبري ٦/٥٨٥ « شديداً » والبيت من عدة أبيات وردت فيه .

وقف بين يديه ثم أنشأ وهو يقول[1] :

أظن بني مروان قد باد ملكهم ... وإن كنت لا تشعر بذلك فاشعرِ
وعش ملكاً أو كن كريماً فإن تمت ... وسيفك مشهور بكفك تعذر

قال : وبلغ يزيد بن عبد الملك أن يزيد بن المهلب قد تغلب على العراق والجبال وسائر البلاد ، وقد ظفر بعدي بن أرطاة وأصحابه فحبسهم ، واحتوى على بيت مال البصرة فأخذه وقسمه في أصحابه ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وجعل يرى في ذلك رأيه . وبلغ ذلك ثابت بن كعب الأزدي وهو يومئذ بخراسان ، فكتب إلى يزيد بن المهلب بكتاب يحرضه فيه على بني أمية ويأمره بحربهم ، وأثبت في أسفل كتابه هذه الأبيات :

أيزيد كن في الحرب إن هيجتها ... كأبيك لا رعشاً ولا رعديدا
أثر المجرب في الحروب ولم تزل ... ناراً تسعر للعداة جديدا
ما كان في أبويك قادح هجنة ... فيكون زندك في الزنود صلودا
يا ليت أسرتك الذين تغيبوا ... كانوا لأمرك بالعراق شهودا
فترى مواطنهم إذا اختلف القنا ... والمشرفية يوقدون وقودا
ناراً تجلى[2] المصطلين بحرها ... أسداً قساور في اللقاء أسودا
صوراً إذا كثر الصياح ترى لهم ... في كل معركة هنالك صيدا
هلا سألت بهم فتخبر عنهم ... من كان أعلى ناصراً وعديدا
وأحق بالصبر الجميل وقد رأوا ... قول العداة تبرعاً ووعيدا
إن امرءاً حدثت ربيعة دونه ... والرأس من يمن فمات عميدا
لضعيف ما ضمت جوانح صدره ... إن لم يصبح بالجنود جنودا
من كل أشوس قاصد يوم الوغى ... رأس المتوج إن أراد صدودا

قال : فلما وردت هذه الأبيات على يزيد بن المهلب ونظر فيها كأنه هش لها ودعته نفسه إلى قتال بني أمية وعزم على ذلك .

قال : ودعا يزيد بن عبد الملك بأخيه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه

(١) البيتان في الطبري ٥٩٦/٦ ، وابن الأثير ٢٨٢/٣ الثاني فقط ، ونسبا إلى يزيد بن الحكم بن أبي العاص . باختلاف بعض الألفاظ .

(٢) بالأصل « نحلى » بغير نقط ، وما أثبتناه يناسب المعنى .

العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فضم إليهما جميع من بالشام من المقاتلة وأمرهما بالمسير إلى يزيد بن المهلب[1] . قال : فسار العباس بن الوليد في عشرين ألفاً من جنود أهل الشام حتى نزل الحيرة حذاء أهل الكوفة ؛ وأقبل مسلمة بن عبد الملك في ثلاثين ألفاً حتى نزل الأنبار . وبلغ ذلك يزيد بن المهلب ، فجمع أصحابه فخطبهم وقال : يا أهل العراق ! إن أهل الشام قد نهضت إليكم في خمسين ألفاً فهاتوا آراءكم رحمكم الله ! قال : فقام إليه أخوه حبيب بن المهلب، فقال: الرأي عندي أن تخرج من البصرة في جميع أصحابك حتى تصير إلى فارس فتنزلها ، ثم تأخذ بالشعاب والعقاب ، ثم تدنو من بلاد خراسان فتطاول القوم ، فيكون القلاع والحصون في يدك وأهل الجبال معك ، فإن سار القوم إليك قاتلتهم واستعنت الله عليهم . قال فقال يزيد : يا أخي ! ليس هذا برأي ، أتريد أن تجعلني طائراً على رأس جبل ، والله ما الرأي عندي إلا مصادمة القوم ، لي كانت أم عليَّ .

قال : ثم دعا يزيد بن المهلب بأخيه مروان بن المهلب فاستخلفه على البصرة ، ثم نادى في أصحابه وخرج حتى نزل بنهر معقل[2] ومعه الأموال والآلة والسلاح ؛ قال : فضرب عسكره هنالك . قال : وجعل مروان بن المهلب يحث الناس على الخروج إلى أخيه يزيد بن المهلب ويأمرهم أن يلحقوا بعسكره ، قال : وكان الناس يخرجون والحسن البصري يثبط الناس عن الخروج ويقول[3] : أيها الناس ! الزموا منازلكم وكفوا أيديكم ، واتقوا الله ربكم ، لا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ليست لأهلها بباقية . وليس الله عنهم فيما كسبوا براضٍ ، واعلموا بأنه لم تكن فتنة قط إلا وأكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منهم إلا الجهول الحقير والمعروف التقي ، فمن كان منكم تقياً فليلزم منزله ، وليحبس نفسه عما يتنافس فيه الناس من هذه الدنيا الدنية - والسلام .

قال : فبلغ مروان أن الحسن البصري يقول ما يقول ويثبط الناس عن الخروج إلى حرب بني أمية ، فقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! قد بلغني عن هذا الشيخ الضال المرائي بأنه يثبط الناس عنا ويأمرهم

---

(١) أشرنا إلى هذا الأمر ، وما آل إليه من استيثاق يزيد بن المهلب أهل البصرة ومبايعتهم له

(٢) نهر معروف بالبصرة فمه عند فم نهر الأجانة .

(٣) انظر مقالته في الطبري ٦/٥٩٤ وابن الأثير ٣/٢٨١ . وانظر البداية والنهاية ٩/٢٢٠ .

بخذلاننا . ووالله ! لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل أنفه يرعف دماً من الغيظ عليه وينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب بحقنا ! أما والله ! ليكفن عنا وعن ذكرنا وعن الجمع إليه سقاط[1] أهل الأبلّة وعلوج فرات البصرة [و] إلا ناله منا ما يكره[2] . قال : فغضب عامة الناس للحسن البصري وهموا بالوثوب على مروان بن المهلب ، فقال لهم الحسن البصري : مهلاً ! فإني نهيتكم أن تقتلوا أنفسكم مع غيري ، ولست أحب أيضاً أن يقتل بعضكم بعضاً لأجلي ، فالزموا منازلكم ، فإني أكره أن يكرمني ربي بهوان مروان بن المهلب[3] .

قال : وسار يزيد بمن معه من الناس حتى نزلوا بواسط العراق ، فأقام بها حتى تكامل عسكره ، ثم دعا بابنه معاوية فاستخلفه على واسط ، وجعل عنده الأموال والخزائن والأسارى الذين أخذهم بالبصرة يوم الوقعة ، ثم إنه سار حتى صار إلى فم النيل إلى موضع يقال له العقر[4] من أرض بابل فنزل هنالك ، وعزم على حرب القوم . قال : وبلغ مسلمة بن عبد الملك نزول يزيد بن المهلب بالعقر فأمر بالسنن فجمعت له ، ثم أمر فعقد له جسر على الفرات وأمر بالناس فعبروا . قال : وبلغ ذلك العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، فأقبل من الحيرة حتى نزل مع مسلمة .

قال : ودنت العساكر من يزيد بن المهلب في خمسين ألفاً ، ويزيد يومئذ في نيف عن عشرين ألفاً ، فقام في أصحابه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إني قد سمعت الناس في عسكري هذا وقولهم بأنه قد جاء مسلمة بن عبد الملك ، وقد جاء العباس بن الوليد ، وجاء أهل الشام فخبروني من مسلمة ، فوالله ما مسلمة عندي إلا جرادة صفراء قسطنطين بن قسطنطين[5] ! ومن العباس بن الوليد ! فوالله ما العباس عندي إلا نسطوس بن نسطوس[6] ! ومن أهل الشام ! فوالله ما هم إلا سبعة أسياف خمسة منها لي واثنان عليَّ ! وإنما أتاكم مسلمة والعباس في برابرة

---

(١) السقاط جمع ساقط ، وهو اللئيم في حسبه ونسبه .

(٢) الطبري : أو لأنحين عليه مبرداً خشناً .

(٣) زيد في الطبري : فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتد عليهم وأخافهم وطلبهم حتى تفرقوا . ولم يدع الحسن كلامه ذلك ، وكفّ عنه مروان بن المهلب .

(٤) العقر : عدة مواضع ، منها عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة قتل عنده يزيد بن المهلب سنة ١٠٢ وكان قد خلع طاعة بني مروان ودعا إلى نفسه (معجم البلدان) .

(٥) كذا بالأصل .

(٦) كذا بالأصل .

وأقباط وجرامقة وأنباط وجراجمة وأخلاط مغاربة وسقالبة ، زراعون وفلاحون أوباش وأخناش ، فلا يهولنكم أمرهم ، فوالله ما لقوا مثل جدكم ! وإني لأرجو أنهم ما جاؤوا إلا لهلاكهم وحلول النعمة بهم ، وليس يردعهم عن غيهم إلا الطعن في نحورهم والضرب بالمشرفية على قممهم ، فأعيروني سواعدكم ساعة تصطفقون بها هامهم وخراطيمهم ، فإنما هي غدوة أو روحة حتى يحكم الله بينكم وبين القوم الظالمين . قال : فأقام القوم على ذلك ثلاثة أيام[1] ليس بينهم حرب ومسلمة بن عبد الملك يبعث إلى يزيد بن المهلب ويسأله أن يحقن الدماء ويرجع عما هو عليه على أن يوليه ويولي إخوته أي بلد شاء وأحبوا ، ويزيد يأبى ذلك .

قال : ثم أقبل يزيد على أصحابه فقال : إني قد عزمت أن أنتخب من عسكري هذا ثمانية آلاف[2] رجل فأضمهم إلى محمد بن المهلب وآمره أن يكبس عسكر مسلمة ليلاً فيضع فيهم السيف ، فإن كان ما أحب فذاك وإلا ناجزتهم غداً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، فإني أرجو أن ينصرني الله عليهم . قال فقال له رجل من أصحابه يقال له السميدع : أيها الأمير ! إن القوم يذكرون أنهم يدعوننا[3] إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد (صلى الله عليه وعلى آله) ، فكيف تغدر بهم وبناسهم[4] . قال : فتبسم يزيد ثم قال : ويحك يا سميدع ! وتصدق هذا أن بني أمية يعملون بالكتاب والسنة ! وقد فعلوا بالحرمين ما فعلوا ، وهدموا البيت ، وقتلوا ابن حواري رسول الله ﷺ عبد الله بن الزبير وصلبوه منكساً ، اقبلوا مني وابدأوهم قبل أن يبدأوكم وبادروا القوم ، فليسوا عندي بشيء ، ولا يهولنكم مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ، فوالله لوددت أنهما وجميع بني أمية وأنا وإخوتي في حظيرة واحدة ! فلا يبقى منا إلا من غلب بسيفه ، والله أن لو كانوا في الأرض جميعاً وأنا وحدي ليس معي أحد من الناس لما برحت هذه العرصة أبداً ! لي كان أم عليّ . قال : فأبى عليه أصحابه أن يبيتوا القوم ، فأمسك عنهم[5] .

إذا كان من الغد دنا القوم بعضهم من بعض وذلك في يوم الجمعة[6] ، قال :

---

(١) في الطبري : ثمانية أيام .

(٢) في الطبري : اثني عشر ألف رجل .

(٣) الطبري : إنا قد دعوناهم .

(٤) الطبري : فليس لنا أن نمكر ولا نغدر ، ولا نريدهم بسوء حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا .

(٥) الطبري : قالوا : لا نرى أن نفعل ذلك ، حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا .

(٦) وذلك لأربع عشرة خلت من صفر ، وبعد اجتماعه ومسلمة بثمانية أيام .

وعبّى مسلمة أصحابه ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين ، وعبى يزيد أصحابه كذلك[1] ، وجالت الخيلان وخرج رجل من أهل الشام يدعو المبارزة ، فما لبث أن خرج إليه حبيب[2] بن المهلب والتقيا بضربتين ، ضربه حبيب ضربة اتقاها الشامي[3] بحجفته فقدت الضربة الحجفة ووصل إلى يد الشامي ، وعلى كف الشامي يومئذ كف من حديد فقطع السيف الكف فرمى بها إلى الأرض ، فولى الشامي إلى أصحابه وهو لما به ، فصاح به حبيب بن المهلب : عليك بالمنجل والحصاد ، فإن المنجل أعود عليك من مبارزة الأقران . قال : ثم حمل الفريقان بعضهم على بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وجعل يزيد بن المهلب يقاتل أهل الشام قتالاً لم يسمع بمثله حتى قتل منهم جماعة ؛ ثم جعل يدنو من صفوف أهل الشام حتى نظر إلى مسلمة واقفاً في القلب ، فنادى يزيد بن المهلب : يا مسلمة ! هل لك أن تبرز إليّ وتعفي الفريقين من القتال ؟ قال : فالتفت مسلمة إلى أصحابه فقال : ما تقولون ؟ فقال له رجل من بني كلب يقال له عياش الفحل[4] : أصلح الله الأمير ! إنه يزيد بن المهلب فارس العراق قاطبة ، فقال له مسلمة : صدقت ياعياش ! إنه لكذلك ولكنه قد دعاني إلى المبارزة وهذا عار عليّ إن لم أبرز إليه ، فقال له عياش الفحل : صدقت أصلح الله الأمير ! هو والله العار أو الموت ، فاختر أيهما شئت ، قال : فسكت مسلمة ولم يبرز إليه . قال : وإذا برجل قد أقبل إلى يزيد بن المهلب فقال : أيها الأمير ! ما يقيمك وقد قتل حبيب بن المهلب؟ فقال يزيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا خير في العيش من بعد حبيب ، والله لقد كنت أحب الحياة من قبل ولقد أبغضتها في وقتي هذا ! قال : ثم تقدم يزيد بن المهلب على برذون له أشهب وسيفه في يده كأنه صاعقة ، فجعل يقاتل قتال رجل قد أيس من الحياة ، فما يدنو من كتيبة من كتائب أهل الشام إلا كشفها حتى قتل منهم بشراً كثيراً .

قال : وإذا برجل من أصحابه قد أقبل إليه فقال : أيها الأمير ! أعظم أجرك في أخيك ابن المهلب ! قال : فبقي يزيد واقفاً لا يحلى ولا يمر ، فقال رجل من بني عمه :[5] أيها الأمير ! أشير عليك أن تنهزم إلى واسط فتنزلها وتخندق على نفسك

(١) انظر في تعبية الجيشين الطبري ٥٩٥/٦ .
(٢) في الطبري ٥٩٥/٦ محمد بن المهلب .
(٣) قيل هو حيان النبطي ، كما في الطبري .
(٤) في الطبري : القحل بن عياش .
(٥) هو أبو رؤبة المرجىء كما في الطبري ٥٩٦/٦ وابن الأثير ٢٨٠/٣ .

خندقاً ويأتيك مدد أهل البصرة والبحرين وأهل عمان في السفن فتقاتل عدوك إذا أتاك . قال فقال له يزيد : قبح الله هذا الرأي ! إلي يقال هذا ! والله إن الموت لأيسر عليّ من ذلك ، وإني لم أزل أبغض الهزيمة مذ كنت . قال فقال له الرجل : أيها الأمير ! إني إنما قلت هذا القول لما أتخوف عليك ، ألا ترى إلى ما حولك كأنهم جبال حديد ؟ قال فقال يزيد : ما كنت بالذي أبالي أجبال حديد كان أم جبال نيران[1] ! فاذهب عنا إن كنت لا تحب أن تقاتل معنا ، قال : ثم جعل يزيد يتمثل بقول الأعشى وهو يقول :

أبالموت يرميني سفاهاً وإنما ... رأيت منايا الناس يسعى دليلها[2]
فما ميتة إن متها غير عاجز ... بعار إذا ما غالت النفس غولها

قال : ثم حمل يزيد بن المهلب على أهل الشام وحمل الناس معه فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وارتفع الرهج وسطعت الغبرة واضطرب القوم اضطراباً شديداً . ثم انجلت الغبرة عن الفريقين وقد قتل منهم نيف على ثلاثة آلاف ، وإذا بيزيد بن المهلب في وسط القتلى من الفريقين[3] وقد وقعت به نيف على ثلاثين ضربة ، فأنشأ بعض أهل الشام يقول :

ألا ترى بطشة الله التي بطشت ... بابن المهلب إن الله ذو نقم
فما الجياد من البلقاء منصلتاً ... شهرا يغلغل في الأرسان واللجم
حتى أتت أرض هاروت لعاشره ... فيها بنو دحمة الحمراء كاللجم
لما رأوا أن مكر الله حاق بهم ... وأنهم مثل ضلّال من البهم
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ... كأنهم من ثمود الحجر أو إرم

قال : وإذا أربعة من ولد المهلب قد قتلوا في معركة واحدة منهم حبيب بن المهلب وحماد بن المهلب ومدرك ويزيد ، فأنشأ بعض آل المهلب في ذلك يقول :

سقى الله أجساداً ببابل كسروا ... سيوفهم والأثرى المعضدا
حبيباً وحماداً وذا البأس والندى ... يزيد وأسقى مدركاً ومحمدا

---

(١) الطبري : أم جبال نار .
(٢) البيت في الطبري :
أبالموت خشتني عباد وإنما ... رأيت منايا الناس يشقى ذليلها
(٣) قتله القحل بن عياش كما في الطبري ٥٩٧/٦ .

بنى الحرب عند الحرب بأساً ونجدة وفي المحل قناصون جوداً وسؤددا

قال : وانهزم المفضل بن المهلب بمن معه من الجنود مع بني إخوته وسائر أصحابه حتى صاروا إلى واسط ، فأخرجوا الأسارى الذين كانوا قد أتوا بهم من البصرة وهم ثلاثة وثمانون رجلاً ، فضربوا أعناقهم على دم ، ثم حملوا الأموال والخزائن وقعدوا في السفن وانحدروا إلى البصرة . قال : وأسر ذلك اليوم من أصحاب يزيد بن المهلب نيف على أربعمائة[1] رجل ، فأتي بهم إلى مسلمة بن عبد الملك حتى وقفوا بين يديه .

قال : فعزل مسلمة منهم ثلاثين رجلاً من رؤسائهم ليحملهم إلى يزيد بن عبد الملك ، وضرب أعناق الباقين . قال فقال هؤلاء الثلاثون : أيها الأمير ! إنما نحن الذين انهزمنا بالناس حتى ظفرتم بيزيد وأصحابه فكان جزاؤنا منكم الأسر والقتل ! قال : فلم يلتفت مسلمة إلى ذلك[2] ، فأنشأ حاجب بن ذبيان المازني يقول :[3]

لعمري لقد خاضت قريش دماءنا بأسيافنا حتى انتهى بهم الوحلُ
وما حمل الأقوام من أمر ديننا خرام ولا حل إذا التمس الذحل[4]
حقنتم دماء المصلتين عليكم وجر على فرسان شيعتك القتلُ
وقربهم العريان فرسان قومه فيا عجباً أين الملامة والعدل[5]

قال : ثم أتي مسلمة برأس يزيد بن المهلب ورؤوس إخوته حبيب وحماد ومدرك ومحمد حتى وضعت بين يديه ، فقال مسلمة : أترى هؤلاء القوم قد خرجوا علينا كانوا يظنون أن الخلافة فيهم ، لئن كانوا ظنوا ذلك فلقد ظنوا إفكاً وزوراً ، فأنشأ جرير بن الخطفي يقول[6] :

آل المهلب جذ الله دابرهم أضحوا رفاتاً فلا أصل ولا طرفُ

---

(١) نحو ثلاثمئة رجل كما في الطبري ٦/٥٩٨ .

(٢) انظر بشأنهم ما ورد في الطبري ٦/٥٩٩ .

(٣) الأبيات في الطبري ٦/٥٩٩ باختلاف بعض الألفاظ .

(٤) الذحل : الحقد .

(٥) هو العريان بن الهيثم ، كان على شرط محمد بن عمرو بن الوليد .

(٦) الأبيات في ديوانه ٢/١٦ باختلاف بعض الألفاظ .

إن الخلافة لم تخلق ليملكها ... عبد لأزدية في خلقها عنف
والأزد قد جعلوا الأزدي قائدهم ... فقتلتهم جنود الله فانتتفوا
إن المرون[1] رجوا ما لم يكن لهم ... في سالف الدهر معروفاً ولا عرفوا

قال ثم أمر مسلمة بيزيد بن المهلب فصلب على دقل سفينة منكساً وصلب معه خنزير إلى جنبه فكانا جميعاً معلقين بقلس من قلوس السفينة . فأنشأ رجل من أهل الشام يقول :

لقد عجبت من الأزدي جاء به ... يقوده للمنايا حين مغرورِ
حتى رآه عباد الله في دقل ... منكس الرأس مقروناً بخنزير
والقلس أهون بأس أن يجر به ... في الماء مطلية الألواح بالقير
يأبى لآل أبي العاصي إن غضبوا ... من كل سيف حديد الحد مأثور

قال : ثم أقبل مسلمة بن عبد الملك حتى نزل بالحيرة وأمر بمن معه من الأسارى حتى حملوا إلى الشام ، فلما دخلوا على يزيد بن عبد الملك ونظر إليهم قال : إنهم أنصار يزيد بن المهلب فلقد خاب من اغتر بنصرة أمثاله ، ثم أمر بهم فضربت أعناقهم ، وكانوا ثمانين رجلاً فما أبقى منهم على واحد . ثم أقبل على رجل من آل المهلب كان في ناحية يزيد بن عبد الملك فقال له : يا أخا الأزد ما تقول في بني عمك هؤلاء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! قوم زرعتهم الطاعة وحصدتهم الفتنة . قال : ثم أمر يزيد بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب فطيف به في مدائن الشام لينظر إليه ، ثم أتي به بعد ذلك فنصب على باب توماء[2] بدمشق ، ونصب رؤوس إخوته عن يمينه وشماله ؛ فأنشأ سالم بن وابصة[3] الأسدي يقول :

ألم تر أن الله أنزل نصره ... علينا وأعطانا به أعظم الأجرِ
غداة بغى أهل العراق فشايعوا ... لواء يزيد بن المهلب ذي الغدر
فجئنا به لا يسمع الصوت في الثرى ... ولا يشتكي شكوى أنين ولا فقر
تعرف أهل الشام بالشام رأسه ... به بدت الأحداث من حادث الدهر

قال : ثم كتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه مسلمة يأمره أن يطلب آل المهلب

---

(١) كذا بالأصل ، والبيت لم يرد في الديوان .

(٢) توماء ، اسم قرية بغوطة دمشق ، وإليها ينسب باب توماء من أبواب دمشق (معجم البلدان) .

(٣) عن المؤتلف والمختلف للآمدي ، وبالأصل « وابطة » .

حيث كانوا فيقتلهم ولا يبقي على أحد منهم . قال : فلما ورد كتاب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه مسلمة بذلك جاء النذير إلى آل المهلب فخبرهم بذلك وهم يومئذ مقيمون بالبصرة ، غير أنهم قد أعدوا المراكب فركبوا فيها ومعهم أموالهم ونساؤهم وأولادهم ، وقد حملوا معهم دوابهم وأسلحتهم ، ثم ساروا في البحر إلى كرمان فخرجوا من مراكبهم هنالك وحملوا ما معهم على الدواب ، وساروا يريدون إلى قندابيل[1] من بلاد الهند ليتحصنوا بها .

قال : واتصل الخبر بمسلمة بن عبد الملك أن القوم قد مضوا نحو بلاد الهند فوجه في طلبهم بقائدين : أحدهما يقال له مدرك بن ضب الكلبي ، والآخر هلال بن أحوز التميمي ، في عشرة آلاف رجل من أهل الشام . قال : فسارت الخيل سيراً حثيثاً حتى وافت أرض فارس ، ثم خرجوا عنها لا يعرجون على شيء حتى صاروا إلى كرمان ، ومن كرمان إلى أرض الهند إلى قندابيل[2] ، وبقندابيل[2] يومئذ رجل من الأزد يقال له وادع[3] بن حميد ، قد كان ولاه يزيد بن المهلب قبل ذلك . فلما نظر إلى آل المهلب قد لجأوا إلى ما قبله أمر بأبواب المدينة فأغلقت ومنعهم من الدخول إليها. قال: وتوافت عساكر أهل الشام في عشرة آلاف، فلما نظر إليهم المفضل بن المهلب أقبل إلى إخوته وبني عمه فقال : اعلموا أنه الموت ، فإن كان لا بد فموتوا كراماً ، قال : ثم دنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فأول من قتل منهم ممن كان مع المفضل بن المهلب النعمان بن إبراهيم بن الأشتر ومحمد بن إسحاق[4] بن الأشعث بن قيس الكندي وجماعة من سادات أهل العراق . قال : وجعل آل المهلب خاصة يقاتلون قتالاً شديداً قتال قوم قد يئسوا من الحياة ، حتى قتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة ثم قتلوا بأجمعهم ، فما أفلت منهم إلا من هرب ودخل إلى غياض بلاد الهند ، ثم صار بعد ذلك إلى خاقان ملك الترك فآمنهم وأحسن إليهم ؛ فأنشأ موسى بن سحيم التميمي يقول أبياتاً مطلعها :

لقد غضبت للدين قيس وشمرت ... تميم ولم تفلل تميم وفلّت

إلى آخرها .

---

(١) عن الطبري ، وبالأصل « قندابل » وانظر معجم البلدان .

(٢) بالأصل : « قندابل » .

(٣) في الطبري ٦٠٢/٦ وداع .

(٤) الطبري : محمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث .

قال : وبعث هلال بن أحوز بن المازني برؤوس القوم ونسائهم وأولادهم إلى مسلمة بن عبد الملك وهو مقيم بالحيرة . فلما وضعت الرؤوس بين يديه جعل ينظر إليها ويقول : هذا رأس المفضل بن المهلب كأنه جالس بين يدي يحدثني ، هذا رأس عبد الملك بن المهلب ، هذا رأس مروان بن المهلب ، هذا رأس فلان ، هذا رأس فلان ؛ ثم حلف مسلمة أنه يبيع نساءهم وأولادهم بيع العبيد والإماء ، فقام إليه الجراح بن عبد الله الحكمي فقال : أصلح الله الأمير ! فإني قد اشتريتهم منك بمائة ألف درهم تبرئة ليمينك ! فقال مسلمة أخزاه الله : قد بعتك إياهم ، قال : ثم استحى مسلمة أن يبيع قوماً أحراراً فقال للجراح : أقلني في بيعتي ، قال : قد أقلتك أيها الأمير ! فأعتقهم مسلمة وخلّى سبيلهم وألحقهم بقومهم بالبصرة[1] .

ثم دعا بعبد الرحمن بن سليم الكلابي[2] فولاه العراقين ورحل إلى الشام - يزيد بن عبد الملك وقد فرغ من أمر العراق ، فأنشأ رجل من أهل الشام يمدح مسلمة بن عبد الملك ويقول :

إن الذي مد علينا نعمه	وقد أحاطت بالعراق الدمدمه
دعوة مشؤم دعا بالمشأمه	فاتبع الظالم قوم ظلمه
فالله يحني منهم بمسلمه	من بعد ما وبعد ما وبعد مه
كانت بنات الموت عند الغلصمه	كادت الحرة أن تدعى أمه

ثم رجعنا إلى فتوح خراسان وأرمينية وأذربيجان من فتوح الترك والخزر

قال : فلما فرغ يزيد بن عبد الملك من أمر يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وصفت له البلاد دعا بسعيد بن عمرو الحرشي[3] فولاه بلاد خراسان ما كان من دون النهر إلى سمرقند وما والاها إلى أرض فرغانة وأمره بالعدل ؛ ودعا برجل من أهل حمص يقال له ثبيت[4] النهراني فولاه بلاد أرمينية وأذربيجان ، وضم إليه جيشاً وإلى

---

(١) في الطبري ٦/٦٠٣ إلا تسعة فتية أحداث منهم بعث بهم إلى يزيد بن عبد الملك ، فقدم بهم عليه ، فضرب أعناقهم .

(٢) الطبري ٦/٦٠٥ الكلبي .

(٣) الأصل وابن الأثير ، وفي فتوح البلدان : الجرشي ، وفي البداية والنهاية : الجريشي .

(٤) عن ابن الأثير ، وبالأصل « تبيت » .

هذا جيشاً . قال : فأما سعيد بن عمرو فإنه سار حتى دخل بلاد خراسان فجعل يصالح البلاد ويتقدم حتى عبر نهر بلخ ، ثم صار إلى بخارا فنزلها ، ثم ارتحل منها إلى سمرقند فنزلها ، وبلغه أن ملك فرغانة قد عاث في البلاد وأفسد ، فصار إليه سعيد بن عمرو حتى دخل أرض فرغانة ، ثم نزل على حصن من حصونهم حصين وفيه يومئذ جلنج ملك فرغانة[1] . قال : فأقام سعيد بن عمرو الحرشي على ذلك الحصن محاصراً لجلنج ، فأرسل إليه جلنج وصالحه على السمع والطاعة وعلى أن يؤدي إليه مائة ألف درهم ، خمسين غلاماً وخمسين جارية ، وأن يخرج إلى سعيد بن عمرو فيضع يده في يده ؛ فرضي سعيد بن عمرو بذلك . فلما كان الليل نام عامة المسلمين ولم يشعروا إلا وجلنج ملك فرغانة قد كبس العسكر في خمسة آلاف رجل من الكفار ، فقتل من المسلمين جماعة قبل أن يركبوا ، ثم ركب الناس خيولهم واستقبلوا بها الكفار بالسيوف والرماح والسهام . قال : فاجتمع الكفار على حرب المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وأمكن الله المسلمين منهم في وقتهم ذلك إلى أن أصبحوا قريباً من ثلاثة آلاف وقتل صاحبهم جلنج الملك . قال : وغنم المسلمون غنيمة حسنة ، فقسمها سعيد بن عمرو في المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس وبعث به إلى يزيد بن عبد الملك ، فأنشأ نعيم بن دارم الفريعي يقول في ذلك :

لعمري لقد أردت سيوف سعيدنا ... جلنجاً فلم نبد بذلك مفخرا
قتلنا جلنجا واستبحنا حريمه ... بسمر ترى منها المدجج أزورا
ضربناه أم الرأس والنقع ساطع ... فخر صريعاً للجبين مغفرا
وكنا إذا رام العدو طلابنا ... أبينا ويأبى أن نضام ونقبرا

قال : ثم إن يزيد بن عبد الملك عزل سعيد بن عمرو الحرشي وولى مكانه عبد الرحمن بن سليم الكلابي ، ثم عزل عبد الرحمن بن سليم عن خراسان وولاه العراق ورد سعيد بن عمرو إلى خراسان ، ثم عزل أيضاً عبد الرحمن بن سليم عن العراق وولى مكانه ابن عمه عبد الملك بن بشر بن مروان من قبله . قال وولى عبد الملك بن بشر العراقين جميعاً كما وليها أبو بشر بن مروان من قبله وكان عبد الملك بن بشر هذا جواداً سخياً لا يبقي على شيء ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

---

(١) في الطبري : بلاذا ، وبيلاذا أبو جور الملك .

جئت بشراً زائراً فوجدته والله سمحاً وقصدته متعمداً ليلاً فما أصبحت صبحا
حتى رأيت نواعماً يدلجن بالبدرات دلجاً فلبست ثوباً للغنى وطويت للإفلاس كشحا

قال : ثم أرسل يزيد بن عبد الملك أيضاً إلى سعيد بن عمرو الحرشي فعزله عن خراسان وولى مكانه مسلم بن سعيد بن أسلم[1] بن زرعة الكلابي . قال : فسار مسلم بن سعيد هذا حتى نزل مدينة مرو فأقام بها متمسكاً بما في يديه لا يغزو أحداً .

قال : وسار ثبيت[2] النهراني في خلق كثير من أهل الشام وأهل الجزيرة حتى دخل بلاد أرمينية . قال : وسمعت به الخزر فاجتمعوا عليه في نيف على ثلاثين ألفاً في موضع يقال له مرج الحجارة . قال : فدنا منهم المسلمون . فاقتتلوا هنالك ، فقتل من المسلمين بشر كثير ، واحتوت الخزر على عسكر المسلمين فغنموا جميع ما فيه ؛ وأقبل المسلمون مغلولين حتى صاروا إلى الشام إلى يزيد بن عبد الملك وأميرهم النهراني معهم ، فاغتم يزيد بن عبد الملك لذلك غماً شديداً ، ثم دعا النهراني فوبخه على صنيعه وهزيمته من بين أيدي الخزر ، فقال النهراني : والله يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء أعداء الله وقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ، ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انكسر سيفي ، غير أن الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ذكر دخول الجراح بن عبد الله الحكمي بلاد أرمينية وما كان منه في الخزر

قال : ثم دعا يزيد بن عبد الملك بالجراح بن عبد الله الحكمي فعقد له عقداً وضم إليه جيشاً كثيراً وأمره بالمسير إلى بلاد أرمينية . قال : فسار الجراح بن عبد الله في جيش عرمرم حتى دخل إلى بلاد أرمينية ، وتسامعت به الخزر فهربوا من بين يديه حتى صاروا إلى مدينة الباب والأبواب . قال : وسار الجراح بالمسلمين إلى أن صار إلى برذعة فنزل بها أياماً حتى استراح أصحابه وأراحوا دوابهم ، ثم رحل من هنالك حتى عبر نهر الكُرّ[3] وسار يريد الباب والأبواب ، فلم يزل كذلك حتى صار إلى نهر

(١) عن الطبري ١٨/٧ وبالأصل « مسلم » .
(٢) بالأصل : « تبيت » وما أثبت عن ابن الأثير .
(٣) نهر الكرّ بين أرمينيا وأرّان ، بينه وبين برذعة فرسخان .

يقال له روباس[1] على فرسخين من مدينة الباب ، فنزل هنالك حتى أرسل إلى ملوك الجبال ، فأقبلوا إليه من كل ناحية .

فلما عزم على المسير إلى الخزر رحلت الخزر عن مدينة الباب حتى لحقوا بلادهم ، وأقبل إلى الجراح بن عبد الله رجل من أهل تلك الناحية من أصحابه ، فقال : أيها الأمير ! أخبرك أن أربيس بن بسباس ملك بلاد الكر قد بعث إلى ملك الخزر يخبره بمسيرك إلى ما قبله فاعمل على حسب ذلك ! قال : فأمر الجراح بن عبد الله مناديه فنادى في العسكر : ألا ! إن الأمير مقيم ههنا ثلاثة أيام[2] فاستكثروا من الزاد والعلق والحطب وما تحتاجون إليه ! قال : فنادى المنادي بذلك في العسكر ؛ وأرسل أربيس بن بسباس إلى ملك الخزر : اعلم أيها الملك ! أن الرجل مقيم ثلاثاً فلا تبرحن من موضعك . قال : فعزم ملك الخزر . فلما كان الليل وهدأت العيون أمر الجراح بن عبد الله أصحابه بالرحيل نحو الباب والأبواب . قال : فرحل المسلمون في جوف الليل ولهم ثلاث مشاعل قد رفعت في عسكرهم : مشعلة عظيمة في أول العسكر ، وأخرى مثلها في وسط العسكر ، وأخرى في آخره . ثم ساروا حتى انتهوا إلى مدينة الباب والأبواب ، فإذا ليس فيها أحد من الخزر ، قال : فدخلها المسلمون وخرجوا من الباب الآخر . قال : فنزل الجراح بعسكره عند عين باب الجهاد على نصف فرسخ من مدينة الباب ، فلما أصبح دعا برجل من أصحابه فضم إليه ثلاثة آلاف فارس ، وقال له : سر حتى توافي أرض حداق[3] فلا تدعن لأهلها شيئاً إلا أغرت عليه ، واقتل من قاتلك وانظر لا تطلع الشمس إلا وأنت في عسكري معي على نهر الران . قال : وسار الجراح فيمن بقي معه وهم عشرون ألفاً حتى نزل على نهر الران على ستة فراسخ من مدينة الباب . فلما أصبح قائداه[4] اللذان وجه بهما ومعهما نيف على عشرة آلاف فارس من الماشية وثلاثة آلاف رأس من السبي . قال : وبلغ نارستيك ابن خاقان ملك الخزر بأن الجراح بن عبد الله نزل بنهر الران في خمسة وعشرين ألفاً من العرب وأنه قد أغار وقتل وغنم غنائم كثيرة فنادى في أصحابه

---

(1) كذا ولم نعثر عليه ، ولعله « الرس » يصب في بحر الخزر بعد اجتماعه مع نهر الكرّ (انظر معجم البلدان ـ الكرّ) .

(2) في ابن الأثير : عدة أيام .

(3) كذا ، ولعله خيزار انظر معجم البلدان ، وفيه أن خيزار من نواحي أرمينيا لها ذكر في الفتوح . وورد في فتوح البلدان : « خيزان » .

(4) كذا بالأصل ، والظاهر أن سقطاً ما وقع هنا بالأصل .

ثم سار في أربعين ألفاً حتى صبح نهر الران قال : ودنا القوم بعضهم من بعض والجراح بن عبد الله يومئذ على بغلة له دهماء فقال : أيها الناس ! إنه ليس لكم من فئة تلجأون إليها بعد الله غيري ، وقد علمتم من قتل منكم فإلى الجنة ومن ظفر فالغنيمة والذكر الحسن . قال : ثم تناوش القوم فاختلطوا لساعة وارتفع الرهج والقتام فصارت الريح على الخزر فولوا منهزمين ، واتبعهم مسلمون يقتلونهم حتى بلغوا إلى موضع[1] يعرف بالحُصَيْن وقد قتل منهم خلق كثير ، قال : فغنم الجراح وأصحابه من غنائم الخزر شيئاً كثيراً . وأقبل حتى نزل على الحُصَيْن يومه ذلك ، قال : ونزل أهل الحصين في الأمان وصالحوه على مال فقبل ذلك منهم ، ثم حولهم إلى أرض يقال لها حيزان[2] فأنزلهم هنالك ؛ ثم إنه سار من الحصين حتى صار إلى مدينة من مدن الخزر يقال لها برعوفا[3] فأقام عليها ستة أيام يحاربهم ، ثم إنهم سألوا الصلح بعد ذلك فأجابهم الجراح إلى ما أرادوا وحولهم إلى رستاق يقال له رستاق قبله فأنزلهم بقرية يقال لها الغانية[4] .

ثم سار الجراح من برعوفا حتى صار إلى البلنجر[5] قد جمعوا نيفاً على ثلاثمائة عجلة ، فشدوا بعضها على بعض وجعلوها حول حصنهم كما دار الحصن ليمنعوا بتلك العجل حصنهم . قال : فوثب رجل من أصحاب الجراح إلى سيفه فاستله عن غمده ثم نادى بأعلى صوته : من يهب نفسه لله ؟ فأجابه المسلمون إلى ما سأل ، فقال : اتبعوني ! فاتبعه قريب من مائة رجل[6] بالسيوف وتقدموا نحو تلك العجلة وسهام الكفار تأخذهم من فوق السور وهم يتقدمون ، حتى إذا دنوا من العجل تقدم رجل منهم فضرب حبل عجلة منها ، فقطع الحبال وانحدرت العجل تتبع بعضها بعضاً منحدرة حتى صارت إلى عسكر المسلمين . قال : واشتد الحرب بين المسلمين وبين أهل بلنجر ساعة من النهار ، ثم إنهم انهزموا وأخذ المسلمون الحصن عنوة بجميع ما فيه[7] .

---

(١) في ابن الأثير ٣/٣٠٠ حصن يعرف بالحُصَيْن .

(٢) كذا وفي فتوح البلدان « خيزان » وانظر معجم البلدان .

(٣) كذا ، وفي ابن الأثير ٣/٣٠٠ « برغوا » وفي تاريخ خليفة ص ٣٢٩ « بزغوا » ولم نجدها .

(٤) كذا بالأصل ، ولم نجدها .

(٥) البلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب .

(٦) في ابن الأثير : ثلاثين رجلاً .

(٧) وكان ذلك يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ١٠٤ هـ (كما في تاريخ خليفة) . وأصاب الفارس ثلاثمئة دينار ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً (كما في ابن الأثير) .

قال : وهرب صاحب البلنجر في نحو من خمسين رجلاً من الخزر حتى صار إلى قريب من سمندر[1] ، وصارت البلنجر بما فيها من الأموال والنساء والذرية في أيدي المسلمين ، فأنشأ رجل منهم يقول شعراً . قال : وأخذ الجراح امرأة صاحب البلنجر وأولاده وخدمه ، فنادى عليهم فبلغوا ثلاثين ألف درهم ، فاشتراهم الجراح بماله ثم جعلهم في عزلة . قال : وخاض الناس في ذلك فقال قائل منهم : ما اشتراها إلا لجمالها ، وقال قائل : وما اشتراها إلا لمالها ، وقال بعضهم : ما اشتراها إلا لشرفها في الخزر ؛ قال : وبلغ الجراح ذلك فنادى في الناس فجمعهم ثم قال : إنه قد بلغني ما تكلمتم به في أمر هذه المرأة وإني لم أشترها لمالها ولا لجمالها ولا لشرفها ، ولكني أحببت أن أردها إلى زوجها وأرده إلى مدينته هذه ليكون لنا مصلحة ومجازيً لمن أرسله إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك . قال : فقال الناس : جزاك الله خيراً أيها الأمير ! فنعم ما رأيت ! قال : ثم بعث الجراح إلى صاحب البلنجر وأعطاه الأمان وأعلمه أنه رادّ عليه أهله وماله وولده وخدمه ، وأنه مقرره في أرضه . قال : فأقبل صاحب البلنجر إلى الجراح بالأمان ، فرد عليه أهله وماله وولده وخدمه وأقره في بلده[2] .

ثم سار الجراح من أرض البلنجر في جماعة المسلمين حتى نزل على أرض الوبدر[3] وهم يومئذ أربعون ألف بيت . فلما نظروا إلى عسكر المسلمين قد نزل عليهم جزعوا بذلك وعظم لديهم ، ثم إنهم سألوا الصلح ، فأجابهم الجراح إلى ذلك وأخذ منهم أموالاً كثيرة وعزم على المسير منها إلى سمندر ، قال : وإذا كتاب ورد عليه من صاحب البلنجر مكتوب فيه : أيها الأمير ! إني قد أحببت أن أحسن إليك كما أحسنت إليّ وأكافيك على فعلك الجميل بردّك عليّ أهلي ومالي وولدي وخدمي ، أخبرك أيها الأمير أنه قد اجتمع عليك من الخزر جمع عظيم لا طاقة لك بهم وقد انتقضت عليك ملوك الجبال ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تقبل راجعاً من موضعك الذي أنت فيه ، فإني خائف عليك وعلى من معك من أصحابك . قال : فلما ورد كتاب صاحب البلنجر على الجراح بن عبد الله نادى في أصحابه بالرحيل ، فرحل ورحل الناس معه راجعين إلى نحو من جبل الكيل ، ثم

(١) سمندر : مدينة خلف باب الأبواب بثمانية أيام بأرض الخزر .

(٢) زيد في ابن الأثير : وجعله عيناً لهم يخبرهم بما يفعله الكفار .

(٣) كذا ، وفي ابن الأثير ٣/٣٠١ « حصن الوبندر » . ولم نعثر عليه .

صاروا من رستاق إلى رستاق حتى انحط الجراح وأصحابه على رستاق يقال له شكّى[1] . قال : وأدركهم الشتاء فأقام الجراح وأصحابه هنالك ، ثم كتب إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله على يده من الكفار ويسأله المدد . قال : فلما ورد كتاب الجراح على يزيد بن عبد الملك عزم أن يمده بخيل ورجال يقوى بهم على الخزر .

قال : وأرسل أيضاً أهل العراق إلى يزيد بن عبد الملك يشكو عاملهم ، فعزله وولى مكانه عمر بن يزيد بن هبيرة[2] الفزاري ، قال : فقدم عمر بن يزيد عاملاً على العراقين جميعاً : البصرة والكوفة ، ودان له الناس بالسمع والطاعة ، والجراح بن عبد الله مقيم بأرض شكّى يتوقع المدد بأن يأتيه من الشام ، حتى إذا انقضى عنه الشتاء إذا الخبر قد ورد عليه بأن يزيد بن عبد الملك قد مات ، وكان ملك يزيد بن عبد الملك أربع سنين وشهراً واحداً[3] ، وتوفي ليلة الجمعة لأربع ليال بقين من شعبان سنة خمس[4] ومائة وهو يومئذ ابن أربعين سنة[5] ـ والله أعلم ـ. وصار الأمر

(١) في ابن الأثير : « رستاق ملى » وفي معجم البلدان : شكى بفتح أوله وتشديد ثانيه . . . ولاية بأرمينية .

(٢) في الطبري ، عمر بن هبيرة .

(٣) انظر في مدة ولايته الأخبار الطوال ص ٣٣٤ تاريخ اليعقوبي ٣١٤/٢ الطبري ١٧٩/٨ .

(٤) عن الطبري ١٧٩/٨ وانظر تاريخ اليعقوبي ٣١٤/٢ والإمامة والسياسة ١٤٢/٢ .

(٥) في مقدار عمره خلاف انظر مروج الذهب ٢٣٩/٣ الأخبار الطوال ص ٣٣٤ الطبري ١٧٩/٨ .

قيل في موته أنه بقي بعد حبابة جاريته خمسة عشر يوماً ومات ودفن إلى جانبها . وكان يزيد بن عبد الملك قد استسلم إلى غرائزه وشهواته ورغباته . وقد اتسمت ولايته بعناوين أبرزها :

- تشاغله عن مصالح الأمة وانغماسه باللهو والغناء والشراب والعبث وترك الدولة بكل مؤسساتها إلى الولاة والجواري بحيث أن حبابة جاريته كانت تعزل وتولي دون الرجوع إليه .
- عمد إلى كل الإجراءات والتنظيمات التي وضعها عمر بن عبد العزيز والتي لا توافق هواه فردها . ومثال ذلك أنه كتب إلى عمال عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن عمر كان مغروراً ، غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة ، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا والسلام .
- بعث روح العصبية بين اليمنية والمضرية ، مما جعلها تنخر في عظام الخلافة الأموية إلى أن قضت عليها . فانحاز إلى الجناح المضري (أحد جناحي النظام الأموي) وهدد مصالح الجناح اليمني .
- لسوء سياسته عاد الخوارج إلى التحرك .
- تعيين ولاة في الولايات اعتمدوا في سياستهم الإساءة إلى الموالي مما أدى إلى انتقاض الأمن ، وخروج الأطراف على الدولة ، والكثير ارتدوا عن الإسلام .
- إهماله الجهاد وترك الغزو ومناضلة الأعداء .

إلى أخيه هشام بن عبد الملك ، فأقر الجراح بن عبد الله على بلاد أرمينية ووعده أن يمده بجيش لمحاربة الخزر ، ثم إنه عزل عمر بن يزيد بن هبيرة عن العراق وولى مكانه خالد بن عبد الله القسري وأمره أن يوجه بأخيه أسد بن عبد الله عاملاً على خراسان وأن يأخذ عمر بن يزيد بن هبيرة فيعذبه حتى يستخرج ما عنده من المال الذي أخذه من العراق . قال : فقدم خالد بن عبد الله القسري عاملاً على العراق جميعاً ونزل البصرة ، ثم أخذ عمر بن يزيد بن هبيرة فجعل يعذبه بأنواع العذاب ويستأديه الأموال حتى شق ذلك على أهل البصرة مشقة شديدة ، لأن عمر بن يزيد قد كان محباً لأهل البصرة ، فشق عليهم ما قد نزل به من ذلك العذاب فقال الفرزدق بن غالب في ذلك :

ألا قطع[1] الرحمن ظهر مطية أتتنا تخطى[2] من دمشق بخالد
وكيف يؤم الناس من كانت أمه تدين بأن الله ليس بواحد[3]

قال : وكان عمر بن يزيد إذا اشتد به ألم العذاب يصيح ويقول : يا هشام ! يا هشام ! المستغاث من عذاب خالد ! فأنشأ نصر بن سيار الكناني يقول في ذلك :

أرى مضر المصرين قد ذل نصرها ولكن عسى أن لا يذل سنامها
فمن مبلغ بالشام قيساً وخندفاً أحاديث قد هاجت علينا سقامها
دم ابن يزيد صار حلاً لخالد وفينا بقيات الهدى وإمامها
أنقتل فيكم إن قتلنا عدوكم على دينكم والحرب باد قتامها
أثار بقتل ابن المهلب خالد ألهفي لنفس ليس يهدى أنينها

قال : وجعل عمر بن يزيد بن هبيرة يحتال ويتلطف وبذل ما يقدر عليه لمن معه في السجن حتى نقبوا له في السجن نقباً وجعلوا النقب على مثال السرب ، فدخل عمر بن يزيد بن هبيرة من ذلك النقب ومر تحت الأرض حتى خرج من ذلك السرب فأفلت من السجن ، فقال بعضهم في ذلك :

ولما رأيت الأرض قد سد ظهرها ولم نر إلا تحتها لك مخرجا

---

(١) في وفيات الأعيان ٢٢٨/٢ ألا قبح .

(٢) .في ابن الأثير ٤٠٤/٣ تهادى ، وفي الأغاني ٣١٣/٢١ تمطى .

(٣) وكانت أم خالد نصرانية رومية . وبعده في ابن الأثير :

بنى بيعة فيها النصارى لأمه ويهدم من كفر منار المساجد

دعـوت الـذي نـاداه يـونس بعـد مـا هـوى في ثـلاث مـظلمـات ففـرجـا
فأصبحت تحت الأرض قد سرت سيرة ومـا سـار سـار مثلهـا حين أدلجـا
ومـا احتـال محتـال كحيلتـه التي لهـا نفسـه تحت الضـريحـة أولجـا
وظلماء تحت الأرض قد خفت هـولها وليـل كليـل الـطيلسـاني أدعـجـا

قال : وعلم خالد بن عبد الله القسري بهرب عمر بن يزيد ، فوجه في طلبه برجل يقال له مالك بن المنذر بن الجارود العبدي ، فخرج مالك بن المنذر في نفر من غلمانه حتى لحق عمر بن يزيد في بعض الطريق وهو يريد الشام فقتله ، ثم رجع إلى خالد بن عبد الله فخبره ذلك . قال : وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فأرسل إلى مالك بن المنذر بن الجارود فأشخصه من العراق ، فلما دخـل عليه وسلم قـال له هشام : لا سلّم الله عليك ولا حياك ولا مرحباً بك ولا أهـلاً يا عـدو الله ! أقتلت عمر بن يزيد بن هبيرة ! فوالله لقد كان خيراً منك أباً وأماً وحسباً ونسباً وريشاً وعقباً ! فقال مالك : ولم ذلك يا أمير المؤمنين ؟ أو لست ابن المنذر بن الجارود ؟ قال : فغضب هشام من ذلك ثم أمر فوجئت عنقه وهشم أنفه وأدمي فوه ، ثم أمر به إلى السجن فلم يزل يعذب بألوان العذاب حتى مات .

قال : ثم كتب هشام بن عبد الملك إلى الجراح وهو يومئذ مقيم بأرض شكى يأمره بمحاربة الخزر ويعده في كتابه أن يمـده بجيش أهل الشـام ، قال : فـطمع الجراح في ذلك ثم صار من أرض شكى حتى صار إلى حصن برذعة ، ثم صار من هنالك إلى مدينة يقال لها البيلقان ، ثم إلى مدينة ورثان[١] ، وباجروان[٢] ثم إلى أردبيل فنزل بها ، وبها يومئذ خلق كثير من المسلمين يزيـدون على ثلاثين ألفـاً . قال : فنزلها الجراح ثم جعل يبث منها السرايا إلى موقان وجيلان وطالقان[٣] فتغير وتأسر وتقتل وترجع السرايا إلى أردبيل ؛ وبعث خاقان ملك الخزر إلى جميع أصناف الكفر ممن كان على دينه وملته فاستمدهم إلى حرب المسلمين فأجابوه إلى ذلك ، فضمهم بأجمعهم إلى ابنه نارستيك بن خاقان وأمره بالمسير إلى أذربيجان لمحاربة الجراح بن عبد الله وأصحابه . قال : فسار نارستيك بن خاقان في ثلاثمائة ألف من

---

(١) عن ابن الأثير ، وبالأصل : « وريان » . وورثان بلد هو آخر حدود أذربيجان بينه وبين وادي الرس فرسخان وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ .
(٢) باجروان : مدينة من نواحي باب الأبواب .
(٣) عن معجم البلدان ، وبالأصل « طالشان » .

الخزر وأصناف الكفار حتى نزل مجمع النهرين : نهر الكر ونهر الرس . ثم سار من هنالك إلى ورثان فأخذها وقتل عامة أهلها ، ثم خرج منها يريد الجراح بن عبد الله وأصحاب الجراح يومئذ متفرقون في بلاد أذربيجان .

قال : فجعلت الخزر تقتل كل من قدر عليه من المسلمين ويغيرون ويحرقون وينهبون ، وبلغ ذلك الجراح بن عبد الله فكتب إلى هشام بن عبد الملك يخبره بذلك ويسأله المدد ، قال فتباطأ هشام عن نصرة الجراح وأقبلت الخزر حتى نزلوا قريباً من أرض أردبيل[1] .

ذكر محاربة الجراح بن عبد الله مع الخزر ومقتله رحمة الله عليه

قال : وخرج الجراح بن عبد الله حتى صار إلى مرج جبل يقال له السَّبَلان[2] فضرب عسكره هنالك ، ثم رحل حتى صار إلى نهر على قارعة الطريق فعقد له جسراً ـ قال : وذلك الجسر إلى يومنا هذا لا يعرف إلا بجسر الجراح . قال : وكان مع الجراح يومئذ دهقان أذربيجان واسمه مردان شاه وكان مجوسياً ، فأقبل على الجراح فقال : أيها الأمير ! إنك في قلة من الجيوش ، والعدو في جيش كثير وجند كبير، وليس ينبغي للقليل من الجيش أن يصحر للجيش الكثير في الأرض المستوية ، ولكن هذا جبل سبلان[3] قريب منك، فمل إليه وانزل في سفحه واجعله وراء ظهرك وقاتل العدو من وجه واحد إلى أن يأتيك المدد من عند أمير المؤمنين . قال فقال له الجراح : يا مردان شاه ! أظنك جباناً ، فقال ، لا ما جبنت قط ، ولكن قد أشرت عليك بالصواب ، فقال الجراح : ما كان نساؤكم باللاتي يتحدثن عني بأني جبنت عن قتال أعداء الله . قال : ثم سار الجراح من موضعه ذلك حتى نزل بقرية يقال لها شهرازاد ، فحط الأثقال هنالك على تلك القرية . قال : وفي أصل ذلك التل عين ماء جارية ، فلما استقر به الموضع إذا الخزر قد أقبلت في السيل والليل ، وعبأ الجراح أصحابه ودنا القوم بعضهم من بعض . فقال مردان شاه الدهقان للجراح بن عبد الله : أيها الأمير ! ألستم تزعمون في دينكم أن الرجل إذا كان مخالفاً لكم ثم إنه شهد

---

(١) أردبيل من أشهر مدن أذربيجان .

(٢) في ابن الأثير : « مرج أردبيل » والسبلان « جبل عظيم مشرف على مدينة أردبيل » . وفي فتوح البلدان : واقعهم على أربعة فراسخ من ناحية أردبيل .

(٣) بالأصل : سيلان .

بشهادة الحق وضرب بسيفه في المشركين حتى يقتل فإنه في الجنة شهيد ؟ فقال له الجراح : بلى يا مردان شاه ! إنا نقول ذلك ولا نشك فيه ! قال : فخرج الدهقان بسكين كان معه فقطع كشحاً كان في وسطه ، ثم نزع ثيابه وشهد بشهادة الحق ، ثم أخذ سيفه وتقدم نحو الخزر فلم يزل يقاتل حتى قتل . قال : واشتد القتال بين المسلمين والخزر وكلبت الخزر على القتال وجعل المسلمون يروغون عن الحرب[1] . فقال : هو ما ترى أصلح الله الأمير ! فقال : ناد بهم « هلموا إلى الجنة لا إلى النار ! هلموا إلى الهدى لا إلى الحبار ! هلموا إلى الرحمن لا إلى الشيطان ! هلموا إلى الجنان لا إلى النيران ! » فجعل الغلام ينادي كذلك والقوم يروغون من شدة الحرب ؛ قال : فعندها حمل الجراح وهو يرتجز ويقول :

لم يبق إلا حسبي وديني وصارم ذو صنعة مسنونِ
لله در الصبر من قرين قرين صدق غير ما خؤون

قال : ثم حمل على جميع الخزر ، فلم يزل يقاتل حتى قتل منهم مقتلة عظيمة وقتل[2] .

قال : ووضعت الخزر السيف في أصحاب الجراح فقتلوهم بأجمعهم إلا سبعمائة رجل أو دون ذلك ، فإنهم انهزموا حتى صاروا إلى جبل سبلان[3] واشتغل الخزر عنهم بما صار إليهم من الغنائم ، وأمر نارستيك بن خاقان بطلب الجراح فطلبوه في القتلى حتى وقفوا عليه ، فأمر به نارستيك فاحتز رأسه ، ثم احتوى على أمواله وأهله وولده وجواريه وخدمه وجميع ما كان له .

قال : وخرج رجل من عسكره يسمى صقلياً ، فلم يزل يسير إلى هشام بن عبد الملك ، فدفع إليه خاتم الجراح وخبره بخبره وخبر أصحابه وكيف قتلوا ، قال : فبكى هشام بن عبد الملك بكاء شديداً حتى علا نحيبه وبلّ لحيته بدموعه ، وبكى المسلمون في كل بلد حزناً منهم على الجراح وأصحابه ؛ فأنشأ بعض أهل الشام يقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

نفسي الفداء لجراح وقد نحبت نفس الجبان وضاق الورد والصدرُ

---

(١) الظاهر أن في الأصل سقطاً .
(٢) في فتوح البلدان ص ٢٠٨ اقتتلوا ثلاثة أيام . فاستشهد ومن معه .
(٣) بالأصل : سيلان .

إلى آخرها .

قال : وسارت الخزر إلى أردبيل فنزلوا عليها وصابرهم أهل أردبيل أياماً كثيرة وليالي ، فلما طال عليهم الحصار ولم يأتهم غياث أسلموا المدينة . قال : فدخل الخزر مدينة أردبيل عنوة بالسيف ، فقتلوا المقاتلة وسلبوا النساء والذرية وغنموا ما كان فيها ، ثم إنهم تفرقوا في رساتيقها فينزلونها ويقتلون وينهبون ويحرقون ويفجرون .

قال : وجعل هشام بن عبد الملك يستشير وزراء خاصته فيما قد نزل به من أمر الجراح بن عبد الله وأصحابه وامتنع من النوم وضاقت الأرض عليه برحبها ، ثم أقبل على مولى له يقال له سالم فقال : ويحك يا سالم ! ما الذي عندك من الرأي ؟ فقال سالم : والله يا أمير المؤمنين ! إن دعاءك إياي للمشورة أعظم عندي مما فعلت الخزر بالمسلمين ، أنا عندك في موضع مشورة فتستشيرني ؟ عليك بأصحابك وصنائعك وقوادك ووجوه العرب فاستشرهم في ذلك الأمر ثم افعل بعد ذلك ما تريد وبما يعزم الله لك عليه . قال : فجعل هشام يدخل إلى منزله ويخرج ولا يستقر به موضع استعظاماً لما قد انتهى إليه من أمر الجراح وأصحابه ، قال : فكلمه خادم يقوم على رأسه فقال : يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك ! هؤلاء الأشراف الذين قد ألزمتهم بابك وأجريت عليهم أرزاقك لأي شيء يرادون إلا لمثل هذا اليوم ! فقال هشام : والله لقد صدقت في ذلك ! عليّ بهم ، قال : فأدخل عليه كل من كان ببابه فاستشارهم هشام في أمره ، فتكلم جماعة وقالوا : يا أمير المؤمنين ! ليس لهذا الأمر إلا سعيد بن عمرو الحرشي فإنه رجل مجرب وقد علمت ما كان منه بخراسان في جهاد الترك والسغد ، وهو رجل مقدام بطل همام ، غير أنه ضعيف البصر ونحن نرجو أن يقوم بأمر الخزر . قال فقال هشام : هو لها ما لها ! سواه .

ذكر أمر سعيد بن عمرو الحرشي وخروجه إلى الخزر

قال : وكان سعيد بن عمرو هذا ينزل مدينة من مدائن الشام يقال لها منبج ، فأمر هشام كاتبه فكتب : أما بعد يا سعيد ! فقد كان من أمر الجراح بن عبد الله وأصحابه ما لا يخفى عليك ، فانظر إن ألفاك كتابي هذا وأنت قاعد فقم ، وإن ألفاك قائماً فلا تقعد ، فإن الأمر يجل عن الوصف ـ والسلام ـ .

قال : فلما ورد كتاب هشام على سعيد بن عمرو وقرأه وثب قائماً ، واستوى على بغل له وأمر بني عمه بالركوب فركبوا ، وسار حتى قدم على هشام بن عبد الملك وهشام يومئذ على موضع يقال له الرصافة فاستأذن ، فأذن له فدخل وسلم فرد عليه هشام السلام ثم أمر بالجلوس فجلس ، فقال له هشام : يا سعيد ! قتل أخوك الجراح بن عبد الله وقتل إخوانك من المسلمين بأرض أردبيل ، فماذا عندك من الغناء ؟[1] فقال سعيد : يا أمير المؤمنين ! ما كنت قط أقوى مني هذا اليوم ، فقال هشام : الحمد لله على كل حال على ذلك ، وكيف بصرك من ضعفه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! هذا يوم يبصر فيه الأعمى ولا مخبأ لعطر بعد عروس[2] ، قال فقال هشام : أحسنت ! وهذا كان ظني بك . قال : ثم أمر هشام فطلب من خزانته رمح من رماح أهل بدر ، فما أصيب إلا رمح واحد فأتي به إلى هشام ، فعقد للحرشي إلى ذلك الرمح عقداً بيده ودفعه إليه ، فقال الحرشي : يا أمير المؤمنين ! إني قد رأيت في منامي رؤيا عجيبة ، فقال هشام : وما الذي رأيت يا سعيد ؟ قال : رأيت كأني أتيت بنخل كثيرة فجعلت أحطمها برمحي حتى أتيت على غايتها ، ثم إني أدخلت إلى قبر الجراح بن عبد الله وأخرجت من فيه ، ثم انتبهت فزعاً مرعوباً ، فصرت بنفسي إلى محمد بن سيرين وقصصت عليه ما رأيت ، فقال : أما النخل فإنها عساكر الخزر وأنت قاتلها إن شاء الله ؛ وأما دخولك قبر الجراح فأنت الثائر بدمه . قال فقال هشام : والله إني لأرجو أن يقصم الله بك الكفار ! وما ذلك على الله بعزيز . قال : فتناول الحرشي اللواء ثم صاح بغلام له : يا فرج ! خذ هذا اللواء إليك ، فقال هشام : يا سعيد ! هذا اسمه أو أردت بذلك الفأل ؟ فقال : بل هو اسمه يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأمر هشام بن عبد الملك له بخمسين درعاً وخمسين سيفاً وخمسين رمحاً وخمسين مغفراً وخمسين قوساً وخمسين كنانة ، وحمله على عشرة أفراس عربية ، ثم انتخب له وجوه أهل الشام وأشراف العرب فضمهم إليه وقال : سر يا سعيد حتى تنزل الرقة ، فلا تبرحها إلى أن يلحقك الناس .

قال : فسار الحرشي في قومه وبني عمه وسادات أهل الشام حتى نزل الرقة ، وجعل هشام يندب إليه الناس حتى صاروا في ثلاثين ألفاً . قال : ووجه إليه هشام

---

(١) في الطبري ٧/ ٧٠ وابن الأثير ٣/ ٣٣٠ قال الجراح : تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد ، ثم تبعث إليّ كل يوم أربعين رجلاً ، ثم اكتب إلى أمراء الأجناد يوافوني .

(٢) مثل يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس (الميداني ـ مجمع الأمثال) .

بمائة ألف درهم وأمره بالتقدم إلى العدو . قال : فرحل الحرشي بجيشه ذلك ، وكان لا يمر بمدينة من الجزيرة إلا استنهض أهلها إلى حرب الخزر فيجيبه من كل مدينة قوم ممن يريد الجهاد ، فلم يزل كذلك حتى صار إلى مدينة يقال لها أرزن[1] فإذا هو بقوم من أصحاب الجراح قد استقبلوه مفلولين يريدون الشام ، فلما نظروا إلى الحرشي بكوا بكاء شديداً ثم نعوا إليه الجراح ، فبكى الحرشي حتى علا نحيبه ، ثم فرق عليهم مالاً قواهم به وأمرهم بالرجوع معه إلى الجهاد ، وجعل لا يلقاه واحد إلا أعطاه عشرة دنانير ، ثم إنه دخل إلى الدرب الذي يعرف إلى يومنا هذا بدرب بني زرارة فقطعه حتى خرج إلى مدينة خلاط[2] وفي قلعتها يومئذ جماعة من الكفار ، فأقام عليها أياماً حتى فتحها ، وقتل مقاتلتها ، وقسم على أصحابه غنائمها . ثم تقدم من خلاط[3] فجعل يفتح قلعة بعد قلعة وحصناً بعد حصن حتى صار إلى برذعة فنزلها وتباشر به أهل برذعة من المسلمين الذين بها . قال : ونارستيك بن خاقان يومئذ في بلاد أذربيجان يقتل ويسبي[4] . قال : واجتمع الناس إلى الحرشي من كل أوب عازمين على الجهاد ، فقام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا معشر المسلمين ! فليعد موسركم على معسركم ، فليس هذا يوم ادخار الأموال ، ألا ! ومن كان عنده فضل دابة فليحمل عليها رجلاً من المسلمين ، واستعينوا بالله وتوكلوا عليه ، واستنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . قال : فناداه الناس من كل ناحية : سمعنا وأطعنا أيها الأمير ! فسر بنا إلى عدونا يرحمك الله عز وجل .

ذكر الرجل الرستاقي

قال : وسار الحرشي من برذعة حتى نزل البيلقان ، فلما استقر بها أقبل إليه رجل من رستاقها فقال : أصلح الله الأمير ! إني رجل ملهوف فاسمع مني ما أقوله ، فقال الحرشي : قل ما بدا لك ، فقال : إن نارستيك بن خاقان لما قتل الجراح بن عبد الله وفعل بأهل أردبيل ما فعل بعث إلى هذا الرستاق بطرخان من طراخنته ، ففرق أصحابه في هذه القرى فأخذ ابنتين لي ، فجردهما من ثيابهما وأمرهما أن تسقياه الخمر عريانين ، وهو الآن نازل في قرية من هذه الرستاق آمناً مطمئناً لا يعلم بشيء

---

(١) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحي أرمينيا .

(٢) بالأصل : « أخلاط » وما أثبت عن ابن الأثير ٣/٣٣٠ وخلاط هي قصبة أرمينيا الوسطى .

(٣) بالأصل : « أخلاط » .

(٤) وكان ابن خاقان يومئذ يحاصر مدينة ورثان كما في ابن الأثير . وفتوح البلدان ص ٢٠٨ .

من خبر قدومك إليه ، فيصبح سكران ويمسي سكران ، فوجه إليه أيها الأمير معي برجل من أصحابك فعسى الله تبارك وتعالى أن يمكن منه وأستنقذ منه ابنتيّ وأنت في ذلك مأجور ! فاغتم الحرشي لذلك غماً شديداً ، ثم دعا برجل من بني عمه يقال له عبد الملك[1] بن مسلم العقيلي فضم إليه جماعة من فرسان أصحابه ووجه بهم الرستاقي إلى القرية التي فيها الطرخان ، ثم أقبل بعبد الملك بن مسلم حتى أوقفه على البيت الذي للطرخان ، قال : فصعد العقيلي وتطلع من كوة[2] البيت فإذا هو بالطرخان سكران لا يعقل والجاريتان عند رأسه ، قال : فرمى بنفسه من كوة[2] البيت فسقط على الكانون ، ثم وثب على الطرخان ، فلم يزل يضربه بسيفه حتى قتله ، ثم احتز رأسه وخرج إلى أصحابه والجاريتان معه فسلمهما إلى أبيهما ، ثم وضع السيف فقتل كل خزري كان في تلك القرية وغنم ما غنم ؛ ثم رجع إلى الحرشي فخبره بذلك . قال : فكان ذلك أول فتح كان للحرشي .

قال : واتصل الخبر بالحرشي بأن نارستيك بن خاقان ملك الخزر محاصر لأهل مدينة ورثان في جمع عظيم ، فدعا برجل من أهل البيلقان يقال له بردك[3] ـ وكان بردك هذا من أبناء فارس ، وكان مع ذلك شجاعاً بطلاً ، وكان فصيحاً بالخزرية ، وكان يعرف بصاحب البرذون الأبلق . قال : فدعاه الحرشي فقال : يا بردك ! أنت رجل مسلم وأريد منك أن تهب نفسك لله وللمسلمين وتصير إلى ورثان فتعلمهم أني قادم إليهم لكيلا يسلموا مدينتهم إلى الخزر ! قال فقال له الرجل : أفعل ذلك أيها الأمير إن شاء الله ! قال : فخرج الرجل في جوف الليل يريد إلى مدينة ورثان ، فلما أصبح وقع عليه قوم من الخزر فأخذوه ثم سألوه عن حاله ، فخبرهم أنه رسول الحرشي إلى أهل ورثان يعلمهم أن الحرشي قادم ؛ قال فقال له الخزر : أين الحرشي ؟ قال : بالبيلقان ، قالوا : فإن أحببت الآن أن نخلي سبيلك وأن تنجو بنفسك فتقدم إلى مدينة ورثان وخبرهم بأنه ليس بقادم عليهم أحد من العرب حتى يسلموا المدينة إلينا ! قال فقال لهم : أفعل ذلك غير أنكم قد أخذتم برذوني هذا الأبلق وأنا لا أعرف إلا به ، فردوه عليّ وقربوني من المدينة ، قال : فردوا عليه برذونه ، فاستوى عليه ثم نادى بأعلى صوته : يا أهل ورثان ! هل تعرفونني ؟ فقالوا :

---

(١) في فتوح البلدان ص ٢٠٨ ورد ذكره في رجال الحرشي .

(٢) بالأصل « كورة » وما أثبت يناسب سياق المعنى .

(٣) في ابن الأثير ٣/ ٣٣٠ فارسل بعض أصحابه .

نعم أنت بردك[1] البيلقاني صاحب البرذون الأبلق، فقال : صدقتم أنا هو ، ولكن أبشروا فقد جاءكم سعيد بن عمرو الحرشي في عسكر لجب وهو بالبيلقان ، فشدوا أيديكم بمدينتكم ولا تسلموها إلى الخزر ، فإن الحرشي يصبحكم غداً[2] إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ! وأما أنا فإني مقتول ـ وعليكم السلام ـ. قال : فلما سمع أهل ورثان ذلك رفعوا أصواتهم بالتكبير ، وعلمت الخزر أن بردك قد نصحهم وبشرهم بقدوم الحرشي عليهم ، فشدوا عليه بالسيوف فقتلوه .

قال : وبلغ ذلك الحرشي فأمر بحطب كثير ، فجمع له ، ثم أمر فألهبت فيه النيران لكي يرتفع دخانه فيعلم أهل ورثان أني قادم عليهم ؛ قال : ونظرت الخزر إلى ذلك الدخان فارتحلوا عن باب ورثان حتى صاروا إلى صحراء البلاشجان[3] ومن البلاشجان إلى حصن باجروان . قال : وأقبل الحرشي إلى باب ورثان فنزل على بابها يومه ذلك ، فخرجوا إليه بالأطعمة والعلوفة ، وانضم إليه منهم زهاء على ألفي فارس ، فارتحل الحرشي من ورثان في طلب الخزر من بين يديه إلى ناحية أردبيل وإلى ناحية الميمذ[4] ؛ وأقبل الحرشي حتى نزل باجروان .

فلما استقر به الموضع إذا بفارس قد أقبل على فرس كالقرطاس الأبيض من شدة بياضه وعلى الفارس أيضاً ثياب بيض حتى وقف على الحرشي ، والحرشي قاعد على باب حصن باجروان فسلم عليه ، فرد عليه الحرشي السلام ثم قال : من أنت عافاك الله ؟ فقال له الفارس : أنا عبد من عبيد الله ، ولكن هل لك أيها الأمير في الجهاد والغنيمة من حاجة ؟ قال الحرشي : وكيف لي بذلك ؟ فقال : هذا عسكر الخزر في عشرة آلاف[5] أهل بيت من المسلمين أسارى وسبايا وقد نزلوا على أربعة فراسخ من موضعك هذا بأرض يقال لها رستك[6] فإن أردتهم فهذا وقتهم ؛ قال : ثم تركه صاحب الفرس ومضى . ونادى الحرشي في أصحابه : أيها الناس ! اركبوا إلى الجهاد والغنيمة رحمكم الله ! وانظروا أن لا يصحبني منكم إلا صاحب بيضة محكمة

---

(١) بالأصل « يزدك » وقد مرّ أنه « بردك » وفي ابن الأثير : قالوا : نعم أنت فلان .
(٢) ابن الأثير : في هذين اليومين يصل إليكم .
(٣) كذا بالأصل ، ولم نجده .
(٤) بالأصل « الميمند » وما أثبت عن فتوح البلدان ، وفيها ميمذ من عمل أذربيجان .
(٥) في ابن الأثير : في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت المسلمين .
(٦) كذا ، ولم نعثر عليه .

ودرع سابغ وسيف قاطع ، ثم دعا الحرشي بدرعه وأفرغه عليه وتقلد بسيفه ، ثم قدم إليه فرسه فسما وركب وتقدم على باب باجروان ، فجعل ينظر إلى قائد بعد قائد حتى خرج إليه أربعة من القواد في أربعة آلاف رجل على ما أراد من الهيئة والسلاح ، فقال : حسبكم ، الآن اغلقوا الباب ، فغلق باب باجروان .

ثم دعا الحرشي ـ ليأتيهم بالخبر ـ برجل يقال له إبراهيم بن عاصم العقيلي فأرسله إلى الخزر ، قال : وكان إبراهيم هذا فصيحاً بالخزرية ، فأقبل يسير في جوف الليل نحو عسكر الخزر والحرشي من ورائهم في أربعة آلاف . قال : وسبقه إبراهيم بن عاصم هذا فدخل عسكر الخزر وكان يلبس كلباسهم ويتشبه بهم ، فجعل يجول في عسكرهم راجلاً والخزر آمنون مطمئنون . قال : وإذا طرخان من طراخنتهم عنده سرية للجراح بن عبد الله فهو يراودها عن نفسها وهي تبكي وتقول : يا رب ! ما لنا أحد سواك وقد ترى ما نحن فيه ، فوعدك الحق . قال : فلما سمع إبراهيم بن عاصم مقالة الجارية همّ أن يهجم على الطرخان فيقتله ، ثم إنه خشي أن يقتل ولا يبلغ حاجته ، فرجع إلى الحرشي فخبره بذلك . قال : فبكى الحرشي ومن معه من المسلمين بكاء شديداً ، ثم أمسكوا عن بكائهم وجعلوا يسيرون حتى أشرفوا على عسكر الخزر في آخر الليل والقوم نيام ، فلما نظر إليهم الحرشي على تلك الحالة فرق عليهم أصحابه من أربعة أوجه وأمرهم أن لا يقدموا إليهم حتى لا يسمعوا التكبير . قال : وبرق عمود الصبح فكبر الحرشي وكبر معه المسلمون ، وسمع الأسارى التكبير فأيقنوا بالفرج ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، فما بزغت الشمس حتى أبيدوا بأجمعهم في معركة واحدة وهم عشرة آلاف ، فما أفلت منهم إلا رجل واحد وإنه سار إلى نارستيك بن خاقان فخبره بذلك ؛ فأنشأ رجل من المسلمين يقول أبياتاً مطلعها :

تشبث لمتي همي بما لا ... يهم به الضعيف من الرجالِ

إلى آخرها .

قال : وجمع الحرشي غنائم الخزر ، واستنقذ المسلمون والمسلمات والذراري الذين كانوا في أيدي الخزر ودوابهم ، وسار حتى صار إلى باجروان .

قال : فما دخلها حيناً حتى أقبل إليه صاحب الفرس الأشهب[1] فقال : السلام

(١) في ابن الأثير ٣٣١/٣ صاحب الفرس الأبيض .

عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ! فقال له الحرشي : أيها [الرجل] أين أنت ؟ فإني قد أمرت لك بجائزة فخذها فإنك رجل ناصح دالّ على الخير والأجر والثواب ، فقال له : أيها الأمير ! تكون هذه الجائزة عندك فإنها[1] أحرز لها ، ولكن هل لك أيها الأمير في الغنيمة الباردة ؟ فقال الحرشي : وكيف لنا بذلك ؟ فقال : هذا جيش الخزر قد أقبل ومعهم أموال المسلمين وحرم الجراح بن عبد الله وأولاده ، وهم يريدون إلى بلادهم غير أنهم نزلوا على نهر الميمذ[2] من ههنا على فراسخ يسيرة للخيل ، فإن أردتهم أيها الأمير فهذا وقتهم . قال : ثم مضى الرجل ونادى الحرشي في أصحابه ، وسار بهم نحو نهر الميمذ ، فلما أشرف على النهر إذا هو بجيش الخزر في عشرين ألفاً أو يزيدون ومعهم الأسارى من المسلمين والمسلمات ، قال : فكبر الحرشي وكبر المسلمون معه ، ثم حملوا على جميع الخزر ووضعوا فيهم السيف ، فما أفلت منهم إلا الشريد ، واحتوى الحرشي على الغنائم ، واستنقذ الأسارى ، وإذا فيهم جواري الجراح وأولاده وحرمه وجميع أمواله ، فجعل الحرشي يضم أولاد الجراح إلى صدره ويبكي ويقول : يا بني أخي ! ليتني كنت مع أبيكم فنحيى جميعاً أو نموت جميعاً ! قال : ثم سار الحرشي بالمسلمين والمسلمات والغنائم يريد إلى باجروان ، فأنشأ رجل من بني عبس يقول أبياتاً مطلعها :

أنا العبسي أذكر مجد قومي   يحوزون النهاب ويحكمونا

إلى آخرها .

قال : ودخل الحرشي إلى باجروان بغنائم الخزر .

قال : وبلغ ذلك نارستيك بن خاقان ملك الخزر فهمّ أن يقتل نفسه من شدة الغم ، ثم أقبل على طراخنته ووجوه أصحابه فقال : ويلكم يا معشر الخزر ! أنتم تعلمون أني قفلت الجراح وهو ملك من البلاد ، ثم استبحت عسكره وأسرتُ من أسرت ، وسبيتُ من سبيت ، ثم جاءكم رجل على بغل في قلة وذلة ففعل بي وبكم ما فعل وأخذ غنيمتي فقتل أصحابي ، أفليس الموت خيراً لي من ذلك ؟ قال : فضجت الخزر من كل ناحية وقالوا : أيها الأمير ! لا عليك فإنها نأتيك به أسيراً فاصنع به ما أحببت . قال : فعندها جعل نارستيك بن خاقان يجمع أطرافه ويضم إليه أصحابه من جميع بلاد أذربيجان ، حتى اجتمع له خلق كثير ؛ وبلغ ذلك سعيد بن

---

(١) كذا بالأصل ، والمناسب : فإنك .

(٢) في ابن الأثير : بمكان كذا .

عمرو الحرشي فأرسل إلى ورثان والبيلقان وبرذعة وقَبَلة[1] وإلى جميع بلاد أرمينية ، فحشر إليه الناس من المزرفة[2] والمطوّعة[3] وسائر الناس ، فسار بهم في جمع عظيم . قال : وإذا بصاحب الفرس الأشهب قد أقبل فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ! فقال له سعيد بن عمرو : يا هذا أنت رجل مبارك علينا ، وذلك أنك عرضتنا للغنيمة والشهادة غير مرة ، وقد اجتمعت لك عندنا جوائز وقد أمرنا لك بها ، فلم لا تأخذها يرحمك الله ؟ فقال : تكون هذه الجوائز عند الأمير إلى وقت حاجتي إليها ، ولكن هل للأمير في نارستيك بن خاقان وجيشه وفي الجهاد والغنيمة ؟ قال الحرشي : ما أحوجنا إلى ذلك ! قال : فإنه قد سار إلى ما قبلك في جمع عظيم ومعه أربعون ألف عجلة عليها المسلمون والمسلمات والذراري والأمتعة ، فإن أردتهم فهذا وقتهم . قال : ثم مضى الرجل ، ونادى الحرشي في أصحابه ، فركبوا بأجمعهم ، ثم سار بهم سيراً عنيفاً حتى وافى بهم أرض برزند[4] وبها يومئذ نارستيك بن خاقان في جملة عساكر الخزر ، فلما نظر إلى عساكر العرب واقفة عبى أصحابه تعبية الحرب ، وعبى الحرشي أصحابه كذلك في وقت العصر ، وتقدم على برذون له أدهم وسيفه على عاتقه ، وتقدم المسلمون معه نحو الخزر . قال : وصدقتهم الخزر القتال فدفعوا المسلمين دفعة اضطروهم إلى سفح الجبل . فلما نظر الحرشي إلى ذلك حسر البيضة عن رأسه ثم وعظ الناس وذكرهم وحرضهم على القتال ، وقال : ويحكم ! يا أهل الإسلام إليّ ! تنهزمون من بين يدي هؤلاء الأغنام الذين لا يعرفون الله ولا يعبدونه ، أما تسمعون أطيط العجل عليها المسلمون والمسلمات أسارى ينادون : وا محمداه ! وا أبا القاسماه ! قال : فثاب إليه المسلمون من كل ناحية ، ثم إنهم صدقوا القتال فقاتلوا قتالاً شديداً ، وصدق الله وعده وأعز جنده ونصر أولياءه وأذل أعداءه ، وانهزمت الخزر من بين يدي المسلمين هزيمة قبيحة ومعهم ملكهم نارستيك بن خاقان ، واحتوى الحرشي وأصحابه على سوادهم وأموالهم وقليلهم وكثيرهم ، وحاز العجل ومن عليها من المسلمين والذراري والأمتعة ؛ وأنشأ رجل من المسلمين في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

لنا هضبة تعلو الهضاب بعيدة ... من الذل يخشى درها من يحاربه

---

(١) قبلة : مدينة قديمة قرب الدربند وهو باب الأبواب من أعمال أرمينية .

(٢) المزرفة : قرية كبيرة فوق بغداد على دجلة .

(٣) المطوعة : موضع من نواحي البصرة .

(٤) برزند : بلد من نواحي تفليس من أعمال جرزان من أرمينيا الأولى .

إلى آخرها .

وانهزمت الخزر على وجوهها ، والمسلمون في طلبهم حتى بلغوا بهم إلى شاطىء لهم[1] ، ثم رجعوا عنهم وساقوا الأسارى والغنائم إلى باجروان .

قال : وإذا بصاحب الفرس الأشهب قد أقبل إلى الحرشي فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ! قم أيها الأمير وناد في أصحابك فليركبوا . فهذا نارستيك بن خاقان عدو الله قد التأم عليه عامة من شذّ عنه من أصحابه ، وقد أقبل إليك في جمهور الطراخنة وفرسان الخزر ، وقد نزل على نهر موقان[2] في جمع عظيم وجيش كثير ، فلا يهولنك أمرهم أيها الأمير ! فإن الله ناصرك وخاذلهم وجاعل دائرة السوء عليهم ، فإني خائف أن يصبحك غداً في جمعه ذلك وليس الأمر بصغير ، وقد أعذر من أنذر . قال : ثم تركه ومضى ، ونادى الحرشي في أصحابه من المسلمين أن لا يبقى أحد من المسلمين صغير ولا كبير إلا ركب واستعد للموت . قال : فركب المسلمون بأجمعهم ، ويقولون : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، بالله استعنا وعليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل ! قال : ثم دعا الحرشي بقوم من ثقات أصحابه وأمرهم بحفظ مدينة باجروان ومن بها من المسلمين والمسلمات والغنائم ، ثم سار في ثلاثة وخمسين ألفاً من أهل الشام والجزيرة ومن التأم إليه من جميع البلاد حتى وافى نهر موقان[3] ، وإذا نارستيك بن خاقان هنالك في تسعين ومائة ألف . فلما نظر إلى غبار خيل المسلمين وثب فعبى أصحابه ، ودنا منهم الحرشي على غير تعبية حتى وافقهم هنالك ، ثم دعا بعصابة فعصب بها حاجبه وقال : أيها الناس ! هل فيكم من يعرف نارستيك بن خاقان ؟ فقالوا : نعم ، هو صاحب التاج الواقف تحت البيداء الأعظم الذي عليه الرأس . فقال الحرشي : وما ذلك الرأس ؟ قالوا : رأس الجراح بن عبد الله ، قال : فدمعت عينا الحرشي ثم قال : انا لله وانا إليه راجعون ! لا خير في الحياة بعد هذا اليوم . ثم صاح بالناس فحمل وحملوا معه ، فلم يكذب الحرشي أن وصل إلى نارستيك بن خاقان فضربه على تاجه ضربة صرعه عن فرسه إلى الأرض . قال : واجتمعت إليه الخزر فخلصوه من المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين فقتل من المسلمين ومن الخزر خلق كثير ، وغرق في نهر موقان ما لا يحصون كثرة ، وانهزم الباقون نحو البحر ، ثم أخذوا على

---

(١) في ابن الأثير ٣/٣٣١ بلغوا بهم إلى نهر الرس .

(٢) في ابن الأثير : على نهر البيلقان

(٣) ابن الأثير : نهر البيلقان .

الساحل حتى صاروا إلى مجمع النهرين من الكر والرس ؛ فأنشأ رجل من قيس غيلان يقول أبياتاً مطلعها :

وقيس أوطأت خاقان ذلاً وقائع منهم فيها اعتداء

إلى آخرها .

قال : وجاء الليل فهجم على المسلمين والحرشي قاعد ما ينام وسلاحه عليه ، فكلما جاء رجل في جوف الليل يقول الحرشي : من أنت ؟ فيقول : أنا فلان أصلح الله الأمير ! فلم يزل الحرشي كذلك يفتقد فرسان أصحابه حتى حلوا بأجمعهم إلا رجلاً واحداً وهو الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي . قال : فاغتم الحرشي له غماً شديداً ولم يدر ما حاله ، حتى إذا كان في الثلث الأخير من الليل إذا رجل قد أقبل ، فقال الحرشي : من هذا ؟ قال : أنا فلان أصلح الله الأمير ! قال الحرشي : ويحك ! هل رأيت الهذيل بن زفر ؟ فقال : نعم أيها الأمير رأيته على فرس له أبلق وهو يحاول رجلاً من الخزر على شاطىء النهر ، فلا أدري إلى ماذا صار أمره ، قال الحرشي : ويحك ! فهلا وقفت عليه وأعنته بنفسك ! سوءة لك من رجل ! وإن كنت عربياً فلا أكثر الله في العرب مثلك ! أترى رجلاً مسلماً يحاوز رجلاً كافراً فلا تعينه بنفسك ! قال : فلما أصبح إذا بالهذيل بن زفر قد أقبل ورأس الخزري معلق من سرجه ، فقال له الحرشي : ويحك يا هذيل ! لقد غررت بنفسك في مثل هذا الكلب ! فقال الهذيل : أصلح الله الأمير لقد لقيت منه عشاء ولا مارست في هؤلاء الخزر رجلاً هو أشد منه .

قال : ثم جمع الحرشي غنائم الخزر وسار حتى صار إلى باجروان ، فأخرج من تلك الغنائم كلها الخمس ، وقسم باقي ذلك في المسلمين ، فبلغ منهم كل رجل من المسلمين ألف وثمانمائة دينار سوى الأثاث والدواب . قال : ثم وجه الحرشي بالخمس من تلك الغنائم إلى هشام بن عبد الملك وكتب إليه يخبره بما فتح الله عز وجل على يديه من الخزر ، فسر هشام[1] بذلك سروراً شديداً ، ثم كتب إلى الحرشي يجزيه ويجزي المسلمين خيراً ويبشرهم بثواب الله الجزيل الذي وعد عباده المجاهدين في سبيل الله .

قال : وهربت الخزر على وجوهها نحو بلادهم والمسلمون في طلبهم حتى

(١) بالأصل : هاشم . خطأ .

بلغوا بهم أرض الشروان[1] ، ثم مضت الخزر من هنالك ولم يتبعهم المسلمون ، وأقام الحرشي بأرض الشروان[2] ينتظر أمر هشام وما يأمر به .

ذكر ولاية مسلمة بن عبد الملك وعزل سعيد ابن عمرو الحرشي عن البلاد

قال : وإذا كتاب قد ورد على الحرشي بأن مسلمة بن عبد الملك قد ولاه أمير المؤمنين ، وكتب إلى الحرشي : أما بعد فإذا ورد عليك مسلمة بن عبد الملك فسلم عليه وسلم إليه العمل وأقدم على أمير المؤمنين ليكافئك على فعلك الجميل . قال : فلما قرأ الحرشي الكتاب قال : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين وللأمير مسلمة . ثم أقام في موضعه ذلك لا يحارب أحداً .

قال : وأقبل مسلمة بن عبد الملك من الشام أميراً على أرمينية وأذربيجان حتى صار إلى مدينة برذعة فنزلها ، ثم أرسل إلى الحرشي فأشخصه إليه من أرض الشروان ، فلما جاءه ودخل عليه قال له مسلمة : يا سعيد ! ألم يأتك كتابي أمرتك فيه أن لا تتعرض لحرب الخزر حتى أقدم عليك ! فلم هوّنت بنفسك وخاطرت بمن معك من المسلمين ؟ فقال الحرشي : أصلح الله الأمير ! إنه لم يرد عليّ كتابك إلا بعد ما هزم الله الخزر وأمكن منهم ، ولو ورد عليّ كتابك قبل ذلك لما تعديت أمرك ، فقال مسلمة : كذبت ، ولكن أحببت أن يقال : فعل الحرشي وقتل الحرشي ، وصرم الحرشي ؛ فقال الحرشي : إني لم أرد ذلك ولكني أردت ما عند الله وكان الرأي ما صنعت ، والأمير أصلحه الله يعلم أن هذا كما أقول ـ والسلام .

قال : فغضب مسلمة من ذلك ، ثم أمر بالحرشي فوجىء في عنقه وشتمه ، وأمر بلوائه فضرب على رأسه ، وسحب برجله إلى السجن[3] .

قال : فجلس الحرشي في سجن برذعة واتصل الخبر بهشام بن عبد الملك ، فغضب على أخيه مسلمة غضباً شديداً ثم كتب إليه : أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين ما كان من خطئك في سعيد بن عمرو الحرشي وشتمك له واستخفافك بحقه وضربك

(١) مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه الفرس الدربند ، وبينها وبين باب الأبواب مائة فرسخ .
(٢) في ابن الأثير : أقام بباجروان .
(٣) انظر فتوح البلدان ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

بلوائه على رأسه وسحبك له برجله إلى السجن ، وقد علمت أنك قد حسدته ، نعّم الله على أمير المؤمنين به ، فلو كنت قد تداركت زلتك فيه بالإكرام والاعتذار إليه إذاً لأعفاك أمير المؤمنين من موجدته عليك وقبل توبتك فيه ، ولكنك تماديت في لجاجك فبقيت عليك موجدة أمير المؤمنين ولست تدري ما يكون حالك غداً عند رب العالمين ، فإن ذلك لمن أعظم الأمور قالة عند أهل الإسلام فيك ، فأما مآلك عند الله من الإثم فإن الأمل في عفو الله عظيم ـ والسلام ـ .

قال : فورد الكتاب على مسلمة وقد عبر نهر الكر وتقارب من بلاد الشروان ، فلما قرأ الكتاب كأنه ندم على ما فعل بالحرشي . قال : وإذا كتاب هشام قد أقبل إلى الحرشي على البريد يعتذر إليه بما فعل به مسلمة ، وتنصل إليه ويعده الرضاء له ولأهل بيته وعشيرته . قال : فجاءت رسل مسلمة أيضاً على البريد إلى البرذعة ، فأخرج الحرشي من السجن ، وانطلقوا به إلى الحمام فنظفوه وألبسوه خلعاً قد بعث هشام إليه ، ثم جاءه بقارورة وقد ملئت غالية ، فغلوه بها وحملوه على البريد إلى هشام . قال : فلما أدخل عليه قربه هشام وأدناه وخلع عليه وأحسن جائزته ، ثم أقطعه وأقطع أهل بيته وعشيرته قطائع ، فهي اليوم لا تعرف إلا بهم من ذلك اليوم والزمان الماضي .

ذكر مسير مسلمة بن عبد الملك إلى جهاد الكفار ومحاربته لهم

قال : وسار مسلمة بالمسلمين حتى نزل على قلعة حيزان[1] من أرض الشروان فدعا أهلها إلى الطاعة فأبوا عليه ، فحاربهم أياماً فلم يقدر عليهم فأمسك عن قتالهم ، ولم يزل محاصراً لهم حتى فني طعامهم ، وجاعوا جوعاً شديداً ، فبعثوا إليه وسألوه الأمان على أنه لا يقتل منهم أحداً ، فحلف لهم مسلمة أنه لا يقتل منهم رجلاً واحداً ولا كلباً واحداً ، فرضوا بذلك ولم يحسنوا أن يستوثقوا لأنفسهم ، ثم نزلوا من قلعتهم وكانوا ألف رجل من المقاتلة ، فقتل منهم تسعمائة وتسعة وتسعين مقاتلاً وخلى عن رجل واحد ، وقتل كل كلب كان في القلعة ما خلا كلباً واحداً ، ثم أمر بهدم حصنهم فهدم حتى وضع بالأرض ، ثم أمر بنسائهم وأولادهم فأسكنوا أرض

(١) عن معجم البلدان ، وبالأصل « حيران » وفي فتوح البلدان ص ٢٠٩ : « خيزان » .

حيزان[1] .

ثم سار مسلمة من هناك يريد مدينة الباب والأبواب ، وكان لا يدخل بلداً إلا سالمه أهلها وخرج إليه ملكها بخيله ورجله . قال : فاجتمع إليه ملوك الجبال[2] بأجمعهم وأدوا إليه الخراج وساروا معه ، حتى صار إلى مدينة الباب وفي قلعتها يومئذ ألف رجل من طراخنة الخزر وكان رتبهم ملك الخزر هنالك فلم يعرض لهم مسلمة إلا بسبيل الخير لكنه تركهم وجاز من مدينة الباب حتى صار إلى الحصنين اللذين هنالك فلم ير فيهما أحداً ، ثم سار إلى البلنجر فلم يُر فيه أحد .

وبلغ خاقان ملك الخزر بأن مسلمة بن عبد الملك قد دخل إلى بلاده ، فجعل يجمع الجموع من أرض الخزر حتى صار في جمع عظيم . قال : وسار مسلمة في جيشه ذلك حتى صار إلى الوبندر ثم إلى سمندر فلم ير هنالك أحداً ، فجاز يريد إلى خاقان ملك الخزر . قال : وإذا الأمم قد سارت إلى مسلمة مع جميع أصناف الكفار فيما لا يطيقهم مسلمة ولا جيشه ولا يحصي عددهم إلا الذي خلقهم . قال : فلما علم بذلك مسلمة أمر أصحابه أن يوقدوا النيران ، ففعلوا ذلك . فلما كان الليل تركوا خيامهم مضروبة في موضعها وارتحلوا بعد عشاء الآخرة ، وجعل مسلمة يطوي المراحل طياً فجعل كل مرحلتين مرحلة ، غير أنه قدم الضعفاء بين يديه والأقوياء أهل الجلد والشجاعة على الساقة ، فلم يزل كذلك حتى صار إلى مدينة الباب[3] .

ثم أقبل حتى نزل ما بين الرمل إلى باب واق[4] وما يليه ، ثم إنه خندق على نفسه خندقاً فحصن نفسه وعسكره بالخندق والحسك . قال : وأقبلت الخزر في جمع لم ير مثله . فلما نظر مسلمة إلى ذلك جمع أصحابه من ملوك الجبال الذين كانوا معه فقال لهم : ما الرأي في هذا العدو؟ فقالوا : أيها الأمير ! أمدنا بقناديل النشاب وقدمنا أمام عسكرك وذرنا وإياهم ، فإن قتلنا فإلى الله والجنة ، وإن فتحنا فتحاً فذلك الذي نريد . فقال مسلمة : أما إنكم قد نصحتم في المشورة فجزيتم عن الإسلام خيراً . قال : ثم وثب مسلمة فعبى أصحابه ميمنة وميسرة وقلباً وجناحاً ، وقدم ملوك

---

(١) في فتوح البلدان ص ٢٠٩ وصالح مسلمة أهل خيزان وأمر بحصنها فهدم . واتخذ لنفسه به ضياعاً وهي اليوم تعرف بحوز خيزان .

(٢) انظر فتوح البلدان ص ٢٠٩ .

(٣) انظر ابن الأثير ٣/٣٣٩ .

(٤) كذا ولم نعثر عليه .

الجبال بين يديه وأمرهم بقناديل النشاب ، ثم أمر بلوائه فنصب بين يديه . قال : ونظر خاقان ملك الخزر إلى ذلك اللواء ، فأقبل على طراخنته وأهل الشدة من أهل طاعته فقال لهم : اعلموا أن هذا اللواء ما نشر مذ عقد إلا في هذا اليوم فتقدموا نحوه ، فإن قدرتم على أن تأخذوه وتكسروه فقد ظفرتم ، فاخرجوا الآن وانظروا لا ينصرفن أحد منكم إلّا وقد أثر فيه أثراً محموداً ! قال : فخرج طرخان من طراخنة الخزر في كردوس عظيم نحو المسلمين ، وضرب مروان بن محمد بن مروان بطن فرسه فخرج من بين أصحابه وعليه قباء حرير أصفر وقد شد بريطة صفراء وقد خالف بين طرفيها على كتفيه ، فقال : أيها المسلمون ! فداكم أبي وأمي ! إني أسألكم صبر ساعة ، وضرباً بالرؤوس على القرابيس، وقلة الكلام فإن كثرته فشل ، ولا يضربن أحد منكم بسيفه إلا الوجه واليد . قال : فأجابه المسلمون بأحسن الجواب . ثم تقدم مروان بن محمد بن مروان وتقدم الناس نحو كراديس الخزر ، قال : وثارت عجاجة وغبرة شديدة فلم يبصره أحد منهم . قال : وتقدم سليمان بن هشام إلى عمه مسلمة فقال : أيها الأمير ! قتل والله مروان ! فقال مسلمة : كلا ما قتل فاسكت ! فسكت سليمان بن هشام وانكشفت العجاجة فنظر مسلمة إلى المسلمين من أصحاب مروان بن محمد فإذا بمروان بن محمد قد لصق بكراديس الخزر وقد قتل منهم جماعة وأصحابه وإنه ليمسح سيفه على معرفة[1] فرسه من دماء الخزر .

قال : وغضب خاقان ملك الخزر ثم أقبل على طراخنته وقال : أنا واقف من ورائكم أنظر إلى أفعالكم ، فلا تستحيون أن يفضحكم رجل واحد ! قال : ثم عبى كردوساً آخر أحسن من الآخر وأكثر رجالاً وعدة . فقال :[2] أنا أفدي هذه الوجوه ! اعلموا أنه قد أتتكم مفاتيح الجنة ولكم ما وعدكم الله من جزيل ثوابه أنه من قتل منكم قد فاز بالثواب العظيم والجنة التي لا عدد لها وربكم لا يخلف الميعاد . قال : ثم حمل مروان بن محمد وأصحابه على كراديس الخزر فقتل منهم أكثر مما قتل في المرة الأولى وجرح منهم بشراً كثيراً ، قال : وجعل خاقان كلما أخرج إلى المسلمين كردوساً من الخزر انفرد له مروان بن محمد وأصحابه فيأتي عليه حتى قتل من الخزر مقتلة عظيمة ، ثم رجع إلى عسكر المسلمين فوقف فيه كما كان . ودعا مسلمة بالطعام فجعل يأكل هو وبنو عمه ووجوه الناس وخاقان واقف على فرسه مغتاظاً ينظر

(١) بالأصل « مغرفة » وما أثبت يناسب السياق ، ومعرفة الفرس يريد موضع العرف منه .
(٢) القائل هو مروان بن محمد .

إليه لا يدري ما يقول ، ثم أقبل على طراخنته فقال : لأقتلن نفسي اليوم شر قتلة ! ويلكم يا معشر الخزر ! أنتم عشرة أضعافهم لاه عنكم يأكل ويشرب لا يبالي بكم ولا يحفل . قال فقال له الخزر : أيها الملك ! لا تغضب فإنه إذا كان غداً أرضيناك وأتيناك بصاحبهم أسيراً فتصنع به ما أحببت .

قال: فلما أصبح خاقان عبى أصحابه كما كان يعبيهم بالأمس ثم إنه انتخب الخزر خاصته فجعلهم بين يديه وفي القلب وأوصاهم وتقدم إليهم أن لا يقصروا في القتال . وعلم مسلمة بذلك فقال : ويلي على العلج الأقلف بعد الخزر فيجعلهم بين يديه والله لأعدن لهم خزر الغرب . قال : ثم عبى مسلمة الناس فجعل على ميمنته مروان بن محمد ، وعلى ميسرته سليمان بن هشام ، وعلى القلب العباس بن الوليد ، وعلى الجناح الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي . قال : ودنا القوم بعضهم من بعض فالتحموا ، واشتبك الحرب بين الفريقين ، وكان الرجل من المسلمين يحمل على الخزري فيطعنه برمحه ثم يجر الرمح فينثني عليه فيضربه بسيفه حتى يقتله .

قال : فلم يزل القوم كذلك حتى تعالى النهار ، قال : وإذا برجل قد أقبل إلى مسلمة بالأمان راغباً في دين الإسلام ، فقال : هل لك في خاقان ملك الخزر ؟ فقال مسلمة : وأين هو ؟ فقال : في العجلة التي قبالتك التي عليها الديباج . قال : فأرسل مسلمة إلى مروان بن محمد فدعاه إليه ثم قال : أبا عبد الله ! ألا ترى العجلة التي عليها الديباج ؟ قال مروان : بلى قد رأيتها ، فقال مسلمة : فإنها عجلة خاقان وهو قاعد فيها . قال مروان : فأنا له ، قال مسلمة : وأنا معك أبا عبد الله ! فوالله لئن نحن قدرنا عليه في هذا اليوم فلقد ذهبنا بذكرها آخر الأبد ! قال : فتقدم سليمان بن هشام إلى عمه فقال : أيها الأمير ! اسمع كلامي ولا تعجل ، قال مسلمة : هات ما عندك ، فقال سليمان : خاقان لم يقعد في العجلة إلا وقد عبى أصحابه وأبطال الخزر عن يمينه وشماله ومن ورائه ، ولست آمن إن خرجت أنت ومروان أن يأمر الطراخنة فيحدق بكما ، فلا يتهيأ لكما الرجوع إلى عسكركما إلا بعد ذهاب الأنفس ؛ ولكن الرأي عندي أن تنتخب رجلاً من أبطال عسكرك يكون قد عرفته بالبأس والشدة ، فتضم إليه نفراً من أبطال عسكرك ، ثم تأمره بالإقدام إلى خاقان . قال : فعلم مسلمة أن سليمان قد أتى بالرأي ، فدعا برجل من أصحابه يقال له ثبيت[1] النهراني وكان

---

(١) بالأصل « تبيت » وقد مرّ ذكره . وقد صحح في كل مواضع الخير .

أحد الأبطال ، فقال له مسلمة : يا ثبيت ! إني قد اخترتك من بين فرسان أصحابي لهذا الأمر الذي قد ندبتك له ، فإن وجدتك على ما ظننت بك في البأس والإقدام وبلغت من الأمر ما أريد بلغت في عطائك ، وأجزتك بعشرة آلاف درهم ، وعرضتك لنوال أمير المؤمنين ، ونوهت باسمك ، وإن أنت كععت[1] وقصرت فلله عليّ عهد لأصلبنك على شجرة أقدر عليها . قال فقال له ثبيت : أصلح الله الأمير ! مرني بما أحببت . قال مسلمة : اضمم إليك ألف رجل ممن تعرفهم وتثق بهم في البأس والشجاعة ، ثم احمل بهم على عسكر خاقان ، فلا ترجع أو تهزمه أو تأخذه أسيراً إن قدرت على ذلك . قال فقال ثبيت : أصلح الله الأمير ! أما أخذه فلا أدري أقدر عليه أم لا ! ولكن للأمير أيده الله علي أن لا أرجع أو أهزمه وأهزم أصحابه إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : ثم انتخب ثبيت النهراني ألف رجل من فرسان أهل الشام ، ثم إنه عهد إليهم عهداً وأوصاهم وصية وقال : انظروا لا تقاتلون لمسلمة ولا لأمير المؤمنين هشام ، ولكن قاتلوا عن دين الله وجاهدوا في سبيل الله . فقال له أصحابه : كفيت يرحمك الله ! فاحمل حتى نحمل معك فترى ما تحب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! قال : فتقدم ثبيت النهراني في هؤلاء الألف نحو خاقان ، وخاقان يومئذ في عجلة له يقال لها الجدادة[2] وقد فرشت له بأنواع الفرش ، وقد عليت بقبة من ديباج ، وعلى رأس القبة رمانة من ذهب . قال : فلم يكذب ثبيت النهراني أن صار إلى العجلة فضرب القبة بسيفه ضربة خرقت الضربة الديباج ووصل السيف إلى خاقان فلم يصبه شيء ، ففزع خاقان من ذلك ووثب من العجلة مسرعاً إلى برذون له قد شد بجنب العجلة فاستوى عليه ومر منهزماً فلم يقدر عليه ؛ وحمل المسلمون على الخزر حملة ، فولوا الأدبار منهزمين وقد تفرقت عساكرهم حتى صاروا هاربين إلى بلادهم ، فأنشأ ثبيت النهراني يقول أبياتاً مطعها :

كم كم وكم لي من يومٍ له رهج　　　وسط العجاجة بالهندية البتر

إلى آخرها :

قال : وجمع مسلمة غنائم الخزر فقسمها في المسلمين بعد أن أخرج منها

---

(١) بالأصل « كعت » .

(٢) كذا بالأصل .

الخمس ثم نادى في أصحابه وأقبل نحو مدينة الباب ، وفي قلعتها يومئذ ألف بيت من الخزر ، فأقام عليها محاصراً لهم أياماً كثيرة فلم يكن له فيهم حيلة[1] ، فهم أن ينصرف عنهم وإذا برجل قد أقبل إليه من بعض تلك الأبواب فقال : أصلح الله الأمير ! إن دفعت إليك هذه القلعة بمؤنة يسيرة هل ترد مالي وأهلي وولدي ؟ قال مسلمة : نعم ، لك ذلك ، قال : فادفع إليّ الساعة مائة رأس من البقر والغنم حتى أدفع إليك هذه القلعة ، قال : فأمر له مسلمة بما أراد ، فأقبل إلى العين التي استخرجها لهم أنو شروان بن قباذ في أول الدهر وأجراها إلى القلعة ، فقال : احفروا هذا الموضع ، حتى إذا بلغوا إلى الماء قال : قدموا الآن هذه البقر والغنم فانحروها في هذه العين ! فجعلوا ينحرون والدم يجري مع الماء إلى صهاريجهم ، حتى إذا علم ذلك الرجل أن الدماء كلها قد صارت إلى الصهاريج أمر بقطع الماء فقطع عنهم ، وأجرى آبارها إلى الوادي ، وأصبح القوم وقد امتلأت صهاريجهم دماً . فلم يلبثوا إلا ليلة حتى أنتنت الصهاريج ، ثم إنها انتعشت بعد ذلك بالدود[2] ، فعطشوا عطشاً شديداً ، وأقبل ذلك الرجل إلى مسلمة فقال : أيها الأمير ! قد هلك القوم عطشاً فتنح عن باب القلعة وعن طريقهم حتى يهربوا وتصير القلعة في يدك ، قال : فأمر مسلمة أصحابه فتنحوا عن باب القلعة . فلما كان الليل فتح القوم الباب وخرجوا هاربين على وجوههم ، وصارت القلعة في أيدي المسلمين . وجاء مسلمة حتى دخل القلعة فنظر إليها وإلى حصانتها ، ثم أمر أن تكنس تلك الصهاريج من ذلك الفرث والدم فكنست . ثم أجرى فيها الماء كما كان . ثم أمر مسلمة بمدينة الباب فقسمت أربعة أرباع : فجعل ربعاً لأهل دمشق ، وربعاً لأهل حمص ، وربعاً لأهل فلسطين ، وربعاً لسائر أهل الشام والجزيرة ؛ فهي اليوم لا تعرف إلا بهم .

قال : ثم دعا مسلمة برجل من أصحابه يقال له فرير[3] بن سويد الثعلبي فولاه مدينة الباب والأبواب ، وأمره أن يجعل أبرجة المدينة إهراء للحنطة والشعير والسلاح ، وأن يقيم شرف المدينة ويغلق عليها أبواباً من الحديد ، ثم جعل مسلمة رتبة مدينة الباب مائة دينار وعشرة دنانير في كل سنة غير القمح والزيت والرزق شهراً بشهر[4] . قال : ثم دعا مسلمة بابن عمه مروان بن محمد فاستخلفه على جماعة

---

(١) بهامش الأصل : أخذ قلعة الخزر بحيلة يسيرة .

(٢) انظر فتوح البلدان ص ٢٠٩ .

(٣) كذا بالأصل .

(٤) انظر فتوح البلدان ص ٢٠٩ .

المسلمين بمدينة الباب ، وانصرف حتى رجع إلى هشام بالشام فخبره بما فتح الله على يديه وأنه قد استخلف مروان بن محمد على جماعة من المسلمين .

قال : وعلمت الخزر أن مسلمة بن عبد الملك قد انصرف عنهم إلى بلاد الشام ، فرجعوا إلى بلادهم التي أخذت منهم فأخذوها وسكنوها . وبلغ ذلك مروان ابن محمد فجمع الناس وعرضهم فكانوا يزيدون على أربعين ألفاً ، فسار بهم حتى صار إلى البلنجر ، ثم رحل عن البلنجر في بلاد الخزر ، ثم جعل يقتل ويسبي حتى قتل من الخزر خلقاً كثيراً ، وسبى الذراري والنساء واستاق المواشي حتى صار إلى مدينة الباب سالماً غانماً ؛ وذلك في وقت الشتاء والبرد الشديد ، فسميت هذه الغزوة غزوة الطين لكثرة الأمطار والوحول ، وفي هذه الغزاة أمر بحذف أذناب الخيل فحذفت بأجمعها لكثرة اللبق والندى .

قال : وشتا مروان بن محمد تلك الشتوة بمدينة الباب ، فلما كان في وجه الربيع بعث إليه هشام بن عبد الملك فعزله عن البلاد وأشخصه إليه، ودعا سعيد بن عمرو الحرشي فعقد له عقداً وولاه البلاد[١] . قال : فتقدم سعيد بن عمرو الحرشي في أيام الربيع أميراً على جميع الأرمينية وأذربيجان والران وجرزان[٢] ، فصار إلى مدينة الباب فنزلها ، ثم جعل يغزو الخزر الليل مع النهار فلا يجف له لبد إلى أن ضعف بصره وكتب إلى هشام بن عبد الملك يخبره أن الماء الأسود قد نزل في عينيه وقد رق بصره ، فليس يبصر سهلاً ولا جبلاً . قال : فأرسل هشام بثقته من الشام لينظر هل هو على ما قال أم لا ! قال : فتقدم الثقة فنظر إلى سعيد بن عمرو فإذا هو كما قال . قال : فكتب إلى هشام يخبره بذلك ، فأرسل هشام إلى الحرشي فعزله عن البلاد[٣] ، ودعا بمروان بن محمد بن مروان فعقد له على أرمينية وأذربيجان ، وأمره بمحاربة الخزر .

قال : وأقبل مروان من الشام في عشرين ومائة ألف حتى صار إلى أرمينية ، ثم

---

(١) لم يرد ذكره في الطبري وابن الأثير . وعبارة الطبري ٧/٩٠ وفيها (سنة ١١٤) قفل مسلمة بن عبد الملك عن الباب بعدما هزم خاقان وبنى الباب فأحكم ما هنالك . وفي هذه السنة ولى هشام مروان بن محمد أرمينيا وأذربيجان . أما في فتوح البلدان : ولى هشام بعد مسلمة سعيد الحرشي فأقام بالثغر سنتين ثم ولى الثغر مروان بن محمد .

(٢) في معجم البلدان : جرزان وأران مما يلي أبواب أرمينية .

(٣) وذلك بعد سنتين من ولايته كما في فتوح البلدان ص ٢٠٩ .

نزل بموضع يقال له كساك[1] على أربعين فرسخاً من مدينة برذعة وعشرين فرسخاً من تفليس ، ثم جعل يقاتل ملوك أرمينية وبطارقتها حتى أذعنوا له بالسمع والطاعة . ثم إنه تقدم فجعل يفتح قلعة بعد قلعة حتى فتح قلاع أرمينية كلها ، ثم كتب إلى جميع الأجناد الذين بالباب والأبواب أن يدخلوا بلاد الخزر وأن يوافوه بمدينة سمندر . قال : ثم نادى مروان في أصحابه وسار حتى دخل باب اللان[2] فجعل يقتل ويسبي ويحرق حتى صار إلى سمندر وهي مدينة من مدائن الخزر . قال : ووافته عساكر المسلمين من مدينة الباب مع رجل يقال له أسيد بن زافر السلمي ، فسار مروان هنالك في خمسين ومائة ألف ، فعندها عبى أصحابه هنالك تعبية حسنة ولم يترك معه قائداً ولا تابعاً ولا خادماً إلا ألبسه بيضة ، وحمله رمحاً وفي رأسه سنان كأنه شعلة نار . قال : وكان العسكر من شدة البريق لا يمر به طائر فيجاوزه حتى يسقط متحيراً من شدة بريقه وشعاعه . قال : ثم سار حتى انتهى إلى المدينة البيضاء التي يكون فيها خاقان ملك الخزر . قال : وهرب خاقان من بين يدي مروان حتى لحق بالجبال ، ونجح مروان في بلاد الخزر بالمسلمين حتى جازهم فكان من ورائه ، ثم إنه أغار على الصقالبة وما يليه من أصناف الكفار ، وسبى منهم عشرين ألف أهل بيت .

ثم أقبل حتى نزل على نهر الصقالبة[3] ودعا برجل من شجعان أهل الشام يقال له الكوثر بن الأسود العنبري وكان على شرطته فقال له : ويحك يا كوثر ! إنه قد جاءني عين فخبرني أن خاقان ملك الخزر قد وجه إلينا بطرخان من طراخنته يقال له هزار طرخان في أربعين ألفاً من أبناء الطراخنة ولكن جز هذا النهر إلى ما قبلهم واكمن لهم في مثل عدتهم ، فإذا أصبحت فإني موافيك إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال فقال الكوثر : أصلح الله الأمير ! إنا قد أمسينا وهذا وقت يختلط فيه الظلام ، فليمهلني الأمير إلى غد . قال : فغضب مروان ثم قال : والله لئن لم تعبر الساعة هذا النهر لأضربن عنقك ولأقتلن أهل بيتك بأجمعهم ، فاختر الآن من أمرك ما أحببت ! قال الكوثر : فإني أعبر أصلح الله الأمير ! قال : ثم انتخب الكوثر

---

(١) كذا بالأصل ، ولم نعثر عليه . وفي فتوح البلدان : كسال .

(٢) بالأصل : « الآن » وما أثبت عن معجم البلدان وفتوح البلدان . واللان بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب يجاورون للخزر .

(٣) الأصل : السقالبة .

من ساعته ذلك أربعين ألف رجل من فرسان العسكر ، ثم عقدت له الأطواق فعبر الكوثر وعبر معه من الناس زهاء ألف رجل . قال : فسار بهم الكوثر يومه ذلك حتى إذا تعالى النهار إذا هو برجل استقبله في عشرين فارساً من فرسان الخزر معهم الكلاب والبزاة وهم يتصيدون . قال : فشد عليه الكوثر فقتله وقتل أصحابه الذين كانوا معه ، فلم يفلت منهم أحد . قال : وأخذ المسلمون أسلحتهم ودوابهم ومضى الكوثر وأصحابه حتى نزلوا إلى جنب غيضة أشبة ، فلما استقر بهم الموضع إذا بدخان قد ارتفع من جوف الغيضة ، فقال الكوثر : ما هذا الدخان ؟ فقال بعضهم : يجب أن يكون ههنا عسكر من عساكر الخزر ؛ قال : ثم نادى الكوثر في أصحابه فركب وركبوا معه وسار نحو الدخان ، فلم يشعر الخزر إلا والكوثر على رؤوسهم في أربعين ألفاً ، فوضعوا فيهم السيف ، فقتل منهم عشرة آلاف ، وأسر منهم سبعة آلاف ، وأفلت الباقون على وجوههم في الغياض والأودية والجبال ؛ ثم أقبل الكوثر إلى هؤلاء الأسارى الذين في يده فقال لهم : خبروني ما فعل قائدكم هزار طرخان ؟ فقالوا : إنه خرج يتصيد في نفر من أصحابه فلا ندري ما فعل ! قال : فعلم الكوثر أن الذي استقبلهم هزار طرخان ، فأخذوا في وقت الغلس بأجمعهم ؛ ثم سار الكوثر راجعاً فلم تطلع الشمس من اليوم الثاني إلا ورأس هزار طرخان ورؤوس أصحابه في عسكر مروان على أطراف الرماح .

قال : وبلغ ذلك خاقان ملك الخزر فجزع لذلك جزعاً شديداً وأعطى بيده . ثم أرسل إلى مروان بن محمد : أيها الأمير ! إنك قد سبيت الخزر والصقالبة وقد قتلت وبلغت غايتك ، فما الذي تريد ؟ فقال مروان للرسول : أريد منه أن يسلم أو أقتله وآخذ ملكه فأجعل لغيره ؛ فاستأجله الرسول ثلاثة أيام حتى يرجع إلى خاقان وينصرف إليه بالخبر . قال : فأجابه مروان بن محمد إلى ذلك . فانصرف الرسول إلى خاقان فأخبره بذلك ، فأرسل خاقان إلى مروان : أيها الأمير ! إني قد قبلت الإسلام وأجبت وأحببت ، ولكن وجه إليّ برجل من أصحابك يشرحه لي . قال : فوجه إليه مروان برجلين أحدهما نوح بن السائب الأسدي ، والآخر عبد الرحمن بن فلان الخولاني قال : فخرجا جميعاً إلى خاقان وعرضا عليه الإسلام ، فقال خاقان للترجمان : قل لهما عني : أريد منكما أن تحلا لي الخمر والميتة ، فقال الخولاني الأسدي : تحل له ذلك حتى يسلم ، فإذا أسلم وأسلم القوم أخبرناهم أن ذلك حرام عليهم ؛ فقال الأسدي : ما كنت بالذي أحل ما حرم الله ولا أحرم ما أحلّ الله ، لأن الدين لا يصلحه إلا النصيحة والصدق ، ثم أقبل الأسدي على الترجمان فقال له :

قل لصاحبك هذا إنه ليس في دين الإسلام أن أحل الحرام ولا أن أحرم الحلال ، فإن أسلمت حرمت عليك الميتة والدم ولحم الخنزير [و] كل شيء لا يذكر عليه اسم الله إذا ما ذبح . فلما قال ذلك الترجمان ذلك لخاقان قال خاقان لترجمانه : قل لهما عني : أنتم المسلمون حقاً ! قال : ثم أسلم خاقان ملك الخزر وأسلم معه خلق كثير من أهل بيته وأهل بلده[1] . قال : فأقره مروان على ملكه ثم آخاه أخوة الإسلام وودعه وقبل هداياه ، وسار راجعاً يريد مدينة الباب والأبواب ومعه يومئذ سبي الكفار أربعون ألفاً أو يزيدون ، فأنزلهم مروان بموضع يقال له نهر السمور[2] إلى السهل من أرض الكر[3] ، ثم إنه كتب إلى هشام بن عبد الملك يخبره بذلك ، ووجه إليه الخمس من جميع ما أفاء الله عليه .

قال : وجاء الشتاء وأقام مروان تلك الشتوة بموضع يقال له كسالك[4] ، فلما انسلخ عنه الشتاء وجاء الربيع عزم على الدخول إلى أرض السرير[5] ، وكتب إلى عامله أسيد بن زافر السلمي أن يوافيه إلى أرض السرير فيمن معه من الجند والمقاتلة . قال : ورحل مروان من كسالك حتى عبر نهر الكر وصار إلى بلد يقال له شكّى ومن شكّى إلى أرض السرير ، فصار إلى قلعة يقال لها قلعة البلال وهي قلعة منيعة وحصينة ، فأقام عليها شهراً كاملاً لا يصل إلى شيء منها ، فلما كان بعد شهر دعا الحدادين فأمرهم أن يصنعوا له أعمدة من حديد على مثل السكك ، ففعلوا ذلك ؛ ثم أمرهم أن يتخذوا ألواحاً من خشب ، فلما فرغ له من ذلك أمر بالأعمدة فحملت على البغال ، ثم أقبل إلى مؤخر القلعة ومعه يومئذ ثمانية آلاف رجل من نخبة عسكره عليهم الدروع والمغافر ، فجعلوا يدخلون تلك الأعمدة ما بين حجارة السور واحداً حذاء الآخر ، ثم وضع على عمودين لوح من خشب من تلك الألواح ، وصعد

---

(١) ورد ذكر إسلام عظيم الخزر في فتوح البلدان ، ولم يرد ذلك في الطبري ولا في ابن الأثير . قال ابن الأثير أن مستشاري ملك الخزر وأصحابه أشاروا عليه : أن تتأخر إلى أقصى بلادك وتدع مروان بن محمد وما يريد ، فقبل رأيهم وسار حيث أمروه .

(٢) كذا بالأصل ، ولم نعثر عليه ، وفي فتوح البلدان : فأنزلهم ما بين السمور والشابران في سهل أرض اللكزّ.

(٣) في فتوح البلدان : اللكز .

(٤) في فتوح البلدان : كسال .

(٥) السرير : مملكة واسعة بين اللان وباب الأبواب وليس لها إلا مسلكين ، مسلك إلى بلاد الخزر ومسلك إلى أرمينية .

عليها الرجال وأهل القلعة غافلون لا يعلمون أنهم يؤتون من وراء القلعة ، واقتحم مروان وأصحابه القلعة ، فأخذ مقاتلتهم بأجمعهم أخذاً باليد ، ثم قعد مروان على صخرة على باب القلعة ، فجعل يدعو برجل رجل من أهل القلعة فيضرب أعناقهم حتى أتى على آخرهم ؛ ثم إنه فرق نساءهم وأولادهم وأموالهم على أصحابه ، وأمر بسور القلعة فهدم حتى وضع بالأرض .

قال : ثم رحل إلى حصن آخر يقال له حصن عميق[1] ، فنزل عليه وحاربه أهل عميق حرباً شديداً فظفر بهم مروان ، فقتل رجالهم ، وسبى نساءهم وأولادهم ، وهدم حصنهم .

قال : واتصل الخبر بصاحب السرير فهرب من بين يدي مروان حتى صار إلى قلعة لا ترام يقال لها خيزج[2] ، وأقبل مروان حتى نزل عليها ، فأقام أياماً فلم يقدر عليها بوجه من الوجوه ولا بحيلة من الحيل . قال : وحلف مروان بيمين ليست لها كفارة أنه لا يبرح من هذه القلعة أو يدخلها أو يموت قبل ذلك . ثم أمر الناس بالبنيان فبنوا حذاء القلعة ، فلم يزل مروان مقيماً على باب هذه القلعة حولاً كاملاً ، فلما أعيته الحيلة فيها وثب فاغتسل بالماء غسلاً نقياً ودلك جسده دلكاً شديداً حتى ذهب رائحة الطيب ، ثم دعا بثياب طباخه فلبسها ، ولف على رأسه عمامة وسخة ، ولبس خفين عظيمين ، ثم إنه قعد وكتب كتاباً من نفسه من مروان بن محمد إلى صاحب السرير : أما بعد فإني قد حلفت أني لا أنصرف أو تسالمني وأسالمك آخر الدهر ، فإن رأيت أيها الملك أن تأذن لي حتى أدخلها وأنظر إليها فعلت ذلك منعماً إن شاء الله تعالى . قال : ثم إنه شدد وسطه وأخذ الكتاب في يده وصعد وحده حتى وقف على باب القلعة ، ثم استأذن وقال : قولوا للملك : رسول مروان بالباب ! قال : فخبروا الملك بذلك فأذن له ، فدخل حتى وقف بين يدي الملك ودفع إليه الكتاب ، فأخذه ودفع إلى ترجمانه ، فجعل يقرأ عليه بلسانه حتى أتى على آخره ؛ ثم قال : خذوا هذا الرجل وأديروه في القلعة حتى ينظر هل لأحد إليها من سبيل ! قال : فأخذ القوم بيدي مروان وجعلوا يديرونه في القلعة ، ومروان ينظر إلى عمارة القلعة وتحصينها ، حتى نظر إلى موضع يتهيأ أن تؤخذ القلعة منه ، فنظر إليه وتأمله وعرفه . ثم أقبل على

---

(١) كذا بالأصل ، وفي معجم البلدان : غوميك ، قال : وهو حصن فيه بنت الملك . ومثله في ابن الأثير ، وفي تاريخ خليفة : غومسك .

(٢) عن ابن الأثير ، وبالأصل « حبرح » وفي تاريخ خليفة : « خثرج » وفي معجم البلدان : خيرج .

القوم فقال : أعطوني خبزاً آكل فإني جائع وأخاف أن يرحل مروان ولا ألحقه ! قال : فدفعوا إليه رغيفين وقطعة لحم دابة ، وأخرجوه من باب القلعة . فأقبل مروان بن محمد حتى صار إلى عسكره ، ثم دعا بثيابه فلبسها وقعد وكتب إلى صاحب السرير : أما بعد يابن الخبيثة ! فأنا مروان بن محمد ، وأنا الذي كنت رسول نفسي ، فقد برّت يميني التي كنت حلفت بها أني لأدخل إلى قلعتك ، وقد دخلتها ودرت فيها وعرفت مسالكها ، وأنا أرجو أن أدخلها ثانية إن شاء الله وأنفك راغم فانظر أي رجل تكون ! قال : فلما ورد كتاب مروان على صاحب السرير علم أن مروان بن محمد قد عمل عليه حتى دخل قلعته ، فكأنه اتقى على نفسه وكتب إلى مروان يسأله الصلح ، فأجابه مروان إلى ذلك ، فوقع الصلح بينهما على خمسمائة غلام وخمسمائة جارية شقر[١] الشعور والحواجب والأشفار[٢] وعشرة آلاف دينار وخمسمائة[٣] مدّ من طعام يحمل في كل سنة إلى مدينة الباب ، فقبض مروان ذلك كله من صاحب السرير .

ثم رحل حتى نزل على حصن يقال له تومان[٤] ، فصالحوه على مائة رأس من السبي[٥] وألف دابة وألف[٦] مد من الطعام يحمل إلى مدينة الباب في كل سنة .

قال : ثم رحل مروان حتى نزل على حصن حمزين[٧] . وإذا أهل الحصن قد استعدوا لمحاربته ، فحاربهم مروان وأصحابه حرباً شديداً حتى كثر القتلى في المسلمين . فقال مروان : أيها الناس ! أيما رجل صعد هذه القلعة فأخذها عنوة فله ألف دينار وله أفضل جارية في هذه القلعة ! قال : فوثب رجل من العرب من تنوخ فقال : أنا لها أيها الأمير ! قال : ثم أقبل التنوخي إلى موضع كان قد عرفه قبل ذلك ، فجعل يصعد والقوم لا يعلمون حتى صار في رأس القلعة ، ثم كبر ففزع القوم فعضوا أيديهم وسلموا القلعة بما فيها ، فدخلها المسلمون عنوة ، وخرج صاحبها حمزين شاه هارباً على وجهه حتى صار إلى القلعة الأخرى فتحصن فيها ، وأخذ المسلمون ما

---

(١) في ابن الأثير وفتوح البلدان : سود الشعور .

(٢) في فتوح البلدان : وهدب الأشفار .

(٣) في فتوح البلدان : ومائة ألف مدّي قصب في أهراء الباب وأخذ منه الرهن .

(٤) الأصل وابن الأثير وفتوح البلدان ، ولم نعثر عليه .

(٥) في فتوح البلدان : خمسين جارية وخمسين غلاماً خماسيين سود الشعور والحواجب وهدب الأشفار .

(٦) فتوح البلدان وابن الأثير : وعشرين ألف مدّ .

(٧) الأصل وفتوح البلدان وابن الأثير ، ولم نعثر عليه . ويفهم من عبارة فتوح البلدان أن حمزين هو صاحب الحصن .

كان فيها من الأموال والنساء والذرية . ثم أقبل مروان على التنوخي الذي صعد القلعة فقال : إني قد كنت ضمنت لك ألف دينار وأنا أدفعها إليك ، ولكن اختر أنت أي جارية شئت ! قال : فوثب التنوخي إلى جارية حسناء فأخذها وقال : هذه أصلح الله الأمير ! فقال : خذها فهي لك ؛ قال فأخذ التنوخي الجارية وجعل ينحدر يريد العسكر فضربت الجارية بيدها إلى التنوخي فاعتنقته ثم رمت بنفسها وإياه إلى الوادي ، فتقطعا جميعاً على الحجارة فماتا . قال : فغضب مروان لذلك فقدم الرجال القلعة بأجمعهم فضرب أعناقهم ، فما أبقى منهم أحداً ، ثم إنه بث خيله بأرض حمزين فأخرب نيفاً على ثلاثمائة قرية من قراهم . ثم أقبل حتى نزل على ملكهم حمزين شاه في قلعة وعزم على حصاره ، فصالحه حمزين شاه على خمسمائة رأس من السبي وخمسمائة[1] مد من الطعام يحمل في كل سنة إلى مدينة الباب .

قال : وجعل مروان بن محمد يفتح قلعة بعد قلعة حتى فتح جميع قلاع بلاد السرير وحمزين وتومان وسندان[2] وما والاها . ثم أقبل راجعاً إلى مدينة الباب فنزلها ، وهجم عليه الشتاء . و[لما] جاء الربيع أرسل إلى جميع ملوك الجبال فأقدمهم عليه من الشروان وإيران[3] وقيلان[4] وطبرستان وجميع البلاد إلا أربيس بن بسباس ملك الكر[5] فإنه امتنع عليه فلم يأته وأقبل مروان بن محمد حتى نزل على قرية يقال لها بيلستان[6] في بطن نهر السمور ، ثم إنه بث الغارات في بلاد الكر ، فجعل يغير وينهب ويحرق ، فلم يزل على ذلك حولاً كاملاً . فلما كان بعد ذلك وطال الحصار على أربيس خرج من قلعته ليلاً ومر هارباً على وجهه في نفر من أصحابه ومروان لا يعلم بذلك . قال : ومضى أربيس على وجهه حتى جاوز مدينة الباب والأبواب ، ثم إنه مر بغلام راع فقال لأصحابه : خذوا شاة من غنم هذا الراعي ، فأخذوا شاة من الغنم ونزل أربيس في موضعه ذلك ، ثم إنه نزع ثيابه وجلس في قباء ، وتفرق أصحابه فمنهم من يسلخ له تلك الشاة ليأكل منها ومنهم من

---

(١) في فتوح البلدان : ثلاثين الف مدّي .

(٢) كذا ، وفي فتوح البلدان : « سدان » وفي معجم البلدان : « شندان » وفيه : شندان : صقع متصل ببلاد الخزر .

(٣) بالأصل « الإيران » .

(٤) كذا ولم نعثر عليه .

(٥) فتوح البلدان وابن الأثير : اللكز .

(٦) كذا بالأصل ، ولم نعثر عليه .

اشتغل يرعى الدواب . قال : وأقبل ذلك الغلام الراعي وفي يده قوس له وسهام حتى وقف من وراء شجرة ، ثم رمى أربيس بسهم له فقتله . قال : وتنازع أصحابه وقالوا بألسنتهم وكلامهم : قتل الملك ! قال : وهرب الغلام الراعي حتى صار إلى القرية ثم إنه خبّر إياهم بما فعل .

قال : فأقبل الراعي حتى دخل مدينة الباب والأبواب ، ثم سار إلى أميرها أسيد بن زافر السلمي فخبّره بذلك . قال : فركب أسيد بن زافر من ساعته في نفر من أصحابه حتى صار إلى الموضع فنظر إلى أربيس بن بسباس قتيلاً ، فأمر برفع رأسه ثم احتوى على قليله وكثيره ورجع إلى مدينة الباب ، ثم دعا بابنه يزيد فدفع إليه الرأس فقال له : سر إلى الأمير مروان فضع الرأس بين يديه . قال : فسار يزيد حتى صار إلى مروان وهو نازل في بطن نهر السمور حذاء القلعة ، فاستأذن يزيد بن أسيد على مروان فأذن له ، فدخل وسلم ، فقال له مروان : كيف أبوك يا يزيد ؟ فقال : بخير أصلح الله الأمير ! على أني جئتك ببشارة ! قال : وما بشارتك ؟ قال : رأس أربيس بن بسباس . قال : فعجب مروان من ذلك ثم قال : ويحك ! أربيس في قلعته وأنت قد أتيتني برأسه ! قال : فخبره يزيد بن أسيد بأمر أربيس ، فأمر مروان بالرأس فرفع على رمح له حذاء القلعة ، ثم كبر المسلمون وأشرف أهل القلعة فنظروا إلى رأس صاحبهم أربيس ، فأعطوا بأيديهم وذلوا وخضعوا ، فأعطاهم الأمان وأقرهم في بلدهم ووظف عليهم في كل سنة عشرة آلاف[1] من الطعام يحمل إلى مدينة الباب[2] .

قال : ثم سار مروان إلى بلاد أذربيجان فغزا أهل موقان وجيلان[3] والنهر والطالقان ، وقتل منهم مقتلة عظيمة وسبى منهم نيفاً على عشرة آلاف من نسائهم وأولادهم ففرقهم على أصحابه . ثم أقبل حتى نزل برذعة ، وقد فتح أرمينية كلها وأذربيجان وجميع البلاد ، فليس أحد يناويه في سلطانه . قال : وفي تلك السنة حبس كميت بن زيد[4] الأسدي رحمة الله عليه .

---

(١) في فتوح البلدان ص ٢١١ عشرين ألف مدّي .

(٢) زيد في فتوح البلدان أن مروان ولى على قلعة اللكز عاملاً له عليهم هو خشرم السلمي .

(٣) جيلان وموقان : في معجم البلدان هما أهل طبرستان ابنا كماشح . . . ولاية فيها قرى ومروج كثيرة . . . وهي بأذربيجان .

(٤) بالأصل « يزيد » خطأ ، وما أثبت عن معجم الشعراء للمرزباني .

ذكر حبس الكميت رحمة الله عليه

حدثني إبراهيم بن عبد الله بن العلاء القرشي المدني قال : حدثني نصر بن خالد النحوي قال : حدثني الحكم بن سعيد الأسدي قال : أخبرني عيسى بن أعين وكان حاجباً لأبي عبد الله جعفر بن محمد رضي الله عنهما قال : كان السبب في حبس الكميت بن زيد[1] الأسدي أنه كان يقعد في المحافل وعلى قوارع الطرق فينشد الأشعار التي يمدح فيها بني هشام[2] ويهجو بني أمية ثم قال هذه القصيدة :

من لقلب[3] متيّم مستهام ... غير ما صبوة ولا أحلامِ

ففضل فيها بني هاشم على بني أمية حيث يقول :

ساسة لا كمن يرى رعية[4] النـ ... ـاس سواء ورعية الأنعامِ
لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعدُ أو كهشام

قال : وبلغ ذلك خالد بن عبد الله القسري وهو يومئذ أمير العراقين من قبل هشام فأخذ الكميت وحبسه في سجنه ، ثم كتب إلى هشام بن عبد الملك يخبره بذلك ، وكتب هشام إلى خالد بن عبد الله القسري أن خذ الكميت فأخرج لسانه من قفاه واقطع رجليه واصلبه على باب داره . قال : وبلغ ذلك أبان بن الوليد البجلي وكان صديقاً للكميت فكتب إليه إلى السجن بهذه الأبيات :

إن كنت ذا قصبات في الخداع فرم ... بدر السماء تنل أو مت على صمدِ
أو فاتخذ نقباً في الأرض تنج به ... وما أراك بناج آخر الأبد
كن كالحسام سطت بالجفن شفرته ... والأمر أسرع من كف إلى عدد
ولا تكن جفصا رهنا بقبضته ... بذي الإماء وثق بالواحد الصمد

قال : فلما وصلت هذه الأبيات إلى الكميت أيقن بالقتل وعلم أن أبان بن الوليد قد نصحه ، فكتب إليه يجيبه على أبياته وهو يقول :

أسمعتها أذناً للغيب سامعة ... أبا الوليد فلا عميت من رشدِ

---

(١) انظر الحاشية السابقة

(٢) كذا بالأصل ، والصواب « بني هاشم » .

(٣) من شرح الهاشميات ص ١١ وبالأصل « لقب » .

(٤) عن شرح الهاشميات ، وبالأصل « رغبة » .

كم من أخي حسد باتت عقاربه تسري إليّ فلم تضرب ولم تكدِ
وبين مبتسم تبدو نواجذه شماتة قد طوى كشحاً على كمد
لولا امتنانك عوداً بعد بدأته لكنت قبل ترى منّاً بلا قود

قال : ثم بعث الكميت إلى امرأته أم ولد وهي ابنة عمه ، وذلك أنه الكميت بن [زيد بن] خنيس[1] ، وامرأته حبى بنت عبد الواحد بن خنيس ، وخنيس ابن مجالد بن ربيعة بن قيس بن الحارث بن وهيب بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس [بن مضر -] بن نزار[2] . قال : فأرسل إليها الكميت أن أدركيني فقد هلكت ، واحتالي لي بحيلة وإلا فقدتِ الكميت ولا كميت لك . قال : وكانت ابنة عمه هذه من بنات الشيعة ، وكانت برة عاقلة لبيبة من النساء ، فوثبت من ساعتها إلى ثيابها فلبستها ، ثم أقبلت ومعها نسوة من بنات عمها إلى باب السجن ، فقال السجان : من هؤلاء النسوة ؟ فقيل له : هذه امرأة الكميت قد جاءت لتزور زوجها ؛ قال : فأخرج الكميت إليها ، فأوقفته بين النساء ثم ألبسته ثيابها وعلمته مشيتها فقالت : اخرج الآن مع هؤلاء النسوة وانج بنفسك وذرني أنا ، فليس أحد يتعرض لي ! فتنقب وخرج من باب السجن مع النساء ، فلما مر على السجان جعل ينظر إلى مشيته فقال : قبح الله هذه من مشية فما أشبهها بمشية رجل ! قال : وجعل الكميت يمشي مع النساء ومشيته لا تخفى على أحد ، حتى إذا صار إلى بني تميم مر على جماعة منهم[3] ، فقال رجل من دهاتهم : والله ما هذه المشية عندي إلا مشية رجل غير أنه قد تنقب ولا شك عنه يريد إلى بعض الأعراس ، ثم قال لغلام له أسود : ويلك يا غلام ! اذهب واتبع تلك المرأة فانظر إلى أين تدخل ! قال : فذهب الغلام ، فصاح به شيخ من بني تميم يقال له سعيد بن بديل[4] فقال : ويلك ارجع يا أسود ! ويلك ما لك واتباع النساء ! وذلك أن الشيخ وقع في قلبه أنه رجل فلم يحب أن يفضحه . قال : فرجع عنه الأسود ومضى الكميت حتى صار من النجع إلى آل علقمة الحضرمي ، فدخل إلى دورهم فاستجار بهم فأجاروه ، وهو الذي يقول فيهم حيث يقول :

---

(١) في المؤتلف والمختلف « الأخنس » وفي تجريد الأغاني : حبيش . وفي الأغاني : خنيس كالأصل .
(٢) انظر عامود نسبه في الأغاني ١٧/١ والمؤتلف والمختلف للآمدي باختلاف عما ورد في الأصل .
(٣) انظر ما ورد في الأغاني ١٧/٤ - ٥ عن كيفية هربه من السجن .
(٤) في الأغاني ١٧/٤ أبو الوضاح حبيب بن بديل .

ولــولا آل علقمــة اجتــدعنــا بــأيــدينــا أنــوف مصلتينــا

قال : ووقع الخبر في السجن أن الكميت قد هرب ، فوثب السجان فدخل السجن إلى الموضع الذي كان فيه الكميت فإذا هو بامرأة الكميت جالسة ، فما نظر إليها صاحت صيحة وقالت : وراءك لا أم لك ! قال : فعلم السجان أنه قد عمل عليه فخرق ثوبه وصاح ووضع التراب على رأسه ثم قال لأعوانه : ويلكم امـرأة دخلت السجن فخدعتني وخدعتكم فأخرجت زوجها من السجن فجلست في موضعه وأنتم لا تعلمون ! قال : وبلغ ذلك خالد بن عبد الله القسري فبعث إلى السجان فأحضره ، ثم أمر به فجرد من ثيابه وضربه بالسياط ضرباً شديداً حتى أنه قد قتله ، ثم قال : مثلك يكـون على سجن أمير المؤمنين ! قـال : ثم بعث خالـد إلى امرأة الكميت فأحضرها وقال لها : يا عدوة نفسها[1] ! أخرجت الكميت من السجن وجلست في موضعه وهو طلبة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ؟ فقالت : نعم والله أخـرجته ووقيته بنفسي ، فاصنع ما بدا لك ! قال : فتبسم خالد ثم قال : هكذا فلتكن الحرة ، فأطلقها ولم يتعرض إليها إلا بسبيل خير[2] ، ثم إنه أخذ الطرق على الكميت أياماً كثيرة وليالي فلم يقع له على أثر فأمسك عنه ، ثم كتب إلى هشـام بن عبد الملك يخبره بـذلـك ، وأن الكميت هـرب من السجن ، وخبـر الامـراة وكيف خـدعت السجان ؛ فاغتاظ هشام من ذلك غيظاً شديداً ولم يدر ما يصنع .

قال : وخرج الكميت من المنزل الذي كان فيه في جوف الليل بعد عشرين يوماً ومعه نفر من بني عمه من بني أسد يريد أرض الشام ، فأخذ على طريق السماوة[3] فكان يسير الليل فيهتدي بالنجوم ، فإذا أصبح نزل ، فلما كان في الليلة الثانية من مسيره وأصبح أقبل على من كان معه فقال : أبشروا فقد أمنتم ! ثم سار مع أصحابه نهاراً فإذا بشخص قد أقبل من البعد ففزع أصحابه وأوتروا قسيهم ، فقال الكميت : ما شأنكم ؟ فقالوا : نرى شيئاً مقبلاً . قال : فنظر إليه الكميت ساعة ثم قال : لا عليكم هذا ذئب قد أتاكم ، قال : وتقارب الذئب منهم فذهب بعض بني عمه ليرميه فقال الكميت : مهلاً لا ترموه ، فإنه إنما جاءكم مستطعماً فأطعموه ! قال : ثم التفت

---

(١) الأغاني : يا عدوة الله .

(٢) في الأغاني : اجتمعت بنو أسد إليه ، وقالوا : ما سبيلك على امرأة منـا خدعت ، فخـافهم فخلى سبيلها .

(٣) الأغاني : على طريق القطقطانة .

الكميت إلى مولى يقال له صاعد فقال : يا صاعد ! الق له شيئاً ! فألقى إليه صاعد ذراعاً من لحم فأكلها ، ثم قال : صب له شولاً من ماء ! قال : فصب له صاعد بقية ماء كان في القربة ، فشرب . فقال الكميت : أجرنا إن شاء الله تعالى ! قال : ثم سار القوم فجعل الذئب يعوي عواء شديداً ، قال بعضهم : ويله ! فما له يعوي ؟ أليس قد أكل وشرب ؟ فقال الكميت : أظنه يخبرنا أنا على غير طريق وقد صدق فتيامنوا ، فتيامن القوم فسكن عواؤه . قال : فلم يزل الذئب يتبع الكميت وأصحابه ويطعم ويسقى إلى أن نظر القوم إلى أقطار الشام فانصرف عنهم الذئب ، فأنشأ الكميت يقول :

لقينـا بهـا ذئبـاً ضـريـراً كـأنـه ... إلى كـل من لاقى من الناس مـذنبُ
مضيعـاً إذا أثـرى كسـوبـاً إذا عـدا ... لسـاعتـه مـا يستـفيـد ويـكسـب
تضـوّر يشكـو مـا بـه من خصـاصـة ... وكـان من الإفصـاح بـالشكـو يعـرب
فنشنـا[1] لـه من ذي المـزاود بضعـة ... ولـلـزاد آسـار تـلقـى[2] وتـوهـب
وقلنـا لـه هـذا لـك اليـوم عنـدنـا ... ومن ذي الأداوي عندنـا لـك مشرب
فصب لـه شـولاً من المـاء صـاعـد ... فـسـكّـن عـنـه غـلـة تـتـلـهـب

قال : ثم دخل الكميت أرض الشام ليلاً ، وصار إلى مسلمة بن عبد الملك مستجيراً به من هشام بن عبد الملك ؛ فوقف بين يديه وأنشأ يقول :

يـا مـسـلم بـن أبي الـولـيـ ... ـد لـميت[3] إن شئت نـاشـر
كـم قـال قـائـلكـم لـعـا ... لـك عند عثـرته لعـاثـر[4]
وغـفـرتـم[5] لـذوي الـذنـو ... ب من الأصـاغـر والأكـابـر
فـلقـد نـزلـت إلـيـكـم ... غيـر المـبـجـل لـلمعـاذر
علـقت حـبـالي مـن حـبـا ... لـك ذمـة الـجـار المجـاور
ومـحـل بيـتـي مـن بـيـو ... تـك غيـر منتقض الـدوائـر
فـالآن صـرت إلـى أمـيـ ... ـة والأمـور إلى المـصـايـر

(١) من شعر الكميت وبالأصل « فلسنا » .
(٢) من شعر الكميت ، وبالأصل « أوقات ستلقى » .
(٣) عن الأغاني ١٧/ ١٩ وبالأصل « كميت » .
(٤) عن الأغاني ، وبالأصل : عنده عثرة عاثر .
(٥) عن الأغاني ، وبالأصل « عقوبة » .

قال فقال له مسلمة : ويحك يا كميت ! قد والله رأيت أمير المؤمنين حنقاً عليك شديداً ، وما أثق بنفسي لك منه ، ولكني أشير عليك بواحدة ، إنه قد مات له ابن يقال له معاوية ، وهو غداً صائر إلى القبر[1] ، فكن أنت هنالك قبل مجيئه فاستجر به وأنا أعينك على ذلك . قال : فانصرف الكميت من عند مسلمة ، ثم إنه بكر إلى قبر معاوية بن هشام فجلس إليه ، وقد هيأ أبياتاً من الشعر ، وخرج هشام من قصره يريد القبر ومعه سادات بني عمه من بني أمية ومسلمة يسير عن يمينه ، فلما نظر إلى الكميت من بعيد قال : إني أرى رجلاً قاعداً عند القبر ، فقيل : يا أمير المؤمنين لعله مستجير قد استجار بالقبر ! فقال هشام : قد أجرنا كل من قد استجار إلا الكميت ، فقال مسلمة : يا أمير المؤمنين وما الكميت حتى يستثنى باسمه ! قال هشام : فإنا قد أجرناه وإن كان الكميت . قال : ودنا هشام إلى القبر ، فوثب الكميت قائماً وهو يقول :

تأوب عيني داءها فاستهلت ... بعبرة محزون هضاب وقلّتِ
على هالك من آل فهر بن مالك ... له كشفت شمس النهار وكلّت
فلا تحسب الأعداء إن مات أنني ... خذلت ولا أبيات قومي قلّت
سأبكيك للدنيا وللدين إنني ... رأيت يد المعروف بعدك شلّت

قال : فدمعت عينا هشام ، ثم دنا فجلس عند القبر ، فوثب الكميت قائماً على قدميه ثم استأذن في الكلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال[2] : إن الله عز وجل جعل أولياء دعوته وسيوف نقمه وأنصار دينه ورقباء عدله وورثة فضله وعيبة علمه ومعادن حكمه ، وخلفاءه في عباده وبلاده آباء أمير المؤمنين أطال الله في العافية ! ومنتهى الرغبة في بقائه ، فهم المطهرون من الدنس ، المصفون من النجس ، النجباء في النسب ، البلغاء في الحسب ، النخباء في الأزل ، السمحاء في المحل ، الحكماء المساميح ، الرحماء المناصيح ، لا كفره ممنوع ولا فجره ، ولا معازيل ولا سائل في الهيجاء ، ولا مهاذير في الملاء ، ولا حمد في اللواء ، ولا مناكيد عند العطاء ، ولا جبن عند الأعداء ؛ ولا قحط قنط في السنين ؛ ولا سقط فرط عن المقلين ؛ ولا حزر بزر للدائرين ، ولا مطلق الألسنة بجهل الجاهلين ، لا مروعون بالأهاويل ولا لاهون بالأباطيل ، أهل الحلوم عن البوادر والعلوم بالمخاطر ، ولطاف

(١) وقبره بدير حنيناء كما في الأغاني ، وهو من أعمال دمشق كما في معجم البلدان .
(٢) بعض خطبته أمام هشام بن عبد الملك في الأغاني ١٧/ ١١ .

أمير المؤمنين أيده الله تعالى وكريم عنصره وطيب جوهره ، شاد له ما شرف بناؤه وزهر بهاؤه ، فلم يأل أن زاد بناء ونماء وعلواً وبهاء باللين في رعيته ، والعدل في سيرته ، والبذل في فضله ، والتوفيق من عدله ، والكرم من شيمته ، والصدق من ضريبته ، والحق من رأيه ، والمن من آلائه ، والعفو عن العثرة والحلم بعد القدرة ، ثم إنني كنت أيد الله أمير المؤمنين تهت في حيرة ، وتحيرت في غمرة ، زين لي خطلها ، واستفزني أملها[1] ، وعشيتني أمورها ، وغرتني غرورها ، أسار بي غاويها ، وهتف بي داعيها ، فأجبت إلى الضلالة ، وتسكعت في الجهالة ، حيران حائراً عن الحق ، نافراً قائلاً بغير الصدق ، ملتبّاً بالعمر ، خابطاً في الظلمة ، جائزاً عن الرشدة ، متأملاً بغير فهم ، ناظراً إلى غير علم ، حتى إذا انجلت عني غياهبها بعد اسمدرار ناظري إليها ، وانقشع لي سحابها عن طمع رجائي فيها ، سئمت حياء العدى من أمير المؤمنين الذي أثبت الله به وبآبائه أركان الإسلام ، وقوّم به وبهم دعائم الأيام ، فصادفت عز وجوده على منهمره ، وثمار أفنان رأفته على مهتدله ؛ وفي ذلك أقول :

ما أبالي إذا لقيت هشاماً	وبنيه قبيلة والدبيرا
البسوا العدل والسكنية	والحلم ثياباً فلن أراها نحورا

قال : فتبسم هشام لفصاحة الكميت ولما أتى به في ذلك الوقت من هذا الكلام . ثم قال : كيف أمنتني يا كميت وقد قلتَ ما قلت؟ فقال : إن شئتم أمير المؤمنين أيده الله أمنتني من سطوته ، ورفع من قدري ما كان خاملاً بمشافهته ، وربط من جأشي ما كان منحلاً بمخاطبته ، وكرمه أطمعني في عفوه وأطلق لساني بعد كعمه ؛ ثم قال : عائب[2] ومذنب تاب فمحا باليقين[3] ذنبه وبالصدق كذبه . فالتوبة قبل الحوبة ، والصفح بعد القدرة . قال هشام : وما الذي[4] أفلتك من مخالب القسري وقد أسهرت ليله وأطلت فكره ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! أفلتني منه صدق النية في التوبة ، فتاب عن صفاحي مناسمه ، أو غشي عن عيون حرسه حتى طلقت من وثاقه . وخرجت خروج القدح من محبسي على رغم أنفه ؛ قال هشام : فما الذي

---

(١) الأغاني : استفزني وهلها .
(٢) في الأغاني ٢١/١٧ غائب آب ، ومذنب تاب .
(٣) الأغاني : بالإنابة .
(٤) الأغاني : ما الذي نجاك من القسري .

حملك على الغواية[1] ؟ قال : الذي أغوى آدم من قبلي « فنسي ولم نجد له عزماً » . قال هشام : فهل قلت في خروجك من السجن شيئاً ؟ قال الكميت : نعم يا أمير المؤمنين أنا القائل في ذلك :

لقد رام مني خالد وابن خالد	دواهي شتى من جهاد ومن ختل
فما أطلقا من محكماتي عقيدة	وما ازداد إلا مرة لهما قتلي
عصيت فلم أحلل عليهم بدرة	ولم يجدوني ذا سقاط وذا فشل
فلما أحلوني بصلعاء صيلم[2]	وصول عبوس الليل بين أبي الشبل
خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل	على الرغم من تلك النوابح والمشلي[3]
عليّ ثياب الغانيات وتحتها	عزيمة أمر شبهت سنة النصل

قال : فأطرق هشام يفكر في أمره ثم رفع رأسه وقال : خبرني بأي قديم وحديث هجوت بني أمية ولولا سعة أحلامها لضاق عليك الأرض برحبها ، ويخص بلهواتك زلاها وعذبها ؟ قال : فسكت الكميت وتكلم رجل من حاشيته ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ما خسر بذلك إلا حظه ، ولا أحبط إلا عمله ، ولا ضر إلا نفسه إذ حاول بشعره من أراد الله حط درجته ، وحط من أراد الله أن يعلي مرتبته . قال : فأشار هشام إلى ذلك الرجل أن كف فسكت الرجل وتكلم الكميت فقال : يا أمير المؤمنين ! تقبل توبة مذنب راجع عن ذنبه ، ولا تفزعه بما كان من تفريطه عن طريق الحق ، قال هشام : فليفرج روعك فقد أجرناك ، وعفونا كل ما كان منك إذا أنبت إلى الحق ، واعترفت بالذنب . قال : ثم وصله هشام بعشرة آلاف درهم[4] ؛ ووصله مسلمة بخمسة آلاف درهم[5] . ثم أخذ له كتاب منشور من هشام : لا سبيل لأحد عليه ـ والسلام ـ .

---

(١) في الأغاني : قال : ومن سنّ لك الغيّ وأورطك فيه ؟ .

(٢) عن شعر الكميت ، وبالأصل : صيكم .

(٣) يضرب المثل بقدح ابن مقبل ، لأنه وصفه بقوله :

خروج من الغمى إذا صك صكة ... بدا والعيون المستكفة تلمح

(٤) في الأغاني : بأربعين ألف درهم .

(٥) في الأغاني : بعشرين ألف درهم .

ذكر أخبار الكميت في أهل البيت رضي الله عنهم
وهي أخبار حسان منتخبة

قال عبد الله بن زرارة : سمعت أبي يقول : كنا عند أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنهما إذا الكميت قد استأذن ، فأذن له فدخل ثم جلس وأنشد أبا جعفر رضي الله عنه قصيدته الميمية حيث يقول : « من لقلب[١] متيم مستهام » .

حتى إذا فرغ منها قال أبو جعفر : يا كميت ! إن رسول الله ﷺ قال لحسان بن ثابت إنك لا تزال مؤيداً ما نصرتنا بلسانك .

قال : ودخل الكميت بن زيد وأخوه الورد بن زيد على أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه في بعض أيام التشريق بمنى فقال الكميت : يابن رسول الله ﷺ ! قد قلت أبياتاً أفلا أنشدكها ؟ فقال له أبو جعفر : يا أبا المستهل ! عليك بذكر الله فإنها أيام ذكر ، فقال : صدقت يابن رسول الله ! وإني أحب أن تسمعها ، فقال : هات ما بدا لك ! فأنشده كميت قصيدته التي يقول فيها[٢] :

ألا أبلغ أمية حيث حلّت ... وإن خفت المهنّد والقطيعا[٣]

قال : فرأيت أبا جعفر وقد حسر عن ذراعيه ثم تحول إلى القبلة ورفع يديه فقال : اللهم اغفر للكميت ! يقوله ثلاثاً .

قال حكم بن سعيد الأسدي : أخبرني عيسى بن أعين وكان راوياً لأبي عبد الله جعفر بن محمد رضي الله عنه قال : كنت أنشد أبا عبد الله أشعار الكميت ، فإذا أنشدته مديحه في بني أمية يقول : ما أشعره ! وإذا أنشدته فيهم يقول : هذا شاعرنا أهل البيت ! فإذا أنشدته شعره في ادعائه بالقبائل يقول : ما أنسبه .

قال أبو ثميلة : قال داود بن مصعب الأسدي : دخلت أنا والكميت بن زيد

---

(١) عن شرح الهاشميات ، وبالأصل « لقب » وتمام البيت وقد مرّ :

من لقلب متيم مستهام ... غير ما صبوة ولا أحلامِ

(٢) شرح هاشميات الكميت ص ١٩٥ من قصيدة مطلعها :

نفى عن عينك الأرق الهجوعا ... وهمٌّ يمتري منها الدموعا

(٣) البيت في شرح الهاشميات :

فقل لبني أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا

وبالأصل « الهند » . والقطيع : السوط .

على فاطمة بنت الحسين أم عبد الله بن الحسن[1] بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، فألقت لنا وسائد فجلسنا ، ثم أقبلت على الكميت فقالت : يا كميت ـ جزاك الله عنا خيراً ، فلقد أحببتنا حين أبغضنا الناس ، ومدحتنا حين غلبنا الناس ، ووصلتنا حين قطعنا الناس . قال : ثم دعت له بقدح سويق وماء فجدحته بيدها وناولته إياه ، فأخذ الكميت وشربه ، ثم إنها أشارت إلى الجارية بشيء وقالت : يا أبا المستهل ! إنا قد أمرنا لك بمركب وستين ديناراً نفقة ، فإن أنت تقبل ذلك ! قال : فهملت عيناه بالدموع ثم قال : والله يا بنت رسول الله ﷺ ! لا أرزأك ولا أرزأ غيرك على شيء من مدحتكم شيئاً أبداً حتى يكون الذي أقول فيكم يجزيني عليه ربي ، وأيم الله ! لولا أني طلبت البركة في هذا السويق إذ جدحته بيدك إذا لما ذقته ، ثم نهض فخرج من عندها .

قال : وقال يحيى بن يزيد قال أبي يزيد بن علي أخبرني عمي عمر بن الحسن قال : قدم علينا الكميت بن زيد إلى المدينة ، فاستنشدناه ذات يوم ، فأنشدنا قصيدة له في رسول الله (صلى الله عليه وسلم وعلى آله) هذه الأبيات[2] :

سل الهموم لقلب غير متبول ... ولا رهين لدى بيضاء عطبولِ
ولم أقف بديار الحي أسألها ... أبكي معارفها ضلًّا بتضليلِ[3]
ما أنت والدار إذ صارت معارفها ... للريح مدرجة ذات الغرابيل
تسدي الرياح بها ذيلًا وتلحمه ... ذيلًا بمعتطف منها ومشمول[4]
نفسي فداء الذي لا الجور سنته ... ولا المعاذير من بخل وتبخيلِ
نفسي فداء رسول الله قيل له ... مني ومن بعدها أدنى لتفليل
الحازم الأمر والميمون طائره ... والمستضاء به والصادق القيل

قال : فبكى الناس بكاء شديداً ، وانصرف الكميت إلى منزله ، فجمع له أصحابنا ألف دينار وكسوة من الثياب الجدد وغير ذلك ، ثم بعثوا بها إليه فردها ،

---

(١) بالأصل « الحسين » انظر جمهرة ابن حزم .

(٢) شرح هاشميات الكميت ص ٢٠٠ باختلاف بعض الألفاظ .

(٣) البيت في شرح الهاشميات :

ولا تقف بديار الحي تسألها ... تبكي معارفها ضلًّا بتضليل

الضل والضلال واحد ، والتضليل تفعيل منه .

(٤) البيت في شرح الهاشميات :

تسدي الرياح بها نسجاً وتلحمه ... ذيلين من معصفٍ منها ومشمولِ

فقال: إني لم أقل ما قلته للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من الدنيا فائدة ، ولكني رجوت ثواب الله عز وجل والتقرب إلى رسول الله ﷺ بمحبتكم ، فأما ما أصاب أجسادكم الطاهرة من هذه الثياب فإني أقبله وألبسه ألتمس بذلك البركة ، وأما هذه الألف دينار وما لم يصب أجسادكم فلا حاجة لي فيها ، ولو كنت محتاجاً لكنتم أحق من آخذ منه شيئاً ، ولكني غني بحمد الله ومنّه . قال : ثم أخذ الثياب التي قد لبست ، ورد سائر ذلك ولم يقبل منه شيئاً .

قال : وكتب هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسري يأمره أن يكتب إلى أخيه أسد بن عبد الله بخراسان[1] بالجهاد ، فجمع أسد بن عبد الله المسلمين وسار نحو الترك والسغد فرجع مفلولاً ولم يصنع شيئاً ؛ ثم رجع في السنة الثانية ، غزا فلم يصنع شيئاً ، ثم غزا في السنة الثالثة فوغل في بلاد الترك وجبالهم وشعابهم فرجع ولم يصنع شيئاً وقد مات من أصحابه خلق كثير من الجوع والعطش . ثم أرسل أسد بن عبد الله إلى وجوه قواده مثل نصر[2] بن سيار الكناني وعبد الرحمن بن نعيم المازني[3] وسورة بن الحر[4] الدارمي والبختري بن أبي الدرهم القيسي فقال لهم : يا أعداء الله ! والله ما أوتى إلا من قبلكم ، وذلك أنكم لا تنصحون أمير المؤمنين في الجهاد ولا تناصحون . قال : ثم جردهم فضربهم بالسياط ، وحلق رؤوسهم ولحاهم ، وقيدهم وغل أيديهم إلى أعناقهم ، وبعث بهم إلى أخيه خالد بن عبد الله القسري إلى العراق ، فأنشأ نصر بن سيار يقول في ذلك[5] :

بعثت بالعتاب في غير جرم ... في كتاب تلوم أم حكيمِ
لا تلومي على البلاء فإن اللـ ... ـه يؤتي البلاء بعد النعيم

قال : وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب لما فعل أسد بن عبد الله بهؤلاء القوم ، فأرسل إليه فعزله عن خراسان[6] ؛ وولى مكانه رجل من أهل الجزيرة يقال

---

(١) وكان خالد قد استعمل أخاه أسداً على خراسان سنة ١٠٦ هـ .
(٢) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل « أسد » خطأ .
(٣) في الطبري : العامري .
(٤) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل « أبي » .
(٥) من أبيات في الطبري ٧/٤٩ وابن الأثير ٣/٣١٩ باختلاف بعض الألفاظ . والبيت الثاني لم يرد في المصدرين .
(٦) وكان ذلك في سنة ١٠٩ هـ .

له الأشرس بن عبد الله السلمي .

قال : فقدم الأشرس بن عبد الله السلمي أرض خراسان في جيش عظيم . قال : وبلغ ذلك الترك والسغد فاجتمعوا له ببخارى في نيف علي مائة ألف . قال : وسار حتى وافى الكفار في أرض بيكند ، واقتتل الناس هنالك قتالاً شديداً ، فقتل من المسلمين زيادة على ألف رجل من بني تميم ، وقتل من الكفار مقتلة عظيمة وولوا منهزمين فلم تقم لهم قائمة دون سمرقند ، ورجع الأشرس بن عبد الله بأصحابه حتى عبر النهر وصار إلى بلخ . وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فأرسل أيضاً إلى الأشرس بن عبد الله فعزله عن خراسان[1] ، وولى مكانه الجنيد بن عبد الرحمن المزني[2] .

قال : وأقبل الجنيد حتى دخل أرض خراسان ، ثم سار حتى نزل على أرض بلخ ، وأمر بعقد الأطواق ثم عبر بالمسلمين . وبلغ ذلك خاقان ملك الترك ، فسار نحو المسلمين في سبعين ومائة ألف حتى صار إلى نهر بلخ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وحمل رجل من المسلمين يقال له واصل بن عمرو[3] على جميع الترك حتى خالطهم ، ثم وصل إلى خاقان الملك فضربه على البيضة ، فرمى بها عن رأسه ، وولى ملك الترك منهزماً هو وأصحابه ، ووضع فيهم السيف ، فقتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل ؛ فأنشأ واصل بن عمرو يقول في ذلك :

فلولا الله ليس له نصير ... وضربي قويس الملك الهمامِ
أكرّ عليهم اليحموم كرّاً ... ككر الشرب آنية المدامِ

قال : وانصرف الجنيد بن عبد الرحمن إلى مدينة مرو فنزلها ، وشتّى بها تلك الشتوة . فلما انسلخ عنه الشتاء أقبل بالمسلمين حتى نزل على نهر بلخ ، وقد لحق به نصر بن سيار وأصحابه الذين كانوا حملوا من خراسان إلى العراق ، وذلك أن هشام بن عبد الملك أرسل إلى خالد بن عبد الله القسري فأمره بإطلاقهم وأن يلحقهم بالجنيد بن عبد الرحمن ليكونوا معه ، فعبر الجنيد بالمسلمين نهر بلخ ، ثم دعا برجل

---

(١) وكان ذلك سنة ١١١ هـ كما في الطبري وابن الأثير ، وفي فتوح البلدان سنة ١١٢ هـ . انظر في ابن الأثير سبب عزله .

(٢) عن الطبري وابن الأثير وفتوح البلدان (وفيهما : المري بدل المزني)، وبالأصل : الجنيد بن عبد الله المري .

(٣) ابن الأثير والطبري : واصل بن عمرو القيسي .

بقال له سورة بن الحر[1] الدارمي فعقد له عقداً ، وضم إليه أربعة آلاف رجل ، ووجه به إلى بخارستان[2] . قال : وأما عمارة بن حريم المري فإنه عقد له عقداً وأرسل به إلى بخارستان ، فلم يحارب أهلها حتى أذعنوا له بالسمع والطاعة ، فأخذ منهم الأموال والرهائن ورجع إلى صاحبه الجنيد بن عبد الرحمن .

وأما سورة بن الحر فإنه سار إلى سمرقند ، فلما دخلها بلغ ذلك خاقان ملك الترك فسار إليه في خمسين ألف من الترك والسغد حتى نزل على سمرقند[3] . قال : وبلغ ذلك الجنيد بن عبد الرحمن وهو نازل على شاطىء نهر بلخ في ثمانية وعشرين ألفاً ، فهم أن يسير بالمسلمين إلى سمرقند ، فقال له نصر بن سيار[4] : لا تعجل فإن سورة بن الحر الدارمي وأصحابه في جوف سمرقند ، وسمرقند مدينة حصينة منيعة . فقال الجنيد : والله إن معي من بني عمي خمسمائة رجل ، كل رجل منهم يعد بألف من الترك ، ووالله لو لم يكن معي غيرهم للقيت بهم ملك الترك وجميع من معه من الكفار ، قال : وجعل الجنيد يتمثل بهذا البيت[5] ويقول :

أليس أخو الهيجاء أن يشهد الوغى ... وأن يقتل الأبطال ضخماً على ضخم[6]

قال : ثم سار الجنيد بمن معه من المسلمين يريد إلى سمرقند وهو يرتجز ويقول :

ما حالتي اليوم وماذا علتي ... إن لم أقاتلهم فجزّوا لحيتي[7]

قال : وبلغ خاقان مسير الجنيد بن عبد الرحمن إلى ما قبله ، فأرسل إلى طريق

---

(١) في تاريخ خليفة ٣٤٤ : سورة بن أبجر .

(٢) ابن الأثير والطبري : طخارستان .

(٣) كتب إليه سورة بن الحر : إن خاقان جاش بالترك ، فخرجت إليهم فما قدرت أن أمنع حائط سمرقند ، فالغوث . (ابن الأثير : فالغوث الغوث) انظر الطبري ٧١/٧ .

(٤) في ابن الأثير : فقام إليه المجشر بن مزاحم السلمي وابن بسطام الأزدي وغيرهما .

(٥) بالأصل : بهذين البيتين .

(٦) البيت في الطبري ٧٢/٧ وابن الأثير ٣٣٢/٣ .

(٧) البيت في الطبري وابن الأثير :

ما علتي ما علتي ما علتي ... إن لم أقاتلهم فجزوا لمتي

في ابن الأثير : أقتلهم .

كس[1] ونسف[2] من طريق البرية فغور الأبئار والطرق . وبلغ ذلك الجنيد بن عبد الرحمن فعلم أنه لا يقدر يسلك البرية ، فأخذ على طريق اخر يقال له طريق الشعب . فلما توسطه هو وأصحابه وإذا بالترك قد أحدقوا بالمسلمين من كل ناحية على غير أهبة . قال : ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا لم يقاتلوا مثله في يوم مضى قبله . قال : وجعل نصر بن سيار يقاتل قتالاً لم يسبقه إليه أحد من نظرائه ، فلم يزل كذلك حتى انكشف على وجوههم وصارت الفعلة في أيدي المسلمين وقد قتل من الترك مقتلة عظيمة ، وغنم الناس غنيمة عظيمة[3] .

قال : وتكلم قوم عند الجنيد بن عبد الرحمن فقالوا : أصلح الأمير ! إنه ليس يجب أن يغفل عن مثل نصر بن سيار ولا يقصر في بره لشرفه وشرف ابائه وسابقتهم في الإسلام وما قد رأى الأمير أصلحه الله من فعاله في هذا اليوم . قال : فغضب الجنيد بن عبد [الرحمن] وقال : من نصر بن سيار ؟ وما كان من نصر بن سيار ؟ فوالله إن أقل رجل في بني عمي قد عمل في هذا العدو ما لم يعمله نصر بن سيار ، ولا يقدر عليه ولو عمر الدهر ! قال : وبلغ ذلك نصر بن سيار فأنشأ يقول[4] :

إن نشأت وحسادي ذوو عدد ... يا ذا المعارج لا تنقص[5] لهم عددا
إن تحسدوني على حسن البلاء لكم[6] ... فإن مثل بلائي ولّد الحسدا

قال : فبلغ الجنيد بن عبد الرحمن ما قال نصر بن سيار ، فأرسل إليه وترضاه وتعذره وأعتبه من موجدته عليه .

قال : وجعل خاقان يجمع الجموع لحرب المسلمين حتى صار في مائة ألف ، وسار الجنيد في ثمانية وعشرين ألفاً[7] ، وأرسل إلى سورة بن الحر الدارمي وهو يومئذ بسمرقند أن اخرج بمن معك إلى خاقان ، فإني قد زحفت إليه بخيلي ورجلي ، فكن أنت من ورائه وأنا من بين يديه ، فعسى الله تبارك وتعالى أن يهلكه . قال :

---

(١) كس : مدينة تقارب سمرقند ، وفي ابن الأثير : كش .
(٢) مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند .
(٣) انظر تفاصيل وقعة الجنيد بالشعب في الطبري ٧/٧٣ وابن الأثير ٣/٣٣٣ .
(٤) من أبيات في الطبري ٧/٨٤ باختلاف بعض الألفاظ .
(٥) عن الطبري وبالأصل « ينقص » .
(٦) عن الطبري وبالأصل « لهم » .
(٧) في ابن الأثير : في اثني عشر ألفاً .

فخرج سورة بن الحر من مدينة سمرقند في عشرين ألفاً من أصحابه وممن اتبعه من أهل سمرقند . قال : وعلم خاقان بذلك فقال لأصحابه : ذروا عنكم الجنيد بن عبد الرحمن ، واعطفوا بنا إلى سورة بن الحر وأصحابه ! قال : فعطفت الترك والسغد نحو المسلمين الذين خرجوا من مدينة سمرقند ، والتقى القوم للقتال ، والجنيد بن عبد الرحمن لا يعلم بذلك ولم يرحل بعد من موضعه ، فاقتتل المسلمون مع الترك قتالاً شديداً ، فلم يكن لهم بهم طاقة ، فقتلوا المسلمين بأجمعهم رحمة الله عليهم[1] .

قال : وإذا برجل من أهل سمرقند قد أقبل مكتوفاً وفي عنقه رأس ابن الحر ، قال : فنظر إليه الجنيد بن عبد الرحمن من بعيد فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قتل والله سورة بن الحر وأصحابه ! قال: وضج المسلمون بالبكاء والنحيب؛ فأنشأ رجل من أصحاب الجنيد يقول :

تطاول ما أنام عليّ ليلي ... ولكن لا يطول على النيامِ
إذا أغفيت أرقت نوم عيني ... حوادث قد أنحن على التمامِ
مصاب عشيرتي وجلاء ثغري ... على مر المصيبات العظامِ

قال : وشمت نصر بن سيار بالجنيد بن عبد الرحمن فجعل يعرض[2] به وهو يقول : [3]

أبغضت من عينك[4] تبريحها ... وصورة في جسد فاسدِ
كنت تظن الحرب إذ رمتها ... كشربك القرقف والبارد[5]
تلعب[6] بك الترك وأبناؤها ... لعب صقور بقطا وارد

قال : ثم أرسل الجنيد بن عبد الرحمن إلى مرو وبخارستان وإلى جميع من كان على دين الإسلام فحشرهم إليه ، ثم عرضهم فكانوا ثلاثة وأربعين ألفاً ، فضمهم

---

(١) في ابن الأثير : لم ينج منهم غير ألفين وقيل ألف .
(٢) بالأصل « يعوض » .
(٣) الأبيات في الطبري ٧/٨٦ وفيه : وقال ابن عرس للجنيد في أبيات كثيرة .
(٤) بالأصل « عينيك و » ، وما أثبت عن الطبري .
(٥) البيت في الطبري :
لا تحسبن الحرب يوم الضحى ... كشربك المزاء بالبارد
(٦) عن الطبري ، وبالأصل « لعب » .

إلى رجل من أصحابه فوجه به نحو خاقان ملك الترك . قال : وخاقان يومئذ على باب سمرقند وقد حاصر أهلها أشد الحصار ، حتى عزم أهلها أن يسلموها . قال : فلم يشعر إلا وخيل المسلمين قد أشرفت ، فلما نظر إليها أهل سمرقند فرحوا بذلك واستبشروا واشتدت ظهورهم . قال : ونظر خاقان إلى عساكر المسلمين قد وافت ، فعبى أصحابه ودنا من خيل المسلمين ، والتقى القوم على باب سمرقند فاقتتلوا ، ونزل المسلمون عن دوابهم وجثوا على الركب وعزموا على الموت ، واشتد القتال بين الفريقين ، فقتل من المسلمين يومئذ بشر كثير ، وقتل من المشركين زيادة على عشرة آلاف ؛ وانهزم خاقان في باقي أصحابه ، فمروا هاربين في الجبال والأودية والغياض حتى صاروا إلى بلادهم . وبلغ ذلك الجنيد بن عبد الرحمن فأقبل حتى دخل مدينة سمرقند ، فنزلها ثم جمع أموالها ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وفضّل من أراد من أصحابه وبني عمه ، وقصر بنصر بن سيار وبني عمه ، فلم يفعل بهم ما يجب أن يفعل بأمثالهم من العطية والجوائز ؛ فأنشأ نصر بن سيار يقول :

لئن كنت في دنيا وملك أصبته — بلا حسب زال ولا طعانِ
فقد يبتلي ذو الملك بالبخل والغنى — ويصرف عن ورى الزناد هجانِ
لعمري لقد أصبحت في اليوم راغباً — وقد حل منك اللوم كل مكانِ

قال : ودعا الجنيد بن عبد الرحمن برجل من بني عدي يقال له موسى بن النصر[1] فضم إليه خمسة آلاف زجل من المقاتلة وجعلة مقيماً بمدينة سمرقند ، ثم رحل حتى صار إلى مدينة مرو فنزلها ، وكتب إلى هشام بن عبد الملك يخبره بما كان من أمر خاقان ومحاربته إياه ، وبعث أيضاً مع الكتاب إلى هشام بهدايا ومطارف من هدايا خراسان ودوابها وأموالها ؛ ثم إن الجنيد بن عبد الرحمن مرض بمدينة مرو مرضاً شديداً واستسقى بطنه فمات[2] ، فقبره بمرو .

فلما مات الجنيد بن عبد الرحمن وثب رجل من أصحابه يقال له الحارث بن سريج ، فتغلب على خراسان ، واحتوى على مرو الروذ وفارياب والنمرود[3] والطالقان وعامة مدائن خراسان ، فأخذها وجعل يجبي أموالها ويفرقها في أصحابه ،

---

(١) الطبري : « النعر » وفي ابن الأثير « التعراء » .

(٢) وكان ذلك في سنة ١١٦ هـ . وكان هشام قد عزله واستعمل على خراسان عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي وأمره إن أدركه أن يزهق نفسه ، فقدم عاصم ، وقد مات الجنيد (الطبري - ابن الأثير) .

(٣) كذا ، ولم نجده .

حتى التأم إليه خلق كثير من أهل الذعارة والفساد . قال : وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فدعا برجل يقال له عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي[1] ، فولاه بلاد خراسان ، فلم يكن له طاقة بالحارث بن سريج ، فعزله هشام وولى مكانه أسد بن عبد الله القسري[2] . قال : فقدم أسد بن عبد الله بلاد خراسان ، وهذه قدمته الثانية فنزل مدينة مرو وجعل يوجه الجيوش لمحاربة الحارث بن سريج . قال : ونظر الحارث بن سريج إلى كثرة الخيل قد وافته من كل ناحية فجمع إليه أصحابه ، ثم سار حتى دخل بلاد الترك فصار إلى خاقان مستأمناً إليه . قال : فأنزله خاقان مدينة من مدائن الترك يقال لها فاراب[3] فجعلها طعمة له ولأصحابه . قال : وسار أسد بن عبد الله القسري من مدينة مرو في جيش لجب يريد حرب ابن سريج ، حتى إذا صار إلى مدينة بلخ أدركته الوفاة فتوفي بها[4] ، وتولى أخوه خالد بالعراق . قال : فأرسل هشام إلى يزيد بن خالد فولاه العراق جميعاً مكان أبيه ، وأرسل إلى نصر بن سيار فولاه بلاد خراسان بأجمعها من دون النهر إلى ورائه إلى أرض الشاش وفرغانة وما يليها . قال : فكان نصر بن سيار عاملاً على خراسان يغزو أطرافها ، فكلما فتح بلداً تألف به أهله ، ويخفف عنهم الخراج حتى أحبه الناس ومالوا إليه . وجعل يزيد بن خالد بن عبد الله القسري يجور على أهل العراق فيأخذ أموالهم ويقتل رجالهم ، حتى بلغ منهم كل مبلغ . قال : وشكاه الناس إلى هشام بن عبد الملك ورفعت فيه القصص وكتبت فيه الكتب . قال : فدعا هشام بن عبد الملك بيوسف بن عمر[5] الثقفي فولاه العراقين جميعاً البصرة والكوفة وما والاهما ، وأمره أن يأخذ يزيد بن خالد فيعذبه بكل عذاب يقدر عليه ، ويستخرج ما عنده من الأموال التي جباها من أهل العراق .

ذكر ولاية يوسف بن عمر الثقفي العراق وابتداء أمر زيد بن علي بن الحسين ومقتله

قال : فتقدم يوسف بن عمر الثقفي العراق ، فأقبل حتى نزل الحيرة ووجه

---

(١) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل « زيد النهلاني » .

(٢) في ابن الأثير ٣/٣٤٥ أن هشام استعمل على خراسان خالد بن عبد الله القسري ، فاستخلف خالد عليها أخاه أسد بن عبد الله .

(٣) فاراب ولاية وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك .

(٤) وذلك في سنة ١٢٠ هـ . وكان سبب موته دبيلة في جوفه .

(٥) بالأصل « عمرو » وما أثبت عن ابن الأثير ٣/٣٦٦ وقد صحح اسمه أينما ورد في الخبر .

بعماله إلى جميع البلاد ، ثم أرسل إلى يزيد بن خالد القسري فأشخصه إليه من البصرة ، فاستأداه جميع ما عليه من الأموال ، وجعل يعذبه بأنواع العذاب لكي يستصفيه الأموال ، فقال له يزيد : أيها الأمير ! لا تعجل عليّ بالقتل فإن لي مالاً على قوم كنت استودعتهم إياه ، وأرجو أن آخذه منهم فأدفعه إليك ! فقال له يوسف : ومن هؤلاء الذين تذكر أنك استودعتهم هذا المال ؟ فقال : أصلح الله الأمير ! أولهم زيد بن علي بن حسين بن علي ومحمد بن عمر[1] بن علي بن أبي طالب وداود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وإبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وأيوب بن سلمة بن عبد الله المخزومي[2] .

قال : وكان هؤلاء القوم يومئذ بالشام عند هشام بن عبد الملك فكتب يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك فخبره بذلك ، فأرسل هشام إلى هؤلاء القوم فدعاهم وذكر لهم ما كتب به إليه يوسف بن عمر مما ادعى عليهم يزيد بن خالد القسري ، فأنكروا ذلك وقالوا : يا أمير المؤمنين ! ما له قبلنا دعوى ولا طلبة ، ولعله إنما أراد أن يتبرد بنا من ذلك العذاب الذي هو فيه . قال هشام : فإني باعث بكم إلى يوسف بن عمر ليجمع بينكم وبين صاحبكم ، فقال له زيد بن علي : أنشدك الله يا أمير المؤمنين والرحم أن تبعث بي إلى يوسف بن عمر ! فإني أخاف أن يتعدى عليّ . قال هشام : ولِمَ يتعدى عليك وليس له ذلك ؟ قال : ثم أمر هشام كاتبه فكتب إلى يوسف بن عمر[3] : أما بعد فقد وجهت إليك بالقوم الذين ادعى عليهم يزيد بن خالد ما ادعى ، فإذا قدموا عليك فاجمع بينهم وبين صاحبهم ، فإن هم أقروا[4] بما ادعى عليهم فوجه بهم إليّ ، وإن هم أنكروا فسله البينة عليهم ، فإن لم يقم البينة فاستحلفهم بعد صلاة العصر يوم الجمعة في مسجد الجامع بالله الذي لا إله إلا هو إنه ما استودعهم يزيد بن خالد وديعة ولا له مال عليهم لا قليل ولا كثير ! فإذا حلفوا فخل سبيلهم ـ والسلام ـ.

قال : فقال القوم : يا أمير المؤمنين ! إنا نخاف أن يتعدى علينا يوسف بن عمر ، فقال هشام : كلا إني باعث معكم رجلاً لا يقدم عليكم بشيء من المكروه .

---

(١) عن الطبري ٧/١٦٠ وبالأصل « عمرو » .

(٢) وقيل إن الذي ادّعى المال عند زيد بن علي هو خالد بن عبد الله القسري (انظر الطبري ٧/١٦٠ وابن الأثير ٣/٣٧٢) .

(٣) انظر كتاب هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر في الطبري ٧/١٦١ وتاريخ اليعقوبي ٢/٣٢٥ .

(٤) عن الطبري ، وبالأصل « قروا » .

قال : فخرج القوم من الشام فجعلوا يسيرون حتى قدموا العراق ، ثم صاروا إلى الحيرة وبها يومئذ يوسف بن عمر ، ثم دخلوا فسلموا فرد عليهم السلام ، ثم أدناهم ورحب بهم ، وقرب زيد بن علي خاصة فأقعده إلى جنبه وألطف به في المسألة ، وأقبل إليه وإلى من معه فقال : إن يزيد بن خالد القسري محبوس في سجني ، غير أنه يذكر أن له عندكم مالاً استودعكم إياه ، فما تقولون ؟ قال : فأنكروا ذلك بأجمعهم وقالوا : أصلح الله الأمير ! ما استودعنا مالاً ولا له[1] قبلنا دعوى ولا طلبة . قال : فأمر يوسف بن عمر بيزيد فأحضره ، ثم قال له يوسف بن عمر : هؤلاء القوم الذين ادعيت عليهم ، فهات ما عندك ! فقال يزيد بن خالد : أيها الأمير ! ما لي عندهم قليل ولا كثير ، ولا دعوى ولا طلبة ، بوجه من الوجوه ولا بسبب من الأسباب . قال : فغضب يوسف بن عمر ثم قال : إنما كنت تهزأ بي وبأمير المؤمنين ! ثم أخرج القوم إلى المسجد الأعظم بعد صلاة العصر فحلفوا ، فخلّى سبيلهم . فخلف ثلاثة منهم بالمدينة . وأقام زيد بن علي بن الحسين ومحمد بن عمر بن علي بالكوفة . قال : وجعل يوسف بن عمر يعذب يزيد بن خالد القسري بأنواع العذاب حتى مات .

ابتداء خبر زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم

قال : وجعلت الشيعة من أهل الكوفة يختلفون إلى زيد بن علي ويأمرنه[2] بالخروج على هشام بن عبد الملك ويقولون له : والله يابن رسول الله إنا لنرجو أن تكون المنصور من آل محمد ! وإنه قد دنا هلاك بني أمية[3] . قال : فأقام زيد بن علي بالكوفة ، وجعل يوسف بن عمر يسأل عنه فيقال : إنه مقيم بالكوفة لم يبرح بعد . قال : فأرسل إليه يوسف بن عمر أن اخرج عن البلد وصر إلى غيره ، فبعث إليه زيد بن علي أيها الأمير ! إني عليك[4] وإني على الخروج ! فأمسك عنه يوسف بن عمر أياماً ، ثم بعث إليه واستحثه على الخروج وأغلظ له في القول وتهدده ، فلما رأى زيد بن علي أن يوسف بن عمر قد ألحّ عليه في الخروج لم يجد

---

(١) الطبري : ولا له قبلنا حق .

(٢) الطبري وابن الأثير : وتأمره بالخروج .

(٣) الطبري : وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية .

(٤) كذا ، ولعله « عليل » وفي الطبري : ويعتل له بالوجع .

بدأ من ذلك ، فعزم على الرحيل إلى المدينة ، ثم تجهز وخرج ، وأرسل معه يوسف بن عمر برجل يبلغه العذيب[1] . قال : فسار زيد بن علي من الكوفة حتى صار إلى العذيب ورجع عنه رسول يوسف بن عمر ، وخرجت الشيعة خلف زيد بن علي فلحقوه بالمغيثة[2] فقالوا : أين تذهب يابن رسول الله وتذر الكوفة ولك بها مائة ألف سيف يقاتلون عنك بني مروان ؟ ننشدك الله إلا ما رجعت ! فوالله لو أن قبيلة واحدة من قبائلنا همت أن تقاتل عنك أجناد الشام لما كبر ذلك عليهم . قال : فلم يزالوا به حتى أنعم لهم زيد بن علي في ذلك ، فانصرفوا عنه إلى الكوفة على أن يرجع إليهم . قال : وأقبل عليه محمد بن عمر فقال : أنشدك الله يابن رسول الله إلا لحقت بأهلك وصرت إلى المدينة ولا تقبل مقالة أحد من هؤلاء الذين يدعونك إلى ما يدعونك إليه ! فإني أخاف أنهم لا يفون لك بما يقولون .

قال : فلم يقبل زيد من محمد بن [عمر بن][3] علي ما قال له وأقبل راجعاً إلى الكوفة ، فدخل مستخفياً ونزل عند رجل من شيعته يقال له نصر بن خزيمة العبسي . قال : وعلمت الشيعة بذلك فجعلوا يختلفون إليه باللطف والبر من كل ناحية ، وهم في ذلك يكتمون أمره خوفاً من يوسف بن عمر الثقفي . قال : وأقبلت إليه امرأة من الأزد يقال لها أم عمرو بنت الصلت[4] ومعها بر لطيف ، فدخلت إليه وسلمت عليه ، وكانت امرأة وسيمة من النساء ، فلما نظر إليها زيد بن علي وكلمها رآها فصيحة الكلام حلوة المنطق ، فقال لها زيد : من أنت أيتها الإمرأة ؟ فقالت : أنا امرأة من الأزد ، فقال زيد بن علي : ألك زوج ؟ قالت : لا يابن رسول الله ! ما لي زوج ، فقال لها زيد : فهل لك أن تزوجيني نفسك ؟ فقالت : والله إن فيك لرغبة لو أردت التزويج ، قال زيد : فما الذي يمنعك من ذلك ؟ قالت : جعلت فداك ! فأنا أعرف بنفسي ، فإنه يمنعني من ذلك كبر سني ، فقال زيد : كلاّ ما أنت عندي كما تقولين ورضيت بك ، فقالت : أنا أعرف بنفسي بما أتت عليّ من السنين . ولو كنت مزوجة مدى الدهر ما عدلت بك أحداً ، ولكن لي ابنة وهي أجمل مني وأنا أزوجكها إن أحببت ذلك ! فقال زيد : فقد أحببت ذلك إن كانت مثلك ، فقالت : جعلت

---

(١) العذيب : من منازل حاج الكوفة .

(٢) منزل في طريق مكة بعد العذيب .

(٣) زيادة عن الطبري ٧/١٧١ .

(٤) انظر الطبري ٧/١٧٢ وابن الأثير ٣/٣٧٦ .

فـداك! إن خالقهـا ومصورهـا لـم يرض أن يجعلهـا مثلي ، لكن جعلها أنـظر مني وأضوأ وأحسن شكلاً[1] وأكمل مني عقلاً . قال : فتبسم زيد بن علي ثم قال : لقد رزقت فصاحة ومنطقاً حسناً فأين فصاحة ابنتك من فصاحتك ؟ فقالت : جعلت فداك يـابـن رسول الله ! أما أنا فنشأت بالحجاز ، وهي نشأت بالكوفة ، وما أقرب ما بيني وبينها في الفصاحة . فقال زيد : فإني قد رضيتها . قال : ثم واعدها وقتاً ، وجمع نفراً من الشيعة فتزوجها ، ثم تجهزت وزفت إليه ، فبنى بها وأولدها جارية ، ثم ماتت بعد ذلك ، فاغتم عليها زيد غماً طويلاً .

قال : وكان زيد بن علي رضي الله عنه لا يطيل المكث في مكان واحد خوفاً على نفسه من يـوسف بن عمـر أن لا يعلم بمكـانـه . فكـان يكـون مـرة بـالأزد عنـد بني عم امرأتـه ومرة في بني عبس ، والشيعـة في خلال ذلـك يبايعـونه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسمة الفيء بين أهله بالسوية ، ورد المظالم [واقفال المجمَّر][2] والنصر لأهل البيت على من نصب لهم العداوة وجهل حصتهم . فكان الناس يبايعونه على ذلك ، فإذا أقر الرجل منهم بذلك وبهذه البيعة يضع يده على المبايع ثم يقول : عليك بهذه البيعة عهد الله وميثاقه وذمته[3] ! فإذا قال ذلك الرجل : نعم ، يمسح يده على يده ثم يقول : اللهم اشهد ! ثم يكتب اسمه عنده ، فلم يزل كذلك حتى بايعه خمسة عشر ألف إنسان من شيعته من أهل الكوفة . قال : ويوسف بن عمر لا يعلم بشيء من ذلك .

قال : ثم تحول زيد بن علي إلى جبانة[4] سالم فنزل دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة في أدنى بني فهد عند مسجد هلال بن عامر ، فلم يزل على ذلك من شأنه بضعة عشر شهراً حتى أحكم أمره وأخـذ البيعة على شيعتـه ، ثم إنه أمـرهم بالاستعداد والأهبة للخروج . قـال : وشاع ذلـك في الناس حتى تحـدثوا بـه سراً وعلانية .

قال : وأقبل رجل من أهل الكـوفة يقـال له سليمـان بن سراقـة البارقي إلى

---

(١) شكلًا بكسر أوله وسكون ثانيه ، غنج المرأة ودلّها .

(٢) زيادة عن الطبري ١٧٢/٧ .

(٣) زيد في الطبري : وذمة رسوله ، لتفين ببيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحن في السر والعلانية .

(٤) بالأصل بدون نقط ، وما أثبت عن الطبري ١٧٢/٧ .

يوسف بن عمر فخبره بذلك ، فقال يوسف بن عمر : ويحك فكيف علمت بذلك ؟ فقال : لأنه خبرني الصدوق أنه قد بايعه الناس على ذلك ووجه بكتبه إلى أهل السواد يواعدهم بالخروج ، فضاقت الأرض برحبها على يوسف بن عمر ، ثم إنه بعث إلى عامله الحكم بن الصلت بالكوفة ويحذره أمر زيد بن علي ويأمره بالطلب والتفتيش ، ثم أرسل إلى الطرق فأخذت ، فكان لا يمر أحد إلاَّ فتش مخافة أن يكون معه كتاب .

قال : فبينما أهل المصالح على الطرق إذا برجل مر وفي يده عصاة وهو مستعجل فصاحوا به ثم قالوا : من أين أنت ؟ قال : من بلاد الشام ، ففتش فلم يوجد معه شيء ، فضرب أحدهم يده إلى العصا فأخذها وجعل يقلبها وينظر إليها ، فإذا على ناحية منها قطعة شمع ملصقة فقلع ذلك الشمع ، فإذا جانب العصا مجوفة وفي جوف الحفر كتاب مدرج ، فأخذ الكتاب والرجل فأتى بهما إلى يوسف بن عمر . فأخذ الكتاب ففضه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من زيد بن علي بن الحسين بن علي ، إلى أهل الموصل وسائر بلاد الجزيرة ، سلام عليكم ! أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله الذي خلقكم ورزقكم ، وبيده أموركم وإليه مصيركم ، فإنكم قد أصبحتم تعرفون الحق إذ أنتم تواصفونه بينكم ، ووصفه واصف لكم ، ولا ينتفع واصف الحق ولا الموصوف له حتى يعين من قام به عليه ، وقد قال الله تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصلحت وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[1] . وقد دعا محمد ﷺ أهل الكتاب من قبل كما أمره الله سبحانه فقال ﴿ يأهل الكتب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾[2] ، وقد عرفتم حالكم الذي أنتم عليه من الفتنة في دينكم ، والبلاء في معايشكم من أمر سفك الدماء ، والاستئثار عليكم بغيّكم ، فهذا ما أنتم عليه واليوم مقيمون وبه اخذون ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ، والدفع عن المستضعفين ، ومجاهدة الظالمين الذين انتبزوا أهل البيت بيت نبي رب العالمين ، فبادروا إلى عبادة الله ، واحذروا أن يحل بكم عذاب الله وبأسه ، وما حل على ما كان قبلكم من أهل معصيته والتولي عن أمره ، وراجعوا الحق واحموا أهله ، وكونوا لهم أعواناً إليه ليكونوا من المفلحين ، والسلام على عباد الله الصالحين ، وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة العصر .

(٢) سورة ال عمران الأية ٦٤ .

قال : فلما قرأ يوسف بن عمر هذا الكتاب تغير وجهه وامتلأ غيظاً وغضباً ، ثم قدم هذا الرجل الذي معه الكتاب فضرب عنقه صبراً[1] ، وبعث إلى عامله بالكوفة الحكم بن الصلت فأمره أن يطوف بالكوفة بالليل وأن يستبحث بالنهار عن زيد بن علي . قال : وبلغ ذلك زيد بن علي فخاف على نفسه أن يؤخذ قبل الأجل الذي كان بينه وبين أهل السواد فلم يدر ما يصنع ، قال : وأقبل إليه نفر من أصحابه الذين كانوا قد بايعوه فقالوا له[2] : إنا قد بايعناك وإنا نحن خارجون معك ، ولكن ما تقول في هذين الرجلين الظالمين أبي بكر وعمر ؟ فقال زيد بن علي : مهلاً لا تقولوا فيهما إلا خيراً ، فإني لا أقول فيهما إلا خيراً ، ولا سمعت من آبائي أحداً يقول فيهما إلا خيراً . قال فقال له القوم : فترى أن بني أمية ما ظلموك ؟ فقال زيد بن علي : ليس القياس في ذلك بسواء ، إن بني أمية قتلوا جدي الحسين بن علي رضي الله عنه وحملوا رأسه إلى الشام ، وقتلوا أهل المدينة ونهبوها ثلاثة أيام ، ثم رموا بيت الله الحرام بالحجارة والعذرة والنار ، وأبو بكر وعمر لم يفعلا من ذلك شيئاً . قال : فغضب القوم ثم قالوا : إن جعفر بن محمد هو أحق بهذا الأمر منك ، ثم تركوه وصاروا إلى جعفر بن محمد بالمدينة ، فدخلوا وسلموا عليه وقالوا : يابن رسول الله ! إنا كنا بايعنا عمك زيد بن علي وهممنا بالخروج معه ، ثم إنا سألناه عن أبي بكر وعمر فذكر أنه لا يقول فيهما إلا خيراً ؛ قال : فقال جعفر بن محمد : وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً ، فاتقوا الله ربكم ، وإن كنتم بايعتم عمي زيد بن علي ففوا له بالبيعة وقوموا بحقه ، فإنه أحق بهذا الأمر من غيره ومني . قال : فرجع القوم إلى الكوفة وجاؤوا حتى دخلوا على زيد بن علي .

قال : فجمع للقوم الحكم بن الصلت كل فارس مذكور من أهل الكوفة فأدخلهم إلى المسجد يوم الثلاثاء قبل خروج زيد بن علي بيوم واحد ، وخرج زيد ليلة الأربعاء[3] من دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة ومعه ثمانية عشر رجلاً وقد

---

(١) في الطبري ٧/١٨٠ ورد أن سليمان بن سراقة البارقي أعلم يوسف بن عمر أن زيد بن علي يختلف إلى رجلين أحدهما يقال له عامر ، والآخر رجل من بني تميم يقال له طعمة ... وأخذ يوسف الرجلين ، واستبان له منهما أمر زيد وأصحابه .

(٢) انظر ما جرى بين زيد بن علي وأصحابه من مناظرة في الطبري ٧/١٨٠ ـ ١٨١ .

(٣) وذلك في أول ليلة من صفر سنة ١٢٢ هـ .

رفعت بين أيديهم النيران في هرادي[1] القصب وهم ينادون : يا منصور ! قال : وسمع ذلك أمير الكوفة الحكم بن الصلت فأمر بدروب الأسواق فغلقت عن آخرها ، وأمر بأبواب المسجد الأعظم فغلقوها لكي لا يخرج إلى معاونة زيد بن علي أحد . قال : وارتفعت الضجة والتكبير من كل ناحية والناس يخرجون إلى زيد بن علي . قال : واجتمع إليه مائتان وعشرون[2] رجلاً . قال : وأصبح الناس . فنظر زيد إلى من وافاه من أصحابه فقال : يا سبحان الله العظيم ! أين الناس ؟ أحصيتهم أمس في ديواني خمسة عشر ألف إنسان وإنما وافاني منهم هؤلاء فقط ! قال : فقالوا له : يابن رسول الله ! الناس محصورون في المسجد الأعظم لكي لا يخرج إليك أحد ، فقال زيد : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وكم يبلغ هؤلاء المحصورون في المسجد ؟ أين الباقون لا يخرجون إلينا ؟ أما ! إنهم أهل النكث والغدر .

قال : وتعالى النهار ، وأقبل يوسف بن عمر من الحيرة ومعه أشراف الناس حتى وقف على تل قريب من الكوفة وأمر الناس بالتقدم إلى الحرب ، فتقدم الناس واختلط بعضهم ببعض واقتتلوا ساعة ، وحمل عمرو بن عبد الرحمن[3] صاحب شرطة الكوفة على زيد بن علي ليضربه ، فحمل عليه رجل من أصحاب زيد يقال له نصر بن خزيمة العبسي فضربه ضربة جندله صريعاً ، ثم حمل على جيش أمير الكوفة فقتل منهم جماعة وهزمهم هزيمة فضيحة . وتقدم زيد بن علي حتى صار إلى جبانة الصائدين[4] فإذا هو بجماعة من أهل الشام يزيدون على سبعمائة[5] رجل ، فلم يكذب زيد بن علي أن حمل عليهم فقتل منهم جماعة وهزمهم بين يديه . ثم أقبل الناس وإذا هو أيضاً بجيش عظيم من أهل الشام على الخيل العتاق والسلاح الشاك . فلما نظر إليهم حسر عن رأسه ثم حمل عليهم فكر بعضهم على بعض ، وقتل منهم خلقاً كثيراً . قال : وجعل يوسف بن عمر يوجه بقائد بعد قائد من وجوه أهل الشام وزيد بن علي واقف على أقل من ثلاثمائة رجل ، فليس يقدم عليه جيش إلا أتى على

---

(١) عن الطبري ، وبالأصل : « هراوي » والهردية : قصبات تضم ملوية بطاقات الكرم تحمل عليها قضبانه .

(٢) بالأصل : مائتين وعشرين ، وفي الطبري ٧/١٨٢ : فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتي رجل وثمانية عشر رجلاً . وانظر ابن الأثير ٣/٣٨١ .

(٣) عن الطبري ، وبالأصل « عبد العزيز » وفي الطبري : عمر بدل « عمرو » وفي ابن الأثير فكالأصل .

(٤) الطبري : الصائديين .

(٥) الطبري : خمسمئة من أهل الشام .

عامته وهو في خلال ذلك يرفع صوته ويقول : أيها الناس ! إنكم قد بايعتمونا وأخذنا عليكم العهود والمواثيق أنه قد جاء الحق وزهق الباطل ! قال : فكان الرجل منهم يسمع النداء وهو في منزله وهو لا يخرج ، فقال زيد بن علي : ما أخلفكم ! قد فعلتموها يا أهل الكوفة ! ووالله ما هي بنكر ! ووالله لقد فعلتموها بجدي الحسين بن علي والله حسيبكم ! قال : واشتبك الحرب بين الفريقين ونادى منادي يوسف بن عمر : ألا ! من جاء برأس زيد بن علي فله ألف درهم ، ومن جاء بأسير فله مثل ذلك ، قال : وكان يوسف بن عمر لا يأتى بأسير إلا ضرب عنقه وأحرقه بالنيران ، وزيد بن علي يقاتل هو وأصحابه ، وابنه يحيى يقاتل من جانب آخر ، وليس يزيد أصحابه على ما هم عليه . فلما رأى ذلك أقبل على نصر بن خزيمة العبسي فقال : يا نصر ! أخاف أن أهل الكوفة قد جعلوها خبثاً[1] ، فقال نصر بن خزيمة : جعلت فداك يابن رسول الله ! أما والله لأضربن بين يديك بسيفي هذا أبداً حتى أموت ! فاحمل بنا يابن رسول الله حملة لعلنا أن نقرب من المسجد الأعظم فننادي الناس بالخروج إلينا فإنهم محصورون ! قال : فجعل زيد بن علي يحمل على هؤلاء القوم وأصحابه معه ، ويدنون رويداً رويداً حتى صاروا قريباً من دار حريث بن عمرو المخزومي فقاتل هنالك ساعة ، وحمل عليه أهل الشام حتى بلغوا به وبأصحابه إلى دار عمر[2] بن سعد بن وقاص ، واشتد الحرب هنالك ساعة ، ثم حمل عليهم زيد بن علي في أصحابه حتى بلغ بهم إلى المسجد الأعظم ، ثم دفعهم دفعة أخرى حتى أخلاهم من المسجد ، وأقبل حتى وقف على باب الفيل وجعل ينادي في المسجد ممن هو من شيعتهم ويقول : ويحكم يا أهل الكوفة ! اخرجوا من الذل إلى العز ! اخرجوا من الفقر إلى الغنى ! اخرجوا من الضلالة إلى الهدى ! اخرجوا إلى[3] الدين والدنيا ! فلستم في دين ولا دنيا ، ويحكم ! أنا زيد بن علي بن الحسين ! أنا الذي بايعتموني بالأمس ! اخرجوا بارك الله فيكم ! قال : فهم من كان في المسجد أن يكسروا باب المسجد ويخرجوا إلى زيد بن علي ، فصعد أهل الشام على سطح المسجد فجعلوا يرمونهم بالحجارة والنشاب ، واشتبك الحرب على باب المسجد ، فقتل نصر بن خزيمة العبسي وهو أجلّ من كان مع زيد بن علي . قال : ثم قتل من

(١) في الطبري : أتخاف (ابن الأثير : أنا أخاف) أن يكون قد جعلوها حسينية .

(٢) بالأصل « عمرو » خطأ .

(٣) عن الطبري ، وبالأصل « من الدين إلى الدنيا » .

بعده معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة وهو صاحب منزل زيد بن علي ، وقتل أيضاً زياد بن عبد الله الفهري[1] وجماعة من أصحاب زيد بن علي فحملت رؤوسهم إلى يوسف بن عمر . قال : ثم صاح زيد بأصحابه فحمل وحملوا معه على أهل الشام فهزموهم حتى بلغوا بهم إلى السبخة . قال : واشتد الحرب هنالك فقتل من أصحاب زيد بن علي سبعون رجلاً[2] ، وجرح منهم بشر وثبت زيد بن علي فيمن معه هنالك ، فلم يزل يقاتلهم هو وابنه يحيى ومن معه إلى أن جاء وقت المساء .

قال : وتقدمت الناشبة من أصحاب يوسف بن عمر فأفرغوا سهامهم بين أيديهم . وجعلوا يرمون رمياً شديداً متداركاً ، وليس يقصدون بسهامهم غير زيد بن علي ، وزيد يحمل عليهم كالليث المغضب ، ولا يشبه في حملاته إلا بالحسين رضي الله عنه ، فبينما هو كذلك إذا بسهم قد أقبل حتى وقع في جبهته فغرق في رأسه[3] ، فسقط زيد عن فرسه وهو لما به وذلك في المساء ، فاحتمل حتى أدخل إلى دار رجل من أهل همدان[4] ، وهرب ابنه يحيى حتى دخل إلى دار رجل من الشيعة ، وتفرق أصحابه هاربين في السكك والمحال حتى صاروا إلى منازلهم مجروحين لما بهم . قال : وأتي زيد بن علي بالطبيب[5] لينزع السهم من جبهته ، فلما نزع السهم فلم يلبث أن شهق شهقة فارق الدنيا ـ رضي الله عنه ـ! فكفن في ثيابه واحتمل في جوف الليل حتى دفن في السبخة ولم يعلم أحد في ذلك الوقت بموضع قبره .

قال : وأصبح يوسف بن عمر من الغد وقد بلغه أن زيد بن علي قد مات وأنه دفن في جوف الليل فلم يعلم بموضعه ، فأقبل إليه رجل من بطانته فخبره أن غلاماً لزيد[6] بن علي مجروح في بعض الدور ، فقال يوسف بن عمر : عليَّ به ! فأتي بذلك الغلام جريحاً فقال يوسف بن عمر : لمن أنت ؟ فقال لزيد بن علي ، فقال : هل لك علم بزيد بن علي أين دفن ؟ فقال : لا أيها الأمير ! فقال : ويلك ! إنك إن

---

(١) في الطبري : زياد النهدي .

(٢) كذا وفي الطبري أن زيد بن علي قتل من أهل الشام نحو سبعين رجلاً .

(٣) الطبري : أصاب جانب جبهته اليسرى ، فتشبث في الدماغ .

(٤) في الطبري : أدخل بيت حران بن كريمة (مولى لبعض العرب في سكة البريد في دور أرحب وشاكر) .

(٥) يقال له شقير مولى لبني رؤاس .

(٦) بالأصل « ليزيد » خطأ .

دللتني عليه نجوت وإلا قتلتك وأحرقتك بالنار ، فاختر من ذلك ما أحببت ! قال : فكأن الغلام جزع من القتل والحرق فقال : نعم هو مدفون بالسبخة في موضع كذا وكذا ، قال : فأرسل يوسف بن عمر إلى ذلك الموضع فنبش ذلك الموضع عن زيد بن علي ، فأخذ وصلب بالكناس ، إلى جنبه نصر بن خزيمة العبسي ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة وزياد بن عبد الله الفهري[1] . قال: وبلغ ذلك كميت بن زيد الأسدي الشاعر وهو يومئذ في منزله ، فبكى بكاءً شديداً ، ثم أنشد يقول :[2]

أتاني ابن النبي فلم أجبه   أيا لهبي على القلب الفروقِ
حذار منية لا بدَّ منها   وما دون المنية من طريق

قال : ثم أقبل يوسف بن عمر من الحيرة حتى دخل الكوفة فلم يكذب أن صار إلى المسجد الأعظم فدخل وصعد المنبر ، فشتم علي بن أبي طالب وولده رضي الله عنهم أجمعين شتماً قبيحاً ، ثم شتم أهل الكوفة وأوقع بهم ، وقال[3] : أبشروا يا أهل الكوفة بالذل والصغار ! فوالله لأحرمنكم العطاء ولأفعلن بكم ولأصنعن ! قال : فتهددهم بأشد التهدد وتوعدهم بأعظم الوعيد ثم نزل عن المنبر وأمرهم بتفتيش الدور ، فكان لا يؤتى بأسير ولا جريح إلا قتله وأحرقه بالنار . ثم أرسل إلى امرأة زيد بن علي فأتي بها ، فلما دخلت عليه قال لها : يا عدوة الله ! تزوجت زيد بن علي ؟ فقالت : نعم والله تزوجت بزيد بن علي ! ولو خطب إليك لزوجته ابنتك ، قال : فغضب يوسف بن عمر أخزاه الله ثم قال : خرقوا عليها الثياب ، وعليَّ بالسياط ! فقالت امرأة زيد : ويلك يا عدو الله ! إني امرأة ليس يجب علي أن تخرق ثيابي ، فقال : دعوا كلامها شقوا ثيابها ! وأخذتها السياط من كل ناحية ، فقالت : ويلك ! إني إحدى خالاتك ، إني امرأة من الأزد وأمك امرأة من الأزد ؛ فقال يوسف بن عمر : لعن الله من أنت خالته ! فقالت : نعم ولعن الله من هي أقل نسباً منك أمك ! فقال يوسف بن عمر للجلادين : اقتلوها ! فجعل القوم يضربونها أشد ضرب يكون وهي تقول : ويلك ! ما أنت حر ، ما أنت من العرب ، والقتل بالسيف يابن عبد آل ثمود! فلم يزل كذلك حتى ماتت ـ رحمها الله ـ! ثم أمر بها فألقيت على قارعة الطريق ، فجاء إليها قوم من بني عمها في جوف الليل فحملت ودفنت .

---

(١) في الطبري : زياد النهدي .

(٢) البيتان في شرح الهاشميات ص ٢٠٤ باختلاف بعض الألفاظ .

(٣) انظر الطبري ١٩١/٧ .

قال : ثم أرسل عدو الله لعنه الله إلى رجل من خيار الأزد يقال له القاسم بن عمرو . فقال : أنت الذي دخلت في تزويج زيد بن علي فزوجته ؟ قال : نعم ، كان ذلك، وليس عن مثل زيد بن علي رغبة وهو من ولد فاطمة وعلي . قال : جردوه ! فجردوه وأخذته السياط ، قال : فجعل الشيخ يقول : يا يوسف بن عمر القصاص ! ماذا تكون حجتك غداً بين يدي الله وقد قتلت نفساً بغير حق ! قال : فلم يزل الأزدي يقول ذلك حتى فاضت نفسه ـ رحمة الله عليه ـ! قال: فقتل يوسف بن عمر من شيعة آل محمد خلقاً كثيراً ـ رحمة الله عليهم ـ !

قال : ثم كتب إلى هشام بن عبد الملك كتاباً يحرضه فيه على خراب الكوفة وقتل أهلها واستئصالهم عن جديد الأرض . فكتب إليه هشام : أما بعد يـابـن عمر فإن الأمر ليس كما ذكرت في أهل الكوفة ، وإن أهل الكوفة لنا سامعون مطيعون ، ولولا قعودهم عن زيد بن علي وخذلانهم إياه لما قدرت عليه ، فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فأطلقهم وأحسن إليهم ومنّ لهم بإعطائهم وزد لهم في جوائزهم وأرزاقهم، ولا تقصر لهم في شيء مما كتبت به إليك ـ والسلام ـ . قال: فلما ورد كتاب هشام علي يوسف بن عمر قرأه ، ونادى في الناس فجمعهم إلى المسجد ، ثم قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما والله يا أهل الكوفة ! ولو كان الأمر إليّ ما أمرت لكم بعطاء ولا بروث أبداً ما دامت لي ولاية بالعراق ، ولكن الأمر من أمير المؤمنين هشام ، وقد أمر لكم بأرزاقكم ، فكونوا عليّ في غد لتأخذوها .

قال : وبلغ ذلك جعفر بن محمد رضي الله عنه ما فعل به زيد بن علي رضي الله عنهما بالكوفة ، فاستعبر باكياً ثم قال ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾[1] . ثم قال جعفر : ذهب والله عمي زيد وأصحابه على ما ذهب عليه جده علي والحسن والحسين عليهم السلام ، شهداء من أهل الجنة ، التابع لهم بإحسان مؤمن ، والشاك فيهم ضالّ ، والراد عليهم كافر ، وإنهم ليحشرون يوم القيامة أحسن الخلق زينة وهيئة ولباساً ، وفي أيديهم كتب لهم مثال الطوامير ، فيقول الخلائق : من هؤلاء؟ فتقول الملائكة : هؤلاء خلف الخلف ورعاة الحق ، ولا يزالون كذلك حتى ينتهى بهم إلى الفردوس الأعلى ، فويل لقاتلهم من جبار الأرض والسماء .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

قال موسى بن حبيب العجلي : حدثتني نخلة بنت عبد الله وهي أم ولد عمر وكانت من العابدات الصالحات قالت : رأيت بعد أن قتل زيد بن علي وصلب ثلاثة أيام فيما يرى النائم كأن نسوة من السماء نزلن عليهن ثياب حسنة ، حتى أحدقن بجذع زيد بن علي ، ثم جعلن يندبنه وينحن عليه كما تنوح النساء في المأتم . قالت : ونظرت إلى امرأة قد أقبلت وعليها ثوب لها أخضر يلمع منه نور ساطع ، حتى وقفت قريباً من أولئك النساء ثم رفعت رأسها وقالت : يا زيد قتلوك ! يا زيد صلبوك ! يا زيد سلبوك ! يا زيد إنهم لن تنالهم شفاعة جدك عليه الصلاة والسلام غداً في القيامة . قالت نخلة بنت عبد الله : فقلت لإحدى النسوة تلك : من هذه المرأة الوسيمة من النساء ؟ فقالت : هذه فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) تسليماً كثيراً .

ثم نذكر خبر يحيى بن زيد بن علي بعد ذلك وهربه من يوسف بن عمر إلى جوزجان ومقتله بها رضي الله عنه

قال : وخرج يحيى بن زيد من الكوفة هارباً بعد قتل أبيه بشهر أو أقل من ذلك[1] ومعه جماعة من شيعته حتى صاروا إلى نينوى ، فانكب على قبر جده الحسين بن علي رضي الله عنهما وجعل يشكو ما نزل به وبأبيه زيد بن علي . ثم خرج من نينوى حتى صار إلى المدائن ، وبها يومئذ عامل ليوسف بن عمر يقال له البختري المختار المحاريُّ[2] . قال : فنزل يحيى بن زيد [بن][3] علي على قوم من اليهود ، وإذا كتاب يوسف بن عمر قد ورد على البختري أن اطلب يحيى بن زيد بن علي ، فقد بلغني أنه قد صار إلى المدائن وقد نزل على قوم من اليهود وقد استجار بهم . قال : فطلبه البختري المختار فأصابه بالمدائن ، فقال له : قم فقد جاء كتاب يوسف بن عمر في طلبك والحق أي بلد شئت ! وهذه عشرة آلاف درهم لك نفقة ! قال : فخرج يحيى بن زيد من المدائن فلم يزل يسير ومعه نفر من شيعته حتى صاروا إلى الري ومن الري إلى قومس ، فنزل على رجل من أهلها يقال له

(١) بعد مقتل أبيه توارى ليلة عند رجل من بني أسد ثم أجاره عبد الملك بن بشر بن مروان لقرابته به وبقي متوارياً عنده إلى أن كف الطلب عنه فخرج في نفر من الزيدية إلى خراسان (الطبري ١٨٩/٧ ابن الأثير ٣٨٣/٣) .

(٢) كذا ، ولم نعثر عليه .

(٣) سقطت من الأصل .

زياد بن أبي زياد القشيري ، ثم رحل منها حتى صار إلى سرخس ، فنزل على زيد ابن أخي تميم بن عمرو ستة أشهر ، ثم رحل من سرخس حتى صار إلى بلخ فنزل على الحريش بن[1] عمرو بن داود الشيباني[2] ، ثم رحل منها حتى نزل إلى مرو وبها يومئذ نصر بن سيار الليثي ، فدخل يحيى بن زيد إلى مرو ليلاً فنزل دار أبي حفصة رجل من بني قيس بن ثعلبة . قال : وإذا كتاب يوسف بن عمر قد ورد على البريد إلى نصر بن سيار يعلمه أن يحيى بن زيد قد صار إلى خراسان فاطلبه ، واعلم أنه فتى شاب ، أسمر ، أنزع ، مسنون الوجه حين استوفت لحيته . قال : فجعل نصر بن سيار يطلب هذه الصفة بمدينة مرو ، وبلغ الخبر يحيى بن زيد فقال لمن معه من شيعته : تفرقوا من قبل أن تؤخذوا وذروني والقوم ! قال : فتفرق القوم عنه . قال : واتصل الخبر بنصر بن سيار أن هذه الصفة بعينها في دار أبي حفصة ، قال : فدعا نصر بن سيار برجل من أصحابه يقال له عصمة بن عبد الله الأسدي فأمره أن يركب إلى دار أبي حفصة في طلب يحيى بن زيد ، فأقبلت الخيل حتى أحدقت بالدار وهي دار سكان ، فجعل يخرج من الدار الواحد بعد الواحد ، وكلما يخرج رجل ينظر إليه عصمة بن عبد الله فلا يرى الصفة ؛ فلم يزل كذلك حتى خرج عليه يحيى بن زيد من الدار وعليه دراعة صوف وقلنسوة مثل ملابس المكاريين وقد حمل أكافاً على عاتقه ، قال : فعرفه عصمة بن عبد الله الأسدي فضرب الأكاف بسوطه ، ثم قال : يا صاحب الأكاف ! إني قد عرفتك فامض عن الدار وعن البلد قبل أن تؤخذ . قال : فخرج يحيى بن زيد من ساعته هارباً حتى صار إلى الجوزجان ، فلما هم أن يدخلها لقيه رجل من أهلها فقال له : يا هذا أظنك يحيى بن زيد ! فقال له يحيى بن زيد : وكيف علمت أني يحيى بن زيد ؟ فقال : إنه قد ورد الكتاب الساعة برمتك وصفتك من مدينة مرو ، قال : فعلم يحيى بن زيد أنه مأخوذ ، فرجع عن الجوزجان ولم يدخلها حتى صار إلى مدينة بلخ ثانية فدخلها ليلاً ، ونزل على رجل من شيعته يقال له يونس بن سليم . وقال : وأمير بلخ يومئذ رجل يقال له عقيل بن معقل الليثي[3] وهو ابن عم نصر بن سيار ، فاتصل به الخبر أن يحيى بن زيد معه في البلد ، فنادى في الناس فجمعهم إلى المسجد الأعظم ، ثم جعل يفتش الدور ويطلب يحيى بن زيد ، فلا يبلغه أن رجلاً ببلخ يعرف بمحبة أهل البيت إلا

---

(١) عن الطبري ٢٢٨/٧ وبالأصل : « أبي الحريش » .

(٢) بقي ببلخ مقيماً حتى هلك هشام بن عبد الملك ، كما في الطبري .

(٣) في الطبري ٢٢٨/٧ العجلي .

أُتي به فضربه بالسياط . قال : وأقبل فتى يقال له قريش بن الحريش[1] فنظر إلى أبيه يضرب بالسياط ، فتقدم إلى عقيل بن معقل الليثي فقال : أيها الأمير ! لا تقتل أبي بالضرب فلو كان يحيى بن زيد ممن يمكن أن يكون في عين أحد من الناس ثم كان في عين أبي لما رجع جفنه عنه ، ولكني أنا أرشدك إلى يحيى بن زيد وهو في دار يونس بن سليم مولى أبي بكرة في غرفة ومعه عشيرته . قال : فأرسل عقيل بن معقل الليثي إلى دار يونس بن سليم . فاستخرج يحيى بن زيد من عرفة الدار ثم أتي به إلى عقيل بن معقل الليثي ، فلما دخل عليه دعا له بالحديد ثم كبله وغل يمينه إلى عنقه ، ثم شدت قيوده بالسلاسل بعضها إلى بعض ، وحمل إلى مدينة مرو إلى نصر بن سيار الليثي ، فأنشأ أبو نميلة صالح الأبار[2] مولى بني عبس يقول :

ألم تر ليثاً ما الذي ختمت به ... لها الويل في سلطانها المتزايلِ
بنفسي وأمي فاطمي نقضوا ... زمان عمي من أمة وتخاذلِ

قال : ثم إن نصر بن سيار أمر بحبس يحيى بن زيد فحبس في سجن مرو ، وكتب إلى يوسف بن عمر الثقفي يخبره بذلك ، وكتب يوسف بن [عمر إلى][3] هشام بن عبد الملك ، وإذا هشام في السياق ، فما لبث يحيى بن زيد في السجن أياماً قلائل حتى توفي هشام ، فكان ملكه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وتوفي بموضع يقال له الرصافة لست ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو يومئذ ابن أحد وستين سنة[4] .

قال : وصار الأمر إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فبايعه الناس وسلموا إليه

---

(١) عن الطبري ٢٢٨/٧ وابن الأثير ٣٩٨/٣ وبالأصل : أبي الحريش .
وفي الطبري أن نصر بن سيار أخبر أن يحيى بن زيد في منزل الحريش بن عمرو ، وقد أخذ الحريش وطولب أن يدفع إليهم يحيى فأنكر معرفته به أو وجوده عنده ، فضربه عقيل ستمئة سوط ، فلما رأى قريش بن الحريش أتى عقيلاً وقال : لا تقتل أبي وأنا أدلك عليه . فأرسل معه فدله عليه وهو في بيت في جوف بيت ، فأتى به نصر بن سيار . فحبسه .

(٢) عن الطبري ١٩٦/٧ وبالأصل أبو ثميلة صالح الأثار .

(٣) سقطت من الأصل .

(٤) اختلفوا في مدة ولايته ووقت وفاته ومقدار عمره انظر في ذلك الطبري ٢٨٣/٨ مروج الذهب ٢٤٩/٣ العقد الفريد ٤٤٥/٤ البداية والنهاية ٣٥١/٩ البدء والتاريخ ٥١/٦ تاريخ الخلفاء لابن يزيد ص ٣٣ ، مآثر الانافة ١٥١/١ تاريخ أبي الفداء ٢٠٤/١ التنبيه والإشراف ص ٣٢٢ تاريخ خليفة ص ٣٥٦ الفخري ص ١٣٢ ابن الأثير ٣٩١/٣ .

الخلافة والحلة والقضيب والخاتم ، فأنشأ الوليد بن يزيد في ذلك[1] :

طال ليلي وبت أسقى المداما ... إذ أتاني البريد ينعي هشاما
وأتاني بحلة وقضيب ... وأتاني بخاتم ثم قاما
فنعى لي هشاماً نعياً وحيّا ... رافع الصوت مشرقاً بساما
فجعلت ألوي من بعد فقدي ... أفضل الناس ناشئاً وغلاما
ذاك ابني وذاك قرم قريش ... خير قرم وخيرهم قداما

وهذه آخر مملكة هشام بن عبد الملك بن مروان ـ والله أعلم ـ .

ذكر إمارة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

قال : فلما صار الأمر إلى الوليد بن يزيد أقر محمد بن مروان[2] على بلاد أرمينية وأذربيجان ، وأقر يوسف بن عمر على العراقين ، وأقر نصر بن سيار على خراسان .

قال : ثم كتب الوليد بن يزيد إلى نصر بن سيار يأمره أن يفك يحيى بن زيد من قيوده وحديده . وأن يكرمه بغاية الكرامة ، ويخلي سبيله يلتحق بأي بلد شاء . قال : فلما ورد الكتاب على نصر بن سيار أمر بيحيى بن زيد فأخرج من سجنه وخلع عليه وأكرمه ووصله بعشرة آلاف درهم ، ثم قال له : إن أمير المؤمنين الوليد بن يزيد يأمرك أن تنحدر إلى العراق فتكون بها إلى أن يأتيك أمره . فقال يحيى بن زيد : أفعل ذلك ولا أعصى لك ولا أمير المؤمنين أمراً .

قال : ثم خرج يحيى بن زيد من مدينة مرو ومعه نفر من شيعته وهم قريبون من مائة رجل ، فلم يسر حتى إذا صار على فرسخين من مدينة نيسابور ، وبلغ ذلك عمرو بن زرارة فقال لأصحابه : اعلموا أن يحيى بن زيد قد هرب من سجن مرو وأفلت من نصر بن سيار ولا يدري ما يكون منه ، ولكن تعبأوا واخرجوا بنا إليه[3] ! قال : ثم خرج إليه عمرو بن زرارة من مدينة نيسابور في عشرين ألفاً من أصحابه

(١) الأبيات في الأغاني ١٦/٧ ومروج الذهب ٢٥٩/٣ وابن الأثير ٣٩٧/٣ باختلاف الروي والقافية .
(٢) كذا ، والصواب : مروان بن محمد ، وقد مرّ .
(٣) في الطبري ٢٢٩/٧ أن يحيى بن زيد أقبل في سبعين رجلاً إلى عمرو بن زرارة ومرّ به تجار فأخذ دوابهم وقال علينا أثمانها . فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر بن سيار . فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس وإلى الحسن بن زيد أن يمضيا إلى عمرو بن زرارة ، فهو عليهم ، ثم ينصبوا ليحيى بن زيد فيقاتلوه .

وخاصة أهل البلد . قال : ونظر يحيى بن زيد إلى ذلك الخلق قد وافوه . فوثب إلى درعه فأفرغه عليه ثم قال لأصحابه[1] الذين معه : كونوا رجالاً وحاموا عن أنفسكم في هذا اليوم وإلا قتلتم ! فتقدم يحيى بن زيد حتى وقف أمام أصحابه ثم قال : يا هؤلاء ! لماذا خرجتم إليّ ، فوالله ما أردتكم ، وإنما أنا رجل مجتاز فخلوا لي الطريق أجوز ! قال : فلم يكلمه أحد منهم ورمي بالنشاب ، فرجع إلى ورائه وجعلت السهام تأخذ أصحابه حتى قتل منهم جماعة . قال : ويحيى بن زيد يومئذ على فرس له قد حمله عليه نصر بن سيار ، وعليه جبة صوف ، وهو مقلد بسيف حنفي ، فقال لأصحابه : يا هؤلاء أنتم تعلمون أني لم أرد هؤلاء القوم ، وإنما أنا ماض إلى العراق كما أُمرت ، وهؤلاء القوم قد بغوا عليّ كما ترون ، وهم عازمون على قتلي وقتلكم ، وأنا مانع عن نفسي فامنعوا عن أنفسكم ! قال فقال له أصحابه : يابن رسول الله ! إنهم لو كانوا في أضعاف ما هم فيه لما أمكناهم من أنفسنا ، ولكن ناشد القوم واعذر إليهم . فإن هم ارتدعوا ورجعوا عنا وإلا قاتلناهم واستعنا الله عليهم . قال : فعندها ناشد يحيى بن زيد وقال : يا هؤلاء اتقوا الله وانصرفوا عنا ، فإنا لن نخرج من مدينة مرو إلا بإذن الأمير نصر بن سيار وأمير المؤمنين الوليد بن يزيد[2] ، وهو الذي أرسل إلى عامله فأطلقني ، فإن لم تصدقوا ما أقول فاكتبوا إلى صاحبكم نصر بن سيار واسألوه عن ذلك ، وأنا نازل على باب مدينتكم هذه إلى أن يرد عليكم الكتاب ! قال : فلم يلتفت القوم إلى كلام يحيى بن زيد ثم حملوا عليه وعلى أصحابه ، فاقتتل القوم ساعة وحمل أبو الفضل وهو أخو يحيى بن زيد من الرضاعة فقاتل قتالاً شديداً حتى أتى إلى عمرو بن زرارة أمير نيسابور فلم يكذب أن ضربه ضربة جندله صريعاً ، ووقعت الهزيمة على أهل نيسابور ، فلم يقف أولهم على آخرهم فولوا مدبرين ، وأخذهم السيف من كل جانب إلى أن قتل منهم خلق عظيم ، ودخل الباقون إلى مدينة نيسابور مغلولين فأنشأ بعضهم يقول :

ألم تر أهل نيسابور لما ... لقوا الأبطال لم يغنوا قتيلا

لقوا مائة وهم عشرون ألفاً ... فما صبروا ولا منعوا قتيلا

قال : ثم أقبل يحيى بن زيد على أصحابه فقال : إنا كنا قد عزمنا على المسير

---

(١) كانوا سبعين رجلاً كما في الطبري وابن الأثير .

(٢) بالأصل : « نصر بن سيار » خطأ .

إلى العراق ، وكان من أمر هؤلاء ما كان ، وهذا حديث عظيم قد أتيناه ولم نجد بداً من ذلك ، وليست لنا العراق بعد هذا اليوم بدار ، فارجعوا بنا إلى خراسان ، فإن متنا متنا كراماً .

قال : فعزم القوم على ذلك ثم ساروا يريدون الجوزجان ، وبلغ ذلك نصر بن سيار فاغتم غماً شديداً ثم قال : هذا من فعال أمير المؤمنين وجنايته علينا وعلى نفسه ، وأما أنا فقد كنت حازم الرأي على أن لا يخرج يحيى بن زيد من سجني أبداً إلا على قفاه . قال : ثم جعل نصر بن سيار يرثي عمرو بن زرارة ومن قتل معه في ذلك اليوم وأنشأ يقول :

ألمّوا[1] بالقبور فودعوها | وأقر قبورهم عني السلاما
ولو سمع السلام لرد عمرو | ولكن لا يطيقون الكلاما
هم صدعوا الفؤاد وأوجعتني | مصائبهم[2] غداة لقوا الحماما

قال : ثم خرج نصر بن سيار يريد يحيى بن زيد وعلى مقدمته خليفة له يقال له سالم[3] بن أحوز المازني في ثلاثة آلاف ونصر بن سيار في سبعة آلاف من ورائه حتى وافوا يحيى بن زيد قد التأم إليه سبعمائة فارس من أهل البصائر والنجدة والشجاعة .
قال : ونزل يحيى بن زيد بقرية من قرى جوزجان يقال لها أرغونة[4] ، ونزل سالم بن أحوز في عشرة آلاف ، ودنا القوم من القوم ، وذلك في أول النهار ، وجعل يحيى بن زيد يحمل عليهم بسيفه ويطردهم بين يديه وهو يقول :

أنا ابن أمي وأبي | أنا ابن فاطمة وعلي

قال : واشتد القتال بين الفريقين إلى أن حانت الظهر ، فصاح يحيى بن زيد : يا هؤلاء ! هذا وقت الصلاة فأمهلونا حتى نصلي وتصلون أيضاً إن كنتم من أهل الصلاة ! قال فقال سالم بن أحوز : صدق الرجل فذروه فليصل وتصلون أنتم أيضاً .
قال : فدخل يحيى بن زيد وأصحابه إلى حديقة عظيمة وفيها نهر يجري فتوضأوا

---

(١) بالأصل « الما » .
(٢) بالأصل « مصابهم » .
(٣) عن الطبري ومروج الذهب ، وبالأصل « مسلم » وفي ابن الأثير : « سالم » وسيرد بعد في الخبر « سالم » كما في ابن الأثير .
(٤) في مروج الذهب ٢٥٨/٣ أرعونة .

وصلوا . ثم استووا على ظهور خيولهم وخرجوا إلى القوم حتى صافوهم ، وتقدم رجل من أصحاب يحيى بن زيد حتى وقف أمام أصحابه وأنشأ يقول :

أيها المجلب الواجدُ علينا ... كيف ترجو النجاة يوم الحسابِ
أعلى أحمد النبي اعتقدتم ... خيَّبته الرؤوس والأذنابِ

قال : ثم حمل قائل هذه الأبيات بين يدي يحيى بن زيد ، فلم يزل يقاتل حتى قتل منهم جماعة ثم رجع ، فقال : هل وفيت يابن رسول الله ؟ فقال يحيى : نعم وزاد على الوفاء . قال : ثم حمل يحيى بن زيد في جميع أصحابه على القوم ، فلم يزل يقاتل حتى قتل منهم مقتلة عظيمة ، وجعلت السهام تأخذه من كل ناحية حتى أثخن بالجراحات ، ورق أصحابه حتى بقي في خمسين رجلاً ، فالتفت إليهم يحيى بن زيد فقال : أيها الناس ! أنتم في حل من بيعتي فمن شاء أن يثبت معي فليثبت [ومن شاء أن يرجع -] إلى هؤلاء القوم فليفعل ، وأما أنا فلست بارحاً من هذا الوقت حتى يقضي الله من أمره ما يشاء . قال فقال له أصحابه : لا والله يابن رسول الله لا فارقناك أبداً أو لا يبقى منا أحد ، فقال يحيى بن زيد : جزاكم الله خيراً من قوم فلقد قاتلتم ووفيتم ! ثم حمل وحملوا عليهم معه ، فلم يزل يقاتل هو وأصحابه حتى قتلوا بأجمعهم وبقي وحده ، فجعل يحمل عليهم والسهام تأخذه من كل ناحية حتى سقط إلى الأرض[1] ، وأقبل سالم بن أحوز حتى وقف عليه ثم قال لأصحابه : انزلوا فخذوا رأسه ! قال : فنزل إليه سورة بن محمد بن عزيز الكندي فاحتز رأسه - رحمة الله عليه - ! فأنشأ عبد الله بن عرين العبدي يقول :

قتلوا مسلماً على غير جرم ... لا ينّجوا من فتنة الدجالِ
يوم ولوا شتى عباديد عنه ... كنعام هربن من أحبالِ
وأبت نفسه الفرار حفاظاً ... حين ساروا لقتله الضلال

ثم سلبوا يحيى ما كان عليه من درعه وثيابه وسلاحه وتركوه عرياناً بصحراء لجوزجان . قال : وساروا برأسه إلى نصر بن سيار ، فوجه نصر بالرأس إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وخبره في كتابه بما كان من أمره . ثم أرسل نصر بن سيار إلى موضع يحيى بن زيد الذي هو فيه مدفون فاستخرجوه ، واستخرجوا أخاه أبا

---

(١) أصابه سهم في صدغه ، فقتله كما في مروج الذهب .
(٢) عن الطبري وبالأصل « عرين العبدي » .

الفضل فصلبا جميعاً بالجوزجان على قارعة الطريق ، أحدهما حذاء الآخر . فلم يزالا كذلك إلى أيام أبي مسلم وخروجه بخراسان ، وهو الذي أمر بهما فأنزلا عن خشبتيهما فكفنا وحنطا وصلّي عليهما ودفنا بأرض الجوزجان .

ثم كتب الوليد إلى عامله يوسف بن عمر بالعراق وأمره أن يحط زيد عن خشبته ، وأن يحط جميع من كان معه من أصحابه المصلبين هنالك ، وأن يحرقهم بالنار والنفط حتى يصيروا رماداً ، ثم وضعوا في قواصر وذروا في الفرات ، فأنشأ رجل من أهل خراسان يقول :

تقطعت الأسباب بيني وبينكم بني عبد شمس أو تلاقون مثلما
زماناً ابن سيار يلم أخي الخنا وداهية دهياء تجتلب الدما
أصاب بلا دخل إماماً مهذباً بريا من الفحشاء ليثاً مصمما

قال : فما هو أن قتل يحيى بن زيد رحمة الله عليهما حتى وقع الاختلاف بالشام بين الوليد بن يزيد بن عبد الملك وبين يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فقتل الوليد وبتر الله عمره .

ذكر سبب الاختلاف وسبب إمارته

قال : وكان سبب إمارته أن أباه يزيد بن عبد الملك استخلفه بعد هشام بن عبد الملك ، فلما انقضى أمر هشام صار الأمر إليه ، وكان هشام ولاه الحج سنة ست عشرة[1] ومائة فحمل معه كلاباً في صناديق وحمل معه قبة حمراء ، وأراد أن ينصبها على الكعبة ، فخوّفه أصحابه وقالوا : لا نأمن الناس عليك ولا علينا معك ! فلم يحركها ، وظهر للناس منه تهاون في الدين واستخفاف حتى اتهموه بالزندقة حتى بلغ ذلك هشاماً ، فطمع في خلعه والبيعة لابنه مسلمة بن هشام . ثم أتاه وقال : أجعلها لك من بعده[2] .

وتمادى الوليد في شرب الخمر وطلب اللذات فأفرط ، حتى قيل إنه فتح المصحف في وقت ، فخرج عليه ﴿ **واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم**

(١) بالأصل « ستة عشر » .

(٢) في الطبري ٧/٢٠٩ طمع هشام في خلعه والبيعة لابنه مسلمة بن هشام ، فأراده أن يخلعها ويبايع لمسلمة فأبى ، فقال له : أجلعها له من بعدك ، فأبى ، فتنكر له هشام .

ويسقى من ماء صديد ﴾[1] فنصب المصحف ورماه حتى خرقه ، وقال في ذلك[2] :

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فقال له هشام : ويحك يا وليد ! والله لا أدري على الإسلام أنت أم لا ! ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاش فيه ، فكتب إليه الوليد هذا[3] :

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجة ... بالسخن أحياناً وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة وكان يكنى أبا شاكر ، وقال له : يعيرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة فالزم الأدب واحضر الجماعة ، وولاه الموسم سنة تسع عشرة[4] ومائة ، فأظهر النسك والوقار واللين ، وقسم بمكة والمدينة أموالاً ؛ فقال مولى لأهل المدينة هذه الأبيات[5] :

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكرِ
الواهب الجرد بأرسانها ... ليس بزنديق ولا كافرِ

يعرض[6] بالوليد بن يزيد ، وأم مسلمة : أم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاص . وكان الوليد شديد البطش طويل أصابع الرجلين ، حتى كان ينزع سكة حديد بخيط يشد في رجله على الدابة ويثب ولا يمس الدابة .

وكان هشام طرد الوليد إلى مفازة[7] وقطع منه الأرزاق والرسوم ليهلكه ، وبقي

---

(١) سورة إبراهيم الآيتان ١٥ و ١٦ .

(٢) البيتان في الأغاني ٤٩/٧ ومروج الذهب ٢٦٣/٣ وابن الأثير ٤١١/٣ وانظر نهاية الأرب ٤٨٤/٢١ والفخري ص ١٣٤ .

(٣) البيتان في الطبري ٢١٠/٧ وابن الأثير ٣٩٤/٣ والأغاني ٣/٧ نسبهما إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى ـ مؤدبه ونحله إياهما .

(٤) في الأغاني : سبع عشرة .

(٥) البيتان في الطبري ٢١٠/٧ وابن الأثير ٣٩٤/٣ والأغاني ٤/٧ .

(٦) عن الطبري ، وبالأصل « يعترض » .

(٧) في ابن الأثير : « نزل بالأزرق على ماء له » . وفي الطبري : « بين أرض بلقين وفزارة ، على ماء يقال له الأغدف » وفي الأغاني « الأبرق » .

بها إلى أن مات هشام ، فكان يمشي مع أبي الزبير المنذر بن [أبي -][1] عمرو في تلك المفازة ويشكو هشاماً إليه ، إذ أقبل رجلان[2] على البريد فقال الوليد : هؤلاء رسل هشام نسأل الله السلامة ! فلما دنوا منه سلما عليه بالخلافة ، فغشي عليه فرحاً ثم قال لهما : أمات هشام ؟ قالا : نعم ، قال : فممن الكتاب ؟ قالا : من مولاك سالم بن عبد الرحمن صاحب الرسائل . وولي الوليد الأمر وزاد في عطيات أهل الشام مع زيادتهم عشراً ، وأجرى على زمنى أهل الشام مع زيادتهم عشراً ، وأجرى على زمنى[3] أهل الشام وعميانهم ونسائهم ، وأمر لكل إنسان منهم بخادم وقائد ، وكان يطعم كل من وفد إليه ، ويطعم من صدر من الحج وينزله بمنزله يقال له زيزاء[4] ثلاثة أيام ويعلف دوابهم ، ولم يقل لشيء سئل عنه لا ، وقال : ما تعودت غير نعم . وحين ولي أقر نصر بن سيار على خراسان كلها ، وأنفذ إلى الوليد برابط وطنابير وأبارق الذهب والفضة وخمسمائة مملوك كلهم يضربون ويلهون[5]

ثم بعد ذلك وقع الخلاف بينه وبين يزيد بن الوليد لخلاعته ومجانته واستخفافه بالنساك وتماديه في الخسارة والضلالة ومنادمته العشاق حتى رُوي عنه أنه قال[6] :

تلقى بالنبوة هاشمي ... بلا وحي أتاه ولا كتابِ
فقل لله يمنعني طعامي ... وقل لله يمنعني شرابي

فما أتى عليه إلا أيام حتى جمع عليه يزيد[7] بن الوليد بن عبد الملك أهل

---

(١) زيادة عن الطبري .
(٢) أحدهما مولى لأبي محمد السفياني ، والآخر جردية .
(٣) كذا بالأصل مكررة .
(٤) زيزياء من قرى البلقاء ، قرية كبيرة يطؤها الحجاج ويقام بها لهم سوق .
(٥) انظر الطبري ٧/٢٢٤ وفي ذلك يقول بعض شعرائهم :

فأبشر يا أمين اللـ ... ـه أبشر بتباشير
بإبل يحمل المال ... عليها كالأنابير
بغال تحمل الخمر ... حقائبها طنابير
ودل البربريات ... بصوت البم والزير
وقرع الدف أحياناً ... ونفخ بالزمامير
فهذا لك في الدنيا ... وفي الجنة تحبير

(٦) البيتان في مروج الذهب ٣/٢٦٣ .
(٧) بالأصل : « زيد » خطأ .

الشام[1] ، فهرب الوليد إلى دمشق ، ورُوي أنه دخل القصر فأحاطوا به ، فجلس الوليد وأخذ مصحفاً وقال : يومٌ كيوم عثمان ، فعلوا الحائط ، وكان أول من علا يزيد بن عنبسة السكسكي فأخذ بيد الوليد وهو يريد أن يحبسه ويؤامر فيه ، فنزل من الحائط عشرة فيهم منصور بن جمهور وعبد السلام اللخمي والسري بن زياد بن أبي كبشة وغيرهم ، فضربه عبد السلام على رأسه والسري على وجهه ، واحتز أبو علاقة رأسه . وقدم به على يزيد بن الوليد وقال : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الفاسق الوليد ! وكان يزيد يتغدى فسجد لله تعالى ومن كان معه فرحاً ، كما سجد أبو العباس السفاح حين هلك مروان بن محمد . وكان ملكه سنة وشهرين ، وقتل يوم الأربعاء لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة وهو ابن خمس وأربعين سنة[2] .

وصار الأمر إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك وهو الملقب بالناقص[3] ، فأقر مروان بن محمد على أرمينية وأذربيجان ، وأقر نصر بن سيار على خراسان . ثم لم يلبث يزيد بن الوليد حتى مات ، وكان ملكه ستة أشهر ويومين ، وتوفي بدمشق يوم

---

(١) انظر في مقتله ابن الأثير ٤٠٤/٣ الإمامة والسياسة ١٥٣/٢ (من تحقيقنا) . ولم يكن مقتله بسبب سلوكه الشخصي وانحرافه الديني وانغماسه باللهو والمجون ، فحسب بل تعدى ذلك إلى اعتبار الحركة ضده أول حركة تمرد من خليفة أموي ، قادته اليمانية ، وهم الجناح الأساسي في النظام الأموي . وتعود ظروف هذا التحرك إلى :

ـ انحراف الخلفاء الأمويين عن اليمانية منذ يزيد بن معاوية وتقريبهم القيسية .

ـ قتل الوليد لخالد بن عبد الله القسري ، زعيمهم ، والأكثر طاعة وولاء للأمويين ، وفي قتله قال الوليد شعراً يحرض على اليمانية (وقيل لغيره) ومما قاله :

وطئنا الأشعريين بعز قيس ... فيا لك وطأة لن تستقالا
وهذا خالد فينا أسير ... ألا منعوه إن كانوا رجالا
عظيمهم وسيدهم قديماً ... جعلنا المخزيات له ظلالا
فلو كانت قبائل ذات عز ... لما ذهبت صنائعه ضلالا

فبعد سماعهم ذلك عظم عليهم وازدادوا حنقاً عليه .

(٢) في يوم قتله ومدة خلافته ومقدار عمره خلاف .
انظر ابن الأثير ٤٠٤/٣ الإمامة والسياسة ١٥٥/٢ الطبري ٤٦/٩ مروج الذهب ٢٥٨/٣ تاريخ اليعقوبي ٣٣٤/٢ مآثر الانافة ١٥٧/١ العقد الفريد ٤٥٢/٤ المحبر ص ٣١ تاريخ خليفة ص ٣٦٣ التنبيه والأشراف ص ٣٣٤ .

(٣) لم يكن يزيد بن الوليد ناقصاً في جسمه ولا في عقله ، وإنما نقص بعض الجند من أرزاقهم فقالوا : يزيد الناقص .

الأحد لعشرة من المحرم سنة سبع وعشرين ومائة وهو يومئذ ابن أربعين سنة[1] .

وصار الأمر إلى أخيه إبراهيم بن الوليد ، وبلغ ذلك مروان بن محمد بن مروان ، فدعا برجل من أصحابه يقال له عاصم بن يزيد بن عبد الله الهلالي فاستخلفه على أرمينية وأذربيجان ، ثم شخص من معه من أهل الشام والجزيرة حتى قدم أرض الشام ، فلما تقارب من مدينة حمص ، خرج إليه أهلها فحاربوه وحاربهم ، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك وبايعوه ، ثم سار مروان إلى دمشق ، فإذا قد استقبله سليمان بن هشام وأصحابه [فانهزموا] من بين يدي مروان هزيمة قبيحة حتى صاروا إلى دمشق . وأقبل مروان حتى صار إلى دمشق ، فخرج إليه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك فبينما خلع نفسه من الخلافة شهرين وأياماً قلائل أقل من عشرة أيام صار الأمر إلى مروان بن محمد بن مروان فدخل مدينة دمشق ، وأخذ خالد بن يزيد بن عبد الملك[2] وعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلهما جميعاً ثم صلبهما على باب الجابية بدمشق ، ثم صلى مروان بن محمد بالناس في المسجد الأعظم صلاة الجمعة ، وخرج فنزل دير أيوب ، فبايعه الناس هنالك وسلموا له الخلافة ، وذلك لأربع عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبع [3] وعشرين ، فأرسل إلى نصر بن سيار ، فأقره على أرمينية وأذربيجان ، فاستقام الأمر لمروان بن محمد[4] وظهرت الشراة بأرمينية وأذربيجان .

---

(١) في مدة خلافته ويوم وفاته ومقدار عمره انظر ابن الأثير ٣/٤٢٤ (من تحقيقنا) وانظر ثبتاً فيه بمصادر ترجمته .

(٢) كذا ، ولم نعثر فيما لدينا ، أن في أولاد يزيد بن عبد الملك من اسمه خالد .

(٣) بالأصل « تسع » وما أثبت عن الطبري وابن الأثير .

(٤) قام مروان بن محمد بحجة الثأر لمقتل الوليد بن يزيد (الخليفة المظلوم كما سماه) إنما حقيقة حركته هي اشتداد الصراع الدموي بين اليمانية والقيسية (جناحا السلطة الأموية) وقد غُلبت القيسية المضرية وتلاوموا فيما بينهم لغلبة اليمانية عليهم وتكاتبوا وتداعوا وبايعوا مروان بن محمد وكان يومئذ شيخ بني أمية ورجلهم الكبير .

وكانت معركة مروان ، عملية تصفية حسابات خطيرة بين اليمانية والقيسية حيث جرت بينهما تصفيات وعمليات قتل من الطرفين وبينهما وانتقل الصراع وامتد إلى خراسان ثم إلى مناطق تواجدهما في جميع مناطق الدولة الإسلامية (الطبري ـ ابن الأثير ـ الأخبار الطوال) .

ذكر ابتداء أمر الشراة وخروجهم
في ولاية مروان بن محمد بن مروان

قال : وكان السبب في أمر الشراة أن رجلاً من أهل البيلقان يقال له مسافر بن كثير القصاب كان يرى رأي الشراة ، وكان الـذي أوقفه على ذلـك رجل يقـال له الضحاك الحروري . قال : فخرج مسافر بن كثير هذا في جملة من يرى رأي الشراة حتى صار إلى مدينة أردبيل ، وبها يومئذ قوم ممن يرى رأي الشراة ، فلم يزل القوم مجتمعين حتى صاروا في جماعة من الشراة . . . .

قال : وبلغ ذلك عاصم بن يزيد الهلالي وهو يومئذ بمدينة البيلقان ، فأرسل إلى رجلين من أهل البيلقان ممن كانا يريان رأي الشراة أحدهمـا يقال لـه أبان بن ميمون والآخر قتيبة بن صدقة ، فأخذهما جميعاً فحبسهما جميعاً في سجن البيلقان . واتصل الخبر بمسافر بن كثير القصاب رئيس الشراة وهو يومئذ مقيم بمدينة ورثان[1] ، فخرج في جوف الليل من ورثان في جماعة من أصحابه حتى أتوا البيلقان ، فوضعوا السلاليم وصعدوا إلى السور . وكان أول من صعد منهم عصمة بن مسلم البيلقان ، فأخذ صاحب الحرس فضرب عنقه على السور . ثم إنهم نزلوا إلى المدينة البيلقان وقد خرج عنها الأمير عاصم بن يزيد الهلالي إلى مدينة برذعة . قال : فأخذت الشراة خليفـة له ثم جـاؤوا به إلى بـاب السجن ، فأخـرجوا قتيبـة بن صـدقـة وأبـان بن ميمون . ثم إنهم أظهروا أمر الشراة بمدينة بيلقان ، فاجتمع إليه الناس من كـل ناحيـة ، حتى صاروا في عسكر لجب ، فخرج بهم صاحبهم مسافر بن كثيـر القصاب من مـدينة البيلقان حتى صاروا إلى يونان[2] ، وبلغ ذلك الأمير عاصم بن يزيد الهلالي ، فنادى في أصحابه ثم خرج ، فضرب عسكره على نهر البربر[3] على باب مدينة برذعة . قال : فإذا رجل قد أقبل من ناحية برذعة فأخـذته الشـراة وأقبلوا به إلى صـاحبهم مسافر بن كثير ، فقال له مسافر : من أين أقبلت ؟ قال : من برذعة ، قال : فهل لك علم من عاصم بن زيد ؟ قال : نعم . هو نازل على شاطىء نهر البربـر على غير الجادة بموضع كذا وكذا . قال له مسافر : فهل تعرف الطريق إلى عسكره بالليل ؟

---

(١) ورثان : بلد في آخر حدود أذربيجان بينه وبين وادي الرس فرسخان وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ .

(٢) موضع بينه وبين برذعة سبعة فراسخ ـ ومنه إلى بيلقان سبعة فراسخ .

(٣) كذا ، وفي معجم البلدان : الثرثور نهر من مدينة برذعة على أقل من فرسخ .

قال : نعم ، قال مسافر : فإني قد جعلت لك في هذه الليلة ثلاثمائة درهم على أن تسير معنا فتوقفنا على عسكره ! فقال الرجل : قد أحببتك إلى ذلك . قال : فنادى مسافر بن كثير في أصحابه وسار بهم ذلك الرجل ، وسار بأصحابه في جوف الليل حتى وافى بهم عسكر عاصم بن يزيد قبل الصبح ، ونظرت إليه الشراة فكبروا وحملوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل أمير برذعة عاصم بن يزيد وقتل معه جماعة من أصحابه ، وانهزم الباقون ومعهم ابن لعاصم يقال له زفر حتى دخلوا برذعة بشر حالة تكون ، فاحتوى مسافر بن كثير وأصحابه على سواد عاصم بن يزيد ، وأخذوه ورجعوا إلى مدينة البيلقان فنزلوها .

وبلغ ذلك مروان بن محمد بن مروان وهو يومئذ خليفة بالشام . فاشتد ذلك عليه ، ثم إنه دعا برجل من قواد أهل الشام يقال له عبد الملك بن مسلم العقيلي ، فضم إليه جيشاً كثيفاً ، وعقد لـه عقـداً وولاية على بلاد أرمينية وأذربيجان بأجمعها حربها وخراجها ، وأمره بمحاربة الشراة . قال : فأقبل عبد الملك بن مسلم من الشام في جيش لجب حتى إذا صار إلى برذعة فنزلها ، ثم خرج منها في جيشه الذي قتل الشراة إياه قبل ذلك حتى نزل بموضع يقال له جسر الحجارة ، فعسكر هنالك حتى اجتمع إليه الناس ، ثم إنه سار يريد حرب الشراة ، فالتقى الفريقان ما بين برذعة ويونان واقتتلوا هنالك ، فقتل عبد الملك بن مسلم هنالك ، فقام أخوه إسحاق بن مسلم العقيلي في الناس من بعده ، ودام الحرب بين إسحاق بن مسلم وبين الشراة ، وكانوا لا يفترون ليلاً ولا نهاراً من الحرب ، وكانت حروبهم ما بين برذعة ويونان ، فلم يزل إسحاق بن مسلم يحارب مسافر بن كثير القصاب وأصحابه الشراة إلى أن ظهرت المسودة بأرض خراسان مع أبي مسلم ، ودنا زوال بني أمية ـ فهذا أكرمك الله آخر الفتوح ، ونبتدىء بعد هـذا في أخبار نصـر بن سيار والكـرماني وأبي مسلم الخولاني الخراساني .

ابتداء خبر خراسان مع نصر بن سيار وجديع ابن علي الكرماني وأبي مسلم عبد الرحمن بن مسلم

وكان السبب في ذلك أن نصر بن سيار الليثي كان متحاملاً على غير قومه شديد العصبية على ربيعة واليمن ، وكان يقدم بني عمه من بني مضر عليهم ، فتولى على كورة من كور خراسان رجلاً من مضر من بني كنانة أو من بني أسد وتميم وغيرهم من قبائل مضر ولا يحفل بربيعة ولا باليمن ، فغضبوا لذلك ، ثم إنهم مشوا إلى رجل من الأزد أزد عمان من بني عم المهلب بن أبي صفرة يقال له جديع بن علي ويعرف بالكرماني ، وذلك أنه ولد بكرمان بمدينة يقال لها جيرفت في أيام الأزارقة ، وكان جده من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فكان هذا الكرماني كبيراً في قومه من الأزد ، عظيم القدر والخطر في اليمن ، فمشت إليه ربيعة وبنو عمه من الأزد وسائر اليمن فشكوا إليه نصر بن سيار وشدة عصبيته عليهم ، وسألوه أن يركب إليه فيكلمه في ذلك ، فقال الكرماني : أما إني أردت أن أكلمه في هذا الذي ذكرتم ، غير أني ما أعرف كيف يكون موقع كلامي منكم ؛ فقالوا له : صر إليه وقل له ما شئت .

قال : فلما دخل عليه بجل به نصر بن سيار ، فقال : يا مولاي ! ما هذا الفعل الذي تفعله ؟ تفضل بني عمك على أهل اليمن وساداتهم من غيرهم ! قال : فغضب نصر بن سيار من كلامه ، ثم أمر به إلى السجن[1] ، فانطلقوا به يجرونه جراً عنيفاً إلى السجن . فبلغ ذلك أهله وعشيرته فاجتهدوا في تخليصه في الليل [من] مسيل العذرة الخارجة من السجن وأعلموه بذلك أن صر إلينا منه ، وكان رجلاً جسيماً ، فلما كان في وقت هدوء الليل أخذه غلام له ويجعل يشحطه لعظم جسده إلى أن

(١) ثمة رواية أخرى في سبب حبسه ذكرها ابن الأثير في الكامل ٣/٤٢٠ ـ ٤٢١ .

خرجوا به من السجن[1] . فلما كان من الغد سمع بذلك نصر بن سيار فأرسل إلى السجان ، فلما حضر سأله عن حاله فقال : يا مولاي ! لم يخرج من باب السجن وإنما خرج من مسيل الماء ، فقال له : كذبت بل أخذت منه جعلاً وتركته ! ثم أمر به فضرب بالسياط إلى أن مات .

ثم أرسل صاحب شرطته إلى الكرماني أن صر إلينا فنحن ما أردنا بك ذلك إلا خوفاً لفتنة ، ولكن نريد أن نستشيرك في أمر ، فصر إلينا مطمئناً آمناً . فلما دخل صاحب شرطته على الكرماني وبلغه ذلك ، قال له : صر إلى صاحبك وقل له : يابن الخبيثة وابن القطعاء لا كان ذلك أبداً ، أتريد أن يدهمني بمكره وبلائه ، فوالله لولا أنك رسول لضربت عنقك ! قال : فخرج عصمة[2] من عنده فقال : أيها الأمير ! ما رأيت علجاً قط أشد منه ، ولكني أعجب من يحيى بن نعيم الربعي [3] وأصحابه ، والله إنه لأشد تعظيماً له وإجلالاً من بني عمه . قال : فدعا نصر بن سيار بدواة وبيضاء ، ثم كتب إلى يحيى بن نعيم بهذه الأبيات :

إنا وهذا الحي من يمن   عند الفجار معاشر أكفاء
قوم لنا منهم تراث جمة   ولهم لدينا إحنة ودماء

قال : فلما وصلت هذه الأبيات إلى يحيى بن نعيم الربعي وفهمها أقبل على الرسول وقال : لولا أنك رسول لبعثت إليه برأسك ، ولكن أبلغه عني وقل له : يقول لك يحيى بن نعيم : خبرنا عن يد أبيك التي قطعت اليمنى كانت أم اليسرى ؟ قال : فانطلق الرسول إلى نصر بن سيار فأبلغه ذلك ، فقال نصر : ما أعرفني بقلة عقول ربيعة ! .

ثم دعا نصر برجل من أصحابه يقال له [قديد بن ـ] [4] منيع ، وكان صديق الكرماني وقال له : صر إليه وأعذر إليه أن يقع بيننا وبينه . قال : فأقبل [قديد بن]

---

(١) وذلك بعد تسعة وعشرين يوماً بقاها في السجن كما في الطبري ٧/٢٨٩ .

(٢) في الطبري ٧/٢٩١ أن نصراً أرسل إلى الكرماني مع سلم بن أحوز وقال له : إني والله ما أردت بك في حبسك سوءاً ولكن خفت أن تفسد الناس فأتني . فقال الكرماني : لولا أنك في منزلي لقتلتك . . . فارجع إلى ابن الأقطع فأبلغه ما شئت من خير وشر . . . فبعث إليه عصمة بن عبد الله الأسدي .

(٣) في الطبري : يحيى بن حصين .

(٤) زيادة عن الطبري ٧/٢٩٢ .

منيع حتى دخل على الكرماني وقال : يا هذا ! تعرف ما بيني وبينك من الصداقة ، فلا توقع الخلف بيننا وبينه ، وإن كنت حقدت عليه بحبسك فاحبسه كما حبسك أو تأخذ منه رهناً ويأخذ منك رهناً وصر إليه ، فإن كان منه شيء بعد ذلك فيد بيد ؛ فأجاب الكرماني إلى ذلك وقال : نعم ، هؤلاء ولداي عليّ وعثمان ، فما يعطيني هو ؟ فوالله ما نعرف له ولداً ولا والداً ولا عشيرة غير العشيرة التي ينتمي إليها . قال فقال له : مهلًا أبا علي ! فإنك لم تكن سفيهاً قط ، فأسألك بالله أن لا يكون خراب هذه البلدة على يديك ، فإني ما أظن أن أحداً من العرب أنصح لي منك ، قال : فلم يجبه الكرماني إلى شيء ، وانصرف قديد بن منيع إلى نصر بن سيار . فأعلمه بذلك .

قال : ووثب بنو تميم إلى نصر بن سيار وقالوا : أيها الأمير ! ما ننتظر بهذا الكلب . عاجله قبل أن يكثر جمعه ، قال : فوثب إلى نصر بن سيار ابن عم له يقال له عقيل بن معقل الكناني[1] فقال : أصلح الله الأمير ! لا تلتفت إلى أقوال هؤلاء ولا إلى ما يشيرون به عليك ، فإني أخاف بشؤم نفسك أن يدخل البلاء على عشيرتك في محاربتك لهذا الرجل ، فإن أمير المؤمنين مروان بن محمد قد انتقض عليه بعض أمره وقد خرجت عليه طائفة من الشراة وأخاف أن يزول عنه أمره إلى غيره ، فلا تعجل في أمرك . فقال له نصر بن سيار : صدقت يا عقيل ! ولكن صر إليه وكلمه فلعله يرتدع عما هو عليه . قال : فأقبل عقيل بن معقل حتى دخل على الكرماني فسلم وجلس ثم قال : أبا علي ! اعلم أنك قد سننت لهؤلاء السفهاء سنة لم تكن بخراسان قبل اليوم ، وأخاف أن يوقعك هذا الأمر أنت ونصر بن سيار فيما تكرهان ، وبعد فأنت اليوم شيخ العرب وسيد قومك ، فقل ما أحببت فإنك مجاب إلى ما تحب ، ولا تطمع هؤلاء السفهاء فيما دخلوا فيه ، فإني أرى شيئاً أخاف أن تذهل فيه العقول وتشخص فيه الأبصار . قال فقال له الكرماني : صدقت يا عقيل ! ولكنه ابن الأقطع ، فقال عقيل : عزمت عليك ألا سكتّ عن ذكره بقبيح ، فإني ما سمعته ما يذكرك إلا بالجميل . قال فقال الكرماني : يا عقيل ! لا تكثر فليس إلى ما يريد ابن الأقطع من سبيل ، قال فقال له عقيل : يا أبا عليّ ! ههنا شيء آخر ، قال : وما ذاك ؟ قال : يتزوج إليك وتتزوج إليه ، فقال الكرماني[2] : إذاً لا أفعل ذاك لأنه ليس لي بكفوء ، فقال عقيل :

---

(١) في الطبري : الليثي .

(٢) في الطبري : لا آمنه على حال .

سبحان الله يا أبا علي ! تقول بمثل هذا الرجل من بني كنانة وشرفه وقدره ! فقال : والله لو كان مصاصاً في بني كنانة لفعلت ! ولكن ليس كذلك ، قال عقيل : فما تقول أبا علي ؟ أنصرف عنك اليوم وأعود إليك غداً ؟ فقال الكرماني : إنما أنت تعود بمثل هذا الكلام فلا تعد ؛ فقال عقيل[١] : أبا علي ! إنه ليس بعد هذا شيء وأخاف أن تهلك غداً بدار مضيعة ! فقال الكرماني : أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم قال[٢] : فرجع عقيل إلى نصر بن سيار، فقال : أيها الأمير! أنت والله في غرو من أمر هذا الرجل ! وذلك أنه قد عظم أمره وكثف جمعه واشتدت شوكته ، فإن كنت رجلاً تقوم في هذا الأمر وإلا فالزم منزلك ، فإنك قد خيرت ذلك إما أن تلزم منزلك حتى يولي هو من يريد ، وإما أن تحمل من أموال خراسان ما أحببت وتنصرف إلى أمير المؤمنين مروان ، فاختر من الثلاث[٣] ما بدا لك . قال : فغضب نصر بن سيار من ذلك غضباً شديداً ، ثم صاح بصاحب شرطته سالم[٤] بن أحوز المازني ، فقال له : يا سالم ! سر إلى هذا الملاح فاكفني أمره وائتني برأسه الساعة .

قال : فنادى سالم في أصحاب نصر بن سيار فركبوا ، وسار إلى باب الكرماني وعلى بابه يومئذ أربعة آلاف رجل ما يرى منهم إلا الحدق . قال : فصاح سالم بن أحوز بقائد من قواد الكرماني يقال له محمد[٥] بن المثنى ، فقال : يابن المثنى ! قل لصاحبك هذا الملاح : يخرج إلينا ! فقال له ذلك محمد بن المثنى ، فخرج إليه في أصحابه فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الكرماني قريب من عشرين رجلاً ، وقتل من أصحاب نصر بن سيار نيف على مائة رجل ؛ فانهزم سالم بن أحوز إلى دار نصر بن سيار فأعلمه بذلك . قال : فأرسل إليه نصر بعصمة بن عبد الله الأسدي حتى وقف قبالة أصحاب الكرماني ، ثم قال : أما والله لو علمتم[٦] أن السمك لا يغلب

---

(١) في الطبري : قال : ما بعد هذا خيرٌ .

(٢) في الطبري : فقال له عقيل : أعود إليك ؟ قال : لا ولكن أبلغه عني وقل له : لا آمن أن يحملك قوم على غير ما تريد ، فتركب منا ما لا بقية بعده ، فإن شئت خرجت عنك لا من هيبة لك ، ولكن أكره أن أشأم أهل هذه البلدة ، وأسفك الدماء فيها .

(٣) كذا ، ولم يذكر الأمر الثالث ، ولعله يريد : القتال .

(٤) في الطبري : سلم .

(٥) عن الطبري ، وبالأصل « أحمد » .

(٦) في الطبري ٣٦٨/٧ لتعلمن .

اللخم[1] أبداً ! فصاح به يحيى بن نعيم الربعي[2] : يابن الفاعلة إن كنت صادقاً فاثبت لنا ! ثم حمل الفريقان بعضهم على بعض ، فقتل من أصحاب الكرماني ثمانية نفر ومن أصحاب نصر بن سيار سبعون رجلاً ، وانهزم عصمة بن عبد الله الأسدي وأصحابه ، وأصحاب الكرماني في أقفيتهم حتى ألحقوهم بصاحبهم . فأقبل عصمة بن عبد الله مجروحاً لما به حتى دخل على نصر بن سيار فخبره بذلك . فلم يزل نصر يوجه إلى حرب الكرماني واحداً بعد واحد حتى وجه إليه سبعة قواد ، ما منهم قائد إلا يرجع مفلولاً ومجروحاً ، حتى كان آخر قائد وجه به إليه مالك بن عمرو الحماني[3] وكان من المعدودين في بني تميم ، فصار إلى باب الكرماني في قريب من أربعة آلاف فارس ، ثم وقف وصاح بابن المثنى : إن كنت رجلاً فابرز إليّ وذر الناس جانباً ! فقال له محمد بن المثنى : قد أنصفت يا أخا تميم ! ثم برز إليه والتقيا للضراب فبدره التميمي بضربة على حبل عاتقه فقطع درعه ، وضربه محمد بعمود كان في يده على بيضته فهشم البيضة حتى وصل العمود إلى رأس التميمي فجندله صريعاً . قال : والتحم القتال والأمر بين الفريقين ، فاقتتلوا ساعة ، وجعل نصر بن سيار يمد أصحابه والكرماني يمد أصحابه ، حتى كثرت من الجانبين القتلى يومهم ذلك . وغلق أهل مرو أبواب حوانيتهم وأبواب دورهم وعطلت الأسواق .

قال : ثم تواعد القوم وخرجوا إلى موضع يقال له الجياد[4] ، فخندقوا على أنفسهم وجعلوا يقتتلون الليل والنهار ، حتى اقتتلوا سنة كاملة لا يفترون ولا يملّون . قال : وكتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد بهذه الأبيات :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... مخبرة عن محكمات الرسائلِ
بأن عداة الله أضحوا بأرضنا ... يسومونا اطفاء حق بباطل
ونحن حماة الدين نسمو إليهم ... بأسيافنا والمسندات الأوائل

قال : فلما ورد هذا الشعر على مروان بن محمد اغتم لذلك غماً شديداً ،

---

(١) اللخم دابة من دواب الماء ، تشبه السبع تأكل السمك . (عن ابن الأثير) .
(٢) في الطبري وابن الأثير : فقال له محمد (ابن المثنى) .
(٣) في الطبري وابن الأثير : التميمي .
(٤) في الطبري ٣٦٨/٧ خرجوا جميعاً إلى الخندقين .

وجعل نصر بن سيار يفكر في أمره فلم يجد له حيلة ؛ ورحل مروان بن محمد من الشام بحيلة حتى نزل مدينة حران من بلاد الجزيرة فجعلها دار مملكته ، وعزم أن يصيرإلى خراسان بنفسه ، ثم إنه خشي أن يذهب الشام والجزيرة من يده فجعل يقدم في ذلك ويؤخر ، وتحرك أبو مسلم عند ذلك وعزم على الخروج .

ابتداء خبر أبي مسلم[1]

قال : وكان أبو مسلم في قديم الزمان غلاماً حدثاً وكان يعمل في السواجير[2] واسمه عبد الرحمن بن مسلم . قال : وكان يخدم قوماً من بني عجل بخراسان يقال لهم بنو عيسى بن معقل[3] . قال : وكان أبـو مسلم مع ذلـك غلامـاً لبيباً حسن الأدب والفهم ، فوقع في قلبه حب بني هاشم . قال : وخرج قوم من شيعة ولـد العباس يريدون الحج منهم سليمان بن كثيـر الأحوال ومـالك بن الهيثم وقحـطبة بن شبيب ولاهز بن قريظ وجماعة ممن يرى رأيهم من ولد العباس ، فدفعوا له مالاً كانوا قد حملوه من خـراسان ، وجعلوا يختلفـون إليه وأبـو مسلم معهم لا يفارقهم ، فقـال محمـد[4] بن علي : من هذا الغـلام الذي أراه معكم ؟ فقـالوا : غـلام من أبنـاء السراجين موالي عيسى بن معقل ، فقال محمد : أفحر هو أم عبد ؟ فقالوا : أما آل معقل فيزعمون أنه من آلهم ، وأما هو فيزعم أنه حر وابن حر ؛ فقال محمد بن علي : ما أدري ما تقولون ، ولكني أراه غلاماً عاقلاً لبيباً ، وأرى فيه علامات بينة ، وأرجو أن يكون ممن يتحرك في دولتنا . قال فقال له القوم : أيها الإمام ! فمتى يكون ذلك فقد طال ملك بني أمية ؟ فقال محمد بن علي : هذا والله زماننا وهذا وقت دولتنا ! ولقد سمعت آبائي يذكرون أن إذا كانت سنة الحمار فعند ذلك يـظهر أمـرنا ، وتجـاب

---

(١) بالأصل : وهذا ابتداء خبر أبي مسلم من أوله .

(٢) السواجير : جمع ساجور وهي العصـاة التي تعلق في عنق الكلب . والسواجير : نهر مشهور من عمل منبج بالشام .

(٣) تنوزع في أمر أبي مسلم انظر مختلف الأقوال في مروج الذهب ٣/٢٨٩ .

(٤) بالأصل : « أبو محمد » خطأ .

دعوتنا ، ويموت أمر بني أمية ، ويظهر الرايات والبنود من كور مرو بخراسان ، وتقتل بنو أمية تحت كل حجر ومدر ؛ فقالوا : وما سنة الحمار ؟ فقال : إنه لن تمضي مائة سنة من أمر قوم إلا ينتقض[1] أمرهم ، لقول الله عز وجل ﴿ **أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها إلى قوله : كيف ننشزها** ﴾[2] وقد اقترب الوعد الذي وعدناه ورب الكعبة ! .

قال : ثم أقبل محمد بن عليّ على شيعته هؤلاء ، فقال : اعلموا أنكم في سنة الحمار وكأني بهذا الغلام وقد تحرك في هذا الأمر ـ يعني أبا مسلم ـ فانظروا إذا كان ذلك فانصروه وقوموا معه في هذا الأمر ووازروه ، ولعلكم لا تروني بعد عامكم ، لأني أحس بضعف في بدني ، وأظن أن قد اقترب أجلي ، ولكن قد جعلت هذا الأمر في ابني إبراهيم المقيم بحرّان ، فإن أصيب فابني عبد الله ابن الحارثية[3] ـ يعني أبا العباس ـ فإن أصيب فابني عبد الله ـ يعني أبا جعفر المنصور ـ .

قال : وقدم القوم من مكة من عند محمد بن علي إلى خراسان ، فجعلوا ينظرون إلى أبي مسلم بغير العين التي كانوا ينظرون إليه بها قبل ، وكتموا ما سمعوا من محمد بن علي في أبي مسلم ، بل كانوا يجتمعون إليه أحياناً فيتكلمون ويديرون آراءهم بينهم وأبو مسلم يقول لهم : لا تعجلوا وأبشروا ، فما أقربكم مما تريدون ! وأنا وزير صاحب الرايات السود ، وكأنكم بي وقد أظهرتها . قال : فلم يزل أبو مسلم بخراسان لازماً منزله لا ينطق بشيء ولا يتحرك ، حتى إذا وقع الحرب بين الكرماني وبين نصر بن سيار ونظر أبو مسلم إلى الغلبة الكرماني أيقن بالفرج وجعل يقول لمن هو على رأيه : أبشروا فقد دنا الأمر ! قال : وتوفي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رحمه الله[4] ، وبلغ ذلك أبا مسلم . فأقبل يدعو الناس إلى ما هم عليه من أمر ولد العباس ، والناس يجتمعون إليه من كل أوب ، فذكر أهل العلم بهذه الأخبار أن

---

(١) انتقض الشيء : فسد بعد إحكامه .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٩ .

(٣) واسمها ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث .

(٤) كانت وفاة محمد بن علي في أيام الوليد بن يزيد ، وأوصى بالأمر من بعده إلى ولده إبراهيم بن محمد فقام بأمر الشيعة ، ووجه أبا هاشم ثم بكير بن ماهان إلى خراسان وبعث معه بالسيرة والوصية فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة ، فنعى إليهم محمد بن علي ودعاهم إلى ابنه إبراهيم ودفع إليهم كتابه . وكان ذلك في سنة ١٢٦ هـ .

أبا مسلم أتى إليه ألف رجل وهم الذين بايعوه بدوا غير أنهم كانوا في بيوتهم لا يظهرون . قال : وسمع بذلك نصر بن سيار ، فلم يكن لأبي مسلم حيلة لاستقباله بحرب الكرماني عير أنه كتب إلى مروان بن محمد هذه الأبيات[1] :

أرى خلل الرماد وميض جمر	أحاذر أن يكون لها اضطرامُ
فإن لا تخمدوها تجر حرباً	يكون وقودها قصر وهام
فإن النار كالزندين توري	وإن الفعل يقدمه الكلام
أقول من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا رقوداً	فقل قوموا فقد حان القيام
فأنتم في الكريهة أسد غاب	إذا كان النذير بها الحسام
وأكرم في زلازلها اصطبار	إذا نشرت وثار لها قتام
تطيف بكم كرائم عبد شمس	لدى الهيجاء ضاق بها المقام
وهم عذر الأباطم من قريش	فكاهلها المقدم والمشام
إذا صدع بقية لا تأوه	وما صدعوا فليس له التيام

قال : فلم يلتفت مروان بن محمد إلى ما كتب إليه نصر بن سيار ولم يجب بشيء[2] ، فعلم نصر بن سيار أن أمر بني أمية قد أدبر .

وكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة[3] وهو يومئذ بواب في العراق ، من قبل مروان بن محمد : أما بعد ، فإن البيعة واحدة وقد علمت ما أنا فيه من حرب الكرماني ، وقد خرج عليّ أيضاً من أبناء السراجين من لا يعرف له دين ، وقد اجتمع إليه نفر من أهل خراسان من شيعة ولد العباس ، فأنشدك بالله أن تضيع بلاد خراسان فقد مضى الأمر من أيدي بني أمية ، وأريد منك أن تمدني بألف عمامة شامية ـ والسلام ـ ؛ ثم أنشد أسفل كتابه هذه الأبيات[4] :

---

(١) الأبيات في مروج الذهب ٣/٢٩١ والأخبار الطوال ص ٣٥٧ ابن الأثير ٣/٤٥٩ الفخري ص ١٤٤ الطبري ٧/٣٦٩ العقد الفريد ٤/٤٣٩ باختلاف بين المصادر .

(٢) في ابن الأثير : فكتب إليه مروان : إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . فاحسم الثؤلول قبلك . فقال نصر : أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده .

(٣) عن الطبري ، وبالأصل « زهير » .

(٤) الأبيات في الطبري ٧/٣٦٩ مروج الذهب ٣/٢٩٣ ابن الأثير ٣/٤٦٠ باختلاف بين المصادر والأصل ببعض الألفاظ .

أبلغ إليك وخير القول أصدقه ... وقد تبينت أن لا خير في الكذبِ
هذي خراسان أرض قد رأيت بها ... بيضاً لو أفرخت قد حدّثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبُرت ... لما يطرن وقد سُربلن بالزغب
وإن يطرن ولم يحتل لهن بها ... يلهبن بلدان حرب أيما[1] لهب

قال : فلم يلتفت [يزيد بن عمر بن][2] هبيرة إلى كتاب نصر بن سيار وجعل يقول : وما أصنع ! وما أبالي بخراسان إذا سلمت لي العراق[3] .

قال : فعندها طمعت بنو هاشم في الخلافة ، فكتب الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم إلى عبد الله بن الحسن [بن الحسن] بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين هذه الأرجوزة :

دونك أمراً قد بدت أشراطه ... ورُيّشت من نبله أمراطه
إن السبيل واضح صراطه ... لم يبق إلا السيف واختراطه

قال : وطمع آل أبي طالب خاصة في الخلافة . قال : حدثني أبو الحسن المدائني قال : حدثني أبو الحسن بن الفرات قال : سايرت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس فقال داود بن علي لعبد الله بن الحسن بن الحسن : أبا محمد ! لو أمرت ابنيك محمداً وإبراهيم أن يظهروا ويتحركوا في هذا الأمر فقد انقضت دولة بني أمية إن شاء الله ، ألا تسمع الأخبار وانتقاضها على نصر بن سيار ! فقال عبد الله بن الحسن : إنه لم يأت الوقت الذي يظهر بعد ؛ فقال عبد الله بن علي : أبا محمد إنكم لستم الذين تظهرون على بني أمية ، بل نحن والله نظهر عليهم ، وأنا الذي والله أقتلهم وأبيدهم وأنتزع الأمر منهم عن قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وما ذلك على الله بعزيز . قال : فسكت عبد الله بن الحسن بن الحسن ولم يتكلم .

---

(١) عن المصادر ، وبالأصل « انها » .

(٢) زيادة عن مروج الذهب .

(٣) في مروج الذهب : « فلم يجبه يزيد بن عمر عن كتابه وتشاغل بدفع فتن العراق . وفي البداية والنهاية : فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان . وفي الطبري : فقال يزيد : لا غلبة إلا بكثرة ، وليس عندي رجل .

قال : ونظر أبو مسلم إلى [أنه] لا مدد لنصر بن سيار فطمع فيما أراد من الخروج ، ثم بعث إلى الكرماني أن اثبت على ما أنت عليه فأنا معك لا عليك ! قال : فصارت كلمة أبي مسلم والكرماني واحدة . والتأمت العسكران على نصر بن سيار جميعاً . قال : ثم أمر أبو مسلم أصحابه بالسواد ثم كتب إلى جميع الكور بخراسان أن سودوا فإنا قد سودنا ، وقد دنا زوال ملك بني أمية . قال : فسود أهل نيسابور ومرو الروذ والطالقان وما يليها وجميع الكور طاعة لأبي مسلم . قال المدائني : وإنما أمرهم أبو مسلم بالسواد لأنه جعل السواد حداداً لمصيبة زيد بن علي ويحيى بن زيد رضي الله عنهما . قال : فلم يبق مدينة بخراسان إلا لبسوا السواد وجعلوا ينوحون وينعون على زيد بن علي ويحيى بن زيد ويذكرون مقتلهما. قال : ثم بعث أبو مسلم إلى الجوزجان[1] وإلى نهاوند وبها يومئذ يحيى بن زيد مصلوب ، فأمر به فأنزل من خشبته وكفن وصلوا عليه ودفن . ثم جعل أبو مسلم يتبع قتلته ـ أي يحيى بن زيد ـ فيقتلهم تحت كل حجر ومدر ، حتى قتل بيحيى بن زيد وزيد بن علي ثمانون ألفاً أو يزيدون من شيعة بني أمية ومن شارك في دم يحيى بن زيد حتى قتل ولد الولد ، وهو الذي يقول :

أجيبوا عباد الله آل محمد ... فذا عنهم الداعي يجاب ويكرمُ
قتلت بزيد بن الحسين وابنه ... ثمانين ألفاً من كمي ومعلم

قال : فعندها أعطى نصر بن سيار بيده واتقى على نفسه ، ثم كتب إلى أهل مرو وغيرهم ممن قد علم أنهم على رأيه ومذهبه ، وسألهم أن ينصروه ويقيموا معه ويوازروه على حرب الكرماني وأبي مسلم ، وكتب إليهم بهذه الأبيات[2] :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها ... فليغضبوا[3] قبل أن لا ينفع الغضبُ
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبت ... حرباً يحرّق من حافاتها الحطب[4]
ما بالكم تلحقون الحرب بينكمُ ... كأن أهل الحجى عن فعلكمْ غيَبُ

(١) بالأصل « الجوركان » وقد مرّ أن يحيى بن زيد قتل في إحدى قرى الجوزجان وصلبت جثته .

(٢) الأبيات في العقد الفريد ٤/٤٤٠ والأخبار الطوال ص ٣٦١ وابن الأثير ٤٦١/٣ باختلاف المصادر والأصل في بعض الألفاظ .

(٣) عن العقد الفريد ، وبالأصل « بل يغضبوا » .

(٤) عن العقد الفريد ، وبالأصل « حطب » .

وتتركون عدوّاً قد أظلكمُ [ممن -](1) تأشّب لا دين ولا حسبُ
ليسوا إلى غيره منا فنعرفهم ولا صميمَ الموالي إذ هم نُسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلاً(2) عن أصل دينهم(3) فإن دينهم أن تقتل العربُ
ويقسّم الخمس من أموالكم أسراً من العلوج ولا يبقى لكم نسب
وينكح فيكم قسراً بناتكم لو كان قوميَ أحراراً لقد غضبوا

قال : فلما نظر نصر بن سيار أنه ليس يجيبه أحد ممن يكتب إليه أحب أن يفرق بين الكرماني وبين أبي مسلم ، فكتب إلى الكرماني : ويحك أبا علي ! لا تغتر بأبي مسلم وأصحابه ، فإنه ليس يريد هذا الأمر لك ولا لنفسه ، إنما يريده لبني هاشم . فإني خائف عليك منه ، ولكن هلم حتى ندخل جميعاً إلى مدينة مرو ونكتب بيننا كتاباً بالصلح ، ويحلف كل واحد منا لصاحبه أن تكون كلمتنا واحدة على أبي مسلم ، قال : فوعد الكرماني أن يجيبه ، ثم أقبل على أبي مسلم فقال : إن نصر بن سيار قد كتب لنا بكذا وكذا ، فما ترى أن نخرج إليه وأسأله أن يخرج إليّ على أن يكتب بيني وبينه هذا الكتاب بين العسكرين ، ثم أغتاله برجل من أصحابي فيحمل عليه ويقتله ، فقال أبو مسلم : ما أرى لك رأياً غير هذا .

قال : فخرج الكرماني حتى وقف قريباً من نصر بن سيار ومعه قريب من مائة ، أوصى رجلاً من أصحابه بما يريد من قتل نصر بن سيار ، ثم بعث إليه رسوله أن اخرج إليَّ حتى نكتب بيننا ذلك الكتاب الذي ذكرت في وسط العسكرين ! قال : فخرج ابن سيار في قريب من مائة فارس وقد أوصى رجلاً من أصحابه يقال له الحارث بقتل الكرماني . قال : ودنا الفريقان بعضهم من بعض ، والكرماني يومئذ بلا درع ، وعليه قباء أبيض ويسمى بلغة أهل خراسان خشلبود(4) . قال : فلما نظر نصر بن سيار إليه وهو في تلك الحالة التفت إلى الحارث(5) بن سريج وكلمه بالفارسية : هذا وقته ؛ قال : فحمل الحارث بن سريج على الكرماني وطعنه طعنة في خاصرته جندله

---

(1) عن الأخبار الطوال .

(2) عن العقد الفريد ، وبالأصل « سائل » .

(3) عن العقد الفريد وابن الأثير ، وبالأصل « دينه » .

(4) كذا وفي الطبري ٧/ ٣٧٠ قرطق خشكشونة .

(5) في الطبري ٧/ ٣٧٦ وابن الأثير ٣/ ٤٥٩ « ابن الحارث بن سريج » .

قتيلاً . قال : وكبر أصحاب نصر بن سيار وطمعوا في أبي مسلم بعد ذلك . قال : ثم أمر نصر بن سيار برأس الكرماني فأخذه وقوّره وحمله برمحه إلى مروان بن محمد ، وكتب إليه نصر بن سيار بالخبر على جبهته ، وفي آخر الكتاب : هذه الأبيات[1] :

لعمري لئن كانت نزار تتابعت ... عليّ بغدر حين خابت حدودها
لقد غمزوا مني قناة صليبة ... أبى على من شانها الضيم عودها
وقدّت ذوي الأحساب منهم من أقدمي ... وذا الدجل حتى عاد حرباً يبيدها
وأصلحت من ساداتها كل فاسد ... وأسرعت في خير الذي لا يسودها
وكنت لها كهفاً منيعاً وجنة ... ليأوي إليها كهلها ووليدها
فمالوا على السوءات ثم تمردوا ... وهل يفعل السوءات إلا مريدها
فللترك [قد] أوفى نزار بعدها ... ولا يأمن الغدر يوماً عميدها
أحاشوا نزار الشام إن نزارها ... أبوه أباي وهنيءٌ[2] عميدها
خليفتنا الساعي لنا ببراتنا ... فطالبت[3] أوتار العدى وميدها
أمروان إني قد منيتُ بمعشر ... خوارج سوء ما يلين شديدها
أجاهدهم في الله حقّاً لأنني ... أومل داراً لا يبيد خلودها
وكم كم أجاشوا من جنود وأوقدوا ... أشانيب نيران سريع خمودها
فأوردت خوفاً بتّها الموت عنوة ... كذاك منايا الناس يدنو بعيدها

قال : فلما كان بعد قتل الكرماني زحف نصر بن سيار إلى أصحاب أبي مسلم ، ونادى أبو مسلم في أصحابه ، ودنا الفريقان بعضهم من بعض واقتتلوا ساعة ، وهوى عليّ بن الكرماني إلى تميم بن نصر بن سيار وهو يقاتل أشد قتال ، فحمل عليه وهو يقول : أنا ابن الكرماني ! ثم طعنه طعنة أصابه ، ثم نادى بأعلى صوته : يابن سيار ! كيف ترى أخذ الثأر ! قال : وأسرع القتل في أصحاب نصر بن سيار ، وانصرف الفريقان بعضهم عن بعض بقية يومهم ذلك ؛ فأنشأ نصر بن سيار يرثي ولده يقول أبياتاً مطلعها[4] :

نفى عني العزاء وكنت جلداً ... لإجلاء الفوارس عن تميم

إلى آخرها .

---

(١) الأبيات في الأخبار الطوال ص ٣٦٣ باختلاف بعض الألفاظ .

(٢) بالأصل « مني » وما أثبت عن المطبوعة .

(٣) بالأصل « فطالت » وما أثبت عن المطبوعة لاستقامة الوزن .

(٤) الأبيات في الأخبار الطوال ص ٣٥٥ .

قال : وباكر القوم الحرب فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وأثخن نصر بن سيار جراحاً ، وقتل من أصحابه جماعة ، وانهزم من بين يدي أبي مسلم هزيمة قبيحة ولم يقم له قائمة . قال : فأنشأ رجل من أصحاب أبي مسلم يقول أبياتاً مطلعها :

لسنا نبالي لدى الهيجاء من أحد ... مما نطالبْ عن عجم ولا عربِ

إلى آخرها .

قال : وجعل أمر أبي مسلم يعلو يوماً بعد يوم حتى خافه الناس من جميع النواحي بكور خراسان ، وكان إذا ذكر إنما يقال « قال الأمير كذا وكذا » . وكان يخطب له فيقال : اللهم أصلح الأمير أمير آل محمد .

قال : وكان أهل بلاد خراسان على فرقتين ، فكور منها يدعون[1] لمروان ، وكور منها يدعون لأبي مسلم أنه الأمير أمير آل محمد . قال : وتفاقم الأمر بين أبي مسلم ونصر بن سيار جداً ، وكانوا إذا دنوا للقتال يتشاتمون ويذم بعضهم بعضاً ، وكان نصر بن سيار ينشد ويقول في ذلك أبياتاً مطلعها :

درجت ديناً وأهلاً أنت تاركهم ... ما الخير ديناً وأهلاً لا يذمونا

إلى آخرها .

قال : ودامت الحرب بين أبي مسلم وبين نصر بن سيار ، ومال أهل خراسان إلى أبي مسلم فأعطوه طاعتهم وحملوا إليه أموالهم . قال : ونظر نصر بن سيار أنه لا طاقة له بأبي مسلم فكف عن الحرب أياماً ، فلم يحارب ودخل مدينة مرو وجلس في منزله وسلم الأمر . قال : ودعا أبو مسلم بأربعة نفر من أصحابه منهم عامر بن إسماعيل الجرجاني وأخوه عمرو وسليمان بن كثير ولاهز بن قريظ[2] ، قال : سيروا إلى أرض نصر بن سيار فأقرئوه مني السلام وقولوا إن الأمير يقول لك أن قد جاءنا كتاب من عند الإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وإنا نحب أن نعرضه عليك فصر إلينا آمنا مطمئناً ! قال : فأقبل القوم فاستأذنوا على نصر بن سيار فأذن لهم ، فدخلوا وسلموا وبلغوا رسالة أبي مسلم . قال : وجعل لاهز بن قريظ يقول : ﴿ يٰموسى إن الملأ يأتمرون بك ﴾[3] فعرف نصر بن سيار أن أبا مسلم[4]

(١) في الأصل « بدعوى » .
(٢) انظر الطبري ٧/٣٨٤ وابن الأثير ٣/٤٦٩ والإمامة والسياسة ٢/١٥٩ .
(٣) سورة القصص الآية ٢٠ .
(٤) بالأصل « أبا موسى » .

يدعوه ليقتله ، فقال : نعم وكرامة ونعما عيني أجيبكم إلى ما أحببتم ولكن أمهلوني الساعة حتى أنظر حاجة وأخرج إليكم ، فجلس القوم ودخل نصر بن سيار بستاناً له . وذاك في جوف الليل وكانت ليلة مظلمة . ثم دعا بصاحب دوابه فقال : ائتيني ببرذوني الفلاني ، فأتاه فركب في ثلاثين غلاماً[1] وترك ماله قليله وكثيره وخرج من باب البستان هارباً على وجهه إلى ناحية نيسابور . قال : وأبطأ عن الرسل فعلموا أنه قد هرب ، فرجعوا إلى أبي مسلم فخبروه بذلك ، فقال أبو مسلم : ذروه الآن يمضي حيث يشاء ، ولكن ما الذي استراب منكم ؟ فقالوا : والله ما لنا بذلك من علم ولكن تكلم هذا فقال ﴿ **يٰموسى إن الملأ يأتمون بك** ﴾ ولم يتم الآية ! فقال : هذا الذي دعاه إلى الهرب ؛ قال : ثم قدم أبو مسلم لاهز بن قريظ فضرب عنقه . ثم أقبل إلى دار نصر بن سيار فانتهبها وأمر بإحراقها[2] ، ثم استولى على جميع بلاد خراسان ، ووجه عماله إلى جميع البلاد ، فاحتوى عليها وجبى جميع خراجها .

ومضى نصر بن سيار إلى نيسابور في غلمانه وأولاده وجميع من معه من بني تميم فمضى إلى الري ، ثم خرج منها يريد العراق حتى إذا صار على تسعة فراسخ من الري بموضع يقال له فسطانة[3] توفي هنالك فدفن بها ؛ وأنشأ رجل من بني تميم يقول أبياتاً مطلعها :

ألا من لنفس غاب عنها عزاؤها ودمع لعين ما يجف بكاؤها

إلى آخرها .

قال : وبلغ أبا مسلم أن نصر بن سيار قد هلك ، فدعا بقحطبة بن شبيب فضم إليه جيشاً يزيدون عن عشرين ألف فارس وأمره أن يتقدم إلى جرجان فيأخذها ويتقدم منها إلى غيرها ! قال : فسار قحطبة إلى نيسابور فجبى خراجها وفرقه على أصحابه ،

---

(١) في ابن الأثير : ومعه ابنه تميم والحكم بن نميلة النميري وامرأته المرزبانة ، وانظر الطبري ٣٨٤/٧ والإمامة والسياسة ١٦٠/٢ .

(٢) انظر الطبري ٣٨٤/٧ .

(٣) كذا ، وفي مروج الذهب ٢٩٤/٣ نزل ساوة من بلاد همذان والري ، فمات بها كمداً . وانظر الطبري ٤٠٣/٧ وابن الأثير ٤٧٩/٣ وكانت وفاته سنة ١٣١ هـ . لمضي اثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول وكان عمره ٨٥ سنة .

قال ابن الأثير : وقيل مات في المفازة التي بين الري وهمذان .

وسار منها حتى وافى جرجان ، وبها يومئذ رجل من قبل بني هبيرة[1] يقال له نباتة بن حنظلة الكلابي[2] في جمع عظيم من أهل الشام والعراق ، وقد خندق على نفسه خندقاً يتحصن به من قحطبة بن شبيب وأصحابه . قال : ودنا إليهم قحطبة بن شبيب وأصحابه . قال : فجعل على ميمنته خالد بن برمك ، وعلى ميسرته أسد بن عبد الله الخزاعي ، وعلى الجناح موسى بن كعب العقيلي . ثم أقبل قحطبة على أصحابه فقال : أيها الناس ! أتدرون من تقاتلون ! إنما تقاتلون قوماً حرقوا[3] كتاب الله وبدلوا دينه وتولوا عن أمره ، وإن هذه البلاد كانت لآبائهم[4] الأولين وكانوا ينصرون على عدوهم بالعدل والإحسان ، ثم بدلوا وغيروا وظلموا فسخط الله عليهم وانتزع سلطانهم وسلط[5] عليهم أذل أمة كانت من الأرض ، ثم بدلوا فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم واسترقوا أولادهم وقتلوا آباءهم ، فلم يزالوا على ذلك من حالهم إلى وقتهم هذا ، فرفع الله رأسكم وأعلى أمركم ، ثم جاء بكم إليهم وسلطكم عليهم وينتقم منهم بكم ، ألا ! وقد عهد إليَّ الأمير أمير آل محمد ﷺ بأنكم تلقونهم فيهربون وتقتلونهم بإذن الله ـ والله مع الصابرين ـ[6] .

قال : ودنا قحطبة بن شبيب وأصحابه من سادات أهل خراسان إلى نباتة بن حنظلة صاحب جرجان ، وذلك يوم الجمعة أول يوم من ذي الحجة[7] ، فالتقوا فاقتتلوا يومهم ذلك من وقت طلوع الشمس إلى وقت الزوال ، فقتل جماعة من أهل خراسان ، ثم وقعت الهزيمة على أصحاب جرجان ، فقتل نباتة بن حنظلة [وابنه][8] وقتل معهما نيف عن عشرة آلاف رجل من أهل الشام ، وهرب الباقون وبدد شملهم ؛ وأمر قحطبة برأس نباتة بن حنظلة ورأس ابنه[9] أن يحملا إلى أبي مسلم ،

---

(١) كان نباتة بن حنظلة عامل يزيد بن هبيرة على جرجان .

(٢) في تاريخ خليفة : أحد بني أبي بكر بن كلاب .

(٣) في ابن الأثير ٤٧٣/٣ حرقوا بيت الله تعالى .

(٤) في ابن الأثير : لآبائكم .

(٥) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل « سخط » .

(٦) انظر خطبته في الطبري ٣٩١/٧ ـ ٣٩٢ وابن الأثير ٤٧٤/٣ .

(٧) في سنة ١٣١ هـ كما في الطبري وابن الأثير .

(٨) زيادة عن ابن الأثير .

(٩) واسمه « حبَّة » قاله خليفة ، وفي ابن الأثير : « حيّة » .

وكتب إليه بالفتح . ثم إنه دخل مدينة جرجان ، فقتل من أهلها جماعة[1] ممن كان يرى برأي بني أمية ، ثم جبى خراجها جميعه فأعطى أصحابه بعض ذلك ، ووجه باقي الأموال إلى أبي مسلم ، ثم نقلوا منها إلى الدامغان وإلى سمنان[2] فلم يمنعه مانع ، فجبى خراجها ووجه به إلى أبي مسلم .

ثم سار إلى الري فنزلها فلم يحاربه أحد من أهلها ، وكتب إليه يستأذنه في التقدم إلى غيرها . قال : فكتب إليه أبو مسلم يستأمره بالمسير إلى أصبهان . قال : فرحل قحطبة من الري في جيشه ذلك يريد أصبهان ، ثم سار إلى قاشان ، وبلغ ذلك عامر بن ضبارة، فخرج في مائة ألف[3] أو يزيدون . قال : ودنا قحطبة بمصحف كان معه وأمر به ، فعلق في رأس رمح طويل ، ثم نادى مناديه : يا أهل الشام ! ندعوكم إلى ما في هذا المصحف من تفضيل محمد ﷺ وتفضيل بني هاشم ! قال : وكان أصحاب عامر بن ضبارة يشتمون قحطبة، ويشتمون أبا مسلم وولد العباس ؛ فقال قحطبة لأصحابه : احملوا عليهم وقولوا « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » قال : فحمل الفريقان بعضهم على بعض ، واقتتلوا ساعة من النهار ، فقتل من أصحاب قحطبة نفر يسير ، وقتل عامر بن ضبارة صاحب أصبهان . وقتل من حضر من أهل الشام وغيرهم خلق كثير لا يحصون كثرة . وبعث قحطبة برأس عامر بن ضبارة إلى أبي مسلم وكتب إليه بالفتح ، ثم إنه دخل مدينة أصبهان ، فقتل منها من قتل ، وجبى خراجها ووجه به إلى أبي مسلم .

ثم سار منها إلى نهاوند وبها يومئذ مالك بن أدهم بن محرز الباهلي والحكم بن ثابت بن مسعر الخثعمي[4] . وبها أيضاً أولاد نصر بن سيار في جماعة من أصحاب أبيهم . قال : فنزل قحطبة وأصحابه على نهاوند ، فحاصروا القوم حصاراً شديداً وضيّق عليهم غاية الضيق ووضع عليهم المناجيق ، فجعل يرميهم ليلاً ونهاراً . وهو مع ذلك يدعوهم إلى طاعة أبي مسلم وهم لا يجيبون إلى ذلك . قال : فبينما القوم في محاربة أهل نهاوند إذ أرسل مالك بن أدهم الباهلي يسأله أن يعطي له ولأصحابه

---

(١) قتل ما يزيد على ثلاثين ألفاً قاله ابن الأثير .

(٢) سمنان بلدة بين الري والدامغان .

(٣) في ابن الأثير : وقيل خمسين ومائة ألف .

(٤) الطبري : الحنفي .

الأمان ولجماعته من أهل الشام ؛ فلما خرج مالك بن أدهم[١] إليه وخرج أيضاً جماعة من أصحاب نصر بن سيار ، قال : وعلم بهم قحطبة وبقدومهم ، وكانوا يزيدون على أربعين رجلاً وفيهم أولاد نصر بن سيار فغدر بهم فضرب أعناقهم ووجه برؤوسهم إلى أبي مسلم وكتب إليه بالفتح . ثم دخل نهاوند وجبى خراجها ووجه به إلى أبي مسلم .

ثم سار منها إلى حلوان وبها يومئذ عبد الله بن العلاء الكندي[٢] من قبل ابن هبيرة فخبر بخبر قحطبة ، فلما أحس بخيل قحطبة أنها وافته خرج من حلوان هارباً إلى أن صار إلى يزيد بن [عمر بن][٣] هبيرة فأعلمه بذلك . قال : ووصل قحطبة إلى مدينة حلوان فجبى خراجها فقوى به أصحابه .

وعزم على المسير إلى العراق ثم ادعى برجل من أصحابه يقال له عبد الملك بن يزيد ويكنى أبا عون ، فضم إليه أربعة آلاف رجل وأمره بالسير إلى شهر زور ، وبها يومئذ رجل من قبل يزيد بن [عمر بن][٣] هبيرة يقال له عثمان بن سفيان في خمسة آلاف فارس من أهل الشام وأهل العراق ، فلما بلغه مسير أبي عون إليه خرج وتلقاه على فرسخين من شهر زور فاقتتلوا هنالك ، فقتل عثمان بن سفيان[٤] وقتل جماعة من أصحابه وانهزم الباقون على وجوههم مشردين في البلاد . قال : وبعث أبو عون ابنَ سفيان[٥] إلى قحطبة بن شبيب ودخل إلى شهر زور .

قال : وبلغ ذلك إلى يزيد بن [عمر بن][٣] هبيرة فرحل من واسط إلى العراق في خلق عظيم حتى صار إلى جلولاء فنزلها ، ثم إنه خندق على نفسه خندقاً[٦] وجمع إليه أصحابه . وبلغ ذلك قحطبة بن شبيب فرحل من حلوان فنزل خانقين . ورحل يزيد بن [عمر بن][٣] هبيرة راجعاً إلى ورائه حتى نزل بموضع يقال له

---

(١) الأصل « قحطبة » خطأ .

(٢) في تاريخ خليفة : « عبيد الله بن العباس الليثي » .

(٣) سقطت من الأصل .

(٤) الأصل والطبري وابن الأثير ، وفي تاريخ اليعقوبي ٢ / ٣٤٣ عثمان بن زياد .

(٥) في الطبري وابن الأثير : قُتل عثمان بن سفيان ، وقيل لم يقتل ولكنه هرب إلى عبد الله بن مروان بن محمد .

(٦) وهو الخندق الذي احتفره العجم أيام وقعة جلولاء .

الدسكرة[1] . وبلغ ذلك قحطبة فقال لبعض أصحابه : ذر ابن هبيرة ينزل أين شاء ويرحل إلى حيث يشاء فلسنا نريده ، وإنا نريد لصاحبه مروان بن محمد بن مروان إلى أن تعرّض لحربنا فلا نجد بداً من دفعه عنا . قال : ثم أقبل قحطبة على أصحابه وقال : اطلبوا دليلاً يدلنا على أرض العراق وطريق الكوفة ويأخذ بنا على غير الجادة ، قال : فوثب رجل من همذان يقال له خلف بن مورع فقال : أيها الأمير ! أعرف الطريق أنا من ههنا إلى الكوفة إلى براعن[2] يزيد بن [عمر بن][3] هبيرة فلا تراه ولا يراك ، فقال : إذاً سر بين أيدينا فإذا سلم الله فلك عندي عشرة آلاف درهم . قال : فسار الهمذاني بين يدي قحطبة حتى عبر لهم نهراً يقال له تامرا[4] ، ثم سار في طريق قاصد حتى صار بهم إلى مدينة يقال لها عكبرا[5] على شاطىء الفرات وهي الدجلة ، ثم عبر بهم من الدجلة إلى موضع يقال له أوانا[6] .

قال : فنزل قحطبة أوانا[6] ، واتصل الخبر إلى يزيد بن [عمر بن][3] هبيرة فقال لأصحابه : ما تقولون الآن في أمر قحطبة ؟ فقالوا : أيها الأمير ! إن قحطبة يريد الكوفة فذره وانزل إلى خراسان فخذها ، فقال ابن هبيرة[7] : أسير إلى خراسان وفيها أبو مسلم الخراساني في مائة ألف عنان ، لا ، ولكني أبادر إلى قحطبة وأسبقه إلى الكوفة . وسار يزيد إلى الكوفة فاقتربت العساكر بعضها من بعض ، وأقبل قحطبة حتى نزل على شاطىء الفرات وأمر أصحابه بالنزول إلى الجانب الآخر وذلك وقت المساء ، فجعل القوم يعبرون ووافتهم العساكر مع يزيد بن [عمر بن][3] هبيرة وقد عبر عامة الناس ، فتناوش القوم وأقبلوا على شاطىء الفرات ، واختلط الظلام وذهب قحطبة ليحمل على جماعة من بني يزيد ، فانهار الجرف من تحت قوائم الفرس فسقط به في الفرات فغرق ولم يعلم به أحد من أصحابه ، غير أنهم كانوا يقاتلون أشد القتال حتى أصبحوا ، فانهزم أصحاب يزيد بن [عمر بن][3] هبيرة هزيمة قبيحة وقد

(١) عن الطبري ، وبالأصل « الدسكر » .
(٢) كذا بالأصل .
(٣) سقطت من الأصل .
(٤) عن معجم البلدان ، وبالأصل « نامرا » .
(٥) عن ابن الأثير ، وبالأصل « عكبر » .
(٦) عن الطبري ، وبالأصل « بوانا » .
(٧) بالأصل : أبو هبيرة .

قتل منهم خلق كثير .

قال : وافتقد أهل خراسان قحطبة فلم يروا له خبراً ، فبينما هم كذلك إذ نظروا إلى فرسه على شاطىء الفرات وجميع ما عليه مبلول ، فعلموا أنه قد غرق في جوف الليل[1] . قال : فأقبل الناس على الحسن بن قحطبة فبايعوه . قال : فجمع الحسن الناس وسار بهم إلى الكوفة . قال : وبلغ ذلك إلى يزيد بن [عمر بن][2] هبيرة فتنحى عن سواد الكوفة راجعاً إلى وسط العراق فنزل بها أيضاً ، وفي الكوفة رجل من قبله يقال له عبد الرحمن بن بشير العجلي ، فخرج عن الكوفة إلى أن لحق بصاحبه . وسار ابن قحطبة حتى دخل الكوفة في نيف وثلاثين ألفاً من أهل خراسان ومن اتبعه من أهل العراق وأقبل إليه أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وكان يعرف بالوزير وزير آل محمد ﷺ ؛ فلما رآه الحسن بن قحطبة قام إليه وقبل يده وتنحى عن مجلسه حتى أجلسه ، ثم قال : أيها الوزير إن الأمير أبا مسلم قد أمرنا بطاعتك فما تأمرنا ؟ قال : فوثب أبو سلمة من وقته وركب معه الحسن بن قحطبة ، ونودي في الناس فاجتمعوا إلى المسجد الأعظم ولم يبق هاشمي ولا غير ذلك من أشراف أهل الكوفة إلا وقد اجتمعوا وهم لا يدرون لأي شيء يجتمعون .

ذكر البيعة وعقد الخلافة لولد العباس ابن عبد المطلب السفاح

قال : وبالكوفة يومئذ جماعة من العلوية ، قوم يظنون أن البيعة تكون لولد أبي طالب ، وقوم يظنون أن البيعة تكون لولد العباس . قال : فاجتمع الناس وتكاملوا في المسجد ، وأقبل أبو سلمة حفص بن سليمان حتى صعد على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وخطب الناس ، ثم قال : أيها الناس ! انظروا غداً ولا يبقى أحد ممن يلبس السلاح ويركب الخيل إلا ويلبس السواد ويوافي هذا المسجد حتى تعقد البيعة لأهلها ـ والسلام ـ . قال: فعندها أيس الناس من آل أبي طالب من البيعة ، وانصرف الناس إلى منازلهم فجعلوا يصبغون الأقبية والعمائم والأعلام ، فما أقبل الصباح إلا وأهل الكوفة كلهم لابسون السواد ، ثم صاروا إلى المسجد الأعظم ،

(١) في ابن الأثير ٣/٤٨٥ وجدوه في جدول وحرب بن سالم (في الطبري : سلم) بن أحوز قتيلين ، فظنوا أن كل واحد منهما قتل صاحبه .

(٢) سقطت من الأصل .

فركب بعضهم بعضاً ، وضربت الطبـول ، وخفقت الرايـات ، ونفخت البوقـات ، وارتفع التكبير ؛ أقبل أبو سلمة حفص بن سليمان حتى دخل المسجد وعليه سواد ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر محمداً فصلى عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، ثم قال : أيها الناس ! هل أنتم راضـون بما أصنـع ؟ فقالـوا : رضينا بأمرك ، افعل ما بدا لك ، فقال : إن الأمير أمير آل محمد أبا مسلم الخراساني عبد الرحمن بن مسلم كتب إليَّ وأمرني أن أقيم للناس خليفة هاشمياً ، لتستـريح هـذا الخلق من جور بني أمية العاتين الظالمين الفسقة الذين قتلوا ذرية رسول الله ﷺ ، ألا ! وإنا قد نظرنا في أخيار بني هاشم وذوائبها فما رأينا فيها أحداً هو أجل ولا أعبد من علي بن عبد الله بن عباس وابنه محمد ، وكل بني العباس خيرون فاضلون ، وقد ارتضيت لكم عبد الله بن [محمد بن][1] علي بن عبد الله بن عباس ، وهو الزكي في حسبه ، التقي في نسبه ، العدل في سيرته ، فهل رضيتم به ؟ قال : فضج الناس من كل جانب : نعم رضينا .

ثم نزل أبو سلمة عن المنبر وأرسل إلى عبد الله بن محمـد فدعـاه ، فأقبـل عبد الله بن محمد على بغلة له دهماء[2] وهو معتم بعمامة سوداء وعليه ثياب سود حتى دخل المسجد ، وذلـك في يوم الجمعـة ، وقد أذن المؤذن ؛ فصعـد أبو العبـاس عبد الله بن محمد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلـى على نبيه محمد ﷺ ، ثم خطب خطبة بليغة [3] شوق فيها إلى الجنة وحذر فيها من النار ، وذكر ما وعد الله عباده المتقين وما أعد الله للظالمين ، ثم قال : أيها الناس ! بايعوا ولا تختلفوا ، فإنكم لم تبايعوا بعد رسول الله ﷺ والأئمة الأخيار بعده أهدى من هـذه البيعة ، لأنكم كنتم مقهورين مظلومين ، وكنا معكم على مقت مغلوبين مغصوبين ، فأقام الله لنا شيعتنا من أهل خراسان ، فعرفوا لنا أقدارنا وطلبوا لنا بثأرنا ، فـالحمد لله رب العـالمين والسلام .

قال : ثم نزل فصلى بالناس صلاة الجمعة ، فلما فرغ من صلاته جلس قريباً من السرير ثم بسط يديه ، فازدحموا عليه بالبيعة حتى كسروا درابـزين المقصور .

---

(١) سقطت من الأصل ، وما أثبت عن ابن الأثير .
(٢) في ابن الأثير ٣/٤٩٠ « برذوناً أبلق » وفي تاريخ خليفة : « أشهب » .
(٣) انظر خطبته في الطبري ٧/٤٢٥ ابن الأثير ٣/٤٩٠ .

قال : فكانت بيعته لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ـ والله أعلم ـ . فهو أول من ملك من ولد العباس، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن [عبد] المطلب بن هاشم ، وأمه امرأة من العرب من بني الحارث بن كعب واسمها ريطة بنت عبيد الله[1] بن عبد الله بن عبد المدان[2] ابن الديان بن قطن بن زياد[2] بن الحارث بن كعب .

قال : وكان مروان بن محمد يومئذ مقيماً بأرض حران . فلما بلغه أن الناس قد بايعوا ولد العباس أخذ إبراهيم بن محمد أخا العباس فقتله ، وعزم على محاربة بني هاشم وولد العباس .

ذكر حديث مروان وما كان منه بعد بيعة بني العباس للناس

قال : ثم دعا مروان بإسماعيل بن عبد الله القسري فقال : ويحك يا أبا هاشم ! أبو مسلم بخراسان قد تغلب عليها وعلى سائر الجبال ، وهذا عبد الله[3] بن محمد بالعراق وقد بايعه الناس ، وأنت المدين به في الأرض ، فهات ما عندك ، فقال له إسماعيل بن عبد الله : يا أمير المؤمنين ! خبرني على ماذا عزمت حتى أشير عليك ، فقال مروان : أزمعت والله على أن أسير بعيالي وأهلي وخدمي وأموالي ومن يتبعني من الناس ثم إني أقطع الدرب وأصير إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها، وأكاتب ملك الروم لعله ينصرني على عدوي ! فقال إسماعيل بن عبد الله : أعيذك بالله[4] يا أمير المؤمنين من هذا الرأي أن تحكم أهل الشرك من بناتك وحريمك ! وهي الروم الذي لا وفاء لها ولا ذمام ، ولا تدري ما تأتي به الأيام ، فإن حدث بك حادث بأرض الروم ضاع من بعدك حريمك وولدك ومالك ، ولكن أشير عليك أن تقطع الفرات وتصير إلى الشام ، فإنهم إذا نظروا إليك لم يعدلوا إليه ولم يعدلوا بك أحداً ، فتكون الشام

---

(١) عن العقد الفريد ، وبالأصل « الحارث » .

(٢) عن العقد الفريد وبالأصل « عمرو » .

(٣) بالأصل « عبيد الله » خطأ .

(٤) عن الأخبار الطوال ص ٣٦٥ وبالأصل : ما عندك بالله . وانظر مروج الذهب ٣/٣٠١ ـ ٣٠٢ والإمامة والسياسة ٢/١٦٠ .

لك ومصر ، وإنه بقية من خلفك[1] . فإن رأيت ما تحب منها فنعمة ، وإن تكن الأخرى فتمضي إلى إفريقية فهي أصلح لك من بلاد الروم . فقال مروان : صدقت يا أبا هاشم ! هذا هو الرأي ، غير أني قد عزمت على أمر ، وهو أن أواقع القوم وقعة واحدة وأنظر كيف يكون أمري ، فإن كان الذي أريده وإلا فالشام بين أيدينا .

ذكر مسير مروان بن محمد إلى محاربة ولد العباس رضي الله عنهم

قال : ثم تعبى مروان وخرج من حران في جيش غزير يريد الموصل ، وجعل الناس يستنفرون الناس ، فصاروا إلى مدينة الموصل وقد اجتمع إليه مائة ألف عنان . قال : وبلغ ذلك أبا العباس فخطب الناس وخبرهم بمسير مروان إلى أرض الموصل ، ثم قال : من ينتدب إليه منكم ؟ قال : فتكلم عم أبي العباس عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس فقال : أنا له يا أمير المؤمنين ! فقال أبو العباس : أنت له فسر على بركة الله وعونه . قال : فجمع عبد الله بن علي أصحابه فعرضهم وأعطاهم الأرزاق ، ثم خرج من الكوفة في عشرين ألفاً أو يزيدون حتى نزل مدينة يقال لها الحديثة وهي على سبعة فراسخ من الموصل . قال: وسار إليه أبو[2] عون عبد الملك ابن يزيد من شهر زور في أربعة آلاف ، فصار عبد الله بن علي في أربعة وعشرين ألفاً ويزيدون .

فبلغ ذلك مروان بن محمد فصار من مدينة الموصل في مائة ألف عنان حتى نزل على شاطىء نهر يقال له الزاب[3] حذاء عسكر عبد الله بن علي . قال : ثم أمر مروان فعقد له جسراً على الزاب ثم نادى في أصحابه فركبوا ، وركب مروان فرسه الأشقر الذي كان يذكره الناس فيقولون : أشقر مروان ، وكان فرساً عربياً عتيقاً لم ير في ذلك الدهر مثله . قال : فركبه مروان حتى وقف على الجسر فنظر إليه ملياً ثم قفع فرسه وعبر إلى عسكر عبد الله بن علي ، وعبر إليه أصحابه ، وعبر عبد الله بن علي وأصحابه إليهم ؛ ثم إنه عبى أصحابه ميمنة وميسرة وقلباً وجناحاً . وتقدم حتى وقف في القلب . ومالت الخيلان بعضها على بعض فاقتتلوا من ضحوة النهار إلى أن جاء وقت الظهر ، فكانت الدائرة على أصحاب عبد الله بن علي وقتل منهم جماعة ، فرفع

(١) في مروج الذهب والإمامة والسياسة : الشام أمامك وأفريقيا خلفك .

(٢) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل « ابن » .

(٣) الزاب نهر بالموصل ، والزاب أيضاً عدة مواضع .

عبد الله رأسه إلى السماء فقال : إلهي وسيدي ومولاي ! إلى كم نقتل فيك وفي طاعتك ! إلهي وسيدي ومولاي ! أنت تعلم أن هؤلاء القوم الذين نقاتلهم هم الذين قتلوا أهل بيت نبيك محمد ﷺ وشردوهم في البلاد ، اللهم ! فانصرنا عليهم يا ذا الجلال والإكرام . قال : واشتبك الحرب بينهم ، فصارت الدائرة على أصحاب مروان فقتل منهم بشر كثير وجعل بعضهم يقف خلف بعض ، وصاح مروان : يا معشر السكاسك[1] والسكون احملوا ! فقالوا : قل لبني عامر[2] أن يحملوا ، فقال مروان : يا بني عامر[3] احملوا ! فقالوا : قل لأسد وتميم أن يحملوا . قال : فأحس مروان بالخذلان فالتفت إلى صاحب علمه[4] فقال : قدم علمك ! قال : لا أفعل ، قال : لئن لم تفعل لأشوهن بك ، قال : لئن قدرت فافعل . قال : ثم نكس علمه وقفع فرسه وصار إلى عبد الله بن علي ، قال : ونظر أهل الشام إلى صاحب علمه قد استأمن فانكسروا لذلك ، ووقع فيهم القتل وعزموا على الهزيمة . قال : وثنى مروان رأس فرسه أيضاً فظنوا أنه قد انهزم ، فولى الناس وجعلوها هزيمة . قال : وجعل مروان يناديهم : ويحكم أنا أمير المؤمنين ! أنا مروان بن محمد ! فلم يعرج عليه أحد من الناس ، فلما رأى ذلك انهزم . قال : وتبعه عبد الله بن علي هو وأصحابه ، فجعل البعض يأخذهم من شاطىء الفرات إلى أرض الموصل . قال : وانقطع الجسر فغرق من أصحاب مروان خلق كثير ، فجعل عبد الله بن علي يتلو هذه الآية ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾[5]. قال: وجعل رجل من أصحاب عبد الله بن علي ينظر إلى هزيمة القوم وما حل بهم من الانكسار يزدجر ويقول[6] :

لج الفرار بمروان فقلت له[7]	عاد الظلوم ظليماً همه الهربُ
أين الفرار وترك الملك إن ذهبت	عنك الهوينا فلا دين ولا حسب

قال : واحتوى عبد الله بن علي على جميع ما كان في عسكر مروان وضمه

---

(١) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل « السكابين » .

(٢) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل « عمران » .

(٣) بالأصل « عمر » .

(٤) في ابن الأثير : لصاحب شرطته .

(٥) سورة البقرة الآية ٥٠ .

(٦) هو من ولد سعيد بن العاص كما في الطبري ٤٣٤/٧ وابن الأثير ٤٩٥/٣ والبيتان فيهما .

(٧) عن المصدرين السابقين ، وبالأصل « لهم » .

وقسمه بين أصحابه ، ثم كتب إلى أمير المؤمنين أبي العباس يخبره بذلك وبالوقعة وهزيمة مروان بن محمد ؛ فلما قرأ أبو العباس الكتاب جعل يتلو هذه الآية ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾[1] ، فقال له جلساؤه : قتل مروان يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يقتل إن شاء الله ، فإنه ليس بعد هزيمة الظالم إلا قتله ؛ فأنشأ رجل من همذان في ذلك يقول أبياتاً مطلعها :

تعساً أمية قد زلت بكم قدم	وأصبح الملك من أيديكم انتزعا
وما لها من بني العباس مضطلع	بالحمل لو كلفوها غيره طلعا
خذها هنيئاً أبا العباس أنت له	رود الشباب لها مستقبلاً جدعا
خذها هنيئاً مريئاً أنت صاحبها	للدين طراً وللدنيا وما جمعا
ميراث أحمد كانوا يلعبون به	يا ربّ مستحصد غير الذي زرعا

قال : ومرّ مروان منهزماً لا يلوي على شيء حتى صار إلى حرّان ، فتحمل بحريمه وأولاده وحاشيته وأمواله ومرّ على وجهه هارباً حتى عبر الفرات وصار إلى قنسرين من أرض الشام ، فخرجت عليه قبائل : بنو طيء وتنوخ ، فانتهبوا عامة أمواله ؛ ثم صار إلى حمص ففعلوا به ذلك ؛ ثم صار إلى دمشق وهي دار بني أمية ، فخرج عليه أهلها فمنعوه دخولها فمر هارباً على وجهه حتى وصل إلى مصر والخيل في طلبه . فصار إلى مدينة يقال له الفرما[2] فنزلها .

ذكر مسير عبد الله بن علي في طلب مروان ابن محمد بن مروان

قال : وسار عبد الله بن علي إلى أرض الموصل وأقام بها ثلاثة أيام ، ووافاه أخواه[3] من العراق : صالح بن علي وعبد الصمد بن علي ، ووردوا إليه في عشرة

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

(٢) بالأصل « العزما » وما أثبت عن معجم البلدان ، والفرما : مدينة على الساحل من ناحية مصر .
انظر في هزيمة مروان وهروبه إلى مصر الطبري ٤٣٥/٧ وابن الأثير ٤٩٩/٣ ومروج الذهب ٢٩٩/٣ .

(٣) بالأصل « أخوه » وقد قدم عليه بأمر أبي العباس أخواه عبد الصمد بن علي وصالح بن علي مدداً له ، بعد أن كتب أبو العباس إلى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان .

آلاف[1] . قال : فعندها دعا عبد الله بن علي رجلاً من أصحابه يقال له محمد بن صول فولاه الموصل وديار ربيعة . ثم سار إلى حران فنزل[2] الدار التي قتل فيها إبراهيم بن محمد الإمام ، ثم سار إلى منبج ، ثم رحل إلى مدينة حلب ، فكان لا يدخل مدينة إلا استقبله أهلها وقد تسوّدوا وبرقعوا الأعلام السود ، فلم يزل كذلك حتى صار إلى مدينة دمشق وفيها يومئذ الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم[3] ، فنزل عبد الله على باب يقال له الشرقي ، ونزل صالح بن علي على باب الجابية ، وعبد الصمد على باب الفراديس ، وحميد بن قحطبة على باب توما ، وأحدقت العساكر بمدينة دمشق ، ووثب بعضهم على بعض فجعلوا يقتلون من جوف المدينة عصبة لبني العباس وعصبة لبني أمية ، فكانت الغالبة سيوف بني العباس ، فوثبوا على عامل دمشق الوليد بن معاوية بن مروان[4] فقتلوه ، وفتحت الأبواب كلها ، فدخل عبد الله بن علي[5] فسكن الناس وأمّنهم ، وأقام بدمشق أياماً[6] . ثم رحل منها إلى فلسطين فنزلها ، ووجه بأخيه صالح بن علي في طلب مروان بن محمد بن مروان .

ذكر مقتل مروان بن محمد

قال : فخرج صالح بن علي في عشرة آلاف عنان أو يزيدون يريدون مروان بن محمد بن مروان ، ومروان يومئذ مقيم بمدينة الفرما[7] بأرض مصر . قال : فلما بلغه مسير صالح بن علي إليه ليقتله عمد إلى ما كان في البلاد من العلف والطعام فأحرقه عن آخره ، ثم خرج هارباً نحو بلاد مصر حتى جاز إلى الفسطاط ، ثم رحل عنها ، فكان لا يمر بشيء من العلف إلا أحرقه ، وصالح بن علي في طلبه حتى نزل بأرض يقال لها العيونة[8] ثم دعا بعامر بن إسماعيل الجرجاني[9] فضم إليه أربعة آلاف عنان

---

(١) في ابن الأثير : قدم عبد الصمد في أربعة الآف . . . وقدم صالح بن علي في ثمانية الآف . (يعني في اثني عشر ألفاً) .

(٢) في ابن الأثير : فهدم الدار .

(٣) عن ابن الأثير ٣/٤٩٨ وبالأصل عبد الملك بن مروان خطأ .

(٤) بالأصل « عبد الملك » وما أثبت عن ابن الأثير .

(٥) كان دخوله دمشق يوم الأربعاء لعشر مضين من رمضان سنة ١٣٢ كما في الطبري (في ابن الأثير لخمس مضين) .

(٦) في ابن الأثير : خمسة عشر يوماً .

(٧) بالأصل « العزما » وقد مرّت قريباً .

(٨) كذا ، وفي الطبري : « ذات الساحل » وفي ابن الأثير : ذات السلاسل .

(٩) في الطبري وابن الأثير : « الحارثي » وفي مروج الذهب : المذحجي .

ووجه به في طلب مروان بن محمد . قال : ومروان يومئذ بمدينة يقال لها عين شمس وهي مدينة فرعون ، فجاء عامر بن إسماعيل حتى دخل المدينة في جوف الليل ونظر فإذا غلام في يده برذونة يقودها ، فقال : يا غلام ! لمن هذه البرذونة ؟ فقال : لبعض غلمان أمير المؤمنين مروان ، قال : وأين مروان ؟ قال : ها هو نازل في الكنيسة . قال : فقصدت الخيل إلى باب الكنيسة ، وعلم بذلك مروان فوثب إلى درعه فأفرغه عليه وتناول سيفه وخرج إلى القوم وجعل يضاربهم . قال : وجعل عامر بن إسماعيل يقول لأصحابه بالفارسية : دهيد ياجوانگان ! فبينما مروان كذلك إذ حمل عليه رجل من أصحاب عامر بن إسماعيل يقال له محمد بن شهاب المازني فطعنه في خاصرته طعنة جندله قتيلاً[1] وأحدقت به الخيل ، ونزل إليه غلام محمد بن شهاب فاحتز رأسه ، ثم وضع السيف فيمن بقي من أصحابه ، فما أفلت منهم إلا ما أخذ أسيراً . قال : فأنشأ رجل من أهل الكوفة يقول أبياتاً مطلعها :

نزع الخلافة من بني مروان ... ربٌّ علا بالطول والإحسانِ
ما زال مروانٌ يقرّب خطوة ... ويحرق الأرضين بالنيران
ويروغ منها في البلاد ولم يكن ... قدر الإله يجلّ عن مروان
ولقد رماهم[2] صالح بفوارس ... شم الأنوف معانقي الأقران
فاستخرجوه من الكنيسة صاغراً ... ولعاوروه بذلة وهوان
وأتاه للحين المباح فوارساً ... ألقوا الطعان بساحة الميدانِ
ساروا برأس الرجس مروان الذي ... فتك الورى بالظلم والعدوانِ

قال : ثم احتوى عامر بن إسماعيل وأصحابه على دواب مروان وأمواله وسلاحه وقليله وكثيره ، وساروا برأسه إلى صالح بن علي حتى وضعوه بين يديه ، فوجه صالح بالرأس إلى أخيه عبد الله بن علي[3] وهو مقيم بأرضه ، فوجه به عبد الله بن علي إلى أمير المؤمنين أبي العباس .

---

(١) وفي الطبري اسمه « المغود » وفي الأخبار الطوال ص ٣٦٧ ومروج الذهب : قتله عامر بن إسماعيل . وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ .

(٢) بالأصل « رماه » وما أثبتناه « رماهم » لاستقامة الوزن .

(٣) بالأصل « عباس » .

ذكر كتاب عبد الله بن علي إلى أمير المؤمنين أبي العباس [عبد الله بن محمد بن علي][1] ابن عبد الله بن العباس

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين من[2] عبد الله بن علي ، يسلم عليك ، أما بعد ، فأتبعنا عدو الله[3] الجعدي إلى مقر فرعون عدو الله ، فقتله الله بمدينة شبيهه وهو فرعون ذو الأوتاد ، فأراح الله منه العباد والبلاد ، وقد فتح الله على أمير المؤمنين ببلاد الشام وبلاد مصر ، فاسأل الله يا أمير المؤمنين أن يزيدك من فضله - والسلام عليك ورحمة الله وبركاته - .

قال : وكان ملك مروان خمس سنين وشهرين ، وقتل في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ليلة الأربعاء لليلة خلت من ذي القعدة ، وهو يومئذ ابن اثنتين وستين سنة[4] ، وهو الأزرق الملقب بالجعدي[5] .

قال المدائني : فبلغه : لما أتي برأس مروان بن محمد من الشام فوضع بين يدي أمير المؤمنين أبي العباس ، فالتفت إلى جلسائه وقال : من منكم يعرف هذا الرأس ؟ قال : فتكلم فراس[6] بن جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي وجدته أم هانىء بنت أبي طالب ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هذا رأس خليفتنا بالأمس ، وكان والله لنا نعم الخليفة ! قال : فغضب أبو العباس من ذلك ثم قام من مجلسه وتفرق الناس ، ثم بعث إليه دعاة وقال : ما حملك على ما تكلمت به ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! إن مروان بن محمد كان بي باراً محسناً فلم أقدر على نصرته حقاً لما قد

---

(١) زيادة اقتضاها السياق .. وفي الطبري ٧/٤٤١ أن صالح بن علي هو صاحب الكتاب إلى أبي العباس .

(٢) بالأصل : ابن .

(٣) عن الطبري ، وبالأصل « عبد الله بن » .

(٤) انظر في مدة ولايته ومقدار عمره ويوم مقتله : مروج الذهب ٣/٢٨٢ العقد الفريد ٤/٤٦٩ الطبري ٧/٤٤٢ ابن الأثير ٣/٥٠١ البداية والنهاية ١٠/٤٧ البدء والتاريخ ٦/٥٥ المحبر ص ٣٢ تاريخ الخلفاء لابن يزيد ص ٣٦ .

(٥) لقب بالجعدي لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك. وقيل لقب بالحمار : لثباته في الحرب (فوات الوفيات ٤/١٢٨) .

(٦) في مروج الذهب ٣/٣١٢ أبو جعدة بن هبيرة المخزومي ، وكان أحد وزراء مروان وسمّاره .

أخذه الله عليّ من ميثاقكم ، وكرهت أن أخرج من الدنيا ولأحد علينا يد له لا أكافيه عليها بقول ولا فعل ، وإنه والله يا أمير المؤمنين أنت أبر بي وأكثر إليَّ إحساناً منه فتجنب ذلك يكن شكري لك ؛ فقال أمير المؤمنين : اجتنبت يا أبا هشام ومثلك فليصطفه الرجل . قال : ثم أمر له بثلاثين ألف دينار[1] .

قال المدائني : لما نصب رأس مروان بالكوفة على رمح واجتمع إليه الناس ينظرون إليه . وفيهم يومئذ حفص بن النعمان مولى عبد الله بن زياد ، فجعل ينظر إليه ويترحم عليه ويقول فيه كل جميل ، فرفع خبره إلى أبي العباس فدعا به ثم قال : كيف قلت ؟ فقال : ما قلت إلا كل جميل ، فقال رجل ممن حضر : يا أمير المؤمنين ! كذب ، ما قال جميلاً ولكنه نظر إلى رأس مروان وجعل يترحم عليه ويستغفر له ، فقال حفص بن النعمان : كذب يا أمير المؤمنين ! إني نظرت إلى رأس مروان فأنشأت أقول :

عبرنا زماناً على دولة	تسام من الذل ألوانها
وكانت أمية في ملكها	تجور وتظهر طغيانها
فلما رأى الله أن قد طغت	ولم يطق الله عدوانها
رماها بسفاح آل الرسول	محمد يكفيه أعنانها
فأهلاً ببيعة آل الرسول	ومن كان نرقب إبانها
ورحمة ذي العرش تترى عليك	ولا رحم الله مروانها

فقال الناس : إنه لم يقل كذا يا أمير المؤمنين ! ولكنه مدح بني أمية ، فقال أبو العباس : اسكتوا فقد علمت ما قال ، ثم قال : أنشدني ما قلت وأنت آمن ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! إن القوم كانوا إليَّ محسنين فقلت هذه الأبيات شرح حالي :

إن المكارم من أمية والألم	كانوا العيون لذي الشين اللزم
أضحى رهائن فقده صاروا بها	هاماً لتحريق الرياح للنسم
صارت أكاليل الرماح رؤوسهم	وكم يقول مغرم . . . . [2]
لهفيَ عليهم سادة من بعدهم	أخنى الزمان على الفقير المعدم

فقال له أبو العباس : صدقت ! هكذا قلت ولا تلام ، ثم أمر له أبو العباس

(١) الخبر في مروج الذهب باختلاف وزيادة ٣/٣١٢ - ٣١٣ .
(٢) كذا بالأصل .

بجائزة سنية ، فانصرف غانماً .

قال أبو الحسن المدائني : وبلغني أن أبا عطاء السندي دخل على أمير المؤمنين أبي العباس ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

إن الخيار من البرية هاشم وبنو أمية أرذل الأشرارِ
وبنو أمية عودهم من خروع ولهاشم في المجد عود نضار
أما الدعاة إلى الجنان فهاشم وبنو أمية من دعاة النار

قال : فلم يصله أبو العباس بشيء وقال : هذا الشعر لغيره ، فخرج من عنده وهو يقول :

يا ليت جور بني مروان عادلنا وإن عدل أبي العباس في النار

قال : فبلغ ذلك لأبي العباس فضحك ثم قال : لا يلام ، ردوه ، فأمر له العباس بثلاثمائة دينار .

قال أبو الحسن المدائني : دخل جحد بن خرعب[1] على أمير المؤمنين أبي العباس فأنشده أبياتاً مطلعها :

تبيت نساء بني أمية نوماً وباللطف قبلي ما ينام حميمُها

إلى آخرها .

قال : فدمعت عينا أبي العباس فبكى وبكى من كان بحضرته من آل أبي طالب وسائر بني هاشم ، ثم أمر بجحد بن جرعب بألف دينار .

وعقد لعمه داود بن علي على الحرمين وأمر بقتل من قدم عليه من بني أمية ، فقتل منهم داود بن علي من قتل ، ثم جعل يسأل عنهم فيقتلهم تحت كل حجر ومدر حتى سمع داود بن علي رجلاً يلبي وهو يقول في تلبيته : لبيك اللهم لبيك يا مهلك بني أمية ! قال : فدعاه داود بن علي فأعطاه ألف دينار .

ثم كتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن علي وهو بالشام كتاباً يكرر فيه عليه أن لا يدع من بني أمية أحداً ويقدر عليه إلا قتله . قال : فجعل عبد الله بن علي وهو بالشام يقتلهم تحت كل حجر ومدر ويخبره بذلك ، فكتب إليه أبو العباس أن تتبع قبورهم وتنبشها وتخرج ما فيها من العظام . فأول من نبش قبره معاوية بن أبي

(١) كذا ، وسيرد قريباً « جرعب » .

سفيان ، فما أصابوا فيه إلا شبه خيط[1] ؛ وثانيه نبش قبر يزيد بن معاوية لعنه الله ، فما أصابوا فيه إلا رميماً ؛ وكذلك قبر معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم ؛ وأما عبد الملك بن مروان فما أصابوا في قبره شيئاً إلا جمجمته وأضلاعه ؛ كذلك ابنه الوليد بن عبد الملك ، أصابوا فقارات ظهره ؛ وكذلك مسلمة بن عبد الملك بن مروان[2] ، فما أصابوا إلا صلبه وبعض جمجمته ؛ [وكذلك سليمان] بن عبد الملك ، ما أصابوا إلا عظماً واحداً . وكذلك ابن يزيد[3] وابن الوليد[4] والوليد بن مسلمة وسائر بني أمية ، ما أصابوا في قبورهم إلا العظم ؛ فجمع عبد الله عظامهم من كل موضع فأحرقها بالنار ، إلا قبر عمر بن عبد العزيز رحمه الله فإنه لم ينبش ؛ ثم أنشأ عبد الله بن علي يقول[5] :

حسبت أميــة أن سيـرضى هــاشم ... عنهـا ويـذهب زيـدُهـا وحسينهـا
كـلا ورب محمـد علم الهــدى[6] ... حتى تبـاحَ كنـوزهـا وحـزونهـا[7]
ويهـد عـرش بنـائهـا عن قـدره ... وتقـر من آل الـرسـول عيـونهـا
وتـذل كـل خـليلة لـخـليـلهـا ... بـالمشـرفي ويسـترد ديـونهـا

قـال : فلم يزل عبـد الله بن علي كذلـك حتى فعل بهم الأفـاعيل ، فـأنشأ شريف بن ميمونة[8] يقول أبياتاً مطلعها :

يـا أيـهـا البـاكي أميـة طـلّة ... أرسـل دمـوع العين طـال بكـاؤهـا

إلى آخرها .

قال أبو الحسن المدائني : أخبرني أبو العباس الفلسطيني وكان من غلبة أهل العلم في عصره قال : بعث عبد الله بن علي إلى أمير المؤمنين أبي العباس بمشايخ

---

(١) في الأصل « خطيط » .
(٢) بالأصل : يزيد بن عبد الملك بن هشام خطأ .
(٣) هو الوليد بن يزيد .
(٤) هو يزيد بن الوليد .
(٥) الأبيات نسبت في العقد الفريد لسديف .
(٦) العقد الفريد ٤/٤٨٤ وإلهه .
(٧) في معجم البلدان ٤/٤٨٧ .

حتى يباد كفورها وخؤونها

(٨) كذا ولم نعثر عليه .

أهل الشام ، فلما دخلوا إليه قال لهم أبو العباس : يا أهل الشام ! ما حملكم على الخروج مع بني أمية على بني هاشم وهم أهل بيت رسول الله ﷺ وهم أولى الناس بهذا الأمر من غيرهم ؟ قال : فحلف الشاميون بالله الذي لا إله إلا هو أنهم ما علموا أن رسول الله ﷺ له ذرية ولا أهل بيت غير بني أمية حتى وليتم أنتم هذا الأمر . قال : فتبسم [أبو] العباس تعجباً من جهل أهل الشام ولم يؤاخذهم بشيء من أمورهم ؛ قال : فأنشأ إبراهيم بن المهاجر يقول :

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبد شمس أنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله فيما ادعوا يحرز الميراث إلا من قرب

ذكر أخبار سديف بن ميمون مولى السجاد علي ابن الحسين بن أبي طالب رضي الله عنهم وأشعاره الملاح بين يدي أمير المؤمنين

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني : ولما أكثر عبد الله بن علي من قتل بني أمية بالشام ، وأكثر داود بن علي من قتلهم بالحجاز ، هرب من كان بالشام من بني أمية والحجاز حتى صاروا إلى العراق ، حتى اجتمعوا ووفدوا على أبي العباس وفيهم سليمان بن هشام بن عبد الملك وولدان له ، فلما دخلوا على أبي العباس وقفوا بين يديه فسلموا عليه ، ثم مشوا إليه بالرحم والقرابة ، وأعلموه طاعتهم له ، وأنهم من أمم كان آباؤهم فعلوه من قبل . قال : فقبل أبو العباس منهم وقربهم وأدناهم ، وكانوا يدخلون عليه ويسلمون ويخرجون . قال : فبلغ ذلك سديف بن ميمون وهو يومئذ بالشام عند عبد الله بن علي ، فقال لعبد الله بن علي : أنا بريء من أولاد السجاد علي بن الحسين إن لم أهيج عليه أضغانه وأبعث عليهم أحقاده في أبيات من الشعر أدخل عليه بها .

قال : ثم أقبل سديف من الشام حتى وصل إلى العراق ووقف بباب أبي العباس ثم استأذنه ، فدخل أبو غسان الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ! إن رجلاً أناخ راحلته بالباب وقال : استأذن لي على أمير المؤمنين ، فقلت : يا هذا ! انزل ودع متاع سفرك وأودع راحلتك ثم عد إليّ حتى استأذن لك ؛ فقال : والله لا سفرت عيني إلا بين يدي أمير المؤمنين . فقال أبو العباس : فهل سألت عن اسمه ؟ فقال : قد سألت عن ذلك ، فزعم أنه سديف بن ميمون ، فتبسم أمير المؤمنين وقال : ائذن له حتى يدخل : فخرج الحاجب فأذن له ، فدخل وإذا به رجل طويل وهو متكىء على محجن في يده ، فلما نظر إلى وجه أبي العباس سفر عن وجهه وسلم ، فرد عليه أبو العباس السلام ، فسأله الدنو فأذن له ، فدنا إلى فصل أبي العباس ، ثم رجع

القهقهرى إلى ورائه حتى قام في آخر البساط ، ثم رفع صوته وأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

ظهر الحق فاستبان مضيّا إذ رأينا الخليفة المهديا

إلى آخرها .

قال : فلما فرغ سديف من إنشاده قال أبو العباس : خلق الإنسان من عجل يا سديف ـ أو قال : خلق الإنسان عجولاً ؛ ثم تمثل أبو العباس بقول سابق البربري حيث يقول :

حتى الضغائن أنى لهم سلفوا فلم يكافوا ولا الأبناء أبناءُ(1)

قال : ثم أمر له بجائزة سنية .

فلما كان بعد شهر أو أقل من ذلك أقبل إلى أمير المؤمنين سديف فوقف بالباب ثم استأذن ، فأذن له فدخل والمجلس غاص بالناس ، فأعطى حق التسليم ، فقال أبو العباس : يا سديف ! قل شيئاً ، فأنشأ سديف يقول أبياتاً مطلعها :

ألا من لقلب مستهام متيّم تكلّم لا تبعد عن الناس تكلُم

إلى آخرها .

قال : فلما فرغ من إنشاده قال له أبو العباس : أحسنت يا سديف ! فهل من مزيد ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال : قد أذنت لك فهات وهزني ما استطعت ! فأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

أمير المؤمنين أولى رجاء بأقوام تبيض وهي داء
وحد السيف للداء الدواء

إلى آخرها .

قال : فدمعت عينا أبي العباس وأمر بسديف بجائزة سنية ؛ وانصرف إلى منزله ومشت إليه العلوية من ولد الحسن والحسين فقالوا : يا سديف ! إنه ليس أحد يقوم بالتحريض على أمير المؤمنين وقتلهم سواك ، فما عليك أن تقول قصيدة وفيها تحريض أمير المؤمنين على قتلهم فيقتلوا كما قتلونا في سالف الدهر ، قال فقال سديف : كفيتم ، اسكتوا ، فأنا بريء من أولاد السجاد إذ لم أحرض على قتلهم ولا أبقي منهم أحداً ! قال : ثم أقبل سديف حتى وقف على باب أبي العباس

---

(1) البيت في الأغاني ٤/٣٤٩ :

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء أبناء

واستأذن ، فأذن له فدخل وسلم ، فلما رآه تبسم في وجهه ثم قال أمير المؤمنين : يا سديف ! أنشدنا شيئاً ! فرفع صوته وأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

دار سلمى نهيضة الأبيات   لست من أسرتي ولا من كنّات

إلى آخرها .

قال : فقال أبو العباس : أحسنت يا سديف ، أعد ، فأعاد ! ثم قال : أعد ، فأعاد ، فقال أبو العباس : يا صالح ! أعط سديفاً ألف دينار ، ثم قال للحاجب : أغلق الباب وهات الكافركوبات[1] ، قال : فدخل الأعوان وفي أيديهم الخشب المسودة ، فقال أبو العباس : انكوا على أعداء الله ! فإن هذا يوم قد أذن الله في هلاكهم . قال : فنكوا على بني أمية بالخشب فقتلوهم عن آخرهم ـ وهم ثمانون رجلاً أو يزيدون ـ فما أبقى أبو العباس منهم على أحد إلا على الثلاثة : سليمان بن هشام بن عبد الملك وابنيه ، فإنه أبقى عليهم فلم يقتلهم من وقته . ثم أمر بالأنطاع فألقيت عليهم ، وأمر بالموائد فأحضرت ووضعت على الأنطاع ، ثم التفت إلى من حضر من ولد العباس وولد أبي طالب رضي الله عنهم فقال : كلوا فقد برد الغليل . قال : وكان القوم يأكلون وإن الموائد لترفع أو تحط من تحرك القوم ونفسهم . قال : ثم أمر بهم فصلبوا في بستان له في داره . قال : وإنه ذات يوم يأكل ومعه جماعة من ولد أبيه وولد علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وباب البستان مفتوح إذ فاحت روائح القوم ، فقال من كان حاضراً على المائدة : يا أمير المؤمنين ! لو أمرت بغلق هذا الباب ؟ فقال : إن رائحتهم لأعجب من رائحة المسك ! فكلوا واحمدوا الله تعالى على هلاكهم .

قال : فبينا هو ذات يوم كذلك إذ استأذن سديف بن ميمون فأذن له فدخل ، فلما مثل بين يديه تبسم أبو العباس في وجهه فقال : إيه أيا سديف ! فطفق ينشد ويقول أبياتاً مطلعها[2] :

أصبح الملك ثابت الأساس   بالبهاليل[3] من بني العباس

---

(1) كذا بالأصل والأغاني ٣٤٦/٤ وبهامشها : لعله اسم أعجمي لآلات يضرب بها كالعمد وغيرها .

(2) انظر الأبيات في الأغاني ٣٤٥/٤ والكامل للمبرد ١٣٦٧/٣ العقد الفريد ٤٨٦/٤ ابن الأثير ٥٠٢/٣ تاريخ اليعقوبي ٣٥٩/٢ عيون الأخبار ١٠٢/١ طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(3) بالأصل « بالتهاليل » وما أثبت عن الأغاني وغيرها . والبهاليل جمع بهلول ، قال المبرد : والبهلول : الضحاك .

إلى آخرها .

قال أبو العباس : يا صالح ! ألم آمرك أن تعطي سديفاً ألف دينار ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ! ولي من ذلك عذر ؛ قال : لا عذر لك ، الآن اعطه ألف دينار وخيار ثيابي ، ثم قال : خذها حتى ننظر فيما قلت .

قال : فلما خرج سديف بن ميمون من عند أبي العباس قال سليمان بن هشام : يا أمير المؤمنين ! إن مولاك سديفًا يستحثك على قتلي وقتل ولدي هذين ، وقد رأيت قتلت من أهل بيتي وبني أبي من قتلت ، وقد بلغني أنك تريد أن تغتالني ! قال : فغضب أبو العباس وقطب من كلامه فقال : أما إلى وقتي هذا فإني قد كنت عزمتُ أن لا أطالبك ولا أطالب بنيك بشيء مما كنت أطلب به أهل بيتك ، وقد وقع في قلبك أني أريد أن أغتالك ، فيا جاهل ! ما الذي يحول بيني وبينك إن أردت قتلك حتى أريد أن أغتالك ! ثم نهض أبو العباس عن مجلسه فدخل قصره ، وقام سليمان بن هشام وابناه فخرجوا . ثم عاد إلى مجلسه ودعا بأبي الجهم بن عطية وقال : علي بشرطة وبعبد الجبار بن عبد الرحمن ـ وكان على حرسه ـ ، فأمرهما أن يخرجا سليمان بن هشام وابنيه إلى القرى ويأتيا برؤوسهم[1] . قال : فلما أخرجوا علم سليمان ما يراد به وبولديه فقال : إنه لا بد من إنفاذ ما أمركما به ولكن قدماهما بين يدي حتى احتسبهما ثم اتبعاني بهما ، قال : ففعل به وبابنيه ما سأل ، وردت رؤوسهم إلى أبي العباس حتى وضعت بين يديه ، فأمر بها فنصبت قبالته ، ثم قال لمن حضر عنده في مجلسه : أيكم يحفظ شعر الفضل بن عبد الله بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي ؟ فقال بعضهم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين ! قال : هاته ، فطفق يقول أبياتاً مطلعها :

وانـي لأغـضـى عـن أمـور كـثـيـرة
ولـولا الـذي أرجـو مـن الأمـر لـم أغض

إلى آخرها .

قال أبو العباس : قد فعل الله بهم ذلك ، وإذ لو كان صاحب هذا الشعر حيّاً لقرت عيناه .

---

(١) انظر في كيفية قتله رواية أخرى الإمامة والسياسة ٢/ ١٧٠ .

ذكر مسير [أبي][1] جعفر المنصور إلى يزيد بن [عمر بن] هبيرة ومحاربته له

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني : لما فرغ أمير المؤمنين أبو العباس من قتل بني أمية دعا بأخيه أبي جعفر فضم إليه جيشاً كثيفاً من أهل العراق وأمره بحرب يزيد بن [عمر بن][1] هبيرة . قال : فسار أبو جعفر في جيشه حتى نزل على واسط العراق ، وبها يومئذ يزيد بن [عمر بن] هبيرة في خلق كثير من أهل الشام ، وقد حصن مدينة واسط غاية التحصين . قال : فأمر أبو جعفر بالمجانيق فنصبت على المدينة وجعل يحارب القوم وقد ضرب عسكره حذاء مدينة واسط ، فليس من يوم إلا ويقتل من الفريقين خلق ، وأكثر القتل في أهل الشام ، حتى إذا قتل منهم من قتل ورأوا أنهم لا طاقة لهم بأبي جعفر وأصحابه أقبلوا على يزيد بن [عمر بن] هبيرة وقالوا : أيها الأمير ! إن مروان بن محمد بن مروان قد قتل فنحن على ماذا نقتل أنفسنا وعمن تقاتل وليس لنا بالقوم طاقة ! وما الرأي ههنا إلا صلح القوم ، قال : فعندها بعث يزيد بن [عمر بن] هبيرة إلى أبي جعفر يسأله الصلح ، فأجابه إلى ذلك . فأرسل إليه يزيد بن [عمر بن] هبيرة أني لست بخارج إليك دون أن تكتب لي كتاباً يكون فيه أمان لي ولمن عندي ، فأجابه أبو جعفر إلى ذلك ثم كتب إليه هذا الأمان[2] :

---

(١) سقطت من الأصل .

(٢) نص كتاب الأمان في الإمامة والساسة ٢ / ١٧٤ :

قال في الأخبار الطوال ص ٣٧٣ أن أبا جعفر كتب إلى أخيه أبي العباس يسأله الإذن له بمصالحة ابن هبيرة . فكتب أبو العباس ـ رداً على كتاب أبي جعفر ـ لا حكم لابن هبيرة عندي إلا السيف . فكتم أبو جعفر الكتاب عن جميع الناس .

ذكر كتاب الأمان الذي كتبه أبو جعفر ـ ليزيد بن [عمر بن] هبيرة

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن [علي بن ـ][1] عبد الله بن العباس أبي جعفر أخي أمير المؤمنين أبي العباس ، إلى يزيد بن [عمر بن] هبيرة ولمن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم ممن نحا إليهم ، ومن هم بمدينة واسط من المسلمين والمجاهدين[2] ، ومن معهم من نسائهم وأولادهم ومواليهم وعبيدهم ، أني قد آمنتكم على أنفسكم أمان الله الذي لا إله إلا هو الذي يعلم من سرائر العباد ما يعلم من علانيتهم أماناً صادقاً لا يصيبه غش ولا يخالطه باطل ، وقد أعطيت يزيد بن [عمر بن] هبيرة الفزاري عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة أنبيائه المرسلين وملائكته المقربين ، وهذا الأمان لك يا يزيد بن [عمر بن] هبيرة ولأصحابك ولمن نحا إليك من قوادك ووزرائك وشيعتك ، فأنت وهم آمنون بأمان الله ، لا يؤخذون بذنب ولا زلة ولا بجريرة ولا بجرم ولا بجناية في سفك دم تعمداً ولا خطأ ، ولا بأمر سلف منكم ، يا يزيد بن عمر بن هبيرة ! وقد أذنت لك بالمقام في مدينة واسط إن شئت ، ثم سر عنها إذا شئت أنت ومن معك بدواب وسلاح لا تخاف عدواً سهلاً وبراً وبحراً ، ولا ينالك أمراً تخافه في ساعة من ليل أو نهار ، ولا أدخل في أماني هذا غشاً ولا خديعة ولا مكراً ، ولا يكون مني إليك ومن ذلك دسيسة مما تخاف من مطعم ومشرب أو لباس ، وقد أذنت لك ولأصحابك يا يزيد بالدخول إلى عسكري من أي وقت أحببته إلى وقت رحيلكم من مدينة واسط ، فإن نقض عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو جعفر أخو أمير المؤمنين أبي العباس فاجعل لك ولأصحابك ولشيعتك من أمنتكم هذه فلا قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ! وعليه من المحرجات الأيمان المغلظة ، والله شاهد عليه بما أكد على نفسه من هذه الأيمان ، وكفى بالله وكيلاً وشاهداً وكفيلاً ـ والسلام ـ . قال : فلما فرغ من أمانه ختم عليه ووجه به إلى يزيد بن [عمر بن] هبيرة .

قال : فصار يركب في كل يوم إلى أبي جعفر فيسلم عليه ويجلس عنده ساعة ويرجع إلى منزله . فلما كان بعد ذلك اليوم بأيام بلغ أبا جعفر أن يزيد بن [عمر بن]

---

(١) زيادة عن الإمامة والسياسة .

(٢) الإمامة والسياسة : والمعاهدين .

هبيرة قد نقض ما كان عليه من الوفاء ، وأنه يدعو إلى خلع بني العباس سراً ، فبلغ أبا جعفر ذلك ، ولم يبلغ ما بلغه حتى اتصل ذلك بأبي العباس أمير المؤمنين ، فكتب أبو العباس إلى أخيه أبي جعفر بذلك وقال : إنه قد نقض ما كان عليه من العهد وخالف الأمر وقد أبيح دمه فاقتله ! قال : فلم يقبل أبو جعفر ذلك أيضاً وجعل يسأل ويبحث عن صحة ذلك حتى صح عنده من الثقات العدول ، فعندها أمر بقتله[١] ، فقتل وقتل معه أربعون[٢] رجلاً من شيعته وأهل بيته . قال وأنشد الهلالي[٣] يقول أبياتاً مطلعها :

غلب العزاء حرارة الصدر والصبر عقد عزيمة الأمر[٤]

إلى آخرها .

خبر السيد بن محمد الحميري

قال أبو الحسن المدائني : أخبرني أبو العباس الفلسطيني قال : دخل السيد[٥] بن محمد الحميري على أمير المؤمنين أبي العباس السفاح[٦] فوقف بين يديه وأنشأ يقول بعد أن استأذنه في ذلك أبياتاً مطلعها :

---

(١) كذا بالأصل ، ويفهم من سياق العبارة في الطبري وابن الأثير والإمامة والسياسة أن قتله كان بأمر أبي العباس ، دون قبول من أبي جعفر ، وفي الإمامة والسياسة : كان من رأي أبي جعفر الوفاء لابن هبيرة وأصحابه .

(٢) في الأصل أربعين .

(٣) هو منقذ بن عبد الرحمن الهلالي . كما في الطبري ٤٥٧/٧ .

(٤) البيت في الطبري :

منع العزاء حرارة الصدر والحزن عقد عزيمة الصبر

(٥) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري .

(٦) فيمن لقب بالسفاح عبد الله بن علي أم ابن أخيه أبي العباس الخليفة الأول أقوال .

ناقش الأستاذ نيكلسون في كتابه (The preaching of Islam (P : 253 Note I . لفظ السفاح فقال : لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح ومع كل فإنه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية ، ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في معركة يوم الكلاب الأول سمي السفاح لأنه أفرغ مزاد جيشه قبل الوقعة . وفي اللسان : رجل سفاح للدماء : سفاك . ورجل سفاح : معطاء من ذلك ، وهو أيضاً الفصيح . والسفاح لقب عبد الله بن محمد أول خليفة من بني العباس .

دونكموها يا بني هاشم فجددوا من عهدها الدارسا[1]

إلى آخرها .

قال : فلما فرغ من إنشاده أمر له أبو العباس بجائزة سنية حسنة ، ثم قال : سل حاجة نعطها لك ! قال : نعم يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن سليمان الهاشمي وتكتب له بعهدة على الأهواز ! قال : قد رضيت عنه ، وكتب له بعهدة . قال : فأخذ السيد العهدة وسار بها إلى سليمان بن حبيب وهو يومئذ بالأهواز ، فدخل إليه وناوله العهدة وأنشأ وجعل يقول أبياتاً مطلعها :

أتيناك يا خير أهل العراق بخير كتاب من القائم

إلى آخرها .

قال : فقال له سليمان بن حبيب : شاعر وزائر وشفيع وشريف ، سل حاجتك ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! حاجتي جارية وخلعة وبغلة وفرس وغلام وبدرة ! فقال : قد أمرنا لك بذلك ، وهي لك علينا في كل سنة .

خبر عبد الله بن سعيد السعدي

قال أبو الحسن المدائني : لما فرغ أمير المؤمنين أبو العباس من قتل بني أمية وأمر يزيد [بن عمر] بن هبيرة دخل عليه عبد الله بن سعيد السعدي فمثل بين يديه قائماً وقضى حق التسليم ثم استأذن في الكلام فأذن له ، فقال : الحمد لله الذي قصم بك أنياب الكفر ، وأذل بك أهل الخسر ، وفقأ بك عيون الفتن ، وبرّد بك من الأمن ، وشفا بك غليل المؤمنين ، وأرعب بك قلوب المخلين ، فأباح لك خمارهم ، وقتل بك آباءهم وأبناءهم ، تكميلاً لعقوبتهم ، وتبديلاً لتغير نيتهم ، فأصبحوا أحاديث ومثلاً لمن بغى وخلى ، يستبشر بقتلهم البلاء . وأهل الأرض وأهل السماء ، فكان قتلهم شفاء الأوجاع ، وكيل الصاع بالصاع ، الرحب الذراع الواسع

= والذين أيدوا أن الخليفة أبي العباس هو من لقب به استندوا إلى أول خطبة له والذي يقول فيها : أنا السفاح المبيح والثائر المبير .

أما الذين اعتمدوا لقب السفاح إلى عبد الله بن علي فاستندوا إلى :

- غلظته وانتقامه من بني أمية ، وسيظهر من سيرته الجور .
- أن المؤرخين المتقدمين أمثال الطبري وخليفة واليعقوبي والدينوري لم يأتوا على تلقيبه بالسفاح ، إنما جاء اللقب من المؤرخين المتأخرين .

(1) عن الأغاني ٧/ ٢٤٠ وبالأصل : « فخذوا أمراً بها الطامسا » .

الباع ، إذا علمت قلباً منصوراً ، ورأياً مبروراً ، وسيفاً مشهوراً ، شفيت به صدوراً ، وأجليت الغم ، ووقعت الهم ، وكشفت الظلم ، وقضيت العدم ، عن الوجوه إلى أصحاب الهاشميات المؤثرات ، القاطعات المظلومات ، على فوت من القتل ، وانقراض الأهل ، ودروس السبل ، ووقوع المحل بصوت بعيد الهمة ، قديم النعمة ، سريع النقمة ، كريم الضربة ، ميمون النصبة ، شبعي الكتبة ؛ قال : ثم طفق يقول :

كم طالب من قبلها وطالب   وراغب من قبلها وراغب
جم المعالي دمت الضرائب   قد صح للأعداء بالكتائب

قال : فتبسم أبو العباس من حسن كلامه ، ثم قال : إن من كلام ما يشبه الدر وهذا منه ؛ ثم أمر له ببدرة وغلام يحملها إلى منزله والغلام له .

ذكر مسير أبي جعفر المنصور إلى بلاد خراسان إلى أبي مسلم

قال أبو الحسن المدائني : ولما فرغ أبو العباس من أمر العراق والشام ومصر وما والاها دعا بأخيه أبي جعفر فأمره بالخروج إلى بلاد خراسان ليؤكد البيعة على أهلها ويلقى أبا مسلم فيسمع كلامه . قال : فخرج أبو جعفر من العراق[1] في ثلاثمائة رجل من مواليه وخدمه وحشمه ، حتى صار إلى الري ، وبلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى جميع عماله بالبلاد فأمرهم أن يستقبلوا أبا جعفر وأمرهم أن يكرموه غاية الإكرام ففعلوا ذلك ، فكان أبو جعفر يسير من مدينة إلى مدينة حتى إذا تقارب من مدينة مرو وخرج أبو مسلم فتلقاه على فرسخين منها، فلما نظر إليه نزل وبادر وقبل يده وفخذه وسار بين يديه ، فأمره أبو جعفر بالركوب فركب ودخل مدينة مرو ، فنزل دار أبي مسلم ، فأقام بها أياماً لا يسأله أبو جعفر عن شيء غير أنه يرى أن أهل خراسان بأجمعهم سامعون مطيعون ، فسر أبو جعفر بذلك سروراً شديداً وأخذ البيعة على أبي مسلم وأصحابه وهم بالانصراف إلى العراق . قال : فجمع أبو مسلم أموالاً كثيرة من أموال خراسان فدفعها إلى أبي جعفر ليحملها إلى أمير المؤمنين ، ووقّع له أنها هدايا من جوار وغلمان ودواب وثياب فاخرة ، فقال أبو جعفر لأبي مسلم : إنك اليوم منا بالمكان الذي علمت وإنا نشكو إليك أبا سلمة حفص بن سليمان فإنه قد شمخ بأنفه

---

(١) كان ذلك في سنة ١٣٢ هـ .

على أمير المؤمنين حتى أنه ما يعد الخلافة بشيء وأنه يعترض علينا اعتراضاً يجل عن الوصف ، ولا والله ما يمنع أمير المؤمنين من الإساءة والوقوف عليه إلا عصبتك لأنك أنت الذي جعلته مشيراً ووزيراً . قال : فتغير وجه أبي مسلم ثم قال : قد فعلها أبو سلمة . أما إني أذنت لأمير المؤمنين ولك فيه فاصنعا ما أحببتما ، فإنما أنا عبيد من عبيد أمير المؤمنين ، وأهل خراسان سامعون عبيد السمع والطاعة ، وأنا أسرع قدومي إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : وجهز أبا جعفر بأحسن الجهاز وصرفه إلى العراق . فلما دخل أبو جعفر على أبي العباس خبره بجميع ما رأى من طاعة أهل خراسان وأن أبا مسلم قد أذن لك في قتل أبي سلمة . قال : فلم يبت أبو سلمة إلا مقتولاً من ليلته[1] ؛ وفي ذلك قال سليمان بن المهاجر البجلي[2] شعراً :

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيراً[3]

قال : ثم أقبل أبو العباس على أبي جعفر فقال له : كيف رأيت أبا مسلم ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين رأيته جباراً من الجبابرة ! ولا الخلافة تصفو لك ما دام في الحياة ، فاكتم على ما خبرتك به - والسلام - .

ثم رجعنا إلى أخبار أرمينية وأذربيجان

قال : ثم دعا أبو العباس برجل من أصحابه يقال له محمد بن صول ، فضم ليه جيشاً وولاه أرمينية وأذربيجان ، فسار إليها محمد بن صول في جيشه ذلك حتى دخل أذربيجان ، والتأم إليه الناس فصار في مائة ألف عنان . قال : وفي البلاد ذلك

---

(١) في مروج الذهب ٣/٣٢٨ أن أبا مسلم كتب إلى أبي العباس يشير عليه بقتله . . . لأنه قد نكث وغيّر وبدل (وانظر الأخبار الطوال) ولما رفض السفاح خاف أبو مسلم من ناحية أبي سلمة فأعمل الحيلة في قتله . أما ابن كثير فقال : إن ذلك تم بأمرٍ من أبي العباس ، ولما بلغه قتل أبي سلمة قال :

إلى النار فليذهب ومن كان مثله على أي شيء فاتنا منه نأسف

وثمة إجماع أن أبا مسلم أرسل أحد أصحابه مرار بن أنس الضبي فقتله (انظر الطبري وابن الأثير وتاريخ اليعقوبي) .

(٢) عن الطبري ، وبالأصل « البلخي » .

(٣) قبله في مروج الذهب :

إن المساءة قد تسرّ وربما كان السرور بما كرهت جديرا

اليوم مسافر بن كثير القصاب[١] قد استولى على بلاد أذربيجان خاصة . فلما سمع بقدوم محمد بن صول إلى البلاد مضى إلى قلعة يقال لها قلعة الكلاب[٢] من بلاد الروم فتحصن بها ، وسار محمد بن صول حتى نزل عليه ، فلم يزل يحاربه حتى قتله وقتل جماعة من أصحابه وهرب الباقون إلى جبال سجستان . قال : وبعث محمد بن صول برأس مسافر بن كثير ورؤوس أصحابه إلى أمير المؤمنين أبي العباس ، وأقبل إلى مدينة يقال لها البيلقان فنزل بها أياماً ، ثم رحل إلى مدينة برذعة فأقام بها مدة في ولايته . ثم بعث أبو العباس إلى محمد بن صول فعزله وولى أخاه أبا جعفر أرمينية وأذربيجان وبلاد الجزيرة ، فأقبل أبو جعفر حتى دخل بلاد أرمينية وكان يشتي بموضع يقال له كيران[٣] ويصيف بمرج يقال له الضاربة من أرض جرزان .

قال : وقدم أبو مسلم من خراسان على أبي العباس في جيش عظيم ،[٤] وبلغ أبا جعفر[٥] قدوم أبي مسلم[٦] من خراسان فكأن لم يحب أن يكون أبو جعفر بأرمينية وأبو مسلم بالعراق ، واتقى أن يكون منه غائلة أو شيء من بغض الخلافة ، فدعا بالحسن بن قحطبة فاستخلفه على عمله وانصرف إلى العراق ، فكان الحسن بن قحطبة خليفة أبي جعفر في البلاد إلى أن توفي أبو العباس .

قال عبد بن سالم مولى بني مخزوم : سمعت مشيخة بني سالم يقولون : كانت خلافة أبي العباس أربع سنين وسبعة أشهر ، وتوفي بالأنبار[٧] ليلة الأحد ثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين ومائة ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[٨] ، وصار الأمر إلى أخيه أبي جعفر وهو الملقب بالمنصور .

---

(١) بالأصل : الساري ، وقد مرّ ، وانظر فتوح البلدان ص ٢١١ .
(٢) في فتوح البلدان ص ٢١١ قلعة الكلاب بالسيسجان .
(٣) كيران : مدينة بأذربيجان بين تبريز وبيلقان .
(٤) وكان ذلك في سنة ١٣٦ هـ . وكان قدومه إلى السفاح لاستئذانه في الحج .
(٥) بالأصل « أبي جعفر » .
(٦) بالأصل « أبو مسلم » .
(٧) الأنبار : مدينة كانت تقع على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ وكانت الفرس تسميها فيروز سابور .
(٨) في يوم وفاته ومدة خلافته ومقدار عمره انظر مختلف مصادر ترجمته : الطبري ١٥٤/٩ ابن الأثير ٥٢٠/٣ مروج الذهب ٣٠٤/٣ التنبيه والأشراف ص ٣٣٩ تاريخ خليفة ص ٤١٢ تاريخ اليعقوبي ٣٦٢/٢ المعارف ص ٣٧٣ البداية والنهاية ٥٨/١٠ .

[خلافة أبي جعفر المنصور]

الحسن بن الحباب المقرىء البغدادي قال : حدثني داود بن رشيد قال حدثني طعمون[1] الخادم قال : حدثني سلامة بن المنصور قالت أمه : رأيت وأنا حاملة به كأن قد خرج من فرجي أسد فأبقى على الأرض وضرب بيديه وزأر ، فأقبلت السباع إليه من كل ناحية ، فكلما أتاه سبع يسجد له ، حتى سجدت له سائر السباع عن آخرها .

قال أحمد بن يحيى : حدثني زيد مولى المنصور قال : لما أفضت الخلافة إلى المنصور أقبل إليه سديف بن ميمون فدخل عليه فاستأذن فأذن له بالنشد ، فقال أبياتاً مطلعها :

هذا القائم العدل الذي كنا نرجيه ... لذي الإسلام والدين وأوتاد مراثيه

إلى آخرها .

قال : فأمر له المنصور بجائزة سنية وكساه أثواباً من وشي آل مروان . فلما ولى من بين يديه ناداه : يابن السوداء ! قال : فرجع إليه سديف وهو خائف مرعوب ، فوقف بين يديه فقال : كأني بك يا سديف وقد قدمت المدينة تقبل رجل عبد الله بن الحسن[2] وتقول : يابن رسول الله ! تأخذ منهم ما يقوم بأودنا ، والله لئن بلغني عنك ذلك لأقتلنك أشر قتلة ! فقال سديف : العبد عبدك يا أمير المؤمنين ! وهل يخون عبد سيده ! قال : ثم انصرف سديف إلى المدينة ففعل بعبد الله بن الحسن[2] وبابنيه ما كان المنصور قد قاله ، فحقد عليه ولم يبد ذلك لأحد . قال : فقدم سديف إلى العراق بعد ذلك وبلغ ذلك المنصور ، فأمر بحبسه ، فلما ضاق به الحبس كتب إلى المنصور بهذه الأبيات :

بني العباس فيم سجنتموني ... وكنت على مودتكم حريصا

أتصبح من أمانكم الأعادي ... وأصبح من مودتكم خميصا

---

(1) كذا بالأصل ، ولم نعثر به .

(2) في المطبوعة : « الحسين » تحريف .

ركســر من طـاعن خنق عليكم تركت أخمص أخمصه رهيصا[١]

فقال المنصور : والله لا تركته ظالعاً رهيصاً . قال : ثم أمر به فأدخل في جوالق وضرب بالكافركوبات[٢] حتى مات ـ رحمه الله ـ .

قال : وقال يحيى بن عبد الله الهاشمي : لما بايع[٣] الناس المنصور أقبل أبو مسلم إلى عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فقال له أبو مسلم[٤] : لم قعدت عن هذا الأمر بعد أبي العباس وأنت للخلافة أهل ومحل ؟ فقال له عيسى بن موسى : ويحك يا أبا مسلم ! إنما نحن بنو عم فأينا صار إليه الأمر فهو محل . فقال أبو مسلم : صدقتَ وأنت أخير إلينا من أبي جعفر ، فإن شئت خلعناه وعقدنا لك البيعة ! قال : فغضب عيسى بن موسى ثم قال : سبحان الله أبا مسلم ! ويجوز هذا أن أتقدم على عمي وهو شيخ كبير وصنو أبي ! والله لو قدمني عليه أمير المؤمنين الماضي لكرهت ذلك فكيف طاعة عمي فأكون مخالفاً للحق قاطعاً للرحم متعرضاً لشقاء الدنيا . قال : وبلغ أبا جعفر ما كان من كلام أبي مسلم لعيسى بن موسى فحقد عليه ، فكان هذا أول حقد حقده المنصور على أبي مسلم ولم يبد له شيئاً من ذلك .

ذكر خروج عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس على أبي جعفر المنصور بالشام

قال : وبلغ ذلك عبد الله بن علي[٥] ما كان من بيعة الناس لأبي جعفر المنصور وهو يومئذ بالشام ، فدعا بأخ له من الرضاع يقال له زيد فقال : ويحك يا زيد ! إن الخليفة أبا العباس قد مضى لسبيله وقد بايع الناس أبا جعفر فما الرأي عندك ؟ فقال :

---

(١) كذا ورد البيت بالأصل .

(٢) كافركوبات : اسم آلة ، أعجمي ، يضرب بها كالعمد وغيرها وقد مرّت الإشارة إلى ذلك قريباً (عن هامش الأغاني) .

(٣) عن المطبوعة ، وبالأصل « بلغ » .

(٤) بالأصل « أبو موسى » خطأ .

(٥) وكان عيسى بن موسى قد بعث أبا غسان ـ يزيد بن زياد ـ حاجب أبي العباس إلى عبد الله بن علي ببيعة أبي جعفر ، فقدم أبو غسان على عبد الله بأفواه الدروب (بدلوك) متوجهاً يريد الروم (الطبري ـ ابن الأثير) .

إنك لأحق الناس بهذا الأمر ، لأنك عم والعم والد ؛ قال : فأرسل عبد الله إلى وجوه قواده وحشمه وخاصة أهل دولته وأهل بيته فدعاهم وقال لهم : إنكم علمتم أن [أبا] العباس أمير المؤمنين وجهني إلى مروان بن محمد فقتلته وانتزعته من هذا الأمر ومن جميع بني أمية ، وقد كان أمير المؤمنين أبو العباس جعل لي هذا الأمر من بعده لأني عمه ووارثه وأنا مستحق لهذا الأمر دون غيري[1] ، غير أني أحببت أن آخذ رأيكم ، فهاتوا ما عندكم من الرأي ، قال : فقام إليه من كان عنده فبايعوه وسلموا عليه بالخلافة ، وبادر الناس إلى بيعته حتى بايعه خلق كثير من أهل الشام ، ودعي له على منابرها بالخلافة . ثم إنه سار من الشام نحو أرض الجزيرة حتى صار إلى الرقة فنزلها ، ثم دعا بأخيه عبد الصمد بن علي فجعله ولي عهده وولاه بلاد الجزيرة .

قال : وبلغ المنصور أمر عبد الله بن علي فدعا بأبي مسلم وأمره بالخروج إليه . فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ! إن لي حاجة فإن رأى أمير المؤمنين أكلمه فيها ، فقال المنصور : قل ما بدا لك ! فقال : يدفع إلي أمير المؤمنين عبد الجبار بن عبد الرحمن وصالح بن الهيثم[2] وخالد بن برمك حتى أقتلهم ، ففي قتلهم صلاح أمير المؤمنين ، قال : فغضب المنصور من ذلك وقال : أدفع إليك شرطتي وشرطة أخي وصاحب خراجي وخراج أخي فتقتلهم ! فإذا فعلت ذلك فما يكون عذري غداً وماذا يقول فيّ الناس ! وأطرق المنصور إلى الأرض ، وندم أبو مسلم على ما تكلم به وقد علم أن المنصور قد غضب ، فجعل يترضاه ويقول : إنما كانت مني هفوة يا أمير المؤمنين فاغفرها لي ، ولم يزل كذلك إلى أن أظهر أمير المؤمنين المنصور أنه قد رضي عنه .

ذكر خروج أبي مسلم إلى عبد الله بن علي ومحاربته له

قال : وظهر أبو مسلم من العراق في أربعين ألف يريد حرب عبد الله بن علي حتى صار إلى الجزيرة من ديار ربيعة ، وانهزم عبد الصمد من بين يدي أبي مسلم إلى الرقة ، وبها عبد الله بن علي فخبره بذلك . قال : وجمع عبد الله بن علي الناس

---

(١) شهد له على صحة كلامه أبو غانم الطائي وخفاف المروروزي وغيرهما من القواد ، فبايعوه .
(٢) عن الطبري ، وبالأصل « الهيثمة » .

ووضع لهم الأرزاق وأعطاهم ، وقد جمع خمسين ألفاً من أهل الشام والجزيرة ، ثم سار حتى وصل إلى مدينة حران وترك أمواله وخزائنه بالرقة . وبلغ ذلك أبا مسلم فسار إليه في عسكره وجنوده ، حتى التقى القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وانتصف بعضهم من بعض . ثم إن عبد الله بن علي أمر فخندق على نفسه خندقاً ، وخندق أبو مسلم أيضاً على نفسه خندقاً ، ودام الحرب بينهما أربعة أشهر لا يفترون من ذلك .

قال : وعلم عبد الله بن علي أنه لا طاقة له بأبي مسلم فهم بالهرب ، وجعل أهل الشام يستأمنون إلى أبي مسلم حتى استأمن منهم خلق كثير . فلما رأى عبد الله بن علي ذلك خرج ليلة من الليالي من عسكره بأنه يريد أن يكبس عسكر أبي مسلم ، ثم مضى في جوف الليل فجعل يسير سيراً ماضياً إلى الرقة[1] . قال : وأصبح عبد الله بن علي وقد فقدوه فعلموا أنه قد هرب ، فأرسلوا إلى أبي مسلم يسألون الأمان فآمنهم ، وكتب إلى المنصور يخبره بهروب عبد الله بن علي وأخيه عبد الصمد . قال : وصار كتاب أبي مسلم إلى المنصور وهو نازل بدير يقال له دير الجاثليق ، فلما فتح الكتاب وقرأه سمى ذلك الدير دير الفتوح ، ثم كتب إلى أبي مسلم وأمره بطلب عبد الله بن علي حيث كان . قال : وأرسل أبو مسلم يريد عبد الله بن علي ، وعلم عبد الله بن علي بذلك فترك أمواله وخزائنه بالرقة ثم عبر الفرات هو وأخوه عبد الصمد بن علي ، فأما عبد الصمد بن علي فصار إلى الرصافة[2] فنزلها ، وأما عبد الله بن علي فإنه صار إلى الشام ومن الشام إلى مكة ومن مكة إلى البصرة ومن البصرة إلى أخيه سليمان بن علي[3] ، فأنشد أبو ميسرة في ذلك شعراً .

قال : فسار أبو مسلم حتى دخل الرقة واحتوى على جميع أموال عبد الله بن علي وخزائنه . وما كان أخذ من أموال بني أمية فاحتوى على ذلك كله . ثم صار إلى الرصافة فنزل عليها فحاصر عبد الصمد حتى أخذه وقيده ووجه به إلى المنصور . ثم صار إلى حران فنزلها ووضع العطاء لأصحابه وأعطاهم الأرزاق سنة .

قال : وكتب سليمان بن علي إلى المنصور يسأله أن يعطي عبد الله الأمان

---

(١) انظر تفاصيل أوردها الطبري ٧/٤٧٤ ـ ٤٧٥ وابن الأثير ٣/٥٢٥ .

(٢) كذا ، وفي الطبري ٧/٤٧٨ أن عبد الصمد قدم الكوفة فاستأمن له عيسى بن موسى فأمنه أبو جعفر وانظر ابن الأثير ٣/٥٢٦ .

(٣) كذا بالأصل والطبري وابن الأثير ، وفي الإمامة والسياسة ٢/١٧١ أن أبا مسلم أخذ عبد الله بن علي أسيراً .

فأجابه إلى ذلك ، فقال عيسى بن علي لكاتبه عبد الله بن المقفع : أحب أن تكتب لأخي عبد الله أماناً مؤكداً حتى أوجه به إلى المنصور ، قال : فكتب عبد الله كتاباً لعبد الله بن علي لا يكون لأحد مثله واستقصى فيه غاية الاستقصاء ، فلما ورد الكتاب بالأمان على أمير المؤمنين المنصور ونظر فيه شق ذلك عليه ، لأنه كان مغتاظاً على عبد الله بن علي وأراد قتله ، فقال : من كتب هذا الأمان ؟ فقيل له : كتبه عبد الله بن المقفع[1] كاتب عيسى بن علي ، فقال أما لنا من يكفينا ابن المقفع ويريحنا منه ؟ قال : وبلغت هذه الكلمة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهو يومئذ بالبصرة من قبل المنصور ، فعزم على قتل ابن المقفع[2] .

ذكر مقتل عبد الله بن المقفع

قال المدائني : كان السبب في مقتل عبد الله بن المقفع أن سفيان بن معاوية المهلبي كان ربما حضر إلى الديوان بالبصرة فتقع المسألة بعد المسألة فيلقيها ابن المقفع على سفيان بن معاوية فإذا لم يفهمها يقول له ابن المقفع : وقعت والله يا مهلبي ! قال : فغضب المهلبي ذات يوم فشتم ابن المقفع فقال له : كم توبخني؟ فقال له ابن المقفع : يابن المغتلمة ! أداعبك فتشتمني ! والله ما رضيت أمك برجال العراق حتى تزوجت برجال الشام ! قال : فسكت عنه المهلبي وحقد عليه ، فلما قال المنصور : أما لنا من يكفينا أمر ابن المقفع ! عزم المهلبي على قتله . ودعا عيسى بن علي بابن المقفع فأرسله إلى سفيان بن معاوية في حاجة له ، فقال ابن المقفع : إني أخاف على نفسي لكلام جرى بيني وبينه ، فقال عيسى بن علي : إني أخاف على نفسك وأنا حي ! فقام عبد الله بن المقفع وصار إلى سفيان ، قال : والله يابن المقفع أنا ابن المغتلمة كما قلت إن لم أقتلك قتلة ما سبقني إليها أحد . ثم قام ودخل المطبخ وقال : علي به ! فأتي بابن المقفع ، فقال المهلبي لغلمانه :

---

(١) هو ابن دارويه ، وكان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقفعت يداه . فسمي بالمقفع . قال ابن خلكان : ومنهم من يقول أن ابن المقفع نسب إلى بيع القفاع وهي من الجريد كالزبيل بلا آذان .

أسلم عبد الله بن المقفع على يد عيسى بن علي ، وكتب له .

(٢) في البداية والنهاية ١٠/١٠٢ أن المنصور كتب إلى سفيان بن معاوية نائبه على البصرة ، يأمره بقتل ابن المقفع .

اسجروا التنور ! فأسجر حتى حمي ، ثم أمر بقطع يده اليمنى فألقيت في التنور ، ثم أمر باليسرى فألقيت في التنور ، ففعل ذلك بيديه ورجليه ، ثم احتمل بعد ذلك فألقي في التنور واحترق[1] . قال : واحتبس خبر ابن المقفع على عيسى بن علي فأرسل في طلبه ، فقيل : كان ههنا وانصرف . قال : وعلم عيسى بما فعل بابن المقفع ، فكتب في ذلك إلى المنصور ، فأرسل المنصور يأمر بإشخاص المهلبي فأشخص ، ثم سأل عن ذلك فأنكر ولم يكن هنالك بينة[2] ، فذهب دم ابن المقفع هدراً . فأنشأ بحير بن زياد يقول في ذلك شعراً . وقال أيضاً فيه مطيع بن زياد :

لا تـأمـن الإخـوان رب فجيعـة كما فجمع الإخـوان بابن المقفـعِ
أتتـه المنـايـا فاختلسن حيـاتـه فـودعـه الإخـوان غيـر مـودعِ

ذكر أبي مسلم ومخالفته على المنصور وما كان من أمره

قال : وبلغ المنصور أن أبا مسلم قد احتوى على أموال كثيرة لعبد الله بن علي فوجه إليه يطلبها منه مع رجل يقال له يقطين بن موسى[3] وأخذ ما صار إليه من تلك الأموال . فلما قدم عليه يقطين أنزله أبو مسلم وأكرمه ثم قال : ما الذي أقدمك أبا علي وكيف خلفت أمير المؤمنين ؟ فقال : خلفته سالماً بحمد الله غير أنه قد أرسلني إليك لقبض ما صار إليك من الأموال التي لعبد الله بن علي وخزائنه وهذا كتابه إليك ، فلما قرأه غضب ورمى به من بين يديه ثم قال : ومن ابن سلامة حتى يكتب إلي فتفحص عما صار إلي من أموال عبد الله بن علي وقد قتلت رجالي وهذا كتاب أمير المؤمنين. قال : فقال يقطين بن موسى : أيها الأمير ! إن أمير المؤمنين رأيه فيك أحسن من رأيك فيه ، فقال : لا ولا كرامة ! وسيعلم ابن سلامة عن قريب كيف يكون الأمر بيني وبينه ، قم وانصرف إليه وخبره بما سمعت .

وانصرف يقطين بن موسى إلى المنصور فخبره بذلك . قال : فتغير وجه

---

(١) وكان ذلك في سنة ١٤٥ هـ . انظر البداية والنهاية ١٠/١٠٢ .

(٢) انظر الحاشية السابقة .

(٣) في تاريخ اليعقوبي ٢/٣٦٦ أرسل جماعة منهم : إسحاق بن مسلم العقيلي ، ويقطين بن موسى ، ومحمد بن عمرو النصيبي التغلبي . وانظر الإمامة والسياسة ٢/١٣٠ ومروج الذهب ٣/٣٥٥ وابن الأثير ٣/٥٢٦ .

المنصور وسكت ساعة ، ودعا بكاتبه فقال : اكتب إلى أبي مسلم كتاباً لطيفاً ، وخبره في الكتاب أني قد تجاوزت عنه وتركت له جميع الأموال وأنا مضعفها له . وقد وليته الشام وأرض خراسان ليستخلف على الشام من يريد وليقدم على بركة الله وعونه ـ والسلام ـ[1] . قال : فلما ورد الكتاب على أبي مسلم تبسم ضاحكاً ثم قال : وابن سلامة يوليني الشام وخراسان أو ليس الشام وخراسان لي وفي يدي ! أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ، أيخدعني ابن سلامة وقد أضاء الصبح لذي عشاء . قال : ثم رمى بكتاب المنصور من يده وتمثل بهذا البيت وهو يقول :

الق الصحيفة لا تبال وإن يكن ... مكراً كمثل صحيفة المتلمسِ

قال : وكان الحسن بن قحطبة يومئذ مع أبي مسلم بالشام وقد كان يكتب بالأخبار سراً إلى المنصور ، فكتب إليه يخبره بكلام أبي مسلم وكتب إليه في آخر الكتاب : إني أخبرك يا أمير المؤمنين أن الشيطان الذي كان ينفخ في رأس عبد الله بن علي قد انتقل إلى رأس أبي مسلم ـ والسلام ـ . قال : فضاق الأمر على المنصور ولم يدر ما يصنع .

ونادى أبو مسلم لأصحابه بالرحيل راجعاً إلى خراسان ، ثم صار حتى تقارب من مدينة يقال لها كفرتوثا نظر إلى نهر هنالك يقال له سريا[2] فالتفت إلى هشام ابن عمه وكان من أجلاء أصحابه فقال : ما اسم هذا النهر ؟ فقال : أصلح الله الأمير ! اسمه سريا ، فقال أبو مسلم : فأين علم الشيطان الذي يقول الشاعر :

ولا تهبط السريا بمال تحبه ... ولا أعلم الشيطان إن كنت تفعلُ

قال : فقال هشام بن عمر : أيها الأمير ! هو هذا التل عن يسار الطريق . قال : ودخل أبو مسلم مدينة كفرتوثا فأقام بها ثلاثة أيام ورحل عنها ، وتخلف عنه الحسن بن قحطبة لعلة كانت به قد اعترته في بدنه . قال : وسار أبو مسلم إلى نصيبين وأقام بها أياماً حتى استراح أصحابه ثم رحل عنها ؛ فلما خرج من باب الشرقي وعبر [فإذا]

---

(١) في الطبري ٤٨٢/٧ وابن الأثير ٥٢٧/٣ : « كتب أبو جعفر إلى أبي مسلم : إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت ، وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب » .

(٢) كذا ، ولم نعثر به .

رجل يقال له الهرماس جعل يقول :

إني لأذكر منيتي وتحيتي ... خلفي فأرفعها بحب زميلا
إني لأكره أن أعيش مظلماً ... طول الحياة وأن أموت ذليلا

ثم أقبل على هشام بن عمر فقال له : اكتب بهذين البيتين إلى ابن سلامة حتى يعلم أني أبو مسلم .

قال : ثم سار حتى دخل الموصل ، فلما نزلها أقبل إليه جماعة من أصحابه ممن يهوى دولة المنصور فقالوا : أيها الأمير ! إنا نريد الحج فأذن لنا في ذلك ، فتبسم أبو مسلم وقال : ليس هذا وقت أوان حج ، فمن أراد أو أحب منكم الانصراف فلينصرف مصاحباً ! قال : فتفرق عن أبي مسلم جماعة من أصحابه فصاروا إلى المنصور . وخرج أبو مسلم من الموصل يريد بلاد خراسان ومعه دليل يدله على الطريق حتى أخرجه من شهرزور إلى حلوان ، فلما نزلها إذا كتاب المنصور قد ورد عليه من هنالك يأمره بالإنصراف إلى ما قبله ويحلف له بالمحرجات من الأيمان أنه لا يبدأه بمكروه وأنه يكون له أكثر مما كان ويجعله وزيره وصاحب أمره . قال : فلما قرأ أبو مسلم كتاب المنصور التفت إلى كاتب له يقال له شبيب ، فقال : يا شبيب ! لئن رجعنا إلى العراق بعد أن شارفنا جبال خراسان فإنا كما قال الأول : « أتتك بحائن رجلاه »[1] . قال : ثم رحل أبو مسلم من حلوان يقطع البلاد ويطوي المراحل طياً ولا يعرج على شيء حتى صار إلى الري فلم يقم بها إلا يوماً واحداً ، ثم رحل عنها مجداً حتى صار إلى مرو ثم كتب إلى المنصور .

ذكر كتاب أبي مسلم إلى المنصور

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، من عبد الرحمن أبي مسلم[2] ، أما بعد يا أمير المؤمنين ! فإني كنت اتخذت أخاك إماماً ودليلاً على ما فرض الله على خلقه ، فكان ظني أنني أنزلت منه بمحله العلم لقرابته من رسول الله ﷺ ، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل من حطام دار قد

---

(١) مثل . انظر المستقصى للزمخشري ١/٣٧ .

(٢) انظر الطبري ٧/٤٨٣ وابن الأثير ٣/٥٢٨ .

نعاه[1] الله إلى خلقه وزهد عباده فيها ، ثم إنه مثل لي الضلالة في صورة الهدى ، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقيل العثرة ولا أقبل المعذرة والبلاء في ذلك كله واقع بنفسي لا يزجرني عن ذلك بتوفيق ولا رشاد، حتى سقم عندي البريء وبرىء السقيم ، فوترت أهل الدين والدنيا في طاعتكم وتوكيد[2] سلطانكم حتى عرفكم من كان جهلكم[3] ، وخافكم من كان يهون عليه أمركم وأوطأت غيركم ممن كان فوقكم من آل الرسول بالذل والهوان والإثم والعدوان ، ثم إن الله تعالى قد أدركني منه بالندم واستنقذني بالتوبة فإن يعف ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً .

جوابه [4]

قال : فكتب إليه المنصور : أما بعد أبا المجرم العاصي ! فإن أخي رحمه الله تعالى كان إمام الهدى يدعو إلى الله على بصيرة ويقين من أمره ، فأوضح السبيل وقد تفرقت بالناس السبل ، وأقامك فيها على منهاج الحق الذي عليه آثار النبوة وما في الكتاب ، فلو بأخي الرضى اقتديت وبرأيه اهتديت وإلى أمره انتهيت لما كنت عن الحق جائراً ، لكنك لم تكن لنا في طاعة قط يوماً واحداً ، وما زلت منذ انتحلت مودتنا وولايتنا يهوي بك الريح من مكان سحيق ، لا يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً ، ولأغواهما مؤاتياً ، تقتل على الغضب وتبطش بطش الجبارين ، فأوقع الله بك الثلاث الموجبات من الله تبارك وتعالى إنه عز وجل قال : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكفرون** ﴾[5] و ﴿ **فأولئك هم الفسقون** ﴾[6] ، و ﴿ **فأولئك هم الظلمون** ﴾[7] ،فجمعهن الله فيك، فرويداً أبا مجرم حتى يبلغ الكتاب أجله ، وأمير المؤمنين يقسم بالله رب العالمين وملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين

---

(١) الطبري : « تعافاه » وفي ابن الأثير : « تعاه » .

(٢) ففعلت توطيداً لسلطانكم ، في الطبري ، وفي ابن الأثير : توطئة .

(٣) ابن الأثير : يحملكم .

(٤) في الطبري وابن الأثير أن أبا جعفر أمر بأن يكتب إلى أبي مسلم كتاباً يعظمونه فيه ويشكرون له ما كان منه، ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة، ويحذرونه عاقبة الغدر ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين وأن يلتمس رضاه .

(٥) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

(٦) سورة المائدة ، الآية ٤٧ .

(٧) سورة المائدة ، الآية ٤٥ .

وعباده الصالحين وأخيه العباس أنهما قد برئا إلى الله منك فيما اقترفت من القتل والأمر العظيم ، وستعلم عن قريب أبا مجرم إذا أحاطت بك العساكر وأخذتك الصفائح أي رجل تكون ! وأقسم بالله العظيم الذي لا إله غيره إن عبرت البحر لطلبتك ولو بلغت إلى مطلع الشمس ومغربها ، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

قال : فلما فرغ وورد الكتاب على أبي مسلم وقرأه ضاق به ذرعاً ، ثم إنه ذل وخضع وخشي أن تأتيه الجيوش من العراق ولا يقوم لها ، فكتب إلى المنصور يستعطفه ويسأله أن يعطيه الأمان ، ثم بعث بكتابه مع أبي إسحاق صاحب حرسه[١] ، فأجابه المنصور إلى ذلك .

ذكر قدوم أبي مسلم من خراسان على المنصور ومقتله بين يديه

قال : فخرج أبو مسلم من خراسان ومعه خلق عظيم حتى صار إلى العراق . قال : فكان لا يمر ولا يقدم على موضع إلا استقبلوه بالبر والإحسان والإكرام حتى إذا صار إلى باب المنصور خرج إليه أبو الخصيب الحاجب فقال : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تنصرف إلى المنزل الذي قد استعد لك ! قال : فانصرف إليه ، وقد أعد له جميع ما يحتاج إليه من فرش وغير ذلك من طعام وشراب ، وجعلت الألطاف تأتيه من عند المنصور في كل وقت ، فأقام كذلك ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الرابع أرسل إليه المنصور فدعاه ، قال : فركب أبو مسلم وصار إلى الباب فدخل الحاجب فأعلم المنصور ، فقال : ذره ولا تعجل ، والمنصور جالس في مجلسه وحده ليس عنده أحد إلا من لا يحتشمه غير أنه يفكر في أمر أبي مسلم وما يريد أن يصنع وهو يقول شعراً ؛ قال : ثم أذن لأبي مسلم بالدخول ، فدخل وسلم ، فلم يرد عليه السلام ثم أومأ إليه أن اجلس ! فجلس أبو مسلم على وسادة وعليه يومئذ قباء ديباج أسود ، فأقبل

(١) يفهم من عبارة الطبري وابن الأثير : أن أبا جعفر استمال أبا إسحاق إلى جانبه ، وأنه وعده بولاية خراسان إن هو أقنع أبا مسلم بالمجيء إليه ، وبالفعل فقد قال أبو إسحاق لأبي مسلم لما عاد من رحلته إلى أبي جعفر : ما أنكرت شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك ، يرون لك ما يرون لأنفسهم ، وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين ، ويعتذر إليه مما كان منه .

عليه المنصور فقال : أبا مجرم ! إني أريد أذكرك شيئاً لا أراك تنكرها ، أتنكر دخولك على أمير المؤمنين الماضي رحمة الله عليه وتسليمك عليه وأنا جالس في مجلسه ولا تراني أهلاً للسلام ؟ أتذكر مقالتك لابن أخي عيسى بن موسى[1] إن شئت خلعنا أبا جعفر وبايعناك ؟ أتذكر شتمك لي بالشام بين يدي يقطين بن موسى[2] وقولك له : ومن ابن سلامة ؟ أكانت أبا مجرم أملك أفضل من سلامة وهي تحت محمد بن عبد الله بن عباس ؟ قال : وجعل المنصور يذكره شيئاً بعد شيء[3] ؛ فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ! لا تذكر هذه الأقاويل ، واذكر حسن بلائي وقوامي لكم بهذه الدولة ! قال : فعندها شتمه المنصور وقال : يا عدو نفسه ! أنت ما فعلت ذلك ، [إنما عملت] بحميتنا[4] وقيام شيعتنا وما سبق من الله تعالى في أمر دولتنا ، ولو كان الأمر إليك لما قطعت فتيلاً ، ألست الكاتب إليّ وتبدأ باسمك قبل اسمي ؟ أولست الذي كتبت إلينا تخطب آمنة[5] بنت علي بن عبد الله بن عباس وتزعم أنك ابن بنت سليمان بن علي[6] ! وإنما أنت عبد لعيسى بن معقل العجلي لقد ارتقيت يا عدو الله مرتقى صعباً . فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ! إنه لا يجب أن يبلغ منك الغضب كل هذا ، فإن قدري أصغر من ذلك ، فقال له المنصور : أنسيت استخفافك بحقي وتهجمك إياي بالكلام مرة بعد أخرى ؟ أنسيت نظرك إليّ شزراً ؟ قال : ثم غمز عليه المنصور من على رأسه ، فضربه عثمان بن نهيك ضربة بالسيف على حبل عاتقه ، فسقط أبو مسلم عن الوسادة وهو يقول : وانفساه ! قال : المنصور : يابن الخبيثة ! فعال الجبارين وجزع الصبيان ! قال : ثم ضربه أبو الخصيب الحاجب بالسيف ضربة على رأسه فاضطرب اضطراباً شديداً ، وجعل المنصور يقول هذه الأبيات :

---

(١) الأصل « موسى بن عيسى » .

(٢) كان المنصور قد بعث يقطين بن موسى لقبض خزائن عبد الله بن علي وأمواله وما وقع بين يدي أبي مسلم من غنائم ، وذلك بعد هزيمة عمه عبد الله بن علي .

(٣) انظر الطبري ٧/ ٤٩٠ وابن الأثير ٣/ ٥٣١ .

(٤) بالأصل : « بتحمنا » ولا معنى لها ، وما أثبت يناسب سياق المعنى . انظر الإمامة والسياسة ٢/ ١٨٤ ومروج الذهب ٣/٣٥٧ والأخبار الطوال ص ٣٨١ .

(٥) عن ابن الأثير ، وبالأصل « أمية » وفي مروج الذهب وابن خلكان : آسية ، وفي الطبري : أمينة .

(٦) في المصادر السابقة : سليط بن عبد الله بن عباس .

اشرب[1] بكأس كنت تسقي بها[2] أمرّ في الحلق من العلقمِ
زعمت أن الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل[3] أبا مجرمِ

قال : فلم تزل السيوف تأخذه حتى برد ، فأنشأ بعضهم يقول أبياتاً مطلعها :

أبا مجرم اشرب بكأس سقيته بكف امرىء ما همّ أن يتكلما

إلى آخرها .

قال : وكان أبو دلامة الشاعر قد خدمه قبل ذلك فلم يعطه شيئاً وهدده بالقتل ، فلما كان ذلك اليوم وبلغه قتله أنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

أبا مجرم عبداً لعيسى بن معقل أخا دلف لا قول من يتكذب

إلى آخرها .

قال : وضج أصحاب أبي مسلم وهم بالباب فاستعظموا قتله ، فخرج إليهم أبو الخصيب الحاجب فقال : اسكتوا ! فإن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام وقد أمر لكم بأرزاق سنية وضمكم إلى من أحببتم من أهل خراسان ، وبعد فإن أبا مسلم إنما كان عبداً من بعض عبيد أمير المؤمنين ، فتعدى طوره وجاوز حده في صنائع أمير المؤمنين ، مثله كثير . قال : فسكت الناس ووضعت لهم الأرزاق ، ثم بعث برأس أبي مسلم إلى خراسان ، وكتب المنصور إلى أبي داود[4] وهو يومئذ خليفة أبي مسلم على خراسان فولاه البلاد وبعث إليه بالخلع ، واستقر أهل خراسان ونسوا أبا مسلم[5] كأنه لم يكن ، واستقام الأمر للمنصور بعد قتل أبي مسلم ، لأنه لم يبقَ أحد غيره .

ذكر فتح أبي جعفر[6] المنصور إرمينية وأذربيجان

قال : ثم دعا المنصور يزيد بن أسيد بن زافر السلمي فعقد له وولاه بلاد إرمينية ، ودعا بيزيد بن حاتم فولاه بلاد أذربيجان . قال : فسار يزيد بن أسيد من العراق إلى إرمينية ، فنزل مدينة يقال لها برذعة ثم فرق عماله في البلاد ، وكتب إليه

---

(١) قبلها بالأصل : « مجرم » وقد حذفت لاستقامة الوزن .

(٢) في الأصل « به » وما أثبت عن الطبري وابن الأثير .

(٣) عن الطبري وابن الأثير ، وبالأصل : واستوف بالكيد .

(٤) بالأصل « ابن أبي داود » وما أثبت عن الطبري وابن الأثير ، واسمه خالد بن إبراهيم .

(٥) بالأصل « أبو مسلم » خطأ .

(٦) بالأصل : « ذكر لما فتح أبو جعفر » .

المنصور : أما بعد فإن بلاد إرمينية لا تستقيم ولا تصلح إلا بمصاهرة الخزر ، والرأي عندي أن تصاهر القوم حتى تستقيم البلاد ، وإلا فإني خائف عليك وعلى جميع عمالك من الخزر ، فإنهم إذا أرادوا واجتمعوا غلبوا ، فانظر ولا تخالف أمري واجتهد في مصاهرة الخزر ـ والسلام ـ .

ذكر تزويج يزيد بن أسيد بن زافر السلمي إلى ملك الخزر

قال : فلما ورد كتاب المنصور على يزيد أرسل إلى خاقان ملك الخزر واسمه تعاطر[(١)] فخطب إليه ابنته وكان يقال لها خاتون ، فأجابه ملك الخزر إلى ذلك ، فتزوجها يزيد بن أسيد على مائة ألف درهم ، وزفت خاتون من بلاد الخزر إلى بلاد الإسلام ومعها عشرة آلاف من أهل بيت من الخزر ، ومعها أربعة آلاف رمكة بفحولها ، وألف بغل وبغلة ، وألف إنسان ، وعشرة آلاف جمل خزري من الجمال الصغار ، وألف جمل تركي كل جمل منها بسنامين ، وعشرون[(٢)] ألف شاة ، وعشر عجلات على مثل القباب ، لها أبواب مضروبة بصفائح الذهب والفضة ، مفروشة بالسمور ، ومجللة بالديباج ، وعشرون[(٣)] عجلة فيها أمتعة وآنية من الذهب والفضة وغير ذلك .

قال : فلما وردت بنت ملك الخزر إلى بلاد الإسلام ومعها هذا الخير الكثير أنزلت بموضع يقال له القباب على باب البرذعة ، قال : فأنزلت هنالك ثم أرسلت إلى يزيد أن ابعث لي نساء من نساء المسلمين حتى يعلمنني الإسلام ويقرئنني القرآن ، فإذا تعلمت ذلك فشأنك بي . فأرسل إليها يزيد بعدة نساء من برذعة ، فعلمنها الإسلام وأقرأنها القرآن . قال : ولم يبق قائد من قواد يزيد بن أسيد إلا وهدى لها من الهدايا على قدر طاقته ، حتى إذا تعلمت خاتون القرآن وعرفت الإسلام ألقت عنها السيف والخنجر ، فعلم يزيد بن أسيد أنها أذنت له في الدخول ، فأقبل عليها بإذنها وإذا قد اختضبت وتزينت . قال : فبنى بها يزيد بن أسيد ، وأقامت عنده سنتين وأربعة أشهر ، وولدت منه ولدين ثم ماتت[(٤)] بعد ذلك ومات ولداها جميعاً ببرذعة ، فاغتم عليها يزيد غماً شديداً .

---

(١) كذا ولم نعثر به . وانظر خبر مصاهرة يزيد ملك الخزر في فتوح البلدان ص ٢١١ .

(٢) بالأصل : عشرين .

(٣) في فتوح البلدان : ولدت منه ابناً فمات وماتت في نفاسها .

ذكر انتقاض الخزر على المسلمين بعد موت خاتون

قال : وعلمت الخزر بموت خاتون بنت ملك الخزر ، فتحركوا على المسلمين فاجتمعوا في جيش عظيم وساروا حتى افترقوا من الباب والأبواب . قال : وسار إليهم يزيد بن أسيد في قريب سبعة آلاف فارس فلم يكن له بهم طاقة ، فكتب إلى أبي جعفر المنصور وخبره بذلك ، فلما قرأ المنصور كتاب يزيد اغتم لذلك وخشي أن ينتقض عليه أمره ، فكتب إلى أهل الشام وأخبرهم بأن يلحقوا يزيد بن أسيد[1] بأرمينية ! فوافى يزيد نيف عن عشرة آلاف رجل، ثم وافته عساكر العراق عسكراً بعد عسكر ، فأول من وافى من العراق جبريل بن يحيى في عشرة آلاف ، ومخلد بن الحسن في عشرة آلاف ، وحميد بن قحطبة في عشرة آلاف ، وحرب الراوندي[2] في خمسة آلاف ؛ فذلك خمسة وثلاثون ألفاً من أهل العراق . قال : وسار يزيد بن أسيد[1] ومعه عشرون ألفاً من أهل الشام والجزيرة ، وخمسة وثلاثون ألفاً من أهل العراق ؛ فذلك ستون ألفاً . قال : وسار بهم يزيد حتى دخل نهر الكرم وصار إلى بلد الشروان . قال : وإذا كراديس الخزر قد أقبلت مثل النيل وقطع الليل في زهاء عن مائتي ألف فارس . قال : والتقى للقتال في أرض الشروان ، فلم ير المسلمون يوماً كان أشد منه ، وذلك أنه قتل منهم مقتلة عظيمة ، وانهزم يزيد بن أسيد حتى دخل مدينة برذعة ، ومضى خاقان ملك الخزر وأصحابه وقد غنموا غنيمة لم ير مثلها .

قال : ومضى يزيد إلى العراق فخبر المنصور بما نزل بالمسلمين من الخزر ، فاغتم المنصور لذلك غماً شديداً . ثم قال : ويحك يا يزيد ! فما الحيلة ؟ قال : الحيلة أن تجعل في الأبواب أجناداً يرتبون فيها فتكون رداً للخزر وحوزاً للإسلام ، وما أرى رأياً غير هذا ؛ فعندها بعث المنصور إلى جميع الكور الذي بالشام والجزيرة والعراق ، وانتخب من أهل النجدة سبعة آلاف رجل كل رجل يعد برجال . ثم دعا إبراهيم بن أبي عون والهيثم بن سعد وضم إليهما عشرين[3] ألفاً ؛ ثم أرسل إلى مدائن الشام والجزيرة فحشر من أجنادها عشرة آلاف ، ثم ضم الكل إلى يزيد بن أسيد ، ثم أمره بالمسير إلى أرمينية .

وسار إلى مدينة برذعة ثم رحل منها حتى صار إلى نهر الكر فعبر بهؤلاء الخلق

---

(١) الأصل : يزيد .

(٢) عن المطبوعة ، وبالأصل « الدويري » .

(٣) بالأصل : عشرون .

وسار بهم حتى صار إلى مدينة الباب والأبواب فنزلها ورمّها وأحكم الأبواب التي لها . ثم أمر ببناء الأبواب فبنيت على هيئة مدينة النبات ممدودة على السور إلى جبل يقال له الكنك[١] . فأول الأبواب باب يقال له كمبخ ثم البردنة ثم الحميد ثم باب الحديد وباب واف وباب الرسل الصغرى وباب الرسل الكبرى وباب أرسى وباب أدرموسى وهو آخر الأبواب[٢] . قال : ثم فرق يزيد بن أسيد هؤلاء الأجناد الذين كانوا معه فأنزلهم الباب والأبواب وجعلها مسكناً لهم ولعقبهم ، وأجرى لهم الأرزاق التي كانت بنو أمية أجرت لهم قبل ذلك .

قال : ثم بعث المنصور بعد ذلك إلى يزيد بن أسيد فعزله عن إرمينية وولى مكانه بكار بن مسلم العقيلي فكانت ولايته سنة وأربعة أشهر ، ثم عزله المنصور وولى مكانه الحسن بن قحطبة الطائي ، فأقبل حتى دخل إرمينية في خمسين ألفاً من أهل خراسان وأهل الشام والعراق . فلما دخل الحسن بن قحطبة إلى بلاد إرمينية انتقضت عليه الضيارىة[٣] . وهم صنف من أصناف الكفار بأرض يقال لها أرض جرزان فلم يقدر الحسن بن قحطبة على أن يسكنهم فكتب إلى المنصور، فأمده المنصور بأربعة من قواده منهم عامر بن إسماعيل الجرجاني[٤] وعيسى بن موسى الخراساني والفضل بن دينار ومقاتل بن صالح ، فأقبل هؤلاء القواد في ثلاثين ألف فارس فسار بهم الحسن بن قحطبة إلى جرزان . قال : واجتمعت الضيارىة وأهل حاحط[٥]وهم أيضاً صنف من الكفار فاجتمعوا على المسلمين في جمع عظيم واقتتلوا ، فظفر الله المسلمين بهم ، فقتلوا في معركة واحدة منهم عشرة آلاف وأغنمهم الله أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، ورجع قواد المنصور إلى العراق .

وبقي الحسن بن قحطبة بإرمينية ، فأقبل حتى نزل إلى مدينة برذعة ، ودعا بابن له يقال له قحطبة فولاه الباب والأبواب ، ودعا بابنه إبراهيم فولاه بلاد جرزان من تفليس وما والاها ، ودعا بابنه محمد فولاه إرمينية الرابعة من بلاد أخلاط وقاليقلا[٦]

---

(١) كذا بالأصل ، ولم نعثر به .

(٢) كذا بالأصل وانظر ما ورد في معجم البلدان في حصون وشعاب وجبال باب الأبواب .

(٣) كذا ، وقد ورد ذكر « الصنارية » في فتوح البلدان فقد تكون إحدى اللفظتين محرفة عن الأخرى .

(٤) في مروج الذهب : « المذحجي » وفي الطبري : الحارثي .

(٥) كذا بالأصل بدون نقط .

(٦) عن معجم البلدان ، وبالأصل « فاليفلا » .

وما والاها[1] .

ذكر موشابذ[2] البطريق ومحمد بن الحسن بن قحطبة

قال : وكان بأرمينية الرابعة بطريق يقال له موشابذ[2] وكان من أبناء ملوك الروم وساداتهم ، وكان محمد بن الحسن بن قحطبة هذا رجلاً شرهاً لا يسعه شيء من شدة حرصه على أخذ الأموال ، وكان لا يرى على هذا البطريق شيئاً حسناً إلا يأخذه ، فرأى في إصبعه خاتم فضة من ياقوت من أحسن شيء يكون ، فقال له : هبني هذا الخاتم فقد أعجبني ! فقال موشابذ : إن هذا خاتم أبي وليس أحب أن يصير إلى غيري ، ولكن يقومه الأمير أيده الله ويأخذ مني قيمته ! قال : فأبى إلا أخذ الخاتم ، فقال له موشابذ : إذا كان غداً وجهت به إليك مع ما يشبهه . قال : وانصرف موشابذ إلى منزله ثم كتب من ساعته إلى بطارقته الذين حوله فاستعان بهم على حرب محمد بن الحسن بن قحطبة، فأجابه إلى ذلك . فجمع موشابذ البطارقة وجعل يحاربه ، وسمع بذلك حمرة بن جرجيق بطريق بلاد جرزان فجمع الجموع وجعل يقاتل إبراهيم بن الحسن بن قحطبة وهو يومئذ بمدينة برذعة ، فضاق به الأمر ولم يدر ما يصنع . قال : واجتمع إليه الكفار من كل ناحية غضباً منهم لموشابذ ؛ فلم يكن للحسن بهم طاقة ، فكتب إلى المنصور بذلك ، فأمده بعشرة آلاف من أهل العراق ، فساروا حتى نزلوا بمدينة أخلاط وسار إليهم الحسن بن قحطبة من برذعة في جيش عرمرم ، والتقى القوم على شاطىء بحيرة أخلاط ، فاقتتلوا فقتل موشابذ البطريق وقتل معه نيف من ثلاثة آلاف ، وانهزم الباقون على وجوههم والسيف يأخذهم إلى أن صار المسلمون إلى كنيسة موشابذ فأصابوا فيها مالاً كثيراً وسلاحاً ومتاعاً فأخذوه ، ثم رجعوا إلى موشابذ فأخذوا رأسه ورؤوس أصحابه من البطارقة والعلوج [وأرسلوها] إلى المنصور ، فأنشد عقبة بن طير النميري يقول أبياتاً مطلعها :

ألم تر أعلجاً ساروا إلينا ... مغلقة الكنائس بادرينا

إلى آخرها .

---

(١) انظر ما ورد في فتوح البلدان عن ولاية الحسن بن قحطبة الطائي لأرمينية .

(٢) ورد في فتوح البلدان « موشائيل » .

ذكر وفاة أبي جعفر

قال : فلما أتت على أبي جعفر في خلافته عشرون[١] سنة دعا بوجوه بني هاشم ووجوه قواده وخاصته وأخذ عليهم البيعة لابنه محمد بن المنصور وسماه المهدي ، وجعله ولي العهد من بعده . وكتب له على الناس بذلك كتاباً[٢] ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق . ثم دعا بابنه المهدي فأمره بالخروج إلى جرجان ، وأوصاه أن يحسن إلى الناس . ثم أوصاه وقال[٣] : يا بني ! أنت خارج إلى هذا الوجه ولست أدري ما يكون من الحدثان فافهم على ما أقول لك ، اعلم يا بني ! أن الخليفة لا يصلحه إلا الطاعة[٤] ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى المسلمين بالعدل أقدرهم على العفو[٥] ، وأنقص الناس عقلاً[٦] من ظلم من هو دونه . قال : ثم جعل المنصور يتمثل بهذين البيتين :

العيش أحلى ما يكو ... ن على حلاوة أمره
كم شامت بي إن هلكـ ... ـت وقائل لله دره

قال : ثم ودعه المنصور وانصرف ، ومضى المهدي إلى جرجان .

قال يزيد بن عبد الله الهلالي : حدثني سراج خادم المنصور قال: خرج المنصور حاجاً بعد خروج المهدي إلى جرجان ونزل منزلاً في طريق مكة ونظر وإذا في وسط المنزل والطريق هذه الأبيات :

لعمرك ما حجت قريش لحبه ... ولكنها حجت لحب الدراهمِ
وما حجت الأنصار إلا تعرضاً ... لسب ولي العهد من آل هاشم
ولا حجت الأعراب إلا ضراعة ... مدنسة الأثواب ركن الدعائم
ولكنّ من قد حجّ من صلب ماله ... على نية أبناء تلك الأعاجم

---

(١) الأصل : عشرين .

(٢) كذا ، والمشهور أن المنصور عمد سنة ١٤٧ إلى خلع عيسى بن موسى بن محمد بن علي من ولاية عهده وبويع للمهدي محمد بن المنصور (انظر الطبري ـ ابن الأثير) .

(٣) انظر الطبري وابن الأثير حوادث سنة ١٥٨ .

(٤) في ابن الأثير ٣/٦٣٠ لا يصلح السلطان إلا بالتقوى . ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة .

(٥) ابن الأثير : وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة .

(٦) ابن الأثير : وأعجز الناس من ظلم .

قال : وإذا أسفل بيتين مكتوبة أيضاً :

لعمري لئن كانت قريش تعرضت ... لسب امرىء عامٍ عن الحق ظالمِ
لما صادفت ذا المكرمات ابن جعفر ... ولا مصعباً جمّال تلك المعالم

قال : فعلم المنصور أنها كتابة قديمة ، فقرأها وحفظها إلى أن دخل مكة ، فنزل في دار من دورها ، فإذا على الحائط الذي للدار مكتوب بخط جليل القدر . قال : فأمر الربيع أن يقرأ ما على الحائط ، فامتنع من قراءتها ، فقام المنصور ليقرأها ، وإذا هما بيتان من الشعر :

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سنوك[1] وأمر الله لا شك[2] واقع[3]
أبا جعفر هل[4] كاهن أو منجم ... لك اليوم عن رد المنية دافع[5]

قال : فرفع المنصور إلى فراشه فأسقط في يده حتى امتنع من الطعام والشراب ، فلما قضى حجه وأراد الانصراف اعتل علة شديدة وأيس من نفسه .

قال الرقاشي : حدثني أبو كلثوم صاحب المنصور قال : دعاني المنصور بمكة وهو شديد العلة ، قال : قد علمت بما كان من ملك مع أبي مجرم[6] في أيامه وما كنت تفشي إليه من سري ، والله لأقتلنك أشر قتلة ، فلا تعجل إلا أن أقوم من علتي هذه ! قال : فخرجت من عنده والموت قابض على حلقي ، فمن شدة ما كان بي من الغم حملني النوم فإذا بهاتف يهتف بي بهذا البيت وهو يقول :

يعقد المرفق لي بيمين ... وهو في غفلة بريب المنونِ

قال : فانتبهت فزعاً مرعوباً ، فارتفعت الضجة فقلت : ما الخبر ؟ فقالوا : مات أمير المؤمنين .

قال أيوب بن عبد الله صاحب المنصور: كانت خلافة المنصور اثنتين وعشرين

---

(١) عن الطبري وابن الأثير ومروج الذهب ، وفي الأصل « سوىك » .
(٢) في المصادر المذكورة : لا بد .
(٣) في مروج الذهب : نازل .
(٤) عن المصادر السابقة ، وبالأصل « كل » .
(٥) في مروج الذهب :

برد قضاء الله ، أم أنت جاهل

(٦) يريد « أبا مسلم الخراساني » .

سنة إلا سبعة أيام ، وتوفي ببئر ميمون بن الحضرمي ودفن هناك . وقال الرقاشي : قال أبو كلثوم : مات ببئر ميمون ودفن بالحجون[1] لست ليال خلون من ذي الحجة[2] سنة ثمان[3] وخمسين ومائة وهو ابن أربع وستين سنة[4] .

[خلافة المهدي]

وصار الأمر إلى ابنه المهدي واسمه محمد ، وأمه أم موسى ابنة منصور الحميرية[5] ، فقدم المهدي من جرجان وقعد في الخلافة عشر[6] سنين ومات ـ والله أعلم وأحكم ـ ، وكان للمهدي أخبار وأسمار لا تدخل في الفتوح .

قال ابن يقطين[7] : كنا عند المهدي ذات يوم فقال : إني أصبحت جائعاً فأتوني بشيء ! قال : فأُتي بأرغفة ولحم بارد ، فأكل ثم قام فقال : إني داخل ذلك النهر[8] نائم فيه فلا يوقظني أحد حتى أستيقظ أنا من ذاتي ! إذ سمعنا بكاءه ، فبادرنا إليه وقلنا : مما بكاءك ؟ فقال : رأيت الساعة رجلاً لو كان في مائة رجل لما خفي ، فوقف على باب هذا النهر وجعل يقول هذه الأبيات فحفظتها منه[9] :

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه أهله ومنازله
وصار عميد القوم من بعد نعمة ... ومُلكٍ إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلا ذكره وحديثه ... تنادي بليل معولات حلائله

---

(١) بالأصل « بالحجور » والحجون جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

(٢) بالأصل « محرما » .

(٣) بالأصل « تسع » .

(٤) في يوم وفاته ومقدار عمره ومدة خلافته اختلاف انظر مروج الذهب ٣٤٤/٣ تاريخ اليعقوبي ٣٨١/٢ الطبري ٢٩٣/٩ ابن الأثير ٦٢٧/٣ تاريخ خليفة ص ٤٢٩ التنبيه والأشراف ص ٣٤١ العقد الفريد ١١٤/٥ المعارف ص ٣٧٨ البداية والنهاية ١٢٢/١٠ .

(٥) هي أروى بنت منصور ، أخت يزيد بن منصور الحميري ، كانت تكنى أم موسى انظر ابن الأثير ٦٢٨/٣ .

(٦) بالأصل « ست » خطأ .

(٧) هو علي بن يقطين ، كان في يده خاتم الخلافة أيام الهادي ، ولم يلبث أن قتل على الزندقة .

(٨) كذا بالأصل ومروج الذهب ٣٩٥/٣ وفي الطبري وابن الأثير (حوادث سنة ١٦٩) : البهو .

(٩) في المصادر الثلاثة باختلاف بعض الألفاظ .

قال : فلم يشك أحد أن أجله قد اقترب . قال علي بن يقطين : فكنا معه بعد ذلك في قصر الرصافة ببغداد فأرسل إلى وجوه بني هاشم ورؤساء القوم فأحضرهم ثم أخذ عليهم البيعة لابنه موسى وسماه الهادي وجعل هارون من بعده ولي العهد وسماه الرشيد ، فقال في ذلك أهل الأدب هذه الأبيات :

قد نشرت أرضنا السماء به ... وقال فيه من يقرأ الكتبا
محمد مورث خلافته ... موسى وهارون بيعتان أبا

وقد ذكر ذلك أيضاً مروان بن أبي حفصة في قصيدة له حيث يقول :

عقدت لموسى بالرصافة بيعة ... شد الإله بها عرى الإسلامِ
موسى الذي عرفت قريش فضله ... ولها فضيلتها على الأقوام
مهدي آمنة التي أمنت به ... للذل آمنة من الإعدام
موسى وصي عصا الخلافة بعده ... جفت بذاك مواقع الأقلام
فلتعلون خير مدافع ... أعواد منبرها وطرفك سام

قال : ثم لم يلبث المهدي بعد ذلك قليلاً حتى مات[1] ، فكانت مدة خلافته عشر سنين وشهراً واحداً ، وتوفي بموضع يقال له ماسبذان ودفن في دير الغنم ليلة الخميس لثمان ليال بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة[2] .

[خلافة موسى الهادي بن المهدي][3]

وصار الأمر إلى ابنه الهادي ويكنى أبا محمد[4] ، وقد كان موسى يومئذ بجرجان فولى له البيعة أخوه هارون ببغداد، وقدم عليه لأخذ البيعة مولى له يقال له نصير . قال : فكان موسى هذا مفتوح الفم لا يطيق بضم شفتيه فلذلك قيل له : موسى أطبق . وقد كان مع ذلك لا يفتر عن الشرب ليلاً ونهاراً ، ولم يكن له شيء من

---

(١) ورد في المصادر السابقة أنه مات بعد رؤياه بعشرة أيام .
قيل إنه مات مسموماً بلبإ فيه سم . وقيل إنه قدمت إليه كمثراة (من الكمثرى) مسمومة .
(٢) اختلفوا في مدة ولايته ومقدار عمره ، انظر الطبري ٨/١٧١ ابن الأثير ٤/٦ مروج الذهب ٣/٣٧٧ تاريخ اليعقوبي ٢/٤٠٢ تاريخ خليفة ص ٤٣٩ المعارف ص ٣٧٩ .
(٣) استدرك عن هامش الأصل .
(٤) بالأصل « أبا القاسم » وما أثبت عن تاريخ بغداد .

الفتوح ، وله أخبار مع العلوية لا نحب أن نوردها .

قال أبو بشر المازني : حدثني صباح مولى المهدي قال: حدثني مراقب مولى المهدي قال : كانت تحت الهادي امرأة يقال لها أم موسى[١] ، فقال لها الهادي : ما آسف على شيء من أمر الخلافة إلا عليك وأخاف أن يتزوجك أخي هارون من بعدي ، فقالت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين ! ما كنت لأفعل ذلك ولا يجتمع رأسي ورأسه أبداً ! قال : فأرسل موسى إلى أخيه هارون فدعاه واستحلفه بالأيمان المؤكدة أنه لا يتزوج أم موسى من بعده ، فحلف له هارون بما استحلفه . ثم مات الهادي من تلك الخبيثة التي ظهرت برجله[٢] ، فكانت خلافته سنة وشهرين وعشرين يوماً ، وتوفي ببغداد يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة وهو ابن ثمانية وعشرين سنة[٣] ، وصار الأمر إلى أخيه هارون أبي جعفر بن محمد المهدي وهو الرشيد ، وأمه الخيزران أم ولد ، وقال قوم : لا بل كانت عربية .

[خلافة هارون الرشيد][٤]

قال إبراهيم بن إسحاق الموصلي : أخبرني أبي قال: فلما أفضت الخلافة إليه بعث إلى أم موسى[٥] امرأة أخيه فخطبها ، فأرسلت إليه : أو ليس قد حلفت يا أمير المؤمنين لأخيك ما حلفت ؟ فأرسل إليها : إني كفّرت عن يميني ! فزوجته نفسها ؛ فبينما هي ذات يوم نائمة مع الرشيد إذا انتبهت مرعوبة فزعة ، فقال لها الرشيد : ما قضيتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين ! رأيت الساعة سيدي موسى الهادي أخذ بعضادة هذا الباب وهو يقول هذين البيتين :

إن الذي غره منكن واحدة　　بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

---

(١) في الطبري « أم العزيز » وقد تزوجها الرشيد بعد الهادي وأولدها علي بن الرشيد .

(٢) في موته أقوال منها أن أمه الخيزران قتلته بعدما حاول خلع الرشيد من ولاية عهده والبيعة لابنه جعفر ، فدست جواريها قتلنه بالغم والجلوس على وجهه فمات .

(٣) في يوم موته ومدة ولايته ومقدار عمره أقوال . انظر في ذلك : الطبري ١٠/٣٨ مروج الذهب ٣/٣٩٧ الأخبار الطوال ص ٣٨٦ ابن الأثير ٤/١٨ العقد الفريد ٥/١١٦ تاريخ خليفة ص ٤٤٦ المعارف ص ٣٨١ التنبيه والأشراف ص ٣٤٤ تاريخ اليعقوبي ٢/٤٠٦ .

(٤) عنوان استدرك عن هامش الأصل .

(٥) مرّ أنها أم العزيز .

أنت التي خنت عهدي بعد موثقة إن لا يكن كذبت عنك الأخابير

قال فقال لها الرشيد : هذا من عمل الشيطان .

قال : ثم إن الرشيد اتخذ البرامكة وجعلهم وزراءه ، وأفشى إليهم أسراره وقدمهم على غيرهم . قال إسماعيل بن عزوان : كنت من منزل ثمامة بن أشرس فسمعته يقول : لم يجتمع لخليفة قط من ولد العباس ما اجتمع للرشيد ، وزراؤه البرامكة الذين لم ير مثلهم ولا جودهم وكرمهم فيمن مضى وسلف ، ونديمه العباس[1] بن محمد ، وحاجبه[2] الفضل بن الربيع أعظم الناس أبهة وأكمل الناس نعمة ، وقاضيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم وجندب دهره في الحيل وأمضى أصحابه في الحكمة ، وشاعره مروان بن أبي حفصة كبير دهره ، ومغنيه[3] إبراهيم الموصلي ، وضاربه بالعود زلزل ، وزامره برصوما[4] ، وأكبر من هذا قدراً وأفخر زوجته زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور التي كانت من أرغب الناس في الخير، وهي التي جاءت بالماء إلى الحرم بعد امتناعه ـ وغير ذلك مما لا يحصى ـ .

قال ثمامة بن أشرس : ولا اجتمع لأحد من بني العباس ولا غيرهم ممن مضى من الخلفاء ولا من بني أمية ولا لخلق ممن ولي الخلافة من المال ما اجتمع عند الرشيد، وذلك أنه اجتمع في خزانته بيور من المال ـ والبيور: ألف ألف دينار ـ ، وهذا لا يحصى إلا أن يكتب ويحسب بعد ذلك .

تم كتاب الفتوح

(١) كذا وفي البداية والنهاية : عمر بن العباس بن محمد .

(٢) بالأصل « صاحبه » .

(٣) بالأصل « شيعته » .

(٤) عن الأغاني ، وبالأصل « برصوا » .

[حكاية الإمام الشافعي مع الرشيد][1]

حدثنا أبو محمد قال: أخبرنا عبد الله بن محمد البلوي قال: حدثني عمار بن يزيد المدني قال: حدثني أحمد بن عبيد الحيري ـ وكان من غلبة أصحاب العلم ـ قال: دخلت ذات يوم أنا ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة على الرشيد فناظرنا بين يديه ساعة ، فقال الرشيد : هل تعرفان لي رجلاً يقوم بصدقات اليمن أوليه ذلك ؟ فقال محمد بن الحسن : بلى يا أمير المؤمنين قد وجدته . قال : ومن هو ؟ قال : محمد بن إدريس الشافعي ، وهو رجل فقيه عالم ، ويجمعه وإياك يا أمير المؤمنين عبد مناف بن قصي ، فقال الرشيد : عليّ به لكي أنسبه . قال : يا أمير المؤمنين ! هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن[1] عبيد بن عبد يزيد[2] بن هاشم بن المطلب[3] [بن عبد مناف ـ][4] بن قصي . فقال الرشيد : عليّ به! فما كان بأسرع أن أتي بالشافعي ، فلما دخل وقضى حق التسليم أمره بالجلوس فجلس ، فقال : يا شافعي ! فقال : لبيك يا أمير المؤمنين ! فقال : كيف علمك بكتاب الله ؟ فإنه أولى ما يُبتدأ به ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الله تبارك وتعالى قد جمعه في صدري وجعل ديني دفينه ، فأنا أعقد عليه في كل أموري ، ولكن أعلم فأي علم تريد مني يا أمير المؤمنين ؟ علم بتنزيله أو علم تأويله ، أم علم مكيه أم علم مدنيه ، أم [علم] ليله أم علم نهاره ، أم سفره أم حضره[5] ، أم ناسخه

---

(١) استدراك عن هامش الأصل .

(٢) عن جمهرة ابن حزم ص ٧٣ وبالأصل « عبد مناف » .

(٣) عن ابن حزم ، وبالأصل « عبد المطلب » .

(٤) عن ابن حزم .

(٥) بالأصل : أم سفريه أم حضريه .

أم منسوخه ، أم محكمه أم متشابهه . قال : فتبسم أمير المؤمنين الرشيد ثم التفت إليه وقال : إن الرجل لكما وصفت إن لم تكن فيه نخوة قريش ! قال : فسكت الإمام الشافعي ولم يقل شيئاً ، فقال له الرشيد : كيف علمك بالفرائض ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما شذّ عليَّ شيء منها ، وإني لأعرف حلالها وحرامها واختلافها ؛ فقال : وكيف علمك بالأحكام ؟ فقال : يسأل أمير المؤمنين عما شاء وعن أي نوع شاء من نوع الأحكام وما اختلف فيه الإسلام ؛ فقال : كيف علمك بالطب ؟ فقال : إني لأعرف ما قالت فيه فلاسفة الهند والروم وأبقراط وجالينوس وأرسطاطاليس وغيرهم من العلماء والحكماء ؛ قال : فكيف علمك بالنجوم ؟ قال : إني لأعلم قطب الدائرة[1] ومنازل القمر والبروج كلها من المؤنث والمذكر وما يهتدى به البر والبحر ؛ قال : فكيف علمك بالشعر ؟ فقال : لقد رويت منه القديم والحديث ، والجد والهزل ، وما يحض على المكارم والبذل ؛ قال : فكيف علمك بالعرب ؟ فقال : إني لأعرف أنساب السادة الكرام والأراذل اللئام ؛ فقال الرشيد : يابن إدريس ! لقد ادعيت من العلوم عظيماً وإخالك بما ذكرت عليماً ، فعظ أمير المؤمنين عظة تبين له بعض ما ادعيت ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! على طرح الحشمة وترك الهيبة وقبول النصيحة وإلقاء رداء الكبرياء عن عاتقك ، فقال الرشيد : ولك ذلك وأنت آمن ، فقل ما بدا لك ! قال : فجثا الشافعي على ركبتيه بين يديه ثم قال : يا ذا الرجل ! من أطال عنان الأمر في العز طوى عنان الحزن في المهلة ، ومن لم يبادر إلى طريق النجاة كان مقيماً على قلة الاكتراث بالمرجعة إلى الله تعالى ، ومن استعمل حسن الظن فيما يحذر من المحذور كان في أمره كمثل نسج العنكبوت ، وأليس الناس من بادر مطايا المراجعة إلى دار المقامة ، ولو فعلت ذلك لما أنفذت إليك يد الندامة ولا الحسرات غداً في عرصات القيامة ، ولكنك أتيت من جلد لا يؤدى حقه إلى طليل ، ومن أذن يمج الكلام مجي عن اذنك ثم أعقبك التواني والاغترار بنفسك ، ولو كان لك دليل يدل على ما سقط من عيبك لشغلك ذلك عن عيب غيرك لكن ضرب عليك الهوى رواق الحيرة فتركك إذا أخرجت يدك لم تكد تراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ! فاتق الله أيها الرجل تقوى من يعلم أن الله عليه رقيب ، ومن علم أن الله بالقيامة حسيب . قال : فدمعت عينا أمير المؤمنين الرشيد حتى بلّ منديله ، فقال له بعض خدم الخواص : اسكت فقد أبكيت أمير المؤمنين ! قال : فالتفت إليه

---

(١) بالأصل « القطب الدائر » .

الشافعي مغضباً ثم قال : إليكم عني يا عبيد الرجعة ! أولستم الذين باعوا أنفسهم من هذه الدنيا بطلب الشفعة ! أما رأيتم من استدرج من الأمم الماضية والقرون الخالية ! أما رأيتم كيف علم مستورهم وأمطرت عليهم المنايا بالفناء فاضمحل سرورهم فأضحوا بعد خفض عيشهم ولين رفاهتهم في نسيم البطالين حصائد النعم ومدارج المتالف والنقم . قال فقال الرشيد : يابن إدريس : لقد سللت علينا حسامك من لسانك وهو أمضى من سيفك وسنانك ! فقال : يا أمير المؤمنين ! هو لك إن شئت وإن قبلت . وإن شئت كففت عن ذلك ! قال الرشيد : فإنا قد قبلنا موعظتك ونحن موجهوك إلى أرض اليمن لتكون على صدقاتهم ، فسر على بركة الله وعونه ! ولا ترفعن إليّ باطلاً ولا تمنعن ذا حق حقه . قال : ثم خلع عليه الرشيد وحمله وأحسن جائزته ، وأمر الكاتب أن يكتب له عهداً .

وسار الشافعي حتى دخل اليمن فأقام بها حولاً كاملاً ، واتصل الخبر إلى الرشيد أن الشافعي يريد أن يخرج عليه علوياً بأرض اليمن ـ وكان الخبر باطلاً ، فغضب الرشيد لذلك غضباً شديداً ، ثم أرسل إلى الشافعي فحمله ، وحمل معه بضعة من أصحابه حتى وافوا الرشيد ، قال : وبلغ الخبر إلى محمد بن الحسن [فأقبل] على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ! تأن في أمر هذا الرجل ولا تعجل عليه ، فإنه فقيه الحجاز وأنا مخالف له على مذهبه ، ولعل الناس يقولون أنا الذي سعيت به إلى أمير المؤمنين ! قال : فزبره الرشيد زبرة وقال : اخرج من بين يدي فأنت الذي أشرت عليّ به ، فوالله لأقتلنه قتلة ما سبقني أحد إليها . قال : فخرجت إلى الشافعي فإذا هو في سراويله وقد عري من ثيابه ، فتقدمت إليه وقلت : لا عليك أبا عبد الله ! اتق الله واتكل عليه ، فإني أرجو أن يكون لك من الله فرج وأن يسلمك الله منه ، فإني قد كلمته فيك فزبرني حتى اتقيته على نفسي غير أنه رجل فصيح ، وأنت بحمد الله قد رزقت الفصاحة ، فهيىء له كلاماً تستمليه به ، قال : فإني لكذلك أكلمه . إذ دعا به فأدخل ، فلما رآه الرشيد قال : بسم الله الرحمن الرحيم **﴿ يٰأيها الذين اٰمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهٰلة فتصبحوا على ما فعلتم نٰدمين ﴾[1] فقال الرشيد : أوليس الكلام والأمر على ما قيل فيك يابن إدريس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! أوليس في الناس علوي إلا ويظن أن الناس له عبيد ! فكيف أخرج رجلاً يريد أن يجعلني عبداً وأغدر بسادات بني عبد المطلب وأنا منهم وهم**

(١) سورة الحجرات ، الآية ٦ .

مني ! قال : فسكن عن الرشيد غضبه ، ثم قال : أستغفر الله من كل ذنب وخطيئة ! اجلس ، فجلس ، ثم قال الرشيد : يا غلام عليَّ بتخت من ثياب العلماء ! فأتي به فخلع عليه ، ثم قال : عليّ بمحمد بن الحسن ! وأنا من وراء الستر فدخلت فرحاً مسروراً ، فقال الرشيد : يا محمد ! قد شهد قلبي لهذا الرجل بالصدق ، فاجلس معه وناظره إلى وقت خروجي إليكما ، وحلفه أن لا يرخص في يمين المكره . قال : ثم وثب الرشيد فدخل إلى قصره ، قال : فأقبلت على الشافعي فقلت : يا أبا عبد الله ! من كان في طاعة الله كان الله في حاجته . قال : فناظرته ساعة ، ثم قلت : الساعة يخرج أمير المؤمنين وقد أمرني أن أحلفك أن لا ترخص في اليمين المكرهة ، فقال : وقد عزمت على أن تحلفني ؟ فقلت : بهذا أمرني أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا عبد الله ! وأمير المؤمنين لا يعلم بيميني هذه التي حلفتها لك أنا هي يمين مكره ، فقلت : صدقت . فخرج الرشيد فوثبت قائماً وقام الشافعي ، فقال الرشيد : يا محمد ! حلفته كما أمرتك ؟ قال فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنه يزعم أنه مكره على يمينه ، فضحك الرشيد ، ثم قال : يا شافعي ! لا ترخص في يمين المكره فإنها لازمة لك ولمن حلف بها ، فقال الشافعي : السمع والطاعة يا أمير المؤمنين . قال الرشيد : فهل من حاجة خاصة قبل العامة ؟ فقال الشافعي : نعم يا أمير المؤمنين ! حاجتي النظر في أمور الرعية والقسم بالسوية ، فقال الرشيد : ومن يطيق ذلك يابن إدريس ؟ فقال : يطيق ذلك من تسمى باسمك واستعد إلى موضعك ، قال الرشيد : ثم ماذا ؟ قال : انظر لجيران رسول الله ﷺ ، قال الرشيد : وما أصنع بهم ؟ قال : تغمر الفقير وتحسن الصنيعة إلى أولاده وأولاد أصحابه ، قال الرشيد : أفعل ذلك يا غلام ! احمل إلى المدينة ثلاثمائة ألف درهم وفرق عليهم ، وإلى أهل مكة مثل ذلك . ثم التفت إلى محمد بن الحسن فقال : هل ناظرته بشيء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! قد جرت بيني وبينه مناظرة . قال : فناظره بين يدي حتى أسمع ، فأقبل عليه محمد بن الحسن فقال : أبا عبد الله ! ما تقول في رجل تزوج امرأة ودخل بها ، وتزوج ثانية ولم يدخل بها ، وتزوج ثالثة ودخل بها ، وتزوج رابعة ولم يدخل بها ، ثم أصاب الثانية أمّ الأولى ، وأصاب الرابعة عمة الثالثة ؟ فقال الشافعي : أما الثانية فلا يدخل بها لقول الله عز وجل ﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن ﴾[1] وقد دخل بابنتها فحرم عليه الدخول

---

(١) سورة النساء، الآية ٢٣ .

بأمها[٢] ؛ وأما الرابعة فلا يدخل بها لقول النبي ﷺ : لا يتزوج الرجل المرأة على عمتها ولا على خالتها . ثم أقبل عليه الشافعي وقال : ما تقول رحمك الله أبا عبد الله ! كيف استقبل النبي ﷺ يوم النحر وكيف كبر ؟ قال : فتقنع محمد بن الحسن ولم يكن عنده من ذلك جواب ؛ فقال الشافعي : يا أمير المؤمنين ! يسألني عن الأحكام فأجيبه ، وأسأله عن سنة من سنن رسول الله ﷺ فلم يجبني ؛ فقال الرشيد : قد كان ذلك . ثم قال : يا غلام ! بدرة تحمل إلى منزل الشافعي ! ثم أقبل عليه الرشيد وقال : إذا شئت فانصرف ! قال : فانصرف الشافعي إلى منزله غانماً سالماً مؤيداً من ربه ـ رحمة الله ورضوانه عليه ـ .

وأيضا خبر الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ

حدثنا أبو محمد قال : أخبرنا بعض أهل العلم قال : سمعت أبا العباس يقول ـ وهو محمد بن يزيد المبرد اليماني البصري ـ قال : كان الشافعي ـ رحمه الله ـ من أشعر الناس ، قال : فأخبرني الربيع بن سليمان أن الشافعي نعى إليه بعض إخوانه فحزن عليه حزناً شديداً وحضر جنازته ، فلما صلى عليه ودفن التفت إلى ابن أخيه فأنشأ يقول هذه الأبيات :

إني أعزيك لا أني على طمع ... من الحياة ولكن سنة الدينِ
فما المعزي بباقٍ بعد صاحبه ... ولا المعزى وإن عاشا إلى حينِ

وقال : إن الشافعي دخل أرض مصر في سنة مائتين ، فأقام بها أربع سنين كوامل ثم توفي بها[٢]، فقبره يقال له : المعظم ـ والله أعلم ـ ، وقد ذكر ذلك محمد بن إبراهيم البوشنجي في قصيدة له يرثي بها الشافعي ويذكر فيها بضعة عشر رجلاً من أجلاء أصحابه وبمن كان يقول معه بقوله ويميل إليه ويناضل عنه ، منهم : أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، وأحمد بن سنان[٣] القطان ، وإسماعيل بن يحيى

---

(١) بهامش المطبوعة : « كذا بالأصل ، والصحيح أن الثانية حرمت عليه لقوله تعالى : ﴿ وامهات نسائكم ﴾ سواء كان دخل بالأولى (أي بابنتها) أو لم يدخل بها ، وقيد الدخول ثابت للبنت أي إذا كانت الثانية بنت الأولى .

(٢) مات بمصر سنة ٢٠٤ ، وقد ولد سنة ١٥٠ قيل ولد بغزة وقيل بعسقلان وقيل باليمن (انظر ترجمة وافية له في البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٤) .

(٣) عن طبقات الشافعية ١/ ١٨٦ وبالأصل : يوسف بن محمد .

أبو المزني[1] ، وعبد الله بن الزبير الحميدي ، والحسن بن محمد بن الصباح[2] الزعفراني ، والربيع بن سليمان المرادي[3] و[4]يوسف بن يحيى[4] البويطي ، وأبو ثور إبراهيم بن خالد البغدادي ، و[5]أحمد بن صالح[5] المصري ، وعبد الله بن صالح الكاتب ، والليث بن سعد ، وأحمد بن عقيل الحجازي ، والحارث بن مسكين صاحب مسائل مالك بن أنس ، ويحيى بن سعيد القطّان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي المروزي ، وأبو عبيد[6] القاسم بن سلام[7] ؛ فهؤلاء ممن قد ذكرهم محمد بن إبراهيم البوشنجي[8] في شعره .

ثم رجعنا إلى أخبار الرشيد بن المهدي
رضي الله عنه

قال : ثم عقد الرشيد للفضل بن يحيى البرمكي عقداً وولاه أذربيجان وإرمينية ، فخرج إليها الفضل في جيش عظيم حتى نزل برذعة ، ثم خرج منها إلى مدينة الباب والأبواب ، ثم خرج منها عازماً إلى قلعة يقال لها حمزين ، فحارب أهلها فلم يظفر منهم بشيء ، وأقبل راجعاً حتى صار إلى مدينة برذعة فأقام بها مدة يسيرة ، ثم دعا برجل يقال له [9]عمر بن أيوب الكناني[9] فاستخلفه على عمله ومضى إلى العراق، ثم عزل[9]عمر بن أيوب الكناني[9] وولى مكانه أبا الصباح مولى الأشعريين . قال : وجعل أبو الصباح يجور على أهل إرمينية ، فوثب عليه أهل برذعة فقتلوه وأقعدوا مكانه سعيد بن[10]محمد اللهبي .

---

(1) بالأصل « إبراهيم المزني » وما أثبت عن طبقات الشافعية ١/٢٣٨ .
(2) عن تهذيب التهذيب ، وبالأصل : الصاح .
(3) عن طبقات الشافعية وبالأصل : المرادني .
(٤ - ٤) عن طبقات الشافعية ، وبالأصل : سليمان بن داود .
(٥ - ٥) بالأصل : الجارود بن أحمد .
(6) بالأصل : أبو عبيدة .
(7) بالأصل « سلامة » .
(8) بالأصل « سحبين » .
(٩ - ٩) عن تاريخ اليعقوبي ٢/٤٢٦ وبالأصل « عمرو بن الوليد » .
(10) بالأصل « أبي » وما أثبت عن اليعقوبي .

ذكر أبي مسلم الشاري وخروجه على الرشيد

قال : وخرج أبو مسلم الشاري على الرشيد وكان خروجه من مدينة البيلقان . فوجه إليه الرشيد برجل يقال له إسحاق بن مسلم العقيلي في خمسة آلاف فارس من أهل العراق ، وبلغ ذلك أبا مسلم الشاري فزحف إلى إسحاق بن مسلم ، حتى إذا وافاه بمدينة ورثان فالتقى القوم هنالك فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فكانت الدائرة على إسحاق بن مسلم صاحب الرشيد فانهزم من بين يدي أبي مسلم الشاري هزيمة قبيحة . وبلغ ذلك الرشيد فبعث إليه برجل يقال له العباس بن جرير بن خالد القسري[١] فهزمه أبو مسلم الشاري أيضاً ، فوجه إليه الرشيد برجل يقال له معدان[٢] الحمصي فقتله أبو مسلم الشاري ، ثم سار من موضعه ذلك إلى مدينة من مدائن إرمينية يقال لها القسوى[٣] ، فأخذها وجبى خراجها وفرقه على أصحابه ، ثم سار منها إلى مدينة دبيل من بلاد إرمينية ، فحاصرها أربعة أشهر فلم يقدر عليها ، فأقبل راجعاً إلى بلاد السجستان حتى صار إلى البيلقان فنزلها ؛ ثم جعل يغير على البلاد ميمنة وميسرة فيقتل ويحرق وينهب .

قال : وبلغ ذلك الرشيد فوجه إليه ثلاث عساكر ثلاثين ألفاً ، منهم يحيى الحرشي[٤] في عشرة آلاف ويزيد بن مزيد[٥] الشيباني في عشرة آلاف . قال : فأقبل يحيى الحرشي[٥] في عشرة آلاف على طريق الجزيرة . قال : فأقبلت هذه العساكر من كل جانب ، فمات قبل أن توافيه العساكر .

قال : فلما مات أبو مسلم الشاري قام بعده السكن بن موسى بن حيان البيلقاني ، فخرج من مدينة البيلقان يريد لقاء يحيى الحرشي[٦] فلقيه ببلاد أذربيجان فقاتله هنالك ، ثم انهزم السكن بن موسى وأخذ ابنه يقال له الخليل أسيراً ؛ ومضى السكن بن موسى فيمن معه من الشراة يريد محاربة يزيد بن مزيد[٧] الشيباني فاستأمن

---

(١) في تاريخ اليعقوبي : العباس بن جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي .

(٢) عن تاريخ اليعقوبي وبالأصل : معمدان الحميصي .

(٣) كذا ، ولم نعثر به .

(٤) عن اليعقوبي وبالأصل « بحير الحرسي » .

(٥) عن فتوح البلدان ص ٢١٢ وبالأصل « يزيد » .

(٦) بالأصل « ابن بحير الحرسي » .

(٧) بالأصل « يزيد » .

إليه فأمنه يزيد بن مزيد[1] وأصحابه . قال : وعزل الرشيد جميع من كان بإرمينية وأذربيجان ، ودعا سعيد بن سلم[2] ابن قتيبة فولاه البلاد جيمعها .

ذكر ولاية سعيد بن سلم بلاد إرمينية وما نزل بالمسلمين منه في ولايته

قال : فأقبل سعيد بن سلم حتى نزل مدينة برذعة ، ثم دعا برجل يقال له نصر بن عنان فولاه مدينة الباب والأبواب . قال : فأقبل نصر بن عنان حتى نزل مدينة الباب والأبواب وبالباب يومئذ رجل يقال له النجم بن هاشم[3] ، فأرسل إليه سعيد بن سلم رجلاً يقال له الحارث مولى الفضل بن يحيى البرمكي إلى مدينة الباب ليجبي خراجها، قال : فقام أهل المدينة إلى نصر بن عنان فقالوا : أيها الأمير ! إن مدينتنا هذه لم يؤخذ منها خراج قط لأنها في نحر العدو وأهلها يحاربون الخزر والأمير سعيد بن سلم[4] قد وجه الحارث مولى الفضل بن يحيى البرمكي ليأخذ خراجنا فاكتب إليه كتاباً في ذلك . فقال نصر بن عنان : إذاً لا أكتب إليه كتاباً في ذلك والرأي عندي أنكم تؤدون خراجكم ، فإن أمير المؤمنين الرشيد لا يحتمل لأحد كثير الخراج ! قال : فسكتوا عنه وخرجوا من عنده وصاروا إلى حيون[5] بن النجم بن هاشم فاستشاروا في ذلك ، فقال حيون : إن صاحب الخراج بعد ما وافاكم. فإذا تقارب منكم ومن أرضكم فذروني وإياه .

قال : وأقبل الحارث مولى الفضل بن يحيى يريد مدينة الباب والأبواب ليأخذوا إليه خراجها ، فخرجوا إليه في جماعة من أصحابه فحاربه وقتل من أصحابه من قتل ، وأخذ ما كان معه من خيل ودواب وأثقال ولم يتركه يدنو من المدينة .

قال : فكتب الحارث مولى الفضل بن يحيى كتاباً إلى سعيد بن سلم فخبره بذلك ، فلما قرأ سعيد الكتاب أرسل النجم بن هاشم فخبره بما فعل ابنه حيون بصاحب الخراج . قال : فحلف النجم بن هاشم أنه لا يعلم بشيء من ذلك . قال :

---

(١) بالأصل : « يزيد » .

(٢) بالأصل « مسلم » وما أثبت عن الطبري ٨/ ٢٧٠ وابن الأثير ٤/ ٥٨ وفي فتوح البلدان : « سالم » وقد صححت « سلم » في كل مواضع الخبر .

(٣) في الطبري ٨/ ٢٧٠ وابن الأثير ٤/ ٥٨ المنجم السلمي .

(٤) بالأصل « مسلمة » .

(٥) عن تاريخ اليعقوبي ، وبالأصل « حيان » .

فغضب سعيد بن سلم ثم عمد إلى النجم بن هاشم فقيده وحبسه في سجن برذعة . وبلغ ذلك حيون بن النجم فوثب على نصر بن عنان فحبسه كما حبس أباه ببرذعة . قال : وبلغ ذلك سعيد بن سلم فدعا بالنجم بن هاشم وضرب عنقه ووجه برأسه إلى ابنه حيون بن النجم ؛ قال : فوثب حيون بن النجم على نصر بن عنان العامل فأخرجه من السجن وضرب عنقه وبعث برأسه إلى سعيد بن سلم .

قال : فاشتد غضب سعيد بن سلم من ذلك ، ثم نادى في أصحابه وخرج من مدينة برذعة في عسكر لجب يريد محاربة حيون بن النجم . قال : وبلغ ذلك حيون . فأرسل إلى خاقان ملك الخزر بهدايا قيمتها مائة ألف درهم ، وكتب إليه يسأله أن يصير إليه حتى يغنمه بلاد الإسلام . قال : وأقبل خاقان في أربعين ألف فارس من الخزر والطراخنة إلى مدينة الباب والأبواب ليأخذوها وينفذوا إلى بلاد الإسلام . فقام أهل المدينة إلى حيون بن النجم فقالوا : أيها الأمير ! الله الله فينا ! فإنه إن يدخل خاقان ملك الخزر مع جيشه إلى مدينتنا هذه فقد هلكنا وهلكت معنا ، فقال حيون : صدقتم لا عليكم استقروا في مدينتكم أنتم ؛ ثم أقبل خاقان ملك الخزر إلى حيون بن النجم ، فقال : أيها الأمير ! مرني بأمرك ! فقال حيون : أيها الملك ! ناد في أصحابك أن يتبعوني ؛ ثم جاء بهم حيون بن النجم إلى جانب الصور من ناحية الأبواب فهدموا منه فجة ، وتقدموا إلى بلاد الإسلام[1] . قال : وكان سعيد بن سلم ومن معه قد تقاربوا إلى مدينة الباب والأبواب ، فلما بلغه ذلك ولى هارباً بين يدي الخزر حتى صار إلى برذعة . قال: ووقع خاقان وأصحابه في بلاد الإسلام فقتلوا من المسلمين مقتلة عظيمة وسبوا منهم مائة ألف ما بين رجل وامرأة وصبي ، ثم انصرفوا إلى بلادهم[2] ، وانصرف حيون بن النجم إلى مدينة الباب والأبواب .

قال : وبلغ ذلك الرشيد فاغتم غماً شديداً لما قد نزل بالمسلمين ، ثم أرسل إلى سعيد وعزله عن البلاد ، وولى مكانه علي بن عيسى بن ماهان[3] فلم يقم بأمر البلاد كما يحب . فعزله الرشيد وولى مكانه يزيد بن مزيد[4] الشيباني ، فأقبل يزيد

(١) في الطبري ٨/٢٧٠ : دخل ابنه بلاد الخزر ، فاستجاشهم على سعيد ، فدخلوا أرمينية من الثلمة .

(٢) في الطبري : أقاموا فيها سبعين يوماً .

(٣) عن اليعقوبي ، وبالأصل « موسى الهاشمي » وفي الطبري ٨/٢٧٠ وابن الأثير ٤/٥٨ : فوجه هارون خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد إلى أرمينية حتى أصلحا ما أفسد سعيد .

(٤) عن الطبري وبالأصل « يزيد » .

حتى دخل إرمينية ، فنزل مدينة برذعة وأمن الأسود والأبيض وسكن الناس ، ثم بعث إلى الحارث مولى الفضل بن يحيى ومن كان معه من شيعة سعيد بن سلم فكبلهم بالحديد وحملهم إلى الرشيد، ثم إنه كتب إلى أهل الأبواب وأعطاهم الرضى وأصلح البلاد ، فأحبه الصغير والكبير ، ولم يزل مقيماً ببرذعة إلى أن أدركه الموت فمات بها ؛ فولى مكانه أسد بن يزيد ، ثم عزله أيضاً وولى مكانه خزيمة بن خازم التميمي . قال : فأقبل خزيمة بن خازم حتى نزل برذعة فأصلح أمور الناس . ثم صار إلى الأبواب فحمل الفساق والدعار ومن لا خير فيه إلى باب الرشيد ، وأقام خزيمة بن خازم في إرمينية ولم يزل مقيماً فيها والناس عنه راضون وقد أصلح أحوالهم .

ذكر أخبار الرشيد التي كانت منه في آخر عمره

قال بكر بن إسماعيل بن عروان : كان الرشيد خليفة يحب أن يسمع الأخبار الحسنة والأخبار الغريبة ويقتدي بأهل الأخبار من الملوك والأئمة من قبله ، فأرسل إلى بعض الشعراء ذات يوم فدعاه ـ وأظنه سلم[1] الخاسر أو غيره ، فقال : ويحك يا فلان ! من الذي يقول هذه الأبيات :

وكنت إذا حاولت أمراً رميته ... بجرمَى حتى يبلغا منتهاهما
وكنت إذا ما استصعب الإلف والنوى ... عليَّ فله بصان[2] جميعاً هواهما
عمدت إلى[3] دار المغبة منهما ... وخليت نفسي من طلاب سداهما

قال فقال له الشاعر : يا أمير المؤمنين ! هذا لشماخ بن ضرار[4] فقال الرشيد : قاتله الله ما أرصن قوله وأتقن شعره . قال : ثم أمسك ساعة وأرسل إلى الأصمعي فدعاه وسأله عن هذه الأبيات . قال : فأنشده الأصمعي عن آخرها ، قال الأصمعي فقال الرشيد : أحسنت اجلس ! فجلست وهو ساكت عني لا يتكلم بشيء . وقد أزق وقلق قلقاً شديداً ، فجعل يقعد مرة ويتكىء أخرى ، ثم أنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

---

(١) بالأصل « سلمة » وما أثبت عن البداية والنهاية ١٠/٢٠٣ وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء . قيل له الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى به ديوان شعر امرىء القيس . . . .
وقيل غير ذلك (الأغاني ١٩/٣٦١ وفيات الأعيان ٢/٣٥٠) .

(٢) كذا بالأصل بدون نقط .

(٣) بالأصل « إلا » .

(٤) بالأصل « ضراب » خطأ .

إذا عـزمـت على أمـر بـعـاجـلـه ... إن الـرشـيـد الـذي بـالأمـر يعتصمُ

إلى آخرها[1] .

قال : ثم رفع الرشيد رأسه إلى خادم له فقال : عليَّ بأبي الفضل[2] جعفر بن يحيى ! فمضى الخادم إليه فأتى به . فلما دخل وسلم وأخذ مجلسه قال : يا أبا الفضل ! إن رسول الله ﷺ مات من غير وصية والإسلام جذع وكلمة العرب مجتمعة ، فاجتمع الناس على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فما لبث أن ارتد عامة العرب واختلف أكثرهم ، فقاتل بمسلمها مرتدها . وقهر بمطيعها عاصيها ؛ وإن أبا بكر رضي الله عنه جعل الأمر إلى عمر فسلمت له[3] العرب شورى ، فكان ما قد بلغك من أكثره والأمور التي قد عدلت الأمة عن جهاتها وصارت هذه الأمور إلى غير أهلها وولاتها ؛ وقد عنيت بصحيح[4] هذه الأمور وتولية هذا العهد ، وقد أحببت أن يكون هذا الأمر فيمن أرضى سيرته وأحمد طريقته ، وبنو هاشم ما تكون إلى ابني محمد بأهوائهم وفيه ما فيهم[5] من الانقياد لهواه ، والتبذير[6] لما حوت يداه ، [7] ومشاركة النساء والاماء في رأيه[7] ؛ وابني عبد الله المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق[8] به في كل الأمور ؛ فإن أنا ملت إلى ابني عبد الله أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت ابني محمداً بهذا الأمر لن آمن تخليط الرعية وضعفه عن سياستها ؛ وقد دعوتك لهذا الأمر فأشر عليَّ بمشورة يعم فضلها أو نفعها لأنك مبارك الرأي حسن الروية . قال فقال جعفر بن يحيى[9] : يا أمير المؤمنين ! إن كل زلة مستقالة إلا هذا

---

(١) في مروج الذهب ٣/٤٣١ ورد هذا الخبر وفيه أن الرشيد أنشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذائقة ... موحد الرأي لا نكس ولا برمُ
واترك مقالة ذوي خطلٍ ... لا يفهمون إذا ما معشر فهمو

(٢) في مروج الذهب ثم قال لمسرور : عليّ بيحيى (وكان يكنى بأبي الفضل) .

(٣) كذا ، وفي العبارة سقط ، وتمام العبارة في مروج الذهب : فسلمت الأمة له ، ورضيت بخلافته ، ثم صيرها شورى . . . .

(٤) في مروج الذهب : وقد عنيت بتصحيح هذا العهد .

(٥) في مروج الذهب : وفيه ما فيه .

(٦) عن مروج الذهب وبالأصل « والتدبر » .

(٧ - ٧) عن مروج الذهب ، وبالأصل : « ساركم الفسا وإلا ما فيه رأيه » .

(٨) عن مروج الذهب ، بالأصل « الموزون » .

(٩) كذا ، وفي مروج الذهب أنه دعا بيحيى بن خالد والد جعفر .

العهد ، فإن الزلة فيه لا تدرك[1] ، والخطر[2] فيه غير مأمون ، والنظر في هذا الأمر روية ومجلس غير هذا . قال الأصمعي : فعلمت أنه يريد الخلو ، فوثبت وخرجت من المجلس . فلم يزالا في مناجاة ومناظرة إلى أن مضى من الليل أكثره ، ثم افترقا على ما اجتمعا عليه من الخلافة وأنها تكون من بعده لابنه محمد ابن زبيدة ، ومن بعد محمد لابنه عبد الله .

قال : وبلغ الخبر محمداً فأقبل حتى دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ! إنك كنت وعدتني أن تعقد لي هذه البيعة وولاية العهد ، لما رجوت في ذلك أن يكون الخيرة لأمير المؤمنين أبقاه الله أن يشرك معي أخي عبد الله في أمري من غير أن يبلو مني شيئاً أصنعه ولا وهناً عن حرمة ولا ضعفاً عن جهاد ، وأخي عبد الله عندي كبعض إخوتي أرى له ما لهم وأحفظ له ما أحفظ لهم ، ولو لم يكن أمير المؤمنين أبقاه الله ينظر في ذلك ! فقال له الرشيد : يا ابني ! قد سمعت كلامك ولا آمن عليكما حول الزمان ومشي الناس إليكما وتفريق كلمتكما ، فلا تعاودني في مثل هذا الأمر . قال : فأمسك محمد وعلم أنه لا سبيل لمراجعته .

قال : وبلغ ذلك زبيدة فأقبلت حتى دخلت على الرشيد فقالت[3] : والله ما أنصفت ابني محمداً ! وليته العراق فأعريته[4] من العدد والقواد ، ووليت عبد الله الجبال وبلاد خراسان وجعلت له الأموال والسلاح والقواد ؛ فقال لها الرشيد : وما أنت وتمييز الأعمال[5] ! ومع هذا فإني أتخوف ابنك على عبد الله ولا أتخوف عبد الله على ابنك ! قال : فسكتت زبيدة وانصرفت إلى منزلها .

وهذه أخبار حسان من أخبار الرشيد

كتبتها عن بعض أهل الأدب وألحقتها بكتابك لتنظر فيها فإنها أخبار منتخبة .

قال أبو عبد الله البجلي : حدثني يحيى بن زكريا النحوي قال : حدثني

---

(١) مروج الذهب : لا تستدرك .

(٢) مروج الذهب : والخطأ .

(٣) خبر زبيدة في مروج الذهب ٣/٤٣٢ .

(٤) أعريته : أبعدته .

(٥) زيد في مروج الذهب : إني وليت ابنك السلم ، وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم .

علي بن حمزة الكسائي قال[1] : دخلت على أمير المؤمنين الرشيد بعد ثلاث عشرة سنة من خلافته ، فلما قضيت حق التسليم أمرني بالجلوس فقال : يا علي ! فقلت : لبيك يا أمير المؤمنين ! فقال : ألا تحب أن ترى عبد الله ومحمداً ؟ فقلت : ما أشوقني إلى معاينة ذلك ! قال : فأمر بعض الخدم بإحضارهما ، قال : فأقبلا كأنهما كوكبان وقد غضا أبصارهما وقاربا بخطوهما حتى وقفا على باب المجلس ثم سلما على [أبيهما][2] بالخلافة ودعوا له بأحسن دعاء وألطفه .

فأمرهما بالدنو منه ؛ ثم أمرني أن استقرئهما بأبواب من النحو ، فما سألتهما عن شيء إلا وأحسنا الجواب والخروج منه ، فسر الرشيد بذلك سروراً شديداً ، فقال : يا علي ! كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : إن أذن لي أمير المؤمنين قلت ! فقال : قل ما تشاء ، فأنشأت هذه الأبيات :

أرى قمري أفق وفرعي بشامة[3] ... يزينها فرع[4] كريم ومحتدُ
سليلي أمير المؤمنين وحائزي ... مواريث ما أبقى الأمين محمد
يجزان أعناق النفاق بسلمة ... فودهما عضب وحزم مهند

قال ثم قلت : يا أمير المؤمنين ! هما فرعان زكي أصلهما ، وطاب[5] مغرسهما ، فمتع الله أمير المؤمنين بهما وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما !

ثم قلت لهما : هل ترويان شيئاً من الشعر ؟

فقالا : نعم . فاستنشدتهما ، فأنشدني محمد هذه الأبيات :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى ... وتارك شكل[6] لا يوافقه شكلي
وشكلي شكل لا يقوم لمثله ... من الناس إلا كل ذي سعة مثلي
ولي نيقة في البذل والمجد لم يكبر ... تأنقها فيما مضى[7] أحد قبلي

---

(١) خبر الرشيد مع الكسائي في مروج الذهب ٣/٤٢٨ .

(٢) عن مروج الذهب ، وبالأصل « باب الخلافة » .

(٣) في مروج الذهب :

أرى قمري مجد وفرعي خلافةٍ

(٤) في مروج الذهب : عرقٌ .

(٥) عن مروج الذهب ، وبالأصل « صلب » .

(٦) عن مروج الذهب ٣/٤٢٩ وبالأصل : شكلاً .

(٧) بالأصل : « ببائعها شيء بها » وما أثبت عن سمط النجوم العوالي ٣/٢٨٩ .

وأجعل مالي دون عرضي جُنة لنفسي [1] وأستغني [2] بما كان من فضلي

قال : ثم أنشد عبد الله هذه الأبيات يقول :

بكرت تلومك مطلع الفجر ولقد تلوم بغير ما تدري
ما إن جعلت بها وقد عتيت أن لا تحكم طائعاً أمري
ملك الأمور عليّ مقتدر يعطي إذا ما شاء[3] من يسر
ولرب مغتبط تمد له[4] ومفجع[5] بنوائب الدهر
ومكاشح لي قد مددت له نحراً بلا ضرع ولا غمر
حتى يقول لنفسه لهف في أي مذهب غاية أجري
ويرى قناتي حين يغمزها[6] غمز الثقاف بطيئة الكسر[7]

قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ! ما رأيت أحداً من أبناء الخلافة[8] ومن معادن النبوة كأغصان هذه الشجرة الزاكية ولا أحسن ألفاظاً ولا أشد اقتداراً منهما على[9] ما قد تحفظا ورويا ، فأسأل الله أن يزيد [بهما] الإسلام تأييداً وعزاً ، وأن يدخل بهما على أهل الترك قال : فأمن الرشيد على دعائي ثم قبضهما إلى أن رأيت دمرعه تجري على صدره ، ثم أمرهما فذهبا .

وأقبل علينا وقال : كأنكما بهما وقد[10] طلع نجمُ السماء ونزل مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، وانتهى الأمر إلى وقته ، وقد تشتت أمراهما واختلفت كلمتاهما وأظهرت عداوتهما وانقطعت قرائن الرحمة والرأفة منهما ، حتى تسفك بينهما الدماء وتهتك بهما ستور النساء ويكثر بينهما القتلى ويتمنى كثير من الأحياء أنهما كانا بمنزلة الموتى .

---

(١) عن مروج الذهب ، وبالأصل : ليقيني .
(٢) في مروج الذهب : ومفضال .
(٣) عن مروج الذهب ٣/٤٢٩ وبالأصل « يشاء » .
(٤) في مروج الذهب : مغتبط بمرزئة .
(٥) عن مروج الذهب وبالأصل : وقح .
(٦) مروج الذهب : يغمدها .
(٧) عن مروج الذهب ، وبالأصل : نظمه عند النفاق اليسرى .
(٨) مروج الذهب : الخلفاء .
(٩) مروج الذهب : على تأدية ما حفظا منهما .
(١٠) مروج الذهب : وقد حمّ القضاء .

فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذا الخبر في مولدهما أو أمر وقع لأمير المؤمنين في أمرهما ؟ فقال : بل بأثر واحد حملته العلماء عن الأوصياء . والأوصياء حملوه عن الأنبياء عليهم السلام .

وهذا خبر آخر حسن

قال الهيثم بن عدي : أخبرني خلف الأحمر النحوي[1] : قال بعث أمير المؤمنين هارون الرشيد لتهذيب[2] ابنه محمد ، فلما دخلت عليه قال : يا أحمر ! إن أمير المؤمنين دفع إليك مهجة قلبه وثمرة فؤاده[3] وجعل يدك فيه مبسوطة ومقالتك فيه مصدقة . فكن له بحيث وضعك فيه أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وروّه الشعر وفهّمه السنن وعلمه الفرائض وبصره مواضع الكلام ، ومره بالرزانة والاقتصاد في نظره ، وامنعه الضحك إلا في وقته ، وجده[4] بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه[5] قال فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ! لا أتعدى أمرك فيه وأكون له على ما أمرتني .

قال : وكنت كثيراً ما أشد عليه في التأديب وأمنعه الساعات التي يتفرغ فيها للعب ، فشكى ذلك إلى خالصة جارية زبيدة . قال : فجاءتني خالصة ذات يوم برسالة من أمه زبيدة بالكف عنه وأن أجعل له وقتاً يرتع فيه ، قال : فقلت لها : إن أمير المؤمنين في عظم قدره لا يحتمل على التقصير ولا يرضى منه بالزلل والمنطق والجهل بشرائع الدين والسنن والغفلة عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام سياسة الرعية . فقالت خالصة : صدقت يا أحمر ! غير أنها والدة ولا تملك نفسها ولا تقدر على كف إشفاقها عليه .

خبر خالصة وحديثها للأحمر

فقالت خالصة : يا أحمر ! حدثتني السيدة زبيدة بنت جعفر بن المنصور أنها

---

(١) خبر الأحمر النحوي ووصية الرشيد له في مروج الذهب ٣/٤٣٠ ـ ٤٣١ .

(٢) مروج الذهب : لتأديب .

(٣) مروج الذهب : مهجة نفسه ، وثمرة فؤاده .

(٤) مروج الذهب : وخذه .

(٥) زيد في مروج الذهب : ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم منها فائدة تفيد إياها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

رأت[1] في الليلة التي حملت بمحمد كأن ثلاث نسوة قد أقبلن فوصلن إليها ، فقعد ثنتان عن يمينها وواحدة عن شمالها فأمرّت واحدة منهن يدها على بطنها وقالت : ملك جزل ، عظيم البذل ، ثقيل الحمل ، نكد الفعل ؛ فقالت الأخرى[2] : ملك غمر ، قصير العمر ، سليم الصدر ، منهتك الستر ؛ وقالت الأخرى : ملك قصاف ، عظيم الإتلاف[3] ، قليل الإنصاف ، كثير الخلاف . قالت زبيدة : فانتبهت وأنا فزعة مرعوبة لما رأيت ، فلم أر هؤلاء النسوة حتى كانت الليلة التي وضعت فيها فأتينني في منامي في الزي الذي رأيتهن فيه ، فقعدن عنده واطلعن في وجهه . ثم قالت واحدة منهن : شجرة نضرة[4] ، وريحانة خضرة ، وروضة زاهرة ، [ثم قالت الثانية : عين غدقة][5] قليل بقاءها سريع فناءها ، عجل ذهابها ، فقالت الأخرى : سفيه عارم ، طلاب المغارم ، جري على العظائم ، جسور على المآثم ؛ فقالت الأخرى : عدو لنفسه ، وضعيف [في -][6] بطشه ، سريع [إلى -][6] غشه . قالت زبيدة : فانتبهت مرعوبة وقلت : لعل هذا مما يطرق النائم ، حتى إذا تم رضاعه أتين ثلاثتهن كما رأيتهن حتى قعدن عند رأسه ، فقالت واحدة منهن : ملك جبار ، متلاف غدار[7] ، بعيد الآثار ، كثير العثار ؛ قالت الأخرى : ملك[8] مخصوم ، محارب مهزوم ، راغب محروم ، سقيم منهوم[9] ؛ قالت الأخرى[10]: احفروا قبره ، هيئوا أمره ، وقربوا الكنانة ، شقوا أكفانه ، فإن موته خير من حياته .

ثم قالت خالصة : ويحك يا أحمر ! وقد بعثت السيدة زبيدة إلى المنجمين ومن يبصر تعبير الرؤيا فقصت عليهم رؤياها ، فكانوا يبشرونها بطول عمره ويعدونها ببقائه ، وقلبها كثير الحذر عليه لما رأت في منامها . قال : ثم بكت خالصة

(١) الخبر في مروج الذهب ونسبه إلى جماعة من الإخباريين وممن عني بأخبار العباسيين كالمدائني والعتبي وغيرهما . ٣/٤٧٤ .

(٢) في مروج الذهب : ملك ناقص الجد ، مغلول الحدّ ، ممذوق الود ، تجور أحكامه ، وتخونه أيامه .

(٣) مروج الذهب : « الإيلاف » والقصاف : كثير اللهو والشراب والمجون .

(٤) عن مروج الذهب ، وبالأصل « نظرة » .

(٥) زيادة عن مروج الذهب .

(٦) زيادة عن مروج الذهب .

(٧) مروج الذهب : مهذار .

(٨) مروج الذهب : ناطق .

(٩) مروج الذهب : شقي مهموم .

(١٠) مروج الذهب : احفروا قبره ، ثم شقوا خده ، وقدموا أكفانه ، وأعدوا جهازه فإن موته خير من حياته

وقالت[1] : ويحك يا أحمر ! وهل يدفع الإشفاق والحذار ! وهل يمنع الاحتراز واقع القدر ! هل يقدر الحاذر أن يدفع عن أحبابه [الأجل][2].

وهذا خبر حسن

قال : وقال عثمان بن سليم : حدثني العباس بن الفضل قال : كان أمير المؤمنين الرشيد قد جعل ابنه محمداً في حجر الفضل بن يحيى وأمره أن يبالغ في أمره وتأديبه وأن يدخل العلماء والفقهاء عليه . قال : فسمعت الفضل بن يحيى ذات يوم يقول الهيثم بن بشير الواسطي إذا دخلت اليوم فأقسم على ولي العهد محمد الأمين فليكن أكثر ما تحدثه به عن سفك الدماء ، فإني أحب أن يشرب الله قلبه للذمة لها وأن يلهمه للعفاف عن سفكها ، فإني خبرني بعض العلماء عن عامة من روى الحديث وطلب العلم أنهم وجدوا في مأثور رواياتهم والكتب التي يتدارسونها على أئمتهم أن الأمير الذي ينشر العدل ويحيي به السنة ويميت به الجور ، فإن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه اسمي نبيه ﷺ اسمين معظمين محمداً وأميناً ، لأن قريشاً كانت تسمي رسول الله ﷺ أميناً قبل أن ينزل الوحي . قال : فكان الرشيد قد ألزم العناية بابنه محمد خاصة حتى كان يفتقده في أحواله ، ثم إنه وضع عليه العيون ليأتوه بأخباره وأخبار من يسامره من بني هاشم أهل من أهل الأدب وغيرهم ؛ قال : فاجتمع ذات يوم عند محمد الأمين فلم يشعر إلا بحركة وطء أمير المؤمنين فجلس على سرير كان في صدر الدار ، ثم أقبل على محمد فقال : يا حبيبي ! ما لي لا أرى عندك إلا مواليك ! قال : ثم أشار بيده إلى ابن أم عبيدة ، فقام حتى وقف بين يديه ، فقال : هل تروي شيئاً من الشعر ؟ قال : نعم ، هذه الأبيات :

كأن فاها لم يؤنسها في	ليلتها موهناً ولم ينمِ
بيضاء من بني حشوم	بيضاء من سحب ما بالعلم
دع عنك سلمى إذ فات مطلبها	واذكر خليلتك من بني الحكم
ما أعطياني إلا سألتهما	ألا وإني لحاجري كرم
إلى متى لم تكن عطيته	عندي بما قد فعلت محتشم

قال : فصاح الرشيد : اسكت يابن الخنا ! فوالله إن حمقك لشبيه بحمق

---

(١) نسب القول في مروج الذهب إلى زبيدة أم جعفر .

(٢) زيادة عن مروج الذهب .

أبيك ! قال : ثم أمر سعيد بن جابر بالقيام إليه واستنشده ، فأنشد سعيد بن جابر هذه الأبيات :

لا أرى مثل ابن بشر لأزمة — أناخت ولا ضيف من الناس نازلِ
إليك ابن بشر عادة يتبعنها — تباري رؤوس اليعملات الزوائل
ولم يك من ماض من الناس مثله — ولا ما يرجى في بطون الحواملِ
ولكن حواها من سماطيط عادة — خلال الأعادي دارس غير مائل
فورثها بشراً بنيه فأصبحت — لهم نفلاً من طيبات الأوائل

قال فقال الرشيد : والله ما عديت عقل من آذاك . قال العباس بن الفضل : ثم أمرني بالقيام فقمت على هيبة حتى وقفت بين يديه فقال : أنشدني ! فأنشدته هذه الأبيات :

تسربل هارون الخلافة فالتقت — عليه عراها واستهلت فصولها
إذا أمة الإسلام ألقت قناعها — بدارجة الأحداث بان مخيلها
فحلى بها هارون والناس بعده — لماضية الأحكام سهل سبيلها
مكائد ترميهم بنيل مكانها — سهام المنايا في يديه سحيلها

قال : فالتفت الرشيد إلى ابنه محمد وقال : يا بني ! إذا استخدمت أحداً فاستخدم أهل العقل والأدب فإنك إن استخدمتهم سروك ، وإن استعنتهم أعانوك . قال العباس بن الفضل : والله ما زلت أتعرف قدري عند الأمير من ذلك اليوم إلى أن فرق الموت بيننا .

ثم رجعنا إلى الخبر الأول من أمر الرشيد وابنيه محمد وعبد الله

قال : ثم إن الرشيد عزم بعد ذلك على الحج لكي يأخذ البيعة لأولاده جميعاً محمد وعبد الله في جماعة ممن يحضر الموسم ، فحج بالناس في سنة [ست و ـ][1] ثمانين ومائة ، فلما صار بالكوفة أمر لهم بعطاءين، فلما دخل إلى المدينة أمر لهم ثلاثة أعطية[2] ، فلما صار إلى مكة فرق الجوائز والصلات بها ، ثم إنه أخذ البيعة لمحمد وعبد الله عند البيت الحرام ، قال : ثم إن الرشيد استخلفهما من بعد

(١) زيادة عن الطبري وابن الأثير ومروج الذهب .
(٢) في ابن الأثير ٤/٦٣ هو عطاء ، ومحمد الأمين عطاء ، وعبد الله المأمون عطاء .

بحضرة أهل الموسم وبني هاشم وسائر قريش . فقال شيخ من بني هاشم : يا أمير المؤمنين ! هذا ابنك محمد ولي عهدك من بعدك ، وهذا أخوه عبد الله من بعده ، فما بال ابنك القاسم ؟ قال : فتبسم الرشيد ثم قال : يا شيخ ! فهل سمعت فيه بشيء ؟ فقال : أما بعينه فلا ، ولكنني سمعت ابن أخي الزهري يقول : قال رسول الله ﷺ : يابن عباس ! الثالث من ولد العباس من ولدك يملك الأرض ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويظهر العدل . قال : فسر الرشيد بذلك سروراً شديداً ثم لم يبرح حتى جعل [القاسم][1] أيضاً ولي العهد من بعد إخوته وسماه المؤتمن ، فكان محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم المؤتمن . ثم كتب بذلك كتاباً مؤكداً[2] ، وأشهد أهل الموسم على ما كتب ، وأفرد ابنه محمداً بالأمر ، وجعل عبد الله من بعده .

ثم انصرف إلى العراق فدعا بابنه المأمون وعقد له عقداً بيده وولاه من باب الري إلى أقصى خراسان وسجستان ، وأفرده بها في حياته وبعد موته ، وأخذ على ابنه العهود والمواثيق أنه لا يعزله عنها ولا يبعث إليه كتاباً ؛ وكتب أيضاً له بالعراق كتاباً مؤكداً وثيقاً على محمد وعبد الله ، وأمر المأمون له بالسمع والطاعة لأخيه الأمين ، وأن يملك منهما صاحبه بما يحتاج إليه من خيل ورجل عند حاجته إليه ، وضم إليه قواد معروفون هرثمة بن أعين والوليد بن المسيب وعبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وغيرهم من القواد ؛ ثم إنه قسم بينهم الأموال والسلاح وأخذ عليهما العهود والمواثيق بالوفاء بما شرطا على أنفسهما[3] . وفي تلك السنة قتل جعفر بن يحيى البرمكي ، وقد أعيا قتله من حضر فكيف من غاب .

ذكر خبر الأصمعي في قتل جعفر ابن يحيى البرمكي

قال العباس بن الفضل: سمعت الأصمعي يقول[4]: بعث إليّ الرشيد في ليلة

---

(١) زيادة عن ابن الأثير .

(٢) في ابن الأثير : كتب كتاباً أشهد فيه على محمد الأمين . . . وكتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه فيه بالوفاء للأمين وعلق الكتابين في الكعبة . انظر نسخة الكتابين في الطبري ١٠/٧٣ واليعقوبي ٢/٤١٦ .

(٣) انظر الطبري ١٠/٧٣ وما بعدها .

(٤) في مروج الذهب ٣/٤٦٥ وقال الأصمعي : وجه إليّ الرشيد في تلك الليلة ، فلما أدخلت إليه قال : يا =

يرتاب فيها البريء ، فأردت الدخول عليه فمنعت من ذلك وأعجلت فدخلني من ذلك رعب شديد ، وجعلت أتذكر ذنباً فلا أجده ، فلما دخلت عليه سلمت وهو رام بجهمته على قضيب كان في يده ، فرفع رأسه إليَّ وقال : يا عبد الملك ! من الذي يقول هذه الأبيات :

لو أن جعفر خاف[1] أسباب الورى ... لنجا بمهجته طمرٌ ملجم[2]
ولكان من حذر المنون بحيث لا ... يربو اللحاق به العقاب القشعمُ[3]
لكنه لما تقارب يومه[4] ... لم يدفع الحدثان منه منجم

قال فقلت : لا أعرف هذه الأبيات ، قال : فالتفت إذاً إلى ورائك ! هل تعرف هذا الرأس ؟ فإذا بطشت من فضة وفيه رأس جعفر بن يحيى البرمكي ، فقلت : والله لا أعرف هذا الرأس رأس من في هذا الوقت ، فقال : بلى هو رأس من كنا في ذكره ، والله ما قتلته حتى استخرت الله تعالى فيه مراراً . قال : فخرجت من عنده وقد أفرج روعي حتى صرت إلى منزلي وعلمت أن الأبيات التي أنشدها له لا لغيره . قال : فلما كان من الغد نظرت إلى الناس يتعادون إلى خشبة وعليها جثة .

قال فقال إسماعيل بن غزوان: حدثني أبو عبد الله المروزي ـ وكان متولي أمر الأسواق ـ قال : لما قتل جعفر بن يحيى لم يترك أحد من البرامكة إلا أخذه واستوثق منهم بالحديد وحبسهم ، ثم إنه مضى إلى الري فأقام بها ما شاء الله أن يقيم ، ثم إنه ولّى على كور خراسان من أراد من القواد وولى علي بن عيسى على جميع الأمراء وجعله خليفة للمأمون ، ثم انصرف راجعاً يريد العراق فأدركه الأضحى في الطريق فنزل وضحى في موضع يقال له قصر اللصوص ، ثم رحل من هنالك حتى صار إلى بغداد ، فلما بلغ الجسر نظر إلى جعفر بن يحيى على خشبة فأمر بإحراقه فأحرق ، فأقام بها ما أحب الله أن يقيم ، ثم إنه مضى يريد الرقة وقد حمل معه يحيى بن خالد وابنه الفضل وموسى ومحمداً أخوي الفضل . قال : فبينما هو يسير ذات ليلة مقمرة

= أصمعي : قد قلت شعراً فاسمعه ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، فأنشد :

(١) مروج الذهب : هاب .

(٢) الطمر : الفرس الجواد المستعد للوثوب .

(٣) في مروج الذهب :

يسمو إليه به العقاب القشعم

(٤) مروج الذهب : وقته .

باردة فقال : عليّ بالفضل بن يحيى الساعة ! قال : وكان الفضل عديل أبيه يحيى في المحل ، فلما دعا به أيس من الحياة وأيس الناس منه ، ثم أنزل وعليه قميص رقيق ودراعة طاق فحمل على بغلة ، وقد أوقفت عمارية الرشيد ، فتقدم إليه الفضل على البغل ، فقال له الرشيد : يا فضل ! فقال : لبيك يا أمير المؤمنين ! فقال : ادن مني ! قال : فدنا منه ، فقال : هات يدك ! فمد يده ، فوضع الرشيد في يده درهماً واحداً[1] ، ثم قال : إني كنت قد حلفت أفقرك حتى تحتاج إلى درهم ، فقال الفضل : فقد بر الله قسم أمير المؤمنين ! قال : وقِر الرشيد كلامه لا يرتفع ، فعلم أن ذلك من البرد فجعل عليه دراعة كانت عليه مبطنة فلبسها ، قال : ثم أمر بفك قيوده ورده إلى محله ، ثم سار حتى دخل الرقة فنزلها . وبعثت أم الفضل بن يحيى إلى مسرور الخادم فدعته ، ثم قالت : إن عندي شيئاً أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين ولا ينظر إليه غيره . قال : فأقبل مسرور الخادم فاستأذنه في ذلك فأذن له ، فجاءه من عندها بسفط لطيف مختوم هندي وعليه قفل من ذهب ، فجاء به حتى وضعه بين يديه فأمر بفتحه ففتح ،فإذا فيه سرته وقميص ولادته وأمور مما يتولى الحواضن، فدمعت عينا الرشيد ثم قال : ليس إلى خلاصه سبيل ، ورد السفط إليها وأرسل إليها عشرة آلاف درهم وأمرها أن تزور ابنها في الحبس في أي وقت أحبت ! فيقال : إن يحيى بن خالد كان نائماً فجاؤوا ليهنئوه فإذا هو مات[2] . والفضل أيضاً ضرب بالسياط حتى مات[3] .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : حدثني عمرو بن محمد النخعي الرقي وكان أبوه وعمه ممن يلعبان بالشطرنج ، قال : كنت عند أمير المؤمنين الرشيد بالرقة ألعب بالشطرنج ، فلعبت معه ذات يوم وليلة على شاطىء الفرات والشمعة بين يديه ، فارتفع عليه شاه رخ ضربته إياها فمثلت بيت شعر لأبي كبير[4] الهذيلي حيث يقول :

تلمظ[5] السيف من شوق إلى النفس   فالسيف يلحظ والأقدار تنتظرُ

قال : والله ما قلت هذا البيت تعمداً مني لشيء ، وإنما جرى على لساني ،

(١) الأصل : درهم واحد .

(٢) مات سنة ١٩٠ في المحرم ، وقيل مات سنة ١٨٩ هـ .

(٣) مات سنة ١٩٣ هـ وهو في حبسه بالرقة .

(٤) بالأصل « لأبي كثير » والصواب أثبت عن ديوان الهذليين .

(٥) عن الطبري ٢٩٧/٨ وبالأصل « تلمض » .

فقال الرشيد : يا نخعي ! أعد هذا البيت ! فأعدته ؛ ثم قال : يا مسرور ! عليَّ بابن أبي شيخ صاحب جعفر بن يحيى الساعة ! ثم قال : فأتي به يحجل في قيوده ، فأمر به فضربت عنقه وألقيت جثته في العراة ، ثم عاد إلى لعب الشطرنج كأنه لم يصنع شيئاً .

ذكر خبر رافع بن الليث بن نصر بن سيار وخروجه على الرشيد

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : كان علي بن عيسى بن ماهان قد جار على أهل خراسان فأذل ملوكها حتى فسدت قلوبهم ، فكتب رافع بن الليث إلى الرشيد هذه الأبيات :

أرى النار قد شبّت وهبّ لها الصبا
فما وجهاً من جانب الليث قد سطع
إذا أشعلت في الليث نار ولم يكن
لها من طفى لم يلبث البيت أن يقع
أرى خدعاً لم يبن لم يقف آرض
عليه فبادر قبل أن تبنى الخدع
فدان أمير المؤمنين ولّها
سواه فما من قال حقاً كمن خدع

قال : فلما نظر الرشيد إلى كتاب رافع بن الليث وفهم هذا البيت اغتم لذلك وخشي أن يعزل علي بن عيسى عن خراسان فيخرج عن الطاعة فكان يقدم في ذلك[1] . قال : وثار أهل خراسان وخرجوا مع رافع بن الليث على الرشيد[2] ، وغلب رافع على سمرقند وما والاها وما كان وراء نهر بلخ ، فأخذ ذلك كله وهزم علي بن عيسى فأخرجه من بلاد خراسان . قال : فوجه إليه الرشيد برجل من قواده

---

(١) يفهم من عبارة ابن الأثير أن الرشيد ، وبعد كثرة شكوى كبراء أهل خراسان وأشرافها من سوء سيرة علي بن عيسى وظلمه لهم واستخفافه بهم سار إلى الري فأتاه علي من خراسان حاملاً الأموال العظيمة والهدايا الكثيرة ، ورأى الرشيد خلاف ما كان يظن به فرده إلى خراسان (٤/ ٧٦) .

(٢) انظر رواية أخرى في سبب خروج رافع على الرشيد في ابن الأثير ٤/ ٧٨ وانظر الأخبار الطوال ص ٣٩١ .

يقال له هرثمة بن أعين في جيش عظيم ، فأطال محاربته فلم يظفر منه بشيء ، فاشتد ذلك على الرشيد ، ثم إنه كتب إلى رافع بن الليث كتاباً لطيفاً يسأله فيه أن يرجع عما هو عليه على أن يعطيه الرضا ويوليه خراسان وسائر أرضها وبلادها ، فأبى رافع بن الليث أن يقبل شيئاً من ذلك وجعل يتغلب على مدينة بعد مدينة فيأخذها ، حتى احتوى على جميع بلاد خراسان . ثم كتب إلى الرشيد بهذه الأبيات يقول :

ليت الهوى والهجر والنار	وكل بكّاء على الدارِ
ما الفخر لوم الناس إلا الوغى	في جحفل للموت جرارِ
وبدلت ما تكسبه بالقنا	في حالتي عسر وأيسار
النار لا العار فكن امرءاً	فرّ من العار إلى النار
فهنّىء بأخلاق كنانية	عرفن في نصر وسيار
وهن في ليث وفي رافع	تراث خيار لخيار

ثم أمر[1] بضرب الطبول وتهيأ للرحيل وأعطى الناس الأرزاق ثم خرج من بغداد في جيش عظيم[2] ، وقد كان يجد علة في بدنه فيسأل الأطباء عن علته ، فيهونون عليه الأمر ويعدونه بالسلامة والبرء من وجعه ، فلم يزل كذلك يقطع البلاد حتى صار إلى طوس فنزلها ، ثم دعا بابنه المأمون وضم إليه جيشاً ووجه به إلى مرو ، وأمره أن ينزل بها ويوجه بالجيش إلى رافع بن الليث . قال : وسار المأمون حتى نزل إلى مدينة مرو ، ودامت الحروب بين المأمون ورافع بن الليث ، فاجتمعت العساكر على رافع بن الليث من كل جانب ، فجعل يحاربهم حرباً شديداً ولا يفتر من ذلك ، وفي وجهه وجوه القواد مثل علي بن عيسى وهرثمة بن أعين ومن أشبههما من القواد ، والمأمون مقيم بمرو .

قال : واشتدت العلة بالرشيد وضعف ضعفاً شديداً ، ثم جعل يقول : صبراً لأمر الله ، وينشد :

وإني من قوم كرام يزيدهم	رخاء وصبراً شدة الحدثانِ[3]

ثم إنه استراب بما كانت الأطباء تعده وتمنيه من الصحة والعافية . قال :

---

(١) أي هارون الرشيد .

(٢) وكان خروجه من بغداد لخمس خلون من شعبان سنة ١٩٢ واستخلف على بغداد ابنه الأمين .

(٣) البيت في الطبري ٨/٣٤٥ وابن الأثير ٤/٩٠ .

واجتمعت عنده الأطباء فلم يعف عنه شيئاً ، قال : فأرسل الرشيد إلى طبيب من أهل فارس يقال له الأسقف [1] ، فأشخص إليه والرشيد يومئذ في قصر حميد الطوسي [2] ، فقال : أنزلوا هذا الطبيب حتى يستريح ، فإذا كان غداة غد فأتوني به ! قال : فأنزل الطبيب ، وأمر الرشيد بقوارير فيها أبوال كثيرة مختلفة فجمعت ، فلما أن كان من الغد أرسل إلى الطبيب فدعاه ، ثم أمر أن تعرض القوارير على الطبيب فعرضت عليه ، فكان يصف لكل قارورة وصاحبها بما يعلم من علته ، حتى إذا قدم إليه قارورة الرشيد ونظر إليها قال : قولوا لصاحب هذه القارورة أن يدع الحمية ويوصي ، فإنه لا يقوم من علته هذه ! فلما سمع الرشيد ذلك الكلام من الطبيب أيس من الحياة وذرفت عيناه بالدموع ، وجعل يتمثل بهذين البيتين [3] :

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء غيره فيما مضى

قال : ثم أقبل الرشيد بن المهدي على الفضل بن الربيع وهو واقف بين يديه فقال : يا فضل ! ما يقول الناس ؟ قال : يقولون خيراً يا أمير المؤمنين ! فقال : على كل حال اصدقني عن أراجيفهم ، فإني أظنهم يقولون قد مات أمير المؤمنين الرشيد بالله . قال : فبكى الفضل وتغرغرت عيناه بالدموع . قال : فاستوى الرشيد جالساً على خيله ثم قال : أسرجوا لي ! فأسرجوا له حماراً مصرياً ، ثم حمل حملاً حتى استوى عليه فكاد لحم فخذيه أن يسقط ولم يمكنه أن يثبت على السرج فقال : أنزلوني ، قد صدق الطبيب [4] ، أنا والله ميت لا شك في ذلك ! قال : ثم دعا بأكفانه فنشرت بين يديه ، وأمر بقبره فحفر وهو ينظر إليه [5] . ثم جعل يسترجع ويبكي على نفسه وهو يتمثل بقول صالح بن عبد القدوس حيث يقول :

وكم من ذي مصانع قد بناها وشيدها قليل الخوف عاتِ
فبات ولم يروع من زوال ولا يخشى المنايا الرازيات

---

(٢) في الطبري ٣٤٤/٨ وابن الأثير ٩٠/٤ جبريل بن بختيشوع .

(٣) الطبري : دار حميد بن أبي غانم الطائي .

(١) البيتان في مروج الذهب ٤٤٨/٣ والأخبار الطوال ص ٣٩٢ باختلاف بعض الألفاظ .

(٢) في مروج الذهب ٤٤٩/٣ صدق المرجفون .

(٣) في مروج الذهب : فلما اطلع فيه قال : ﴿ **ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه** ﴾ .

ولما صار الرشيد بطوس دعا العباس بن موسى ، فقال له : يا عباس ! في علمنا المدروس أنه يموت بطوس ، فقال : بل يشفي الله أمير المؤمنين ، فقال : هو ما أقول ؛ فلما زادت عليه جعل يقول :

إني بطوس مقيم ... مالي بطوس حميم
أرجو إلهي لما بي ... فإنه بي رحيم
فقد أتى بي طوساً ... قضاؤه المحتوم
فليس إلا رضاه ... والصبر والتسليم

قال : وكان في سجنه قوم من الأسارى قد كان بعث بهم هرثمة بن أعين فأمر بهم ، فأخرجوا من السجن حتى وقفوا بين يديه ، فقال لهم : أعداء الله ! أنتم الذين أزعجتموني عن موضعي وختنتموني المؤنة والتعب والسفر بخروجكم عليّ ، والله لأقتلنكم قتلة ما سبقني أحد إليها[1] ، قال : ثم أمر بهم ففصلوا عضواً عضواً حتى أتى آخرهم .

ثم دعا برؤوس القواد ومن حضر من فرسان العسكر وسادات بني هاشم فلما اجتمعوا عنده :

ذكر وصية الرشيد عند موته

ـ فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر محمداً ﷺ ، وقال : إنكم قد علمتم أن كل حي ميت وكل حي فان[2] ، وأن هذه الحالة التي أنا عليها هي الحالة التي لم أزل آثر فيها وأوطن نفسي على تجرع أهوالها ، وقد ترون ما قد نزل بي من الأمر ، وأنا أوصيكم بثلاث وأنهاكم عن خمس : أوصيكم باجتماع كلمتكم ، والمناصحة لأئمتكم[3] ، وأنهاكم عن الفرقة والقطيعة والغش والغل والحسد ، وأوصيكم بعد ذلك بحفظ الجنود فإنها سيوفكم القاطعة ورماحكم النافذة وسهامكم الصائبة

---

(١) هذا القول قاله لأخي رافع بن الليث واسمه بشير ، وكان قد أسر وأرسله هرثمة بن أعين إلى الرشيد . (مروج الذهب) .
وفي ابن الأثير قال الرشيد : والله ولو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة لقلت اقتلوه ، ثم أمر بقصاب ، فأمر به ، ففصل أعضاءه .

(٢) في مروج الذهب ٣/٤٤٩ وكل جديد بال .

(٣) زيد في مروج الذهب : الحفظ لأمانتكم .

وودائع الله فيكم ، وعليكم بالمباعدة لأهل الأهواء والضلالة والبدع[1] المكروهة ، ولا تأخذوا بظنة . ولا تخيفوا ذا طاعة ، ولا تهاونوا بذي خلاف ومعصية ، وانظروا ابني حنيفاً محمداً وعبد الله ، فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن طريقه و[أيدوا] أثبتهما حجة . قال : ثم أقبل على الفضل بن الربيع فقال : يا فضل ! قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! فقال : إذا أنا متّ فخذ القضيب والبردة والخاتم والحق بابني محمد الأمين وكن معه حتى تكاتفه وتؤازره على أمره ، واكتبوا إلى ابني المأمون بما يكون من أمري . قال : ثم إنه استمسك لسانه فمات رحمه الله .

ذكر وفاة الرشيد ورؤياه قبل موته

ذكر جبريل بن بختيشوع أنه كان مع الرشيد في الرقة وكان أول من يدخل عليه في كل غدوة[2] ، قال : فدخلت عليه يوماً فسلمت فلم يرفع رأسه وطرفه ووجهه [ورأيته ـ][3] عابساً مهموماً ، فوقفت بين يديه ملياً وهو على تلك الحالة ، فلما أطال ذلك أقدمت عليه وقلت : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ! فيا سيدي ! ما حالك هكذا ؟ فقال : رأيت هذه الليلة رؤيا أهالتني وأفرحت قلبي ، فقلت : فرّجت عني يا أمير المؤمنين ! ثم دنوت وقبلت رجليه وقلت : هذا يكون من بخارات رديئة أو من السوداء ؛ وإنما هي أضغاث أحلام ؛ قال : فأقصها عليك وهي أني رأيت كأني جالس على سريري هذا إذ بدت من تحتي ذراع كنت أعرفه وكف أعرفها لا أفهم اسم صاحبها ، وفي الكف تربة حمراء ، فقال قائل ـ أعرفه ـ ولا أرى شخصه : هذه التربة التي تدفن فيها ! فقلت : وأين هذه التربة ؟ قال : بطوس ! وغابت اليد وانقطع الكلام وانتبهت ؛ قال فقلت : يا سيدي ! هذه والله رؤيا بعيدة ! وأحسبك أخذت مضجعك وفكرت في خراسان وفي حروبها ! قال : وقد كان ذلك ، قلت : لذلك جاءك هذا الفكر . ثم لم أزل به أطيب نفسه بضروب الحيل حتى سلى وانبسط . فمضت بعد ذلك أيام فنسي ونسينا تلك الرؤيا ، ثم قدر الله تعالى مسيرنا إلى خراسان حين تحرك رافع بن الليث فخرج ، فلما صار في بعض الطريق ابتدأت به العلة حتى

---

(١) بالأصل : والبدوع .

(٢) في الطبري ٣٤٢/٨ فأتعرف حاله في ليلته ، فإن كان أنكر شيئاً وصفه . . . ثم يسألني عن أخبار العامة وأحوالها .

(٣) زيادة عن الطبري وابن الأثير ٨٨/٤ .

دخلنا طوس ونزلنا في منزل حميد بن عبد الله[1] ، فبينا أمير المؤمنين في بستان ذلك القصر متمرض إذ ذكر تلك الرؤيا ، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط ، فقال : يا جبريل ! تذكر رؤياي في طوس ، ثم رفع رأسه إلى مسرور الخادم وقال : جب لي من تربة هذا البستان ! فمضى مسرور وأتى وفي كفه من التربة حاسراً عن ذراعيه ، فلما نظر إليها قال : هذه والله الذراع التي رأيتها[2] في الشام ، وهذه التربة الحمراء ، فأقبل على البكاء والنحيب ، ثم مات بعد ثلاثة أيام ، ودفن في ذلك البستان نصف الليل لثلاث خلون من شهر جمادى الأول سنة ثلاث[3] وتسعين ومائة ، واستخلف ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة ، وتوفي ليلة الأحد وهو ابن خمس[4] وأربعين سنة ، فملك ثلاثاً[5] وعشرين سنة وشهراً[6] وسبعة عشر يوماً[7] ؛ وكان مولده بالري ، وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

إن أمير المؤمنين في خلقه حن به البر إلى مولده
ليصلح الري وأقطارها ويمطر الخير بها من يده

وهذا في رواية بكر بن إسماعيل ، وقيل : كان ملكه ثلاثاً[8] وعشرين سنة وستة عشر يوماً . وكان جسيماً جميلاً وسيماً ، أبيض جعد الشعر قد وخطه الشيب ، وكان يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة ، وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم ، وإذا حج حج معه مائة من الفقهاء ، فالسنة التي لا يحج فيها أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة ، وكان في الهيبة والسياسة مثل المنصور و[في] السماحة مثل السفاح . فلما مات كتب الخبر إلى المأمون وهو يومئذ بمرو ،

---

(١) في الطبري : الجنيد بن عبد الرحمن .
(٢) الطبري وابن الأثير : رأيتها في منامي .
(٣) بالأصل : ثلاثة .
(٤) بالأصل : خمسة .
(٥) عن الطبري وبالأصل « اثنين » .
(٦) عن الطبري وبالأصل « ثمانية أشهر » .
(٧) انظر في يوم موته ومقدار عمره ومدة خلافته الطبري ٨/٣٤٥ ابن الأثير ٤/٨٨ مروج الذهب ٣/٤١٢ التنبيه والأشراف ص ٣٤٥ تاريخ اليعقوبي ٢/٤٣٠ فوات الوفيات ٢/٦١٦ المعارف ص٣٨٣ تاريخ خليفة ص ٤٦٠ وانفرد في الإمامة والسياسة وذكر موته سنة ١٩٥ هـ .
(٨) الأصل « ثلاثة » .

وكتب أيضاً بالخبر إلى محمد الأمين وهو يومئذ بمدينة السلام بغداد ، وصار الأمر إلى ابنه محمد الأمين .

[خلافة محمد الأمين]

قال الحسن بن المنصور : أخبرني الفضل بن زرارة قال : لما صارت الخلافة إلى محمد الأمين أخرج كل من كان في حبس الرشيد ببغداد ، واتخذ الفضل بن الربيع وزيراً ، وجعل ابنه العباس بن الفضل بن الربيع حاجباً ، واتخذ إسماعيل بن صبيح كاتباً ؛ ونصب ابنه موسى لولاية العهد من بعده وأخذ له البيعة وسماه الناطق بالله ، وجعله في حجر علي بن موسى بن ماهان ، فجعل بعض الشعراء يقول في ذلك ـ وهو أبو نواس :

لقد قام خير الناس من بعد خيرهم ... فليس على الأيام إذ قام معتبُ
فأمسى أمير المؤمنين محمد ... وما بعده للطالب العرف مطلبُ

وقال فيه أبو نواس أيضاً :

رضينا بالأمين عن الزمان ... فأضحى الملك معمور المعاني[1]
تمنينا على الأيام شيئاً ... فقد نلنا به ثمر الأماني

وقال فيه أبو نواس أيضاً :

لئن كان ريب الدهر غال أمامنا ... ولم يخطه لما رماه مقاصدا[2]
فإن الذي كنا نؤمل بعده ... وندخره للنائبات محمدا

وقال أبو نواس أيضاً :

ملكت على طين السعادة واليمن ... وحزت إليك الملك مقتتل السنِ
لقد طابت الدنيا بملك محمد ... وزيدت به الأيام حسناً على حسن

قال : ثم إن الفضل بن الربيع حمل تلك الأموال التي كان الرشيد أمر بها لعبد الله المأمون ، وحمل البردة والقضيب والخاتم ولحق بالأمين محمد ابن زبيدة ،

(١) في ديوان أبي نواس : المكان .
(٢) في الديوان : فاقصدا .

فلما قدم الفضل عليه فرح به فرحاً شديداً وقربه وأدناه وجعله وزيره وصاحب أمره وأعماله ، وفوض إليه ما وافى به . قال : وكان الفضل بن الربيع هو الذي يولي الأمور والولاة ويعزلهم ، ويرفع من أراد رفعه . ويضع من أراد وضعه . قال : واحتجب الأمين فلم يكن يصل إليه أحد ولا يجلس الناس إلا في فرط ، وكان الفضل بن الربيع هو المتولي لجميع الأمور وأسباب الملك وتدبيرها ، وقد ذكر ذلك أبو نواس في قصيدة حيث يقول :

لعمرك ما غاب الأمين محمد عن الأمر يعنيه إذا شهد الفضلُ
ولولا مواريث الخلافة إنما له[1] دونه ما كان بينهما فضل

قال : وحدثني أبو يزيد المهلبي قال : لما صارت الخلافة إلى محمد الأمين فخلى للهو واللعب والنزهة ، ثم إنه ابتاع أنواع الجواهر واشتغل بالنساء ، فلما أسرف في ذلك وطال على الناس ذلك وجدوا في قلوبهم قسوة ؛ فدخل عليه إسماعيل بن صبيح وهو كاتبه وصاحب سره فقال : يا أمير المؤمنين ! إن قوادك وجندك وعامة رعيتك قد ساءت ظنونهم ، وخبثت أنفسهم ، وكبر عليهم ما يرون احتجابك عنهم وإهمالك النظر في أمورهم ، فلو جلست لهم ساعة من نهار ليدخلوا فيسلموا على أمير المؤمنين ؟ فقال الأمين : إني فاعل ذلك غداً إن شاء الله تعالى . قال : فلما كان من الغد جلس الأمين في مجلسه وأمر ببابه ففتح ، وأمر بالستور فرفعت ، وأذن للناس فدخلوا عليه وجلسوا في أماكنهم ومراتبهم ؛ فقام الخطباء فخطبوا ، قام الشعراء فأنشدوا ، وقام فيمن قام يومئذ أبو نواس فقال : يا أمير المؤمنين ! إن هؤلاء الذين أنشدوا إنما هم أهل مدر وحجر وشياه وإبل ، وقد حفت ألفاظهم وغاضت بحورهم وليس لهم بصر بمدح الخلفاء ونشر مكارم الكرماء ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في النشيد فليفعل ! قال : فأذن له الأمين في ذلك ، فأنشد يقول :

ألا دارها بالماء حتى تُلينها فلم تكرم الصهباء حتى تهينها
أُغالي بها حتى إذا ما ملكتها أهنتُ بإكرام الخليل مصونها
وصفراء قبل المزج بيضاء بعده كأن شعاع الشمس يلقاك دونها

قال فقال له محمد الأمين : يا عدو الله وعدو نفسه ! أليس قد نهيت عن شرب

---

(١) عن ديوان أبي نواس ؛ وبالأصل : « إنها لها » .

الخمر واللهو واللغو فيها بالشعر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! ما شربت منها محرماً ولا فارقت منها ديناً منذ نهيتني عنها ، وأنا القائل في ذلك[1] :

أيهـا الـرائحـان بـاللوم لـومـاً ... لا أذوق الـمـدام إلا شميمـا
نـالني بـالمـلام فيهـا إمـام ... لا أرى في خـلافـه مستقيمـا

قال : فتبسم الأمين وأحسن جائزته وانصرف .

ذكر خبر الشعراء الثلاثة
وهم أبو نواس والرقاشي ومصعب[2] مع محمد الأمين[3]

قال : خرج محمد ابن زبيدة الأمين ذات ليلة يطوف في قصره إذ نظر بعض الجواري التي[4] له تطوف في القصر وهي سكرى ، وقد سقط الرداء عن منكبيها وانكشف صدرها ، فأعجب بها محمد الأمين ابن زبيدة فدعاها إلى نفسها ، فقالت : ذرني فإني طامث ، وواعدته أن تزوره في غد ، فانصرف محمد الأمين إلى فراشه ينقلب جنباً جنباً ، فلما أصبح أرسل إليها فقالت : كلام الليل يمحوه النهار . فقال محمد ابن زبيدة : انظروا من بالباب من الشعراء ! فقالوا : الرقاشي ومصعب[2] وأبو نواس ؛ فقال : أدخل بهم عليَّ ! فلما دخلوا وأعطوه حق التسليم قال لهم : ليقل كل واحد منكم بيتين من الشعر على « كلام الليل يمحوه النهار » . قال : فابتدأ الرقاشي ينشد ويقول :

متى تـصحـو وقـلبـك مسـتـطار ... وقـد منـع الـرقـاد[5] فـلا قـرار
وقـد تـركتـك صبّاً مستهـامـا[6] ... فـتـاة لا تـزور ولا تُـزار
إذا مـا زرتهـا وعـدتـك وعـداً[7] ... كـلام الـليـل يمحـوه الـنهـار

---

(١) الأبيات في الطبري ٥١٧/٨ وديوانه ص ٣٢٥ .
(٢) عن العقد الفريد ٤٠٩/٦ وبالأصل ابن مصعب .
(٣) الخبر في العقد الفريد .
(٤) بالأصل « الذي » .
(٥) العقد الفريد : القرار فلا قرار .
(٦) عن العقد الفريد وبالأصل : تركت صب مستهام .
(٧) في العقد الفريد :

إذا استنجزت منها الوعد قالت

ثم تقدم مصعب[1] فقال :

أما والله لو تجدين وجدي ... لأذهب بالردا عنك السرارُ
فكيف وقد تركت الجسم عبرا ... وفي الأحشاء من ذكراك نار
تبسم ضاحكاً من غير عجب ... كلام الليل يمحوه النهار

ثم تقدم أبو نواس فقال :

تمادى الحب وانقطع المزار ... وجاهرنا فلم يغن الجهار
وليلة [2] أقبلت في القصر سكرى ... ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح أردافاً ثقالاً ... وغصناً فيه رمان صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها ... من التهييف واسترخى الإزار
فقلت الوعد سيدتي فقالت : ... كلام الليل يمحوه النهار
فقلت الوصل سيدتي فقالت ... غداً وإليك في ذاك الخيار
فلما أسفر الصبح التقينا ... وقد غلب التصبر والقرار

فقال محمد الأمين : يا غلام ! جرد أبا نواس واضربه خمسمائة سوط ؛ فقال أبو نواس : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فقال : والله ما كنت إلا ثالثاً أو مطلعاً علينا ! فقال : والله ما كنت ثالثكم ولا مطلعاً عليكم ، ولكن علمت مراد أمير المؤمنين فقلته ، فقال : يا غلام ! أعط أبا نواس عشرة آلاف درهم [3] ، واعط الاثنين عشرة آلاف درهم بينهما . ثم أمر فأخرجوا .

ويحكى أن الأمين كان يشرب ذات ليلة على بساط نرجس ، وكانت تلك الليلة قد أبدر قمرها وكان الذي يسقيه خادمه كوثر فطرب وقال :

وصف البدر حسن وجهك حتى ... خلت أني وما أراك أراكا
وإذا ما تنفس النرجس الغـ ... ـضّ توهمته نسيم شذاكا

ثم أمر الأمين فنودي له في الجند أن أمير المؤمنين قد عزم على الركوب فلا يتخلف أحد له ديوان ، فركب الأجناد والكتاب وأصحاب الأقلام والوزراء وأرباب

---

(١) انظر أبيات مصعب في العقد الفريد ٦/ ٤١٠ باختلاف عما ورد في الأصل .
(٢) في العقد الفريد : وخودٍ ، والخود : الشابة الحسنة الخلق .
(٣) في العقد الفريد : فأمر له بأربعة آلاف درهم ، ولصاحبيه بمثلها .

المناصب في أحسن زي وأكمل هيئة وأعدت له الحراقات والزلالات في الدجلة ، فنهض ولبس أثوابه وتقلد سيفه وركب إلى شاطىء الدجْلة ، وكان قد بنى له حراقات لم يعمل مثلها : إحداهما على مثال الأسد ، والأخرى على مثال العقاب . قال : واصطفت الناس على شاطىء الدجلة ومر أمير المؤمنين منحدراً سائراً والزلالات على يمينه وشماله . قال : فما يظن أحد أنه نظر إلى شيء أبهى ولا أحسن من ذلك ولا أجمل منه ، وفي ذلك يقول أبو نواس(١) :

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سار برّاً ... سار في الماء راكباً ليث غابِ
أسداً باسطاً ذراعيه(٢) يعدو ... أهرت الشدق كاشر الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السّـ ... ـوط(٣) ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات يمن وميسر وجناحيـ ... ـن تشق العباب بعد العباب
بارك الله للأمين وأبقا ... وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه ... هاشمي موفّق للصواب

وقال الفضل بن زياد: أخبرني وصيف خادم الأمين محمد ابن زبيدة قال : [لما] أفضت الخلافة إلى الأمين محمد ابن زبيدة بعث إلى أسد بن يزيد بن مزيد الشيباني فعزله عن بلاد إرمينية وولى مكانه إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي ، قال : فوجه إسحاق بن سليمان بابنه الفضل على مقدمته إلى إرمينية فدخلها واتصل به أبوه ، وما زال في يد إسحاق بن سليمان الهاشمي إلى أن وقع الاختلاف بين الأمين وبين أخيه المأمون ، فاتصل الحروب والوقائع إلى أن قتل الأمين ـ والله أعلم ـ .

ذكر المخالفة بينهما ومقتل الأمين

قال : لما دخل عام أربع وتسعين ومائة أمر محمد الأمين بالدعاء لابنه موسى

(١) ديوانه ص ١١٦ والطبري ٨/٥٠٩ وابن الأثير ٤/١٤٢ .
(٢) عن الديوان وبالأصل : يديه .
(٣) عن الديوان وبالأصل : السفط .

على المنابر وسماه الناطق بالحق[1] وفسد بينه وبين المأمون ومكر كل واحد منهما بصاحبه ، ولم يكن ذلك من رأي الأمين محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخيه بما كان قد احتلف عليه لهما والده الرشيد من العهود والمواثيق ، ولم يزل الفضل بن الربيع يصغر عن الأمين حال المأمون ويزين له خلعه ، حتى قال : ما ينتظر أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم ! اخلعهما ، فإن البيعة كانت [لك] متقدمة قبلهما ودخلا بعدك[2] ، وعاونه على ذلك علي بن عيسى بن ماهان والسندي وبكر بن المعتمر حتى أزالوا محمداً الأمين عن رأيه ، فأول ما أظهر الأمين من الخلاف أنه ترك دعاء المأمون على المنابر ودعا لابنه موسى ؛ والثاني أنه كتب إلى المأمون يسأله أنه يتجافى عن كورتين من كور خراسان وأنه يوجه العمال إليهما من قبله ـ يعني الأمين محمد ـ ؛ والثالث [أنه] تمكن من نفسه صاحب بريد يكتب إلى الأمين بخبره .

فلما ورد الكتاب على المأمون بذلك اشتد عليه وغضب غضباً شديداً ، وشاور الفضل بن سهل وأخاه وجميع شيعته ، فقال الجميع : السبيل أن تصبر ولا تنقض العهد فإنه إن بغى عليك أخوك فالله ناصرك عليه ، وليكن جوابك إليه جواباً حسناً وأظهر له التواضع والطاعة ، ففعل ما أشاروا عليه به[3] . وأمر المأمون عماله وحراسه من حدود الري أن لا يأتي أحد من العراق ولا أحد من خراسان إلا بجواز بعد أن يفتش غاية التفتيش ، فكان أهل خراسان يحبون المأمون ويتقربون إليه ويوالونه موالاة صادقة . وكان للمأمون ببغداد أموال وأولاد فطلب من الأمين فلم يردها إليه .

وشاور الأمين يحيى بن سليم وكان ذا رأي وعقل رصين ومعرفة بأمور الدول في خلع المأمون ، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين ! لا تجاهره مجاهرة يستنكرها الناس ويظهر شناعتها للعامة ، ولكن الرأي يا أمير المؤمنين ! أن تستدعي[4]الجند بعد الجند[4]والقائد بعد القائد ، وتنوبهم[5] بالألطاف والهدايا ، وتستميلهم

(١) عن مروج الذهب ٣/٤٨٤ ، وبالأصل « الناطق بالله » .

(٢) وكان الفضل بن الربيع قد خاف المأمون بعد نكثه العهود التي أخذها عليه الرشيد لابنه عبد الله وانصرف إلى محمد الأمين ، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه (انظر الطبري وابن الأثير حوادث سنتي ١٩٣ ـ ١٩٤) .

(٣) انظر نسخة كتاب المأمون إلى الأمين في الطبري ٨/٣٧٩ وابن الأثير ٤/١٠٢ .

(٤) عن الطبري ٨/٣٨٥ وابن الأثير ٤/١٠٣ وبالأصل : الحيدري .

(٥) في الطبري : وتؤنسه . وفي ابن الأثير : وتؤنسهما .

بالأطماع ؛ فإذا ذهبت[1] قوته واستقرت[2] رجاله أمرته بالقدوم عليك ، فإن قدم كان الذي تريد ، وإن أبى كنت قد تناولته وقد قل جنوده وضعف ركنه . وكان للمأمون بباب الأمين صاحب خبر ينتهي إليه بالأخبار، فكتب إلى المأمون في ذلك كتاباً وجعله في عود منقور من أعواد الأكاف مع امرأة ، وكانت الإمرأة تمضي على المسالح ، وقد سد الفضل بن الربيع أفواه الطرق وأن لا يجوزها أحد ، فجاءت المرأة إلى صاحب البريد وعرفته ، فرفع الخبر إلى المأمون ، فأشخص طاهر بن الحسين فيمن ضم إليه من قواده وأجناده ، فسار مجداً لا يلوي على أحد حتى ورد الريّ فنزلها .

ووجّه محمد الأمين عصمة بن حماد بن سالم الهمذاني إلى همذان وولاه حرب كور الجبل وأمره أن يقيم بهمذان ويوجه مقدمته إلى ساوة[3] ؛ وأقبل بعد ذلك علي بن عيسى بن ماهان على محمد الأمين فقال : إن أهل خراسان كتبوا إليَّ أني إن خرجت إليهم أطاعوني وانقادوا إليَّ ؛ فولاه محمد نهاوند وهمذان والجبل وقم وأصبهان حربها وخراجها . وضم إليه جماعة من القواد ، وأمر له بمائتي ألف دينار ولابنه بخمسة آلاف دينار[4] ، وأمر له بألفي سيف محلّى وستة آلاف ثوب للخلع ؛ فشخص علي بن عيسى في أربعين ألف فارس لحرب المأمون ، وذلك في سنة خمس وتسعين ومائة[5] ، وحمل معه قيد من فضة ليقيد به المأمون بزعمه ، وشخص معه الأمين إلى النهروان حتى روع العسكر وكتب إلى عصمة بالانصراف إلى عند علي بن عيسى بن ماهان .

فلما نزل علي بن عيسى همذان ولّى عليها عبد الله بن حميد[6] بن قحطبة ، ثم شخص علي بن عيسى يريد الري فسار حتى بلغ الري على تعبئته ، فلقيه طاهر بن الحسين في أقل من أربعة آلاف ، فحاربه وقتله[7] وقطع رأسه وأرسل به إلى

---

(١) الطبري : أوهنت . وابن الأثير : وهنت .

(٢) الطبري وابن الأثير : واستفرغت .

(٣) مدينة بين الري وهمذان في وسط .

(٤) الطبري ٨/ ٣٩٠ بخمسين ألف دينار .

(٥) ورد في ابن الأثير أن الفضل ذي الريا ستين كتاب إلى عينه لدى الفضل بن الربيع أن يشير على الفضل بإنفاذ علي بن عيسى لحرب المأمون ، وكان علياً مكروهاً من أهل خراسان لسوء سيرته وظلمه إياهم عندما كان والياً أيام الرشيد .

(٦) عن الطبري ، وبالأصل : جنيد .

(٧) انظر تفاصيل حول القتال وردت في الطبري ٣٩٣/٨ ابن الأثير ١٠٧/٤ مروج الذهب=

المأمون[1] .

وقال شاعر من بغداد في ذلك لما رأى تشاغل محمد بلهوه وبطالته وتخليته التدبير على الفضل وتسليم الأمور إليه :

أضاع الخلافة غش الوزير ... وفسق الإمام وجهل المشيرِ
لواط الأمور أعجوبة ... وأعجب منه خلاق الوزيرِ
ففضل وزير وبكر مشير ... يريدان ما فيه حتف[2] الأمير
ومن ليس يحسن غسل استه ... ولم يَخْلُ من بوله في سرير

فلما انتهى إلى الأمين قتل علي بن عيسى بن ماهان واستباحة عسكره وجه عبد الرحمن بن جبلة في عشرين ألف فارس من الأنبار وحمل الأموال معه ، وولاه ما بين حلوان إلى ما غلب من أرض خراسان وأمره بسرعة السير ؛ فتوجه حتى نزل همذان وضبط أطرافها واستعد للقاء طاهر بن الحسين . وكان يحيى بن علي بن عيسى لما قتل أبوه هرب في جماعة وأقام بين الري وهمذان ، وكتب إليه [محمد الأمين] أن استعد وازحف إلى طاهر! واستقبله طاهر مع جيشه على قاتله قتالاً شديداً ، فهرب عبد الرحمن ودخل مدينة همذان ؛ فأقام طاهر مع جيشه على باب المدينة وقطع عنهم الماء حتى تبرموا للقتال ، فأرسل عبد الرحمن إلى طاهر بن الحسين وسأله الأمان له ولمن معه ، فآمنه طاهر ووفى له[3] ، وكان عبد الرحمن خائفاً من أهل همذان أن يقبضوه ، وصالح لما رأى أيضاً من ظفر طاهر ونصره وخذلان أصحابه .

وسمي طاهر ذا اليمينين وصاحب حبل الدين[4] لما قتل علي بن عيسى وكاتب إلى المأمون يخبره وأن رأسه في حجره وخاتمه في إصبعه وسلم على المأمون بإمرة المؤمنين .

= ٣/٤٧٦ - ٤٧٧ .

(١) الأبيات في الطبري ٨/٣٩٦ ابن الأثير ٤/١١٠ .

(٢) بالأصل « حتف ما فيه » وما أثبت عن الطبري .

(٣) كذا بالأصل والطبري وابن الأثير ، أما اليعقوبي فذكر أن طاهراً قتله واستباح كل ما في عسكره ، ولم يذكر أنه أمنه ثم قتله .

(٤) عن الطبري ، وبالأصل « اللذين » .

فلما دخلت سنة ست وتسعين ومائة خلع محمد بن هارون ببغداد وأخذت البيعة للمأمون ، وحبس محمد في قصر أبي جعفر مع زبيدة ، وكان الحسين بن علي بن ماهان حبسه ، فقام أسد الحارثي(١) وجمع خلقاً وجاء إلى باب القصر ، وقاتل الحسين بن علي وأصحابه قتالاً شديداً وأسره ، ودخل أسد على محمد وكسر قيده وأقعده في مجلس الخلافة ؛ ثم رضي محمد عن الحسين بن علي وخلع عليه وعلى أصحابه ورد إليه قيادته ، وجددت البيعة لمحمد ، وكان حبسه يومين .

وتوجه طاهر بن الحسين إلى الأهواز وبها يومئذ محمد بن يزيد المهلبي مع جيش عظيم متوجه نحو طاهر ، وقاتله بنفسه قتالاً عظيماً لم ير مثله في هذه الأيام ، وانتهى بعض أصحاب طاهر إلى محمد بن يزيد وطعنه طعنة عظيمة بالرمح صرعه ، وتبادر أهل العسكر بالطعن والضرب حتى قتلوه وحزوا رأسه ؛ وخرج طاهر حتى حصل بباب بغداد فأخذ أصحاب محمد في الغارة .

وقام العيارون وأهل الفساد يتعلقون بالمرأة الصالحة بالسوق ولا يمنع ، ويحملون أولاد التجار وهم عند آبائهم ولا يجترئون على منعهم ، وانتشر أمر محمد وضعف وتبدد جنده وأحس من طاهر العلو عليه والظفر . ثم استأمن خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى وخلعا محمداً ودعوا للمأمون ، فسكن العسكر وألزموا مساكنهم واستقروا في منازلهم ، وغدا الطاهر على المدينة الشرقية وأرباضها(٢) والكرخ وأسواقها وهدم قنطرتي الصراة العتيقة والحديثة ، واشتد عندهما القتال على أصحابه ، وباشر القتال بنفسه ، وقاتل من كان معه بدار الرقيق فهزمهم حتى ألحقهم بالكرخ وهزم أصحاب محمد ؛ وقصد إلى المدينة التي لأبي جعفر فأحاط بها وبقصر زبيدة ، وحاصر قصر الخلد ، وخرج محمد وابنه وأمه إلى مدينة أبي جعفر وتفرق عامة جنده وخصيانه وجواريه في السكك والطرق لا يلوي أحد منهم على الآخر ، وتفرق الغوغاء والسفلة ؛ وتحصن محمد بالمدينة هو ومن يقاتل معه ، وحاصره طاهر وأخذ عليه الأبواب ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء ، وبلغ أمره إلى أنه أكل وطلب الماء فلم يجده .

وذكر عن إبراهيم المهدي أنه كان نازلاً مع محمد المخلوع في مدينة المنصور

---

(١) في الطبري ٨/٤٣٠ أسد الحربي .

(٢) عن الطبري ٨/٤٧٣ وبالأصل « المدينة الشريفة وأرباظها » .

لما حاصره طاهر ، فخرج ذات ليلة من قصره يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه فصار إلى قصر القرار[1] فقال لي : يا إبراهيم ! أما ترى طيب هذه الليلة وحسن هذا القمر في السماء وضوءه في الماء فهل لك والشرب ؟ فقلت : شأنك وما تريد جعلني الله فداك ! فدعا برطل من نبيذ فشربه ، ثم أمر بسقيته مثله ، فابتدرت أغنيه من غير أن يسألني لعلمي بسوء خلقه ، فغنيت ما كان يحبه ، فقال لي : ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ فقلت : ما أحوجني إلى ذلك ! فدعا بجارية متقدمة عنده يقال لها صعب[2] ، فتطيرت من اسمها ونحن في ذاك الحال الذي نحن فيه من الضيق والحصر ؛ فلما صارت بين يديه قال : غني ! فغنت[3] بشعر النابغة الجعدي :

كليب لعمري[4] كان أكثر ناصراً وأيسر ذنباً[5] منك ضرّج بالدمِ

قال : فاشتد عليه ذلك البيت الذي غنته له ثم تطير منه ، فقال : غني غير هذا ! فغنت[6] :

أبكي فراقهم عيني فأرّقها إن التفرق للأحباب بكاء
مازال يعدو عليهم صرف دهرهم حتى تفانوا وريب[7] الدهر عداء

فقال لها : لعنك الله ! أما تعرفين تغني غير هذا ؟ فقالت : يا سيدي ! ما تغنيت إلا بما ظننت أنك تحبه ، وما هو إلا شيء جاءني ؛ ثم أخذت في غناء آخر :

أما ورب السكون[8] والحركِ إن المنايا كثيرة الشركِ
ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلكِ
إلا لنقل السلطان عن ملك قد انقضى ملكه إلى ملكِ

---

(١) عن الطبري ٤٧٦/٨ وبالأصل « فصار إلى قصر الفرات » وهو في قرنة الصراة ، أسفل من قصر الخلد .
(٢) في مروج الذهب ٤٧٩/٣ « ضعف » .
(٣) في مروج الذهب : فوضعت العود في حجرها وغنت .
(٤) عن الطبري ٤٧٧/٨ وابن الأثير ١٣٢/٤ ومروج الذهب ، وبالأصل « كلبت غيرى » .
(٥) في مروج الذهب : حزماً .
(٦) البيتان في الطبري وابن الأثير .
(٧) عن المصدرين وبالأصل « رب » .
(٨) عن الطبري ومروج الذهب وابن الأثير وبالأصل « السماء » .

وملك ذي العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك[1]

فقال لها : قومي عليك غضب الله ! فقامت وبين يديه قدح محكم الصنعة ، فعثرت بالقدم فكسرته . فقال لي : يا إبراهيم ! أما ترى ما جاءت به هذه الجارية ثم ما كان من أمر القدح ، والله ما أظن أمري إلا وقد قرب ! فقلت : أطال الله عمر أمير المؤمنين وأعز ملكه ! فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً من دجلة ﴿ **قضى الأمر الذي فيه تستفتين** ﴾[2] فقال لي : يا إبراهيم ! أما سمعتَ ما سمعتُ ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين ما سمعت شيئاً ؛ ثم عاود بالحديث فعاد الصوت[3] ، فوثب من مجلسه ذلك مغتماً ، ثم ركب ورجع إلى موضعه في المدينة ، فما كان بعدها إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل وحدث من أمره ما حدث .

وفي رواية أخرى أنه لما اشتد به الحصار اشتد اغتمامه فضاق ذرعاً ، فدعا بندمائه والشراب ليتسلى به ، وكان له جارية يختصها من بين جواريه ، فأمرها أن تغني ، وتناول كأساً يشربه ، فحبس الله لسانها عن كل شيء فغنت :

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأكثر ذنباً منك ضرج بالدم

فرماها بالكأس فطرحها الأرض ثم دعا بكأس أخرى فتناولها ، ودعا بجارية أخرى فأمرها بالغناء فغنت :

قومي همُ قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي[4]

قال : فرمى وجهها بالقدح ورمى الصينية برجله وعاد إلى ما كان فيه من همه وغمه ، فلم يلبث أن قتل بعد ذلك بأيام يسيرة . ويروى أن محمداً الأمين لما حاصره

---

(١) وقيل إنها غنت :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

(٢) سورة يوسف ، الآية ٤١ .

(٣) في مروج الذهب : قال ابن مهدي : فقمت وقد وثب ، فسمعت منشداً من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تعجبن من العجب قد جاء ما يقضي العجب
قد جاء أمر فادح فيه لذي عجب عجب

(٤) البيت للحارث بن وعلة الذهلي (ديوان الحماسة : التبريزي ١/١٩٩) .

طاهر بن الحسين قال :

يا فضل قد حاصرني طاهر ... إني على ما فاتني صابر
لم يبق من ملكي إلا الذي ... تراه والخسران والناصر

وقال محمد الأمين أيضاً حين يئس من الملك وعلا عليه طاهر بن الحسين حيث يقول :

يا نفس قد حق الحذر ... أين المفر من القدر
كل امرىء مما يخا ... ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صرف الزما ... ن يعض يوماً بالكدر

ويحكى أن كوثراً الخادم كان عند الأمين محمد عزيزاً ، فخرج يوماً ليرى الحرب فأصابته رجمة في وجهه ، فجعل يبكي ويمسح الدم عن وجهه ، فاشتد عليه ذلك فقال في المعنى :

ضربوا قرة عيني ... ولأجلي ضربوه
أخذ الله بقلبي ... من أناس أحرقوه

ولما صار محمد الأمين إلى المدينة وعلم قواده أنه ليس لهم وله فيها عدة الحصار دخل على محمد حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم [بن -][1] الأغلب الإفريقي فقالوا له : قد آل حالك وحالنا إلى ما ترى وقد رأينا رأياً نريد أن نعرضه عليك ونرجو أن يكون صواباً ، فقال : وما هو ؟ فقالوا : قد تفرق الناس عنك من كل جانب وأحاط بك العدو ، وقد بقي معك من خيلك ألف[2] فارس خيارها ، فنرى أن نختار من قد عرفناه بمحبتك من الأغراء تسعمائة[3] رجل ، فتحملهم على هذه الخيل وتخرج ليلاً من بعض الأبواب حتى تلحق بالجزيرة فتفرض الفروض وتجبي الخراج وتصير في مملكة واسعة وملك جديد ، فيسارع إليك الناس وتنقطع عنك الجنود التي في طلبك ، فقال لهم : نعم ما رأيتم ! وعزم على ذاك .

واتصل الخبر بطاهر بن الحسين ، فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر ومحمد بن

---

(١) زيادة عن الطبري ٤٧٨/٨ وابن الأثير ١٣٣/٤ .
(٢) في ابن الأثير : « سبعة آلاف » . ومثله في مروج الذهب ٥٠١/٣ .
(٣) في الطبري : سبعمئة .

عيسى بن نهيك[1] والسندي بن شاهك[2] : والله إن لم تقروه وتردوه عن هذا الرأي لا تركت لهم ضيعة إلا قبضتها ولا يكون لي همة إلا أنفسكم ؛ فدخلوا على محمد وقالوا[3] : قد بلغنا الذي عزمت عليه فنحن نذكرك الله في نفسك إن هؤلاء صعاليك وقد ضاقت عليهم المذاهب وهم يريدون الأمان على أنفسهم عند أخيك وعند طاهر وهم بين يأخذوك أسيراً أو يأخذوا رأسك فيتقربوا بك إلى عدوك ويجعلوك سبب أمانهم . ولما انتقض هذا الرأي عزم على الخروج إلى هرثمة ، فقالوا : الخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة .

فقال : ويحكم ! أنا أكره الخروج إلى طاهر وذلك لمنام رأيته ، وذلك أني رأيت في منامي كأني على حائط من آجر شاهق في الهواء عريض الأساس وثيق لم أر حائطاً يشبهه في الطول والعرض والوثاقة ، وعليَّ سوادي وسيفي وقلنسوتي وخفي .

وكان طاهر في أصل ذلك الحائط بيده شيء يضرب به ذلك الحائط حتى سقط الحائط وسقطت قلنسوتي عن رأسي ، وأنا أتطير من طاهر وأكره الخروج إليه ، وهرثمة مولانا ؛ وهمّ بالخروج إليه وعملت حراقة ليركبها مع هرثمة ، فعلم طاهر بن الحسين ، فوثب طاهر وأكمن نفسه في الخلد، فلما صار إلى الحراقة[4] خرج طاهر إليه وأصحابه فرموا الحراقة[5] بالسهام والحجارة ، فمالوا ناحية الماء فانكفأت الحراقة ، فغرق محمد وهرثمة ومن كان فيها ، فسبح محمد حتى سار إلى بستان موسى[6] ، فظن أن غرقه كان حيلة من هرثمة عليه ، فعبر الدجلة حتى صار إلى قرية الصراة ، وكان محمد بن حميد[7] هناك ، فصاح بأصحابه فأخذوه وحبسوه وحملوه على برذون ، وألقي عليه إزار من أزر الحبل غير مفتول ، وصار به إلى منزل إبراهيم بن جعفر البلخي ، وكان نازلاً بباب الكوفة وأردف رجلاً يركب خلفه كي لا

---

(١) عن الطبري ، ومروج الذهب وبالأصل « عقيل » .

(٢) عن الطبري ومروج الذهب وبالأصل : شاهيك .

(٣) انظر ما جرى في مقابلته لقواده في الطبري ٨/٤٧٩ وابن الأثير ٤/١٣٣ ومروج الذهب ٣/٥٠٠ .

(٤) وكان ذلك ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ .

(٥) الحراقة نوع من السفن فيها مرامي النيران يرمى بها .

(٦) في مروج الذهب : وشق محمد ثيابه عن نفسه وسبح فوقع نحو السراة إلى عسكر قرين الديراني غلام طاهر .

(٧) عن الطبري ، وبالأصل « حميل » .

يسقط كما يفعل بالأسير ، فذبحوه ذبحاً من قفاه وأخـذوا برأسـه ، فمضوا بـه إلى طاهر بن الحسين ، وتركوا جثته إلى وقت السحر ، ثم أدرجوه في جل وحملوه . فلما أصبح طاهر نصب رأس الأمين على البرج برج حائط البستان الذي على باب الأنبار . وخرج أهل بغداد إلى النظر إليه ، وأقبل طاهر يقول هذا رأس المخلوع محمد[1] .

فلما قتل محمد ندم جيش بغداد على تسليمهم إياه ، ووثب الجند بعد قتله بطاهر بن الحسين يريدون قتله ، فهرب منهم وتغيب أياماً حتى أصلح أمرهم . وبعث طاهر بن الحسين برأس محمد الأمين ابن زبيدة إلى المأمون ، فلما بلغ الرأس إليه ووضع بين يديه بكى ذو الرئاستين وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم طاهر ، أمرناه أن يبعث به أسيراً فبعث به قتيلاً ، فقال المأمون : قد مضى ما مضى فاحتل في الاعتذار .

وكان ولاية محمد بن الرشيد وهو أبو موسى يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخر سنة ثلاث[2] وتسعين ومائة ، وقيل : بل من ذي القعدة . وكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام وهو ابن خمس [3] وعشرين سنة . وقيل: ثمان ـ والله أعلم[4] ـ . ولم يل الخلافة هاشمي الأبوين إلا علي بن أبي طالب والحسن بن علي ومحمد الأمين ، لأنه أمه أم العزيز الملقبة بزبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور وهي صغيرة وكانت بيضـاء ، وكان المنصـور يرقصهـا وهي صغيرة ويقول : أنت زبيدة ! يلصق بها .

وقال خزيمة بن الحسن يرثي المخلوع على لسان[5] أم جعفر يقول[6] :

---

(١) في قتله أكثر من رواية انظر مروج الذهب ٣/٥٠١ وما بعدها والطبري ٨/٤٨٥ وما بعدها . وابن الأثير ٤/١٣٥ ـ ١٣٦ وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٤١ .

(٢) بالأصل « ثلاثة » .

(٣) بالأصل « خمسة » .

(٤) انظر في يوم مقتله ومدة ولايته ومقدار عمره الطبري ١٠/٢٠٨ مروج الذهب ٣/٤١٣ ابن الأثير ٤/١٣٨ التنبيه والأشراف ص ٣٤٦ تاريخ اليعقوبي ٢/٤٤١ مآثر الإنافة ١/٢٠٤ المعارف ص ١٦٧ تاريخ خليفة ص ٤٦٨ تاريخ بغداد ٣/٣٣٧ .

(٥) عن الطبري ٨/٥٠٦ وابن الأثير ٤/١٣٩ .

(٦) الأبيات في المصدرين السابقين ومروج الذهب ٣/٥٠٥ باختلاف بعض الألفاظ .

لخير إمام قام من خير عنصر وأفضل سام فوق أعواد[1] منبر
لوارث علم الأولين وفهمهم وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها إليك ابن عمي من جفوني[2] ومحجري
وقد مسني ذل وفقر وفاقة وأرّق عيني يابن عمي تفكري
[وهمت لما لاقيت بُعد مصابه فأمري عظيم منكر حد منكر -]
سأشكو الذي لاقيته بعد فقده شكا الحزين المستهام المقهقري
أتى طاهر لا طهّر الله طاهراً فما طاهر في فعله بمطهّر
فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالي وأحرق آدري
فعز على هارون ما قد لقيته وما مر بي من ناقص الخلق أعور
فإن كان ما أسدي بأمر أمرته صبرت لأمر من قدير مقدّر
وإن تكن الأخرى فغير مدافع إليك أمير المؤمنين فغيري
تذكّر أمير المؤمنين قرابتي فديتك من ذي حرمة متذكر

وكان طاهر بن الحسين أعور وقال فيه قائل[3] :

يا ذا اليمينيين[4] وعين واحده نقصان عين بيمين زائده

وقال الأمين : أنا أعميته في مكايدة طاهر بن الحسين حين حاصره ببغداد حيث يقول :

منيت بأشجع المقلين نفساً تزول الراسيات ولا يزول
إذا ما الرأي قصر عن أناس فرأي الأعور الباغي يطول
له في كل معضلة رقيب يشاهدنا ويعلم ما نقول
فليس بمغفل أمراً عناه إذا ما الأمر ضيعه الغفول[5]

وصار الأمر إلى أخيه المأمون وهو أبو العباس .

(١) عن المصادر ، وبالأصل « أعود » .
(٢) عن مروج الذهب وبالأصل « جفون » .
(٣) هو عمرو بن نباتة كما في البداية والنهاية ١٠/٢٨٣ .
(٤) اختلف في معنى قوله ذو اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلاً بشماله فقده نصفين ، وقيل لأنه ولى العراق وخراسان .
(٥) الأبيات عدا البيت الثاني في الطبري ٨/٤٦٧ .

[خلافة المأمون بن هارون الرشيد][1]

قال : وبويع المأمون ببغداد في الشهر الذي قتل فيه محمد الأمين ابن زبيدة والمأمون بخراسان . قال : وقد كان أهل بغداد هموا بالتغلب على طاهر بن الحسين وهموا أن يعقدوا الخلافة لإبراهيم بن المهدي . قال : فعندها كتب طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بذلك . قال : فبادر المأمون وقدم إلى بغداد بعد قتل محمد ابن زبيدة بشهرين وثمانية عشر يوماً . فلما دخل إلى بغداد نزل في القصر الذي يقال له باب الذهب ، وأمر ببناء قصره الذي في عسكر المهدي فأخذوا في بنائه .

وفي تلك السنة ظهر ابن طباطبا العلوي[2] بالكوفة مع أبي السرايا [3] السري بن منصور الشيباني[3]، فأرسل إليه المأمون في جيش عظيم ، فحاربوه حرباً شديداً ، فأتى به المأمون فأمر به فضرب عنقه صبراً[4] . فلما استقر المأمون ببغداد خرج عليه رجل من العرب يقال له نصر بن شبث .

ذكر خبر نصر بن شبث وخروجه على المأمون بن الرشيد

قال : حدثني عبد الله بن عبد الرحمن الخزاعي عن أبيه عن عبد الصمد بن يحيى عن أبيه قال : كان نصر بن شبث هذا رجلاً من قيس غيلان من بني عقيل وكان يسكن مدينة يقال لها كيسوم وكان في عنقه بيعة المخلوع محمد ابن زبيدة ، فلما بلغه ما كان من طاهر بن الحسين كأنه غضب لذلك وانتظر أن تأتيه الولاية من عند المأمون ، فلم تأته فتغلب على البلاد وكسر الخراج ، واجتمع إليه أهل الذعارة . قال : وبلغ المأمون ذلك فأمر طاهر بن الحسين بالخروج إليه . قال : فسار إليه طاهر في عسكر لجب ، حتى إذا تقارب من بلده نزل وكتب إليه وإلى وزير له يقال له

---

(١) زيادة عن هامش الأصل .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن (الحسين) بن علي بن أبي طالب (رض) .

(٣) عن الطبري ٨/٥٢٩ وابن الأثير ٤/١٤٧ ومروج الذهب ٤/٣٠ وبالأصل : إبراهيم بن محمد الغساني .

(٤) كذا ، وتجمع الروايات أن ابن طباطبا مات ولم يظفر به المأمون فأقام أبو السرايا مكانه محمد بن محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي كما في مروج الذهب وانظر الطبري ٨/٥٢٩ .

العباس بن زفر : أما بعد فإن الله تعالى ولي من والاه وعدو من عاداه ، وقد علم الله تعالى أنكما من أعدائه ولستما من أوليائه ، وبالله أحلف قسماً صادقاً لأوردنكما ونساءكما وذريتكما موارد الهلكة أو تذهب نفسي قبل ذلك ! وقد عرفتماني ولم يخف عليكما ما نزل بالمخلوع محمد ابن زبيدة مني ! وأنا الذي يقول :

ملكت الناس قسراً واقدارا   وقتّلت الجبابرة الكبارا
ووجهت الخلافة نحو مرو   إلى المأمون تبتدر ابتدارا[1]

قال : فأجابه نصر بن شبث :

أتيت بكذبة ونطقت زوراً   ولم تحذر وقائعي الكبارا
وهيجت العفرنى في عرين   وفقت الأسد قسراً واقتدارا

قال : فلما وصلت إليه هذه الأبيات غضب طاهر بن الحسين ثم إنه سار حتى تقارب من مدينة كيسوم ، فلم يبق بينه وبينها إلا مرحلة واحدة لا أقل ولا أكثر ، فكتب إليه : أما بعد فاقبل الأمان تر خيراً ، وإياك من الضراب والطعان ! قال : فكتب إليه نصر بن شبث بهذه الأبيات :

إذا ظلمت حكامنا وولاتنا   خصمناهُم بالمرهفات الصوارمِ
سيوف تخال الموت خالف حدّها   مشطبة تفري رؤوس الجماجم

ثم كتب إليه أسفل كتابه : إن شئت فاستقم وإن شئت فاستأخر ـ والسلام ـ .

قال : فسار طاهر بن الحسين في جيش عرمرم ، والتقى القوم للقتال ، واشتبك الطعان والضراب بين الفريقين ، فجعل نصر بن شبث يضارب القوم بسيفه وهو يرتجز ويقول :

إني غلام قد خرجت من مضر   أضرب بالسيف إذا الرمح انكسر

قال : واقتتل القوم قتالاً شديداً . قال : وجعل طاهر يكر على الخيل التي لنصر بن شبث فيقاتل أشد قتال ، ثم يقف ويتروح ويقول :

دهن الغبار وصحفتي مصقولة   ومطيتي ظهر الأقب الأشقر
وإذا تنازعني أقول لها اصبري   موت يريحك أو صعود المنبر

---

(١) البيتان في الطبري ، قالها طاهر بن الحسين بعد قتله محمد الأمين . ولعله تمثل بهما هنا .

قال : وكان يقال إنه يقف ويتروح ويقول :

ما لبست الدرع مذ كنت حذاراً من حمامي

لا ولا أنا بالذي كنت فراراً من مقامي

قال : ثم وقعت الهزيمة على طاهر بن الحسين وأصحابه ، وانهزموا من باب مدينة كيسوم إلى باب مدينة الرقة زهاء عن أربعين ميلاً ، ويقال أربعين فرسخاً . قال : فلم يزل نصر بن شبث يضاربهم بالسيف إلى أن مات طاهر بن الحسين .

قال : ووجه المأمون إلى نصر بن شبث بعبد الله بن طاهر[1] في ثلاثين ألف ، فلما علم نصر بن شبث بكثرة هذه الجيوش فكأنه اتقى على نفسه وبني عمه وأن تذهب نعمته وتخرب مدينته ، فأرسل إلى عبد الله بن طاهر يسأله الأمان فأعطاه ذلك[2] ، فدخل نصر بن شبث في أمانه فأحسن إليه عبد الله بن طاهر وولاه وخلع عليه ووصله ووفى له ، وانصرف إلى العراق عنه .

وروي أنه طلب الأمان على أنه لا يطأ بساط المأمون أمير المؤمنين ، فقال له [3]محمد بن جعفر[3] : لم لا تطأ بساط المأمون ؟ فقال: لجرمي ، فقال المأمون : والله ما تركته على ذلك أو يطأ بساطي! أتراه أعظم جرماً من [4]الفضل بن الربيع[4] فإنه أخذ قوادي وأموالي وجندي وسلاحي وجميع ما أوصى به أبي لي فذهب به إلى محمد وتركني بمرو فريداً وحيداً وأفسد عليَّ أخي حتى كان من أمره ما كان . فكتب المأمون لنصر بن شبث كتاباً فيه الأمان[5] .

ذكر خروج طاهر بن الحسين على المأمون ووفاته

قال : وكان طاهر بن الحسين عند المأمون فحضر في بعض أيامه مجلس الشرب ، فأمره بالجلوس فقال : يا أمير المؤمنين ! ليس لصاحب الشرطة أن يجلس بين يدي سيده ، فقال له المأمون : ذلك في مجلس العامة وأنا في مجلس الخاصة ،

---

(١) كذا وفي ابن الأثير ٤/ ١٨٥ أن المأمون ولى عبد الله بن طاهر من الرقة إلى مصر سنة ٢٠٦ وأمره بحرب نصر بن شبث ، وقد كانت وفاة أبيه طاهر سنة ٢٠٧ .

(٢) وكان ذلك سنة ٢٠٩ .

(٣ - ٣) عن ابن الأثير ٤/٢٠١ وبالأصل « جعفر بن محمد » .

(٤ - ٤) عن الطبري ٥٩٨/٨ وابن الأثير ٢٠١/٤ وبالأصل الربيع بن الفضل .

(٥) انظر نسخة الأمان في الطبري ٨/ ٦٠٠ .

فأذن له أن يجلس ، ثم بكى حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، فقال له طاهر : لم بكيت يا أمير المؤمنين ؟ لا أبكى الله لك عيناً وأذعنت لك العباد ! قال : أبكي لأمر ذكرته . قال : وانصرف طاهر واستدعى بهارون بن جيغونة[1] وقال : خذ معك ثلاثمائة ألف درهم فاعط الحسين الخادم مائتي ألف ـ وكان مقدماً عند المأمون يطلع على جميع أسراره وما في نفسه ـ واعط كاتبه محمد بن هارون مائة ألف درهم واسأله أن يسأل المأمون لم كان بكاءه . قال : ففعل ذلك ، فلما تغدى المأمون قال : يا حسين ! اسقني ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين لا أسقيك حتى تقول لم كان بكاءك حين دخل عليك طاهر بن الحسين ! قال : يا حسين ! هذا أمر إن خرج من رأسك قتلتك ! قال : يا سيدي ! ومتى أخرجت لك سراً ! قال : إني ذكرت محمداً أخي وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة فاسترحت إلى الإفاضة ولن يفوت طاهر مني ما يكره ؛ فأخبر حسين طاهراً بذلك . فركب طاهر إلى أن أتى إلى [أحمد بن أبي ـ][2] خالد ، فقال : إن الثناء مني ليس برخيص وإن المعروف عندي ليس بضائع فغيبني عنه وعن عينه ـ يعني المأمون ـ ، فقال : سأفعل[3] ذلك ؛ وركب ابن أبي خالد إلى المأمون فقال له : ما نمت البارحة ، فقال : لم ؟ فقال : لأنك وليت غسان[4] خراسان وهو ومن معه أكلة رأس ، فأخاف أن يخرج عليه خارجة من الترك فتصطلمه ؛ قال : فمن ترى لها ؟ قال : طاهر بن الحسين ، قال : يا أحمد ! هو والله خالع . قال : أنا الضامن له فأنفذه يا أمير المؤمنين ! فدعا بطاهر من ساعته فعقد له ، فشخص من وقته ونزل بستان خليل بن هاشم ، فحمل إليه في كل يوم ما أقام به مائة ألف درهم التي يحمل إلى صاحب خراسان والجبال من حلوان ، وكان خروجه من بغداد ليلة الجمعة لليلة بقيت من ذي القعدة [سنة ٢٠٥] . فودع طاهر ابنه عبد الله وكتب له كتاباً جمع فيه آداب الأولين والآخرين وعلمه فيه السياسة[5] . فخرج طاهر إلى خراسان وعبد الله ابنه إلى مصر وأرض الشام .

فلما دخلت سنة[6] سبع ومائتين[6] توفي فيها ذو اليمينين طاهر بن الحسين وكان

---

(١) في الطبري ٥٧٨/٨ جبغويه .

(٢) عن الطبري وابن الأثير .

(٣) عن الطبري ، وبالأصل « ما فعل » .

(٤) عن الطبري ، وبالأصل « عنان » .

(٥) انظر نسخة كتابه : الوصية في الطبري ٥٨٢/٨ .

(٦) بالأصل « تسع وثمانين » خطأ .

اعتل من حمى وحرارة[1] ، فوجد في فراشه ميتاً . وكان قبل وفاته بيوم صعد المنبر فخطب ، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له وخلعه وقال : اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أنبياءك واكفها مؤنة من بغى عليها ! وكان كلثوم بن [2]ثابت بن أبي سعد[2] على بريد خراسان اتقى لنفسه ولمن يخصه فقال : أنا مقتول لأني لا أكتم الخبر . قال : فانصرفت فاغتسلت غسل الموتى وائتزرت بإزار ولبست قميصاً وطرحت السواد عني وكتبت إلى المأمون ، فلما صلى العصر دعاني فحدث ما حدث . فخرج طلحة بن طاهر فقال : ردّوه ! فردوني وقد خرجت ، فقال لي : قد كتبت بما كان ؟ [قلت : نعم ـ][3] ، قال : فاكتب بوفاته ! فأعطاني خمسة آلاف درهم ومائتي ثوب ، فكتبت بوفاته وبقيام طلحة بن طاهر بالجيش . قال : فوردت الخريطة على المأمون بخلعه غدوة ودعا بابن أبي خالد فقال له : اشخص وائت به كما ضمنته . قال : أبيت ليلتي ! فأذن لي بعد جهد ؛ ووافت الخريطة بموته ليلاً فدعاه فقال : قد مات . قال : فمن ترى ؟ قال : ابنه طلحة ، فقال : هو الصواب . قال : فاكتب بولايته ، فكتب . وأقام طلحة والياً على خراسان في أيام المأمون ست سنين بعد موت أبيه طاهر ثم توفي ، وولى عبد الله بن طاهر خراسان ، فكان يتولى قتال بابل[4] ، فأقام بالدينور[5] ووجه الجيوش . فلما ورت وفاة طلحة على المأمون بعث يحيى بن أكثم إلى عبد الله بن طاهر يعزيه في أخيه ويهنئه بولاية خراسان . وولى علي بن هشام حرب بابل[6] . ولما أتى المأمون نعي طاهر بن الحسين قال : الحمد لله الذي قدمه وأخرنا .

فلما فتح عبد الله بن طاهر مصر وصار والياً عليها وعلى الشام كتب إلى المأمون كتاباً ، فكتب المأمون جوابه في ظهر الكتاب الذي له وهو يقول :

---

(١) وفي رواية أنه مات مسموماً وقد وضع له السم ابن أخي محمد بن فرخ العمركي وقد أرسله إليه أحمد بن أبي خالد ، وقيل وضع له السم خادم للمأمون كان قد عهد إليه إن رأى من طاهر شيئاً يريبه أن يسمه (اليعقوبي ٢/٤٥٧ البداية والنهاية ١٠/٢٦٠) .

(٢ ـ ٢) عن الطبري ٨/٥٩٤ ، وبالأصل « أبي ثابت بن أبي سعيد » .

(٣) زيادة عن الطبري .

(٤) في الطبري : بابك .

(٥) عن الطبري ، وبالأصل « الدنور » .

(٦) الطبري ٨/٥٩٥ بابك .

أخـي أنـت [و -] مـولاي ومـن أشـكـر نـعـمـاهْ
فـمـا أحـبـبـت مـن أمـر فـإنـي الـدهـر أهـواه
ومـا تـكـره مـن شـيء فـإنـي لـسـت أرضـاه
لـك الله عـلـى ذاك لـك الله لـك اللّهُ

فقال رجل من إخوته[1] للمأمون : يا أمير المؤمنين ! إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب وكذا كان أبوه قبله . فلما سمع المأمون ذلك اغتم غماً شديداً ودسّ عليه رجلاً في هيئة الفقراء والزهاد والنساك وأنفذه إلى مصر ، فقال له : ادع جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا واذكر من مناقبه شيئاً ثم صر بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائته وادعه وابحث معه عن دفين نيته بحثاً شافياً وائتني بما تسمع منه . فعمل الرجل ذلك ودعا جماعة إلى ما أوصاه المأمون . ثم كتب رقعة إلى عبد الله ودفعها إليه وقت ركوبه ، فلما انصرف خرج الحاجب إليه فأدخله عليه وهو قاعد وحده ، فقال له : قد فهمت جملة من كلامك ، فهات ما عندك ! فقال الرجل : ولي أمانك وثقة الله[2] ؟ قال : لك ذلك ، فأظهر له ما أراد ودعاه إلى القاسم ، فقال له عبد الله : أتنصفني أيها الرجل ؟ قال : نعم ، [قال] فهل يجب الشكر لله على العباد ؟ قال : نعم ، قال : فهل يجب الشكر للناس بعضهم لبعض عند الإحسان ؟ قال : نعم ؛ قال : فتجيء إليّ وأنا على هذه الحالة التي ترى ، ولي خاتم بالمشرق وخاتم بالمغرب وفيما بينهما أمري مطاع وقولي مقبول ، ثم إني إذا التفت عن يميني وشمالي فأرى نعمة هذا الرجل لي غامرة قد ملك بها رقبتي فتدعوني إلى الكفر بهذه النعم ، وتقول لي اغتدر ، والله لو دعوتني إلى الجنة عياناً لما نكثت بيعة هذا الرجل ؛ فسكت الرجل . ثم إن عبد الله قال للرجل : والله إني أخاف على نفسك فارحل عن هذا البلد لتسلم .

فلما أيس الرجل من عبد الله بن طاهر وأنه لم يستجب له بشيء مما حدثه عاد الرجل قافلاً إلى بغداد ، فوصل إلى المأمون فأخبره الخبر ، فسر المأمون وقال : ذلك غرس يدي وترب تلقيحي ، فلا تظهرن لأحد من ذلك شيئاً .

وفي هذه السنة وهي سنة إحدى عشرة[3] ومائتين نادى المأمون : برئت الذمة

(١) أي من إخوة المأمون .

(٢) الطبري : ولي أمانك وذمة الله معك .

(٣) بالأصل : إحدى عشر .

ممن ذكر معاوية أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ . وأظهر قوله بخلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب[1] ، وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين وإظهار القول بالعدل والتوحيد وخلق القرآن ـ فقال كل من ذكر في الكتاب بخلق القرآن ، إلا الذي كتب هذا الكتاب محمود فإنه يشهد أن القرآن منزل غير مخلوق ، ونعوذ بالله من إلحاد الملحدين ، ورجعت إلى ما كان ـ قال : فأجاب الناس إلا أربعة نفر منهم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريري ومحمد بن نوح ، فأمر بهم[2]إسحاق بن إبراهيم[2] فشدوا في الحديد ، فأجاب سجادة فأطلقه وكذلك القواريري ، وحمل محمد بن نوح وأحمد بن حنبل إلى طرسوس .

ذكر تزويج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل

قال : وتزوج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وبنى بها في شهر رمضان المعظم سنة عشر[3] ومائتين ، فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة في صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع وتجعل في الإناء كما كانت وتوضع في حجرها ، فقال : هذه نحلتك وسلي حاجتك ! فقالت لها جدتها : كلمي سيدك أمير المؤمنين ! فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي ، فقال : قد فعلت ، ثم سألت الإذن لزبيدة أم جعفر في الحج ، فأذن لها . فلما نظر المأمون إلى بوران وهي جالسة على حصير من ذهب وقد نثرت عليها الدر الكبار ، والدر يلوح على الحصير المذهب ، فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هانىء كأنه رآني حيث يقول :

كأن صغري وكبري من مواقعها حصاة درّ على أرض من الذهبِ

وفي تلك الليلة أوقدت شمعة عنبر وزنها أربعون منّاً في تور من ذهب ، فأنكر المأمون ذلك وقال : هذا إسراف . وأقام المأمون عند الحسن بن سهل تسعة عشر[4] يوماً .

ومات في هذا العام شهريار بن شروين[5] ، فصار في موضعه سابور ابنه ،

---

(١) كان ذلك سنة ٢١٢ كما في الطبري ، وابن الأثير ، وذلك في شهر ربيع الأول منها .

(٢ ـ ٢) عن الطبري ٨/٦ وبالأصل إبراهيم بن إسحاق .

(٣) في الأصل : عشرة .

(٤) بالأصل : « تسع عشرة » خطأ ، وفي ابن الأثير ٤/٢٠٦ سبعة عشر يوماً .

(٥) صاحب جبال طبرستان كما في الطبري وابن الأثير .

فنازعه مازيار بن قارن فأسره وقتله ، وصارت الجبال في يد مازيار .

ذكر خروج إبراهيم بن المهدي على المأمون

قال : لما ورد علي بن موسى إلى المأمون أكرمه وبر به ، وجعل الخلافة له بعد موته[1] ، وكتب له عهداً وثيقاً وأشهد عليه به[2] ، وأعطاه ابنته أم حبيب ، وزوج ابنته أم الفضل من محمد بن [علي بن ـ][3] موسى ـ وسماه الرضى من آل محمد ﷺ ، وضرب السكة باسمه وكتب ذلك إلى الآفاق ، وأسقط لبس السواد ، ولبس الخضرة وأمر بذلك . فلما ورد كتابه إلى بغداد وشق ذلك على العباسيين فخلعوا المأمون وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي بالخلافة ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى ، وقد ذكر ذلك دعبل بن علي الخزاعي في قصيدة له حيث يقول :

نفر ابن شكلة بالعراق وأهلها ... فدنا إليه كل نذل مائق
أنى يكون ولا يكون ولم يكن[4] ... يرث الخلافة[5] فاسق عن فاسق

وذلك في سنة اثنتين ومائتين ، وكان يعرف إبراهيم ابن شكلة وسموه المبارك . فلما سمع المأمون منهم ذلك انتقل من خراسان ومعه علي بن موسى الرضى حتى صار إلى طوس ، فلما صار أقام عند قبر أبيه أياماً ؛ ثم إن علي بن موسى الرضى أكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة[6] ، وذلك في آخر صفر سنة ثلاث ومائتين ، فأمر به المأمون أن يدفن عند قبر أبيه الرشيد ، وصلى عليه المأمون ، وشخص إلى بغداد ؛ فلما وصل ببغداد اختفى إبراهيم بن المهدي ، وانكسفت الشمس انكسافاً ذهب ضوءها ، وغاب أكثر من ثلثيها ، وذلك يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذي الحجة . فكانت أيام إبراهيم بن المهدي كلها سنة واحدة وأحد عشر[7] شهراً ، وانقطعت مادة الفتنة .

وكان بنو العباس جميعهم يختلفون إلى المأمون في الخضرة وكل من يرى عليه

---

(١) وكان ذلك سنة ٢٠١ .

(٢) نسخة كتاب المأمون لعلي بن موسى الرضا في صبح الأعشى ٣١٢/٩ ومآثر الإنافة ٣٢٥/٢ .

(٣) زيادة عن الطبري وابن الأثير .

(٤) عن الطبري ٦٦١/٨ وبالأصل « ولم يكون ولا يكن » .

(٥) في الطبري : لينال ذلك .

(٦) وقيل إنه مات مسموماً (انظر مروج الذهب ٣٣/٤ تاريخ اليعقوبي ٤٥٣/٢) .

(٧) الأصل : إحدى عشر .

السواد يخرق ، فاجتمع بنو هاشم إليه وقالوا : يا أمير المؤمنين ! تركت لباس أهل بيتك ودولتهم ولبست الخضرة ، فقال لهم المأمون : إن علياً رضي الله عنه ولى عبد الله بن العباس البصرة وعبيد الله[1] اليمن ، ومعبداً[2] مكة وقثم البحرين ، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافيناه في ولده بما فعلت ، ولا يكون بعد هذا إلا ما تحبون ، وكتب إليه في ذلك قواد خراسان ، ثم إنه ورد عليه عبد الله بن طاهر بن الحسين وكان يبجله ويكرمه إكراماً عظيماً وأمره أن يسأله حوائجه ، وكان أول من سأله رد السواد ولبسه وأن يعيد دولة الآباء ؛ فلما كان يوم السبت الذي يتلوه جلس المأمون وعليه ثياب خضر ، فلما اجتمع إليه بنو العباس والقواد والكتّاب وكان مجلساً عاماً ، فاجتمع الناس إليه فدعا المأمون بالسواد فلبسه ، ودعا بخلعة سوداء ألبسها ابن طاهر[3] ، ثم دعا بعدهم قواداً فألبسهم أقبية وقلانس سود ، وذلك يوم السبت لسبع بقين من صفر . وكان المأمون لبس الخضرة بعد دخوله بغداد تسعة[4] وعشرين يوماً .
وقيل : كان المأمون لما خرج من خراسان ووصل في عقبة حلوان قال لأحمد بن [أبي -][5] خالد : إني لأجد رائحة العراق وقد ذكرت في هجومنا على أهل بغداد وليس معنا إلا خمسون ألف درهم مع فتنة غلبت على قلوب الناس واستبعدوها فكيف يكون إن هاج هائج ، ثم قال بعد أن أطرق ملياً : اعلم أن الناس على طبقات : ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ؛ أما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا ، وأما المظلوم فليس يتوقع إلا أن ينتصف بنا ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيته يسعه .

ثم إن المأمون لم يزل في طلب إبراهيم بن المهدي حتى أخذه متنقباً مع نسوة فجلس ثم أحضره حتى وقف بين يديه[6] ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال أمير المؤمنين : لا سلام الله عليك استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بالأباطيل وبما ينقطع منه الأعناق . فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين !

---

(١) بالأصل « عبد الله » خطأ .

(٢) بالأصل : « سعيد » .

(٣) في الطبري وابن الأثير : « طاهر » يعني طاهر بن الحسين وكان لا يزال حياً ، وكان ذلك في سنة ٢٠٤ .

(٤) في الطبري ٨/٥٧٥ سبعة وعشرين .

(٥) زيادة عن الطبري .

(٦) وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢١٠ كما في الطبري وابن الأثير ، وفي مروج الذهب سنة ٢٠٧ وفي اليعقوبي في أول سنة ٢٠٨ .

مهلاً مهلاً ، فإن ولي الثأر محكّم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ، ولك من رسول الله ﷺ قرابة وشرف وعدل السياسة ، ومن تناوله الاغترار[1] بما مد له من أسباب العدل[2] والرجاء أمن معاداة الدهر على نفسه وهجمت به الأيام على التلف ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب[3] كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فإن أخذت فأخذت بحقك ، وإن عفوت فبفضلك ، والفضل بك أولى يا أمير المؤمنين ! وأنشأ يقول :

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه ... فجد بحقك أولاً فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن في منّ الكرم فكن هو

قال : فرقرق الدمع يجول في عيني المأمون ثم قال : يا إبراهيم ! القدرة تذهب بالحفيظة والندم توبة وبينهما عفو الله ، وهو أعظم مما يحاول وأكبر مما يؤمل ، ولقد جئت إلى العفو حتى ظننت وخفت أن لا أوجر عليه ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** ﴾[4] . ثم أمر بفك حديده والأخذ من شعره ، وأدخله الحمام وخلع عليه ، وردّ أمواله جميعها إليه ، فأنشأ إبراهيم يقول :

رددت مالي ولم تضنن عليّ به ... وقبل ردك مالي قد حقنت دمي[5]
فإن جحدتك ما أوليت من كرم ... إني أبا للوم أولى منك بالكرم

قال : ثم إنه أنشأ أيضاً[6] :

إن الذي خلق الفضائل كلها ... في صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة ... فتظل تكلؤهم بقلب خاشع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع[7] إليك بشافع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وعويل عانسة كقوس النازع

---

(١) مروج الذهب ٤/٣٥ من تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار .

(٢) الطبري وابن الأثير ومروج الذهب : أسباب الشقاء .

(٣) في المصادر : عفو .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٢٢ .

(٥) في مروج الذهب ٤/٣٧ مع ثلاثة أبيات أخرى والبيت الثاني لم يرد فيه .

(٦) الأبيات في الطبري ٨/٦٠٤ ابن الأثير ٤/٢٠٤ مروج الذهب ٤/٣٥ باختلاف بعض الألفاظ .

(٧) عن المصادر ، وبالأصل « لم أشفع » .

وفي رواية أخرى : إنهما لما تخاطبا قال المأمون : إن هذين أشارا عليَّ بقتلك وأومأ إلى الحسن بن سهل وابنه العباس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إنهما أشارا عليك بما يشار على مثلك في مثلي ، لكنّك دفعت ما خفت بما رجوت ، وكفاك الله مؤنة الكلف . فقال المأمون : مات والله الحقد عند حسن الاعتذار ، وإن من الكلام لما هو أحسن من الدر ، وهذا منه اعتذار من ذنبك يا عم ! فقال : يا أمير المؤمنين ! إن ذنبي عظيم وهو أعظم من أن أتفوه به في عذر ، وعفو أمير المؤمنين أجل من أن أقابله بشكر ؛ فقال المأمون : عد يا عم إلى رتبتك والانبساط وكثرة النشاط ، فقال : على شريطة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : شريطة ممطاة ، وحكومة مستجلاة ، فقال إبراهيم : إذاً قد أكملت المنة ، وتممت العارفة ، وهممت الموهبة ، فأريد أن تكون لي أمير المؤمنين بظهر كما قيل :

فما عز أن واش وشى بي عندكم ... فلا ترهبنه أن يقال له مهلا
كما إنه لو قد وشى بي عندكم ... لقلنا تزحزح لا قرباً ولا سهلا

فقال المأمون : فأزيد عليه وأقول :

وساعي إن أتى بعيب عزه نسوة ... جعل الإله خدودهن نعالا

وأزيد عليه فأقول :

ما حطك الواشون من رتبة ... عندي وما ضرك مغتاب
كأنهم أثنوا ولم يعلوا عليك ... وعندي بالذي عابوا

قال : وكان بعد ذلك إذا دخل عليه وهو نشوان أو على شرب يقول له : أنت الخليفة الأسود ، فقال له يوماً : ما أنت الخليفة الأسود ؟ فقال : أنا الذي منَّ عليه أمير المؤمنين بالعفو عند المقدرة ، ولكني كما قال عبد بني الحسحاس[1] :

أشعار عبد بني الحسحاس حين أتي ... عند الفخار مقام العين والورق
إن كنت عبداً فنفسي حرة كرماً ... أو أسود الخلق إني أبيض الخُلق

فقال المأمون : يا عم ! أخرجك الهزل إلى الجد ، لكنك كما قيل في المعنى :

---

(١) بالأصل : « عبيد بن الحساس » خطأ .

ليس يزري السواد بالرجل ولا بالفتى الأديب الأريب[1]
إن يك للسواد منك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبي

قال : فما عاوده المأمون بالتقريع بعدها .

وقيل : إنما وقعت الفتنة ببغداد لأن المأمون ولى الحسن بن سهل أمور العراق ، فقصر في أمور الخاصة والعامة ، فوقعت الفتنة والقتال ونقموا عليه أشياء ، ولهذا بايعوا إبراهيم بن المهدي ، فشخص المأمون عند ذلك من خراسان ، ثم إن الحسن بن سهل غلب عليه السوداء وتغير عليه عقله ، فشد بالحديد وحبس في بيت[2] . وكان المأمون ولى الحسن بن سهل كل ما افتتحه طاهر بن الحسين من كورة الجبال والفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز ، فقيل للمأمون : إن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعتك ما أبلى ، وافتتح ما افتتح من البلاد ، وقاد إليك الخلافة مزمومة ، فلما وطّأ لك الأمر أخرجته من البيت وصيرته بالرقة في زاوية ، حتى ضعف أمره ، وإنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترىء عليه من اجترأ على الحسن بن سهل . وقيل : إن هذه الكلمات قالها هرثمة في حق الحسن بن سهل ، فدس إليه من قتله[3] . ثم إن المأمون ارتحل من مرو ، فلما أتى سرخس شد قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام ، فقتلوه بالسيوف حتى مات ، وذلك يوم الجمعة سنة اثنتين ومائتين وله ستون سنة ، قتله أربعة أنفس[4] .

ذكر بلاد الشاري وخروجه على المأمون

قال : ولما مضت من خلافة المأمون بضعة عشر سنة خرج عليه رجل من الشراة يقال له بلال[5] بأرض الجزيرة بناحية التحديد من برية سنجار[6] . قال : والتأم

---

(١) كذا والوزن غير مستقيم .

(٢) قيل في السبب حزنه الشديد على أخيه الفضل وكان قد قتل سنة ٢٠٢ ، وأن مرضه كان سنة ٢٠٣ (كما في الطبري وابن الأثير) وقيل إن سببها مرض شديد أصابه فهاج به من مرضه تغير عقله فاحتبس في بيته ليتطبب فاستوزر المأمون مكانه أحمد بن أبي خالد (الفخري ص ٢٢٣ وفيات الأعيان ٢/١٢٣) .

(٣) في الطبري وابن الأثير : قتله الفضل بن سهل .

(٤) وهم غالب المسعودي الأسود ، وقسطنطين الرومي ، وفرج الديلمي ، وموفق الصقلبي (ابن الأثير ٤/١٧٥) وانظر تاريخ اليعقوبي ٢/٤٥١ .

(٥) هو بلال الضبابي الشاري خرج سنة ٢١٤ على المأمون كما في الطبري ٨/٦٢٢ .

(٦) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة .

إليه الناس فصار في جمع كثيف ، وجعل المأمون يوجه العساكر عسكراً بعد عسكر ، فكان كلما أتاه عسكر واقعه فهزمه ، فلما رأى المأمون ذلك خرج إليه بنفسه حتى نزل بقرية يقال لها العُلث وهي بضع عشر فرسخاً من بغداد ؛ ثم إنه وجه القواد والشاكردية في طلب بلال الشاري . قال : وعلم بلال بذاك فتنحى بين يدي تلك العساكر حتى دخل إلى بعض البراري حتى خفي أمره ، وطلب فلم يوجد . قال : ودخل شهر رمضان فرجع المأمون إلى بغداد في جميع عسكره . قال : وعلم بلال بذلك وأن المأمون رجع إلى بغداد فجعل يجمع الجموع حتى صار في جمع عظيم . قال : وبلغ ذلك المأمون ، فدعا بابنه العباس وابنه هارون وضم إليهما جيشاً عظيماً وأمرهما بالمسير إلى بلال الشاري ، فأقبل العباس وهارون[1] ابنا المأمون حتى صارا إلى الموصل ، ثم رحلا من مدينة الموصل إلى مدينة يقال لها بلد ، فنزلاها وأعطيا الناس الأرزاق . ثم إنهما رحلا من بلد إلى أن دخلا برية سنجار ، والتقى القوم للقتال بقرية يقال لها تل أعفر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فوقعت الهزيمة على أصحاب المأمون فانهزموا إلى أن صاروا إلى مدينة بلد . وبلغ ذلك المأمون فدعا بعجيف بن عنبسة وعليّ بن هاشم[2] ، فضم إليهما عشرة آلاف رجل ، ووجه بهما مؤنة لابنيه العباس وهارون . قال : فاجتمعت العساكر ببلد ، ثم ساروا نحو بلال الشاري . والتقى القوم في برية سنجار فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ووقعت الهزيمة على الشاري . وقتل من عسكره نيف عن ثلاثة آلاف فارس ، وانهزم الباقون مشردين في البلاد ، واحتوى أصحاب المأمون على دوابهم وأسلحتهم . ثم حمل رأس بلال الشاري ورؤوس أصحابه إلى المأمون .

ذكر خروج المأمون إلى بلاد الروم

قال : لما قتل بلال الشاري عزم المأمون على غزو بلاد الروم[3] ، ثم إنه دعا بإسحاق بن إبراهيم بن مصعب فاستخلفه على بغداد وعزم على الغزو . وقال مسرور الكبير : فإني لواقف بين يدي المأمون في وقت خروجه إلى بلاد الروم ، وفي يدي درع ، يريد المأمون أن يلبسه إذ خرجت عليه جارية يقال لها عرب[4] وكانت تهواه

(١) في الطبري : هارون بن محمد بن أبي خالد .

(٢) في الطبري : علي بن هشام .

(٣) وكان ذلك في سنة ٢١٥ هـ .

(٤) كذا ، بدون نقط ، ولم نعثر به .

ويهواها ، فقالت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الخروج إلى بلاد الروم ، فقالت : قتلتني والله يا أمير المؤمنين ! ثم أدرت دموعها على خديها ، وأنشأت تقول :

سأدعوك[1] دعوة المضطر ربّاً ... يثيب على الدعاء ويستجيب
لعل الله أن يكفيك حرباً ... ويجمعنا كما تهوى القلوب

قال : فضمها المأمون إلى صدره وأنشأ يقول :

فيا حسنها إذ يغسل الدمع كحلها ... وإذ هي تذري الدمع عنها الأناملُ
عشية قالت : يا حبيبي قتلتني ... وقتلي بما قالت هناك تحاول

ثم قال : يا مسرور ! احفظها وتعهدها إلى حين رجوعي ، فلولا قول الأخطل حيث يقول :

[قوم -][2] إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهارِ

فلولا هذا البيت لأقمت . ثم خرج المأمون من بغداد في عسكر لجب حتى صار إلى الموصل فنزلها حتى تلاحق به الناس . ثم خرج المأمون من الموصل سائراً إلى بلاد الجزيرة حتى صار إلى الرقة إلى قصر أبيه الرشيد . ثم دعا بابنه العباس فضم إليه جيشاً وأمره أن يدخل إلى بلاد الروم من ناحية طرسوس[3] ، قال : ومضى المأمون حتى دخل بلاد الروم من درب يسمى درب الحرب ، فكان أول ما فتح الله على يديه من بلاد الروم مطمورة ويقال لها مأجدة فأعطاهم الأمان ، ثم نقلهم عنها إلى طرسوس . ثم سار حتى نزل على قرية يقال لها قرة فحاربه أهلها حرباً شديداً ، ثم إنهم سألوه الأمان بعد ذلك على أنهم يدفعون إليه نفراً من أسارى المسلمين قد كانوا عندهم محبسين . قال : ثم رحل المأمون عنهم حتى نزل على أخرى يقال لها أرله[4] ، فلما قاربها أتاه الخبر أن أهل قرة قد غدروا ، فسار إليهم المأمون حتى نزل عليهم ، ثم أمر بالمنجنيق فنصب على حصنهم من كل ناحية ، وحاربهم حرباً شديداً

---

(١) عن البداية والنهاية ١٠/٣٠٦ وبالأصل سارعوا .
(٢) زيادة عن البداية والنهاية .
(٣) في الطبري ٨/٦٢٣ وابن الأثير ٤/٢١٩ : من ملطية . ومن طرسوس كان دخول المأمون إلى بلاد الروم .
(٤) كذا ، ولم نعثر به .

حتى قتل منهم جماعة وهدم ناحية من حصنهم بحجارة المجانيق . قال : فعندها صاح القوم وطلبوا الأمان ، فأمنهم ورفع عنهم السيف ، ثم دعا ببطريق يقال له باطليش فأعطاه ألف دينار ، وأمرهم أن يرموا حصنهم لما كانت المجانيق قد أثرت فيه . قال : ثم أقبل المأمون حتى نزل على المطمورة التي يقال لها معلويه[1] ، فلما نزل عليها وهمّ بحربهم خرجوا إليه فطلبوا الأمان ، فأعطاهم ذلك وكساهم وأحسن إليهم وردهم إلى حصنهم . قال : ثم دعا المأمون مولى له يقال له عجيف بن عنبسة فضم إليه جيشاً ووجّه به إلى عزالينوس صاحب حصن سنان[2] . قال : فأقبل عجيف ومعه قائد من قواد المأمون يقال له جعفر بن دينار[3] ، حتى نزلا على حصن سنان . قال : ونظر عزالينوس إلى الخيل قد أحدقت بالحصن فخرج إلى عجيف بالأمان وأعلمه بأنه سامع مطيع . قال : فبعث عجيف إلى المأمون بذلك ، فبعث المأمون يأمر عجيفاً بالانصراف عنهم ، فانصرف عجيف من حصن سنان .

قال : وجاء الشتاء فرحل المأمون عن بلاد الروم حتى صار إلى دمشق فنزلها . قال : فأرسل توفيل بن ميخائيل ملك الروم رسلاً فقدموا على المأمون وهو يومئذ بدمشق ، فدفعوا إليه كتاب صاحبهم [توفيل بن] ميخائيل ، فنظر المأمون فإذا عنوان الكتاب : من توفيل بن ميخائيل إلى عبد الله بن هارون . قال : فغضب المأمون ورمى الكتاب من يده ، ثم أقبل على الرسول فقال : خبروني ما الذي حمل صاحبكم على أن يكتب إليّ وبدأ باسمه قبل اسمي ؟ قالوا : لا نعلم إنما نحن رسل وما علينا إلا البلاغ المبين ، فقال المأمون : صدقتم وليس أكلفكم ما لا طاقة لكم به ، لكن قد علمتم أني أسن منه بل بعض ولدي أسن منه ؟ فقالوا : قد علمنا ذلك ولا شك فيه . فقال المأمون : كان يجب عليه أننا لو كنا متساويين في الدين أن يقدمني على نفسه ؛ والأخرى أني خليفة ، وأبي الرشيد وجدي المهدي خليفة ، وخال أبي أبو المنصور خليفة ، وأنا ابن الخلائف ، لا يدفعني عن ذلك دافع ؛ وأخرى فيعلم أني قدمت من حرب محمد ابن زبيدة ؛ وأخرى فقد علم صاحبكم أني نازل بمدينة دمشق وهي دار بني أمية وقصبة مملكتهم ، فهم الذين غصبونا حقنا وبعد هذا عزالينوس صاحب حصن سنان مخالف لصاحبكم ، فليس يقدر واحد منهما على ضر ولا نفع مع كثرة

---

(١) كذا ، ولم نعثر به .

(٢) في ابن الأثير : سناذ .

(٣) في الطبري وابن الأثير : جعفر الخياط .

من معه من الخيل والجنود ، فكيف يكتب إليَّ بكتاب يبدأ فيه باسمه قبل اسمي ؟ قال : فقال الرسل : إن أعطيتنا الأمان تكلمنا ! فقال : لكم الأمان ، فقالوا : من قعد على سرير الملك فقد ساوى غيره من الملوك كائناً من كان ؛ فغضب المأمون وقال : لولا ما أعطيتكم الأمان لما رجع إلى صاحبكم منكم أحد ، ولكن ارجعوا بغير جواب وإن كان ملكاً يساوي غيره كما تقولون . فرجعت الرسل إلى توفيل فخبروه بما كان من كلام المأمون .

قال : وجمع المأمون عساكره وسار يريد بلاد الروم ، فأقبل من ناحية طرسوس من درب يقال له درب السلام . ونزل على حصن يقال له أرطيعوا[1] ، فلما همّ بمحاربة أهله فلم يحاربوه وطلبوا منه الأمان ، فأحسن إليهم وردهم لحصنهم . ثم سار إلى أن نزل بحصن يقال له الأخرب فافتتحه صلحاً .

ثم إنه سار حتى نزل على هرقلة في جميع أصحابه فحاربهم أياماً كثيرة لا يفتر من حربهم . فسألوه الأمان فأعطاهم ، وإذا رسل توفيل أتوا إلى المأمون بهرقلة يطلبون الصلح ، فزبرهم المأمون وقال : لا أرى منه شيئاً دون أن يسلم إليَّ جميع بلاد الروم . قال : فرجعت الرسل إلى توفيل فخبّروه بما قال المأمون . ولم يزل المأمون حتى فتح[2] أخوه أبو إسحاق[2] اثنين وثلاثين حصناً من حصون الروم . ثم سار بنفسه حتى نزل على حصن يقال له صمله[3] فقاتل أهله حتى فتحه عنوة وسبى من كان فيه من النساء والذرية .

قال : فبينما المأمون كذلك إذ ورد عليه كتاب من الأفشين وكان عامله ببرقة يخبره أنه قد خرج بمصر رجل يقال له عبدوس الفهري . وقد التأم إليه خلق كثير . قال : فرحل المأمون من بلاد الروم بعساكره يريد بلاد مصر ، حتى نزل في موضع يقال له العريش ودعا بأخيه أبي إسحاق فضم إليه جيشاً كثيفاً وأمره أن يطلب عبدوساً الفهري . فانحاز عبدوس هو وأصحابه إلى ناحية من أرض مصر . قال : وأحدقت به الخيل من كل جانب واشتعلت النار حواليه ، فلما نظر إلى ذلك خرج هارباً هو وأصحابه ، فأخذ أسيراً ومعه أصحابه ، فضرب المأمون عنقه وعنق أصحابه ،

---

(١) كذا بالأصل ، وفي الطبري ٦٢٥/٨ وابن الأثير ٢٢٠/٤ « انطيغوا » .

(٢) وبالأصل « ولديه العباس وأبي إسحاق » وما أثبت يوافق سياق عبارة الطبري ٦٢٥/٩ .

(٣) كذا ولم نعثر به .

وانصرف راجعاً حتى وصل مدينة دمشق ، فأقام بها أيام الشتوة ، ورحل بعساكره حتى نزل بلاد لؤلؤة فحارب أهلها . قال : وإذا كتاب توفيل بن ميخائيل يسأل المأمون أن يكف عن أهل لؤلؤة على أنه يطلق له كل أسير في يديه من المسلمين[1] . فأبى ذلك وصعب عليه أمر لؤلؤة ، فحصن حولها ، ووكّل بها قوماً من أصحابه ، وأمرهم بالمحاربة ، ورحل عنها المأمون . فأقبل المأمون إلى بلاد الروم ، وبلغ ذلك توفيل فرحل قبل أن يوافيه المأمون إلى بلاده ، ونزل المأمون على لؤلؤة وحاصرهم حصاراً شديداً إلى أن أخرجوا إليه بالأمان وسلموه لؤلؤة ، فأخذ من الأموال والثياب والدواب والرقيق ما أراد . ثم رحل في عساكره إلى أن صار إلى الرقة ، فخرج توفيل في ثمانين ألفاً فجعل يغير على أطراف بلاد المسلمين ، فجعل يقتل الرجال ويذبح الأطفال إلى أن قتل خلقاً كثيراً من المسلمين . قال : فأنشد عبد الرحمن في ذلك :

أبلغ لديك سفيه الروم توفيلا ... قولاً سيلقى له إن عاش تنكيلا
أهلكت نسوان أهل العز قاطبة ... والنسل أهلكت تحريفاً وتفصيلا

قال : وبلغ المأمون ما قد فعل كلب الروم توفيل بالمسلمين ، فاشتد غضبه وجمع عساكره وسار إلى أن نزل في موضع يقال له البذندون[2] فمرض هناك ، فأمر أن يكتب إلى العمال . فقال [الكاتب : قال لي -] أخوه أبو إسحاق : ألحق في الكتب « من عبد الله المأمون أمير المؤمنين وأخيه أبي إسحاق الخليفة » ، فقلت[3] : إنك لتعرضني لسفك دمي ، فقال : أحب منك ذلك . فرافقته يومي ذلك وسألت عنه الأطباء فقالوا : إنه لميت ، فشاورته في ذلك ، فنظر إليَّ نظرة كاد أن يبلعني وقال : اكتبوا ما شئتم ، فكتبت ما أراد أبو إسحاق . فلما اشتد مرض المأمون صار يرفع طرفه إلى السماء ويقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من يزول ملكه ! يا من لا يموت ارحم من يموت ! فتقدمت إليه جارية وجلست عند رأسه وأنشأت تقول :

يا ملكاً لست بناسيه ... يا ليتني بالنفس أفديه

---

(١) انظر كتاب توفيل إلى المأمون في الطبري ٦٢٩/٨ ورد المأمون عليه .

(٢) في الطبري « البذندون » قرية بينها وبين طرسوس يوم من بلاد الثغر . وفي مروج الذهب : بديدون على عين القشيرة ، وهي عين يخرج منها النهر المعروف بالبديدون . وهي بدنس كما جاء في بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٣ للوستيرينج .

(٣) القائل هو الكاتب .

ثم بكت واشتد بكاءها ، فأجابها المأمون يقول :

باكيتي من جزع أقصري   قد علق الرهن بما فيه

فلما كان في ليلة الأحد استمسك لسانه وتوفي رحمه الله . وكان قد أكل الرطب وشرب بعده الماء فمات . واعتل أخوه أبو إسحاق إلى أن عاد إلى بغداد .

وقيل : إن المأمون قال لبعض الخدم : من يغني ؟ قبل مرضه في بلاد الروم ، فقال : يا مولاي ما يغني أحد ، فقال : ويلك إنه ليغني بشيء حفظته ، وهو هذا :

ألم تعجب لمنزلة ودور   حلت بين المسفر والحرور
كأن بقية الآثار فيه   بقايا الخط بالقلم الزبور

ومات من علته في اليوم الثالث ، وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ثماني عشرة ومائتين ، وهو يومئذ ابن ثمان وأربعين سنة . وكان مولده سنة سبعين ومائة في شهر ربيع الأول[1] ، وكان ربعاً[2] جميلاً ، طويل اللحية رقيقها قد وخطه الشيب ، أقنى أعين[3] ، بخده خال أسود . وكانت خلافته عشرين سنة وستة أشهر وسبعة عشر يوماً . وقد وصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات :

الموت أخرجني من دار مملكتي   فالقبر مضطجعي من بعد تتريفِ
لله عبد رأى قبري فأعبره   وخاف من بعده ريب التصاريف
هذا مصير بني الدنيا وإن جمعوا   فيها وغرهم طول التساويف
أستغفر الله من جرمي ومن زللي   وأسأل الله نوراً يوم توقيفي

ذكر سيرة المأمون وما جمع فيه من مكارم الأخلاق

قال : وكان المأمون فصيحاً أديباً شاعراً حكيماً كريماً ، وإنه قال لعلي بن صالح : أريد رجلاً من أهل الشام يجالسني ، فالتمست ذلك فأدخلته إلى المأمون ، فلما سلم استدناه وكان في مجلس الشرب . فقال : إني أردتك لمجالستي ، فقال

---

(١) انظر في يوم موته ومدة ولايته ومقدار عمره : الطبري ٨/٦٥٠ ابن الأثير ٤/٢٢٧ اليعقوبي ٢/٤٦٩ التنبيه والأشراف ص ٣٥١ المعارف ص ٣٩١ العقد الفريد ٥/١١٩ نهاية الأرب ٢٢/٢٣٧ مروج الذهب ٤/٣ .

(٢) يقال : فلان ربعة ومربوع ، أي ما بين الطويل والقصير .

(٣) الطبري ٨/٦٥١ « أحنى أعين » .

الشامي : إن الجليس يا أمير المؤمنين إذا كانت ثيابه دون ثياب جليسه يلحقه لذلك غضاضة ؛ قال : فأمر المأمون أن يخلع عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إذا كان قلبي متعلقاً بعيالي فما تكون محادثتي ! فأمر له بخمسين ألف درهم تحمل إلى منزله ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ! وثالثة ، فقال : وما هي ؟ فقال : دعوت إلى شيء يحول بين المرء وعقله ، فإن كانت مني هفوة يغفرها أمير المؤمنين ؛ قال : لك ذلك . وكانت الثالثة منه تمام الكرم .

ومن حلمه أنه لما عفا عن عمه إبراهيم عجّزه القوم من أهله وأكثرهم لاموه ، فقال :

لما رأيت الذنوب جلّت ... عن المكافاة بالعقابِ
صيرت فيها العقاب عفواً ... أحرى من الضرب للرقاب
أرجو بذاك الصلاح جهدي ... وعفو ذي الأنعم الرغاب

ومن فصاحته في الشعر أنه نظر يوماً إلى غلام حسن الوجه في الموكب فقال : ما اسمك يا غلام ؟ فقال : لا أدري ، فقال : أو يكن أحد لا يعرف اسمه ؟ قال :

فاسمي الذي أعرف به لا أدري ... بما يصنع الحب المبرح في صدري
لئن كان بي أمر ونهي عن الورى ... فإني طوع الحب والنهي والأمر
ولست أبالي الشمس والبدر إنني ... أرى كل حسن ليس للشمس والبدر

ومن عدله في حكمه أنه جلس يوماً للمظالم ، فأتت امرأة فقالت[1] :

يا خير منتصف يهدى له الرشد[2] ... ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد الناس أرملة ... عدي عليها فما يقوى بها الأسد
وابتزَّ مني ضياعي بعد منعتها ... لما تفرق عني الأهل والولد

قال : فأجابها عن ذلك :

في مثل ذلك عيل الصبر والجلد[3] ... وأقرح القلب هذا الحزن والكمد

---

(١) الأبيات في نهاية الأرب ٦/٢٧٦ والعقد الفريد ١/٢٨ باختلاف بعض الألفاظ .

(٢) عن العقد الفريد ١/٢٨ وبالأصل « إلى الرشد » .

(٣) في نهاية الأرب :

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد

هـذا أوان صـلاة العصـر فـانصـرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
فالمجلس[1] السبت إن يقض[1] الجلوس لنا أنصفـك فيـه وإلا المجلس الأحـد

فحضرت يوم الأحد ، فقال المأمون : من خصمك ؟ قالت : العباس ابن أمير المؤمنين ؛ فقال[2] أمير المؤمنين ليحيى بن أكثم : أجلسها معه ، فجعل كلامها يعلو على كلامه . فقال بعضهم : أتصيحين على ابن أمير المؤمنين ؟ فقال أمير المؤمنين : أمسك فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه ، وأمر بردّ ضياعها وحملها إلى بلدها ، وأعطاها عشرين ألف درهم . وقيل : إن العباس بن المأمون كان مولعاً بشراء الضياع ، والمعتصم مولعاً بجمع الرجال وشراء الغلمان ، فكان المأمون إذا راهما يتمثل بهذين البيتين :

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرى وبين رجال
قلق بكثرة ماله وجناده حتى يفرقها على الأبطال

قال الحسن بن سعيد : أخبرني محمد بن حماد قال : كان المعتصم مع أخيه المأمون بالثغر ، فلما توفي المأمون أراد الناس أن يبايعوا ابنه العباس فأبى ذلك وقال : ما هذا الحب البارد ! قد بايعت وسلمت الخلافة إليه ، فسكن الجند . وخرج المعتصم نحو بغداد مسرعاً خوفاً على نفسه من قواد المأمون ، وكانوا قد هموا به لأنهم اتهموه بقتله . قال : فصار المعتصم إلى بغداد في مستهل شهر رمضان سنة ثماني عشرة ومائتين ، فصلى على أخيه المأمون ، وحمل هو وابنه العباس المأمون فدفناه في دار الخاقان خادم الرشيد[3] . وصار الأمر إلى أخيه المعتصم بالله .

[خلافة المعتصم بالله][4]

قال : فلما صار الأمر إليه وجه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب إلى حرب الخرمية ، وعقد له على الجبال ، فحاربهم فقتل منهم ستين ألفاً من الرجال ، وهرب الباقون إلى الروم . وكان قد قتل منهم في مدة محاربتهم له نحو مائة ألف مقاتل سوى

(١ ـ ١) بالأصل : « البت أن يقضى » وما أثبت عن العقد الفريد .
(٢) في العقد الفريد : فقال : يا أحمد بن أبي خالد : خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم .
(٣) وذلك في مدينة طرسوس .
(٤) عنوان استدرك عن هامش الأصل .

النساء والصبيان ـ والله أعلم ـ .

ذكر تولية الأفشين ومحاربته بابك الخرمي ، وتوليته إرمينية وأذربيجان

قال: فلما استوثق الأمر لأبي إسحاق المعتصم بعث عماله إلى جميع البلاد، ثم ولى الأفشين إرمينية وأذربيجان ، وأمره أن يحارب بابك الخرمي ، فأقبل الأفشين حتى نزل بموضع قد كان بمدينة يقال لها برزند ، ثم إنه بناها وجعلها على مفرق هذا الطريق ، وهي أربعة طرق ما بين البذ وموقان وأردبيل وورثان ونزلها ، واجتمع إليه العساكر فعزم على محاربة بابك الخرمي . قال : وكانت أول وقعة الأفشين مع بابك بموضع يقال له أرشق على سبعة فراسخ من مدينة أردبيل ، فانهزم بابك من بين يديه حتى دخل البذ ، ووجه الأفشين برجل يقال له محمد بن سليمان السمرقندي إلى مدينة برذعة فولاه إياها ، وأقام الأفشين على محاربة بابك ، وكان يحاربه حرباً دائماً ، فكتب إليه المعتصم أن اثبت على حربه ، ولا تعجل إلى أن يرد عليك كتابي . قال : فكان الأفشين يحارب بابك على الدوام ، فأقام المعتصم ببغداد سنتين . ثم خرج سنة عشرين ومائتين ، فنزل بموضع يقال له القاطول[1] وأمر ببناء مدينة سامراء[2] ، حتى إذا فرغ من بنائها انتقل إليها فنزلها .

قال : والأفشين في خلال ذلك قد اشتغل بمحاربة بابك وقد ألحّ عليه بالحرب حتى أخرجه في بلد البذ واحتوى على بلاده ؛ فلما رأى بابك أنه لا طاقة له به خرج من بلده هارباً في عشرين رجلاً حتى صار إلى بلد يقال لها كذج[3] متنكراً كي لا يعرف ؛ قال : فنظر أهل الكذج[3] إلى بابك فلم يعرفوه ، غير أنهم ناوشوه ليأخذوا ما معه من الأثقال . قال : فحمل عليهم بابك فجعل يقاتلهم . قال : فاتصل الخبر بصاحب المدينة واسمه سهل بن سنباط ، فأقبل في جماعة من أصحابه ، فلما نظر إلى بابك عرفه فجعل يخادعه ويظهر إليه بره ولطفه ، حتى آنس إليه بابك فجاء به سهل بن سنباط إلى قلعته ، ثم دعاه بالشراب فأكل وشرب ، فلما سكر دعا له

(١) عن الطبري ، وبالأصل « القاطون » .
(٢) عن معجم البلدان ، وبالأصل « سوس » .
(٣) عن معجم البلدان ، وبالأصل « الداح » والكذج اسم حصن وناحية بأذربيجان من منازل بابك الخرمي .

سهل بن سنباط بقيد فقيده وشد يمينه إلى عنقه ثم ضمه إلى جماعة من أصحابه وبعث به إلى الأفشين ، فلما نظر الأفشين إلى بابك فرح لذلك فرحاً شديداً ، ثم بعث إلى سهل بن سنباط بهدايا قيمتها ألف ألف درهم . قال : وبلغ المعتصم ما فعله سهل بن سنباط ببابك فأرسل إليه بتاج من ذهب مرصع بالدر والجوهر ، فقوم ذلك فكان قيمته خمسمائة ألف درهم ، ثم إنه بطرقه على جميع بطارقته . قال : وحمل الأفشين ببابك إلى المعتصم فأمر به فضرب عنقه ، وصلب بسر من رأى ، وصلب أخوه ببغداد . وكان ظهور بابك سنة إحدى ومائتين .

وفي رواية أخرى : إن المعتصم عقد للأفشين على الجبال وحرب بابك وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة فعسكر بمصلى بغداد . ووجه المعتصم أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل وأمره أن يبني الحصون التي أخربها بابك بين زنجان وأردبيل . فبعث بابك سرية فهزمها محمد بن يوسف ، فكانت أول هزيمة على أصحاب بابك . ولما صار الأفشين إلى برزند عسكر بها يُؤم الحصون . وأنزل محمد بن يوسف بخُش[1] وحفر فيه خندقاً . وحمل المعتصم مع بغا الكبير مالاً إلى الأفشين ، فأراد بابك أن يكبسه فيأخذه ، فوقعت محاربة عظيمة بين الأفشين وبابك ، وانصرف بابك مخذولاً وأراد أن يطول الأمر على أفشين ولا يحاربه حتى تثلج تلك الجبال فيضطرب الأفشين إلى الهرب من شدة البرد . فقال بعض من في عسكر الأفشين : إني رأيت في المنام أن رسول الله ﷺ يقول : إن أنت حاربت هذا الرجل وجددت في أمره وإلا أمرت الجبال أن ترميك بالحجارة ؛ فتحدث الناس في العسكر علانية ، فدعا الأفشين بهذا الرجل الذي ذكر أن رسول الله ﷺ أتاه في المنام وقال له : الله يعلم نيتي للناس قبل هذا وما أريد بهذا الخلق ، ولو أراد الله تعالى برجم الجبال لأحد لرجم الكفار وكفانا مؤنتهم . فقال رجل من الحاضرين : أيها الأمير ! لا تحرمنا الشهادة إن كانت حضرت ، فإنما قصدنا ثواب الله تعالى ، دعنا وحدنا حتى نتقدم بإذنك ، فلعل الله عز وجل أن يفتح على أيدينا ؛ فقال الأفشين : اعزموا على بركة الله وعونه أيّ يوم أردتم ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فعبى الأفشين الجيوش ، وأحدقت بالتل الذي عليه آذين[2] صاحب جيش بابك ، وجعل على كل ناحية واحداً من أصحاب الجيوش مثل أبي سعيد وجعفر الخياط

(١) خش بضم أوله وتشديد ثانيه ، من قرى اسفرايين من أعمال نيسابور .

(٢) عن الطبري ٤٢/٩ وبالأصل أرزين .

وأحمد بن الخليل . فتقدم أبو سعيد في جماعة وحمل الناس حملة واحدة وكان آذين[1] قد هيأ فوق الجبل عجلاً عليها صخر ، فلما حمل الناس عليهم دفع العجل على الناس ، فأفرج الناس له لما رأوا العجل قد خرج [من] الصخر .

فلما رأى بابك الناس قد أحدقوا به من كل جانب ولم تنفعه حيلته من العجل راسل الأفشين من حيث أن سمع كلامه أن يأخذ له أماناً من أمير المؤمنين ، فوعده الأفشين بذلك ، وطلب الرهائن على صدقه . والأفشين على ذلك إذ أقبلت البشارة أن أعلام المسلمين[2] قد دخلت البذ وصعدت قصور بابك ، وكان قد كمن في قصور بابك ستمائة رجل ، وهي أربعة قصور ، ففتح الكمناء أبواب القصور وخرجوا رجالة يقاتلون الناس ، ومرّ بابك خارجاً على وجهه حتى دخل الوادي[3] ؛ وأمر الأفشين النفاطين وأصحابه أن يضربوا البلد وتلك القصور بالنار ، فأحرقت كلها وهدمها وجعلها قاعاً صفصفاً ، وقتل أصحاب بابك الذين في القصور والبذ عن آخرهم ، وسبى أولاد بابك وأهله ، وهرب بابك إلى ناحية إرمينية ؛ فكتب الأفشين إلى ملوكها وبطارقتها وأمرهم أن يحفظ كل واحد ناحيته[4] ولا يسلكها أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه ، فجاء الجواسيس إلى الأفشين فأخبروه بموضعه في الوادي وكان وادياً كبيراً فيه العشب والشجر ، طرفه بإرمينية وطرفه الآخر بأذربيجان ولم يمكن الخيل أن تنزل فيه ، فاستخفى فيه لكثرة الشجر ومياهه وجعل الأفشين على كل طريق خيلاً من أربعمائة إلى خمسمائة . فورد كتاب المعتصم مختوماً بالذهب فيه أمان لبابك[5] . فدعا الأفشين رجلاً يحمل إليه ذلك ، فلم يجسر أحد أن ينزل به من أولاده ولا من أصحابه ، فقام رجلان منهم فقالا : اضمن لنا أنك تجري على عيالنا رزقاً ، فضمن لهما ذلك ، وأخذا الكتاب وتوجها به ، وكتب معهما ابن بابك الكبير كتاباً يعلمه الخبر ويسأله أن يصير إلى الأمان فهو أسلم له . فلما قرأ بابك كتاب ابنه ضرب عنق من حمله ، وعلق كتاب الأمان على صدره ولم يفضه ؛ وقال للآخر : اذهب إلى ابني

---

(١) انظر الحاشية السابقة .

(٢) في الطبري : أعلام الفراغنة .

(٣) الذي يلي « هشتادستر » ، ومما ساعده على الهرب انشغال الافشين وجميع قواده بالحرب على أبواب القصور .

(٤) عن الطبري ٩/٤٥ وبالأصل : أن يحفظوا كل واحد ناحية .

(٥) انظر الطبري ٩/٤٦ .

وقل له : لئن عشت يوماً واحداً وأنت ملك كان أصلح من أن تعيش أربعين سنة عبداً .

ولم يزل بابك في تلك الغيضة حتى فني زاده[1] . وكان أصحاب مسالح الأفشين كلهم يحفظون الأرض ، فأصاب بابك الجوع فأشرف ، فإذا هو بحراث على فدّان له في بعض الأودية ، فقال لغلامه : انزل إلى هذا الحراث وخذ معك دنانير ، فإن كان معه خبز فخذه وأعطه ! وكان للحراث شريك ، فنظر إلى الرجل من بعيد فأخذ خبز شريكه ، فظن أنه يأخذه غصباً ، فعدا إلى المسلحة وأعلمهم أن رجلاً جاءهم وعليه سيف وسلاح ، فركب صاحب المسلحة وكان في جبال ابن سنباط ، [ووجه إلى سهل بن سنباط بالخبر ، فركب ابن سنباط ـ][2] وجماعة معه حتى صار إلى بابك ، فنزل ابن سنباط فقبل الأرض بين يديه وقال : يا سيدي ! إلى أين تريد ؟ قال : بلاد الروم ، فقال : لا تجد أحداً أعرف مني بحقك وليس بيني[3] وبينك لسلطان عمل ، ولا يدخل عليَّ أحد وأنت عارف بقصتي[4] ، فكن عندي في حصني هذه الشتوة وبعد ترى رأيك فأنا عبدك ؛ فركن بابك إلى كلام ابن سنباط وأقام في حصنه . فكتب ابن سنباط إلى الأفشين يعلمه أن بابك عنده وعبد الله [في حصن] ابن اصطفانوس[5] أخوه جميعاً عندي في الحصن . فكتب إليه الأفشين : إن كان هذا صحيحاً فلك عندي وعند أمير المؤمنين ما تريد ؛ ووصف الأفشين صفة بابك لرجل من خاصته ووجه به إلى ابن سنباط ، وكتب إليه يعلمه أنه قد وجه برجل يحب أن يرى بابك ؛ فقال للرجل : ليس يمكن أن تراه إلا في الوقت الذي يكون فيه منكباً على طعامه للغداء ، فإذا رأيتنا قد طلبنا الغداء فالبس ثياب الطباخين الذين معنا على هيئتنا فتفقد منه على ما تريد . ففعل ذلك ، فرفع بابك رأسه فأنكره وقال : من هذا الرجل ؟ فقال ابن سنباط : هذا رجل نصراني من أهل خراسان منقطع إلينا منذ كذا وكذا سنة ؛ فقال بابك : لم طاب لك المقام ههنا ؟ قال : تزوجت . قال: صدقت،

---

(١) وبعد نفاد زاده خرج مما يلي طريقاً بعيداً عن العسكر لبعده عن الماء ، وقد خرج هو وأمه وامرأة له ، فلاحقهم العسكر فأفلت هو وغلام له وأخذت المرأتان . (انظر الطبري ٤٦/٩ ـ ٤٧) .

(٢) زيادة عن الطبري ٤٧/٩ .

(٣) في الطبري : ليس بيني وبين السلطان عمل .

(٤) الطبري : بقضيتي وبلدي .

(٥) عن الطبري ٤٨/٩ وبالأصل « اصطفاوس » .

يقول المثل[1] : من أين أنت ؟ فيقول : من حيث امرأتي .

ثم رجع إلى الأفشين ووصف له ما رأى ، فوجه الأفشين أبا سعيد وبوزباره إلى ابن سنباط وكتب معهما إليه [وأمرهما ألا يخالفا ابن سنباط فيما يشير به -][2] ففعلا ذلك . فكتب ابن سنباط إليهما بالمقام في موضع ذكره لهما ، وأنفذ إليهما بالميرة الكثيرة[3] . ثم إنه قال لبابك : أنت مغموم في هذا الحصن ، وههنا واد طيب ، فلو خرجنا إليه ومعنا باز وباشق نتفرج إلى وقت الغداء في الصيد ؟ فقال بابك : إذا شئت فافعل ذلك . قال : وكتب ابن سنباط إلى أبي سعيد وبوزباره يعلمهما بذلك وبما قد عزم عليه ، ويأمرهما أن يوافياه واحد من ذا الجانب والآخر من الجانب الآخر بعسكريهما ، وركبا بالغداة وواعدهما إلى موضع كذا وكذا ؛ فأنزلا وأخذا بابك فجاءة .

فلما نظر بابك إليهما وأحدقت به العساكر قالا له : انزل ! قال : ومن أنتما ؟ فقال أحدهما : أنا أبو سعيد ، والآخر : بوزباره . فقال : نعم ، فثنى رجله ونزل ، ونظر إلى ابن سنباط فشتمه وقال : بعتني ليهودي بالشيء اليسير ، لو أردت لأعطيتك أضعافه ؛ فقال أبو سعيد : فاركب إذاً ، فحملوه إلى الأفشين وعليه دراعة بيضاء وخف قصير . فلما وقف بين يدي الأفشين حبسه مع أخيه في بيت واحد[4] . وكان وصول بابك إلى الأفشين ببرزند ، وذلك لعشر خلون من شوال سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

وكان المعتصم قد أوقف على كل رأس فرسخ من سامرا إلى معسكر الأفشين فرساً مضمراً يحمل الثوب إليه وكانت الخريطة تصل إليه في أربعة أيام أو أقل من الأفشين إلى سامرا . ولقد قالوا : لما قدم الأفشين على المعتصم ببابك تلقاه هارون بن المعتصم وأهل بيته[5] ، وأراد أن يشهره ويريه للناس . فقال : على أيّ شيء يحمل هذا وكيف يشهر ؟ فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ! لا شيء أشهر من

---

(١) الطبري : إذا قيل للرجل . . . .

(٢) زيادة عن الطبري .

(٣) الطبري : بالميرة والزاد .

(٤) وكان الإفشين ، بعد أخبر بمكان عبد الله أخي بابك ، قد كتب إلى ابن اصطفانوس أن يوجه إليه بعبد الله ، فوجه به ابن اصطفانوس إلى الإفشين (انظر الطبري ٩/٥١) .

(٥) وقد استقبلوه عند قناطر حُذيفة . ولما صار الإفشين ببابك إلى سامرا أنزله الإفشين في قصره بالمطيرة .

الفيل ، قال : صدقت ، وأمر بتصنع[1] الفيل كعادته ، وحمل بابك عليه في قباء ديباج وقلنسوة سمور ؛ فقال محمد بن عبد الملك الزيات في ذلك :

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمل سلطان خراسانِ
والفيل لا تخضب أعضاؤه ... إلا لذي شأن من الشان

فلما دخل إلى المعتصم من باب العامة أمر أن يحضر سياف بابك ـ وكان اسمه نورنون[2] ـ فحضر، فأمر أن يقطع يدي بابك ورجليه ، فقطعهما فسقط ، فأمر بذبحه ، وشق بطنه واحتز رأسه ووجه به إلى خراسان ، وصلب بدنه بسامرا عند العقبة .

وأمر المعتصم لسهل بن سنباط بألف ألف درهم وتاج البطرقة ومنطقة مغرقة بالجوهر ، ولابنه معاوية بمائة ألف درهم . وكان يعطي لأفشين كل يوم يحارب فيه عشرة آلاف درهم سوى الأرزاق والأموال والمعاون ، وفي كل يوم لم يركب فيه خمسة آلاف درهم . ثم إن المعتصم توّج الأفشين وألبسه وشاحين بالجواهر ووصله[3] . وكانت مدة قتاله سنتين وخمسة أشهر وأياماً[4] ـ والله أعلم ـ .

ولقد كانت مدة خلافته[5] مثل مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه ، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة ، وكانت وفاته بسامرا في القصر المهذب[6] ، وصلى عليه أحمد بن محمد بن [أبي][7] إسحاق المعتصم بالله ـ وهو المستعين بالله ـ ، وكنيته أبو

---

(١) الطبري : بتهيئة الفيل .

(٢) في الطبري ٥٣/٩ نودنود .

(٣) وصله بعشرين ألف ألف درهم ، منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها في عسكره .

(٤) كان المعتصم قد عقد للإفشين خيذر بن كاوس على الجبال ووجه به لحرب بابك وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ٢٢٠ وكان أسر بابك ... ثم إن وصوله إلى الإفشين ببرزند لعشر خلون من شوال سنة ٢٢٢ (انظر الطبري) .

(٥) كذا بالأصل ، والظاهر أن سقطاً وقع في الأصل لأن العبارة التالية تتعلق بخلافة المنتصر .
وانظر مدة خلافة المعتصم في مروج الذهب ٥٤/٤ الطبري ٧/١١ اليعقوبي ٤٧٨/٢ .

(٦) في الطبري ٢٥٤/٩ القصر المحدث وفيه مات المنتصر سنة ٢٤٨ وكانت مدته ستة أشهر سواء .
وفي مقدار عمره أقوال : في مروج الذهب ١٥٣/٤ : خمساً وعشرين سنة ، وفي العقد الفريد والوافي بالوفيات : ستاً وعشرين سنة .

(٧) زيادة اقتضاها السياق .

العباس[1] ؛ ودفن في موضع يقال له الجوسق . وصار الأمر من بعده إلى المستعين بالله ، ثم خلع نفسه بعد ثلاث سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً[2] فهذا آخر الفتوح .

والله أعلم وأحكم[3] .

---

(۱) الطبري : أبو جعفر .

(۲) في مروج الذهب : كانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وقيل : ثلاث سنين وتسعة أشهر .

(۳) بعده في الأصل : « تم الجزء الثاني من فتوح ابن أعثم الكندي على التمام والكمال ، على يد أضعف عباد الله تعالى محمد بن علي بن محمد الطنبذي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . وكان الفراغ من تعليقه في يوم الاثنين المبارك خامس عشر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وثمانمئة . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

فهرس الجزء السابع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرست الجزء الثامن

الموضوع ـــــ الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

